الطبعة الخامسة
الأكثر مبيعًا
The Looming Tower
Al Qaeda and the Road to 9/11
البروج المشيدة
القاعدة و الطريق إلى 11 سبتمبر
لورانس رايت
حائز على
جائزة بوليتزر

تشمل مؤلفات لورانس رايت الأخرى:

God's Favorite

Twins

Remembering Satan

Saints and Sinners

In the New World

City Children, Country Summer

twitter @baghdad_library

البروج المشيدة

القاعدة والطريق إلى ١١ سبتمبر

حاصل على جائزة بوليتزر

تأليف: لورانس رايت

ترجمة: هبة نجيب مغربي
مراجعة: مجدي عبد الواحد عنبة

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

كلمات

البروج المشيدة
القاعدة والطريق إلى ١١ سبتمبر

لورانس رايت

The Looming Tower
Al-Qaeda and the Road to 9/11

Lawrence Wright

الطبعة الرابعة ٢٠١٣م
رقم إيداع ٢٠٠٨/٩٧٩٩

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

رايت، لورانس
البروج المشيدة: القاعدة والطريق إلى ١١ سبتمبر / لورانس رايت . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨
٥٩٢ص، ١٦,٠X٢٣,٠سم
تدمك: ٢ ٠٩ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الولايات المتحدة الامريكية
٢- الارهاب
أ- العنوان

٩٧٣

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2008-2013 by Kalimat Arabia
The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11.
Copyright © 2006 by Lawrence Wright.
This translation published by arrangement with Alfred A. Knopf,
a division of Random House, Inc.
All Rights Reserved.

twitter @baghdad_library

المحتويات

نبذة عن المؤلف	١٣
المقدمة	١٥
١- الشهيد	٢١
٢- الرجل الثاني	٥١
٣- المؤسس	٨١
٤- التحول	١٠٩
٥- حرب المعجزات	١٢٧
٦- القاعدة	١٥٣
٧- عودة البطل	١٧٩
٨- الفردوس	١٩٩
٩- وادي السليكون	٢١٥
١٠- الفردوس المفقود	٢٢٩
١١- أمير الظلام	٢٤٧
١٢- الجواسيس الصغار	٢٥٩
١٣- الهجرة	٢٧١
١٤- العمل الميداني	٢٨٥
١٥- خبز وماء	٢٩٥
١٦- وبدأت اللعبة	٣١٣
١٧- الألفية الجديدة	٣٤١
١٨- الانفجار	٣٥٧
١٩- العرس الكبير	٣٩٥

٢٠- تجلي الحقائق	٤٢٩
الشخصيات الرئيسية	٤٤٣
المصادر	٤٥٧
المراجع	٥٣٩
مقابلات المؤلف الشخصية	٥٤٩
شكر وتقدير وملاحظات على المصادر	٥٥٧
مصادر الصور	٥٦٩

twitter @baghdad_library

إهداء إلى عائلتي روبرتا وكارولين وجوردون وكارن

twitter @baghdad_library

البحـر الأسود
تركيـــا
جورجيا
ارمينيا
بحر قزوين
أذربيجان
البحـر الأبيض المتوسط
لبنـان
اسرائيل
تل أبيب
سوريا
دمشق
عمان
القدس
الأردن
القاهرة
مصـــر
العراق
بغداد
طهران
إيـران
الكويت
البحرين
الخليج العربي
قطـر
الإمارات
المدينة
الرياض
جدة
مكة
بور سودان
البحر الأحمر
المملكة العربية السعودية
السودان
الخرطوم
اريتريا
اليمـن
حضرموت
عدن
خليج عدن
جيبوتي
أثيوبيا
عمـان

twitter @baghdad_library

مقدمة الطبعة العربية

في عام ١٩٦٩م، وصلت إلى مصر لتدريس اللغة الإنجليزية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. كنت معارضًا حي الضمير، بمعنى أنني رفضت الخدمة في الجيش في أثناء تورط أمريكا في حرب فيتنام، ولكن كان علي أن أمنح بلدي عامين من الخدمة المفيدة عوضًا عن هذا. وهذا هو ما جاء بي إلى العالم العربي.

لم أكن أعلم الكثير عن المنطقة حينذاك، وللأمانة لم أكن واثقًا أنه بإمكاني تحديد مكان القاهرة على خريطة العالم، مع أنها تقع على خط العرض نفسه حيث مسقط رأسي مدينة دالاس بولاية تكساس. ولم أكن أعلم أنه لا توجد علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة ومصر في ذلك الوقت. ولم يكن بالدولة بأكملها سوى بضع مئات من الأمريكيين، وكانت الجامعة تجاهد لإيجاد معلمين للإيفاء باحتياجاتها. فقد كانت مصر في ظل حكم عبد الناصر متحيزة أكثر للاتحاد السوفيتي من الغرب، وبالطبع لم يكن ذلك بالوقت الأمثل ليزور فيه شاب أمريكي ساذج بلد لا يعرف عنه تقريبًا أي شيء، بلد لا يفهم لغته وتمثل له ثقافته ودينه لغزًا.

ومع ذلك، فقد كانت تجربتي في مصر واحدة من أسعد فترات حياتي وأكثرها نفعًا. ومع أن حكومتينا كانتا على خلاف، فقد كان الشعب المصري رحب الصدر للأمريكيين. غادرت مصر في عام ١٩٧١م وبصدري شغف كبير بها، وإحساس بأنها، رغم عبء الأمية والفقر، كانت على طريق أن تصبح دولة ديموقراطية ناجحة ومزدهرة. ويعتبر هذا الكتاب، إلى حد ما، تحليلًا لسبب خطأ استنتاجي هذا. فقد كانت هناك قوى تمارس عملها بالفعل في المجتمع المصري ولم أدرك وجودها في ذلك الوقت. لقد تحولت ثورة عبد الناصر إلى طريق سياسي واقتصادي مسدود، وأخمد الطابع العسكري الذي فُرض على المجتمع المعارضة وخنق محاولات الإصلاح. وكان الإسلام السياسي نتيجة حتمية لفشل الليبرالية وعار الهزائم التي ألحقتها إسرائيل

بالعالم العربي، والتدمير العمد للبدائل السياسية المقبولة. ولطالما تمنيت لو أنني كنت على دراية أكبر بالاضطراب الذي كان يموج أسفل ما بدى أنه بحر هادئ في ذلك الوقت.

لقد كتبت هذا الكتاب كي أطلع نفسي، ثم قرائي الأمريكيين، على التفكير والأحداث التي أدت إلى هجمات ١١ سبتمبر/أيلول. وقد تفاجأت وسررت لرؤية الكتاب وقد حاز قاعدة عريضة من القراء، وترجم إلى أكثر من عشرين لغة، والآن إلى اللغة العربية التي أعجبت بها منذ أن جاهدت أول مرة لتعلمها قبل وقت طويل للغاية في السنوات التي قضيتها في الجامعة الأمريكية في القاهرة. وإنه لشرف أن أرى كتابي في لغة بهذا الثراء وهذه الدقة، وأشعر بالتواضع والحماسة لهذه الفرصة كي أصل إلى القراء العرب، الذين أتمنى أن يتقبلوا محاولتي أن أخبرهم بقصتهم.

استغرق إنتاج هذا الكتاب ما يقرب من خمس سنوات، حاورت فيها أكثر من ستمائة شخص، وتحدثت إلى كثير منهم عشرات المرات. وقد كانت هناك لحظات صعبة، بل ربما خطيرة، في عملية إجراء البحث، ولكني دائمًا ما كنت أعامل باحترام. وسيستطيع بعض مصادري الآن قراءة هذا للمرة الأولى، وأريد أن أشكرهم مرة أخرى على رحابة صدرهم.

أدين بشكر خاص لزملائي العرب في مجال الإعلام، وقد ذكرت كثيرًا منهم في الشكر والتقدير. وفي أثناء إجراء البحث، تسنت لي فرصة العمل في الصحافة العربية مستشارًا للصحفيين الشباب السعوديين في جدة، مسقط رأس أسامة بن لادن. وقد جعلني هذا مقدرًا للعقبات الخاصة التي يواجهها الصحفيون في المنطقة. إن مهنة الصحافة ولا شك جهد غير كامل، ولكنها أيضًا ضرورية في خلق مجتمعات عادلة ومسئولة. وأود أن أهدي هذا العمل في طبعته العربية إلى هؤلاء الصحفيين الذين يجاهدون من أجل مستقبل أكثر تسامحًا وأقل قمعًا.

twitter @baghdad_library

نبذة عن المؤلف

تخرج لورانس رايت في جامعة تيولاين وقضى عامين يمارس مهنة التدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في مصر. ويعمل لورانس رايت محررًا في مجلة ذا نيويوركر، وهو أيضًا زميل مركز القانون والأمن بكلية الحقوق جامعة نيويورك. ولورانس رايت هو مؤلف خمسة أعمال غير قصصية: City Children, Country Summer وIn the New World وSaints and Sinners وRemembering Satan وTwins. وهو أيضًا مؤلف رواية God's Favorite وشارك في كتابة فيلم The Siege. يعيش لورانس رايت وزوجته في مدينة أوستن بتكساس منذ أمد بعيد.

وكتابا لورانس رايت Remembering Satan وSaints and Sinners متوفران لدى شركة فينتاج للنشر.

يصدر هذا الكتاب وبين دفتيه ست عشرة صفحة من الصور بالإضافة إلى خريطة.

الصور على الغلاف: أسامة بن لادن وصور الستة عشر عضوًا في تنظيم القاعدة: حقوق النشر محفوظة لوكالة أنباء رويترز/شركة كوربس.

twitter @baghdad_library

المقدمة

في يوم الاحتفال بعيد القديس باتريك، قاد دانيال كولمان Daniel Coleman، وهو عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI في نيويورك المسئول عن التعامل مع قضايا المخابرات الأجنبية، سيارته إلى منطقة تايسون كورنر في فيرجينيا لاستلام منصبه الجديد. وكانت أرصفة المشاة لا تزال مدفونة تحت أكوام الثلوج المتراكمة إثر تعرض البلاد لعاصفة ثلجية عنيفة قبل أسابيع قليلة من عام ١٩٩٦م. دخل كولمان إلى برج مكاتب حكومية غير مميز يُطلق عليه مبنى جلوستر، وخرج من المصعد في الطابق الخامس حيث يوجد أحد مكاتب وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA الذي يطلق عليه أليك ستيشن Alec Station.

توجد مكاتب المخابرات الأمريكية الأخرى في الدول المختلفة التي تغطيها، وقد كان أليك ستيشن أول مكتب «فعلي» يقع على بعد أميال قليلة فقط من مبنى المقر الرئيسي في لانجلي. وعلى أحد المخططات التي توضح الهيكل التنظيمي كان أليك ستيشن يحمل اسم مكتب «مصادر تمويل الإرهاب»، وهو قسم فرعي من مركز مكافحة الإرهاب التابع للمخابرات الأمريكية، ولكنه في الواقع كان مكرسًا بالكامل لتعقب نشاطات رجل واحد فقط هو أسامة بن لادن الذي ذاع صيته بصفته أكبر ممول للإرهاب. وكان كولمان قد سمع عنه للمرة الأولى في عام ١٩٩٣م عندما تحدث مصدر أجنبي عن «أمير سعودي» يدعم خلية من الإسلاميين المتطرفين الذين كانوا يخططون لتفجير معالم نيويورك البارزة، بما في ذلك مبنى الأمم المتحدة ونفقي لينكولن وهولاند وحتى مبنى مكتب التحقيقات الفيدرالي الكائن في ٢٦ ساحة فيدرال بلازا حيث يعمل كولمان. وفي ذلك الوقت، بعد ثلاث سنوات، وجد المكتب أخيرًا وقتًا ليرسله ليدرس المعلومات الاستخباراتية التي جمعتها المخابرات ليرى ما إذا كان هناك سبب يستدعي متابعة التحقيقات.

وقد كان لدى أليك ستيشن بالفعل خمسة وثلاثون سجلًا من المعلومات عن بن لادن، تتكون بصفة أساسية من نسخ من نصوص مكالمات هاتفية التقطتها أجهزة التنصت التي زرعتها وكالة الأمن القومي. ولكن كولمان وجد أن تلك المعلومات متكررة وغير قاطعة. ومع ذلك، فقد فتح ملف قضية استخباراتية عن بن لادن لتكون في المقام الأول إجراءً إحتياطيًا إذا اتضح أن «الممول الإسلامي» أكثر من مجرد ممول.

وعلى غرار العديد من العملاء، كان كولمان قد تدرب لخوض غمار الحرب الباردة. وقد انضم إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي ليعمل موظف سجلات عام ١٩٧٣م، ولأنه كان واسع المعرفة والاطلاع ومحبًّا للبحث، فقد انجذب بطبيعة الحال إلى عالم مكافحة الجاسوسية. وفي ثمانينيات القرن العشرين، ركز جهوده على تجنيد جواسيس شيوعيين في مجتمع الدبلوماسيين الكبير المحيط بالأمم المتحدة الزاخرة بالعناصر البشرية، وقد كان تجنيد ملحق دبلوماسي من ألمانيا الشرقية من أعظم انتصاراته. ولكنه في عام ١٩٩٠م، عند انتهاء الحرب الباردة، وجد نفسه في فرقة مختصة بالتعامل مع الإرهاب في الشرق الأوسط. ولم يكن هناك الكثير في خلفية كولمان مما يؤهله للاضطلاع بهذا الدور الجديد، ولكن كان ذلك ينطبق على مكتب التحقيقات الفيدرالي بالكامل الذي اعتبر أن الإرهاب مصدر إزعاج وليس تهديدًا حقيقيًا. وقد كان من الصعب في تلك الأيام الهادئة بعد انهيار سور برلين، أن يصدق أحد أن أمريكا لا تزال تواجه أعداء حقيقيين.

وبعد ذلك في أغسطس/آب عام ١٩٩٦م، أعلن بن لادن الحرب على أمريكا من كهف في أفغانستان. وقد كان السبب المعلن لذلك هو استمرار وجود القوات الأمريكية في المملكة العربية السعودية بعد خمس سنوات بعد انتهاء حرب الخليج الأولى. وقال بن لادن في بيانه: «إن إرهابنا لكم، وأنتم تحملون السلاح على أرضنا، هو أمر واجب شرعًا ومطلوب عقلًا.» وقد خوَّل بن لادن نفسه سلطة التحدث بالنيابة عن المسلمين كافة، بل وجه جزءًا من فتواه الطويلة إلى وزير الدفاع الأمريكي في ذلك الوقت ويليام بيري William Perry شخصيًّا قائلًا: «وأقول لك يا ويليام إن هؤلاء الشباب يحبون الموت كما تحبون الحياة ... وهؤلاء الشباب لن يسألوك تفسيرًا، وسيكون العتاب لكم على لسان كل واحد منهم يقول: ليس بيني وبينكم من عتاب سوى طعن الكلى وضرب الرقاب.»

twitter @baghdad_library

وباستثناء كولمان، كان هناك القليلون فقط في أمريكا، حتى في مكتب التحقيقات الفيدرالي، يعرفون بأمر المنشق السعودي أو يهتمون به. وقد رسمت المعلومات في السجلات الخمسة والثلاثين التي جمعها أليك ستيشن صورة لرجل ملياردير ينتمي إلى عائلة كبيرة لها نفوذ وتربطها علاقات وثيقة بالأسرة المالكة السعودية يتخيل نفسه في دور منقذ البشرية، ذاع صيته في أثناء الجهاد في أفغانستان ضد الاحتلال السوفيتي. وكان كولمان قد قرأ ما يكفي من التاريخ ليفهم الإشارات في صرخة الجهاد التي أطلقها بن لادن إلى الحملات الصليبية والصراعات الأولى للإسلام. وفي الواقع، كان من بين أكثر السمات المذهلة للوثيقة هي أن الزمن يبدو كأنه قد توقف منذ ألف عام، فالزمن إما هذه اللحظة أو تلك، ولا يوجد شيء بينهما. وبدت الحملات الصليبية كأنها لا تزال مستمرة في العالم الذي يعيش فيه بن لادن، وكان من الصعب على كولمان أن يستوعب مدى الغضب الذي يشعر به، فكان يتساءل في قرارة نفسه: ماذا فعلنا له؟

عرض كولمان نص فتوى بن لادن على مدعين من مكتب المدعي العام الأمريكي للمنطقة الجنوبية من نيويورك. لقد كان غريبًا ومثيرًا للضحك، ولكن هل يعد جريمة؟ وقد شعر المحامون بحيرة شديدة من لغة البيان ولم يجدوا أمامهم سوى قانون من النادر الاستناد إليه عن التحريض على المؤامرات وضع في أثناء الحرب الأهلية يمنع التحريض على العنف ومحاولة الإطاحة بالحكومة الأمريكية، وقد كان من النادر الاستناد إليه. وقد بدا من المبالغ فيه التفكير في إمكانية تطبيقه على سعودي بلا وطن أو جنسية يعيش في كهف في تورا بورا. ولكن على أساس هذه الحادثة الهزيلة، فتح كولمان ملفًا جنائيًا للشخص الذي سيصبح أكثر شخص مطلوب في تاريخ مكتب التحقيقات الفيدرالي، وكان لا يزال يعمل بمفرده تمامًا.

وبعد بضعة أشهر، في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٩٦م، سافر كولمان إلى قاعدة عسكرية أمريكية في ألمانيا ومعه مدعيان أمريكيان هما: كينيث كاراس Kenneth Karas، وباتريك فيتزجيرالد Patrick Fitzgerald. وهناك في منزل آمن كان ينتظرهم واش سوداني شديد العصبية اسمه جمال الفضل ادعى أنه عمل لدى بن لادن في الخرطوم. حمل كولمان معه كتيبًا يضم معلومات موجزة وصورًا لبعض أعوان بن لادن المعروفين، وسريعًا ما تعرف الفضل على معظمهم. لقد كان الفضل يبيع قصة، وكان من الواضح أنه يعرف أبطالها جيدًا، ولكن المشكلة أنه ظل يكذب على المحققين ويبالغ في قصته، ويصور نفسه بطلًا كل ما يريده هو فعل الصواب.

فسأله المدعيان: «لماذا تركته؟»

فأجاب الفضل أنه يحب أمريكا، فقد عاش في بروكلين ويتحدث الإنجليزية، ثم قال إنه هرب حتى يستطيع تأليف كتاب يحقق أعلى المبيعات. وكان شديد التوتر والعصبية حتى إنه كان يجد صعوبة في الثبات في مكانه، وكان من الواضح أن لديه المزيد من المعلومات. وقد استغرق الأمر عدة أيام طويلة كي يتمكن المحققون من جعله يكف عن اختلاق القصص ويعترف بأنه هرب ومعه أكثر من مائة ألف دولار من نقود بن لادن. وعندما اعترف بذلك، أجهش في البكاء. وشكل ذلك الاعتراف نقطة تحول في مسار التحقيق، فقد وافق الفضل على أن يصبح شاهدًا للحكومة إذا ما جرت المحاكمة في يوم من الأيام، ولكن بدا ذلك بعيد الاحتمال لأن التهم التي توصل إليها المدعيان ضعيفة.

بعد ذلك، بادر الفضل بالتحدث عن تنظيم يطلق عليه القاعدة. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها أحد الموجودين معه في الغرفة ذلك الاسم. فـأخذ يصف لهم معسكرات التدريب والخلايا النائمة، وتحدث عن اهتمام بن لادن بالحصول على أسلحة نووية وكيميائية. وقال: إن القاعدة هي المسئولة عن تفجيرات عام ١٩٩٢م في اليمن وعن تدريب المتمردين الذين أسقطوا الطائرات الهليكوبتر الأمريكية في الصومال في العام نفسه. وأعطاهم بعض الأسماء ورسم لهم مخططًا لهيكل التنظيم، وقد صُعق المحققون من القصة التي يرويها. ولمدة ست أو سبع ساعات يوميًا على مدار أسبوعين، كان المحققون يراجعون التفاصيل مرارًا وتكرارًا ويختبرون إجاباته ليروا ما إذا كان ثابتًا على إجابات متناسقة. وفي الواقع، لم تختلف روايته قط.

وعندما عاد كولمان إلى مكتب التحقيقات، لم يُبد أحد اهتمامًا خاصًا بما توصلوا إليه. لقد وافقوه على أن شهادة الفضل مروعة، ولكن كيف يتأكدون من صحة شهادة لص وكاذب؟ بالإضافة إلى ذلك، فقد كان لدى المكتب قضايا عاجلة أهم.

ولمدة عام ونصف العام، استمر كولمان في تحقيقه في قضية بن لادن بمفرده. ولأنه قد عُيِّن في أليك ستيشن، فقد نسي مكتب التحقيقات أمره تقريبًا. وباستخدام المعلومات التي توصل إليها بالتنصت على شركات بن لادن، تمكن كولمان من رسم خريطة لشبكة القاعدة المنتشرة في جميع أنحاء الشرق الأوسط وأفريقيا وأوروبا وآسيا الوسطى. وشعر بقلق عارم عندما أدرك أن كثيرًا ممن تربطهم علاقات بالقاعدة تربطهم علاقات بالولايات المتحدة الأمريكية أيضًا، وتوصل من ذلك إلى أنها منظمة إرهابية عالمية كرست نفسها لتدمير أمريكا، ولكن لم يتمكن كولمان حتى من أن يجعل رؤساءه يجيبون على مكالماته الهاتفية المتعلقة بهذا الشأن.

twitter @baghdad_library

وهكذا، وجد كولمان نفسه وحيدًا يحاول إيجاد إجابات للأسئلة التي ستتطرق إلى أذهان الجميع فيما بعد: من أين جاءت تلك الحركة؟ لماذا اختارت أن تهاجم أمريكا؟ وماذا نفعل لكي نوقفها؟ لقد كان كولمان مثل تقني معملي يتفحص شريحة تحمل فيروسًا لم يره أحد من قبل. وتحت المجهر، بدأت الصفات الفتاكة للقاعدة تكشف عن وجهها. لقد كانت جماعة صغيرة، فعدد أفرادها لم يكن يتجاوز ثلاثة وتسعين عضوًا فقط في ذلك الوقت، ولكنها كانت جزءًا من حركة متطرفة أكبر كانت تجتاح الإسلام لا سيما في العالم العربي، واحتمال انتشارها كبير للغاية. وكان الرجال الذين كونوا تلك الجماعة رجال معارك أشداء ومدربين، ويمتلكون على ما يبدو موارد هائلة، إلى جانب أنهم متفانون في سبيل قضيتهم بصورة متعصبة، ومقتنعون بأنهم سينتصرون. وقد جمعت بينهم فلسفة قوية ومؤثرة للغاية حتى إنهم على أتم استعداد، بل ولهفة أيضًا، للتضحية بحياتهم من أجلها، ولكن في الطريق كانوا يسعون لقتل أكبر عدد ممكن من الأشخاص.

غير أن أخطر جانب في ذلك التهديد الجديد، فهو أن لا أحد تقريبًا كان يأخذه على محمل الجد. لقد كان الأمر غريبًا وبدائيًّا للغاية، ومثيرًا للدهشة أيضًا. وفي مواجهة الثقة التي وضعها الأمريكيون في العصرية والتكنولوجيا وفي مُثُلهم كي تحميهم من خطى التاريخ الوحشية؛ بدت إشارات بن لادن وأتباعه سخيفة، بل مثيرة للشفقة أيضًا. ولكن تنظيم القاعدة لم يكن صنيعة شبه الجزيرة العربية وهي لا تزال تعيش في القرن السابع، فقد تعلم استخدام الأدوات الحديثة والأفكار العصرية، وهو الأمر الذي لا يثير أية دهشة إذ إن قصة القاعدة قد بدأت في الواقع في أمريكا منذ عهد غير بعيد.

twitter @baghdad_library

الفصل الأول

الشهيد

في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٤٨م داخل حجرة خاصة في الدرجة الأولى بباخرة متجهة إلى نيويورك من ميناء الإسكندرية المصري، جلس سيد قطب، كاتب ومعلم ضئيل الجسم في منتصف العمر، يعاني صراعًا داخليًّا يقض مضجعه إذ كان يتساءل في قرارة نفسه: «أأذهب إلى أمريكا وأسير فيها سير المبتعثين العاديين الذين يكتفون بالأكل والنوم، أم لا بد من التميز بسمات معينة؟ وهل غير الإسلام والتمسك بآدابه والالتزام بمناهجه في الحياة وسط اللمعان المترف المزود بكل وسائل الشهوة واللذة والحرام؟» ثم تطلع إلى الأفق ورأى العالم الجديد يلوح أمامه بكل ثرائه وحريته مزدانًا برداء النصر الذي ارتداه بعد انتهاء الحرب، ومن ورائه تقف مصر غارقة في دموعها ترتدي ثيابها البالية التي تداعى عليها الزمن. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يغادر فيها هذا الشاب المصري بلده، وقد غادرها رغمًا عنه.

كان هذا الرجل الأعزب الصلب هزيل الجسم أسمر البشرة ذا جبهة بارزة عريضة، وشارب لا يزيد طوله عن عرض أنفه يشبه فرشاة الرسم، تنم عيناه عن طبيعة متعجرفة وشديدة الحساسية. وكان دائمًا يثير فيمن حوله إحساسًا بالأجواء الرسمية؛ فيرتدي حلة داكنة اللون من ثلاث قطع، مع أن حرارة الشمس في مصر حارقة. ومن منظور رجل يعتز بكرامته وشموخه بشدة، فقد بدت فكرة العودة للجلوس في الفصل مثل الطلاب وهو في الثانية والأربعين من عمره كأنها تحط من شأنه، لا سيما أنه قد تخطى بالفعل الهدف المتواضع الذي وضعه لنفسه عندما كان طفلًا في قرية صغيرة في صعيد مصر لا تزال منازلها تُبنى من الطين، بأن يصبح موظفًا مدنيًّا محترمًا في الحكومة. وقد جعلته كتاباته النقدية الاجتماعية والأدبية واحدًا من أشهر الكتاب في بلده، ونجحت أيضًا في إشعال غضب الملك فاروق، ملك

مصر المنغمس في الملذات، فأصدر أمرًا بالقبض عليه. ولكن أصدقاؤه من ذوي النفوذ والمتعاطفون معه قاموا بترتيب عملية رحيله من البلاد سريعًا.

وفي ذلك الوقت، كان قطب يشغل مركزًا مرموقًا مفتشًا في وزارة المعارف. أما عن ميوله السياسية، فقد كان مصريًّا متحمسًا معتزًّا بوطنيته ومعاديًا للفكر الشيوعي، وقد وضعه هذا الفكر مع الاتجاه السائد في الطبقة المتوسطة البيروقراطية التي تمثل شريحة عريضة من المجتمع المصري. ولم تكن آنذاك الأفكار التي ستتمخض عما يُطلق عليه الأصولية الإسلامية قد تكونت في ذهنه بعد، بل لقد قال فيما بعد: إنه لم يكن شديد التدين قبل أن يبدأ رحلته، مع أنه قد حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره، وكانت كتاباته قد اتخذت حديثًا منحنى تجاه أفكار محافظة بقدر أكبر. وعلى غرار الكثير من بني وطنه، فقد تحول إلى الاتجاه المتطرف بسبب الاحتلال البريطاني، وكان يشعر بالازدراء تجاه تعاون الملك الفاسق فاروق معهم. وكانت مصر آنذاك تموج بالاحتجاجات المعادية للاحتلال البريطاني، وكانت الأحزاب السياسية تحرض على إخراج القوات الأجنبية من البلاد، وربما إبعاد الملك أيضًا. أما ما جعل قطبًا، هذا الموظف الحكومي العادي غير المميز، يمثل خطورة، فهي تعليقاته الصريحة والقوية. وفي الواقع، لم يصل قطب أبدًا إلى صفوة الأدباء العرب المعاصرين، الشيء الذي آلمه وأحنقه طوال حياته المهنية، إلا أنه كان يتحول، في نظر الحكومة، إلى عدو خطير مثير للإزعاج.

وكان قطب غربيًّا في كثير من الأشياء مثل ملبسه وحبه للموسيقى الكلاسيكية وأفلام هوليوود. وقد قرأ ترجمة أعمال داروين Darwin وآينشتاين Einstein وبايرون Byron وشيلي Shelley، وكان مغرمًا بالأدب الفرنسي، لا سيما أدب فيكتور هوجو Victor Hugo. ومع ذلك فقد كان قلقًا، حتى قبل رحلته هذه، من الاجتياح الحضاري الشامل للغرب. فعلى الرغم من أنه كان واسع المعرفة والاطلاع، فقد كان يرى الغرب بأكمله على أنه كيان ثقافي وحضاري واحد. ولم يكن التمييز بين الرأسمالية والماركسية، والمسيحية واليهودية، والفاشية والديمقراطية، يعني شيئًا في مقابل التمييز بين كيانين منفصلين تمامًا: الإسلام والشرق من جهة، والغرب المسيحي من جهة أخرى.

أما أمريكا، فقد كانت بمنأى عن المغامرات الاستعمارية التي ميزت علاقة أوروبا بالعالم العربي. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، أسهمت أمريكا في توسيع الفجوة السياسية بين المستعمِرين والمستعمَرين. بل لقد كان من المغري أيضًا اعتبار أمريكا أفضل مثال لتحدي الاحتلال؛ فهي أمة رزحت تحت نير الاستعمار ثم تمكنت من

twitter @baghdad_library

التخلص من محتليها، بل تفوقت عليهم أيضًا. وكان يبدو أن قوة أمريكا تكمن في قيمها وليس في الأفكار الأوروبية عن التفوق الثقافي أو سمو الجنس والطبقات. ونظرًا لأن أمريكا قد أعلنت عن نفسها على أنها أمة من المهاجرين، فقد كانت لها علاقات جيدة مع باقي دول العالم. وكان العرب، مثل غيرهم من الشعوب الأخرى، قد نجحوا في تكوين الجاليات الخاصة بهم داخل أمريكا، وجعلتهم صلات القربى أقرب إلى المثل والقيم التي كانت أمريكا تزعم أنها تمثلها.

ولذلك، فقد تلقى قطب، على غرار الكثير من العرب، صدمة شديدة وشعر بالخيانة عندما رأى دعم الحكومة الأمريكية للقضية الصهيونية بعد أن وضعت الحرب أوزارها. وفي الوقت الذي كان قطب يبحر فيه من ميناء الإسكندرية، كانت مصر ومعها جيوش خمس دول عربية أخرى في المراحل النهائية من خسارة الحرب التي أدت إلى ميلاد الدولة اليهودية في قلب العالم العربي. وقد تلقى العرب صدمة صاعقة، ليس فقط من عزيمة ومهارة المقاتلين الإسرائيليين، ولكن أيضًا من عدم كفاءة الجيوش العربية، والقرارات غير الحكيمة التي اتخذها قادتهم وأدت إلى كوارث. ولقد كان لعار تلك التجربة تأثير في تشكيل الفكر العربي أعمق من تأثير أي من الأحداث الأخرى في التاريخ الحديث. وقد كتب قطب بعد أن وافق الرئيس الأمريكي هاري ترومان Harry Truman على نقل مائة ألف لاجئ يهودي إلى فلسطين: «كم ذا أكره أولئك الغربيين وأحتقرهم! كلهم جميعًا بلا استثناء: الإنجليز، والفرنسيين، والهولنديين، وأخيرًا الأمريكان الذين كانوا موضع ثقة من الكثيرين.»

عرف سيد قطب الحب، ولكنه لم يذق منه سوى آلامه. وقد ألف رواية عن قصة حب فاشلة تكاد تصف حاله، وبعد ذلك تخلى عن فكرة الزواج تمامًا، وقال: إنه لم يعثر على الزوجة المناسبة بين هؤلاء «غير المحترمات» اللائي سمحن لأنفسهن بالظهور في الأماكن العامة. وبسبب موقفه هذا ظل وحيدًا دون أنيس وهو في مرحلة منتصف العمر. ولكن هذا لا يعني أنه كان يكره النساء، فقد كان مقربًا من شقيقاته الثلاث، ولكن كانت العلاقات الجنسية هي ما يخيفه، لذا فقد نأى بنفسه عن هذه العلاقات في استهجان، وهو يرى أن الجنس عمومًا هو العدو الأساسي لكل من يتطلع إلى ثواب الآخرة والنجاة من النار.

أما أقرب علاقة إلى قلبه، فقد كانت علاقته بوالدته فاطمة التي كانت امرأة غير متعلمة ولكنها تقية ومتدينة. وقد أرسلت فاطمة ابنها الذي كان ناضجًا بما

يسبق سنه إلى القاهرة ليتعلم هناك. وقد توفي والده عام ١٩٣٣م، عندما كان قطب في السابعة والعشرين من عمره. وفي السنوات الثلاث التالية، عمل قطب مدرسًا في عدد من مراكز القرى الصغيرة، حتى نُقِل إلى حلوان، وهي ضاحية مزدهرة من ضواحي القاهرة، وأحضر باقي أفراد أسرته ليعيشوا معه هناك. ولكن لم تشعر أمه التي كانت محافظة بشدة بطبعها بالارتياح التام في المسكن الجديد؛ فقد كانت دائمًا متحفزة وقلقة من التأثير الأجنبي الذي كان يزحف على البلاد الذي بدا واضحًا في حلوان أكثر من القرية الصغيرة التي جاءت منها. ومن المؤكد أن ذلك التأثير كان واضحًا أيضًا على ابنها المثقف.

وفي حين كان سيد قطب يصلي في غرفته الخاصة بالباخرة، لم يكن قد استقر بعد على الطريق الذي سيسلكه في الخارج؛ هل يعيش مثل «باقي الطلاب» أم يسعى «للتميز»؟ هل يقاوم تلك الإغراءات أم ينغمس فيها؟ هل يتمسك بتعاليم دينه بشدة أم يلقي بها جانبًا ويحتضن الغرب بكل ماديته وخطاياه؟ وعلى غرار كل من يترك بلده ويسافر، كان قطب يقوم برحلتين في الوقت نفسه: الأولى خارجية إلى العالم الرحب، والأخرى داخلية إلى أعماق نفسه. وبعد تفكير، حسم قطب الصراع الداخلي قائلًا: «وأردت أن أكون المسلم الملتزم»، ثم عاد ليفكر ثانية: «هل أنا صادق فيما اتجهت إليه أم هو مجرد خاطرة؟»

وهنا قاطعت أفكاره طرقات على باب غرفته، وعندما فتح الباب وجد أمامه فتاة، وصفها هو فيما بعد بأنها كانت فارعة الطول وهيفاء و«شبه عارية». سألته الفتاة باللغة الإنجليزية: «هل يسمح لي سيدي بأن أكون ضيفة عليه هذه الليلة؟» فأجابها قائلًا: إن الغرفة بها فراش واحد فقط، ولكنها قالت: «كثيرًا ما يتسع الفراش الواحد لاثنين!» ففزع قطب من الإجابة وأغلق الباب في وجهها على الفور، وقال بعد ذلك: «وسمعت ارتطامها بالأرض الخشبية في الممر، فقد كانت مخمورة. فحمدت الله على الفور إذ انتصرت على نفسي وتمسكت بأخلاقي!»

محترم ومعتز بكرامته وكبريائه ومعذب وصالح في عين نفسه ... هذا هو الرجل الذي ستزعزع عبقريته استقرار الإسلام، وتهدد الحكومات في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وتجذب جيلًا من شباب العرب الذين يشعرون بالغربة والذين كانوا يبحثون عن معنى وهدف لحياتهم وسيجدونهما بعد ذلك في الجهاد.

twitter @baghdad_library

وصل قطب إلى ميناء نيويورك في منتصف أكثر موسم أعياد مزدهر شهدته البلاد. ففي أثناء الطفرة الاقتصادية التي سادت البلاد بعد الحرب، كان الجميع يجنون الكثير من الأموال: مزارعو البطاطس في ولاية إيداهو، ومصنعو السيارات في ولاية ديترويت، والمصرفيون في وول ستريت. وقد بثت هذه الثروة موجة من الثقة في النموذج الرأسمالي، الذي تعرض لاختبار قاس في أثناء الكساد الذي تعرضت له البلاد منذ عهد قريب. وكان من الواضح أن البطالة ليس لها مكان في أمريكا، فقد كانت معدلات البطالة رسميًّا أقل من ٤٪، ولكن عمليًّا كان كل من يحتاج إلى عمل يحصل عليه بسُهولة، وكانت نصف ثروة العالم تقريبًا في أيدٍ أمريكية.

ومما لا شك فيه أن الفرق الشاسع بين العالم الذي شاهده قطب في القاهرة وبين العالم الذي رآه آنذاك كان مريرًا وهو يتجول في شوارع مدينة نيويورك الواسعة التي تضيئها أنوار الاحتفالات بالأعياد، ويرى نوافذ المحلات الفخمة المليئة بالأدوات والأجهزة، مثل أجهزة التليفزيون والغسالات، التي كان قد سمع عنها فقط. وكانت المعجزات التكنولوجية تبدو واضحة في كل قسم من أقسام المحلات بكثرة تَشُدَهُ العقول. وأبراج المكاتب الجديدة والوحدات السكنية تملأ الفراغ في سماء مانهاتن بين مبنى إمباير استيت ومبنى كريزلر. أما في وسط المدينة والضواحي الخارجية، فقد كان هناك الكثير من المشروعات الضخمة تحت الإنشاء لتوفير مساكن لحشود المهاجرين.

وقد كان من المناسب تمامًا في هذا الجو البهيج والمفعم بالثقة وغير المسبوق في تنوع الثقافات، أن يرتفع الرمز الواضح للنظام العالمي الجديد: مقر الأمم المتحدة الذي يطل على نهر إيست ريفر. لقد كانت الأمم المتحدة أقوى تعبير عن النزعة الدولية الحازمة التي خلفتها الحرب، إلا أن المدينة نفسها كانت تجسيدًا حيًّا لأحلام الانسجام والتآلف العالمي أبلغ بكثير مما يمكن أن تعبر عنه أية فكرة أو مؤسسة. لقد كان العالم كله يصب في مدينة نيويورك التي أصبحت مركز القوة والمال والطاقة الثقافية المتحولة. فقد كان في المدينة نحو مليون شخص روسي، ونصف مليون أيرلندي ومثلهم من الألمان، هذا إلى جانب الأعداد الضخمة من أبناء جزيرة بورتريكو وجمهورية الدومنيكان وبولندا، بالإضافة إلى العمالة الصينية التي لا تحصى والتي دخلت البلاد على الأرجح بصورة غير شرعية ووجدت في تلك المدينة ترحيبًا وملجأً. وقد ارتفع عدد السكان السود في المدينة بنسبة ٥٠٪ في ثماني سنوات فقط ليصل إلى ٧٠٠ ألف شخص، وكانوا لاجئين أيضًا هاربين من العنصرية في

الجنوب الأمريكي. وقد كان ربع سكان مدينة نيويورك البالغ عددهم ثمانية ملايين نسمة من اليهود، والكثير منهم جاء إلى المدينة هربًا من الكارثة الأوروبية الأخيرة. فكانت الحروف العبرية تغطي لافتات المحال والمصانع في الجزء الجنوبي الشرقي من مانهاتن وكانت اللغة اليدية، وهي لغة يهود الاتحاد السوفييتي وبلدان أوروبا الوسطى التي تكتب بأحرف عبرية، تتردد كثيرًا في الشوارع. ومن المؤكد أن ذلك مثل تحديًا كبيرًا للرجل المصري الذي كان يكره اليهود بشدة، ولكنه لم يقابل يومًا أحدًا منهم حتى غادر وطنه. وبالنسبة لكثير من سكان نيويورك، وربما معظمهم، فقد كان الظلم الاقتصادي والسياسي جزءًا من تراثهم، وقد منحتهم هذه المدينة مأوى ومكانًا يعيشون فيه ويعملون ويكسبون قوت يومهم ويربون أولادهم ويبدءون من جديد. لذا، فقد كان الأمل هو الشعور الذي يملأ المدينة المفعمة بالحيوية، على عكس القاهرة التي غيمت سحابة اليأس على سمائها.

وفي الوقت نفسه، كانت نيويورك بائسة — مزدحمة ومضطربة ويغلب عليها طابع المنافسة والعبث والتهور، وتنتشر فيها لافتات تحمل عبارة «لا توجد أماكن شاغرة» وكان السكارى النائمون يسدون مداخل الأبنية، ويطوف النشالون والقوادون ميادين وسط المدينة تحت الأنوار الخافتة للمسارح الهزلية. أما في الأحياء الفقيرة، فقد كانت النُّزل الرخيصة تعرض أَسِرَّة للمبيت مقابل عشرين سنتًا في الليلة. وكانت الشوارع الجانبية المظلمة الكئيبة شبكات متصلة من حبال الغسيل، وعصابات المجرمين العتاة من الخارجين على القانون تطوف الشوارع الجانبية كالكلاب الضالة. وبالنسبة لرجل لا يعرف سوى مبادئ اللغة الإنجليزية، كانت المدينة تحف بمخاطر غير مألوفة، وجعلت طبيعة قطب المتحفظة التواصلَ مع الآخرين أمرًا أكثر صعوبة. فاستبد به الحنين إلى بلده، فكتب لصديق له في القاهرة يقول: «هنا الغربة، الغربة الحقيقية. غربة النفس والفكر. غربة الروح والجسد. هنا في تلك الورشة الضخمة التي يدعونها العالم الجديد.» وكتب إلى صديق آخر يقول: «ما أحوجني هنا لمن أبادله حديثًا بحديث، في غير موضوع الدولارات ونجوم السينما وماركات السيارات ... حديثًا في شئون الإنسان والفكر والروح.»

بعد يومين من وصول قطب إلى أمريكا، نزل هو وأحد معارفه المصريين في أحد الفنادق. يقول قطب عن ذلك الموقف: «وقد أنس إلينا عامل المصعد الزنجي لأننا أقرب إلى لونه.» وعرض عليهما العامل أن يساعدهما في الحصول على بعض «الترفيه»، فيقول قطب: «ويذكر عينات من هذا الترفيه بما فيها الشذوذات. وفي أثناء

twitter @baghdad_library

العرض جعل يقص علينا أنه كثيرًا ما يكون في إحدى الحجرات زوج من الفتيان أو الفتيات. ثم يطلبان إليه أن يدخل إليهما بعض زجاجات الكوكاكولا دون تغيير وضعهما عند دخوله. فسألناه: أما يخجلان؟ فأجاب بدوره متعجبًا: لماذا؟ إنهما يرضيان ميولهما الخاصة، ويمتعان أنفسهما.»

وهذه التجربة، بالإضافة إلى كثير من التجارب الأخرى، أكدت وجهة نظر قطب بأن الاختلاط بين الجنسين يقود ولا شك إلى الانحراف الجنسي في النهاية. وكانت أمريكا نفسها قد لتوها تلقت صدمة شديدة بسبب تقرير علمي طويل نشره ألفريد كينسي Alfred Kinsey وزملاؤه من جامعة إنديانا يحمل عنوان «السلوك الجنسي لدى الرجل» Sexual Behavior in the Human Male. وقد أطاح البحث المكون من ثمانمائة صفحة والمليء بالإحصائيات المذهلة والتعليقات المضحكة ببقايا الاحتشام الفيكتوري لدى الشعب الأمريكي. فلقد أظهرت تلك الإحصائيات أن ٣٧٪ من الرجال الأمريكيين الذين أجري عليهم البحث قد مارسوا اللواط حتى الوصول إلى هزة الجماع، ونصفهم تقريبًا مارسوا الجنس مع نساء غير زوجاتهم، و٦٩٪ منهم دفعوا نقودًا لعاهرات ليطارحوهن الغرام. لقد عكست المرآة التي رفعها كينسي أمام أمريكا بلدًا شهوانيًّا يسير وراء غريزته ولكنه أيضًا يشعر بالحيرة والخجل من نفسه، وهو عاجز وجاهل بصورة مذهلة. ومع أن هناك أدلة على تنوع الأنشطة الجنسية وتكرارها، فقد كانت الأمور الجنسية في ذلك الوقت في أمريكا من المناطق المحرمة التي لا يناقشها أحد، ولا حتى الأطباء. وقد أجرى أحد الباحثين الذين اشتركوا مع كينسي في بحثه لقاءات مع ألف زوج وزوجة أمريكيين لم ينجبوا أطفالًا ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن سبب عدم الإنجاب؛ في حين أن الزوجات كن لا يزلن عذارى.

كان قطب يعلم بأمر ذلك البحث وقد أشار إليه فيما بعد في كتاباته ليوضح وجهة نظره عن الشعب الأمريكي وهي أنهم لا يختلفون كثيرًا عن البهائم، فيصفهم بأنهم: «القطيع الهائج الهائم، لا يعرف له وجهة غير اللذة والمال.» وكان من المتوقع ارتفاع نسبة الطلاق ارتفاعًا شديدًا في مثل هذا المجتمع، حيث إنه، على حد قول قطب: «كلما لمح زوج أو لمحت زوجة بارقة لامعة في شخصية جديدة، انفلت هؤلاء إلى صيد جديد، كما لو كان الزوج أو كانت الزوجة موضة جديدة في عالم الرغبات.» وقد كان صدى مشاعره الهائجة المضطربة بسبب الصراع بداخله يتردد بشدة في نقده اللاذع وهو يقول: «وتتطلع إليك الفتاة كأنها الجنية المسحورة أو الحوراء الهاربة. لكن ما إن تقترب منك حتى تحس فيها الغريزة الصارخة وحدها مجردة

من كل إشعاع، وحتى تشم رائحة الجسد المحترق لا نكهة العطر الفواح. ثم تنتهي إلى لحم، مجرد لحم، لحم شهي حقًّا، ولكنه لحم على كل حال.»

لقد عادت هذه الحرب على أمريكا بالنصر ولكن ليس بالأمان. فقد شعر الكثير من الأمريكيين أنهم قد هزموا عدوًّا شموليًا واحدًا فقط ليواجهوا آخر أقوى بكثير وأكثر مكرًا وغدرًا من الفاشية الأوروبية. وحذر المبشر الشاب بيلي جراهام Billy Graham من أن «الشيوعية تزحف بلا رحمة أو هوادة إلى هذه الأرض الفقيرة، إلى الصين التي مزقتها الحروب، ثم إلى أمريكا الجنوبية التي لا تتوقف فيها الاضطرابات، وإذا لم ينقذ الدين المسيحي هذه الأمم من بين براثن الكفر، فسينتهي الأمر بأمريكا وحيدة ومعزولة في هذا العالم.»

كانت الحرب على الشيوعية تنطلق داخل أمريكا أيضًا حيث كان الرئيس المكيافيلي لمكتب التحقيقات الفيدرالي جون إدجار هوفر J. Edgar Hoover يدعي أن واحدًا من بين ١٨١٤ شخصًا في أمريكا شيوعيًّا. وقد بدأ مكتب التحقيقات تحت إدارته يكرس نفسه بالكامل تقريبًا لاكتشاف أية أدلة على محاولات تخريبية. وعندما وصل قطب إلى نيويورك، كانت لجنة التحقيق في الأنشطة العدائية التابعة لمجلس النواب قد بدأت في الاستماع إلى شهادة محرر كبير في مجلة تايم اسمه ويتكر تشامبرز Whittaker Chambers. شهد تشامبرز أنه كان جزءًا من خلية شيوعية يرأسها ألجر هيس Alger Hiss وهو مسئول سابق في إدارة الرئيس ترومان الذي كان أحد منظمي عمل الأمم المتحدة، وكان وقتها رئيسًا لمؤسسة كارنيجي للسلام العالمي Carnegie Endowment for International Peace. وقد استحوذت جلسات الاستماع هذه على اهتمام البلد بالكامل، الأمر الذي جعل المخاوف من أن الشيوعيين يتربصون بالمدن والضواحي في خلايا نائمة أقربَ إلى الواقع. وقد أكد المدعي العام الأمريكي توم كلارك Tom Clarke ذلك قائلًا: «إنهم في كل مكان؛ في المصانع والمكاتب والمحال التجارية وزوايا الشوارع وفي الشركات الخاصة، وكل منهم يحمل معه الجراثيم التي ستقتل المجتمع.» فشعرت أمريكا أنها ليست فقط على وشك خسارة نظامها السياسي ولكن ميراثها الديني أيضًا. فقد كان الإلحاد من السمات الأساسية التي تميز التهديد الشيوعي، لذا فقد كان رد فعل الشعب غريزيًّا لإحساسهم أن المسيحية تتعرض للتهديد. وقد كتب بيلي جراهام بعد بضع سنوات: «إما أن تختفي الشيوعية أو تختفي المسيحية؛ فالأمر في حقيقته ما هو إلا معركة بين المسيح والمسيح الدجال.»

twitter @baghdad_library

وقد كان ذلك الشعور يعبر عن عاطفة الغالبية العظمى من الأمريكيين المسيحيين في ذلك الوقت.

لاحظ قطب الهاجس الذي بدأ يسيطر على السياسة الأمريكية. وقد كان هو أيضًا معاديًا للشيوعية لأسباب مماثلة، وفي الواقع كان الشيوعيون أكثر نشاطًا وتأثيرًا في مصر عنهم في أمريكا. وقد كتب قطب قبل ذهابه إلى أمريكا بعام واحد متوقعًا المعادلة الصارمة نفسها التي توقعها جراهام: «إننا إما نسير في طريق الإسلام أو في طريق الشيوعية.» وفي الوقت نفسه، فقد رأى في حزب لينين نموذجًا للسياسة الإسلامية في المستقبل، وهي السياسة التي سيضع أسسها بنفسه.

وفي رؤية قطب التحليلية الانفعالية فإنه لا يوجد فارق كبير بين النظامين الشيوعي والرأسمالي، حيث إن الاثنين، في رأيه، يُعنيان بالاحتياجات المادية الإنسانية ولا يهتمان بإشباع احتياجات الروح. وتنبأ بأنه بمجرد أن يفقد العامل العادي توقعاته الحالمة بالثراء، سوف تتحول أمريكا ولا شك إلى الشيوعية، وستعجز المسيحية عن صد هذا الاتجاه، حيث إنها توجد فقط في عالم الروح، أو كما يقول قطب: «مثل رؤية في عالم مثالي خالص». أما الإسلام، من ناحية أخرى، فهو «نظام كامل» له قوانينه ودستوره الاجتماعي وقواعده الاقتصادية ونظام الحكم الخاص به. الإسلام وحده هو القادر على تقديم التركيبة السحرية لإقامة المجتمع العادل المتدين. ومن ثم سيكشف الصراع الحقيقي عن وجهه: إنها ليست معركة بين الرأسمالية والشيوعية ولكن معركة بين الإسلام والمادية، ومن المحتم أن ينتصر الإسلام في النهاية.

ولا شك أن الصدام بين الإسلام والغرب كان بعيدًا عن أذهان معظم سكان نيويورك في موسم الأعياد عام ١٩٤٨م. لكن على الرغم من الثروة الجديدة التي تتدفق على المدينة، بالإضافة إلى موجة الثقة بالنفس التي جلبها النصر، فقد كان هناك قلق عارم على المستقبل. وقد كتب إي. بي. وايت E. B. White في إحدى مقالاته في ذلك الصيف: «لقد أصبحت هذه المدينة لأول مرة في تاريخها الطويل عرضة للتدمير. فمن الممكن أن يقوم سرب طائرات لا يتعدى حجمه حجم سرب من الإوز بتدمير هذه الجزيرة وحرق أبراجها وتقويض جسورها وتحويل أنفاقها إلى مقابر جماعية وحرق جثث الملايين من سكانها. ففي عقل أي شرير فاسد يحيد عن طريق الصواب، لا بد أن نيويورك لها سحر لا يقاوم.» وقد كتب وايت هذا المقال ونحن نقف على أعتاب العصر النووي حين كان الإحساس بالضعف والعرضة للخطر شيئًا جديدًا.

بعد بداية العام الجديد بوقت قصير، انتقل قطب للعيش في واشنطن حيث درس الإنجليزية في كلية ويلسون للمعلمين.[1] وقد قال في إحدى رسائله عن الحياة في واشنطن: «إن الحياة في واشنطن جيدة، خاصة أني أعيش بالقرب من المكتبة وأصدقائي.» وكان يتلقى راتبًا جيدًا من الحكومة المصرية، فقد كتب ذات مرة: «من الممكن أن يعيش الطالب العادي بمائة وثمانين دولارًا شهريًّا، أما أنا فأنفق ما بين مائتين وخمسين إلى مائتين وثمانين دولارًا شهريًّا.»

ومع أن قطبًا جاء من قرية صغيرة في صعيد مصر، فإنه وجد في أمريكا، على حد قوله: «البدائية التي تذكر بعهود الغابات والكهوف.» فقد كانت الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية مليئة بثرثرة وأحاديث سطحية لا جدوى منها. ومع أن المتاحف الفنية والحفلات الموسيقية كانت تعج بالزوار، فقد كانوا يذهبون إليها ليس لمشاهدة الآثار الفنية أو الاستماع إلى الموسيقى، ولكن بدافع رغبة نرجسية ملحة بداخلهم في أن يراهم الآخرون ويستمعوا إليهم. وقد استخلص قطب أيضًا من الوقت الذي قضاه هناك أن الأمريكيين بصفة عامة بعيدون كل البعد عن أصول الرسميات. فها هو يكتب لصديق له في القاهرة، فيقول: «أمامي وأنا أكتب إليك هذه الكلمات في مطعم، شاب أمريكي على صدر قميصه ضبع باللون البرتقالي الفاقع بدلًا من رباط عنقه، ويجثم على ظهره فيل كحلي بدلًا من صدريته. هذا هو الذوق الأمريكي الغالب في الألوان. والموسيقى! وإن لذلك حديثًا آخر ليس وقته الآن.» وقد اشتكى أيضًا من الطعام قائلًا: «أما الطعوم فشأنها هو الآخر عجيب» وأورد حادثة في كافتيريا الكلية، فقد رأى سيدة أمريكية تضع ملحًا على البطيخ، فأخبرها مداعبًا بمكر: إن المصريين يفضلون أن يضعوا عليه الفلفل، ويقول: «وجربت وذاقت وقالت في استحسان: كم هو لذيذ. وفي اليوم التالي، أخبرتها أن بعضنا في مصر يفضل السكر أحيانًا، وقد وجدت هذا لذيذًا أيضًا.» واعتاد أيضًا أن يشكو ويتذمر من قصات الشعر، فيقول: «وما من مرة حلقت شعري هناك إلا وعدت إلى البيت لأسوي بيدي ما شعث الحلاق.»

وفي فبراير/شباط عام ١٩٤٩م، دخل قطب إلى مستشفى جامعة جورج واشنطن لإجراء عملية استئصال اللوزتين. وهناك صدمته إحدى المرضات حين أخذت تعدد له الصفات والخصال التي تريد أن تكون في حبيبها. وكان قد فرض بالفعل نوعًا

[1] دُمِجَت كلية ويلسون للمعلمين مع ثلاث كليات أخرى لتكوين جامعة مقاطعة كولومبيا في عام ١٩٧٧م.

twitter @baghdad_library

من السلوك الدفاعي في مواجهة السلوك المتوقع من المرأة الأمريكية التي، على حد تعبيره: «تعرف جيدًا مواضع فتنتها الجسدية: تعرفها في الوجه، وفي العيون المثيرة، والشفاه الممتلئة، وفي الصدر البارز، والردف الممتلئ، والساق الملساء. وترتدي الألوان الزاهية التي توقظ بها الغريزة البدائية التي لا تخفي شيئًا، ثم تضيف إلى هذا كله الضحكة المثيرة والنظرة الجريئة.» وبالطبع، لنا أن نتخيل كيف كان هدفًا لا يقاوم للمضايقات الجنسية.

وفي الثاني عشر من فبراير/شباط، وصلت أنباء عن اغتيال حسن البنا، المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، في القاهرة. ويروي قطب أنه كان هناك هرج ومرج في الشارع خارج المستشفى، فسأل عن أسباب الاحتفالات، فأخبره الأطباء: «اليوم قتل عدو المسيحية في الشرق. لقد اغتيل حسن البنا.» ومن الصعب أن يصدق أحد أن الأمريكيين في عام ١٩٤٩م كانوا مهتمين بالسياسة المصرية لدرجة الابتهاج لمقتل البنا. وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز بالفعل خبر مصرعه، وجاء فيها أيضًا: «لقد كان أتباع الشيخ حسن مخلصين له بشدة، وقد صرح الكثير منهم أنه وحده قادر على إنقاذ العالم العربي والإسلامي.» ولكن في نظر قطب الذي كان يرقد على فراش المرض في بلد غريب وبعيد، فقد كانت هذه الأخبار صدمة شديدة له. فمع أنهما لم يلتقيا أبدًا، فقد عرف كل منهما الآخر من سمعته. وكان لا يفرق بينهما في العمر سوى أيام قليلة من شهر أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٠٦م، والتحقا، في أوقات مختلفة، بالكلية نفسها، وهي كلية دار العلوم في القاهرة. وعلى غرار قطب، فقد كان البنا ناضج الفكر بما يسبق سنه، وكان يتمتع بشخصية ساحرة، ولكنه كان رجل أفعال أيضًا؛ فقد أسس جماعة الإخوان المسلمين في عام ١٩٢٨م بهدف تحويل مصر إلى دولة إسلامية. وفي غضون سنوات قليلة، انتشر الإخوان في جميع أنحاء مصر ثم في العالم العربي يغرسون بذور الثورة الإسلامية القادمة.

أخمد صوت البنا في الوقت الذي نُشِر فيه كتاب قطب «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، وهو الكتاب الذي صنع اسمه كمفكر إسلامي كبير. ولقد نأى قطب بنفسه تمامًا عن الجماعة التي أنشأها البنا، مع أنه كان يميل إلى آراء مشابهة حول الاعتماد على الإسلام في الحكم والسياسة، ولكن موت معاصره ومنافسه الفكري مهد الطريق أمامه لكي ينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين. وكانت هذه نقطة تحول كبيرة في حياة قطب وفي مصير الجماعة أيضًا. ولكن في ذلك الوقت الحافل بالأحداث، كان الوريث الشرعي لقيادة حركة إحياء النهضة الإسلامية وحيدًا مريضًا بعيدًا عن وطنه وغريبًا لا يعرفه أحد.

وفي أثناء ذلك، لم يمر وجود قطب في واشنطن مرور الكرام. فذات ليلة، استضافه هيورث-دن James Heyworth-Dunne، وهو مستشرق بريطاني اعتنق الإسلام، وتحدث إليه الأخير عن خطر جماعة الإخوان المسلمين التي تحول دون تحديث العالم الإسلامي. وقد قيل إنه قال لقطب: «إذا ما نجح الإخوان في الوصول إلى الحكم، فلن تتقدم مصر أبدًا، وستقف عائقًا في وجه الحضارة.» ثم عرض عليه أن يترجم كتابه الجديد إلى الإنجليزية ويدفع له في المقابل عشرة آلاف دولار، وهو بالطبع مبلغ خيالي مقابل هذا الكتاب المغمور، إلا أن قطبًا رفض العرض. وبعد ذلك، استنتج قطب أن هيورث دن كان يحاول تجنيده للعمل لوكالة الاستخبارات الأمريكية. وعلى أية حال، فقد قال: «كنت قد عقدت العزم على الانضمام إلى الإخوان المسلمين حتى قبل أن أغادر منزله.»

وفي صيف عام ١٩٤٩م، انتقل قطب في أثناء تماثله للشفاء إلى مدينة جريلي، وهي مدينة زراعية مزدهرة تقع في ولاية كولورادو إلى شمال شرق مدينة دينفر عاصمة الولاية، وذلك لحضور بعض الدروس في كلية ولاية كولورادو للتربية.[٢] وفي ذلك الوقت، كان صيت تلك الكلية قد ذاع بأنها واحدة من أكثر المؤسسات التعليمية المتخصصة في تدريب المعلمين تقدمًا في أمريكا. وقد كانت الدورات الصيفية تحظى بإقبال شديد من المعلمين من جميع أنحاء البلاد الذين كانوا يحضرون للحصول على درجات علمية متقدمة من الجامعة، والاستمتاع بالجو الجميل والجبال الرائعة القريبة من المدينة. وفي المساء، تقام حفلات موسيقية ومحاضرات وبعض البرامج التعليمية في الأماكن المفتوحة، بالإضافة إلى عروض مسرحية في الحدائق التابعة للكلية. وكانت إدارة الكلية تقيم خيمًا كبيرة لاستيعاب الأعداد المتدفقة من الحاضرين.

قضى قطب ستة أشهر في مدينة جريلي، وهي أطول مدة قضاها في أي من المدن الأمريكية، فقد قدمت له تلك المدينة النقيض التام للتجارب البغيضة التي مر بها في الحياة السريعة في مدينتي نيويورك وواشنطن. وبالفعل، لم يكن هناك الكثير من الأماكن التي من الممكن أن تناسب حسّ قطب الأخلاقي العالي. وقد أُنْشِئت مدينة جريلي عام ١٨٧٠م لكي تكون مدينة يُمنع فيها تناول المسكرات على يد ناثان ميكر

[٢] يطلق عليها الآن جامعة شمال كولورادو.

twitter @baghdad_library

Nathan Meeker المحرر المختص بشئون الزراعة في صحيفة نيويورك تريبيون. وقد عاش ميكر من قبل في جنوب ولاية إلينوي بالقرب من مدينة كايرو عند نقطة التقاء نهري أوهايو والمسيسبي، في الجزء الجنوبي من الولاية الذي يطلق عليه «ليتل إيجيبت». وقد كان ميكر يؤمن أن أعظم الحضارات هي تلك التي تنشأ على ضفاف الأنهار، لذا فقد أسس هذه المدينة في الدلتا الخصبة بين نهري كاش لابودر وساوث بلات. وقد كان ميكر يأمل أن يحول «الصحراء الأمريكية الكبرى» إلى جنة زراعية بالاعتماد على مياه الري، مثلما فعل المصريون القدماء منذ فجر الحضارة. وقد أيد المحرر الذي يعمل معه ميكر في نيويورك تريبيون، واسمه هوراس جريلي Horace Greeley، الفكرة بحماسة شديدة، وأصبحت المدينة التي حملت اسمه فيما بعد واحدة من أشهر المجتمعات العمرانية في الولايات المتحدة.

ولم يكن السكان الأوائل الذين استقروا في جريلي من الشباب الرائد أو المتميز، بل كانوا سكانًا من الطبقة المتوسطة وفي منتصف أعمارهم. وكانوا يسافرون بالقطار وليس بالعربات أو المركبات التي تجرها الخيول، وقد جاءوا إلى المدينة حاملين معهم مبادئهم وقيمهم، وعازمين على بناء مجتمع يصلح نموذجًا للمدن التي ستُبنى في المستقبل، ويضع أسس المبادئ الأخلاقية التي يجب وجودها في كل شخص يستقر في المدينة وهي: الاجتهاد في العمل والاستقامة الأخلاقية والامتناع عن شرب المسكرات. وعلى هذا الأساس، نشأت حضارة نقية ومزدهرة أمرًا مؤكدًا. وبالفعل، في الوقت الذي نزل فيه سيد قطب من القطار، كانت مدينة جريلي أفضل مكان للاستقرار فيه في المنطقة ما بين دينفر إلى شايان.

كانت الحياة الأسرية هي أساس المجتمع في مدينة جريلي ولم تكن هناك حانات أو متاجر لبيع الخمور وبدا أن هناك كنيسة في كل ركن من أركانها. وكانت الجامعة تفخر بوجود واحد من أفضل أقسام الموسيقى في البلاد، وتقيم حفلات موسيقية باستمرار، ومن المؤكد أن قطبًا الذي كان يعشق الموسيقى قد استمتع بها كثيرًا. وفي المساء، كانت مجموعة من أفضل المحاضرين يلقون محاضرات في قاعة الكلية. وكان من ضمن هؤلاء المحاضرين، جيمس ميتشنر James Michener الذي كان قد حصل منذ وقت قريب على جائزة بوليتزر عن روايته «حكايات جنوب المحيط الهادي» Tales of the South Pacific، والذي عاد لإقامة ورشة عمل عن فن الكتابة في الكلية التي تعلم فيها وقام بالتدريس فيها أيضًا من عام ١٩٣٦م إلى عام ١٩٤١م. وهكذا عثر قطب أخيرًا على مجتمع يقدس المبادئ التي يؤمن هو بها: التعليم، والموسيقى

والفن، والأدب والدين. وقد كتب بعد أن وصل إلى جريلي بمدة قصيرة: «وهذه المدينة الصغيرة جريلي التي أقيم فيها الآن، إنها جميلة جميلة. كل بيت كأنه نبتة في حديقة، وكل شارع كأنه طريق في روضة. وتشاهد صاحب كل بيت وصاحبته يقضيان وقت فراغهما في عمل مضن شاق لري الحديقة الخاصة وتشذيبها، وهذا هو كل ما يفعلونه.» لقد أصبح أسلوب الحياة السريع الهائج الذي اعترض عليه قطب في مدينة نيويورك بعيدًا عنه للغاية، فكانت الحياة هادئة وتسير بسلاسة جميلة حتى إن قطبًا يذكر أنه قرأ مقالة كاملة في الصفحة الأولى من صحيفة جريلي تريبيون في ذلك الصيف تعرض بالتفصيل قصة عبور سلحفاة شارعًا في وسط المدينة.

ولكن حتى في جريلي كان ذلك السطح الهادئ يخفي تحته أمواجًا مزعجة سريعًا ما اكتشفها قطب. فعلى بعد ميل إلى الجنوب من الحرم الجامعي، كانت هناك مجموعة صغيرة من الحانات ومخازن الخمر يطلق عليها «جاردن سيتي»، التي تعني بالعربية «مدينة الحديقة»، التي لم تكن خاضعة لقانون منع شرب الكحوليات المعمول به في جريلي. وقد حصلت هذه المدينة على اسمها في أثناء فترة حظر المشروبات الكحولية، حين كان مهربو الكحوليات المحليون يخبئون زجاجات الخمر داخل البطيخ ويبيعونها إلى الطلاب في الكلية، وكلما أقيمت حفلة، ذهب الطلاب إلى «الحديقة» لكي يحصلوا على احتياجاتهم من متطلبات الاحتفال. وقد اندهش قطب من ذلك البون الشاسع بين الالتزام التام والأخلاقيات التي تسود جريلي وبين اللاأخلاقيات التي تسيطر على جاردن سيتي. فكان ينظر بعين الاحتقار لانهيار حركة منع الكحوليات في أمريكا، لأنه رأى فيها فشلًا في المحافظة على الالتزام الروحي بضبط النفس والامتناع عن احتساء الخمور، الذي لا يستطيع أن يفرضه سوى نظام شامل مثل الإسلام.

فتحت أمريكا عيني قطب أيضًا على جانب آخر من نفسه ألا وهو أنه «رجل ملون». ففي إحدى المدن التي زارها (وهو لم يحدد أية مدينة) شاهد جموعًا من المواطنين البيض يضربون رجلًا أسود البشرة، فيقول: «كانوا يضربونه ويركلونه بكعب نعالهم حتى خلطوا عظمه بلحمه على الطريق.» ويستطيع المرء أن يتخيل ما شعر به ذلك المسافر أسمر البشرة من تهديد بسبب لون بشرته. حتى ذلك المجتمع المتحرر في جريلي كان غير مستقر بسبب مخاوف عنصرية؛ فلم يكن هناك الكثير من السكان السود في المدينة. ومعظم السكان الأصليين من الهنود الحمر قد طردوا منها بعد معركة خسرت فيها القوات الأمريكية أربعة عشر خَيَّالًا، وتركت ناثان

twitter @baghdad_library

ميكر، مؤسس مدينة جريلي، قتيلًا بعد أن انتزعت فروة رأسه. وفي العشرينيات، أحضرت عمالة من المكسيك للعمل في الحقول والمجازر. ومع أن اللافتات التي تحظر بقاء المكسيكيين في المدينة بعد حلول الظلام قد اختفت، فكان لا يزال للكنائس الكاثوليكية مدخل خاص منفصل لغير البيض الذين كانوا من المفترض أن يجلسوا في الدور العلوي. وكان الإنجليز يستخدمون الجزء الجنوبي من الحديقة الجميلة الواقعة خلف مبنى المحكمة، في حين أن المواطنين من أمريكا الجنوبية يستخدمون الجزء الشمالي.

كان الطلاب الوافدون من الدول الأخرى للدراسة في الجامعة يعيشون في وضع غير مريح في هذه البيئة التي تسيطر عليها العنصرية. وكان الطلاب من أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا، بالإضافة إلى عدد من الطلاب من هاواي، يمثلون نواة النادي الدولي لتبادل الثقافات بالكلية، الذي انضم إليه قطب. واستضافت الكلية أيضًا جالية صغيرة من الشرق الأوسط، بما في ذلك لاجئين فلسطينيين وصلوا حديثًا وعددًا من أفراد العائلة المالكة العراقية. وغالبًا ما كان أهل المدينة يحسنون معاملة تلك الجاليات، وكانوا يدعونهم إلى منازلهم لتناول الوجبات معهم وقضاء الأعياد. وذات مرة، طُرد قطب وعدد من أصدقائه من إحدى دور العرض لأن مالكه اعتقد أنهم من السود. وعندما قال له أحد أصدقاء قطب: «ولكننا مصريون!»، اعتذر الرجل وعرض عليهم الدخول مرة أخرى، ولكن قطبًا رفض وهو يشعر بالسخط لأن المصريين السود يحق لهم الدخول، في حين أن الأمريكيين السود ليس لهم هذا الحق.

وعلى الرغم من هذا التوتر في المدينة، فقد كان للجامعة موقف تقدمي تجاه قضية العنصرية. ففي أثناء الدورات التدريبية الصيفية، كان الكثير من الطلاب من كليات المعلمين السود في الجنوب يأتون إلى جريلي، ولكن لم يكن هناك سوى طالبين أسودين في أثناء السنة الدراسية العادية، وكان أحدهما جيم ماكليندون Jaime McClendon نجم فريق كرة القدم بالكلية، الذي كان عضوًا أيضًا في النادي الدولي لتبادل الثقافات، وكان يشارك أحد الطلاب الفلسطينيين غرفته. ونظرًا لأن الحلاقين في جريلي كانوا يرفضون التعامل معه، فقد كان عليه أن يسافر إلى مدينة دينفر كل شهر لكي يحلق شعره. ولكن في النهاية، اصطحبه عدد من الطلاب العرب إلى الحلاق المحلي ورفضوا أن يغادروا حتى يقص الحلاق شعر ماكليندون. وقد

كتب قطب بعد ذلك: «العنصرية أنزلت أمريكا من القمة السامقة إلى السفح الهابط، فنزلت إليه وأنزلت البشرية معها كذلك.»

وكان موسم كرة القدم لعام ١٩٤٩م كئيبًا بالنسبة لكلية ولاية كولورادو للتربية. فلم يشارك ماكليندون بسبب الإصابة وخسر الفريق جميع المباريات التي لعبها بما في ذلك هزيمة ساحقة لا تنسى أمام فريق جامعة وايومينج بنتيجة (١٠٣–صفر) لمصلحة الأخير. ولم تكن مشاهدة كرة القدم الأمريكية لقطب سوى تأكيد لوجهة نظره حول بدائية الشعب الأمريكي. فقد كتب: «إن القدم لا تشترك في اللعب، وإنما يحاول كل لاعب أن يخطف الكرة بين يديه، ويجري بها أو يقذف بها إلى الهدف ويحاول لاعبو الفريق الآخر أن يعوقوه بكل وسيلة، بما في ذلك: الضرب في البطن وتهشيم الأذرع والسيقان بكل عنف ... وكل يشجع فريقه: حطم رأسه! دق عنقه!»

وعلى كل حال، فقد كان أكبر خطر يهدد ذلك المصري الوحيد الأعزب هو النساء. فقد كانت مدينة جريلي تعج بالجمال الأنثوي الخلاب، أكثر من معظم المدن الأخرى في الغرب الأمريكي. فهذه المدينة لم يسكنها عمال المناجم أو الصيادون أو عمال السكك الحديدية الذين كانوا يعيشون تقريبًا في عالم بلا نساء، بل سكنها منذ البداية عائلات متعلمة ومثقفة. وقد كان التأثير الأنثوي واضحًا بشدة في المنازل الدافئة المريحة بشرفاتها الواسعة الفسيحة والمحال المرتبة جيدة التنظيم والمدارس العامة الأنيقة والعمارة المنخفضة والمناخ السياسي المتحرر مقارنة بمدن أخرى. ولكن كان أقوى تعبيراته على الإطلاق في الكلية نفسها؛ فقد كان ٤٢٪ تقريبًا من نسبة الطلاب البالغ عددهم ٢١٣٥ طالبًا الذين التحقوا بالجامعة في فصل الخريف الدراسي من السيدات، في حين كانت نسبة التحاق الفتيات بالجامعات الأمريكية لا تتعدى ٣٠٪. ولم تكن هناك أقسام لإدارة الأعمال أو الهندسة، بدلًا من هذا كانت هناك ثلاثة أقسام متخصصة أساسية في الكلية: التربية والموسيقى والمسرح. وكانت فتيات المدينة من دينفر وفينكس وفتيات الريف من المزارع في السهول والفتيات من البلدات الجبلية الصغيرة يتهافتن على الالتحاق بالجامعة بسبب سمعتها الطيبة على مستوى البلاد، وشعورهن بأنهن يمارسن حقهن في المجتمع. وهناك، داخل حرم الكلية. وهناك بين الأبنية الصفراء والحدائق الزاهرة، كانت فتيات الغرب في ذلك الوقت يمثلن الحرية التي لن تتمتع بها معظم السيدات الأمريكيات إلا بعد عقود.

وفي تلك المدينة الغربية المنعزلة، تحرك سيد قطب ليسبق زمنه، فقد كان يتعامل مع نساء يسبقن معظم المعاصرات لهن من حيث تقديرهن لأنفسهن ومكانتهن في

twitter @baghdad_library

المجتمع، ومن ثَمَّ علاقتهن بالرجال. فقد قالت له واحدة من السيدات في الجامعة: «إن مسألة العلاقة الجنسية مسألة بيولوجية بحتة وأنتم، الشرقيون، تعقدون هذه المسألة البسيطة بإدخال العنصر الأخلاقي فيها. فالحصان والفرس، والثور والبقرة، والكبش والنعجة، والديك والفرخة، لا يفكر أحد منها في حكاية الأخلاق هذه وهو يزاول الاتصال الجنسي ولذلك تمضي الحياة سهلة ويسيرة ومريحة.» وكون هذه السيدة كانت تعمل مدرسة جعل هذا الرأي، من وجهة نظر قطب، أكثر خطورة؛ لأنها ستلوث عقلية أجيال من الشباب الصغار بفلسفتها غير الأخلاقية.

بدأ قطب دراسته في فصل الصيف بحضور دورة دراسية في الكتابة باللغة الإنجليزية. وبحلول الخريف، كانت لديه ثقة كافية بلغته الإنجليزية ليحاول دراسة ثلاث دورات دراسية للتخرج في التدريس ودورة في فن الخطابة. وكان قد عقد العزم على أن يتقن اللغة الإنجليزية حيث كان يكن في صدره رغبة لم يبح بها لأحد ألا وهي تأليف كتاب باللغة الإنجليزية. ومن الممكن تقييم مستوى الإنجاز الذي حققه عن طريق دراسة مقال غريب، أو بعبارة أدق، مثير للإزعاج، كتبه تحت عنوان: «العالم صبي عاق» The World Is an Undutiful Boy الذي نُشِر في مجلة الطلاب الأدبية Fulcrum في خريف عام ١٩٤٩م، أي بعد عام واحد من وصول قطب إلى أمريكا. وقد جاء في هذا المقال: «هناك أسطورة قديمة في مصر تقول: إنه عندما خلق إله الحكمة والمعرفة التاريخ أعطاه كتابًا ضخمًا وقلمًا كبيرًا وقال له: اذهب وتجول في هذه الأرض واكتب ملحوظات عن كل شيء تراه أو تسمعه. فنفذ التاريخ ما اقترحه عليه الإله، ومر في أثناء جولته على سيدة جميلة حكيمة تعلم برقة صبيًّا صغيرًا:

فنظر التاريخ إليها بدهشة كبيرة ورفع رأسه إلى السماء وسأل إلهه: «من هذه؟»

فأجابه الإله: «إنها مصر، هذه هي مصر وهذا الصبي الصغير هو العالم ...»

ولماذا يؤمن هؤلاء المصريون القدماء بشدة بهذا الاعتقاد؟ لأنهم كانوا متقدمين للغاية وكانت لديهم حضارة عظيمة قبل أي بلد آخر. لقد كانت مصر في أوج حضارتها عندما كانت الشعوب الأخرى تعيش في الغابات، فمصر هي التي علمت اليونان، واليونان هي التي علمت أوروبا.

ولكن ماذا حدث عندما كبر ذلك الطفل؟

عندما كبر الطفل، نبذ التي علمته، تلك السيدة الطيبة! نبذها بعيدًا وضربها محاولًا قتلها. أنا آسف، ولكن هذا ليس قولًا مجازيًّا، إنها الحقيقة، هذا هو ما حدث بالفعل.

فعندما أتينا إلى هنا (من المفترض إلى الأمم المتحدة) لكي نناشد إنجلترا أن تمنحنا حقوقنا، ساعد العالم إنجلترا على حساب العدالة. وعندما جئنا إلى هنا مرة أخرى لكي نشكو من اليهود، وقف العالم مع اليهود ضد العدالة، وفي أثناء الحرب بين العرب واليهود، ساعد العالم اليهود أيضًا.

يا له من عالم عاق ... يا له من صبي عاق!»

ولقد كان قطب أكبر سنًّا قليلًا من معظم الطلاب الآخرين في الكلية، وكان بطبيعة الحال لا يختلط بهم كثيرًا. وقد نُشِرت صورة له في نشرة الحرم الجامعي وهو يعرض نسخة من أحد كتبه أمام الدكتور ويليام روس William Ross، رئيس الكلية. وقد أشير إلى قطب بأنه «مؤلف مصري شهير» أو «معلم مميز»، لذا فمن المؤكد أنه كان يحظى بتقدير واحترام من قبل زملائه في الكلية، ولكنه كان يتآلف بصورة كبيرة مع الطلاب الأجانب. وفي إحدى الأمسيات، أقام الطلاب العرب أمسية للثقافات العالمية أعدوا فيها الأطباق المحلية في بلادهم، وقد أدى قطب دور المضيف في الحفل، فكان يشرح للطلاب الآخرين مكونات تلك الأطباق. أما خلاف ذلك، فقد كان يقضي الجزء الأكبر من وقته في غرفته يستمع إلى اسطوانات الموسيقى الكلاسيكية من جهاز الفونوغراف.

وكانت الحفلات الراقصة تقام أكثر من مرة في الأسبوع فيرقص الحاضرون البولكا أو الرقصة الرباعية، التي يؤديها الراقصون وهم على شكل مربع، وكانت الكلية تدعو فرقًا شهيرة تعزف موسيقى الـجاز. وقد كانت أغنيتي Some Enchanting Evening وBali Hai من بين أشهر الأغنيات ذلك العام وكلتاهما من المسرحية الموسيقية «جنوب المحيط الهادي» South Pacific التي تستمد أحداثها من قصة ميتشنر سابقة الذكر، ومن المؤكد أن الجميع كانوا يستمعون إلى هاتين الأغنيتين باستمرار في جريلي. وكان ذلك الوقت هو نهاية عهد الفرق الموسيقية الكبيرة، وكانت موسيقى الروك آند رول لا تزال تلوح في الأفق. وقد كتب قطب عن هذا الأمر فيما بعد، وفي هذا الحديث إشارة إلى أنه هو نفسه لم يكن بعيدًا عن استخدام المصطلحات العنصرية: «الجاز هي تلك الموسيقى الأمريكية التي ابتدعها الزنوج لإرضاء ميولهم البدائية ورغبتهم في الضجيج من ناحية ولاستثارة رغباتهم الجنسية من ناحية أخرى. ولا تتم نشوة الأمريكي تمامًا بموسيقى الجاز حتى يصاحبها غناء مثلها صارخ غليظ. وكلما علا ضجيج الآلات والأصوات وطن في الآذان إلى درجة

twitter @baghdad_library

لا تطاق، زاد هياج الجمهور وعلت أصوات الاستحسان وارتفعت الأكف بالتصفيق الحاد المتواصل الذي يكاد يصم الآذان.»

وفي أيام الأحد، كانت الكلية لا تقدم الطعام للطلاب، وكان عليهم أن يتدبروا أمرهم. فكان كثير من الطلاب الأجانب، ومنهم مسلمون مثل قطب، يذهبون في المساء لزيارة إحدى الكنائس التي يتجاوز عددها الخمسين الموجودة في المدينة حيث كانت تقدم الطعام بعد الانتهاء من الطقوس الدينية المسائية، وفي بعض الأحيان تكون هناك بعض الحفلات الراقصة. وقد ذكر قطب ذات مرة إحدى هذه الأمسيات فقال: «وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والأضواء الزرقاء والصفراء، وحمي الرقص على أنغام «الجراموفون»، وسالت الساحة بالأقدام والسيقان العارية، والتفت الأذرع بالخصور والتقت الشفاه والصدور وكان الجو كله غرامًا.» ثم ألقى الأب نظرة فاحصة على المكان ومن في المكان في استحسان، بل وخفت الأضواء قليلًا حتى يكتمل الجو الرومانسي في القاعة. ثم وضع بعد ذلك أغنية بعنوان «ولكن الجو، يا صغيرتي، بارد في الخارج!» Baby, It's Cold Outside وهي أغنية عاطفية من فيلم «ابنة نبتون» Neptune's Daughter للممثلة إستر ويليامز Esther Williams في ذلك الصيف. وينهي قطب وصفه لهذا الموقف ساخرًا: «انتظر الأب حتى رأى خطوات بناته وبنيه تنساب على موسيقى تلك الأغنية المثيرة، وغادر ساحة الرقص تاركًا لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة البريئة.»

وفي شهر ديسمبر/كانون الأول، بدأت نبرة جديدة تتردد في خطابات قطب إلى أصدقائه، فبدأ يتحدث عن «الوَحشة» الجسدية والروحية، وكان آنذاك قد انسحب من جميع الدورات الدراسية التي التحق بها.

قضى سيد قطب ثمانية شهور أخرى بعد ذلك في أمريكا، معظمها في كاليفورنيا. لقد كانت أمريكا التي رآها قطب تختلف اختلافًا كبيرًا عن تلك التي يراها معظم الأمريكيين وعن نظرتهم إلى ثقافتهم. ففي الأدب والأفلام، ولا سيما في تلك الوسيلة الإعلامية الجديدة التليفزيون، كان الأمريكيون يرسمون صورة محددة لأنفسهم وهي أنهم شغوفون بمعرفة المزيد عن العلاقات الجنسية ولكن ليست لديهم خبرة بها، في حين كانت أمريكا التي رآها قطب تشبه كثيرًا تلك الصورة التي رسمها كينسي في بحثه. لقد رأى قطب أرضًا بورًا خربة روحانيًا، مع أن الإيمان بوجود الله كان سائدًا في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، ورأى أنه من السهل أن يُضلَّل المرء بهذا الكم الكبير من الكنائس والكتب الدينية والاحتفالات الدينية، وقد ظلت الحقيقة

القائمة أن المادية هي الإله الحقيقي الذي يؤمن به الأمريكيون. وفي خطاب إلى أحد أصدقائه قال: «شيء واحد لا قيمة له عند الأمريكيين وهو الروح. وإن بحثًا قُدِّمَ للدكتوراه في إحدى جامعاتهم عن أفضل الطرق لغسل الأطباق بدا لهم أهم من الإنجيل أو الدين.» وفي ذلك الوقت، بدأ الكثير من الأمريكيين يتوصلون إلى نتيجة مشابهة، وبدأت فكرة الغربة في الحياة الأمريكية تلقي بظلالها الموحشة على حياة ما بعد الحرب. وفي جوانب كثيرة، جاء تحليل قطب، رغم قسوته، سابقًا لأوانه فقط.

بالطبع لم تعد تلك الرحلة بالثمار التي كان يرجوها أصدقاء قطب في مصر، فبدلًا من أن يعود إليهم وقد ساعدت التجارب التي مر بها هناك على جعله أكثر تحررًا، عاد أكثر تعصبًا. بالإضافة إلى هذا، عندما تُنْشَر آراؤه وانطباعاته المريرة التي كوَّنها عن أمريكا ستسهم بقوة في تشكيل أفكار العرب والمسلمين عن العالم الجديد في الوقت الذي كانوا ينظرون فيه إلى أمريكا ومبادئها بعين التقدير والإجلال.

عاد بداخله بركان غضب ثائر تجاه قضية العنصرية. فقد قال: «إن الرجل الأبيض هو عدونا الأول سواء كان في أوروبا أو كان في أمريكا. إن الرجل الأبيض يدوسنا بقدميه بينما نُحدث أولادنا في المدارس عن حضارته ومبادئه العالمية ومثله السامية ... إننا نغرس في نفوس أبنائنا عاطفة الإعجاب والاحترام للسيد الذي يدوس كرامتنا ويستعبدنا. فلنحاول أن نغرس بدلًا من هذا بذور الكراهية والحقد والانتقام في نفوس هؤلاء الأبناء، ولنعلمهم منذ نعومة أظفارهم أن الرجل الأبيض هو عدو البشرية، وأن عليهم أن يحطموه في أول فرصة تعرض.»

والغريب في الأمر أن الأشخاص الذين عرفوا قطبًا في أمريكا يقولون: إنه بدا كأنه يحب الولايات المتحدة ويتذكرون أنه كان خجولًا ومهذبًا وله ميول سياسية، ولكنه لم يكن متدينًا بصورة واضحة. وبمجرد أن يُقَدَّم إلى أي شخص لا ينسى اسمه قط، ونادرًا ما تفوه بنقد ضد البلد الذي يستضيفه، وربما يرجع ذلك إلى أنه كان يحتفظ بآرائه المزدرية لنفسه حتى يستطيع أن ينشرها بأمان عندما يعود إلى وطنه.

ومن الواضح أن قطبًا لم يكن يكتب عن أمريكا فقط، فقد كان اهتمامه ينصب في المقام الأول على الحداثة؛ فالمبادئ الحديثة مثل العلمانية والعقلانية والديمقراطية والذاتية والفردية واختلاط الجنسين والتسامح والمادية، قد أثرت على الإسلام عن طريق الاستعمار الغربي للدول الإسلامية. وقد رأى قطب أن أمريكا أصبحت تمثل

twitter @baghdad_library

كل ذلك. لقد كان هذا الهجوم على أمريكا موجهًا للمصريين الذين أرادوا أن يطوعوا الإسلام ليتناسب والعالم الحديث. فأراد أن يريهم كيف أن الإسلام لا يتفق على الإطلاق مع العصرية. وقد كان مشروعه غير العادي الذي كانت بذوره لا تزال تنمو في ذهنه هو تقويض البنية السياسية والفلسفية للعصرية بالكامل والعودة بالإسلام إلى جذوره النقية. وفي نظره، كانت هذه حالة توحد مقدس؛ اتحاد كامل بين الله والبشر. فالفصل بين الدين والدنيا، والسياسة والدين، والعلم واللاهوت، والعقل والروح، ما هو إلا تأثير العصرية التي وقع الغرب بين براثنها. ولكن لا يمكن للإسلام الالتزام بهذا الفصل، فقد كان قطب يرى أنه لا يمكن قصر تطبيق الإسلام على جوانب محددة دون التسبب في تدمير العقيدة بالكامل؛ فالإسلام دين شامل ثابت، وهو ختام الكتب السماوية على الأرض. وقد نسي المسلمون هذا في خضم افتتانهم بالغرب، ولن يستطيع المسلمون استعادة مكانتهم الشرعية في أن تسود ثقافتهم العالم إلا باستعادة الإسلام ليكون مركز حياتهم وقوانينهم وحكوماتهم. وهذا هو واجبهم، ليس فقط تجاه أنفسهم ولكن تجاه الله أيضًا.

عاد قطب إلى القاهرة على متن طائرة تابعة لشركة الطيران الأمريكية ترانس وورلد إيرلاينز TWA في العشرين من أغسطس/آب عام ١٩٥٠م، ليجد وطنه قد أصبح أكثر تعصبًا مثله بالضبط. فالفساد الذي كان يدمر البلد من الداخل وحركة الاغتيالات الواسعة والخزي الذي لحق بها بعد الهزيمة في حرب ١٩٤٨م ضد إسرائيل، جعل الحكومة المصرية تحكم دون أن تحظى بتأييد من الشعب وفقًا لأهواء سلطة الاحتلال. ومع أن البريطانيين قد انسحبوا اسميًّا من القاهرة وتركزت قواتهم في منطقة قناة السويس، فقد ظلت يد الاستعمار هي العليا في العاصمة غير المستقرة. وقد كان وجود البريطانيين أنفسهم ملحوظًا في النوادي والفنادق والحانات ودور عرض الأفلام والمطاعم الأوروبية والمتاجر الكبرى في تلك المدينة المتدهورة. وكان الملك التركي البدين فاروق، كما كان شعبه يتهامس عليه، يتجول في أنحاء القاهرة في واحدة من مائتي سيارة حمراء يمتلكها (ولم يكن مسموحًا لأحد بامتلاك سيارات حمراء غيره) يغري، إذا صح القول، الفتيات أو يبحر بأسطول اليخوت الذي يمتلكه إلى نوادي القمار في شواطئ الريفيرا حيث يحطم حدُّ الفسق والمجون اللذين ينغمس فيهما المقاييس التاريخية. وفي غضون ذلك، كانت مقاييس اليأس المعتادة، الفقر والبطالة والأمية والأمراض، ترتفع بصورة خارجة عن السيطرة. وتعاقبت الحكومات المختلفة دون

معنى أو جدوى في الوقت الذي سقطت فيه أسهم البورصة، وهرب المستثمرون الذين تفهموا وضع البلد واقتصادها المترنح فعزفوا عن استثمار أموالهم فيها.

وفي هذه البيئة السياسية الفاسدة، كانت هناك منظمة واحدة فقط هي التي تعمل من أجل صالح الشعب: جماعة الإخوان المسلمين. فقد أنشأ الإخوان المسلمون المستشفيات والمدارس والمصانع وجمعيات الخدمة الاجتماعية الخاصة بهم، بل كوّنوا جيشًا خاصًا بهم ليحارب إلى جانب الجيوش العربية الأخرى في فلسطين. وكان نشاطهم مناهضًا للمجتمع أكثر من كونه مناهضًا للحكومة، وكان ذلك هو هدف الجماعة من الأساس؛ فقد رفض مؤسسها حسن البنا اعتبار جماعته مجرد حزب سياسي، فقد كان الهدف منها أن تكون تحديًا لفكرة السياسة بالكامل. ورفض البنا تمامًا نموذج الحكومات الغربية العلمانية الديمقراطية الذي يتناقض مع فكرته عن الحكم الإسلامي الشامل. وقد كتب ذات مرة: «تقتضي طبيعة الإسلام أنه يجب أن يحكم ولا يُحكَم، وأن يفرض قوانينه على كل الأمم وأن يبسط سلطانه على الكوكب بأكمله.»

وحقيقة أن الإخوان هم من أخذوا على عاتقهم مهمة مقاومة الاحتلال البريطاني كفاحًا منظمًا وفعّالا، منحتها الشرعية في نظر أعضاء الطبقة الدنيا من الطبقة المتوسطة التي تشكل نواة أعضاء الإخوان. وقد حلت الحكومة جماعة الإخوان رسميًا عام ١٩٤٨م بعد مقتل رئيس البوليس البغيض سالم ذكي في أثناء أحداث شغب في كلية الطب في جامعة القاهرة، ولكن كان عدد أعضاء جماعة الإخوان ومؤيديها آنذاك يفوق المليون شخص، في حين كان تعداد سكان مصر بالكامل ثمانية عشر مليون نسمة. ومع أن حركة الإخوان كانت حركة شعبية، فقد كانت منظمة في شكل «أسر» متعاونة تربط بينها علاقات حميمة — خلايا لا يزيد عدد أعضاء كل منها عن خمسة أعضاء؛ مما منحها مرونة وسرية جعل من الصعب كشفها ومن المستحيل التخلص منها.

ولقد كان هناك جانب عنيف سري من جماعة الإخوان المسلمين الذي سيتأصل بشدة بعد ذلك في الحركة الإسلامية؛ فقد تأسس «جهاز سري» داخل الجماعة بموافقة البنا. ومع أن الجزء الأكبر من نشاط الإخوان كان يستهدف البريطانيين ويهود مصر الذين كان عددهم يتقلص بسرعة، فقد كانوا أيضًا وراء تفجير اثنين من دور العرض في القاهرة ومقتل قاضٍ بارز واغتيال عدد من أعضاء الحكومة، إلى جانب عدد من محاولات الاغتيال الفاشلة. وفي الوقت الذي اغتالت فيه الحكومة

twitter @baghdad_library

حسن البنا لحماية نفسها، كان ذلك الجهاز السري يشكل سلطة قوية غير خاضعة للسيطرة داخل الإخوان.

وفي يناير/كانون الثاني من عام ١٩٥٢م، شنت القوات البريطانية هجومًا على ثكنة ضباط شرطة في مدينة الإسماعيلية في منطقة القناة ردًّا على الغارات على قواعدها، وأطلقت النيران مباشرة ومن على مسافة قصيرة على مدار اثنتي عشرة ساعة فقتلت خمسين مجندًا في الشرطة. وبمجرد انتشار الخبر، احتشدت الجماهير الغاضبة في شوارع القاهرة وقامت بحرق الأماكن التي كان البريطانيون يترددون عليها في الماضي وهي نادي سباق الخيل وفندق شيبرد الشهير. وقام المتظاهرون بقيادة أعضاء من الجهاز السري للإخوان المسلمين بتمزيق خراطيم سيارات الإطفاء التي جاءت لتخمد الحرائق، ثم انتقلوا إلى الحي الأوروبي يحرقون كل دار عرض وكازينو وحانة ومطعم في وسط المدينة. وبحلول الصباح، كانت هناك سحابة من الدخان الأسود تغيم على سماء القاهرة فوق الأنقاض تاركة خلفها ٣٠ قتيلًا على الأقل و٧٥٠ مبنى مدمرًا و١٥ ألف شخص بلا عمل و١٢ ألفًا آخرين بلا مأوى، وهكذا قضي على الوجه العالمي للقاهرة.

ولكن كان هناك حدث جديد على وشك الميلاد. ففي يوليو/تموز من ذلك العام، قام مجلس عسكري بقيادة جمال عبد الناصر، وهو ضابط شاب في الجيش المصري يتمتع بشخصية جذابة، بطرد الملك فاروق على متن يخته من البلاد، والاستيلاء على الحكومة التي سقطت في يديه دون مقاومة. ولأول مرة منذ ٢٥٠٠ عام، حكم المصريون وطنهم.

عاد قطب إلى وظيفته القديمة في وزارة المعارف وكذلك إلى منزله القديم في ضاحية حلوان التي كانت يومًا منتجعًا استشفائيًّا مشهورًا بالمياه المشبعة بالكبريت التي تشفي الكثير من الأمراض. وكان يقطن في فيلا من طابقين تقع في شارع واسع لها حديقة أمامية تمتلئ بأشجار الجكرندة، وقد ملأ رفوف حائط كامل في صالون فيلته بمجموعة من ألبومات الموسيقى الكلاسيكية الخاصة به.

وقد شهدت فيلا قطب جزءًا من التخطيط للثورة؛ حيث كان عبد الناصر والمخططون العسكريون للانقلاب يتقابلون هناك للتنسيق مع الإخوان المسلمين. وقد كانت هناك علاقات وثيقة بين عدد من الضباط، ومنهم أنور السادات الذي خلف عبد الناصر في الحكم، والإخوان المسلمين. وكان من المفترض في حالة فشل الانقلاب

أن يساعد الإخوان الضباط على الهرب، ولكن ما حدث هو أن الحكومة سقطت في أيدي الضباط بسهولة شديدة، ومن ثَمَّ لم يشارك الإخوان بالفعل في الانقلاب.

نشر قطب خطابًا علنيًّا موجهًا لقادة الثورة ينصحهم فيه بأن الطريق الوحيد لتطهير البلاد من الفساد الأخلاقي الذي تسبب النظام السابق في انتشاره هو فرض «ديكتاتورية عادلة» تمنح المكانة السياسية «للشرفاء فقط». بعد ذلك، دعا عبد الناصر قطبًا لأن يصبح مستشارًا لمجلس قيادة الثورة. وقد كان قطب يأمل في أن يفوز بمقعد في مجلس وزراء الحكومة الجديدة، ولكن عندما عُرِض عليه أن يكون وزيرًا للمعارف أو المدير العام للإذاعة المصرية، رفض المنصبين. فعينه عبد الناصر في نهاية المطاف رئيسًا لهيئة التحرير التابعة للثورة، لكن قطب ترك المنصب بعد شهور قليلة. ولقد عكست المفاوضات الشائكة بين الرجلين التعاون الوثيق الذي كان قائمًا في البداية بين الإخوان المسلمين والضباط الأحرار في ثورة اجتماعية اعتقد كل من الطرفين أنها ملكه ليتحكم فيها، وفي الواقع، لم يحصل أي من الطرفين على التفويض الشعبي لأن يحكم.

وفي قصة كثيرًا ما ستتكرر في الشرق الأوسط، ضاق أفق المنافسة بسرعة ليصبح خيارًا ما بين المجتمع العسكري والمجتمع الديني، فعبد الناصر يملك الجيش، والإخوان يملكون المساجد. وكان عبد الناصر يحلم باشتراكية قومية عربية حديثة وعلمانية مؤمنة بمبدأ المساواة وقائمة على التقدم الصناعي، التي يحكم حياة الأفراد فيها الوجود الشامل للحكومة التي تكون مسئولة عن توفير الرفاهية لشعبها. ولكن كان حلمه هذا لا يمت بصلة للحكومة الدينية الإسلامية التي كان يسعى إليها قطب والإخوان المسلمون. لقد أراد الإسلاميون إعادة تشكيل المجتمع من الأساس وفرض القيم الإسلامية على جميع جوانب الحياة حتى يستطيع كل مسلم الوصول إلى النقاء الروحي الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بالفرض الصارم للشريعة التي تحكم جميع جوانب الحياة. ومن وجهة نظر الإسلاميين، أي شيء غير هذا فهو «جاهلية»، وليس إسلامًا. وكان قطب يعارض المساواة التي ينادي بها عبد الناصر مبررًا ذلك بأن الله يقول: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾،[٢] ورفض مبدأ القومية لأنه كان يتعارض مع مبدأ وحدة المسلمين. وإذا أعدنا النظر إلى ما مضى، من الصعب تخيل

[٢] سورة الأنعام الآية (١٦٥).

twitter @baghdad_library

كيف أن قطبًا وعبد الناصر قد أساء أحدهما فهم الآخر إلى هذا الحد؛ فالشيء الوحيد الذي كانا يشتركان فيه هو عظمة رؤية كل منهما والعداء للحكم الديمقراطي.

ألقى عبد الناصر بقطب في السجن للمرة الأولى في عام ١٩٥٤م، ولكنه أخلى سبيله بعد ثلاثة شهور وسمح له أن يكون محرر مجلة «الإخوان المسلمين» التي تصدرها جماعة الإخوان. ومن المحتمل أن عبد الناصر كان يأمل أن يعزز عفوه عن قطب موقفه لدى الإسلاميين ويمنعهم من الانقلاب ضد الأهداف العلمانية التي تتجه إليها الحكومة الجديدة، وربما اعتقد أيضًا أن المدة التي قضاها قطب في السجن قد أدبته، ولكنه وقع في الخطأ الذي وقع فيه الملك السابق، فقد كان عبد الناصر يقلل دائمًا من مدى صلابة عدوه وتمسكه بآرائه.

ففي الوقت الذي كان عبد الناصر يتفاوض فيه لعقد معاهدة تنهي وجود الاحتلال الإنجليزي اسميًّا، كتب قطب عددًا من المقالات الافتتاحية النقدية اللاذعة التي تدعو إلى الجهاد ضد الإنجليز، فأغلقت الحكومة المجلة في أغسطس/آب من عام ١٩٥٤م. وفي ذلك الوقت، كان من الواضح أن الضغائن بين الإخوان والقادة العسكريين قد قويت لتتحول إلى حد المعارضة الشديدة، وكان من الواضح أيضًا أنه ليس لدى عبد الناصر أية نية في إشعال فتيل ثورة إسلامية، مع أنه قد حج إلى بيت الله الحرام في مكة في ذلك الشهر، وهو الخبر الذي اهتم الإعلام بتغطيته بصورة كبيرة. وقد كان قطب يحتدم غضبًا لدرجة أنه كوَّن تحالفًا سريًّا مع الشيوعيين المصريين في محاولة فاشلة للإطاحة بعبد الناصر.

وصل الصراع الأيديولوجي على مستقبل مصر ذروته في ليلة السادس والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٥٤م حين كان عبد الناصر يلقي خطابًا أمام جموع حاشدة في ميدان عام في الإسكندرية. وكانت مصر بالكامل تستمع إلى ذلك الخطاب في الراديو حين تقدم عضو من جماعة الإخوان المسلمين وأطلق ثماني رصاصات على الرئيس المصري، فأصاب أحد حراسه ولكن أخطأ هدفه. ولقد كان ذلك الحادث نقطة تحول في تاريخ رئاسة عبد الناصر؛ ففي وسط الجموع الحاشدة المذعورة والفوضى العارمة، واصل عبد الناصر خطابه، حتى وطلقات الرصاص تدوي قائلًا: «فليقتلوا عبد الناصر، وماذا يكون عبد الناصر بينكم. أنا ما زلت حيًّا، وإذا مات جمال عبد الناصر فكلكم جمال عبد الناصر.» ربما لو كان منفذ عملية الاغتيال نجح بالفعل في قتل عبد الناصر، لكان من الممكن أن يحمل الشعب المصري هذا القاتل على أعناقه بطلًا، ولكن فشله منح عبد الناصر شعبية لم يحظ بها من قبل. استغل

عبد الناصر هذه الشعبية على الفور في إعدام ستة من المتآمرين ووضع الآلاف في معسكرات الاعتقال. وقد اتهم قطب بأنه عضو في الجهاز السري لجماعة الإخوان الذي كان مسئولًا عن محاولة الاغتيال. وهكذا اعتقد عبد الناصر أنه قضى بذلك على الإخوان إلى الأبد.

ولَّدت القصص التي تسربت عن معاناة سيد قطب في السجن نوعًا من التعاطف تجاه الأصوليين الإسلاميين. فيقال إنه كان مريضًا بحمى شديدة عندما قُبِض عليه، ومع ذلك، فقد كبله ضباط أمن الدولة بالأغلال وأجبروه على السير إلى السجن، وقد فقد الوعي أكثر من مرة في الطريق. وسُجِن لساعات طويلة في زنزانة مع كلاب مفترسة، وبعد ذلك تعرض للضرب في أثناء التحقيقات التي كانت تستغرق ساعات طويلة. وفي أثناء المحاكمة، رفع قطب قميصه ليري المحكمة آثار التعذيب على جسده وهو يقول: «حقًّا، لقد طُبِّقت علينا مبادئ الثورة.»

ومن خلال اعترافات بعض أعضاء الإخوان الآخرين، قدم الادعاء سيناريو مثيرًا لمخطط للاستيلاء على السلطة أعده الإخوان يتضمن تدمير مدينتي القاهرة والإسكندرية وتفجير جميع الجسور على نهر النيل والقيام بعمليات اغتيال واسعة — أي حملة إرهابية خطيرة لم تواجهها مصر من قبل، وذلك في سبيل تحويل مصر إلى حكومة دينية بدائية. غير أن الاعترافات أوضحت أيضًا أن هناك خللًا تنظيميًّا كبيرًا داخل جماعة الإخوان يحول بينها وبين تنفيذ أي من هذه المهام الفظيعة. أشرف ثلاثة من أكثر القضاة الموالين للثورة، منهم أنور السادات، على المحاكمة، وأصدروا على قطب حكمًا بالسجن مدى الحياة، ولكن نظرًا لتدهور حالته الصحية فقد خُفِّفَ الحكم إلى خمسة عشر عامًا.

وقد كانت حالة قطب الصحية ضعيفة دائمًا، فقلبه مريض ومعدته ضعيفة وكان مريضًا بعرق النسا وهو ما تسبب في إصابته بآلام مزمنة. وبعد إصابته بنوبة التهاب رئوي عندما كان في الثلاثين من عمره، عانى مشكلات متكررة في الشعب الهوائية، وقد تعرض لأزمتين قلبيتين عندما كان في السجن، بالإضافة إلى نزيف في الرئتين قد يكون ناتجًا عن تعرضه للتعذيب، أو إصابته بالسل. وقد نُقِل إلى مستشفى السجن في مايو/أيار من عام ١٩٥٥م حيث بقي هناك للسنوات العشر التالية. وقد قضى معظم وقته في كتابة تفسير بليغ وشديد الذاتية للقرآن يتكون من ثمانية أجزاء يحمل عنوان «في ظلال القرآن» الذي كان كفيلًا في حد ذاته بتوطيد

twitter @baghdad_library

مكانته كواحد من أهم المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ولكن كانت آراؤه السياسية تزداد تشاؤمًا.

وفي السجن، أضرب بعض أعضاء الإخوان المسجونين ورفضوا الخروج من زنزاناتهم، فأطلق حراس السجن النار عليهم فقتل ثلاثة وعشرون فردًا منهم وأصيب ستة وأربعون. وقد كان قطب في مستشفى السجن حين نقل المصابون إليها، وقد أصيب بالهلع وتعجب كيف يمكن لمسلم أن يعامل أخاه المسلم بهذه الطريقة.

توصل قطب من هذا الحادث إلى نتيجة متطرفة مفادها أن مسئولي السجن قد أنكروا وجود الله وتحولوا لخدمة عبد الناصر ودولته العلمانية، ومن ثَمَّ، فإنهم ليسوا مسلمين، بل كافرين. وهكذا أنكر قطب عليهم انتماءهم إلى المجتمع الإسلامي. ومع أنه لم يستخدم مصطلح التكفير بالضبط، فقد شهدت تلك الغرفة في مستشفى السجن إحياء مبدأ التكفير الذي استخدم في الإسلام على مر تاريخه لتبرير إراقة الكثير من الدماء.

وفي أثناء وجوده في المستشفى، تمكن قطب بمساعدة أفراد عائلته وأصدقائه من تهريب كتاب جديد يحمل عنوان «معالم في الطريق». وقد هَرَّبَ هذا الكتاب جزءًا جزءًا في سرية تامة لسنوات طويلة في صورة خطابات طويلة لشقيقه وشقيقاته، الذين كانوا أيضًا إسلاميين نشطاء. وقد كانت نبرة صوته التي تبثها تلك الخطابات توحي بالتصميم والحميمية والعاطفة، واليأس أيضًا. وعندما نُشِر الكتاب أخيرًا في عام ١٩٦٤م، مُنِعَ فورًا ولكن بعد أن صدر منه خمس طبعات، وقد كان كل من يُقبَض عليه وبحوزته نسخة من هذا الكتاب يتهم بالتحريض على العصيان. وقد وضعته تلك النبرة التنبؤية القوية التي يتردد صداها في الكتاب جنبًا إلى جنب مع كتاب الفيلسوف روسو Rousseau «نظرية العقد الاجتماعي» Social Contract وكتاب لينين Lenin «ما العمل؟» ?What Is to Be Done، وقد كانت له أيضًا عواقب دامية مشابهة للكتابين.

يبدأ قطب كتابه قائلًا: «تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية» موضحًا أن الخطر الذي يحدق بالبشرية اليوم لا يتمثل فقط في الإبادة بالأسلحة النووية ولكن في غياب القيم والمبادئ أيضًا؛ فلقد فقد الغرب قدرته على العطاء للبشرية وفشلت الماركسية وتراجعت. «ولقد جاء دور الإسلام ودور الأمة في أشد الساعات حرجًا وحيرة واضطرابًا.» ولكنه يؤكد على أنه قبل أن يقود الإسلام البشرية لابد من إعادة بعثه أولًا.

يقسم قطب في ذلك الكتاب العالم إلى معسكرين؛ معسكر الإسلام ومعسكر الجاهلية. ويشير قطب بهذا المصطلح إلى جميع جوانب الحياة الحديثة: السلوكيات والأخلاق والفن والأدب والقوانين وحتى جزء كبير مما يطلق عليه الثقافة الإسلامية. إنه لم يكن معارضًا للتقدم التكنولوجي ولكن لعبادة العلوم التي في رأيه عزلت الإنسانية عن الانسجام الطبيعي مع خلق الله. ولقد كان بصيص الأمل الوحيد لاستعادة الإسلام يأتي من الرفض الكامل للعقلانية والقيم الغربية، فالأمر ببساطة خيار بين طريقين: إما العودة إلى الإسلام بجذوره النقية أو هلاك البشرية.

وقد وضعت آراؤه الثورية في ذلك الكتاب الحكومات الإسلامية اسميًّا فقط وجهًا لوجه أمام الجهاد؛ فيقول: «ووجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة.» ويعزو رأيه هذا إلى أن هذه الأمم قد «واراها ركام القوانين والتعاليم الزائفة التي لا صلة لها بالمنهج الإسلامي.» ولا يمكن إنقاذ البشرية إلا إذا تمكن المسلمون من استعادة مجد عصرهم الأول الذي كان يتميز بالطهر والنقاء، فكما يقول: «وهذا يقتضي عملية بعث في الرقعة الإسلامية» وذلك لبناء نموذج يقود الإسلام في نهاية المطاف إلى المصير المقدر له، ألا وهو قيادة البشرية. ويقول قطب أيضًا: «لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق. ولهذه الطليعة المرجوة المرتقبة كتبت معالم في الطريق.» وسوف يتردد صدى هذه الكلمات في آذان أجيال من شباب المسلمين الذين كانوا يبحثون عن دور ليضطلعوا به في التاريخ.

في عام ١٩٦٤م، تدخل الرئيس العراقي الأسبق عبد السلام عارف شخصيًّا لدى الرئيس عبد الناصر لكي يطلق سراح قطب، ودعا الأخير إلى العراق ووعده بمنصب مهم في الحكومة، إلا أن قطبًا رفض قائلًا: إن مصر ما زالت تحتاج إليه. وعاد على الفور بعد الإفراج عنه إلى فيلته الخاصة في حلوان وبدأ يتآمر مرة أخرى على حكومة الثورة.

استطاع قطب وهو في سجنه أن يعيد بناء الجهاز السري للإخوان، وكانت حكومة المملكة العربية السعودية تمده سرًّا بالأموال والأسلحة خوفًا من نفوذ ثورة عبد الناصر، ولكن كانت الحركة مليئة بالوشاة والخائنين. وقد اعترف اثنان منها بالفعل وأوردوا اسم سيد قطب في مؤامرة للإطاحة بالحكومة واغتيال بعض الشخصيات العامة. وبعد ستة شهور فقط من إطلاق سراحه، عادت قوات الأمن لتلقي القبض عليه مرة أخرى من على شاطئ منتجع في شرق مدينة الإسكندرية.

twitter @baghdad_library

بدأت محاكمة قطب واثنين وأربعين شخصًا من أتباعه في التاسع عشر من أبريل/نيسان عام ١٩٦٦م واستمرت ما يقرب من ثلاثة شهور. وقد صرح قطب بتحدٍّ عندما بدأت المحاكمة: «لقد حان الوقت لكي يضحي مسلم بحياته ليعلن عن ميلاد الحركة الإسلامية.» واعترف بمرارة أن مصر الجديدة المناهضة للاحتلال أصبحت أكثر قمعًا من النظام الذي أسقطته وحلت محله. ولم يتكبد القضاة مشقة التظاهر بالحيادية والنزاهة، بل إن رئيس القضاة كان تقريبًا يمارس دور المدعي أيضًا، وكان الحاضرون يشجعون هذه المحاكمة الصورية الزائفة. والدليل الوحيد الذي استندت إليه المحكمة ضد قطب هو كتابه «معالم في الطريق»، وعندما صدر حكم الإعدام ضده استقبله فرحًا بالشهادة قائلًا: «الحمد لله. لقد عملت خمسة عشر عامًا لنيل الشهادة.»

وحتى آخر لحظة، أساء عبد الناصر الحكم على هذا العدو الصلب. وعندما احتشد أتباعه ومؤيدوه في شوارع القاهرة يحتجون على الحكم الذي أوشك أن يُنفَّذ، أدرك عبد الناصر أن خطورة قطب وهو ميت أكثر منها وهو حي، فأرسل إليه السادات في السجن حيث استقبله قطب وهو يرتدي حلة الإعدام الحمراء. ووعده السادات أنه إذا استأنف الحكم، فسوف يخففه عنه عبد الناصر، بل إنه على استعداد أيضًا أن يعيده إلى منصبه وزيرًا للمعارف مرة أخرى، ولكن قطبًا رفض. ثم أحضروا له أخته حميدة، التي كانت مسجونة أيضًا، فتوسلت إليه قائلة: «إن الحركة الإسلامية تحتاج إليك، اكتب هذه الكلمات»، فأجابها قطب: «ستكون كلماتي أكثر قوة لو قتلوني.»

وبالفعل نُفِّذ حكم الإعدام في سيد قطب بعد صلاة الفجر في التاسع والعشرين من أغسطس/آب من عام ١٩٦٦م. وقد رفضت الحكومة تسليم جثمانه لعائلته خوفًا من أن يتحول قبره إلى ضريح مقدس لأتباعه. وبدا أن تهديد الإسلاميين المتطرفين قد انتهى، ولكن تلك الطليعة التي تحدث عنها قطب كانت موجودة وتستمع إلى كلماته.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

الرجل الثاني

نشأ أيمن الظواهري، الرجل الذي سيقود الطليعة التي تنبأ بها سيد قطب، في ضاحية هادئة متوسطة المستوى يطلق عليها المعادي، على بعد خمسة أميال جنوب القاهرة بضوضائها المزعجة، ولم تكن بيئة نشأته تنبئ بميول ثورية. وقد أُنشئ هذا الحي عندما بدأ اتحاد مالي من المولين اليهود المصريين في بيع قطع أراضٍ في العقد الأول من القرن العشرين، وذلك في إطار عزمهم إنشاء قرية على الطراز الإنجليزي بين مزارع المانجو والجوافة ومساكن البدو على الضفة الشرقية من النيل. وقد نظم المخططون كل شيء بدءًا من ارتفاع سياج الحدائق إلى ألوان مصارع الأبواب والنوافذ في الفيلات الفخمة المصطفة في الشوارع. وعلى غرار ناثان ميكر، مؤسس مدينة جريلي، فقد حلم مصممو مدينة المعادي ببناء مجتمع فاضل، وهذا لا يعني مجتمعًا آمنًا ونظيفًا ومنظمًا فقط؛ ولكن أيضًا مجتمعًا متسامحًا ومنفتحًا على العالم الحديث. وقاموا بزراعة أشجار الكافور لطرد الذباب والناموس، وزراعة حدائق لكي تملأ الجو بعبير الورد والياسمين ونبات الجهنمية. وقد كان الكثير من سكان ضاحية المعادي الأوائل من ضباط الجيش والموظفين المدنيين البريطانيين، الذين أنشأت زوجاتهم أندية اجتماعية وصالونات أدبية. وتبعهم بعد ذلك عائلات يهودية أصبحت، بنهاية الحرب العالمية الثانية، تمثل نحو ثلث سكان المعادي. وبعد الحرب، تطورت المعادي لتضم مزيجًا من الأوروبيين المهاجرين ورجال الأعمال والمبشرين الأمريكيين، إلى جانب طبقة معينة من المصريين؛ تلك التي كانت تتحدث الفرنسية على العشاء وتتابع مباريات لعبة الكريكيت.

وكان مركز ذلك المجتمع العالمي هو نادي المعادي الرياضي. ونظرًا لأنه تأسس في الوقت الذي كانت فيه مصر لا تزال ترزح تحت نير الاحتلال البريطاني، فقد كان النادي فريدًا في أنه كان يقبل عضوية المصريين. وكانت الأعمال التي يقوم بها

أعضاء هذا المجتمع تُنجَز في ملعب الجولف الرملي ذي الثماني عشرة حفرة، وفي الخلفية مشهد أهرامات الجيزة وأشجار النخيل على ضفاف النيل. وفي الوقت الذي كانت تُقَدَّم فيه وجبة بعد الظهيرة مع الشاي إلى البريطانيين في قاعة الانتظار، كان الخدم النوبيون يحملون أكوابًا من القهوة سريعة التحضير، ويتحركون برشاقة بين البشوات والأميرات الذين يستمتعون بحمام شمس دافئ على حمام السباحة، وطيور البشروس المائية طويلة الساقين تتجول بين أزهار السوسن في بركة الحديقة. لقد كان نادي المعادي تعبيرًا مثاليًّا عن رؤية مؤسسي الحي لمصر؛ بلد متحضر ورفيع المستوى وعلماني، ويضم الكثير من الأعراق ولكن مع الحفاظ على المفاهيم الإنجليزية للطبقات.

ولكن لم تستطع اللوائح الدقيقة التي وضعها المؤسسون الصمود أمام تضخم عدد السكان في القاهرة، وفي الستينيات نشأت معادي جديدة داخل ذلك المجتمع الغريب، فظهر الشارع رقم ٩ بجوار خط السكة الحديد الذي يفصل الجزء الراقي من مدينة المعادي عن الجزء «البلدي» منها حيث تنتشر الشوارع المصرية القذرة التي لا يمكن السيطرة عليها. وتسمع صوت عربات الكارو وهي تشق طريقها في الشوارع غير الممهدة أمام بائعي الفول السوداني والبطاطا الذين ينادون على بضاعتهم، ولحم الذبائح يتدلى في محال الجزارين وقد غطاه الذباب تمامًا. وكان يعيش في ذلك الجزء من المدينة أيضًا شريحة صغيرة من الطبقة المتوسطة من المجتمع، ومن بينهم مدرسون وموظفون حكوميون متوسطو الدرجة، الذين جذبهم جو المعادي النقي والأمل، شبه المستحيل، في عبور خط السكة الحديدية والانضمام إلى النادي الرياضي.

وفي عام ١٩٦٠م، انتقل الدكتور محمد ربيع الظواهري وزوجته أميمة، من هليوبوليس إلى المعادي، وقد كان كل منهما ينتمي إلى عائلة من أكبر العائلات المعروفة في مصر. فعائلة الظواهري، كانت بالفعل في طريقها لأن تصبح عائلة طبية بالكامل؛ فقد كان الدكتور ربيع أستاذًا في علم العقاقير في جامعة عين شمس، وشقيقه طبيب أمراض جلدية قدير، وأيضًا متخصص في الأمراض التناسلية. وقد انتقل التميز الذي رسّخا جذوره في العائلة إلى الجيل التالي، ففي نعي نشر عام ١٩٩٥م في إحدى جرائد القاهرة للمهندس كاشف الظواهري، ذُكر ستة وأربعون عضوًا من العائلة، منهم واحد وثلاثون ما بين طبيب وكيميائي وصيدلاني منتشرين في العالم العربي والولايات المتحدة، ومن بين الباقين سفير وقاضٍ وعضو في البرلمان.

twitter @baghdad_library

وعلى أية حال، فقد كان اسم الظواهري يرتبط في المقام الأول بالدين. ففي عام ١٩٢٩م، تولى محمد الأحمدي الظواهري، وهو عم الدكتور ربيع، مشيخة الأزهر، تلك الجامعة التي يبلغ عمرها ألف عام في قلب القاهرة القديمة، والتي لا تزال منبر التعليم الإسلامي في الشرق الأوسط، ويتمتع شيخ الأزهر بمكانة خاصة ومميزة في العالم الإسلامي. ويُعرَف الإمام محمد بأنه أكبر محدث للجامعة، مع أنه لم يكن محبوبًا في ذلك الوقت، وفي النهاية تسببت إضرابات الطلاب وهيئة التدريس اعتراضًا على سياسته في عزله من منصبه. وكان والد الدكتور ربيع وجده من علماء الأزهر أيضًا.

أما أميمة عزام، زوجة ربيع، فقد كانت من عائلة مميزة ومشهورة أيضًا، ولكنها كانت أكثر ثراءً وميلًا للسياسة. فقد كان والدها الدكتور عبد الوهاب عزام رئيسًا لجامعة القاهرة ومؤسس جامعة الملك سعود في الرياض. وإلى جانب حياته الأكاديمية الزاخرة، عمل سفيرًا لمصر في باكستان واليمن والمملكة العربية السعودية. وقد كان أبرز مفكر قومي عربي في ذلك الوقت، وكان عمه من مؤسسي جامعة الدول العربية وأول أمين عام لها.

وعلى الرغم من هذا النسب العريق المميز، فقد عاش الدكتور ربيع الظواهري وزوجته أميمة في شقة في الشارع رقم ١٠٠ في الجانب «البلدي» من محطة السكة الحديد. وبعد ذلك قاما بتأجير شقة من طابقين في العقار رقم ١٠ شارع ١٥٤ بالقرب من محطة القطار، ولم يكن لهما شأن مميز في مجتمع المعادي. وكانت هذه العائلة على قدر من التدين، ولكن تقواها الدينية لم تكن تظهر علنًا؛ فقد كانت أميمة غير محجبة، إلا أن هذا لم يكن بالشيء الغريب؛ فقد كان التعبير الجهري عن المشاعر الدينية في مصر في ذلك الوقت شيئًا نادرًا، وتقريبًا شيئًا لم يُسمَع به في المعادي، حيث كان عدد الكنائس يفوق عدد المساجد، وكان هناك معبد يهودي مزدهر النشاط.

امتلأ منزل الظواهري بالأطفال سريعًا؛ ففي التاسع عشر من يونيو/حزيران عام ١٩٥١م، ولد أكبر أولاده أيمن وشقيقته التوأم أمنية. وقد كانا من المتفوقين ومن أوائل الكلية طوال دراستهما للطب. وبعد ثلاث سنوات، ولدت هبة التي أصبحت طبيبة أيضًا، أما الطفلان الآخران محمد وحسين فقد درسا الهندسة المعمارية.

اشتهر والد أيمن، الذي كان بدين الجسد أصلع الرأس وأحول العينين قليلًا، بأنه غريب الأطوار وشارد الذهن، إلا أنه كان محبوبًا من طلابه وأولاد الحي، وكان

يمضي معظم وقته في المعمل أو في عيادته الطبية الخاصة. وقد أتاحت الأبحاث التي كان يجريها الدكتور ربيع الظواهري أمامه فرصة السفر إلى تشيكوسلوفاكيا بين الحين والآخر، في وقت لم يكن فيه الكثير من المصريين يسافرون إلى الخارج بسبب القيود على العملة. وكان يعود دائمًا إلى منزله محملًا باللعب لأولاده، وكان يستمتع باصطحابهم إلى السينما في نادي المعادي الرياضي التي كانت تفتح أبوابها لغير الأعضاء. وقد كان أيمن الصغير يحب الكارتون وأفلام ديزني التي كانت تُعرَض ثلاث ليالٍ في الأسبوع على الشاشة الخارجية في الهواء الطلق. وفي الصيف، كانت الأسرة الكبيرة تذهب لقضاء الإجازة على شواطئ الإسكندرية. ولكن لم تكن الحياة اعتمادًا على راتب الأستاذ الجامعي ميسورة في أغلب الأحيان، خاصة مع وجود خمسة أطفال طموحين لاستكمال المسيرة التعليمية، فلم تمتلك الأسرة سيارة قط إلا عندما كبر أيمن. وعلى غرار كثير من الأكاديميين المصريين، قضى الدكتور ربيع الظواهري سنوات كثيرة في التدريس خارج مصر، حيث ذهب إلى الجزائر، سعيًا وراء دخل أعلى. ولكي تقتصد الأسرة بعض الشيء، فقد كانت تربي بعض الدواجن والبط خلف المنزل، وكان الدكتور يشتري أقفاصًا من البرتقال والمانجو ويلح على أولاده لتناولها كمصدر طبيعي لفيتامين C. فمع أنه كان أستاذًا في علم العقاقير، فقد كان يعارض استخدام المواد الكيميائية.

وبالنسبة لأي شخص يعيش في المعادي في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، كان هناك شيء واحد فقط يحدد المستوى الاجتماعي: عضوية نادي المعادي الرياضي. فقد كان هناك مقياس واحد فقط لتحديد المستوى الاجتماعي، ألا وهو عضوية نادي المعادي الرياضي، فقد كان مجتمع المعادي بالكامل يدور حول ذلك النادي. ونظرًا لأن أسرة الظواهري لم تشترك فيه أبدًا، فسيظل أيمن بعيدًا عن بؤرة النفوذ والمكانة الرفيعة في هذا المجتمع. وقد اشتهرت الأسرة بأنها محافظة ورجعية بعض الشيء أو، كما كان يطلق عليهم، «صعايدة».

وفي أحد أطراف حي المعادي، تقع كلية فيكتوريا، وهي مدرسة ثانوية خاصة للبنين بناها البريطانيون، تحيط بها الملاعب الخضراء وملاعب التنس، وكان الطلاب يحضرون بأزياء رسمية تتكون من سترة ورابطة عنق. ومن أشهر من تخرج في تلك المدرسة، لاعب الكريكيت الموهوب ميشيل شلهوب، الذي غير اسمه إلى عمر الشريف بعد أن دخل عالم التمثيل. والتحق بها أيضًا العالم والمؤلف الفلسطيني الشهير إدوارد سعيد، وكذلك الملك حسين الذي أصبح عاهل الأردن.

twitter @baghdad_library

أما أيمن الظواهري، فقد التحق بمدرسة ثانوية حكومية متواضعة ذات مبنى منخفض يقف خلف بوابة خضراء، وتقع في الطرف الآخر من الضاحية. وقد كانت هذه المدرسة للطلاب من الجانب غير المناسب من شارع ٩ من ضاحية المعادي. لقد كان الأطفال في المدرستين ينتمون إلى عالمين مختلفين، لا يلتقيان نهائيًا حتى في المنافسات الرياضية. وفي حين كانت كلية فيكتوريا تقيس إنجازاتها التعليمية بالمقاييس الأوروبية، كانت تلك المدرسة الحكومية تدير ظهرها للغرب. فوراء البوابة الخضراء، كان المتنمرون هم من يتحكمون في فناء المدرسة، والطغاة المستبدون هم من يديرون الفصول. وكان على صبي صغير ضعيف البنية مثل أيمن أن يبتكر وسيلة للنجاة من براثنهم.

كان أيمن مستدير الوجه له عينان يقظتان وفم لا يبتسم، وكان دائم القراءة والاطلاع ومتميزًا جدًا في دراسته ويكره الرياضات العنيفة ويرى أنها «همجية». ومنذ عمر مبكر، كان يُعرف بأنه ورع، وكان يحرص على أداء الصلاة في مسجد حسين صدقي، وهو ملحق متواضع بمبنى سكني كبير سُمي على اسم ممثل شهير ترك مهنة التمثيل لأنه رأى أنها مخالفة للدين. وبالطبع، فقد بدت النزعة الدينية لدى أيمن طبيعية نظرًا لانتمائه إلى عائلة تضم كثيرًا من علماء الدين، ولكنها أكدت صورته بوصفه فتى رقيقًا منصرفًا إلى الأمور غير الدنيوية.

وكان أيمن تلميذًا نجيبًا يحترمه جميع معلميه دون اختلاف، وكان زملاؤه في الفصل يرون أنه «عبقري»، ولكنه كان يميل إلى التأمل، وغالبًا ما يبدو في الفصل مستغرقًا في أحلام اليقظة. وذات مرة، أرسل ناظر المدرسة خطابًا إلى الدكتور ربيع الظواهري يخبره فيه أن أيمن قد تغيب عن أحد الامتحانات، فرد عليه الدكتور: «من الغد، ستنال شرف أن تكون ناظر أيمن الظواهري، وفي المستقبل ستفتخر كثيرًا بهذا.» وبالفعل كان أيمن يحصل على الدرجات ممتازة بقليل من الجهد.

ومع أن الآخرين كانوا يرون أن أيمن شخص جاد طوال الوقت، فقد كان الجانب المرح من شخصيته يظهر في المنزل، حيث قال عنه خاله محفوظ عزام، وهو محام في المعادي: «عندما كان يضحك، كان جسده يرتج من شدة الضحك، فقد كان، يعني، يضحك من قلبه.»

توفي والد أيمن عام ١٩٩٥م، ولا تزال والدته أميمة عزام تعيش في المعادي في شقة فاخرة فوق أحد متاجر بيع الأجهزة الكهربائية، وهي طاهية ماهرة اشتهرت ببراعتها في إعداد الكنافة. ووالدته تنتمي إلى عائلة ثرية من ملاك الأراضي، وقد

ورثت عن والدها العديد من قطع الأراضي الزراعية الخصبة في الجيزة وواحة الفيوم مما جعل لها دخلًا متواضعًا مستقلًا. وقد كان أيمن يشارك والدته عشق الأدب، وكانت هي تحفظ قصائد الشعر التي كان يرسلها لها والتي غالبًا ما كانت قصائد في حبها.

وقد لاحظ محفوظ، عميد عائلة عزام وخال أيمن، أنه مع أن أيمن كان يتبع مسيرة عائلة الظواهري في دراسة الطب، فإنه كان أقرب إلى عائلة والدته في اهتمامه بالسياسة. فمنذ إنشاء أول برلمان مصري منذ أكثر من مائة وخمسين عامًا، كان هناك أفراد من عائلة عزام في الحكومة، ولكنهم كانوا دائمًا في جانب المعارضة. وقد اتبع محفوظ تقليد عائلته في الانتماء إلى المعارضة؛ فقد سجن وهو في الخامسة عشرة من عمره بتهمة التآمر ضد الحكومة. وفي عام ١٩٤٥م، ألقي القبض على محفوظ مرة أخرى في حملة اعتقالات للمناضلين عقب اغتيال رئيس الوزراء أحمد ماهر. وقد تفاخر محفوظ فيما بعد قائلًا: «أنا نفسي كنت سأفعل ما فعله أيمن.»

كان سيد قطب مدرس اللغة العربية لمحفوظ عزام وهو في الصف الثالث في عام ١٩٣٦م، وقد تكونت بينهما رابطة استمرت مدى الحياة. وبعد ذلك، كتب عزام في مجلة الإخوان المسلمين التي كان قطب ينشرها في السنوات الأولى من عمر الثورة، ثم أصبح المحامي الشخصي لقطب وكان من آخر مَن رأوه قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام. وقد دخل محفوظ مستشفى السجن التي قضى فيها قطب أيامه الأخيرة. وقد كان قطب هادئ النفس، ووقع على توكيل يخول عزام التصرف في ممتلكاته، ثم أعطاه نسخته الشخصية من القرآن التي خطها بيديه التي تعد تذكارًا ثمينًا من الشهيد.

وقد سمع أيمن الظواهري مرارًا وتكرارًا من خاله محفوظ الذي كان يحبه ويقدره كثيرًا عن نقاء شخصية قطب ومدى التعذيب الذي احتمله في السجن. ويمكن قياس تأثير هذه القصص على أيمن من حادثة صغيرة وقعت في منتصف الستينيات عندما كان أيمن وشقيقه محمد عائدين من المسجد إلى منزلهما بعد صلاة الفجر. فقد أوقف حسين الشافعي، نائب رئيس الجمهورية سيارته وعرض على الصبيين أن يقلهما إلى منزلهما. وكان الشافعي أحد القضاة في حملة اعتقالات الإسلاميين عام ١٩٥٤م، ومع أنه كان من النادر أن يستقل أولاد الظواهري سيارة، ناهيك عن أنها كانت سيارة نائب الرئيس شخصيًّا، فقد قال أيمن: «إننا لا نريد أن يقلنا الرجل الذي شارك في المحاكمة التي قتلت المسلمين.»

twitter @baghdad_library

وقد عبر هذا التحدي السافر للسلطة في مثل هذا العمر المبكر عن جرأة شخصية أيمن واستقامته وإيمانه الراسخ بصحة معتقداته، وهي الصفات الجامحة التي ستظل ترافقه في المستقبل وتدفعه إلى صراع مع كل من يقابله تقريبًا. وكان ازدراؤه للحكومة العلمانية المستبدة يؤكد أنه دائمًا ما سيكون معارضًا سياسيًّا. ولقد كان الالتزام التام بمهمة محددة في الحياة، ألا وهي وضع رؤية قطب في حيز التنفيذ، هو ما نظم ووجه هذه السمات الثورية التي كان من الممكن أن تكون مشوشة لدى رجل لا يتميز بهذا القدر من الانضباط.

كتب أيمن الظواهري بعد ذلك: «ظن النظام الناصري أن الحركة الإسلامية قد تلقت ضربة قاضية بإعدام سيد قطب ورفاقه. ولكن الهدوء الظاهري على السطح كان يخفي تحته تفاعلًا فورًا مع أفكار سيد قطب وبداية تشكل نواة الحركة الجهادية الإسلامية المعاصرة في مصر.» وبالفعل، في العام نفسه الذي أعدم فيه سيد قطب، ساعد أيمن الظواهري في تشكيل خلية سرية للإطاحة بالحكومة وتأسيس دولة إسلامية، وهو لا يزال في الخامسة عشرة من عمره.

قال أيمن بعد ذلك في شهادته: «لقد كنا مجموعة من الطلاب من مدرسة المعادي الثانوية ومدارس أخرى.» وكان أعضاء خليته يتقابلون في منازل بعضهم، وفي بعض الأحيان يتقابلون في المساجد، ثم ينتقلون إلى حديقة أو مكان هادئ آخر في الشوارع الواسعة التي تحيط بها الأشجار على ضفاف النيل. وفي البداية، كانت الخلية تتكون من خمسة أعضاء فقط، وسرعان ما أصبح أيمن الظواهري أمير الجماعة. وقد استمر في تجنيد أعضاء جدد في هدوء وسرية للعمل على تحقيق قضية لم يكن لها أية فرصة حقيقية للنجاح، وكانت من الممكن أن تتسبب في مقتلهم جميعًا. وقد قال معترفًا في شهادته: «لم تكن الوسائل المتاحة أمامنا مناسبة لتحقيق طموحاتنا.» ولكنه لم يشكّ أبدًا في صحة قراره.

في ذلك الوقت، أصبحت الرفاهية والمكانة الاجتماعية التي يتمتع بها سكان المعادي، والتي كانت من قبل تعزلهم عن الأهواء السياسية في البلاط الملكي؛ تجعلهم يشعرون بأنهم مستهدفون في ظل حكومة الثورة. فكان الآباء يخشون التعبير عن آرائهم، حتى أمام أولادهم. وفي الوقت نفسه، كانت الجماعات السرية مثل تلك التي انضم إليها الظواهري تظهر في جميع أنحاء البلاد. وكانت هذه الجماعات، التي

تكونت بصفة أساسية من الطلاب الذين يشعرون بالغربة والاستياء، صغيرة وغير منظمة وغير مدركة وجود بعضها؛ ثم جاءت حرب ١٩٦٧م مع إسرائيل.

بعد سنوات من الحروب البلاغية ضد إسرائيل، طالب الرئيس عبد الناصر بخروج قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من سيناء، ثم أغلق مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية. وقد ردت إسرائيل على القرار بشن هجوم وقائي ساحق دمرت فيه القوات الجوية المصرية بالكامل في ساعتين. وعندما انضمت الأردن والعراق وسوريا إلى الحرب ضد إسرائيل، قامت القوات الإسرائيلية بتدمير قواتهم الجوية أيضًا بعد ظهر اليوم نفسه. وفي الأيام القليلة التالية، استولت إسرائيل على سيناء والقدس والضفة الغربية وهضبة الجولان، ساحقةً قوات الدول العربية على تلك الجبهات. ولقد كانت هذه الحرب نقطة تحول نفسية في تاريخ الشرق الأوسط الحديث؛ فسرعة انتصار الجيش الإسرائيلي في حرب الأيام الستة، وقدرته على حسم المعركة لمصلحته أذلت ناصية الكثير من المسلمين الذين كانوا يؤمنون أن الله يؤازر قضيتهم. إنهم لم يخسروا فقط جيوشهم وأراضيهم، ولكنهم فقدوا أيضًا إيمانهم بقادتهم وببلادهم وبأنفسهم. وفي ظل هذه الهزيمة النكراء، ولدت جاذبية الأصولية الإسلامية الشديدة في مصر وفي أماكن أخرى كثيرة. وظهر صوت جديد عال يصرخ في المساجد قائلًا: إن المسلمين هزموا على يد قوة أكبر من تلك الدويلة إسرائيل؛ إن الله لم يعد يقف إلى جانب المسلمين. والطريق الوحيد للعودة إلى الله هو العودة إلى الدين في صورته النقية. لقد أعطى هذا الصوت علاجًا لليأس في معادلة بسيطة وهي: الإسلام هو الحل.

وكانت هذه المعادلة تعني ضمنيًّا أن الله قد وقف إلى جانب اليهود. قبل ذلك وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، لم يكن هناك الكثير من المواقف السابقة في الإسلام المشيرة لمعاداة السامية التي أصبحت تحيد بسياسات ومجتمعات المنطقة عن طريق الصواب. لقد كان اليهود يعيشون بسلام، وإن كان بخضوع، تحت الحكم الإسلامي لمدة ١٢٠٠ عام، يتمتعون بحرية دينية كاملة. ولكن في الثلاثينيات، ساعدت الدعاية النازية على موجات الراديو الناطقة بالعربية، مصحوبة بالتهم والادعاءات التي كان المبشرون المسيحيون في المنطقة يرمون اليهود بها، على نقل ذلك التحامل الغربي القديم إلى المنطقة. وبعد الحرب، أصبحت القاهرة ملاذًا للنازيين الذين كانوا يقدمون الاستشارات للقوات العسكرية والحكومة. وقد تصادف ظهور الحركة الإسلامية مع تراجع الفاشية، ولكن الحركتين تداخلتا في مصر وانتقلت الجرثومة إلى الحركة الجديدة.

twitter @baghdad_library

أدى تأسيس دولة إسرائيل والهيمنة العسكرية المروعة لها في المنطقة إلى زعزعة استقرار الهوية العربية. وفي تلك الظروف القاسية التي وجد العرب أنفسهم فيها، نظروا إلى إسرائيل وتذكروا حين نجح النبي محمد في إخضاع يهود المدينة، وأخذوا يفكرون في موجة الفتوحات الإسلامية على أيدي المسلمين بحد السيف والرمح، وشعروا بخزي شديد من الفارق بين ماضيهم العسكري المجيد وحاضرهم المشين. لقد كان التاريخ يتحرك في الاتجاه المعاكس؛ فقد أصبح العرب الآن متفرقين وممزقين ومهمشين كما كانوا أيام الجاهلية، حتى إن اليهود قد هزموهم. وسمعوا صدى الصوت الذي يتردد في المساجد قائلًا: إن العرب قد تخلوا عن السلاح الوحيد الذي كان يمنحهم قوة حقيقية ألا وهو الإيمان، فإذا استعادوا الحماسة وأعادوا الدين إلى صورته النقية الطاهرة التي جعلت من العرب يومًا عظماء، فسيعود الله مرة أخرى ليؤازرهم.

وكان الهدف الأساسي للإسلاميين المصريين هو نظام عبد الناصر العلماني. وبلغة الجهاد، تتمثل الأولوية في هزيمة «العدو القريب»، أي المجتمع المسلم غير الطاهر. أما «العدو البعيد»، أي الغرب، فمن الممكن أن ينتظر حتى يعيد الإسلام إصلاح نفسه. ومن منظور الظواهري وزملائه، فقد كان هذا يعني، على أقل تقدير، فرض القوانين الإسلامية في مصر.

كان الظواهري أيضًا يسعى إلى إحياء الخلافة الإسلامية التي انتهت رسميًّا عام ١٩٢٤م عقب انهيار الإمبراطورية العثمانية، التي لم تمارس سلطة حقيقية منذ القرن الثالث عشر. وكان يرى أنه بمجرد إنشاء الخلافة، ستصبح مصر نقطة تجمع لباقي العالم الإسلامي وتقوده في مسيرة الجهاد ضد الغرب. وقد كتب الظواهري فيما بعد: «وحينئذ سيدور التاريخ، إن شاء الله، دورة جديدة في الاتجاه المعاكس ضد إمبراطورية أمريكا وحكومة اليهود العالمية.»

في عام ١٩٧٠م، توفي الرئيس عبد الناصر إثر تعرضه لأزمة قلبية مفاجئة. وقد شرع خليفته أنور السادات، الذي كان في أمس الحاجة إلى فرض شرعيته السياسية، في عقد صلح مع الإسلاميين. وبعد أن أطلق على نفسه «الرئيس المؤمن» و«الرجل الأول للإسلام»، عرض السادات على الإخوان المسلمين صفقة: ففي مقابل تعاونهم معه ضد الناصريين واليساريين، سيسمح لهم بممارسة دعوتهم والدفاع عن قضيتهم طالما أنهم لا يلجئون إلى العنف. وقام بإطلاق سراح جميع الإسلاميين المعتقلين دون أن يدرك الخطر الذي يمثلونه على نظامه، خاصة الأعضاء الشباب الذين حولتهم كتابات سيد قطب إلى الاتجاه المتطرف.

وفي أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٧٣م في شهر رمضان، فاجأت القوات المصرية والسورية القوات الإسرائيلية بهجمات متزامنة عبر قناة السويس إلى سيناء المحتلة وعلى هضبة الجولان. ومع أن القوات السورية سريعًا ما هُزمت، ومع أن تدخل الأمم المتحدة فقط هو ما أنقذ الجيش الثالث المصري؛ فقد رأى الجميع في مصر أن هذا نصر كبير أعاد كرامة وماء وجه المصريين، ومنح السادات أيضًا نصرًا سياسيًّا كان في أشد الحاجة إليه.

ومع ذلك، بدأت خلية أيمن الظواهري السرية تنمو؛ فوصل عدد أعضائها في عام ١٩٧٤م إلى أربعين عضوًا. وكان الظواهري في ذلك الوقت شابًّا طويل القامة نحيف الجسد يرتدي نظارة سوداء كبيرة ويحيط بفمه المستقيم شارب، وأصبح وجهه أكثر نحافة، وبدأ شعره يتراجع إلى الخلف. وكان آنذاك طالبًا في كلية الطب بجامعة القاهرة، التي كانت تعج بالنشطاء الإسلاميين. ولكن لم تكن تظهر على الظواهري أي من العلامات الواضحة للتعصب؛ فكان يرتدي زيًّا غربيًّا، عادةً سترة وربطة عنق، وكان تورطه في السياسة أمرًا لا يعرفه أحد تقريبًا، حتى عائلته. وبالنسبة للقليلون الذين كانوا على علم بنشاط الظواهري فقد كانوا يرون أنه مناهضًا للثورة، الأمر الذي كان شديد الخطورة آنذاك، ويفضل القيام بانقلاب عسكري مفاجئ للاستيلاء على مقاليد الحكم في مفاجئة جريئة.

بيد أنه لم يخف مواقفه السياسية تمامًا؛ فقد اتبع عادة الشعب المصري في تحويل المآسي السياسية إلى دعابات. وتتذكر عائلته أنه كان يقص عليهم دعابة عن امرأة فقيرة تحمل ابنها الممتلئ جُعْلُص وتشاهد الملك وهو يمر بموكبه الملكي الفاخر، فدعت المرأة لابنها قائلة: «أتمنى من الله أن أراك في مثل هذا المجد»، فسمعها أحد القادة العسكريين ونهرها قائلًا: «ماذا تقولين؟ هل فقدت صوابك؟» وبعد مرور عشرين عامًا، رأى ذلك الضابط السادات مارًّا أمامه في موكبه الرئاسي الفاخر فصرخ: «جعلص! لقد فعلتها!»

وفي السنة النهائية في كلية الطب، اصطحب الظواهري صحفيًّا أمريكيًّا اسمه عبد الله شليفر Abdallah Schleifer، الذي أصبح فيما بعد أستاذًا في الدراسات الإعلامية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، في جولة داخل الحرم الجامعي، وقد كان ذلك الرجل شخصية مليئة بالتحديات في حياة الظواهري. وكان شليفر طويلًا أشعث الشعر، يبلغ طوله ستة أقدام وخمس بوصات وله لحية صغيرة ترجع إلى مرحلة ثورته على تقاليد المجتمع في الخمسينيات، وشديد الشبه بالشاعر عذرا باوند Ezra

twitter @baghdad_library

Pound. وقد نشأ شليفر في كنف أسرة يهودية غير متدينة في جزيرة لونج آيلند، وبعد فترة من اعتناق الماركسية وتكوين صداقات مع حركة الفهود السود Black Panthers والثوري الأرجنتيني تشي جيفارا Che Guevara؛ قابل عرضًا التعاليم الإسلامية الصوفية في أثناء رحلة إلى المغرب في عام ١٩٦٢م. والإسلام يحمل، ضمن معانيه، مفهوم تسليم النفس، وهذا هو ما حدث لشليفر الذي اعتنق الإسلام وغير اسمه من مارك إلى عبد الله وقضى بقية حياته المهنية في الشرق الأوسط. وفي عام ١٩٧٤م، عندما زار شليفر القاهرة لأول مرة بصفته رئيس مكتب شبكة إن بي سي نيوز، استضافه محفوظ عزام، خال الظواهري، وكان بمنزلة راعٍ له في مصر. وقد كان اعتناق يهودي أمريكي للإسلام شيئًا غير مألوف، ومن جانبه أعجب شليفر كثيرًا بمحفوظ عزام، وبعد وقت قصير، أصبح يشعر أنه تحت حماية عائلة عزام بأكملها.

لاحظ شليفر سريعًا التحول في الحركة الطلابية في مصر، فقد كان النشطاء الإسلاميون الشباب يظهرون في الجامعات، في البداية في جنوب البلاد ثم في القاهرة، وكانوا يطلقون على أنفسهم الجماعة الإسلامية. وقد شجعهم تساهل حكومة السادات، التي كانت تمدهم بالسلاح سرًّا كي يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ضد أية هجمات من قبل الماركسيين والناصريين، على تحويل معظم جامعات مصر إلى التيار المتطرف. وقد نُظِّمت الأفرع المختلفة على الطريقة نفسها التي يتبعها الإخوان المسلمون؛ خلايا صغيرة يطلق على كل منها «عنقود». وفي غضون أربع سنوات فقط، تمكنت الجماعة الإسلامية من فرض سيطرتها على الجامعات، وللمرة الأولى منذ عهد بعيد، أطلق الطلاب لحاهم وارتدت الطالبات الحجاب.

وقد كان شليفر يحتاج إلى مرشد ليساعده على فهم ما يحدث بصورة أفضل. وعن طريق محفوظ، قابل شليفر الظواهري الذي وافق أن يصطحبه في جولة في الحرم الجامعي بعيدًا عن عدسات الكاميرات. ويقول شليفر الذي ذكّره ما رآه بالمتطرفين في الولايات المتحدة الأمريكية: «كان هزيل الجسد يرتدي نظارة كبيرة وبارزة للغاية. وقد راودني شعور بأن هذا ما كان يبدو عليه المثقف اليساري في جامعة المدينة منذ ثلاثين عامًا.» وقد رأى الطلاب وهم يخطون الإعلانات والملصقات الكبيرة للمظاهرات والفتيات المسلمات يحكن الحجاب. وبعد ذلك، سار الظواهري وشليفر على ضفاف النيل عبر حديقة الحيوانات بالقاهرة إلى كوبري الجامعة. وبينما وقفا يطلان على نهر النيل الضخم الهادئ، تفاخر الظواهري بأن الحركة الإسلامية

قد لاقت أكبر نجاح لها في تجنيد الأعضاء الجدد في أفضل كليتين في الجامعة: كلية الطب وكلية الهندسة، وقال له: «ألا يثير هذا إعجابك؟»

لم يلق شليفر بالًا للأمر؛ فقد لاحظ أنه في الستينيات كانت هاتان الكليتان بالذات معقلًا للشباب الماركسي، ورأى أن الحركة الإسلامية ما هي إلا أحدث اتجاه في الثورة الطلابية، فقال: «اسمع يا أيمن، أنا ماركسي سابق، ولكن عندما تتحدث أشعر وكأني عدت إلى الحزب ثانية، ولا أشعر وكأني مع رجل مسلم عادي.» وقد استمع أيمن إليه بأدب، ولكنه بدا حائرًا من هذا النقد.

قابل شليفر الظواهري ثانية بعد ذلك بوقت قصير، وقد كان ذلك في صلاة العيد التي تقام في الحديقة الرائعة في مسجد فاروق في المعادي. وعندما وصل شليفر إلى هناك، لاحظ أن أيمن يقف مع أحد أشقائه وكانا منفعلين للغاية، وقد وضعا حصرًا بلاستيكية للصلاة على الأرض وجهزا مكبرًا للصوت، وتحول ما يجب أن يكون وقت تأمل ديني في تلاوة القرآن إلى منافسة غير متكافئة بين الجموع الحاضرة للصلاة وابني الظواهري اللذين يحملان مكبر الصوت. ويقول شليفر: «لقد أدركت أنهما كانا يقدمان المنهج السلفي الذي لا يعترف بأية عادات إسلامية بعد عصر النبي، إنه يقضي على الشعر. لقد كان الأمر فوضى.»

توجه شليفر إلى الظواهري وقال له: «أيمن، إن ما تفعله خطأ.» فبدأ الثاني يشرح له، ولكن شليفر قاطعه قائلًا: «إنني لن أدخل معك في مناقشات فأنا صوفي وأنت سلفي، ولكنك تتسبب في فتنة هنا، وإذا أردت أن تفعل هذا، فافعله في المسجد الخاص بك.» فأجابه أيمن في طاعة: «معك حق يا عبد الله.»

في نهاية المطاف، بدأت الجماعات السرية المختلفة يكتشف بعضها بعضًا، وقد كان هناك نحو خمس أو ست خلايا في القاهرة وحدها، معظمها يقل عدد أعضائه عن عشرة أعضاء. ثم اندمجت أربع من هذه الخلايا، منها خلية الظواهري التي كانت من أكبر الخلايا السرية آنذاك، وكونوا «جماعة الجهاد» أو «الجهاد» فقط. ومع أن أهداف هذه الجماعة كانت مشابهة لأهداف التيار السائد للإسلاميين في جماعة الإخوان المسلمين، فإنها لم يكن لديها أية نية لخوض غمار العمل السياسي لتحقيق هذه الأهداف. وكان الظواهري يرى أن مثل هذه الجهود تلوث الصورة المثالية للدولة الإسلامية الطاهرة، وأصبح يزدري جماعة الإخوان المسلمين لاستعدادها للتوصل إلى تسويات أو اتفاقيات.

twitter @baghdad_library

تخرج أيمن الظواهري في كلية الطب عام ١٩٧٤م، ثم قضى مدة خدمته في الجيش المصري طبيبًا لمدة ثلاث سنوات في قاعدة خارج القاهرة. وعندما انتهت مدة خدمته العسكرية، افتتح الطبيب الشاب عيادته الطبية في المبنى نفسه الذي يقطن فيه مع والديه، وكان آنذاك في أواخر العشرينات من عمره وحان الوقت ليتزوج، ولكنه حتى ذلك الوقت لم يحظ أبدًا بحبيبة. وطبقًا للتقاليد المصرية، بدأ أصدقاؤه وأقاربه يقترحون عليه بعض الفتيات المناسبات للاختيار من بينهن. ولم يكن الظواهري مهتمًا بالعواطف، بل يريد شريكة تتفق معه في الأفكار والمعتقدات المتطرفة ومستعدة لتحمل الصعاب والمشاق التي سيقابلها دون شك بسبب أفكاره وآرائه. وكان من بين هؤلاء الفتيات، عزة نوير ابنة صديق قديم للعائلة.

وعلى غرار عائلتي الظواهري وعزام، كانت عائلة نوير عائلة كبيرة ومعروفة في القاهرة. وقد تربت عزة في كنف أسرة ثرية في منزل فخم في المعادي، وكانت شابة ضئيلة الجسم مثل فتاة صغيرة، ولكنها تتمتع بشخصية قوية وحازمة. وإذا كان قدر لها الانتماء إلى زمان ومكان آخرين، كان من الممكن أن تكون امرأة عاملة أو تعمل في الأنشطة الاجتماعية، ولكنها في السنة الثانية من دراستها في جامعة القاهرة، ارتدت الحجاب، وهو ما أثار قلق عائلتها بسبب نزعتها الدينية القوية الجديدة. ويقول شقيقها الأكبر عصام: «قبل ذلك، كانت ترتدي أحدث الأزياء. ولم نكن نريدها أن تكون شديدة التدين. ولكنها بدأت تكثر من الصلاة وقراءة القرآن، وشيئًا فشيئًا تغيرت تمامًا.» وسريعًا ما تعمقت عزة أكثر وارتدت النقاب، ويقول شقيقها: إنها كانت تقضي لياليَ كاملة وهي تقرأ القرآن، وعندما يستيقظ هو في الصباح يجدها جالسة على سجادة الصلاة والمصحف بين يديها ومستغرقة في نوم عميق.

كان النقاب عائقًا منيعًا يحول دون زواجها، لا سيما في شريحة من المجتمع كانت لا تزال تتوق لأن تكون جزءًا من الغرب المتحضر. وفي نظر معظم أقرانها، كان قرار ارتدائها النقاب تنكرًا صادمًا للطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها. وأصبح رفضها لأن تخلع النقاب اختبارًا لإرادتها، فيقول شقيقها: «تقدم الكثيرون لخطبتها وجميعهم من عائلات ثرية لها مكانتها الاجتماعية ومن صفوة المجتمع، ولكن جميعهم تقريبًا طلبوا منها أن تخلع النقاب، فكانت ترفض في هدوء؛ لقد كانت تريد الارتباط بشخص يقبلها كما هي، وكان أيمن يبحث عن فتاة بهذه المواصفات.»

وطبقًا للعادات، رفعت عزة النقاب عن وجهها لدقائق معدودة في اللقاء الأول بينها وبين أيمن، ويقول عصام: «رأى وجهها ثم غادر.» وتحدث الاثنان قليلًا بعد

ذلك في مناسبة واحدة أخرى، ولكن كان الحوار أكثر من رسمي، ولم يرَ أيمن وجه خطيبته بعد ذلك إلا بعد حفل الزفاف.

ترك أيمن انطباعًا جيدًا لدى عائلة نوير التي انبهرت بنسبه وعائلته الكبيرة ولكنها كانت قلقة بعض الشيء من ورعه الشديد. ومع أنه كان مهذبًا وطيبًا، فقد كان يرفض تحية النساء، بل وكان يرفض النظر إلى أي منهن إذا كانت ترتدي جونلة. ولم يتحدث قط عن السياسة مع عائلة عزة، ولا يتضح مدى ما أفصح به لها هي شخصيًّا عن نشاطه السياسي. وعلى أية حال، كان من المؤكد أنها ستوافق على نشاطه السري؛ فقد أخبرت إحدى صديقاتها ذات مرة أن أقصى ما تتمناه هو أن تموت شهيدة.

أقيم حفل زفاف العروسين في فبراير/شباط من عام ١٩٧٨م في فندق كونتيننتال سافوي، الذي كان يومًا ناديًا اجتماعيًّا متميزًا للإنجليز والمصريين في ميدان الأوبرا بالقاهرة، ثم هبط من فخامته ليناسب المستوى الجديد من النزلاء. وبناء على رغبة العروسين، لم تُعزَف أية موسيقى، ومُنعت الصور الفوتوغرافية، ويقول شليفر: «لقد كان تزييفًا لحفل الزفاف الإسلامي التقليدي؛ فقد كنا نجلس في القاعة المخصصة للرجال والجو كئيب للغاية وتُقدَّم الكثير من أكواب القهوة، ولا أحد يلقي دعابة.»

كتب الظواهري في كتابه «فرسان تحت راية النبي»، الذي يعد بمنزلة سيرته الذاتية الموجزة: «بدأت صلتي بأفغانستان صيف عام ١٩٨٠م بترتيب قدري.» فقد كان يعمل بدلًا من طبيب آخر في مستوصف تابع للإخوان المسلمين، حين سأله مدير المستوصف ما إذا كان يريد أن يصحبه إلى باكستان ليعمل على رعاية اللاجئين الأفغان؛ فقد كان آنذاك مئات الآلاف يفرون عبر الحدود بعد الغزو السوفييتي الذي اجتاح البلاد مؤخرًا، فوافق الظواهري على الفور. وكان الظواهري مشغول الذهن يفكر في كيفية العثور على قاعدة آمنة لجماعة الجهاد، وهو ما بدا من الناحية العملية مستحيلًا في مصر، فيقول في الكتاب نفسه: «يجري نهر النيل بواديه الضيق بين صحراوين ممتدتين لا زرع فيهما ولا ماء، تلك الطبيعة التي جعلت نشوء حرب عصابات في مصر أمرًا غير ممكن، وبالتالي فرضت على سكان هذا الوادي الرضوخ للسلطة المركزية؛ للسخرة والتجنيد الإجباري.» وقد تكون باكستان أو أفغانستان بيئة أفضل لتكوين جيش من الإسلاميين المتطرفين الذين يستطيعون بعد ذلك العودة والاستيلاء على الحكم في مصر.

twitter @baghdad_library

سافر الظواهري إلى مدينة بيشاور مع طبيب تخدير وجراح تجميل، ويزعم الظواهري قائلًا: «وكنا نحن الثلاثة أول عرب يصلون للعمل الإغاثي.» وقد قضى أربعة أشهر في باكستان يعمل في جمعية الهلال الأحمر، وهي الجناح الإسلامي لمنظمة الصليب الأحمر الدولية. اشتق أصل اسم مدينة بيشاور من كلمة باللغة السنسكريتية تعني مدينة الزهور، وربما كان هذا هو حالها في العهد البوذي، ولكنها قد تخلت عن أي وجه من وجوه الجمال منذ زمن بعيد. تقع هذه المدينة على الطرف الشرقي لمر خيبر، وهو ملتقى تاريخي للجيوش الغازية منذ أيام الإسكندر الأكبر وجانكيس خان التي تركت آثارهما على ملامح السكان المختلفين في المنطقة. وقد كانت بيشاور نقطة حدود مهمة للغاية للإمبراطورية البريطانية، تبدأ من بعدها بيداء مقفرة تمتد حتى موسكو. وبعد أن تخلت الإمبراطورية البريطانية عن هذه القاعدة العسكرية عام ١٩٤٧م، تحولت بيشاور إلى مدينة زراعية متواضعة، ولكن يصعب التحكم فيها. وعلى كل حال، فقد أيقظت الحرب المدينة القديمة، وعندما وصل الظواهري إلى هناك كانت تكتظ بالمهربين وتجار الأسلحة والأفيون.

كان على المدينة أيضًا أن تستوعب تدفق اللاجئين الأفغان الجوعى الذين اقتلعهم الاحتلال من جذورهم. وبنهاية عام ١٩٨٠م، كان هناك ١.٤ مليون لاجئ أفغاني في باكستان، الرقم الذي تضاعف تقريبًا في العام التالي، وقد جاء معظمهم عن طريق مدينة بيشاور يسعون إلى ملاذ في المعسكرات القريبة. وكان كثير من هؤلاء اللاجئين جرحى ومصابين بسبب الألغام التي زرعها السوفييت في أرضهم أو القصف المكثف على المدن والقرى، وكانوا في أمس الحاجة إلى رعاية طبية. وكانت الحالات في المستشفيات والعيادات تتدهور، لا سيما في بداية الحرب، وقد قال الظواهري في رسائله إلى وطنه: إنه كان في بعض الأحيان يلجأ إلى استخدام العسل لتطهير الجروح.

وفي كتاباته لوالدته، كان يشتكي من الوحدة ويطلب منها أن تكثر من إرسال خطابات إليه. وفي بعض الأحيان، كان يطلق العنان لمشاعره وينظم لها بعض أبيات الشعر ليعبر عن يأسه:

قابلت شروري بالحسنى
دون أن تطلب أي مقابل ...
رب اغفر خطاياي

وارضها رغم آثامي
يا الله! ارحم غريبًا يشتاق لرؤية أمه[1]

وعن طريق علاقاته ببعض شيوخ القبائل المحلية، قام الظواهري برحلات سرية كثيرة عبر الحدود إلى أفغانستان، وأصبح من أوائل الغرباء الذي شاهدوا بأعينهم شجاعة جنود الحرية الأفغان، الذين أطلقوا على أنفسهم «المجاهدين». وفي ذلك الخريف، عاد الظواهري إلى القاهرة وفي جعبته الكثير والكثير من القصص عن «المعجزات» التي تحدث في الجهاد ضد السوفييت. لقد كانت حربًا لم يعرف الكثيرون تفاصيلها، حتى في العالم العربي، مع أنها من أكثر الحروب الدامية في ثمانينيات القرن العشرين. وبدأ الظواهري يطوف بالجامعات يجند للجهاد، بعد أن أطلق لحيته وارتدى الزي الباكستاني الذي يتكون من سترة طويلة وسِرْوال فضفاض.

وفي ذلك الوقت، لم يكن هناك سوى عدد قليل من المتطوعين العرب، وعندما وصل فوج من قادة المجاهدين إلى القاهرة، اصطحب الظواهري خاله محفوظ إلى فندق شيبرد لمقابلتهم، وطرحا عليهم فكرة كان عبد الله شليفر قد اقترحها عليهما. فقد كان شليفر يشعر بخيبة الأمل لأن وكالات الأنباء الغربية لم تستطع الاقتراب من أحداث الحرب الأفغانية وتصوير مجرياتها، فطلب من الظواهري أن يجد له ثلاثة شباب أفغان يافعين ليدربهم ليكونوا مصورين، وبهذه الطريقة يتمكنون من تسجيل قصص الحرب، ويقوم شليفر بتحريرها وإضافة التعليق، ولكنه اشترط على الظواهري أن يكون التصوير لأحداث حية قائلًا: «إذا لم نتمكن من تصوير القصف والانفجارات، فلن تذاع هذه الأخبار على الهواء.»

بعد ذلك بوقت قصير، اتصل شليفر بالظواهري لكي يعرف ما توصل إليه بشأن الاقتراح، ولكنه فوجئ بصديقه يتحدث إليه بأسلوب رسمي غريب، ويراوغه في الحديث. فقد بدأ الظواهري الحوار قائلًا: إن الأمريكيين هم العدو الذي يجب أن نواجهه، فأجابه شليفر: «أنا لا أفهم، لقد عدت لتوك من أفغانستان حيث تتعاونون مع الأمريكيين، وتقول لي إن أمريكا هي العدو؟!»

فأجابه الظواهري: «بالطبع، إننا نقبل المساعدة الأمريكية لمقاتلة الروس، ولكنهم لا يقلون شرًّا عنهم.»

[1] الترجمة بتصرف.

twitter @baghdad_library

فقال شليفر وقد اشتعل غضبه: «كيف يمكنك أن تعقد مثل هذه المقارنة؛ يمكنك في أمريكا ممارسة الإسلام بحرية أكثر مما يمكنك في مصر. أما في الاتحاد السوفييتي، فقد أغلقوا خمسين ألف مسجد!»

فقال الظواهري: «إنك لا ترى الفارق لأنك أمريكي.»

فأجابه شليفر الذي بلغ منه الغضب مبلغه أن السبب الوحيد في أنهما حتى يستطيعا إجراء هذا الحوار هو أن حلف شمال الأطلنطي (الناتو) والجيش الأمريكي منعا السوفييت من اكتساح أوروبا ثم الالتفات بعد ذلك إلى الشرق الأوسط. وانتهت المناقشة بحدة من الطرفين. وقد تناقشا عدة مرات من قبل، ولكن دائمًا باحترام وخفة ظل، أما هذه المرة فقد شعر شليفر أن الظواهري لم يكن يخاطبه هو، بل كان يتحدث إلى الجماهير. ولم يتلق شليفر بعد ذلك أية أخبار عن اقتراحه بتدريب رجال صحافة أفغان.

وفي مارس/آذار من عام ١٩٨١م، عاد الظواهري مرة أخرى لمهمة جديدة مع جمعية الهلال الأحمر في بيشاور، ولكنه لم يمكث طويلاً هذه المرة، وعاد إلى القاهرة بعد شهرين فقط. وقد كتب بعد ذلك أنه يرى الجهاد الأفغاني بمنزلة «دورة تدريبية في غاية الخطورة لإعداد الشباب المسلم المجاهد لخوض معركته المنتظرة مع القوة العظمى التي تفردت بزعامة العالم الآن؛ أمريكا.»

عندما عاد أيمن الظواهري إلى المعادي ليمارس مهنته كطبيب، كان العالم الإسلامي لا يزال يرتجف من جراء الزلازل السياسية التي ضربته في عام ١٩٧٩م، والتي لم تقتصر على الغزو السوفييتي لأفغانستان فقط ولكن أيضًا عودة آية الله روح الله الخميني إلى إيران والإطاحة بعرش الطاووس. وتعد هذه أول عملية ناجحة للاستيلاء على السلطة يقوم بها إسلاميون في دولة كبيرة. وعندما سافر شاه إيران المنفي محمد رضا بهلوي إلى الولايات المتحدة للعلاج من مرض السرطان، حرض آية الله جموع الطلاب على مهاجمة السفارة الأمريكية في طهران. وقد اعتبر السادات أن الخميني «رجل مجنون ... حول الإسلام إلى موضع للاستهزاء»، ودعا الشاه المريض ليقيم في مصر، وقد مات الشاه هناك في العام التالي.

وفي نظر المسلمين في كل مكان، فقد أعاد الخميني تحديد إطار الخلاف القائم مع الغرب؛ فبدلاً من التنازل عن مستقبل الإسلام وتبني نموذج الحكم العلماني الديمقراطي، فرض هو العكس بصورة مذهلة. وقد استحضرت خطبه المؤججة

للمشاعر القوة والصلابة التي تميز بها الإسلام منذ ألف عام في لغة أنذرت مبكرًا باللّهجة الثورية اللاذعة التي ستتردد في خطب بن لادن. وقد كان غضبه على الغرب موجهًا نحو مفهوم الحرية، فقد قال بعد وقت قصير من استيلائه على الحكم: «نعم، نحن رجعيون وأنتم مثقفون متنورون، وأنتم أيها المثقفون لا تريدوننا أن نرجع ألفًا وأربعمائة عام إلى الوراء. أنتم يا من تريدون الحرية، الحرية في كل شيء، حرية الأحزاب، أنتم يا من تريدون كل الحريات، أيها المثقفون، الحرية التي ستفسد شبابنا، الحرية التي تهيئ الطريق للظالم، الحرية التي تجر بلدنا إلى الهاوية.»

وكان الخميني قد أشار في الأربعينيات إلى استعداده لاستخدام الإرهاب لإخضاع من يراهم أعداء الإسلام، مانحًا قضيته غطاءً شرعيًّا ودعمًا ماديًّا، فيقول: «إن الإسلام يقول: إن كل خير موجود، موجود بفضل السيف وفي ظل السيف! لا يمكن إخضاع الشعوب إلا بالسيف! إن السيف هو مفتاح الجنة التي لن تفتح بابها إلا للمجاهدين».

وقد جعل انتماء الخميني إلى الشيعة وليس إلى السنة، التي تمثل الغالبية العظمى من العالم الإسلامي فيما عدا العراق وإيران، منه شخصية معقدة للمتطرفين السنة.[٢] ومع ذلك، فقد ساندت جماعة الظواهري، الجهاد، الثورة الإيرانية بالمنشورات وشرائط الكاسيت التي تدعو جميع الجماعات الإسلامية في مصر إلى أن تحذو حذو إيران. وقد أوضح هذا التحول السريع في بلد ثري وقوي ومتحضر نسبيًّا مثل إيران إلى حكومة دينية صارمة أن حلم الإسلاميين قريب المنال، وأشعل بداخلهم الرغبة في العمل والتحرك.

أصبحت الحركة الإسلامية في ذلك الوقت واسعة ومتنوعة وتشمل الراغبين في العمل في إطار نظام سياسي مثل الإخوان المسلمين، ومن يريدون الإطاحة بالحكومة وفرض ديكتاتورية دينية مثل الظواهري. وقد كان الهدف الأساسي الذي يجاهد الإسلاميون من أجله هو فرض الشريعة الإسلامية، فكانوا يؤمنون أن الآيات القرآنية الخمسمائة التي تمثل أسس الشريعة هي الأوامر الربانية الثابتة التي تمهد الطريق للعودة إلى العصر الذهبي أيام الرسول والخلفاء الراشدين، مع أن القوانين قد

---

[٢] انقسم المسلمون بعد وفاة النبي عام ٦٣٢م بسبب النزاع على الخلافة؛ فأراد من أسموا أنفسهم السنة اختيار الخليفة بالانتخاب، ولكن كانت هناك جماعة أخرى، التي أصبح اسمها فيما بعد الشيعة، رأت أن الخلافة يجب أن تنتقل إلى سلالة النبي بدءًا من ابن عمه وزوج ابنته عليّ بن أبي طالب. ومنذ ذلك الحين، طور الفريقان اختلافات عقائدية وثقافية كثيرة تميزهما عن بعضهما.

twitter @baghdad_library

تطورت بعد قرون من وفاة النبي. وتضع هذه الآيات أسسًا لبعض السلوكيات الدقيقة والمتنوعة مثل تشميت العاطس وجواز ارتداء الحلي الذهبية، وتحدد عقوبة ارتكاب بعض الجرائم مثل الزنا وشرب الخمر، ولكنها لا تضع حدودًا لجرائم أخرى، بما في ذلك القتل. ويقول الإسلاميون: إنه لا يمكن تحسين أحكام الشريعة، رغم مرور خمسة عشر قرنًا من التغيرات الاجتماعية، لأن مصدرها المباشر هو الله. وكانوا يريدون تجاهل اجتهاد العلماء والدارسين المسلمين في القضاء ويصوغون نظامًا قانونيًا إسلاميًا حقيقيًا لم يلوثه تأثير الغرب أو أي قوانين جديدة بسبب الانغماس في الحداثة. ومن ناحية أخرى، رأى غير المسلمين والمحدثين الإسلاميين أن أحكام الشريعة تعكس قوانين البدو الصارمة التي حكمت الثقافة التي ولد فيها الإسلام، وهي قطعًا غير مناسبة لأن تحكم المجتمع الحديث. وفي ظل حكم السادات، تعهدت الحكومة أكثر من مرة بأن تلتزم بالشريعة، ولكن أفعال الرئيس أوضحت أنه لا يمكن الوثوق بذلك العهد.

وحد اتفاق السلام الذي عقده السادات مع إسرائيل جميع الجماعات الإسلامية المختلفة، وأشعل غضبهم أيضًا قانون جديد ترعاه السيدة جيهان زوجة الرئيس يكفل للمرأة حق الطلاق، وهو حق لم يكفله لها القرآن. وفي الخطاب الذي سيثبت أنه الأخير في حياته، سخر السادات من الزي الإسلامي الذي ترتديه النساء المؤمنات وأطلق عليه «الخيمة»، ومنع ارتداء النقاب في الجامعات. رد المتطرفون على هذا الخطاب بوصف الرئيس بأنه مرتد. ونظرًا لأنه، وفقًا للشريعة الإسلامية، لا يجوز الخروج على ولي الأمر إلا إذا لم يكن يؤمن بالله أو بالرسول، فقد كان رميه بالردة تصريحًا بقتله.

بعد ذلك قام السادات بحل جميع الجمعيات الطلابية الدينية ومصادرة ممتلكاتهم وإغلاق معسكراتهم الصيفية ردًا على سلسلة من المظاهرات التي نظمها الإسلاميون، مناقضًا بذلك موقفه من التسامح مع هذه الجماعات، بل وتشجيعها، إلى تبني شعار جديد يقول «لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة»، وما كان شخص ليجد وسيلة أكثر من هذه لإثارة الإسلاميين وإشعال غضبهم.

كان الظواهري يخطط للتخلص ليس فقط من رئيس الدولة، ولكن من النظام الحاكم بالكامل. وكان يجند ضباطًا من الجيش المصري سرًا في انتظار اللحظة المناسبة التي تكتمل فيها قوة جماعة الجهاد من حيث العدة والعتاد والرجال كي يبدأ العمل. وكان الرأس المخطط الذي يعتمد عليه الظواهري هو عبود الزمر،

وهو ضابط برتبة مقدم في المخابرات الحربية وكان أحد أبطال حرب ١٩٧٣م ضد إسرائيل (وقد سُمِّي شارع في القاهرة باسمه تكريمًا له). وكانت خطة الزمر تقضي باغتيال كبار القادة في البلد، والاستيلاء على المقر الرئيسي للجيش وأمن الدولة ومبنى الاتصالات، وبالطبع مبنى الإذاعة والتليفزيون، حيث سيُذاع خبر الثورة الإسلامية مطلقة العنان، على حد توقعه، لثورة شعبية ضد النظام العلماني في جميع أنحاء البلاد. لقد كانت هذه الخطة، كما وصفها الظواهري بعد ذلك، «خطة فنية مفصلة».

وأيضًا كان القائد الجسور في سلاح المدرعات المصري عصام القمري عضوًا بارزًا في خلية الظواهري. وقد حصل الرائد القمري على عدد من الترقيات التي جعلته يسبق أقرانه؛ نظرًا لشجاعته وذكائه. وقد وصفه الظواهري بأنه: «رجل بكل ما تعنيه كلمة الرجولة من معانٍ. وإن كثيرًا من المتاعب التي عاناها والتضحيات التي قدمها برضا واطمئنان كانت بسبب ما انطوت عليه نفسه الكريمة من شهامة ونخوة.» ومع أن الظواهري كان قائد خلية المعادي، فقد كان دائمًا يرجع في قراراته إلى القمري الذي كان يتمتع بشخصية قيادية، وهي الميزة التي كان الظواهري يفتقدها بصورة ملحوظة. وبالفعل، لاحظ القمري أن الظواهري «يفتقد إلى شيء ما» وقد نبهه إلى ذلك ذات مرة قائلًا: «إذا كنت عضوًا في أية جماعة، فأنت لا تصلح أن تكون القائد.»

بدأ القمري يهرب أسلحة وذخائر من معاقل الجيش ويخزنها في عيادة الظواهري الطبية في المعادي، التي كانت في شقة في الطابق السفلي من المبنى الذي يقطن فيه والداه. وفي فبراير/شباط من عام ١٩٨١م، في أثناء نقل الأسلحة من العيادة إلى أحد المخازن، ألقت الشرطة القبض على شاب يحمل حقيبة مليئة بالبنادق والتقارير الحربية وخرائط توضح مواقع جميع مرابض الدبابات في القاهرة. وعندما أدرك القمري أنه سريعًا ما سيتورط في القضية، اختفى تمامًا، في حين أُلقي القبض على عدد من ضباطه، وظل الظواهري في مكانه دون تفسير واضح.

وحتى حملة الاعتقالات تلك، كانت الحكومة المصرية قد أقنعت نفسها أنها قد تخلصت من التنظيمات الإسلامية السرية. وفي سبتمبر/أيلول من العام نفسه، أصدر السادات أمرًا باعتقال أكثر من ألف وخمسمائة شخص بما في ذلك شخصيات مصرية بارزة، ليسوا فقط إسلاميين ولكن أيضًا مفكرين ليست لهم ميول دينية وماركسيين ومسيحيين وزعماء طلاب وصحفيين وكتاب وأطباء من جماعة الإخوان المسلمين، باختصار مزيج من المنشقين من قطاعات مختلفة. وقد أخفقت الشباك

twitter @baghdad_library

في اصطياد الظواهري، ولكن وقع معظم قادة جماعة الجهاد الآخرين فيها. وعلى أية حال، كانت هناك خلية عسكرية داخل الصفوف المشتتة لجماعة الجهاد بدأت تنفيذ خطة انتهازية أعدت على عجل؛ فقد اقترح الملازم أول خالد الإسلامبولي البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا أن يقوم باغتيال الرئيس السادات في أثناء حضوره العرض العسكري في الشهر التالي.

قال الظواهري بعد ذلك في شهادته: إنه لم يسمع بأمر هذه الخطة حتى الساعة التاسعة من صباح يوم السادس من أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٨١م، أي قبل ساعات قليلة من الوقت المحدد لتنفيذ عملية الاغتيال. وقد أخبره بالخطة دكتور صيدلي من أعضاء خليته. وقال الظواهري لمستجوبيه: «لقد ذهلت وصدمت.» واقترح عليه الصيدلي أن يفعلوا شيئًا للمساعدة في نجاح الخطة التي أُعدت على عجالة كي تنجح، فيقول الظواهري: «ولكنني قلت له ماذا بإمكاننا أن نفعل؟ هل يريدوننا أن نثير الشغب ونطلق الرصاص في الشوارع حتى تعتقلنا الشرطة؟ إننا لن نفعل أي شيء.» وعاد بعد ذلك إلى مرضاه. وعندما سمع بعد ساعات قليلة أن العرض العسكري ما زال مستمرًا، افترض أن العملية قد فشلت وأن كل من لهم صلة بها قد اعتقلوا. ثم ذهب بعد ذلك إلى منزل إحدى شقيقتيه وقد أخبرته أن العرض العسكري قد توقف وأن الرئيس قد غادر الساحة سالمًا. فالأخبار الحقيقية لم تكن قد أذيعت بعد.

كان السادات يحتفل بالذكرى الثامنة لحرب عام ١٩٧٣م، وبينما كان يحيي القوات المارة أمامه في العرض العسكري، وهو محاط بمجموعة من كبار رجال الدولة، ومن بينهم عدد من الدبلوماسيين الأمريكيين، وبطرس بطرس غالي، الذي سيصبح فيما بعد الأمين العام للأمم المتحدة، خرجت مركبة عسكرية عن مسارها واتجهت إلى منصة العرض. وقفز الملازم أول الإسلامبولي ومعه ثلاثة من المتآمرين وألقوا قنابل يدوية على المنصة، وصرخ الإسلامبولي: «لقد قتلت فرعون!» بعد أن أفرغ ذخيرة بندقيته الآلية في جسد الرئيس السادات الذي ظل منتصبًا في تحدٍّ حتى ثقبت الرصاصات جسده بالكامل.

قوبل خبر موت السادات في وقت لاحق من ذلك اليوم بقليل من الحزن في العالم العربي الذي اعتبره خائنًا لأنه عقد اتفاقية سلام مع إسرائيل. ورأى الظواهري أن عملية الاغتيال لم تحقق شيئًا في السعي إلى تكوين الدولة الإسلامية. ولكن من المحتمل

أنه كانت هناك فرصة لتنفيذ الخطة الكبرى في الفترة المضطربة التي تبعت عملية الاغتيال. ففي ذلك الوقت، خرج عصام القمري من مخبئه وطلب من الظواهري أن يوصله بالمجموعة التي نفذت عملية الاغتيال. وفي الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم، أي بعد ثمان ساعات فقط من مقتل السادات، قابل الظواهري والقمري عبود الزمر في سيارة خارج الشقة التي كان القمري يختبئ بها. كان لدى القمري اقتراح جريء ربما يؤدي إلى القضاء على جميع قيادات الحكومة بالإضافة إلى عدد من الرؤساء الأجانب، وذلك عن طريق شن هجوم على جنازة السادات. ووافق الزمر على الخطة وطلب من القمري أن يمده بعشر قنابل وبندقيتين. وفي اليوم التالي، تقابلت المجموعة نفسها مرة أخرى، وأحضر القمري الأسلحة وعددًا من صناديق الذخيرة. ولكن في تلك الأثناء، كانت الحكومة الجديدة برئاسة حسني مبارك تشن حملة اعتقالات واسعة للآلاف من المشتبه في تورطهم في اغتيال السادات، وألقي القبض على عبود الزمر قبل البدء في تنفيذ الخطة الجديدة.

ومن المؤكد أن الظواهري كان على ثقة بأن اسمه سيرد في التحقيقات بطريقة أو بأخرى، إلا أنه بقي في البلاد. وفي الثالث والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول، قام أخيرًا بجمع أغراضه وقرر السفر مرة أخرى إلى باكستان وذهب ليودع بعض أقاربه، وبينما كان شقيقه حسين يقله إلى المطار، اعترضت الشرطة طريقه على كورنيش النيل. ويقول ابن خاله عمر عزام: «اصطحبوا أيمن إلى قسم شرطة المعادي وهو محاط بالحراس، وصفعه رئيس الشرطة على وجهه، فرد له أيمن الصفعة!» وتنظر عائلة أيمن الظواهري إلى ذلك الموقف بدهشة شديدة، ليس فقط بسبب رد فعل الظواهري المتهور، ولكن أيضًا لأنه حتى تلك اللحظة لم يكن قد لجأ إلى العنف أبدًا في حياته. وعلى الفور، اشتهر أيمن الظواهري بين المساجين الآخرين بأنه الرجل الذي رد الصفعة.

استقبلت قوات الأمن المساجين الجدد بتجريدهم من ملابسهم وعصب أعينهم وتكبيلهم، ثم انهالت على أجسادهم ضربًا بالعصي. وبعد ذلك ألقتهم في زنزانات حجرية ضيقة لا يدخلها الضوء إلا من شباك مربع صغير في الباب الحديدي وهم يشعرون بالذل والإهانة والخوف والارتباك. ويرجع تاريخ إنشاء تلك الزنزانات إلى القرن الثاني عشر في عهد الفاتح الكردي العظيم صلاح الدين باستخدام العمالة التي وقعت في

twitter @baghdad_library

الأسر من الصليبيين، وقد كانت جزءًا من القلعة المهيبة التي تقع على ربوة تطل على القاهرة والتي ظلت مقرًا للحكم لمدة سبعمائة عام.

دفعت صرخات الألم التي كانت تنطلق من أفواه المساجين الذين يجري التحقيق معهم كثيرًا من المساجين الآخرين إلى حالة أقرب إلى الجنون، حتى في الأوقات التي لا يتعرضون فيها هم أنفسهم للتعذيب. ونظرًا لمكانته، تعرض الظواهري للضرب المبرح بصورة متكررة إلى جانب صور أخرى من التعذيب السادي التي كانت الوحدة ٧٥ من المخابرات، التي كانت تتولى التحقيقات في مصر آنذاك، تبرع في ابتكارها.

ويقول أحد الاتجاهات الفكرية: إن جذور المأساة التي تعرضت لها أمريكا في ١١ سبتمبر/أيلول قد ولدت في السجون المصرية. ويقول المدافعون عن حقوق الإنسان في القاهرة: إن التعذيب قد زرع في نفوس المساجين رغبة متعطشة للانتقام، بدءًا بسيد قطب، ثم داخل أتباعه الذين تربوا على فكره، ومنهم أيمن الظواهري. وقد كان الهدف الأساسي الذي ينصب عليه غضب المساجين هو الحكومة المصرية العلمانية، ولكن كانت هناك أيضًا موجة شديدة من الغضب تتجه إلى الغرب الذي كانوا يرون أنه القوة التي تقف خلف هذا النظام القمعي، فقد حمَّلوا الغرب مسئولية إفساد المجتمع الإسلامي وإذلاله. وفي الواقع، إن فكرة الإذلال، التي تعد جوهر عملية التعذيب، مهمة للغاية في محاولة فهم الغضب الشديد الذي تجيش به صدور الإسلاميين المتطرفين. فقد أصبحت السجون المصرية مصنعًا لإنتاج مقاتلين يسعون بكل كيانهم للقصاص، أو ما يطلقون عليه العدالة.

يقول منتصر الزيات، وهو محامٍ إسلامي سُجِن مع الظواهري وأصبح فيما بعد محاميه وكاتب سيرته الذاتية:[٢] إن التجارب الأليمة التي مر بها الظواهري في السجن حولته من شخص متوسط النفوذ في جماعة الجهاد إلى متطرف صلب وعنيد. ويشير الزيات وشهود آخرون إلى ما حدث في علاقته مع عصام القمري، الذي كان صديقًا مقربًا له، وطالما كَنّ له الظواهري الإعجاب والاحترام؛ فبعد القبض على الظواهري مباشرة، بدأ ضباط في وزارة الداخلية استجوابه بقسوة عن الرائد القمري الذي كان لا يزال يهرب من بين أصابعهم، وأصبح آنذاك المطلوب الأول من قِبل السلطات المصرية. وقد نجا القمري بالفعل من معركة بالقنابل اليدوية

[٢] ألف منتصر الزيات كتابًا هو في حقيقته سيرة ذاتية نقدية يحمل عنوان «أيمن الظواهري كما عرفته»، وقد سحبه الناشر في القاهرة من الأسواق بسبب الضغط الذي تعرض له من قِبل مؤيدي الظواهري.

والأسلحة الآلية لقي فيها كثير من رجال الشرطة مصرعهم وأصيب آخرون. وفي بحثهم الضاري عن القمري، طرد ضباط الأمن عائلة الظواهري الشهيرة من منزلها ودمروا الأرضيات والحوائط بحثًا عن أدلة تقودهم إليه، وانتظروا أيضًا بجانب الهاتف متوقعين أن يتصل الهارب اليائس بصديقه. وبعد أسبوعين، جاءت المكالمة المنتظرة، وعرَّف المتصل نفسه على أنه «الدكتور عصام» وطلب أن يقابل الظواهري؛ فلم يكن القمري يعرف أن الظواهري في أيدي السلطات لأنها تكتمت خبر القبض عليه. وقد أجاب عليه أحد ضباط الشرطة متظاهرًا بأنه أحد أفراد العائلة وأخبره أن الظواهري ليس بالمنزل، فأجابه المتصل: «أخبره أن يصلي المغرب معي» في مسجد يعرفه كل منهما.

يقول فؤاد علام رئيس وحدة مكافحة الإرهاب بوزارة الداخلية في ذلك الوقت: «أعطاه القمري موعدًا على الطريق إلى المعادي، ولكنه لاحظ الوجود الأمني هناك، ففر مرة أخرى.» وفؤاد علام شخص ودود له صوت عميق وخفيض، وكان يتولى التحقيق تقريبًا مع جميع القياديين الإسلاميين المتطرفين منذ عام ١٩٦٥م حين حقق مع سيد قطب. ويقول علام: «استدعيت أيمن الظواهري إلى مكتبي لكي أتفق معه على خطة.» ويقول: إن الظواهري كان «خجولًا وانطوائيًّا ولا ينظر إليك وهو يحدثك؛ وهي علامة على الأدب في العالم العربي.» ووفقًا لما يقوله محفوظ خال الظواهري، فإن الظواهري كان قد تعرض بالفعل لتعذيب وحشي وقد ذهب إلى مكتب علام وهو يرتدي أحد نعليه فقط بسبب إصابة في قدمه من أثر التعذيب. وقد رتب علام لأن يُحَوَّل خط هاتف الظواهري إلى مكتبه وأبقى الظواهري هناك حتى اتصل به القمري مرة أخرى. وهذه المرة أجاب الظواهري على الهاتف ورتب معه موعدًا لمقابلته في مسجد الزاوية في إمبابة. وكما هو مخطط، ذهب الظواهري إلى المسجد ودل قوات الأمن على صديقه.

ولا يعترف الظواهري بهذا في كتابه، ولكنه يشير إليه بأسلوب غير مباشر فيكتب عن «ذل» السجن: «وأشد ما في الأسر هو إرغام المجاهد تحت وطأة التعذيب على الاعتراف على إخوانه، وإكراهه على تدمير حركته بيده، وأن يقدم بنفسه أسراره وأسرار إخوانه إلى أعدائه.» وقد وضعت السلطات القمري في الزنزانة نفسها مع الظواهري بعد أن شهد عليه وعلى ثلاثة عشر عضوًا آخرين. وقد تلقى القمري حكمًا بالسجن لمدة عشر سنوات. ويقول الظواهري: «استقبلها كالعادة بثباته وهدوئه الفريد، بل كان يثبتني ويشد من أزري ويقول لي: إني مشفق عليك مما ستحمله

twitter @baghdad_library

على كاهلك من عبء.» وفي عام ١٩٨٨م، قُتِل القمري بالرصاص على أيدي قوات الشرطة بعد هروبه من السجن.

كان أيمن الظواهري المدعى عليه رقم ١١٣ من بين ٣٠٢ من المتهمين بالمساعدة في عملية الاغتيال أو التخطيط لها، بالإضافة إلى عدد من الجرائم الأخرى (الاتجار في السلاح في حالة الظواهري). وقد حوكم الملازم أول الإسلامبولي وثلاثة وعشرين شخصًا المتهمون بتنفيذ عملية الاغتيال كل على حدة، وصدر حكم بالإعدام ضد الإسلامبولي وأربعة آخرين من المتآمرين. وتقريبًا وقد زُجَّ بجميع الشخصيات الإسلامية المعروفة في مصر في ذلك المخطط.[4] أما المدعى عليهم الآخرون، وكان بعضهم لا يزال في سن المراهقة، فقد حُشروا جميعًا في قفص واحد كبير كأقفاص الحيوانات يحتل جانبًا كاملًا من قاعة محكمة كبيرة مؤقتة أعدت خصوصًا لهذا الغرض في أرض المعارض في القاهرة، حيث تقام المعارض والمؤتمرات الكبرى. وكان المتهمون ينتمون إلى منظمات وجماعات مختلفة: الجهاد والجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين، التي تمثل القلب العنيد والمثير للمتاعب للحركة الإسلامية. وكانت هناك شبكات إخبارية عالمية تغطي المحاكمة، وقد كان الظواهري هو المتحدث الرسمي عن المتهمين لأنه كان أفصحهم في اللغة الإنجليزية.

وفي الرابع من ديسمبر/كانون الأول من عام ١٩٨٢م، أظهر فيلم مصور عن اليوم الأول للمحاكمة المدعى عليهم الثلاثمائة وأضواء كاميرات التلفزيون تضيء في وجوههم وهم ينشدون ويدعون وينادون بيأس على أفراد عائلاتهم. وأخيرًا، استقرت الكاميرا على وجه أيمن الظواهري الذي كان يقف بعيدًا عن الفوضى وعلى وجهه نظرة وقار وحدة شديدة، وكان حينها في الحادية والثلاثين من عمره ويرتدي ثوبًا أبيض ويتدلى على كتفه شال رمادي.

وعند إشارة محددة، صمت باقي السجناء، وصاح أيمن الظواهري بصوت عال: «نحن الآن نريد أن نتحدث إلى العالم أجمع. من نحن؟ ولماذا أتوا بنا إلى هنا؟ وماذا نريد أن نقول؟ فأما عن السؤال الأول: نحن مسلمون. نحن مسلمون مؤمنون بدينهم!

[4] صدر حكمًا غيابيًا على محمد الظواهري شقيق أيمن الظواهري، ولكن تم إسقاط التهم عنه فيما بعد. أما شقيقهما الأصغر حسين فقد قضى ثلاثة عشر شهرًا في السجن قبل أن تسقط التهم الموجهة إليه أيضًا.

نحن مسلمون مؤمنون بديننا فكرًا وممارسة. لذلك حاولنا أن نبذل قصارى جهدنا لبناء دولة إسلامية ومجتمع إسلامي!»

صاح المدعى عليهم الآخرون «لا إله إلا الله»، في حين استكمل الظواهري حديثه في لهجة قوية وعنيفة وهو يكرر: «إننا لسنا نادمين، إننا لسنا نادمين على ما فعلنا من أجل ديننا. لقد ضحينا، وها نحن نقف مستعدين لتقديم المزيد من التضحيات» عاد زملاؤه يهللون «لا إله إلا الله.»

ثم قال أيمن بعد ذلك: «إننا هنا الجبهة الإسلامية الحقيقية والمعارضة الإسلامية الحقيقية ضد الصهيونية والشيوعية والإمبريالية.» ثم توقف قليلًا واستأنف: «والآن، للسؤال الثاني، لماذا أتوا بنا إلى هنا؟ لقد أتوا بنا إلى هنا لسببين: الأول: إنهم يحاولون القضاء على الحركة الإسلامية البارزة ... والثاني: لاستكمال مؤامرة إخلاء المنطقة استعدادًا للتسلل الصهيوني.»

صاح الآخرون: «لن نضحي بدماء المسلمين من أجل الأمريكان واليهود.»

ثم خلع المساجين أحذيتهم ورفعوا ملابسهم ليفضحوا أمام الجميع آثار التعذيب على أجسادهم، وتحدث الظواهري عن الظلم والإيذاء الذي لقوه، على حد تعبيره «في السجون المصرية القذرة حيث عانينا أقسى أنواع المعاملة غير الإنسانية. لقد كانوا يركلوننا ويضربوننا ويجلدوننا بأسلاك الكهرباء ويصعقوننا بالكهرباء، لقد صعقونا بالكهرباء! وأطلقوا علينا الكلاب المفترسة، أطلقوا كلابهم المتوحشة علينا! وكانوا يعلقوننا فوق حواف الأبواب» وانحنى إلى الأمام ليشرح لهم عمليًّا وهو يقول: «وأيدينا مقيدة خلف ظهورنا! وقبضوا على زوجاتنا وأمهاتنا وآبائنا وشقيقاتنا وأبنائنا!»

ثم أخذ المدعى عليهم ينشدون «جيش محمد سوف يعود وسوف نهزم اليهود!»

التقطت الكاميرا وجه أحد المدعى عليهم يرتدي قفطانًا أخضر وعيناه تتقدان كرهًا وغضبًا وهو يمد ذراعيه عبر قضبان القفص ويصرخ ثم يسقط مغشيًّا عليه بين يدي أحد زملائه. ثم سرد أيمن الظواهري بعد ذلك أسماء عدد من السجناء الذين قال: إنهم ماتوا من أثر التعذيب، وأخذ يصرخ: «أين الديمقراطية إذًا؟ أين الحرية؟ أين حقوق الإنسان؟ أين العدالة؟ أين العدالة؟ إننا لن ننسى أبدًا! لن ننسى أبدًا!»

أثبتت تقارير الطب الشرعي بعد ذلك صحة ادعاءات أيمن الظواهري عن التعذيب، فجاء فيها وجود ستة جروح في أماكن مختلفة من جسده من أثر التعرض

twitter @baghdad_library

للضرب «بجسم صلب». وقد شهد الظواهري فيما بعد في قضية ضد الوحدة ٧٥ من المخابرات التي كانت تجري التحقيقات في السجون. وقد أيدت شهادة أحد ضباط المخابرات شهادة الظواهري إذ اعترف الأول أنه شاهد الظواهري في السجن «وقد حلقوا له رأسه، وأهانوا كرامته تمامًا، وخضع لجميع أنواع التعذيب.» وقال الضابط أيضًا: إنه كان في غرفة التحقيقات عندما أحضروا سجينًا آخر إلى الغرفة مصفدًا بالأغلال في يديه وقدميه. وكان المحققون يحاولون إجبار الظواهري على الاعتراف بتورطه في عملية اغتيال السادات، حين قال السجين الآخر: «كيف تتوقع منه أن يعترف وهو يعرف أن العقوبة هي الموت؟» فأجابه الظواهري: «إن الموت أرحم من العذاب.»

استمرت المحاكمة ثلاث سنوات، في هذه الأثناء كان من الممكن أن يذهب المدعى عليهم إلى قاعة المحاكمة كل يوم، وبعد ذلك قد يمر شهر دون أن يدخلوها. وقد كانوا من جماعات مختلفة، وكثير من هذه الجماعات لم يعلم بوجود الأخرى حتى وجد أعضاءها مسجونين معه في زنزانة واحدة. وبطبيعة الحال، بدءوا يتآمرون من جديد، وفي حين كان بعضهم يتحدث بلهفة عن إعادة البناء، كانت هناك الكثير من المناقشات عن الحقيقة المرعبة أن السلطات ألقت القبض على الكثير منهم وأن الحركة الإسلامية قد تعرضت للخيانة بسرعة. وقد اعترف الظواهري لأحد زملائه في السجن بهذا قائلًا: «لقد هُزمنا، ومن ثَمَّ ضعفنا.» وقضوا أيامًا كثيرة يفكرون في أسباب فشل العمليات السرية وكيف كان من الممكن أن تنجح. ويقول منتصر الزيات زميل الظواهري في السجن ومؤلف سيرته الذاتية: «لقد أخبرني أيمن أنه لم يكن يريد تنفيذ عملية اغتيال السادات. وكان يرى أنه من الأفضل الانتظار واقتلاع النظام من جذوره عن طريق انقلاب عسكري؛ إنه لم يكن متعطشًا للدماء بهذا الشكل.»

وقد جعل تعليم الظواهري وعائلته العريقة وثراؤه النسبي منه شخصية شهيرة في السجن. فكانت عائلته ترسل له سائقًا محملًا بالطعام من حين لآخر، وكان الظواهري يوزع هذا الطعام على زملائه بالسجن، وكان أيضًا يساعد في مستشفى السجن.

وفي ذلك الوقت، تقابل أيمن الظواهري وجهًا لوجه مع أشهر شخصية إسلامية في مصر: الشيخ عمر عبد الرحمن الذي كان متهمًا أيضًا بالتآمر في قضية اغتيال

السادات. كان الشيخ عمر رجلًا غريبًا وقوي الشخصية في الوقت نفسه، وقد أصيب بالعمى بسبب مرض السكر في صغره، ولكنه يتمتع بصوت جهوري رنان، وقد سطع نجمه في الدوائر الإسلامية بسبب شجبه البليغ لعبد الناصر الذي ألقى به في السجن لمدة ثمانية أشهر دون توجيه أي اتهام له. وبعد وفاة عبد الناصر، زاد نفوذ الشيخ الكفيف، خاصة في صعيد مصر حيث كان يعمل أستاذًا في علم التفسير في فرع أسيوط من جامعة الأزهر. وقد كوَّن أتباعًا من الطلاب وأصبح زعيم الجماعة الإسلامية. وكان بعض الشباب الإسلاميين يمولون نشاطاتهم عن طريق سرقة المسيحيين الأقباط، الذين كانوا يمثلون ١٠٪ تقريبًا من السكان في ذلك الوقت، ولكن كان منهم أصحاب المحال التجارية والمشاريع التجارية الصغيرة. وفي عدد من المناسبات كان المتطرفون الشباب يهاجمون حفلات زفاف الأقباط ويسرقون الضيوف. وتتطلب عقيدة الجهاد فتوى لتبرير هذه السلوكيات وإلا فإنها تصبح جرائم، فأصدر لهم الشيخ عمر فتاوى تحلل قتل المسيحيين وسرقة محال المجوهرات المسيحية، استنادًا إلى حجة أن هناك حالة حرب بين المسيحيين والمسلمين.

وبعد أن اتجه السادات في النهاية إلى تضييق الخناق على الإسلاميين، انتقل الشيخ الكفيف للإقامة المؤقتة لمدة ثلاث سنوات في المملكة العربية السعودية وبعض الدول العربية الأخرى، حيث وجد أثرياء يناصرون قضيته ويمولونها. وعندما عاد إلى مصر في عام ١٩٨٠م، لم يكن فقط الأب الروحي للجماعة الإسلامية، ولكنه كان أمير الجماعة أيضًا. وفي واحدة من أولى الفتاوى التي أصدرها الشيخ، صرح أن القائد المرتد يستحق القتل على أيدي المؤمنين. وفي محاكمته بتهمة التآمر لاغتيال السادات، نجح محاميه في إقناع المحكمة بأنه نظرًا لأن موكله لم يذكر الرئيس المصري تحديدًا، فإن علاقته بعملية الاغتيال لا تتعدى كونها حالة عرضية، وبعد ستة أشهر من اعتقال الشيخ، أفرج عنه.

ومع أن أعضاء الجماعتين المقاتلتين الرئيسيتين، الجماعة الإسلامية والجهاد، يشتركون في هدف رئيسي وهو الإطاحة بالحكومة، فقد كانوا يقفون على طرفي النقيض من حيث الفكر والأسلوب. فكان الشيخ الكفيف يرى أن الإنسانية جمعاء يمكن أن تعتنق الإسلام، وكان مقتنعًا بنشر هذه الرسالة. أما الظواهري، فكان يرفض هذه الفكرة تمامًا؛ إذ كان لا يثق بالعامة ويزدري أي صورة أخرى من صور الإيمان غير تلك الصورة المتشددة في ذهنه، ويفضل العمل سرًّا ومن جانب واحد،

twitter @baghdad_library

حتى تتمكن جماعته من الاستيلاء على السلطة وفرض نظرته الدينية الشمولية على المجتمع.

وقد تعاونت الجماعتان تحت قيادة الشيخ عمر، ولكن سعى أعضاء الجهاد ومنهم القمري والظواهري لأن يكون القائد عضوًا من جماعتهم. وفي السجن في القاهرة، دارت مناقشات حادة بين الجماعتين حول أفضل طريقة للقيام بثورة إسلامية حقيقية، ولطالما تنازعوا حول من هو أكثر شخص مناسب ليقود هذه الثورة. فأشار الظواهري إلى أنه، طبقًا للشريعة، لا يجوز أن يكون القائد ضريرًا، فرد عليه الشيخ عمر بأن الشريعة تقتضي أيضًا أن الأمير لا يجوز أن يكون أسيرًا. وقد وصل التنافس بين الرجلين إلى منتهاه، وحاول الزيات أن يخفف من حدة هجوم الظواهري على الشيخ، ولكنه رفض أن يتراجع. وكانت النتيجة أن انفصلت الحركتان مرة أخرى، وستظلان قطبين منفصلين بسبب القائدين العنيدين.

أدين الظواهري بالمتاجرة في السلاح، وتلقى حكمًا بالسجن لمدة ثلاث سنوات، كان بالفعل على وشك الانتهاء من قضائها مع انتهاء المحاكمة، وربما تكون السلطات قد أسقطت عنه بعض التهم الإضافية نظرًا لتعاونه معها والشهادة ضد بعض زملائه.

خرج أيمن الظواهري من السجن في عام ١٩٨٤م، وقد أصبح متطرفًا متشددًا تشكلت أفكاره لتكون اعتقادًا راسخًا بداخله. وبعد خروجه بوقت قصير، تحدث إليه سعد الدين إبراهيم، وهو أستاذ بارز في علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، فلاحظ فيه درجة واضحة من الشك ورغبة جامحة في الثأر، التي كانت تميز جميع من تعرض للقسوة والتعذيب في السجن. وكان من الممكن أن يكون للتعذيب آثار أخرى غير متوقعة على هؤلاء الرجال شديدي التدين. وقد قال الكثيرون منهم: إن الرؤى كانت تراودهم بعد جلسات التعذيب بأن الملائكة ترحب بهم في الجنة، وبالمجتمع الإسلامي العادل الذي أصبح ممكنًا باستشهادهم.

أجرى سعد الدين إبراهيم دراسة عن المعتقلين السياسيين في مصر في السبعينيات. وطبقًا لما جاء في هذه الدراسة، كان معظم المجندين الإسلاميين شبابًا من القرى جاءوا إلى المدينة للدراسة. وكان معظمهم أبناء موظفين حكوميين متوسطي المستوى، وكانوا طموحين ويميلون إلى الدراسة في مجالات العلوم والهندسة، التي لا تقبل سوى الطلاب الأكثر تميزًا وتفوقًا. ولم يكونوا طلابًا يشعرون بالغربة والتهميش كما يمكن أن يتوقع عالم اجتماع يدرس قضية مشابهة، ولكن بدلًا من هذا، فإنهم

كما يقول إبراهيم: «نموذج من الشباب المصري، فإن كانوا نموذجًا مختلفًا عن النموذج الشائع، فهذا لأنهم كانوا فوق مستوى جيلهم بفارق كبير.» وقد عزا إبراهيم نجاح عمليات تجنيد الشباب التي كانت تقوم بها الجماعات الإسلامية المقاتلة إلى تأكيدهم على مبادئ الأخوة والمشاركة والتعاون الروحي والوجداني، وهو ما شكل «تربة خصبة» للشباب المهاجر من الريف إلى الحضر.

عارض الظواهري بشدة هذا التحليل بعدما قرأ الدراسة في السجن، وأكد على أن هؤلاء الشباب قد استجابوا للمثل الإسلامية وليس للاحتياجات الاجتماعية التي أتاحتها لهم هذه الجماعات، وقال للدكتور إبراهيم: «لقد جعلت من حركتنا حركة تافهة بهذا التحليل الدنيوي السطحي. فليغفر لك الله ويسامحك.»

وقد أجاب إبراهيم على تحدي الظواهري بالقول المأثور القديم: «لكل من يجتهد في أمر أجر؛ فمن اجتهد وأصاب الحق، فقد نال أجرين. ومن اجتهد وأخطأ، فله أجر واحد.» فابتسم الظواهري وأجاب: «وقد نلت أنت أجرًا واحدًا فقط.»

عاد الدكتور الظواهري مرة أخرى لممارسة مهنة الطب، ولكنه كان قلقًا من العواقب السياسية لشهادته في قضية تعذيب المعتقلين ضد الوحدة ٧٥ من المخابرات. وقد فكر في التقدم بطلب لنيل زمالة في الجراحة من إنجلترا. ورتب للعمل في مستوصف ابن النفيس في جدة في المملكة العربية السعودية، مع أن الحكومة المصرية منعته من مغادرة البلاد لمدة ثلاث سنوات. ولكن الظواهري تمكن من الحصول على تأشيرة سياحية إلى تونس، ربما باستخدام جواز سفر زائف، وبدا من الواضح أنه لا ينوي العودة مرة أخرى. وكان قد حلق لحيته بعد خروجه من السجن وهو ما يشير إلى اعتزامه العودة إلى العمل السري مرة أخرى.

وفي طريقه إلى مغادرة البلاد، التقى مصادفة بصديقه عبد الله شليفر في مطار القاهرة، فسأله الأخير: «إلى أين أنت ذاهب؟» فقال له الظواهري بسعادة، والارتياح بادٍ على وجهه: «إلى السعودية.» وتعانق الصديقان القديمان في وداعهما، وحذره شليفر قائلًا: «ابتعد عن السياسة يا أيمن.»

فأجابه الظواهري: «سأفعل، سأفعل.».

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث

المؤسس

في الرابعة والثلاثين من عمره، كان الدكتور أيمن الظواهري شخصية جبارة؛ فقد أمضى أكثر من نصف عمره في ذلك الوقت وهو ثوري مخلص لقضيته وقائد خلية إسلامية سرية. وقد صقلت المناقشات الكثيرة التي كانت تدور داخل جدران السجن مهاراته السياسية، فخرج منه شخصية زاهدة وناقمة وصلبة.

وتقول المخابرات السعودية: إنه وصل إلى المملكة في عام ١٩٨٥م، ودخل إلى الأراضي السعودية بتأشيرة حج قام بعد ذلك بتحويلها إلى تأشيرة عمل. قضى الظواهري بعد ذلك عامًا تقريبًا يمارس مهنته طبيبًا في مستوصف ابن النفيس في جدة. وتقول شقيقته هبة، أستاذة علم الأورام في المعهد القومي للأورام في جامعة القاهرة: إنه في ذلك الوقت اجتاز الجزء الأول من اختبار للحصول على زمالة في الجراحة كان يسعى للحصول عليها من إنجلترا. وكانت والدته وأفراد عائلته يعتقدون أنه ينوي العودة إلى القاهرة في نهاية المطاف؛ لأنه كان يستمر في دفع إيجار عيادته في المعادي. وكان شقيقه محمد في المملكة أيضًا يعمل مهندسًا معماريًّا في المدينة المنورة.

وفي طريقه إلى مكة، ذهب منتصر الزيات، محامي الظواهري وزميله السابق في السجن، في زيارة سريعة إلى جدة ووجد الظواهري هادئًا ومكتئبًا. وقد كتب الزيات بعد ذلك: «لم تعد آثار الجروح التي تركها التعذيب الوحشي على جسده تؤلمه، ولكن كان قلبه لا يزال يتألم منها.» ويرى الزيات أن الظواهري قد هرب من مصر بسبب ما كان يشعر به من ذنب وعذاب الضمير لأنه خان أصدقاءه، وقد فقد أحقيته بقيادة جماعة الجهاد عندما شهد ضد رفاقه في السجن. وكان يبحث عن مكان يسترد فيه نفسه ويصلح أن يكون تربة خصبة تنمو فيها الحركة الإسلامية المتطرفة، فقد كتب

الظواهري فيما بعد: «لقد كان الموقف في مصر يتحول إلى الأسوأ، ويمكن القول إنه كان متفجرًا.»

كانت جدة المركز التجاري للملكة العربية السعودية وميناء الدخول للملايين من الحجاج الذين يمرون عليها كل عام في طريقهم إلى مكة. والحج فريضة على كل مسلم قادر على الأقل مرة واحدة في حياته، ومن بقي من أولئك الحجاج في المملكة أصبح من مؤسسي كبرى العائلات التجارية والمصرفية، ومن بينها عائلات بن محفوظ وعلي رضا وخاشقجي، التي ربما تنحدر من مهاجرين من اليمن وبلاد فارس وتركيا. وهذا التراث العالمي المتنوع جعل المدينة بمنأى عن العزلة الثقافية والعرقية التي تسيطر على المدن الأخرى داخل المملكة. وفي مدينة جدة، كانت العائلات، وليس القبائل، هي المحور الأساسي للمجتمع، وكان من بين الأسماء القليلة التي تسيطر على المجتمع في جدة اسم عائلة بن لادن.

ويؤكد الزيات أن الظواهري وبن لادن تقابلا في جدة، ومع أنه لا يوجد سجل عن لقائهما الأول، فأغلب الظن أن هذا هو ما حدث. وكان الظواهري قد سافر إلى أفغانستان مرتين قبل أن يُزج به في السجن وكان يعتزم العودة إلى هناك في أقرب وقت ممكن. وقد كان منزل بن لادن مضخة متصلة مباشرة بأفغانستان؛ فأي شخص يريد أن يتبرع بنقود أو يتطوع للجهاد كان يعرف بالتأكيد الشاب السعودي المقدام. وعلى أية حال، فقد كان اللقاء مقدرًا لهما آجلًا أم عاجلًا في ساحة الجهاد.

تقول الأساطير: إن اسم مدينة جدة يرجع إلى حواء جدة البشر التي يقال إنها مدفونة في رقعة هائلة المساحة محاطة بسور في حي الطبقة العاملة في المدينة حيث نشأ وترعرع أسامة بن لادن. وفي القرن الثاني عشر، تكونت طائفة دينية حول قبرها المزعوم الذي يضم بقايا جسدها العملاق الذي يبلغ طوله خمسمائة قدم تقريبًا، وبها ضريح ذو قبة يقال إنه مبني فوق منطقة السرة بالتحديد. وقد زار سير ريتشارد بورتون Sir Richard Burton القبر عام ١٨٥٣م وقام بقياس الأبعاد ثم قال: «إذا كان طول أمنا الأولى مائة وعشرين خطوة من الرأس حتى الوسط وثمانين خطوة من الوسط إلى الكعب، فلا بد أنها كانت تبدو كالسفينة الحربية.» وقد قام الوهابيون، أتباع المذهب السائد في المملكة العربية السعودية الذين ينكرون تبجيل القبور، بهدم المكان عام ١٩٢٨م بعد وقت قصير من سيطرتهم على مدينة جدة. وأصبح ذلك المكان اليوم مقبرة على الطراز الوهابي فتملؤه صفوف طويلة من قبور

twitter @baghdad_library

لا تحتوي على أية علامات مميزة مثل أحواض زهور غير مزروعة. وقد دُفِن والد أسامة بن لادن هناك بعد أن لقي مصرعه في حادث تحطم طائرة عام ١٩٦٧م وهو في التاسعة والخمسين من عمره.

لا يمكن فهم مدى طموح أسامة بن لادن دون إلقاء نظرة عن كثب على حياة والده وإنجازاته. كان محمد بن عوض بن لادن، الذي كان شخصًا قويًّا ومتحفظًا ولكن متواضع الخلق، أسطورة حتى قبل ميلاد أسامة. وكان يمثل قدوة ومثلًا أعلى عظيمًا لابنه الشاب الذي أحبه واحترمه بشدة، وكان يأمل أن يحقق مثل إنجازاته أو يفوقها. ولد محمد بن لادن في وادٍ ناءٍ في قلب اليمن يعرف باسم حضرموت، ويشتهر بأبراجه الرائعة المبنية بالطوب اللبن التي يصل ارتفاعها إلى اثني عشر طابقًا وتشبه القلاع الرملية. ولقد منحت هذه المباني الجميلة سكان حضرموت شهرة كبيرة كبنائين ومعماريين مهرة. وعلى أية حال، فقد اشتهرت حضرموت بالمهاجرين الذين خرجوا منها أكثر من أي شيء آخر. ولآلاف السنين، كان السكان يسلكون طريقًا عبر الربع الخالي جنوب شبه الجزيرة العربية ثم على طول الجبال الجافة التي تحرس الساحل الشرقي للبحر الأحمر ثم إلى الحجاز، الأرض التي ولد فيها الإسلام. ومن هناك، انتشر الكثيرون منهم إلى الشرق وإلى جنوب شرق آسيا، بل وهاجر بعضهم إلى الفلبين وكوَّنوا جماعات كبيرة من التجار ورجال الأعمال والمقاولين الذين تجمعهم علاقات طيبة. وقد تسبب الجفاف الشديد الذي تعرضت له حضرموت في ثلاثينيات القرن العشرين في خروج الآلاف من بلدهم، ليس فقط بحثًا عن فرص أفضل، ولكن للنجاة بأنفسهم أيضًا، وكان محمد بن لادن من بينهم. وبعد أن قضى بعض الوقت في إثيوبيا، استقل محمد بن لادن قاربًا إلى جيزان على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، ومن هناك انضم إلى قافلة في طريقها إلى جدة، وقد كان في الثالثة والعشرين من عمره عندما وصل إلى هناك.

كانت شبه جزيرة العرب في عام ١٩٣١م، من أكثر الأماكن قفرًا وفقرًا في العالم. ولم تكن قد توحدت بعد؛ فالمملكة العربية السعودية لم تولد رسميًّا حتى حلول العام التالي. وكان حاكم هذه المملكة الصحراوية الجامحة هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود،[١] الذي كان يعيش في الرياض في قصر متواضع مبني بالطوب

[١] وهو معروف في الغرب أكثر بابن سعود.

اللبن. وكان قد نجح لتوه في إخماد ثورة وحشية شنتها ضده جماعة من المتعصبين دينيًّا يُطلق عليهم الإخوان، السلف السابق للقاعدة. وقد كانت تلك الجماعة مِن قَبْلُ جيشَ الهجوم للملك عبد العزيز، فكانوا يذبحون الآلاف من الأبرياء والقرويين العزل في حملتهم لتطهير شبه الجزيرة العربية باسم الإسلام. وقد سعى الملك للسيطرة على الإخوان، محاولًا منع تسرب غاراتهم إلى البلاد المجاورة. وكانت تلك الجماعة قد اتخذت موقفًا مناوئًا لتحالف الملك مع بريطانيا، وكانت تبغض بشدة نمط حياته المفرط في تعدد الزوجات، ولكنهم انقلبوا ضده تمامًا بسبب محاولته كبح جماح الجهاد، الذي كان في نظرهم فرضًا ليس له حدود؛ واجبهم تجاه الله.

وكان على عبد العزيز الحصول على تصريح المؤسسة الدينية لفرض سيطرته على هؤلاء القتلة المتعصبين، وكان ذلك هو الموقف السياسي الذي أعلن ميلاد المملكة العربية السعودية الحديثة. فعندما منح العلماء الوهابيون الملك السلطة الوحيدة لإعلان الجهاد، أعادوا التأكيد على مكانتهم كقضاة للسلطة في مجتمع شديد التدين. وأخيرًا نجح الملك بمساعدة السيارات والمدافع الرشاشة وقاذفات القنابل البريطانية في هزيمة قوات الإخوان التي كانت تقاتل على ظهور الجمال. ولكن أصبح التوتر بين العائلة المالكة والمتعصبين دينيًّا جزءًا من القوة المحركة الاجتماعية للمملكة العربية السعودية الحديثة منذ البداية.

يرفض معظم السعوديين اسم الوهابيين، فيطلقون على أنفسهم إما الموحدين؛ نظرًا لأن جوهر عقيدتهم هو وحدانية الله، أو السلفيين نسبة إلى السلف الصالح من أصحاب النبي. وكان مؤسس هذه الحركة، محمد بن عبد الوهاب، إحيائي عاش في القرن الثامن عشر وكان يرى أن المسلمين قد ابتعدوا عن الدين القويم في الصورة التي بدا عليها في العصر الذهبي للنبي والخلفاء الراشدين. وكان عبد الوهاب يؤمن، بين بدع دينية أخرى، بالتجسيم، وكان يرفض الدعاء بالشفاعة بالأولياء وتوقير الموتى وطالب الرجال المسلمين برفض تهذيب لحاهم، ومنع الأعياد الدينية، حتى يوم المولد النبوي الشريف، ودمر أتباعه كثيرًا من الأماكن المقدسة التي اعتبرها هو أصنامًا. وقد هاجم الفنون وأباح لأتباعه معاقبة كل من يرفض اتباع أوامره.

وقد اعتبر المسلمون الآخرون في الجزيرة العربية في ذلك الوقت عبد الوهاب مبتدعًا خطيرًا. وفي عام ١٧٤٤م، بعد أن أُخرِج من نجد، قلب شبه الجزيرة العربية، لجأ إلى محمد بن سعود، مؤسس الدولة السعودية الأولى. ومع أن العثمانيين تمكنوا سريعًا من هزيمة السعوديين، فقد ظلت العلاقة التي تكونت بين عبد الوهاب ونسل

twitter @baghdad_library

ابن سعود قائمة. وقد كان جوهر التفاهم بينهما هو الاتفاق على أنه لا فرق بين الدين والحكومة، وستظل آراء عبد الوهاب المغالية جزءًا من نسيج الحكم السعودي.

قامت الدولة السعودية الثانية في القرن التاسع عشر، ولكنها سرعان ما سقطت بسبب خلافات داخل العائلة المالكة. وعندما أعاد عبد العزيز السلطة إلى آل سعود في القرن العشرين للمرة الثالثة، أصبح المذهب الوهابي هو العقيدة الرسمية للبلاد، ومُنعت أية صورة مخالفة من صور العبادة الإسلامية. وقد حدث ذلك باسم الرسول الذي أمر بأن يكون هناك دين واحد فقط في جزيرة العرب. ومن وجهة نظر الوهابيين ذات المنظور غير الواسع، هناك تفسير واحد للإسلام وهو «السلفية» وجميع المدارس الفكرية الإسلامية الأخرى بدع.

اتبعت المسيرة المهنية لمحمد بن لادن المنحنى نفسه الذي سارت عليه المملكة العربية السعودية: التطور التدريجي ثم التحول السريع المفاجئ. فعندما وصل إليها في عام ١٩٣١م، كانت المملكة الوليدة تعاني تدهورًا اقتصاديًّا رهيبًا. وقد كان المصدر الرئيسي للدخل هو أفواج الحجاج التي تأتي كل سنة لأداء فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، ولكن الكساد الكبير أوقف تدفق تلك الأفواج وقضى على الدخل المحدود الذي يدره تصدير التمر. وكان من الواضح أن مستقبل البلاد مهدد بأن يصبح، على أفضل تقدير، كئيبًا وغامضًا كماضيها. وبناءً على دعوة بائسة من الملك، وصل الجيولوجي الأمريكي كارل تويتشل Karl Twitchell في أبريل/نيسان من العام نفسه للتنقيب عن الماء والذهب في الأراضي السعودية، ولكنه لم يجد أيًّا منهما، إلا أنه اعتقد أن تلك الأرض قد تحتوي على نفط.

فتح اكتشاف تويتشل الطريق أمام الشراكة التي عرفت فيما بعد باسم الشركة العربية الأمريكية للنفط أو أرامكو Aramco. وفي غضون سنوات قليلة، نشأت مستعمرة صغيرة من مهندسي البترول والعمال في المنطقة الشرقية. وفي البداية، كانت شركة أرامكو شركة صغيرة، ولكن كانت الحياة الاقتصادية في المملكة محدودة للغاية حتى إن تلك الشركة سريعًا ما سيطرت على تطور البلد بالكامل. وقد نجح محمد بن لادن، الذي بدأ عمله حمالًا في ميناء جدة، في الحصول على عمل في شركة أرامكو كعامل بناء في الظهران.

أشعل الازدهار الاقتصادي الأول للنفط في بداية الخمسينيات ثورة التغيير في شبه الجزيرة القاحلة، وفجأة أصبح أمراء الصحراء الذين عاشوا طوال حياتهم على التمر ولبن النوق يرسون بيخوتهم في موانئ موناكو. ولكن لم تُهدَر هذه

الثروة بأكملها على المسرات في الريفيرا، على الرغم من الشهرة الجديدة التي اكتسبها السعوديون بأنهم مبذرون عالميون. فقد أحضر عمالقة الإنشاء والتعمير من الشركات الأجنبية، خاصة الشركة الأمريكية بيكتل Bechtel، آلاتهم ومعداتهم الضخمة إلى المملكة، وشرعوا في إنشاء الطرق والمدارس والمستشفيات والموانئ ومحطات الطاقة التي كانت ستضفي على المملكة مظهر الحداثة، وقد تولت شركة أرامكو معظم تلك المشروعات الأولى. في الواقع، لم تشهد أي بلد في العالم قط مثل هذا التحول الشامل السريع.

بدأ نجم محمد بن لادن يسطع عندما بدأ المهندسون الأمريكيون، تحت ضغط من الحكومة السعودية لتدريب وتوظيف المزيد من العمال المحليين، يمنحونه مشروعات صغيرة للغاية لا تتولاها الشركات الكبيرة. وسرعان ما اشتهر بدقته وأمانته كبناء. وكان بن لادن رجلًا وسيمًا ضئيل الجسم له عين زجاجية؛ نتيجة تعرضه لضربة من أحد مدرسيه في أيامه الأولى في المدرسة لم يعد بعدها إلى المدرسة قط. ومن ثم، فقد كان أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة، ويذكر أحد أولاده أن «توقيعه كان مثل توقيع طفل صغير». ومع ذلك، فقد كان عبقريًّا في التعامل مع الأرقام التي كان يحسبها بسهولة في ذهنه، ولم ينس قياسًا قط. وقد وصفه أحد الأمريكيين الذين عرفوه في الخمسينيات بأنه كان «أسمر البشرة ودود الطبيعة وشديد الحيوية والنشاط». بدأت شركة أرامكو بعد ذلك تطبيق برنامج يمنح الموظفين إجازة لمدة عام كي يجربوا حظهم في العمل الحر، وإذا فشلوا يمكنهم العودة إلى الشركة دون أن ينقص ذلك من مكانتهم شيئًا. وقد كانت شركة محمد بن لادن واحدة من شركات كثيرة بدأت عملها تحت رعاية أرامكو، وكان بن لادن يصر على العمل جنبًا إلى جنب مع رجاله، مما خلق روابط قوية من الولاء بينهم. وقد قال ذات مرة: «لقد نشأت عاملًا، وأحب العمل والحياة مع العمال، ولولا حبي للعمل لما نجحت أبدًا.» وكان يعرف أيضًا قيمة الحفاظ على الفريق الذي يعمل معه، فكان في بعض الأحيان يقبل مشروعات غير مربحة فقط لكي يُبقي رجاله في العمل، وكانوا يطلقون عليه «المعلم».

كان محمد بن لادن يتولى ترميم بعض المنازل في جدة عندما جذبت براعته في العمل نظر وزير المالية الشيخ عبد الله بن سليمان، الذي نقل إعجابه وثناءه على مهارته إلى الملك عبد العزيز. وسيتذكر أسامة بن لادن بعد ذلك الحدث بسنوات كيف حاز والده إعجاب الملك العجوز الذي كان حينها شبه قعيد تمامًا لا يتحرك إلا بواسطة الكرسي المتحرك وأراد إضافة طريقًا منحدرًا كي تصعد به السيارة إلى

twitter @baghdad_library

غرفة نومه في الطابق الثاني من قصر الخزام في جدة. وعندما أنهى محمد بن لادن المهمة، قاد بنفسه سيارة الملك إلى أعلى المنحدر لكي يثبت أنه سيتحمل وزن السيارة. فمنحه الملك بالمقابل عقودًا لبناء عدد من القصور الملكية الجديدة، بما في ذلك أول بناء خرساني في الرياض، وفي نهاية المطاف، عينه الملك وزيرًا شرفيًّا للأشغال العامة.

وفي الوقت الذي زادت فيه شهرة بن لادن، توطدت علاقته بالعائلة المالكة على نحو أكبر، وكان مرنًا في التعامل معهم ويستجيب لجميع مطالبهم. وعلى نقيض مديري الشركات الأجنبية، كان مستعدًّا لأن يتوقف فجأة عن أداء عمل ما لكي يبدأ في عمل آخر، وكان يصبر على الحكومة عندما تنفد النقود من خزانة الدولة، ولم يرفض عملًا قط. وقد حصل على مكافأته نظير ولائه هذا عندما تخلف مقاول بريطاني عن تنفيذ مشروع بناء طريق سريع يربط بين جدة والمدينة؛ فكلفه وزير المالية تنفيذ المشروع ووافق على دفع المقابل نفسه الذي كان سيدفعه للشركة الأجنبية.

كانت المملكة العربية السعودية في حاجة إلى الطرق المهدة، فحتى خمسينيات القرن العشرين لم يكن في المملكة سوى طريق واحد ممهد، وهو ذلك الذي يربط بين الرياض والظهران. فبدأ محمد بن لادن ينظر إلى منافسته العملاقة شركة بيكتل، وأدرك أنه دون الاستعانة بالمعدات اللازمة لن يتمكن من المنافسة على مشروعات الإنشاء المهمة. فبدأ في شراء الآلات والمعدات، وفي غضون مدة قصيرة من الزمن، أصبح أكبر عميل في العالم لجرافات كاتربيلر Caterpillar. ومنذ تلك اللحظة، تولى محمد بن لادن إنشاء جميع الطرق المهمة في المملكة تقريبًا، وكانت الشركة الراعية له فيما سبق، أرامكو، تمنحه الإسفلت دون مقابل، وانتقل مع عائلته إلى جدة.

عندما زارت أم كلثوم، أشهر المطربات في العالم العربي، المسجد النبوي في المدينة المنورة؛ أقلقتها كثيرًا الأعمدة البالية والشقوق في السقوف المقببة، فبدأت تجمع تبرعات لترميمه؛ الأمر الذي أزعج الملك العجوز كثيرًا، فأمر بن لادن بتولي المهمة على الفور. وكان المسجد الأصلي قد بُني من الطوب اللبن وجذوع النخل في عام ٦٢٢م، وجرى توسيعه في كثير من المناسبات، ولكنه لم يصمم لاستيعاب الملايين من الحجاج. فقام محمد بن لادن بمضاعفة حجم المسجد النبوي ثلاثة أضعاف في التجديد الأول له الذي بدأ عام ١٩٥٣م. ولم تكن هذه المهمة سوى بداية وضع بصمة محمد بن لادن على أكثر الأماكن الإسلامية قدسية.

كان الأمير طلال، أحد أبناء الملك عبد العزيز، وزيرًا للمالية في أثناء عملية تجديد المسجد النبوي، فحاول أن يفرض بعض النظام على العملية، إلا أن بن لادن

كان معتادًا على العمل دون إشراف أحد، وكان يحتفظ بأرقامه وحساباته في رأسه ولا يخضع سوى لسلطة الملك مباشرة. وقد صدم الأمير طلال عندما علم أنه لم يقدم حتى تلك اللحظة الأوراق القانونية اللازمة لبدء عملية الإنشاء، فقال متذمرًا: «علينا تنظيم هذه العملية»، ولكن بن لادن رفض، وقال: إنه إما ينفذ المهمة بطريقته الخاصة أو يعتذر عن العمل بالكامل.

قرر الأمير طلال تشكيل مجلس يرأسه الملك نفسه اسميًا للإشراف على عملية الترميم، ثم عرض أن يجعل محمد بن لادن عضوًا في المجلس. وقد اعترف طلال قائلًا: «بالطبع ليس من المنطقي أن يكون بن لادن جزءًا من الهيئة التي من المفترض أن تشرف عليه. ولكن، لحسن الحظ أنه وافق؛ لأنني لو كنت وقفت ضده، لأزاحني الملك وأبقاه.»

بعد أن وافت المنية الملك عبد العزيز في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٥٣م، خلفه ابنه الأكبر سعود الذي كان نموذجًا سعوديًا جديدًا حين كان يقذف بالنقود في الهواء وهو يقود سيارته على الشوارع الرملية. وسقطت جميع القيود التي كانت تحول دون استغلال أفراد العائلة المالكة لسلطتها؛ فبدأ بعض أفراد العائلة يتربحون من كل ما تستطيع أن تصل إليه أياديهم، مع أن حصصهم من عائدات البترول التي كانوا يكافئون بها أنفسهم توفر لهم حياة بذخ وترف.

وعلى كل حال، فقد كان ذلك الوقت ذروة ازدهار مجال الإنشاء والتعمير. فقد فتح الملك سعود باب البناء والتشييد على مصراعيه؛ فأمر ببناء القصور والجامعات وخطوط الأنابيب ووحدات تحلية المياه والمطارات، وكانت شركة بن لادن تنمو بمعدل مذهل. وفي عام ١٩٥٤م، انتقل مقر الحكم من جدة إلى الرياض، الأمر الذي تبعه إنشاء مجمع كامل من المباني والمنشآت الحكومية، إلى جانب السفارات والفنادق والمباني السكنية والطرق السريعة التي لا بد من إنشائها في العاصمة الجديدة. وقد كانت خزانة الدولة تتحمل أكثر مما يمكنها بكثير، حتى إن الحكومة اضطرت أن تمنح بن لادن فندق اليمامة، وهو أحد فندقين خمسة نجوم في الرياض في ذلك الوقت، نظير عمله بدلًا من النقود.

وبفضل عقد تحالفات ذكية مع شركات أجنبية كبيرة، بدأ بن لادن يتنوع في نشاطاته. فأصبحت «القيصر بن لادن» واحدة من أكبر شركات الهندسة والتعمير في العالم، وشركة «بن لادن إمكو» فكانت تقوم بتصنيع الخرسانة سابقة الصب لبناء المساجد والفنادق والمستشفيات ومدرجات الملاعب. أما شركة «الميظار بن لادن

twitter @baghdad_library

للتنمية» فتقدم خدمات استشارية للشركات الأجنبية التي تسعى لدخول الأسواق السعودية. وكانت شركة «بن لادن للاتصالات السلكية واللاسلكية» تمثل شركة «بل كندا» Bell Canada التي حصلت على أهم العقود الحكومية في هذا المجال. وكانت «الشركة السعودية للأمان على الطريق»، شركة أخرى مشتركة من شركاته، أكبر شركة لوضع علامات الحارات على الطرق السريعة في العالم. وقد اتسعت الإمبراطورية لتضم مصانع للطوب والأبواب والنوافذ والمواد العازلة والخرسانة والسقالات والمصاعد وأجهزة التكييف.

وفي ذلك الوقت، بدأ النمط المعماري السعودي المتميز، الذي يميل إلى الطابع الأثري، يظهر ويثبت وجوده. ولقد أشارت المساحات الهائلة والمخيفة أحيانًا المبنية من الخرسانة سابقة الإجهاد إلى ميلاد قوة عظمى جديدة. وكانت مجموعة بن لادن السعودية، كما أصبح يطلق عليها، هي التي حددت ذلك الإبداع الزخرفي المهيب الذي وصل إلى ذروته في تجديد المسجد الحرام في مكة؛ وهو أهم وأكبر عقد إنشاء على الإطلاق يمكن أن يحصل عليه شخص في المملكة.

تقع مكة في تقاطع طريقين قديمين للقوافل محاطة بالسفوح هلالية الشكل لجبال السروات التي تحجب المدينة عن عيون غير المؤمنين، وقد كانت بمنزلة محطة أساسية لتجارة الحرير والتوابل والعطور القادمة من آسيا وأفريقيا في طريقها إلى البحر المتوسط. وحتى قبل ميلاد الإسلام، كان الجميع يعتبرون ذلك المركز التجاري الحيوي مكانًا مقدسًا بفضل وجود الكعبة به. وفي التراث الإسلامي، الكعبة هي مركز كوكب الأرض وهي القبلة التي يتجه إليها المسلمون في صلاتهم. ويقال إن آدم هو من وضع الحجر الأول لهذا البناء، وأعاد النبي إبراهيم وولده إسماعيل، جد العرب، بناءه باستخدام الصخور الزرقاء الضاربة إلى اللون الرمادي من التلال المحيطة، ومن ثم، فقد كتب التاريخ اسم محمد بن لادن بجوار أبي البشر وأبي الموحدين في صفحة الكعبة.

استغرق ترميم وتجديد المسجد الحرام عشرين عامًا، ولم يعش محمد بن لادن ليرى انتهاء العملية، وستقوم مجموعة بن لادن السعودية بتجديد كل من المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف مرة ثانية بتكلفة بلغت أكثر من ثمانية عشر مليار دولار. وتعد خطة بن لادن الأصلية لتجديد المسجد الحرام رائعة في التعامل مع الزحام؛ حيث يوجد به واحد وأربعون مدخلًا رئيسيًّا، ودورات مياه تكفي لاستيعاب ١٤٤٠ شخصًا، وسلالم متحركة تستطيع نقل مائة ألف شخص في الساعة، إلى

جانب رواقين واسعين بهما مداخل قوسية الشكل يحيطان بالصحن العملاق المفتوح للمسجد. وفي أثناء موسم الحج، يمكن أن يسع المسجد مليون حاج في الوقت نفسه. وجميع الأسطح تقريبًا، حتى السقف، مصنوعة من الرخام مما منح المسجد لمسة هادئة وجلالًا وفخامة مهيبة، وهو يعد العلامة العالمية على الطراز المعماري الديني السعودي الحديث.

كان حكم الملك سعود كارثة على البلاد في كثير من الجوانب، حتى إن ولي العهد الأمير فيصل استولى على الحكم في عام ١٩٥٨م. وقد صرح فيما بعد بأنه عندما تولى الحكم، كان هناك أقل من مائة دولار في خزانة الدولة، ولم يستطع دفع الرواتب أو فوائد ديون المملكة. ورفض البنك الأهلي التجاري طلب الملك فيصل الحصول على قرض مستندًا إلى سجل الديون البائس للملك سعود. وفي حين كان ولي العهد يبحث عن مؤسسة أخرى تقبل إنقاذ الحكومة، قام محمد بن لادن بخطوة وطدت أواصر العلاقة بين العائلة المالكة وعائلة بن لادن، خاصة بين الملك فيصل وكبير مقاوليه، حين قدم للحكومة النقود التي تحتاج إليها.

كان محمد بن لادن من أوائل من رأوا المملكة من أعلى، بدلًا من تلك الرؤية المحدودة من على ظهر جمل. فقد حصل على تصريح خاص من الملك بأن يستقل طائرة، الأمر الذي كان محرمًا على عامة الشعب، حتى يستطيع مراقبة مشروعاته المتناثرة من الجو. وقد كان معظم طياريه من الجيش الأمريكي الذي بدأ يدرب قوات سعودية في عام ١٩٥٣م. والمملكة العربية السعودية تتساوى في مساحتها الشاسعة مع مساحة الجزء الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن في الخمسينيات كان من الممكن أن يطير المرء من الخليج الفارسي، أو الخليج العربي كما يطلق عليه العرب، إلى البحر الأحمر دون أن يرى أي مظهر من مظاهر الحضارة، فيما عدا شاحنات المرسيدس التي قد تراها بالصدفة تقطع الفيافي الواسعة في مسارات ملتوية كانت تسير عليها القوافل قديمًا. وترى من أعلى أيضًا الكثبان الرملية المهيبة تتطاير والأودية تتحول إلى لوحة من المسارات المعتمة على رمال الصحراء الناعمة المتلألئة، ولا توجد أنهار أو مسطحات مائية كبيرة، فقط القليل من الأشجار هنا وهناك. وقد طالت يد التطور حقول البترول في الأراضي الملحية المنبسطة في المنطقة الشرقية فقط، أما الجزء الجنوبي بالكامل من البلاد، وهو منطقة بحجم فرنسا، فيعرف باسم الربع الخالي، وهو أرض شاسعة وعرة وتعد أكبر صحراء رملية في العالم. أما

twitter @baghdad_library

إذا حلقت فوق وسط المملكة، فلن ترى سوى أرض من الحصى لا معالم بها. وفي الجزء الشمالي من البلاد، كان الطيارون القلائل الذين كانوا يعملون في المملكة آنذاك يفضلون الطيران على مستوى منخفض لرؤية بقايا خط سكة حديد الحجاز الذي دمرته القوات العربية بقيادة تي. إي. لورانس T. E. Lawrence في الحرب العالمية الأولى.

وعند الاتجاه غربًا، تجد الأرض ارتفعت فجأة لتكوّن سلسلة جبال السروات، وهي حاجز جبلي شديد الانحدار يمتد لمسافة ألف ميل من الأردن إلى الساحل الجنوبي لليمن. ويزيد ارتفاع بعض القمم في هذه السلسلة على عشرة آلاف قدم. وتقسم جبال السروات البلد إلى شطرين غير متساويين، الشطر الغربي الضئيل منها؛ الحجاز التي تحمل آثار ثقافات عالمية عدة، محاصر بين سلسلة الجبال والبحر الأحمر مما يعزله عن الفضاء الشاسع الذي يميز البلد من الداخل وأيضًا عن النزعة الدينية المتطرفة التي تسيطر عليها.

وعلى حافة الجبل، تقف مدينة الطائف، المنتجع الصيفي القديم، مثل حارس على حدود البلاد. وتختلف هذه المدينة عن أي مكان آخر في الجزيرة العربية، فتجد النسيم القادم من البحر الأحمر يصطدم مع الجبال ليكوّن تيارًا هوائيًّا صاعدًا ويغرق السهل الواسع المرتفع بالضباب ويعرضه للهطول المفاجئ للأمطار، وأحيانًا لموجات الصقيع في الشتاء. وقبل الإسلام، كانت المنطقة مشهورة بأشجار العنب، وبعد ذلك اشتهرت بالتين الشوكي وأشجار الفواكه مثل الخوخ والمشمش والبرتقال والرمان. ولزهور الطائف عبير رائع وقوي حتى إنها تستخدم في صناعة أفخر أنواع العطور. وكانت الأسود الجبلية تهاجم قديمًا قطعان البقر الوحشي العربي في حقول الخزامي البرية. ولكن عندما اقترب هذا النوع من الأسود من الانقراض نتيجة للصيد الجائر، زادت أعداد قرود الرباح ازديادًا كبيرًا خارج عن السيطرة وأصبحت تجوب المرتفعات مثل قبائل من المتسولين. وكانت الطائف بحدائقها الغناء التي يفوح منها شذى أشجار الكافور، المدينة التي توفي فيها الملك عبد العزيز في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٥٣م.

وحظ الطائف العسر جعلها تقف مرتين في طريق توحيد الجزيرة العربية؛ المرة الأولى دينيًّا والثانية سياسيًّا. ففي عام ٦٣٠م، فرض الرسول حصارًا على المدينة ذات الأسوار العالية التي كانت حتى ذلك الوقت تقاوم سلطته. وقد حصل المسلمون على إذن من قائدهم لاستخدام المنجنيق لدك أسوار المدينة مع أنه من الممكن أن

يصاب النساء والأطفال بأذى (وفيما بعد، ستستخدم القاعدة هذه الواقعة لتبرير قتل المدنيين في هجمات ١١ سبتمبر/أيلول مقارنة استخدام الطائرات بالمنجنيق الذي استخدم منذ عهد بعيد). وفي تلك الواقعة، فشل الحصار وانسحب الرسول بجيشه من المدينة، ولكن في ذلك العام أسلم قادة المدينة وسقطت القاعدة الأخيرة للوثنية. ثم مرة أخرى في عام ١٩٢٤م، عندما كان عبد العزيز يشن حملته لتوحيد شبه جزيرة العرب، استسلمت المدينة للإخوان الذين سلبوها ونهبوها وذبحوا أكثر من ثلاثمائة رجل من أهلها وألقوا بجثثهم في الآبار العامة. وبسقوط الطائف، أصبحت الحجاز بالكامل مفتوحة أمام القوات السعودية.

وعقب تلك المذبحة، قاد فيصل، الذي كان آنذاك أحد المحاربين المراهقين من أبناء الملك عبد العزيز، القوات السعودية في الطريق الحلزوني المنحدر الذي كانت القوافل تسلكه في طريقها إلى مكة. وقد كان لديه حلم آنذاك أنه في يوم ما سيتمكنون من بناء طريق حقيقي يربط الحجاز بالدولة التي تسعى عائلته لتكوينها، بغض النظر عن أنهار الدماء التي تسيل في سبيل ذلك.

وعلى أية حال، فحتى تولي الملك فيصل الحكم ظل إنشاء طريق إلى الطائف حلمًا لم يتحقق، فقد كان الجدار الجبلي الشديد الانحدار يتحدى أحدث وأقوى أساليب البناء الحديثة. وكان من الممكن شق طريق عبر الصخور باستخدام المتفجرات، ولكن المشكلة الاستراتيجية كانت تكمن في كيفية نقل المعدات، بما في ذلك الحفارات والجرافات والمجارف الخلفية والشاحنات القلابة وآلات تمهيد الطرق اللازمة للبناء بالأساليب الحديثة، إلى الموقع. أما الخيار الآخر، فهو إنشاء الطريق على شكل نفق ينتهي كل جزء منه قبل أن يبدأ الذي يليه. وقد دعا فيصل كثيرًا من الشركات الأجنبية لتنفيذ المشروع، ولكن لم ينجح أي منها في التوصل إلى كيفية تنفيذ هذا المشروع حتى مع اعتماد ميزانية ضخمة. ثم عرض محمد بن لادن أن يقوم بإنشاء الطريق، بل وقدم جدولًا زمنيًّا لتنفيذه.

وكان الحل العبقري الذي وضعه بن لادن لتوصيل المعدات إلى الموقع هو تفكيك تلك الآلات الضخمة ونقل أجزاءها إلى الأعلى على ظهور الحمير والجمال، وعند وصول الأجزاء إلى موقعها، أعيد تركيبها وإعدادها للعمل.

ثمة أسطورة في الطائف تقول إنه لإنشاء ذلك الطريق، قام بن لادن بدفع حمار للسير على حافة الجبل واتبعه بنفسه وهو يشق طريقه إلى الأسفل ويرسم مسار الطريق السريع المستقبلي. ولمدة عشرين شهرًا بدأت في عام ١٩٦١م، عاش محمد

twitter @baghdad_library

بن لادن مع رجاله على سفح الجبل يعمل معهم يدًا بيد ويضع بنفسه الشحنات المتفجرة لشق الطريق، ويضع العلامات على الطريق للجرافات بالطباشير. ومع أنه قد وضع جدولًا زمنيًّا، فقد كان سير العمل بطيئًا. وكان الملك فيصل يصل من حين لآخر إلى الموقع ليسأل عن أسباب الزيادة المستمرة في النفقات غير الموجودة في الميزانية.

والطريق ذو الحارتين الذي أنشأه محمد بن لادن ينحدر بتؤدة إلى أسفل الجروف الجرانيتية في حلقات طويلة ملتوية، متجاوزًا الطيور الجارحة المحلقة، عبر صخور تكونت في أزمنة جيولوجية مختلفة. وترى من على بعد البحر الأحمر يشق الأفق وخلفه يقع شاطئ السودان القاحل. وتظهر براعة ومهارة العمال جلية في الجدران الحجرية والجسور التي تحاكي درب القوافل المجاور. وبعد ما يقرب من ثلثي الطريق أسفل الجبل، اسْتُخْدِم البازلت بدلًا من الجرانيت في بناء الطريق، ثم الحجر الرملي، ثم يتسع الطريق ويتشعب الطريق إلى أربع حارات ويصبح أقل انحدارًا. وفي النهاية، يمتد الطريق السريع حرًّا بين رمال الصحراء الصفراء، وقد أصبح يتكون من ست حارات. وتبلغ المسافة بين الطائف ومكة نحو خمسة وخمسين ميلًا فقط، وعندما انتهى إنشاء ذلك الطريق، توحدت المملكة العربية السعودية تمامًا، وأصبح محمد بن لادن بطلًا قوميًّا.

جرت العادة في المملكة العربية السعودية أن يقدم الفقراء في شهر رمضان التماسات إلى الأمراء وأثرياء المجتمع، الذين يلبون هذه المطالب من باب التصدق وفعل الخير في هذا الوقت بالتحديد. وكان محمد بن لادن مشهورًا بالتقوى والكرم؛ فقد دفع ذات مرة تكاليف عملية أجريت في أسبانيا لرجل فقد بصره. وفي موقف آخر، لجأ إليه رجل يطلب منه مساعدته لإنشاء بئر لأهل قريته، فلم يساعده بن لادن في بناء البئر فقط، بل تبرع لهم بمسجد أيضًا. وكان يتجنب الدعاية التي كانت عادة ما تصحب مثل هذا النوع من الهبات البارزة، قائلًا: إنه يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وليس لكسب الشهرة. وقد قال عنه ابنه أسامة ذات مرة: «أذكر أنه كان حريصًا على أداء الصلاة في أوقاتها دائمًا وكان يحث من حوله على أداء الصلاة، ولا أتذكر أبدًا أنه قد فعل ما يخالف الشريعة.»

أما الجانب المسرف من شخصية محمد بن لادن، فقد ظهر جليًّا في زيجاته الكثيرة. والإسلام يسمح للرجل بالجمع بين أربع نساء في الوقت نفسه، ويمكنه أن

يطلق أيًا منهن دون أدنى صعوبة، على الأقل للرجل، فقط بأن يلقي عليها يمين الطلاق. وقبل موته، كان محمد بن لادن أبًا لأربعة وخمسين طفلًا من اثنتين وعشرين زوجة. ولا يمكن الجزم بعدد النساء اللائي تزوجهن طوال حياته، فقد كان «يتزوج» بعد الظهيرة ويطلق في المساء، وكان يتبعه مساعد للاعتناء بأي أولاد يتركهم وراءه. وكان لديه أيضًا عدد من المحظيات اللائي كن يبقين في بيته إذا أنجبن منه أطفالًا. ويقول أسامة، الذي يحتل الترتيب السابع عشر بين أولاده: «لقد اعتاد والدي أن يقول: إنه أنجب خمسة وعشرين ابنًا للجهاد.»

تزوج محمد من فتاة سورية من ميناء اللاذقية في بداية الخمسينيات، وكان يتردد على تلك المنطقة باستمرار في زيارات عمل. وفي صيف عام ١٩٥٦م، قابل فتاة في الرابعة عشرة من عمرها اسمها علياء غانم وكانت عائلتها من مزارعي الموالح يعيشون في قريتين صغيرتين خارج الميناء يطلق عليهما العمرانية وبابريون. وهذه المنطقة هي مركز الطائفة العلوية، إحدى فرق المذهب الشيعي التي يبلغ عدد معتنقيها في سوريا ١,٥ مليون شخص، بما فيهم عائلة الأسد الحاكمة. وفي الإسلام، توصم الطائفة العلوية بأنها عقيدة قريبة من الوثنية؛ إذ إنها تضم بعض العناصر من المسيحية والزرادشتية والوثنية في معتقداتها. وهم يؤمنون بمبدأ تناسخ الأرواح ويعتقدون أنه عندما يموت شخص ما فإنه قد يتحول إلى مخلوق آخر أو إلى نجمة في السماء. ويمارسون التقية أو الخداع الديني، فينكرون، على سبيل المثال، أنهم من أفراد الطائفة لكي يستطيعوا الاندماج في الاتجاه السائد.

انضمت علياء إلى منزل بن لادن زوجة رابعة له، وهي مكانة يطلق عليها في بعض الأحيان «الزوجة الجارية»، خاصة من قبل الزوجات الأقدم عهدًا. ومن المؤكد أن الأمر كان أكثر صعوبة على فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، انتقلت بعيدًا عن عائلتها ووضعت في البيئة شديدة القيود التي كان محمد بن لادن يفرضها على أهل بيته. ومقارنة بالزوجات الأخريات، كانت علياء متحضرة وأقل منهن تدينًا، مع أنها، على غرار جميع زوجات بن لادن، كانت ترتدي النقاب في الأماكن العامة حتى إن عينيها لم تكن تظهر من تحت الطبقات العديدة من النقاب الكتاني الأسود.

ولد الابن الوحيد لمحمد بن لادن من علياء في الرياض في يناير/كانون الثاني من عام ١٩٥٨م، وأطلق عليه أسامة، أي الأسد، تيمنًا بأحد أصحاب النبي. وعندما كان في الشهر السادس من عمره، انتقلت العائلة بالكامل إلى المدينة المنورة حيث بدأ محمد بن لادن ترميم المسجد النبوي، ولكن أسامة قضى الجزء الأكبر من طفولته

twitter @baghdad_library

وصباه في جدة. ومع أن والده في ذلك الوقت كان ثريًّا ويتمتع بمكانة في المجتمع، كانت العائلة تقطن منزلًا كبيرًا متداعيًا في حي العمارية، وهو حي متواضع مليء بالمحال التجارية الصغيرة وتتدلى من شرفات المنازل حبال الغسيل. وكانت تلك الضاحية هي أول ضاحية في جدة، وقد بنيت خارج حدود أسوار المدينة القديمة. ولم يعد ذلك المنزل موجودًا الآن، وبني مكانه مسجد، ولكن لا يزال مكتب محمد بن لادن موجودًا في الجهة الأخرى من الشارع، وهو مبنى حقير متهالك، من طابق واحد به صف طويل من النوافذ المدعمة بقضبان حديدية، مما يدل على أنه كان شخصًا متواضعًا يكره التفاخر بالثروة وإظهارها، وهي سمة كانت تميز الأمة المحدثة في الثراء. وقد قال عنه أسامة: «كان والدي رحمه الله صارمًا ولم يكن يهتم كثيرًا بالمظاهر. فقد كان منزلنا أقل في المستوى من منازل معظم العاملين لدينا.»

قضى أسامة السنوات الأولى من حياته بين حشد من الأطفال في منزل أبيه الذي كان يدير العائلة وكأنه يدير شركة كل زوجة مسئولة عن قسم خاص بها تبلّغ تقاريره إليه. ونادرًا ما كان هؤلاء الأطفال يرون الرجل العظيم الذي كان يمضي معظم الوقت مسافرًا في عمل، وكان عندما يعود، يجمعهم في مكتبه ويحدق النظر في نسله الكبير. وفي الأعياد الدينية الإسلامية، كان يقبلهم ويعطي كلًّا منهم عملة ذهبية، أما في الأوقات الأخرى، فكان نادرًا ما يتحدث إليهم. ويقول أسامة: «أذكر أني ألقيت قصيدة شعر أمامه ذات مرة، فأعطاني مائة ريال، وقد كان مبلغًا ضخمًا حينها.» وكان الأطفال إما يسعون لإرضائه أو يهربون من أمامه، ومن غير المدهش أن ذلك الأب القوي البعيد عن أولاده كان يثير أمواجًا عميقة من الشوق في قلب ولده الخجول ممشوق القوام، مع أنه كان من النادر أن يدور بينهما حوار.

كان محمد بن لادن كثيرًا ما يستقبل ضيوفًا من الرجال المتميزين في منزله المتواضع، ولا سيما في أثناء موسم الحج، حيث كان الحجاج من جميع أنحاء العالم يمرون بجدة في طريقهم لقضاء مناسك الحج في الأماكن المقدسة. وكما هي العادات في السعودية، كان الرجال يجلسون حفاة الأقدام على الأرض المفروشة بالسجاد، ويتكئون بإحدى ذراعيهم على مسند، في حين يمر أولاد محمد الصغار بينهم دون التفوه بكلمة، ويقدمون لهم التمر، ويصبون قهوة الهال الخفيفة المصنوعة من حبوب الهال من أباريق فضية ذات فوهات طويلة. وكان الشيخ بن لادن يستمتع كثيرًا بالمناقشات الدينية، ويستضيف أبرز علماء الدين في المملكة لمناقشة النقاط غير الواضحة في الدين.

وفي ذلك الوقت، كانت إمبراطورية بن لادن في عالم البناء والتشييد قد امتدت خارج حدود المملكة العربية السعودية. ويعد ترميم المسجد الأقصى في القدس أحد أكبر المشروعات التي قام بها محمد خارج المملكة، وهو ما يعني أنه وضع بصمته على الأماكن الثلاثة الأكثر قدسية لدى المسلمين. وقد قال أسامة عنه فيما بعد: «لقد جمع مهندسيه وطلب منهم حساب تكلفة المشروع دون أرباح. وبفضل الله عليه، كان في بعض الأحيان يصلي في المساجد الثلاثة في يوم واحد.»

اعتاد محمد بن لادن أن يزوج طليقاته اللائي أنجبن له أطفالًا إلى موظفين من شركته، ولم يكن لأي منهن رأي في الأمر. فمن الممكن أن تجد الواحدة منهن نفسها تتزوج من شخص ذي مكانة أقل من المكانة التي أصبحت تحتلها، كأن تتزوج سائقًا مثلًا، وهو ما كان يؤثر على مستقبل أطفالها في العائلة. ولكن علياء كانت محظوظة عندما قرر محمد أن يطلقها لأنه زوجها قرر أن يمنحها لأحد الموظفين التنفيذيين بشركته، وهو محمد العطاس الذي يعتبر شريفًا من نسل النبي. وقد كان أسامة في الرابعة أو الخامسة من عمره حين انتقل مع والدته إلى فيلا متواضعة تتكون من طابقين في شارع جبل العرب على بعد عمارات قليلة من منزلهما القديم. وكان المنزل مكسوًا بالجص الأبيض، وبه فناء صغير وبوابة حديدية مثقبة بشكل زخرفي أمام المرآب. وفوق السطح المنبسط يرتفع هوائي للتليفزيون، ويوجد فوق أحد المداخل الأمامية مظلة نافذة بها خطوط بيضاء وبنية اللون، المدخل الذي تستخدمه النساء، وكان الرجال يستخدمون البوابة التي تفضي إلى الساحة الأمامية.

بعد وقت قصير من انتقال أسامة إلى المنزل الجديد، لقي محمد بن لادن مصرعه في حادث تحطم طائرة وهو في طريقه للزواج بفتاة مراهقة أخرى. وقد تفحمت جثته بالكامل لدرجة أنهم لم يتعرفوا عليها سوى من ساعة يده. وعندما وافته المنية، كان محمد لم يبلغ الستين من عمره بعد، وكان لا يزال نشيطًا قويًا وفي ذروة التألق في مسيرته المهنية المذهلة. وقد قال أسامة ذات مرة: «قال الملك فيصل إثر موت أبي: إنني فقدت اليوم ذراعي اليمنى.» لم يكن أولاد محمد قد كبروا على نحو يسمح لهم بإدارة شركة العائلة، لذا فقد عين الملك ثلاثة أوصياء أداروا الشركة للسنوات العشر التالية، وقد تولى أحدهم، وهو الشيخ محمد صالح باحارث الإشراف على تعليم أطفال محمد بن لادن أيضًا. وقد حُجب عنهم الإرث حتى بلغوا الحادية والعشرين من عمرهم. وعلى أية حال، فقد كانت معظم قيمة الإرث مرتبطة بملكية إمبراطورية الإنشاء التي بناها والدهم.

twitter @baghdad_library

أثبت الزواج بين علياء وزوجها الثاني أنه ارتباط قابل للاستمرار. وقد كان عطاس رجلًا هادئًا وطيبًا، ولكن كانت علاقته بابن زوجته مشوبة إلى حد ما بحقيقة أنه ابن صاحب الشركة التي يعمل فيها. أما أسامة، فقد انتقل من منزل مليء بالأطفال إلى منزل جديد هو الطفل الوحيد فيه، قبل أن تنجب له والدته أربعة إخوة غير أشقاء، ثلاثة صبية وفتاة، وكان هو يرعاهم كأبويهم. ويتذكر خالد بطارفي، رفيق طفولته الذي كان يقطن في الجهة المقابلة من الشارع: «كان زوج والدته إذا أراد تنفيذ شيء ما، يخبر أسامة به. وكان إخوته يقولون: إنهم لا يخشون أباهم مثلما يخشون أسامة.» ولم يكن أسامة ينزع عن وجهه قناع السلطة إلا أمام والدته، فيقول بطارفي: «كانت هي الشخص الوحيد الذي يتحدث إليه عن أدق الأشياء، مثل ما الذي تناوله على الغداء.»

كان خالد بطارفي وأسامة بن لادن ينتميان إلى قبيلة كبيرة واحدة وهي قبيلة كندة، التي تضم ما يقرب من مائة ألف فرد. وترجع جذور هذه القبيلة إلى نجد، قلب المملكة العربية السعودية، ثم هاجرت بعد ذلك إلى حضرموت في اليمن. ويقول بطارفي: «يشتهر أفراد قبيلة كندة بالذكاء، وغالبًا ما يكونون مقاتلين وجيدي التسلح، ولهم هيبة ورونق خاص.» ولكنه وجد صديق أوقات لعبه الجديد، على حد وصفه: «هادئًا وأقرب إلى الفتيات في خجله. لقد كان مسالمًا، ولكن عندما يغضب، يبدو مرعبًا.»

كان أسامة يحب مشاهدة التليفزيون، لا سيما البرامج الغربية. وكان المسلسل الأمريكي الشهير بونانزا Bonanza هو المفضل لديه، وكان يحب مسلسلًا آخر يدعى فيوري Fury الذي يحكي قصة صبي وحصانه الأسود. وفي الصيف بعد أداء صلاة الفجر، كان الأولاد يلعبون كرة القدم، وكان أسامة لاعبًا متوسط المستوى يمكن أن يصبح أفضل لو أنه ركز جهوده على هذه الرياضة، ولكن كان عقله دائمًا مشغولًا بأشياء أخرى.

بعد وفاة محمد بن لادن، أرسل الوصي معظم أبنائه إلى لبنان ليتلقوا تعليمهم هناك، ولم يبق في المملكة سوى أسامة، الأمر الذي سيجعله دائمًا أقل أولاد بن لادن ثقافة، مع أنه التحق بأفضل مدرسة في جدة وهي مدرسة الثغر على الطريق إلى مكة. وقد أنشأ الملك فيصل هذه المدرسة في بداية الخمسينيات لتعليم أبنائه، وقد كانت مدرسة عامة مجانية، ولكن كانت المقاييس التي تقبل على أساسها الطلاب عالية جدًا، ومديرها مسئول أمام الملك مباشرة. ولا يُقبل الطلاب في هذه المدرسة إلا

إذا نجحوا في اجتياز امتحان عالي المستوى، وكان الهدف من ذلك هو أن تكون جميع طبقات المجتمع السعودي ممثلة في المدرسة، ولكن على أساس الجدارة والاستحقاق فقط. وقد كانت هذه السياسة متبعة بصرامة، حتى إن عددًا من أبناء الملك خالد طردوا منها وهو لا يزال على العرش.

كان أسامة طالبًا في فصل يتكون من ثمانية وستين طالبًا، منهم اثنان فقط ينتميان إلى العائلة المالكة، وقد أكمل خمسون من زملائه دراستهم حتى حصلوا على درجة الدكتوراه. ويقول أحمد باديب، مدرس مادة العلوم لأسامة لمدة ثلاث سنوات: «لقد كان طالبًا عاديًّا، ولم يكن ممتازًا.» وسوف تتداخل حياة الرجلين، أسامة بن لادن وباديب، بطريقة غير متوقعة في المستقبل، عندما يسير أسامة بن لادن في طريق الجهاد ويصبح باديب عضوًا في جهاز المخابرات السعودي.

وكان جميع الطلاب يرتدون ملابس غربية: سترة ورابطة عنق في الشتاء، وسِرْوالًا وقميصًا طوال العام الدراسي. وكان أسامة مميزًا لأنه كان طويلًا وهزيلًا وبطيء البلوغ؛ ففي الوقت الذي بدأت فيه الشوارب واللحى تظهر على وجوه زملائه، كان لا يزال حليق الوجه حيث كانت لحيته خفيفة للغاية، وكان معلموه يرون أنه خجول ويخشى ارتكاب الأخطاء.

وفي الرابعة عشرة من عمره، مر أسامة بمرحلةِ يقظةٍ دينية وسياسية. وقد عزا البعض هذا التغير إلى علاقته في المدرسة بمدرس ألعاب رياضية سوري جذاب الشخصية، كان عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين. فتوقف أسامة عن مشاهدة برامج رعاة البقر الأمريكية، وامتنع عن ارتداء ملابس غربية خارج المدرسة. وفي بعض الأحيان، كان يجلس أمام التليفزيون ويبكي عندما يشاهد الأخبار من فلسطين. وقد قالت والدته فيما بعد: «في سنوات المراهقة، كان لا يزال الصبي اللطيف كما هو. ولكنه أصبح أكثر إحباطًا وقلقًا وحزنًا على الوضع في فلسطين بصفة خاصة والعالم العربي والإسلامي بصفة عامة.» وقد حاول أن يشرح ما يشعر به لأصدقائه وعائلته، ولكن عاطفته الجياشة أصابتهم بالحيرة والدهشة. وتقول والدته: «كان يرى أن المسلمين ليسوا قريبين من الله بصورة كافية وأن شباب المسلمين قد انشغلوا باللهو والمرح.» وبدأ يصوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع اقتداء بالرسول، وكان يذهب للنوم مباشرة بعد صلاة العشاء، وبالإضافة إلى الصلوات الخمس كل يوم، كان يضبط المنبه على الساعة الواحدة صباحًا ويصلي وحده كل ليلة. وأصبح أسامة صارمًا إلى حد ما مع إخوته الصغار غير الأشقاء، لا سيما في الاستيقاظ مبكرًا للذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الفجر.

twitter @baghdad_library

وكان أسامة نادرًا ما يغضب، إلا عندما ظهرت الموضوعات الجنسية على الساحة. فعندما ظن أن أحد إخوته يغازل خادمة صفعه. وفي موقف آخر، عندما كان في مقهى في بيروت، أخرج أحد أصدقاء أخيه مجلة إباحية، فأوضح أسامة أنه أو أيًّا من إخوته لن تكون لهم أية علاقة بذلك الفتى مرة أخرى. ومن الواضح أنه لم يترك نفسه ينزلق ولو مرة واحدة في حياته في تلك الآثام الدنيوية، مثل السلوكيات البذيئة أو الفاسدة، أو استجاب لإغراء شرب الخمر أو التدخين أو لعب القمار. ولم يكن أسامة أكولًا، ولكنه كان يحب المغامرات والشعر، وأشياء قليلة أخرى في الحياة بجانب حبه لله.

وكانت والدة أسامة تراقب نمو نزعته الدينية بقلق شديد، وقد أسرت بقلقها هذا إلى شقيقتها الأصغر منها ليلى غانم، التي قالت في وقت لاحق: «عندما بدأ يسلك هذا الطريق، كانت قلقة للغاية لأنها والدته. ولكن عندما رأت أن هذا نابع من إيمان راسخ بداخله لن يتزحزح عنه، قالت: «ربنا يحميه».»

في إحدى المرات، كان أسامة في طريقه مع عائلته إلى سوريا لزيارة أقارب والدته كما اعتادوا كل صيف. فشغل السائق شريط تسجيل لأم كلثوم، المطربة الأولى في مصر، وقد كان صوتها القوي معبرًا للغاية عن الحب والشوق حتى إنها كانت في معظم الأوقات تدفع مستمعيها إلى البكاء أو التنهد في شوق. وقد أعادت كلمات الأغنية إلى الأذهان قصائد كبار شعراء الصحراء القدامى، وكانت الأغنية تقول:

يا أغلى من أيامي، يا أحلى من أحلامي
خدني لحنانك خدني عن الوجود ابعدني
بعيد بعيد

وثارت ثائرة أسامة، وأمر السائق بإطفاء جهاز التسجيل ولكن السائق رفض، فقال له أسامة: «إننا ندفع لك نقودًا، فإذا لم تطفئ هذه الموسيقى الآن، عد بنا إلى جدة مرة أخرى!» لم يتفوه أحد من الموجودين في السيارة، ومنهم والدته وزوجها، بكلمة واحدة أمام غضب أسامة، وقد أطاعه السائق في النهاية.

وقد كان تشدده في الدين أمرًا غير تقليدي في الطبقة الاجتماعية الرفيعة التي ينتمي إليها، ولكن كان كثير من الشباب السعودي قد وجد في التعبير الشديد عن التقوى ملجأً يلوذ به. ونظرًا لأنه لم يكن متاحًا أمامهم كثير من أساليب التفكير البديلة، حتى عن الإسلام، فقد كان هؤلاء الشباب محاصرين في عالم روحاني ثنائي

الأبعاد، فإما أن يصبحوا أكثر تطرفًا أو أقل تدينًا. وكما هو الحال دائمًا، فقد كان في التطرف عزاء، وفي حالة أسامة، كان يحميه من رغباته الجنسية في سن المراهقة. وكان أسامة بطبيعته يحب الجو الروحاني الذي يشعر به في الصحراء بسكونها مجردة من أي شيء قد يشتت انتباهه. وسيظل أسامة يسعى طوال حياته إلى حياة الزهد والتقشف، متمثلة في الصحراء وحياة الكهوف ورغبته المكبوتة في أن يموت مجهولًا في خندق في أثناء الحرب. ولكن كان من الصعب أن يتمسك بهذه المفاهيم وبفكرته عن نفسه وهو يتجول في أنحاء المملكة في المقعد الخلفي للسيارة المرسيدس العائلية.

وفي الوقت نفسه، بذل أسامة جهدًا كي لا يكون متشددًا بطريقة مزعجة. فمع أنه كان يعارض العزف على الآلات الموسيقية، فقد نظم هو وبعض أصدقائه فرقة إنشادية دون استخدام الآلات الموسيقية، حتى إنهم قاموا بتسجيل بعض أغانيهم عن الجهاد، الذي كان يعني في نظرهم جهاد النفس لإصلاحها، وليس الحرب. وكان أسامة ينسخ هذه الشرائط ويعطي كلًّا منهم نسخة. وعندما كانوا يلعبون كرة قدم، كان أسامة يحضر معه شطائر تونة وجبنًا للاعبين الآخرين، حتى وهو صائم. وكان التزامه ورباطة جأشه مدعاة للاحترام. ومن باب الاحتشام، توقف عن ارتداء سِرْوال الكرة القصير المعهود وكان يلعب بالسِّرْوال الطويل، واحترامًا لمعتقداته وآرائه كان اللاعبون الآخرون يحذون حذوه.

وكانوا في الغالب يذهبون للعب في الأحياء الفقيرة في جدة، وفي أثناء تناول الغداء، حتى إذا كان صائمًا، كان أسامة يقسم فريقه إلى مجموعات مختلفة تحمل أسماء صحابة النبي ويختبرهم في القرآن. ويعلن الجماعة الفائزة باسم الصحابي الذي تحمل اسمه، فيقول — على سبيل المثال: «فازت مجموعة أبي بكر، والآن دعونا نتناول الكعك.»

وقد كانت مرحلة المراهقة من حياته مليئة بالمغامرات — تسلق الجبال في تركيا وصيد الطرائد الكبيرة في كينيا. وكان يربي الخيول في إصطبل في مزرعة عائلته جنوب جدة، وقد وصل عددها في وقت من الأوقات إلى عشرين حصانًا، منها فرسه المفضل البلقاء. وكان يحب ركوب الخيل وإطلاق النار من على ظهورها مثل رعاة البقر في المسلسلات التليفزيونية التي كان يحبها.

بدأ أسامة يقود السيارات في عمر مبكر، وكان يقود بسرعة كبيرة. وفي منتصف السبعينيات، عندما كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، كان يمتلك

twitter @baghdad_library

سيارة بيضاء كبيرة من طراز كرايسلر اصطدم بها ذات مرة في مجرى للمياه القذرة ودمرها، والمثير للدهشة أنه خرج من الحادث دون أية إصابات. ولكنه بعد ذلك حاول أن يبطئ قليلًا وبدأ يقود سيارات من طراز تويوتا جيب ومرسيدس ٢٨٠ إس، وهي السيارة التي يقودها كبار رجال الأعمال السعوديين، ولكنه كان لا يزال يواجه صعوبة في محاولة إبطاء سرعته قليلًا.

وقد لاحظ أحمد باديب، مدرس العلوم، التغيرات التي طرأت على شخصية تلميذه الشاب قوي الإرادة، فيقول: «في ذلك الوقت، كان أسامة يحاول إثبات نفسه داخل شركة والده، فقد كان هناك قانون في عائلة بن لادن بأنه إذا أثبت أحدهم شخصيته كرجل، يمكنه أن يرث.» وكان لدى مجموعة بن لادن السعودية عقد لمشروع كبير في الجيزان بالقرب من الحدود اليمنية، وكان أسامة يريد بشدة أن يشارك في تنفيذ ذلك المشروع. وقد قال هو بنفسه بعد ذلك: «قررت أن أتخلف عن المدرسة لكي أحقق أهدافي وأحلامي. ولكني فوجئت بالمعارضة الشديدة التي قوبلت بها هذه الفكرة، لا سيما من والدتي التي أخذت تبكي وترجوني أن أغير رأيي. وفي النهاية لم يكن لدي مهرب، فلم أستطع مقاومة دموعها فاضطررت إلى العودة إلى المدرسة وإنهاء دراستي.»

وفي عام ١٩٧٤م، تزوج أسامة للمرة الأولى وهو لا يزال في المدرسة الثانوية، وكان في السابعة عشرة من عمره والعروس، نجوى غانم قريبته من قرية والدته في سوريا، في الرابعة عشرة من عمرها، وكانت فارعة الطول وجميلة. وأقيم حفل زفاف صغير للرجال في منزل أسامة الذي لم يتسن له رؤية العروس قط. وفيما بعد وصفت كارمن، التي أصبحت زوجة أخي أسامة، نجوى بأنها مطيعة و«دائمًا حامل».

وفي ذلك الوقت في المدرسة الثانوية أيضًا انضم أسامة إلى الإخوان المسلمين، التي كانت تقريبًا حركة سرية في المملكة العربية السعودية في السبعينيات. ويتذكر أحد أعضائها قائلًا: «لم تكن الجماعة آنذاك تضم سوى الحمقى.» وقد كان أعضاء الجماعة من المراهقين شديدي التدين مثل أسامة بن لادن، ومع أنهم لم ينشطوا في التآمر على الحكومة، فقد كانت لقاءاتهم سرية في منازل خاصة. وكانت الجماعة تسافر في بعض الأحيان معًا إلى مكة لأداء فريضة الحج، أو تخرج معًا على الشاطئ، حيث كانت تقيم جلسات دعوة دينية ويصلون. ويقول جمال خاشقجي صديق أسامة بن لادن الذي انضم إلى الإخوان في الوقت نفسه تقريبًا: «كنا نأمل في تأسيس

دولة إسلامية في أي مكان. وكنا نؤمن أن إنشاء الدولة الأولى سيكون بمنزلة أول الغيث، الأمر الذي كان من الممكن أن يغير تاريخ البشرية.»

التحق أسامة بن لادن بجامعة الملك عبد العزيز في جدة عام ١٩٧٦م حيث درس الاقتصاد، ولكنه كان منهمكًا أكثر في الشئون الدينية داخل الحرم الجامعي. وقد قال فيما بعد: «لقد كونت جماعة دينية خيرية في الكلية، وكرسنا جزءًا كبيرًا من وقتنا لتفسير القرآن والجهاد.» وفي عامه الأول في الجامعة، قابل بن لادن محمد جمال خليفة الذي كان عضوًا في الإخوان المسلمين وأصبح أقرب أصدقائه. وقد كان جمال خليفة أكبر من بن لادن بعام واحد، وهو شاب اجتماعي بشوش الوجه ولكنه كان ينتمي إلى عائلة بسيطة، مع أنه تمكن من تعقب أصله إلى نسل النبي، الأمر الذي منحه مكانة متميزة في المجتمع الإسلامي بعيدًا عن وضعه المادي. وكان يلعب كرة القدم مع أسامة الذي كان يلعب في مركز المهاجم نظرًا لأنه كان طويلًا وسريعًا، وبعد وقت قصير أصبحا لا يفترقان.

وفي العطلات الأسبوعية، كانا يخرجان إلى الصحراء بين جدة ومكة، وغالبًا ما يمكثان في مزرعة عائلة بن لادن، وهي واحة يطلق عليها البارود. ولكي يمنع البدو من استيطان الملكية الخاصة، شيد بن لادن ما يشبه كوخًا صغيرًا لا يوجد به أكثر من مطبخ ودورة مياه، وبدأ يزرع هناك، وربى قطيعًا صغيرًا من الخراف بالإضافة إلى إصطبل للخيل. وكان بمجرد أن يصل إلى هناك، يخلع حذاءه، حتى في الصيف، ويسير حافي القدمين على الرمال الحارقة.

ويقول خليفة: «كان أسامة عنيدًا للغاية، ففي إحدى المرات كنا نمتطي جوادين في الصحراء ونركض بسرعة كبيرة، ورأيت أمامنا رمالًا ناعمة فأخبرت أسامة أنها خطرة ومن الأفضل أن نتجنبها، ولكنه رفض واستمر في الركض بالحصان، فانقلب به الحصان وسقط هو من على ظهره، ولكنه نهض وهو يضحك. وفي مرة أخرى، كنا نستقل سيارة جيب، وكان كلما رأى تلًا، قاد السيارة بسرعة شديدة إليه وعبره، مع أنه لم تكن لدينا أدنى فكرة عما يوجد في الجانب الآخر. في الواقع، لقد عرض حياتنا للخطر أكثر من مرة.»

ولقد كانت تلك المرحلة مرحلة تساؤل ديني وروحاني لكل منهما، فيقول خليفة: «إن الإسلام يختلف عن أي دين آخر؛ إنه أسلوب في الحياة. وكنا نحاول أن نفهم ماذا يقول الإسلام عن الطريقة التي نأكل بها، ومَن من النساء نتزوج وكيف نتحدث. وقد قرأنا كتب سيد قطب وهو أكثر من تأثر به جيلنا.» وكان كثير

twitter @baghdad_library

من الأساتذة في الجامعة أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين الذين كانوا يفرون من مصر وسوريا. ولقد جاءوا إلى المملكة ومعهم فكرة الإسلام الذي يغلب عليه الطابع السياسي، وهي الفكرة التي تقول بالدمج بين الدولة والدين في نظام حكم ديني واحد شامل. انجذب أسامة بن لادن وجمال خليفة إليهم لأنهم كانوا أكثر تفتحًا من العلماء السعوديين، وكانوا راغبين في إرشادهم إلى الكتب التي ستغير حياتهم، مثل: «معالم في الطريق» و«في ظلال القرآن» لسيد قطب. وكل أسبوع، كان محمد قطب، الأخ الأصغر للشهيد، يحاضرهم في الكلية. ومع أن بن لادن لم يدرس على يد محمد قطب بشكل رسمي، فقد كان عادة ما يحضر المحاضرات العامة التي كان يلقيها، وقد كان محمد قطب يتمتع بشهرة كبيرة بين الطلاب الذين لاحظوا سلوكه الهادئ مع أنه تحمل صنوفًا من العذاب في سجون عبد الناصر.

وفي ذلك الوقت، كان محمد قطب يدافع بضراوة عن سمعة شقيقه التي كانت تتعرض للهجوم من قِبل الإسلاميين المعتدلين الذين رأوا أن كتاب «معالم في الطريق» يغذي فكريًّا مجموعة جديدة من المتطرفين الذين يلجئون إلى استخدام العنف، خاصة في مصر، والذين استخدموا كتابات سيد قطب لتبرير مهاجمة أي شخص يعتبرونه كافرًا، بما في ذلك إخوانهم من المسلمين. وكان في طليعة من انتقدوا قطبًا، حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين، الذي نشر كتابه «دعاة لا قضاة» الذي ألفه في السجن ليواجه به دعوة قطب إلى إثارة الفوضى التي أغوت الكثيرين. وفي رأي الهضيبي الأكثر التزامًا بالمفاهيم الدينية التقليدية، لا يحق لمسلم تكفير آخر طالما أنه يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وسريعًا ما انتشر الجدال الذي ولد في السجون المصرية مع قطب والهضيبي في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حيث كان شباب المسلمين يتحيزون لأي من الفريقين في نقاشهما الذي يحدد من هو المسلم ومن غير ذلك. ويتذكر جمال خليفة فيقول: «قرأ أسامة كتاب الهضيبي عام ١٩٧٨م، وتناقشنا بشأنه، وكان أسامة يوافقه الرأي تمامًا.» ولكن على أية حال، ستتغير آراؤه قريبًا، وسيفتح ذلك التحول الجوهري من الإيمان برؤية الهضيبي المتسامحة والمتفتحة للإسلام إلى اعتناق رؤية قطب ضيقة الأفق التي تخول لنفسها سلطة إصدار الأحكام، الباب للإرهاب.

وفي العام نفسه، ولد عبد الله بن أسامة من نجوى، الذي كان الأول بين أشقائه الأحد عشر، وتبعًا للتقاليد العربية، أصبح الأب ينادى أبا عبد الله والأم أم عبد الله. وعلى عكس والده، كان أسامة يهتم كثيرًا بأطفاله ويرعاهم ويلعب معهم،

ويحب أن يصطحب عائلته التي يتزايد عدد أفرادها بسرعة إلى الشاطئ، ولكنه كان يكلفهم الكثير أيضًا. وكانت لديه أفكار مترسخة في ذهنه عن ضرورة إعداد أطفاله للحياة القاسية في المستقبل. فكان يصطحبهم جميعًا، الصبية والفتيات، في العطلات الأسبوعية إلى المزرعة لكي يعيشوا بين الجمال والخيول. وكانوا ينامون في الهواء الطلق، وإذا كان الجو باردًا حفروا في الرمال وغطوا أنفسهم بها. وقد رفض بن لادن أن يجعل أطفاله يلتحقون بالمدرسة، وبدلًا من هذا كان يحضر لهم معلمين في المنزل حتى يشرف بنفسه على أدق تفاصيل تعليمهم. ويقول جمال خليفة: «كان يريد أن يجعلهم شخصيات قوية وصلبة، وليس كالأطفال الآخرين الذين كان يرى أنهم مدللون.»

أما الابن الثاني لأسامة بن لادن، عبد الرحمن، فقد ولد مصابًا بعيب خلقي نادر وغير مفهوم يطلق عليه استسقاء الرأس، والمعروف بمرض وجود ماء على المخ. وينتج هذا المرض عن زيادة السائل المخي الشوكي الذي يتجمع داخل التجاويف العصبية الذي يسبب بدوره تضخم حجم الرأس وانكماش حجم المخ. وبعد الولادة، تستمر الرأس في النمو ما لم يُصرف السائل. ولقد كانت حالة عبد الرحمن خطيرة للغاية حتى إن بن لادن اصطحبه بنفسه إلى المملكة المتحدة ليتلقى العلاج، وعلى الأرجح كانت تلك هي المرة الوحيدة التي سافر فيها أسامة إلى الغرب. وعندما أخبره الأطباء أن عبد الرحمن يحتاج إلى عملية في مخه لإدخال أنبوب التصريف، رفض أسامة السماح لهم بإجراء الجراحة. وبدلًا من ذلك، عاد إلى المملكة العربية السعودية وعالج الطفل بنفسه باستخدام العسل، وهو علاج شعبي للكثير من الأمراض. ولكن للأسف، أصبح عبد الرحمن يعاني إعاقة طفيفة، ومع تقدمه في العمر، صار يتعرض لنوبات هياج انفعالي، ويجد صعوبة في التكيف مع الأطفال الآخرين خاصة في الرحلات الخلوية الشاقة التي كان أسامة يصطحبهم فيها. فكان غالبًا ما يبكي لجذب الانتباه إليه أو يثير مشاجرات إذا لم تسر الأمور على هواه. ومع ذلك، كان بن لادن يصر دائمًا على اصطحابه معه ويحرص بشدة على ألا يكون وحيدًا.

أراد جمال خليفة أن يتزوج هو الآخر، وتقتضي العادات والتقاليد في المملكة العربية السعودية أن يدفع الرجل مهرًا لعروسه ويجهز لها منزلًا قبل الزفاف. وقد عثر خليفة على فتاة مناسبة، ولكن لم يكن لديه ما يكفي من النقود لكي يُهيئ لها منزلًا. وكان بن لادن يمتلك قطعة أرض بالقرب من الجامعة، فبنى عليها منزلًا صغيرًا لصديقه، ولكن لسوء الحظ، كان بسيطًا ومتواضعًا للغاية في نظر العروس.

twitter @baghdad_library

لم يشعر أسامة بالاستياء، بل كان أكثر كرمًا معهما. وكان في ذلك الوقت لا يزال يعيش في منزل والدته مع زوجها وأطفالهما، فقسم الدور الأول من المنزل، الذي كان يشغله مع أسرته إلى نصفين ببناء حائط في منتصف غرفة المعيشة ثم دعا خليفة وعروسه ليعيشا معهم قائلًا: «اسكن أنت في هذا الجزء، وأنا سأعيش في الجزء الآخر.» وبالفعل عاش خليفة وزوجته هناك حتى تخرج في جامعة الملك عبد العزيز في عام ١٩٨٠م.

وبينما كانا في الجامعة، قرر أسامة وجمال أن يتخذا أكثر من زوجة. وكان ذلك الأمر قد أصبح غير مقبول اجتماعيًّا في المملكة العربية السعودية. وقد اعترف جمال خليفة بهذا قائلًا: «لقد استغل جيل آبائنا تعدد الزوجات بطريقة سيئة، فلم يعدلوا بين زوجاتهم. وفي بعض الأحيان، كانوا يتزوجون ويطلقون في اليوم نفسه. ولقد تناولت وسائل الإعلام المصرية هذا الموضوع في التليفزيون، وتركت انطباعًا سيئًا للغاية لدى الناس، لذا قررنا أن نطبقه بأنفسنا لنُري الناس أنه بوسعنا تطبيقه بالطريقة الصحيحة.» وفي عام ١٩٨٢م، ضرب بن لادن مثلًا على هذا عندما تزوج بسيدة من عائلة صابر في جدة تنحدر من نسل النبي. وكانت العروس على قدر عال من التعليم إذ تحمل شهادة الدكتوراه في علم نفس الأطفال، وتحاضر في كلية البنات في جامعة الملك عبد العزيز، وقد كانت أكبر من أسامة بسبع سنوات وأنجبت له طفلًا واحدًا وأصبح اسمها أم حمزة.

وبالطبع لم تكن إدارة أسرتين أمرًا سهلًا، ولكن هذا لم يفت في عضد أسامة الذي وضع نظرية عن تعدد الزوجات تقول: «الزواج من واحدة لا بأس به مثل السير على القدمين، والزواج من اثنتين مثل ركوب الدراجة: أسرع ولكنه غير مستقر قليلًا، والزواج من ثلاث مثل ركوب الدراجة الثلاثية: مستقرة ولكن بطيئة. أما الزواج من أربع: فإنه أفضل شيء تفعله، فيمكنك بذلك تخطي الجميع!»

اشترى أسامة مبنى متهالكًا يتكون من أربع وحدات سكنية عند ملتقى شارع وادي الصفا ووادي بيشة، على بعد ميل من منزل والدته. وقد كانت الوحدات السكنية مطلية بالتناوب باللونين الرمادي والقرنفلي الضارب إلى الصفرة، وفي كل منها جهاز تكييف هواء. وفيما مضى كان هناك مصنع مكرونة بالقرب من المنزل الجديد، ونظرًا لأن استخدام أرقام الشوارع أمر نادر في السعودية، فقد كان منزل بن لادن الجديد يُعرف بالمنزل الكائن في شارع المكرونة. أسكن بن لادن الأسرتين في شقتين منفصلتين. وبعد بضع سنوات، تزوج مرة أخرى من فتاة من عائلة الشريف من

المدينة المنورة، وكانت أيضًا على قدر عال من التعليم وحاصلة على شهادة الدكتوراه في النحو العربي، وكانت تُدرِّس في كلية المعلمين المحلية. وأنجب منها أسامة ثلاث فتيات وصبيًّا، ومن ثم، عرفت هذه الزوجة بأم خالد. أما زوجته الرابعة، أم علي، فهي من عائلة جيلاني في مكة، وقد أنجبت له ثلاثة أطفال.

لم يكن بن لادن متميزًا في دراسته، وكان من الواضح أيضًا أنه لم يكن مهتمًّا بها، لذا فإنه لم يسعَ أبدًا للعمل في مجال محترم مثل القانون أو الهندسة أو الطب، الأمر الذي كان يمكن أن يمنحه مكانة مستقلة. وكان إخوته يتلقون تعليمهم في أفضل الجامعات في العالم، لكن ظل والده الأمي هو مثله الأعلى. فكان أسامة دائم الحديث عنه ويعتبره نموذجًا يحتذى به، وكان يتوق للوصول إلى مكانة تضاهي مكانته، ولكنه كان يعيش في ثقافة لا تشجع الفردية، أو على الأقل تحتفظ بها للعائلة المالكة. وعلى غرار أعضاء الطبقة السعودية الثرية، ازدهرت عائلة بن لادن في ظل رعاية وعطف العائلة المالكة، ولم يكن لديهم أدنى استعداد للمخاطرة بخسارة هذا العطف. بالإضافة إلى هذا، فقد كانوا لا يزالون غرباء، يمنيين، في عيون السعوديين الذين ينتمون إلى قبائل سعودية، ولم يكن هناك آنذاك نظام سياسي أو مجتمع مدني أو طريق واضح للوصول إلى منزلة عظيمة. ولم يتلق بن لادن التعليم الديني الذي يؤهله لأن يكون من علماء الدين، وهو البديل الوحيد للسلطة الملكية في المملكة. لذا، فقد كان مستقبله الواضح هو البقاء في شركة العائلة، في آخر لائحة الأسبقية، وأن يحظى بالاحترام داخل نطاق العائلة، ولكن دون أن يتمكن من ترك بصمة مميزة.

استمر بن لادن في الإلحاح على إخوته الأكبر منه كي يسمحوا له بالعمل لصالح الشركة، وفي النهاية وافقوا على منحه عملًا لجزء من الوقت في منى بالقرب من مكة المكرمة. وتوقعوا أن يستغرق العمل ستة أشهر، ولكن بن لادن قال: «أريد أن أكون مثل والدي، سأعمل ليل نهار دون راحة.» وكان يحاول آنذاك إنهاء دراسته، فكان بمجرد انتهاء يومه الدراسي، يقود سيارته مسرعًا إلى مكة حيث يباشر عمله في تسوية التلال للتمهيد لإنشاء الطرق السريعة والفنادق ومراكز الحج الجديدة التي كانت مجموعة بن لادن السعودية تقوم بإنشائها. وكان يصر على العمل يدًا بيد مع العمال الذين من المفترض أن يشرف عليهم، وكان يقضي ساعات كثيرة يعمل على الجرافات ومعدات حفر وتمهيد الطرق. وكان قد أصبح من النادر آنذاك رؤية مواطن سعودي يقوم بعمل يدوي، فمعظم هذه المهام كانت تقوم بها العمالة الوافدة من الفلبين أو شبه القارة الهندية، لذا فإن رؤية ابن مؤسس الشركة الطويل الهزيل

twitter @baghdad_library

وهو يتصبب عرقًا ويعلوه الغبار الناتج عن معدات البناء الثقيلة تركت انطباعًا مذهلًا على الجميع. وقد افتخر أسامة بن لادن بهذا فيما بعد حين قال: «أذكر وكلي فخر أنني كنت العضو الوحيد في العائلة الذي نجح في الجمع ما بين العمل والنجاح الباهر في الدراسة في الوقت نفسه.» ولكن في الواقع، كان من الصعب عليه تدبر جدول عمله، وفي نهاية الفصل الدراسي، ترك الجامعة قبل التخرج بعام واحد وتفرغ للعمل في الشركة.

يبلغ طول أسامة أكثر قليلًا من ستة أقدام، فهو ليس عملاقًا كما قيل عنه بعد ذلك. ويتذكر أحد معارفه أنه قابله في ذلك الوقت، قبل أن يغير الاتجاه إلى الجهاد كل شيء، فيقول: «توفي أحدهم وذهبنا للعزاء.» وقد كان أسامة آنذاك في أوائل العشرينات من عمره وكان شديد الوسامة ذا بشرة صافية ولحية مكتملة وشفتين عريضتين ممتلئتين. وكان أنفه طويلًا ومعقد الشكل إذ كان رفيعًا ومستقيمًا من أعلى ثم يمتد لينقسم فجأة إلى فتحتين واسعتين وأرنبة مستدقة لأعلى. وكان يرتدي عقالًا أسود فوق غترته البيضاء، وتحت الغترة شعره أسود قصير ومجعد. ولقد كان نحيلًا من الصيام والعمل الشاق، وقد زاد صوته العالي الرفيع واحتشامه وسلوكه فاترُ الهمة من مظهره الضعيف الهزيل. ولاحظ ذلك الصديق أنه «كان واثقًا بنفسه وله شخصية جذابة.» ومع أن علماء الدين كانوا حاضرين، فقد ظهر بن لادن كشخص يقف معهم على قدم المساواة. وعندما تحدث، أسرت رصانته الألباب، وجذب انتباه جميع من كانوا في الغرفة. ويضيف ذلك الصديق: «إن ما أذهلني أنه ينتمي إلى مثل هذه العائلة ذات الترتيب الهرمي الكبير، ولكنه حطم ذلك الترتيب.»

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع

التحول

أرسل الملك فيصل أبناءه إلى أمريكا كي يتلقوا تعليمهم هناك، فأرسل تركيًّا أصغر أبنائه إلى مدرسة لورنس فيل في ولاية نيوجيرسي عام ١٩٥٩م عندما كان في الرابعة عشرة من عمره. وقد كانت مدرسة ثانوية للطلاب من الطبقة الثرية، وفيما يتعلق بتركي فقد كان الالتحاق بتلك المدرسة تجربة تعرف فيها على مبادئ المساواة الأمريكية. وفي اليوم الأول من الدراسة، قدم أحد الطلاب نفسه إلى الأمير بضربه على مؤخرة ظهره ثم سؤاله عن اسمه، وعندما أجابه تركي، سأله الطالب مرة أخرى: «كالديك الرومي الذي نتناوله في عيد الشكر؟» — حيث إن Turkey باللغة الإنجليزية تعني ديك رومي، وتُنطَق كما يُنطَق اسم الأمير. لم يدرك أحد في الواقع من هو أو يهتم بذلك، وقد سمحت له تلك التجربة الجديدة أن يكون شخصًا جديدًا. وكان زملاؤه في الفصل ينادونه باسم «تُرك» أو «فيزليستكس».

كان تركي شديد الوسامة، ذا جبهة عالية وشعر أسود متموج وذقن ذات ثنية عميقة، وقد ورث ملامح أبيه الحادة فيما عدا الضراوة التي كانت تملأ عيني والده، فكانت هيئته أكثر روحانية ويبدو مستغرقًا في التفكير. ومع أنه كان رئيس نادي تعلم وممارسة اللغة الفرنسية، فقد كان رياضيًّا أكثر منه طالبًا، فكان يلعب كرة القدم مع منتخب الجامعة ومَثَّل جامعة نيوجيرسي في لعبة المبارزة بالسيف في أولمبياد الشباب عام ١٩٦٢م. وكان تركي متقد الذكاء، إلا أنه لم يمنح دراسته تركيزه الكامل. وعندما تخرج في المدرسة التحق بكلية على بعد أميال قليلة في برينستون، ولكنه فُصل منها بعد فصل دراسي واحد، فانتقل إلى جامعة جورج تاون في واشنطن العاصمة، وهناك جاء إليه أحد زملائه في عام ١٩٦٤م وسأله: «هل سمعت الأخبار؟ لقد أصبح والدك ملكًا.»

وفي أمريكا على بعد آلاف الأميال، تابع تركي أخبار الاضطرابات في بلده، بما في ذلك إنقاذ محمد بن لادن للوضع المالي المتأزم في المملكة. ولقد جاء موقف محمد بن لادن في اللحظة المناسبة، مما سمح للملك فيصل بإعادة تنظيم مملكته والحفاظ على استقرارها، في الوقت الذي كانت فيه الاشتراكية العربية تزدهر وكان من الممكن أن تؤدي إلى الإطاحة بالعائلة المالكة. ولقد كانت العلاقة التي تربط العائلة المالكة بعائلة بن لادن قوية بصورة خاصة مع أبناء الملك فيصل الذين لم ينسوا أبدًا الخدمة الجليلة التي قدمها محمد بن لادن لوالدهم حين صعد إلى العرش.

بعد انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧م، سقط العالم العربي في حالة من اليأس والإحباط. وسيطرت على تركي كآبة شديدة حتى إنه بدأ يتغيب عن دروسه، ثم يضطر إلى تعويض ما فاته في الفصل الصيفي. وقد قضى زميل له، وهو شاب اجتماعي من أركنساس يدعى بيل كلينتون Bill Clinton، أربع ساعات يساعده في المذاكرة لاجتياز اختبار في علم الأخلاق. وكان ذلك اليوم، التاسع عشر من أغسطس/آب، عيد ميلاد كلينتون الحادي والعشرين. حصل تركي على تقدير جيد في الاختبار، إلا أنه ترك الدراسة في جامعة جورج تاون بعد ذلك بوقت قصير دون أن يتخرج، وقد استمر في الالتحاق بدورات تعليمية في جامعتي برينستون وكمبريدج، ولكنه لم يكن متحمسًا لأن ينهي دراسته ويتخرج.

عاد تركي أخيرًا إلى المملكة في عام ١٩٧٣م، وذهب إلى والده يسأله عما يجب عليه أن يفعله، ففهم الملك من سؤاله أنه يسعى للحصول على عمل، فرفع حاجبه الأيمن إلى الأعلى وقال له: «أنا لم أمنح أيًا من أشقائك عملًا، اذهب وابحث عن عمل بنفسك.» وبالطبع، لم يكن لدى أصغر أبناء الملك ما يقلق بشأنه، حيث إن مكانته في الحياة مضمونة نظرًا لثراء عائلته الفاحش وتحكم والده الكامل في شئون المملكة. فعرض عليه خاله الشيخ كمال أدهم منصبًا في مكتب الاتصالات الخارجية. ويقول تركي: «لم أكن مهتمًا بالعمل في المخابرات، بل ولم أعرف أن هذا العمل كان في مجال الاستخبارات، فقد كنت أعتقد أنه عمل يرتبط بالدبلوماسية.» وكان من الواضح أن شخصية تركي الذي كان متحدثًا هادئًا لبقًا ومفكرًا تناسب العمل في مجال يعتمد أكثر على إقامة حفلات عشاء هادئة ومفاوضات ودية في ملاعب التنس، أكثر من مهنة تتطلب نوعًا من مهارات العمل في الخفاء. وتزوج الأمير تركي من الأميرة نوف بنت فهد آل سعود، وهي من فرع قريب من العائلة المالكة، واستقرا في حياة رغد

twitter @baghdad_library

لا يحظى بها الكثيرون على هذا الكوكب. ولكن كان التاريخ يستعد لتغيير مجراه، وحياته السعيدة الهادئة كانت على وشك استقبال طوفان جامح.

عاد الأمير تركي إلى وطنه في مرحلة حاسمة؛ فقد كان كثير من السعوديين غير مستعدين لذلك التحول المفاجئ الذي طرأ على ثقافتهم منذ الازدهار الأول للنفط في بلدهم، ولا يذكرون في حياتهم سوى بلد شديد التمسك بالأصول في جميع مظاهر الحياة. فقد كان معظم السعوديين في خمسينيات القرن العشرين يعيشون بالطريقة نفسها التي عاش بها أجدادهم منذ ألفي عام مضت. وفي الواقع، كان القليل منهم فقط يفكرون في هويتهم كسعوديين؛ حيث إن مفهوم الجنسية لم يكن يعني لهم الكثير ولم يكن للحكومة عمليًّا أي وجود في حياتهم، فهم ليسوا إلا رجال قبائل لا يعرفون حدودًا. ولقد خلقت المساواة في الفقر وضيق أفق التوقعات مجتمعًا أفقيًا مثل أرض الصحراء. وكانت القوانين السلوك القبلية، إلى جانب أوامر وتعاليم القرآن، هي ما يحكم تفكير الأفراد وأعمالهم. وكثير منهم، وربما الغالبية العظمى، لم يروا في حياتهم سيارة أو شخصًا أجنبيًّا، ولم يكن التعليم يتجاوز حفظ القرآن إلا قليلًا، ولم تكن هناك حاجة لأكثر من ذلك. وكان الثبات الدائم يمثل جوهر الحياة في شبه الجزيرة العربية، فلا شيء يتغير: الماضي والحاضر شيء واحد لا يختلفان.

وفجأة اندفع فيضان التغيير ليغرق هذه الصحراء القاحلة، فظهرت الطرق والمدن والمدارس والعمالة الأجنبية والدولارات، بالإضافة إلى تيار جديد من الوعي بالعالم ومكانة المرء فيه، فأصبحت بلدهم وحياتهم غريبة عليهم. ولأنهم وجدوا أنفسهم فجأة في قلب السوق العالمية للأفكار والقيم، وجد كثير من السعوديين الذين كانوا يبحثون عن شيء ذي قيمة في تقاليدهم ضالتهم في المعتقدات الصارمة التي أثَّرت فهمهم للإسلام، فقد قدمت لهم الحركة الوهابية سدًّا لحمايتهم من فيضان العصرية الجامح الذي أغرق البلاد. وانتشر شعور عام، ليس فقط بين المتطرفين، أن تيار التقدم سيمحو أهم سمة تميز شبه الجزيرة العربية ألا وهي قدسيتها.

لقد سقطت ثروة لا يتخيلها عقل على هؤلاء البدو الذين كانوا يحيون حياة متقشفة في الصحراء، ولقد آمنوا بشدة أنها مكافأة من الله لهم على تقواهم. ومن المفارقات العجيبة، أن تلك المكافأة كانت تُقَوِّض كل سمة تميز هويتهم. وفي غضون عشرين عامًا من الطفرة النفطية الهائلة الأولى في الخمسينيات، أصبح متوسط الدخل السعودي مساويًا تقريبًا لنظيره في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان يتزايد بمعدل

يشير إلى أن المملكة ستصبح أكبر قوة اقتصادية في العالم. وقد كانت مثل هذه التوقعات المغرية تحجب حقيقة أن الفروق الطبقية في هذا البلد كانت تمزق مجتمعًا لا يزال يتخيل نفسه مجتمعًا قبليًّا ممتدًا. وأصبح المواطن السعودي نموذجًا عالميًّا للإسراف، بل نموذجًا لأكثر شيء قد يسيء إلى كرامته، نموذجًا للهو والعبث. ولقد كانت الأموال الطائلة التي تبدد على المسرات، وجشع النساء وهن يرتدين فراء المنك فضي اللون ويحملن حقائب التسوق في الشانزليزيه، والشراء العابر للمجوهرات التي يمكن أن تقلب اقتصاد بلاد بأكملها رأسًا على عقب، مصدر تسلية للعالم الذي اهتز بشدة أيضًا من توقع مستقبل يمتلك فيه السعوديون عمليًّا كل شيء. ولقد ازدادت حدة ذلك القلق بسبب الحظر النفطي الذي فرضته السعودية عام ١٩٧٣م، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعًا غير مسبوق وتسبب في خلق مشكلات حقيقية للحكومة السعودية التي لم تعرف كيف تنفق كل هذه النقود. ولقد أشار التبديد الشامل للثروات العامة والخاصة إلى أن المملكة العربية السعودية قد أصبحت بئرًا لا تنضب من النقود، على أن هذه البئر لم يكن مائها لعامة الشعب.

ولم تكن العائلة المالكة تحكم البلد فقط، بل كانت في الواقع تمتلكها؛ فجميع الأراضي التي لا يمتلكها أحد كانت ملكًا للملك، الذي كان صاحب السلطة الوحيدة في تحديد من يمتلك هذه الأراضي. ومع توسع البلد، أخذ بعض أفراد العائلة المالكة يستخلصون أغنى قطع الأراضي لأنفسهم. ولم يكتفوا بكل هذا، بل أخذ بعض الأمراء يتربحوا من كل الفرص التي أتيحت إليهم. وقد جاء ذلك الهجوم على عالم التجارة مع أن آل سعود، العائلة المالكة، كانت تخصص ٣٠٪ أو ٤٠٪ من أرباح النفط كحصة مخصصة لأعضاء العائلة. باختصار، لقد كان آل سعود يجسدون جميع التغيرات التي طرأت على الهوية السعودية، وكان من الطبيعي أن يفكر رعاياهم في الثورة.

ومع ذلك، كانت العائلة المالكة قوة تقدمية واضحة في ظل ذلك المجتمع الذي يندر فيه وجود المؤسسات. وفي عام ١٩٦٠م، ورغم المعارضة الشديدة من المؤسسة الوهابية، سمح ولي العهد الأمير فيصل بتعليم الفتيات، وبعد عامين ألغى العبودية رسميًّا. وأقنع الرئيس جون كينيدي بإرسال قوات أمريكية لحماية المملكة في أثناء الحرب الحدودية ضد اليمن. وهو الذي أدخل التليفزيون إلى المملكة، مع أن أحد أبناء أشقائه قد قتل عندما كان يقود احتجاجًا على فتح محطة البث في عام ١٩٦٥م. وكان فيصل يتمتع بحرية أكبر في التصرف من سلفه؛ نظرًا لأن تقواه لم تكن موضعًا

twitter @baghdad_library

للشك. ولكنه كان حذرًا من المتطرفين الذين كانوا يتحكمون باستمرار في أفكار وسلوكيات الغالبية العظمى من المجتمع السعودي. ومن وجهة نظر بعض المؤمنين المتحمسين، فقد كان أكثر إنجازات فيصل دهاءً في عهده هو السيطرة على نفوذ علماء الدين بجعلهم موظفين في الدولة. وعن طريق دعم أصوات العلماء المعتدلين وتأييدهم أكثر من غيرهم، سعت الحكومة إلى تهدئة الحركات المتطرفة التي تمخضت عنها موجة العصرية المضطربة التي تعرضت لها البلاد. ولقد كان الملك فيصل ملكًا قويًّا لدرجة أنه تمكن من فرض هذه التغيرات على مجتمعه بسرعة مذهلة.

ولقد ساعده أولاده على توطيد أواصر حكمه؛ فأصبح تركي مدير المخابرات في المملكة وشقيقه الأكبر منه، الأمير سعود، وزيرًا للخارجية. وعلى أيدي هذين الأميرين اللذين تلقيا تعليمهما في أمريكا، بدأت المملكة العربية السعودية تثبت وجودها في المجتمع الدولي. وخففت الثروة الطائلة التي أغرقت المملكة من الارتباك بسبب التغير السريع والاستياء من العائلة المالكة، إلى جانب أن نشأة صفوة مثقفة من المجتمع على وعي بالتكنولوجيا الحديثة سيفتح الباب على مصراعيه على ذلك المجتمع شديد الشك والريبة والحماسة الدينية أيضًا. ولكن في عام ١٩٧٥م، اغتيل الملك فيصل على يد ابن أحد إخوته (شقيق ذلك الذي قُتل في مظاهرات افتتاح محطة التليفزيون) وقتل معه هذا المستقبل الواعد.

في وقت مبكر للغاية من صباح يوم العشرين من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٧٩م، تلقى تركي استدعاءً من الملك خالد خليفة والده. وقد كان تركي في تونس مع ولي العهد الأمير فهد يحضران القمة العربية. وكان تركي آنذاك في الرابعة والثلاثين من عمره، وعلى وشك مواجهة أكبر أزمة تتعرض لها المملكة العربية السعودية في تاريخها غير الطويل.

ففي فجر ذلك اليوم، كان الإمام الشيخ محمد السُّبَيل، إمام المسجد الحرام في مكة، يستعد ليؤم خمسين ألفًا من المصلين اجتمعوا في اليوم الأخير من الحج. وعندما اقترب من مكبر الصوت، طُرِح جانبًا ودوت طلقات الرصاص في المسجد الحرام. وفجأة أخرجت مجموعة رثة الملابس من المتمردين الذين يقفون بين الحجاج البنادق من تحت ملابسهم وأخذوا يطلقون النيران. وقاموا بإغلاق الأبواب بالسلاسل الحديدية وحاصروا الحجاج في الداخل وقتلوا عددًا من رجال الشرطة. ثم صرخ رجل

فظ المظهر كث اللحية قائلًا: «انتبهوا أيها المسلمون! الله أكبر، لقد ظهر المهدي»، وأخذ المسلحون يصرخون: «المهدي! المهدي!».

كان ذلك في يوم رأس السنة الهجرية لعام ١٤٠٠، بداية دموية لقرن جديد من الفتن والشغب. والمهدي، كما جاء في بعض التراث الإسلامي المنقول شفهيًا والمختلف عليه، سيظهر قبل نهاية الزمان بوقت قصير. ومفهوم المهدي مثير للجدل في الإسلام، خاصة في المذهب الوهابي نظرًا لأن هذا المنقذ لم يذكر في القرآن. وطبقًا لهذا التراث، فإن المهدي ينحدر من نسل النبي وسيحمل اسمه (محمد بن عبد الله) وأنه سيظهر في أثناء موسم الحج. وبعد ذلك سيعود المسيح إلى الأرض ويطلب من أتباعه التمسك بالإسلام، وسيحارب بنفسه المسيح الدجال جنبًا إلى جنب مع المهدي لإعادة العدل والسلام إلى الأرض.

والرجل الذي ادعى أنه المهدي هو محمد عبد الله القحطاني، ولكن القائد الحقيقي للثورة هو جهيمان العتيبي، وهو داعية أصولي وعريف سابق في الحرس الوطني السعودي. وقد سجن الرجلان معًا بتهمة التحريض على الفتنة، وفي ذلك الوقت، ادعى العتيبي أن الله قد أوحى له في المنام أن القحطاني هو المهدي.

اقتنع القحطاني بحلم العتيبي بأنه هو المختار. وعندما خرج الرجلان من السجن، تزوج القحطاني من شقيقة العتيبي، وسريعًا ما بدآ يجذبان أتباعًا برسالتهما عن إنقاذ البشرية، لا سيما الشباب من طلاب العلوم الدينية في الجامعة الإسلامية بالمدينة التي تعد مركزًا للمتطرفين من جماعة الإخوان المسلمين. وبفضل التبرعات التي كان يساعدهم بها أنصارهم من الأثرياء، أصبح أتباع العتيبي مسلحين وعلى قدر جيد من التدريب. وبعضهم، على غرار العتيبي نفسه، كانوا أعضاء في الحرس الوطني السعودي المكلف بحماية العائلة المالكة. وكان هدف هذه الجماعة هو الاستيلاء على الحكم وتأسيس حكومة دينية انتظارًا للنهاية الوشيكة للعالم.

اعتاد جمال خليفة الذي كان لا يزال يقطن في منزل أسامة بن لادن آنذاك، أن يرى العتيبي وأتباعه يمارسون دعوتهم ويعظون الناس في مساجد مختلفة، وغالبًا ما كانوا يرتكبون أخطاءً في تلاوة القرآن، وكان بن لادن يراهم أيضًا. وكان الناس يندهشون عندما يسمعونهم ينتقدون الحكومة علانية، حتى أنهم مزقوا ريالات سعودية لأنها تحمل صورة الملك.

وكانت مثل تلك السلوكيات جديدة لم يسمع بها أحد من قبل في بلد محكوم بقبضة من حديد، ومع ذلك كانت الحكومة تعارض بشدة مواجهة المتطرفين دينيًا.

twitter @baghdad_library

وقد قام أعضاء من العلماء باستجواب العتيبي والقحطاني بحثًا عن أية إشارة إلى الضلال، ولكنهم لم يجدوا ما يدل على ذلك، فأطلقوا سراحهما. وكان ينظر إليهم على أنهم نموذج ساذج لجماعة الإخوان المتعصبة القديمة التي كانت جنود الميدان للملك عبد العزيز. وبالفعل كان العتيبي حفيدًا لأحد هؤلاء الإخوانيين، ولكن لم يتخيل أحد قط أنهم يمثلون تهديدًا حقيقيًّا على النظام القائم.

وقبل أن يقطع المتمردون خطوط الهاتف، تمكن أحد الموظفين الذين يعملون في مؤسسة بن لادن، التي كانت لا تزال تنفذ عملية ترميم وتجديد المسجد الحرام، من الاتصال بمقر الشركة والتبليغ بما حدث، فقام ممثل عن الشركة بنقل الأخبار إلى الملك خالد.

عاد تركي من تونس إلى جدة في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، وقاد سيارته الخاصة إلى مكة. وقد أُخْلِيَت مكة بالكامل فكانت الشوارع خالية وكأنها مدينة أشباح، وأطفئت الأضواء الكاشفة العملاقة التي تضيء المسجد الضخم، بالإضافة إلى كافة مصادر الطاقة، لذا فقد كان المسجد يبدو كبناء هائل مخيف يلوح في الظلام الدامس. اتجه تركي إلى فندق حيث كان ينتظره عمه الأمير سلطان وزير الدفاع. وفي أثناء دخول تركي إلى الفندق، انطلقت رصاصة من بندقية أحد قناصي المتمردين الذين يختبئون في المآذن وأصابت الباب الزجاجي للفندق، فتناثرت أجزاؤه بين يدي الأمير.

في وقت لاحق من ذلك المساء، انتقل تركي إلى مقر القيادة على بعد مائة متر من المسجد حيث سيظل هناك لمدة أسبوعين. وكان المتمردون قد أطلقوا سراح معظم الرهائن، ولكن بقي عدد غير معروف منهم محتجزًا داخل الحرم. ولم يكن أحد يعرف عدد المتمردين في الداخل أو مدى تسليحهم أو كيف استعدوا للموقف، فقام مائة ضابط أمن من وزارة الداخلية بمحاولة مبدئية لاستعادة المسجد، ولكنهم سريعًا ما سقطوا صرعى.

وسريعًا ما انضمت قوات من الجيش السعودي والحرس الوطني إلى القوات الباقية من ضباط الأمن. ولكن قبل أن يتمكن الأمراء الموجودون في مسرح الأحداث من إصدار أمر بشن هجوم عسكري على المسجد، كان عليهم الحصول على تصريح المؤسسة الدينية السعودية، إلا أنهم لم يكونوا واثقين بحصولهم على هذه الموافقة؛ فالقرآن يحرم أية صورة من صور العنف داخل المسجد الحرام، حتى اقتلاع نبتة من مكانها. ومن ثم، فقد كانت فكرة معركة بالأسلحة داخل الحرم المقدس تمثل

معضلة للحكومة والعلماء على السواء. فالملك سيواجه تمردًا من رجاله إذا أمرهم بفتح نيرانهم داخل الحرم. ومن ناحية أخرى، إذا رفض العلماء إصدار فتوى تؤيد حق الحكومة في استعادة السيطرة على المسجد، فقد يُنظر إليهم على أنهم يقفون إلى جانب المتمردين. وهكذا، سينهار الاتفاقي التاريخي بين العائلة المالكة وعلماء الدين، ولن يستطيع أحد التنبؤ بالنتائج.

كان رئيس هيئة العلماء آنذاك هو عبد العزيز بن باز، وهو شيخ كفيف في السبعين من عمره وعالم دين بارز، ولكنه كان يرتاب في العلم ومعاديًا للعصرية. وكان يعتقد أن الشمس تدور حول الأرض وأن هبوط الإنسان على سطح القمر لم يحدث قط على أرض الواقع. وجد ابن باز نفسه في موقف محير وخطير؛ فقد كان العتيبي تلميذه في المدينة. وبغض النظر عن الاتفاق الذي عقد في الاجتماع بين هيئة العلماء والملك خالد، فقد خرجت الحكومة بفتوى تخولها استخدام القوة الفتاكة. وفور الحصول على ذلك الفرمان، أصدر الأمير سلطان أمرًا بإعداد سد من نيران المدفعية تتبعه هجمات مباشرة على ثلاث من البوابات الرئيسية، ولكنهم لم يتمكنوا حتى من إحداث صدع في دفاعات المتمردين.

كان هناك نحو أربعمائة أو خمسمائة متمرد داخل المسجد منهم بعض النساء والأطفال، ولم يكونوا سعوديين فقط ولكن يمنيين وكويتيين ومصريين أيضًا، بل وحتى بعض الأمريكيين الأفارقة المسلمين. وكان هؤلاء المتمردون في الأسابيع السابقة للحج مباشرة قد سرقوا أسلحة آلية من مستودع أسلحة الحرس الوطني، وقاموا بتهريبها إلى الحرم في التوابيت التي ينقل فيها الموتى لتغسيلهم. وقام المتمردون بإخفاء الأسلحة والمؤن داخل المئات من الحجيرات تحت الأرض أسفل الفناء التي يستخدمها المعتكفون بالحرم. وقد قاموا بتحصين أنفسهم جيدًا، واتخذوا مراكز قيادة في الأدوار العليا من المسجد، وكان القناصة يُرْدون كل من يظهر من القوات السعودية قتيلًا.

وفي مركز القيادة الميداني خارج المسجد، اجتمع عدد من كبار الأمراء وقادة الأجهزة المتنافسة الذين تسببت أوامرهم الطائشة، مصحوبة بالكثير من النصائح المتناقضة من الملحق العسكري لكل من الولايات المتحدة وباكستان، في موجة من الارتباك وكوارث بشرية لم يكن لها أي داع. وفي منتصف ذلك اليوم، وجه الأمير سلطان هجومًا انتحاريًّا بطائرة هليكوبتر أنزل فيه جنود باستخدام الحبال في الفناء

twitter @baghdad_library

الشاسع في وسط المسجد، ولكن الثوار قضوا عليهم أيضًا. وعندئذ، نقل الملك دفة القيادة إلى يدي الأمير الشاب تركي.

ابتكر تركي خطة استراتيجية من شأنها أن تقلل عدد الخسائر والأضرار التي قد تلحق بالحرم المقدس. وكانت خطته تعتمد اعتمادًا أساسيًّا على المعلومات، لذا فقد اتصل بشركة بن لادن حيث كان لدى أولاد بن لادن خرائط ونماذج كهربائية للمسجد، بالإضافة إلى جميع المعلومات الفنية الأخرى المتعلقة بالمسجد التي ستكون غاية في الأهمية للهجوم الذي كان تركي يخطط له.

وصل سالم بن لادن، أكبر أولاد محمد بن لادن وعميد العائلة، جالسًا على غطاء محرك سيارته وهو يلوح ببندقية آلية. وكان سالم شخصًا رائعًا، يتناقض في الكثير من الجوانب مع والده الزاهد الانطوائي قليل الكلام. وكان مشهورًا في جميع أنحاء المملكة بشجاعته وخفة ظله، وهو ما حبب الملك فيه كثيرًا رغم مزاحه معه في بعض الأحيان. وكان سالم طيارًا شديد التهور، فكان يحوم فوق المعسكر الصيفي للملك في الصحراء بسرعة شديدة ويقوم بحركات بهلوانية في السماء حتى إن الملك منعه من الطيران[1] في نهاية الأمر. وطبقًا لقصة تتناقلها عائلة بن لادن، أجرى سالم عملية البواسير فطلب تصويرها وأرسل شريط الفيديو إلى الملك. وكان تصوير هذه العمليات عملًا غير معتاد في هذه الثقافة المتحفظة.

كان العتيبي وأتباعه يتحكمون في أجهزة الصوت في المسجد ويستغلون هذه الفرصة لبث رسالتهم إلى العالم. وعلى الرغم من جهود الحكومة لتهميش المتمردين ووصفهم بأنهم متعصبون غاضبون بسبب انتشار ألعاب الفيديو وكرة القدم؛ فقد تردد صدى مطالب العتيبي المتبجحة في شوارع مكة مثيرًا صدمة عنيفة في المقاهي ومشارب النرجيلة «الشيشة» في المملكة.

أصر العتيبي في مطالبه على تطبيق المبادئ الإسلامية غير الغربية وقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدول الغربية، ومن ثم التراجع عن التغيرات التي فتحت المجتمع على الحياة العصرية. لقد أراد هؤلاء الرجال عزل المملكة تمامًا عن العالم. وطالب أيضًا بخلع العائلة المالكة عن العرش، وحساب الأموال التي أخذتها من الشعب السعودي. ولم تطل مطالبه الملك فقط ولكن العلماء أيضًا الذين كانوا يؤيدون حكمه

[1] على غرار والده، لقي سالم مصرعه في حادث تحطم طائرة عام ١٩٨٨م حين كان يقود طائرة خفيفة خارج سان أنطونيو في تكساس.

واعتبرهم ظلمة وآثمين. وطالب بإيقاف تصدير البترول إلى الولايات المتحدة وطرد جميع المدنيين الأجانب والخبراء العسكريين من شبه الجزيرة العربية. ولقد أنذرت تلك المطالب بما سيطالب به أسامة بن لادن بعد خمسة عشر عامًا.

وبحلول يوم الجمعة، اليوم الرابع من الحصار، استطاعت القوات السعودية استعادة السيطرة على الطوابق العليا من المسجد الحرام ومئذنتين من مآذنه. واشتعلت المعارك في الممرات المغطاة المحيطة بالكعبة وانتشرت رائحة الموت تملأ الهواء في كل مكان. وكانت النساء المتمردات يشوهن وجوه جثث المتمردين بإطلاق النار عليها حتى لا يتعرف عليها أحد. وكانت إحدى الجثث التي نجحت القوات الحكومية في استعادتها سليمة إلى حد ما هي جثة محمد عبد الله القحطاني، المهدي المزعوم، الذي انفجر فكه تمامًا، ولكن حتى موت المهدي لم يضع حدًّا للثورة.

وباستخدام خرائط الحرم التي أمده بها سالم بن لادن، أشرف تركي على سلسلة من المهام الاستطلاعية قامت بها قوات الأمن الخاصة التي كانت تتسلل إلى الداخل والخارج عبر الأبواب المائة لاستعادة جثث الجنود الذين سقطوا صرعى. ولكن تركي أراد أن يرى بنفسه ما يحدث بالداخل فاستبدل زيه الملكي بالزي العسكري الذي يرتديه الجنود، ثم دخل ومعه عدد قليل من الرجال منهم شقيقه الأمير سعود وسالم بن لادن إلى المسجد الحرام.

كانت ممرات المسجد الطويلة والساحة الضخمة به خالية بصورة غريبة، فاكتشف تركي ومن معه أن القسم الرئيسي من المتمردين قد لجئوا إلى حجيرات الاعتكاف الموجودة تحت الأرض والمنحوتة في الصخور البركانية التي توجد أسفل الفناء الشاسع. وتتميز الحجيرات الموجودة تحت الأرض التي احتلها المتآمرون بأنها يمكن تحصينها والدفاع عنها بسهولة. ولم تكن لدى الحكومة أية فكرة عن الوقت الذي يمكن أن يصمده المتمردون معتمدين على التمر والماء اللذين أخفوهما في المخازن، أو ما إذا كانت هناك أدنى فرصة لشن هجوم على تلك المتاهة التي تقدم عددًا لا نهائيًّا من فرص إعداد الكمائن، وقد يموت الآلاف من الجنود وعدد لا يعلمه إلا الله من الرهائن. ولمدة نصف الساعة، أخذ ابنا الملك فيصل والابن الأكبر لمحمد بن لادن يجولون بحذر، يحاولون وضع رسم تخطيطي لما يرونه من مواقع المتمردين وخطوط الدفاع التي من المحتمل أن يستخدموها. لقد كان مصير المملكة بالكامل في أيديهم في ذلك الوقت؛ لأنهم إذا فشلوا في تأمين الحرم المقدس، فسيفقدون ثقة

twitter @baghdad_library

الشعب السعودي، فلا شيء في العالم بأسره أكثر قدسية لهم وللمسلمين في كل مكان من هذا المسجد الذي تحول إلى ميدان معركة غريب. وقد تركت التفجيرات التي وقعت في البداية آثارًا مروعة على الحرم. ولاحظ تركي أنه حتى الحمام، الذي كان يحوم حول المسجد الحرام في اتجاه عكس عقارب الساعة منذ قديم الأزل، قد هرب من الساحة؛ فبدا له أن ذلك الصراع الدموي بين البشر قد قاطع تعبد الطبيعة.

من الأفكار التي جالت بأذهان المسئولين إغراق الغرف الموجودة تحت الأرض ثم صعق جميع من فيها بتيار كهربي قوي. ولكن مثل هذا الأسلوب لم يكن ليميز بين الآسر والأسير، وقد أبدى تركي ملاحظة أخرى قائلًا: «إننا سنحتاج إلى مياه البحر الأحمر بالكامل لإغراق الغرف.» وفكروا أيضًا في وضع عبوات متفجرة في سروج على ظهور الكلاب وتفجيرها باستخدام أجهزة التحكم عن بعد.

ومع غياب أي بدائل أخرى غير تلك البدائل اليائسة، كان من الممكن أن يلجأ تركي إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية التي كانت تقوم بتدريب القوات الخاصة بالجيش السعودي في مدينة الطائف القريبة، ولكنه كان يعرف أن الفرنسيين أقل تعقيدًا من الأمريكيين عندما يتطلب الموقف التحرك السريع. فقام باستشارة الجاسوس الأسطورة كونت كلود أليكسندر دى مارينش Count Claude Alexandre de Marenches الذي كان حينها رئيسًا للمخابرات الفرنسية. وقد نصح دى مارينش، الذي كان قائدًا ضخم الجثة له حضور قيادي قوي، بإحضار الغاز، فوافق تركي ولكن أصر على ألا يكون قاتلًا. وكانت فكرته تتمثل في إفقاد المتمردين وعيهم، ثم وصل إلى مكة فريق يتكون من ثلاثة من المقاتلين الانتحاريين في القوات الخاصة الفرنسية GIGN. ونظرًا لأنه من المحرم دخول غير المسلمين إلى المدينة المقدسة، فقد اعتنق هؤلاء المقاتلون الإسلام في مراسم قصيرة. قام المقاتلون بعد ذلك بضخ الغاز في الغرف الموجودة تحت الأرض، إلا أنه فشل في إحداث الأثر المطلوب واستمرت المقاومة، وربما يرجع ذلك إلى أن الغرف كانت متصلة ببعضها بصورة محيرة.

ومع ارتفاع عدد الخسائر، قامت القوات السعودية بفتح ثقوب في الفناء وإسقاط قنابل يدوية إلى الغرف بالأسفل مما تسبب في مقتل الكثير من الرهائن دون تمييز، ولكنه نجح في دفع المتمردين إلى الخروج إلى مناطق مكشوفة بصورة أكبر حيث تمكن القناصة البارعون من اصطيادهم. وأخيرًا، وبعد أكثر من أسبوعين من بدء الهجوم، استسلم المتمردون الذين بقوا على قيد الحياة.

وكان العتيبي من بين الذين استسلموا في النهاية، فخرج وهو يبدو مثل الإنسان البدائي بشعره الأشعث ولحيته الكثة غير المهذبة التي كانت بارزة بتحدٍّ في وجه كاميرات التليفزيون، التي كانت تسجل خروج المتمردين من الغرف تحت الأرض وهم يسيرون باضطراب. ولكن سريعًا ما اختفى ذلك التحدي الذي كان يملأ عينيه بمجرد انتهاء المأساة. وعندما ذهب تركي ليراه في المستشفى حيث كان يُعالَج من جروحه، قفز العتيبي من سريره وأمسك يد الأمير وقبلها وهو يقول: «أرجوك أطلب من الملك خالد أن يسامحني! وأنا أعدك ألا أكرر ما فعلت مرة أخرى.» صعق الموقف الأمير تركي حتى إن الكلمات احتبست في حلقه فلم يجب في البداية، ثم قال بعد ذلك بدهشة: «يسامحك؟! اطلب من الله أن يسامحك.»

وزّعت الحكومة العتيبي واثنين وستين شخصًا من أتباعه على ثماني مدن مختلفة حيث أُعدموا في التاسع من يناير/كانون الثاني عام ١٩٨٠م، وكانت تلك العملية أكبر عملية إعدام في تاريخ المملكة العربية السعودية.

اعترفت الحكومة السعودية أن ١٢٧ من رجالها قد قتلوا في هذه الثورة، وأصيب ٤٦١ آخرون، وقتل نحو ١٢ حاجًّا و١١٧ متمردًا. ولكن الأرقام غير الرسمية تقدر عدد القتلى بأكثر من ٤٠٠٠ شخص. وعلى أية حال، فقد أصابت هذه الحادثة المملكة العربية السعودية بجرح غائر؛ فقد تدنس أطهر مكان على وجه البسيطة وبأيدي المسلمين، وتعرضت سلطة العائلة المالكة للتحدي على الملأ. وبعد ذلك الحادث، لم يعد من الممكن أن يظل كل شيء على حاله، لقد وصلت المملكة العربية السعودية إلى مرحلة يجب أن تتغير فيها، ولكن في أي اتجاه؟

في الأيام الأولى من الحصار، ألقي القبض على أسامة بن لادن وأخيه محروس عندما كانا يقودان سيارتهما عائدين إلى منزلهما من البارود، مزرعة العائلة البعيدة عن الطريق الرئيسي الذي يربط بين جدة ومكة. فقد لاحظت السلطات الغبار الذي تثيره سيارتهما قادمًا من الصحراء؛ فاعتقدت أنهما متمردان هاربان. وعندما قُبض عليهما اعترفا أنهما لم يعلما أساسًا أن هناك حصارًا على الحرم، وظلا في أيدي السلطات ليوم أو اثنين، ولكن مكانتهما الاجتماعية المتميزة حمتهما. ظل أسامة منعزلًا في بيته أسبوعًا، وكان يعارض العتيبي والسلفيين المتطرفين المحيطين به، ولكنه بعد خمس سنوات، أخبر بعض زملائه من المجاهدين في بيشاور أن العتيبي وأتباعه كانوا مسلمين صادقين وأبرياء من أية جريمة نسبت إليهم.

twitter @baghdad_library

في الشهر الذي فصل بين استسلام المتمردين وإعدامهم، تلقى العالم الإسلامي صدمة جديدة. ففي عشية عيد الميلاد لعام ١٩٧٩م، اجتاحت القوات السوفييتية أفغانستان. وقد زعم بن لادن فيما بعد: «شعرت بغضب شديد وذهبت إلى هناك على الفور، ووصلت في غضون أيام قبل نهاية عام ١٩٧٩م.» في حين أنه وفقًا لما قاله جمال خليفة، لم يكن بن لادن قد سمع بدولة أفغانستان حتى ذلك الوقت، ولم يذهب إلى هناك حتى عام ١٩٨٤م حين بدأ يجذب الأنظار إليه في باكستان وأفغانستان. ولكن بن لادن برر ذلك بأن الرحلات التي كان يقوم بها إلى هناك قبل ذلك كانت «سرًا كبيرًا حتى لا تعرف عائلتي ما أفعل». ويقول: إنه أصبح رسولًا ينقل إليهم التبرعات من السعوديين الأثرياء، ويقول: «اعتدت أن أسلم النقود وأعود أدراجي مباشرة، لذا فلم أكن على دراية كافية بما يحدث هناك بالضبط.»

وأكثر الشخصيات المؤثرة التي تقف وراء اهتمام أسامة بن لان بالقضية الأفغانية واشتراكه فيها هو عالم فلسطيني صوفي ذو شخصية جذابة اسمه عبد الله عزام. ولد الشيخ عبد الله عزام في جنين عام ١٩٤١م، وهرب إلى الأردن بعد أن استولت إسرائيل على الضفة الغربية في عام ١٩٦٧م. وقد التحق بجامعة الأزهر في القاهرة حيث حصل على دكتوراه في الفقه الإسلامي عام ١٩٧٣م، أي بعد عامين من زميله الشيخ الضرير عمر عبد الرحمن. ثم انضم بعد ذلك إلى هيئة التدريس بجامعة الأردن ولكن نشاطه في القضية الفلسطينية تسبب في فصله من الجامعة عام ١٩٨٠م. وبعد ذلك حصل على وظيفة إمام مسجد جامعة الملك عبد العزيز في جدة.

وفي نظر الثائرين من شباب المسلمين مثل أسامة بن لادن، كان الشيخ عبد الله عزام[٢] يُجسِّد نمطًا حديثًا لشخصية الشيخ المقاتل، وهي شخصية عميقة للغاية في التراث الإسلامي مثل شخصية المحارب الساموراي في اليابان، في صورتها الحديثة. فقد كان عزام يجمع بين التقوى والمعرفة من ناحية، والصلابة الهادئة الدموية من ناحية أخرى. وكان شعاره «الجهاد والبندقية وحدهما، لا مفاوضات، ولا مؤتمرات، ولا حوارات». وكان يرتدي حول رقبته الكوفية الفلسطينية المميزة بلونيها الأبيض والأسود، وهو ما يذكر كل من يقابله بأنه مقاتل من أجل الحرية. وعندما وصل إلى جدة، كان قد اشتهر بالفعل بشجاعته وبراعته في فن الخطابة. وقد كان الشيخ

[٢] الشيخ عبد الله عزام لا ينتمي إلى عائلة عزام في القاهرة التي تنتمي إليها والدة أيمن الظواهري.

عبد الله طويل القامة قوي الشخصية ذا لحية سوداء مثيرة للإعجاب يميزها خطان من الشعر الأبيض، وله عينان سوداوان تشعان إيمانًا راسخًا بمعتقداته وآرائه التي كان ينجح في أن يقنع بها مستمعيه عن رؤيته للإسلام الذي من الممكن أن يحكم العالم بحد السيف.

ومع أن عدد أتباعه كان يزداد يومًا بعد يوم، فقد كان عزام لا يشعر بالارتياح في جدة ويتلهف للمشاركة في المقاومة الأفغانية الوليدة. وتقول زوجته أم محمد: «كان الجهاد له كالماء للسمك.» وسريعًا ما تمكن من الحصول على عمل في الجامعة الإسلامية الدولية في إسلام أباد في باكستان لتدريس القرآن واللغة العربية وانتقل إلى هناك بأسرع ما أمكنه في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٨١م.

وسريعًا ما أصبح الشيخ عزام يقضي كل عطلة أسبوعية في مدينة بيشاور التي أصبحت مقر المقاومة الأفغانية ضد الاحتلال السوفييتي. وقد زار معسكرات اللاجئين ورأى معاناتهم الشديدة، وقابل زعماء المجاهدين الذين اتخذوا من بيشاور قاعدة لهم. وقد قال عزام فيما بعد في شرائط الفيديو والأحاديث التي لا تحصى التي انتشرت في جميع أنحاء العالم: «وصلت إلى أفغانستان ولم أصدق ما تراه عيناي، وشعرت أنني قد ولدت من جديد.» وفي الصورة التي رسمها عن الحرب، كانت هذه الحرب بدائية خارقة للطبيعة، ومحاطة بإطار من المعجزات، وكان الأفغان في هذه الصورة يمثلون الإنسانية على فطرتها — شعب مستقيم وتقي ينتمي إلى عصر ما قبل الصناعة — يحاربون قوى العصرية الآلية الوحشية التي تفتقد إلى الروح. وفي هذه الحرب، كانت الملائكة تساعد المؤمنين. فتحدث عزام عن الطائرات الهليكوبتر الروسية التي يسقطها المجاهدون باستخدام الحبال، وزعم أن أسراب الطيور كانت تعمل كجهاز رادار وإنذار مبكر للمجاهدين؛ فكانت تحلق إلى السماء حين تكون الطائرات السوفييتية لا تزال في الأفق البعيد. وكثيرًا ما كان يتحدث في قصصه عن اكتشاف المجاهدين لثقوب في ملابسهم من جراء اختراق الرصاص لها دون أن يُجرح أي منهم، وكانت جثث الشهداء لا تتعفن بل تظل طاهرة وزكية الرائحة.

لقد كان الجهاد الإسلامي، كما قال سيد قطب من قبل وكما يؤمن عزام، يحارب «الجاهلية» التي لا تزال تفسد المؤمنين وتدمرهم بإغراءات المادية والعلمانية والمساواة بين الجنسين. أما في تلك الأرض البدائية، التي يقف الفقر والأمية وسلطة قوانين القبائل في وجه تقدمها، فقد اجتمعت في الجهاد الأفغاني المليء بالبطولات الذي يبدو أنه محكوم عليه بالفشل ضد العملاق الروسي؛ عناصر بداية حقبة جديدة في التاريخ.

twitter @baghdad_library

وبوجود شخص بارع مثل الشيخ عبد الله عزام، انتشرت أسطورة المجاهدين الأفغان في جميع أنحاء العالم.

كان عزام يعود إلى جدة باستمرار ويقيم في أثناء رحلاته إلى المملكة في الشقة التي خصصها بن لادن للضيوف. وكان يعقد جلسات تجنيد للمجاهدين في شقة بن لادن، حيث كان ينجح في جذب الشباب السعودي بالصور التي يرسمها عن معاناة اللاجئين وشجاعة المجاهدين الأفغان. وكان يقول لهم: «يجب أن تفعلوا هذا! إنه واجبكم! يجب أن تتركوا كل شيء وتذهبوا إلى هناك!»

وكان بن لادن يحترم عزام الذي يمثل نموذجًا للرجل الذي سيصبح هو عليه فيما بعد. ومن ناحيته، كان عزام مفتونًا بشخصية مضيفه الشاب الذي له صلات بشخصيات من ذوي النفوذ، ومفتونًا بعاداته الزاهدة. وكان يتعجب قائلًا: «إنه يعيش في منزله حياة الفقراء، لم أر قط في منزله منضدة أو مقعدًا. لقد كان منزل أي عامل أردني أو مصري أفضل من منزل أسامة. وفي الوقت نفسه، إذا طلبت منه مليون ريال للمجاهدين، تراه يوقع لك شيكًا بالمبلغ في الحال.» ومع ذلك كان عزام ينزعج قليلًا عندما لا يشغِّل بن لادن مكيف الهواء في منزله في جو السعودية الحارق، ويسأله بضيق: «إذا كان لديك في منزلك، فلماذا لا تنتفع به؟» وكان بن لادن يجيب طلب ضيفه على مضض.

وسريعًا ما أصبحت جدة محطة عبور للشباب الذين يلبون دعوة الشيخ عبد الله «للانضمام إلى قافلة» الجهاد الأفغاني. وكان وكلاء بأجر يقومون بجمع المجندين المرشحين، ويقتطعون لأنفسهم نصف المبلغ، مئات الدولارات، الذي يحصل عليه المجندون عند التوقيع للانضمام إلى الجهاد. وكان الحجاج من الشباب هدفًا متميزًا لعملية التجنيد، ولكي ينقلهم هؤلاء الوكلاء إلى الجبهة، كانوا يعدونهم بالعمل في وكالات الإغاثة، ولكن هذه الأحلام لم تتحقق قط. وكان اللاجئون من الجزائر ومصر يدخلون البلاد بطرق غير رسمية. وأصبحت مجموعة بن لادن السعودية، التي لديها مكتب في القاهرة لاستئجار العمالة الماهرة للعمل في الحرمين، تعرف بأنها مضخة للمتطرفين الذين يريدون المشاركة في الحرب الأفغانية. ومن المحتمل أن الظواهري كان على صلة بالمصريين الذين يمرون بجدة، وكان هذا كفيلًا بإدخاله إلى عالم بن لادن.

فتح بن لادن منزلًا يمثل محطة في منتصف الطريق لاستقبال المجندين، بل كان يأويهم في منزله. وفي الصيف، كان يدير معسكرات تدريب عسكري خاصة

للطلاب في المدارس الثانوية والجامعات. ومع صغر سنه، فقد اشتهر بن لادن سريعًا بأنه ماهر في جمع الأموال والتبرعات. وكان عدد من الأثرياء، ومنهم أفراد من العائلة المالكة، يشاركون بحماسة. وقد شجعت الحكومة السعودية هذه المجهودات عن طريق خفض ثمن تذاكر الطيران بنسبة كبيرة على رحلات الخطوط الوطنية السعودية إلى باكستان التي تعد نقطة إسقاط المتطوعين في الجهاد. وقد تبرع ولي العهد الأمير عبد الله بنفسه بالعشرات من الشاحنات لهذه القضية. لقد كان جهدًا وطنيًا مثيرًا للمشاعر، مع أنه خلق عادات وجمعيات خيرية ستصبح فيما بعد مدمرة. وكان المتطوعون الذين تجمعوا للجهاد الأفغاني يشعرون أن الإسلام نفسه مهدد بالخطر بقدوم الشيوعية، فلم تكن أفغانستان نفسها تعني الكثير لمعظمهم، لكن إيمان المجاهدين الأفغان كان يعني لهم الكثير. فقد كانوا يبنون خطًا دفاعيًا يحول دون تقهقر دينهم الذي يمثل كلمة الله الأخيرة والأمل الوحيد في إنقاذ البشرية.

وكان جمال خليفة مقتنعًا تمامًا بآراء عزام، وفي وقت لاحق تحدث إلى صديقه أسامة وصرح له بقراره السفر إلى أفغانستان. وكدليل على استحسانه وتأييده لموقفه، عرض أسامة عليه أن يزوجه شيخة، أقرب شقيقاته إلى قلبه التي كانت مطلقة وتكبر أسامة بعدة سنوات وكان هو بنفسه يتولى رعايتها هي وأطفالها الثلاثة. ونظرًا لأن جمال لم يكن مسموحًا له أن يراها في البداية، فقد أخذ صديقه أسامة يستفيض في مدح طبيعتها الطيبة وخفة ظلها وتدينها.

ولكن خليفة اعترض قائلًا: «ما الذي تتحدث عنه، افترض أني مت هناك؟» ولكنه وافق على أن يقابلها بمجرد الترتيب لهذا. وعندما قابلها، قال إنها: «أفضل سيدة قابلتها في حياتي كلها.» ولكنه قرر تأجيل الزواج لمدة عام، تحسبًا لاستشهاده في أفغانستان.

أراد أسامة هو الآخر السفر بصورة رسمية إلى أفغانستان، ولكنه لم يستطع الحصول على تصريح من السلطات، وقد قال فيما بعد: «طلبت مني الحكومة السعودية رسميًا عدم دخول أفغانستان نظرًا لصلة عائلتي الوثيقة بالقيادة السعودية. ولقد أمروني بالبقاء في بيشاور لأنه إذا ألقت القوات الروسية القبض علي، فسيصبح هذا دليلًا على دعمنا للأفغان ضد الاتحاد السوفييتي، ولكني لم أطع هذا الأمر. لقد ظنوا أن دخولي أفغانستان دليل إدانة ضدهم، ولكني لم أستمع إليهم.»

وكان على أسامة أيضًا تحدي سلطة أخرى أكثر صعوبة بالنسبة له، فقد منعته والدته الذهاب إلى هناك. ولكنه ترجاها أن توافق وتسمح له بالسفر قائلًا: إنه

twitter @baghdad_library

سيذهب إلى هناك فقط لرعاية عائلات المجاهدين، وقال: إنه سيتصل بها هاتفيًّا كل يوم. وفي النهاية وعدها قائلًا: «لن أقترب حتى من أفغانستان.»

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس

حرب المعجزات

بعد شهر واحد من الغزو السوفييتي، زار الأمير تركي الفيصل باكستان. وكان استيلاء السوفييت على أفغانستان قد أصابه بصدمة ورأى أنه الخطوة الأولى للتقدم نحو مياه الخليج الفارسي، وستكون باكستان المحطة التالية. واعتقد أن الهدف النهائي الذي يسعى إليه الاتحاد السوفييتي هو السيطرة الكاملة على مضيق هرمز في قاعدة الخليج حيث تؤدي عمان مباشرة إلى إيران. ومن هناك، يستطيع السوفييت التحكم في الطريق الذي تسلكه الناقلات العملاقة التي تنقل النفط من المملكة العربية السعودية والعراق والكويت وإيران؛ فمن يتحكم في هذا المضيق، يقبض على عنق إمداد العالم كله بالنفط.

قام زملاء تركي في المخابرات الباكستانية ISI بمنحه نبذة عن المقاومة الأفغانية ثم اصطحبوه إلى معسكرات اللاجئين خارج بيشاور. وأصيب تركي بالهلع من هول المعاناة التي رآها، وعاد إلى المملكة وهو يتعهد بتكريس المزيد من الأموال للمجاهدين، مع أنه كان يعتقد أن هؤلاء الجنود المزقين لن يستطيعوا قط هزيمة «الجيش الأحمر» و«أن أفغانستان قد ضاعت» على حد قوله، وكان كل ما يأمله هو تأخير الغزو السوفييتي المؤكد لباكستان.

ولقد دارت الأفكار نفسها في واشنطن، لا سيما في ذهن زبيجنيف بزيزنسكي Zbigniew Brzezinski، مستشار الأمن القومي الأمريكي في حكومة الرئيس كارتر، ولكنه رأى أن ذلك الغزو فرصة لمصلحتهم. وكتب إلى الرئيس كارتر على الفور يقول: «يمكننا الآن أن نجعل الاتحاد السوفييتي يواجه حرب فيتنام هو الآخر.» وعندما بحث الأمريكيون عن حليف لمشاركتهم هذه الخطة، كان طبيعيًّا أن يتجهوا إلى السعوديين، أو بالأدق إلى تركي — الأمير الذي تلقى تعليمه في أمريكا والذي كان يتولى تمويل المجاهدين الأفغان.

أصبح تركي الرجل الرئيسي في التحالف السري بين الولايات المتحدة والسعوديين لتهريب الأموال والأسلحة إلى المقاومة عن طريق المخابرات الباكستانية. وكان من الضروري الحفاظ على سرية هذا البرنامج كي لا يمنحوا السوفييت المبرر الذي ينشدون لغزو باكستان أيضًا. وحتى نهاية الحرب، ظل السعوديون يدفعون مقابل كل دولار تقدمه الولايات المتحدة دولارًا مثله، بدءًا بمبالغ مثل خمسة وسبعين ألف دولار فقط وحتى وصل الرقم إلى المليارات.

المشكلة التالية التي واجهها تركي هي أن المجاهدين لم يكونوا سوى حشود غير منظمة بالمرة من المقاتلين. وقد وصل عدد الميليشيات الأفغانية المسلحة في منتصف الثمانينيات إلى مائة وسبعين ميليشيا. وللتعامل مع تلك الفوضى، قامت المخابرات الباكستانية بتأسيس ستة أحزاب رئيسية من المهاجرين لكي تتولى استلام المساعدات. وكان على اللاجئين الأفغان، الذين وصل عددهم إلى ٣,٢٧ مليون في عام ١٩٨٨م، أن يسجلوا أنفسهم في أحد تلك الأحزاب الستة الرسمية للحصول على الطعام والمؤن. وكان مسجلًا في أكبر حزبين من هذه الأحزاب برئاسة قلب الدين حكمتيار وبرهان الدين رباني، نحو ٨٠٠ ألف شخص في بيشاور تحت سلطة كل منهما. ولكن تركي فرض إنشاء حزب سابع ليمثل الأهداف والمصالح السعودية بصورة أفضل، وأطلق عليه الاتحاد الإسلامي، وكان ذلك الاتحاد يُموَّل من قِبل بن لادن وآخرين ويرأسه عبد الرسول سياف. وكان سياف، وهو جنرال حرب أفغاني مهيب وجريء، يبلغ من الطول ستة أقدام وثلاث بوصات ويرتدي دثارًا ملونًا، وكان يتحدث اللغة العربية الفصحى بطلاقة، بفضل سنوات دراسته في جامعة الأزهر في القاهرة. وكانت معتقداته الوهابية الراسخة تتعارض مع التيار الصوفي الذي كان مهيمنًا على أفغانستان قبل الحرب، ولكنها كانت تتفق بشدة مع مصالح الحكومة السعودية ومؤسستها الدينية. أصبح هؤلاء القادة المجاهدون السبعة يعرفون، في المخابرات الأمريكية وأجهزة المخابرات الأخرى التي كانت تمثل المصدر الرئيسي لدعمهم، بالأقزام السبعة.

توقع تركي مواجهة المتاعب فيما بعد مع هؤلاء الأقزام السبعة المتنازعين والطماعين، وكثيرًا ما ألح على هذه الجماعات المتنافسة أن تتحد تحت قيادة زعيم واحد. وفي عام ١٩٨٠م، استدعى تركي قادة المجاهدين إلى مكة، ورافقهم أحمد باديب، مساعد تركي. وقد رأى باديب أن أفضل وسيلة لإخماد النزاعات بين قادة المقاومة هي احتجازهم في سجن في الطائف حتى اتفقوا على اختيار سياف، رجل

twitter @baghdad_library

الأمير تركي، ليكون قائدهم. ولكن ما إن غادروا المملكة، انهار الاتفاق الذي توصلوا إليه في السجن، و«عادوا إلى ما كانوا عليه» على حد قول الأمير تركي.

«الخوف من المشاركة بنفسه في الحرب» هو ما أبقى بن لادن بعيدًا عن أرض المعركة في السنوات الأولى من الحرب، الأمر الذي وصمه بالخزي بعد ذلك. وكان قد قصر رحلاته إلى باكستان على مدينتي لاهور وإسلام أباد فقط، حتى إنه لم يغامر بالذهاب إلى مدينة بيشاور، ثم يعود سريعًا إلى جدة. ولكن هذه الرحلات القصيرة المتكررة أفقدته عمله. فقد خسر بن لادن من عدم مشاركته مع مجموعة بن لادن السعودية في ترميم وتجديد المسجد النبوي في المدينة حصته من الربح التي قدرها عبد الله عزام بثمانية ملايين ريال، أي ما يقارب ٢,٥ مليون دولار.

وفي عام ١٩٨٤م، أقنعه عزام بعبور الحدود إلى إقليم جاجي حيث كان لدى سياف معسكر في أعالي الجبال فوق نقطة حدودية سوفييتية مهمة. وقد قال بن لادن بعد ذلك: «فوجئت بالحالة المزرية للمعدات والأشياء الأخرى: الأسلحة، والطرق، والخنادق. وطلبت من الله العظيم أن يغفر لي، إذ شعرت أنني ارتكبت إثمًا حين استمعت إلى من نصحوني بالبقاء. وشعرت أن هذا التأخير الذي دام أربع سنوات لن يغفر لي إلا بالشهادة.»

وفي الساعة السابعة من صباح يوم السادس والعشرين من يونيو/حزيران عام ١٩٨٤م في شهر رمضان، كان معظم المجاهدين في معسكر جاجي لا يزالون نائمين لأنهم يتناولون وجبة السحور ويصلون ليلًا بعد صوم النهار. ولكن أعادهم أزيز طائرة سوفييتية بقسوة إلى أرض الواقع، فأسرعوا إلى الاختباء في الخنادق الضيقة، وقد أشار بن لادن الذي صُدم من المستوى المنخفض الذي تحلق عليه الطائرات المهاجمة: «لقد كانت الجبال تهتز من هول القصف، وكانت الصواريخ التي تسقط خارج المعسكر تصدر ضوضاء مفزعة طغت على صوت المدافع التي كان يطلقها المجاهدون كما لو أنها غير موجودة من الأساس، مع العلم أنك إذا سمعت هذه الأصوات وحدها، فقد تقول إنه لا يوجد صوت أشد من صوتها! أما الصواريخ التي سقطت داخل المعسكر، فإنها لم تنفجر والحمد لله، لقد سقطت ككتل حديدية على الأرض، فشعرت حينها أنني أقرب ما أكون إلى الله.»

أفاد بن لادن أن المجاهدين أسقطوا أربع طائرات سوفييتية صباح ذلك اليوم، وقال في دهشة: «رأيت بعيني بقايا (أحد) الطيارين: ثلاثة أصابع وجزءًا من عصب وجلد إحدى الوجنتين وأذن وعنق وجلد الظهر. وجاء بعض الإخوة الأفغان ليلتقطوا صورة له كما لو كان خروفًا مذبوحًا! وكنا مبتهجين للغاية.» ولاحظ بإعجاب أيضًا أن الأفغان لم يندفعوا للاختباء في الخنادق مع العرب الذين ارتعدت فرائصهم عندما بدأ الهجوم، وقال أيضًا: «الحمد لله لم يصب أحد من إخواننا، ولقد منحتني هذه المعركة دفعة كبيرة لأستمر في هذا الطريق. وأصبحت أكثر اقتناعًا أنه لا يمكن أن يصاب أحد بأذى إلا بإرادة الله.»

عاد بن لادن على الفور إلى المملكة العربية السعودية، وقبل أن ينتهي شهر رمضان كان قد جمع ثروة للمجاهدين، فيذكر عبد الله عزام مبتهجًا: «ما بين خمسة إلى عشرة ملايين دولار، لا أذكر بالتحديد.» وأكثر من مليوني دولار منها جاء من إحدى أخواته غير الشقيقات. وحتى تلك اللحظة، كان الجميع ينظر إلى بن لادن على أنه المساعد الواعد للشيخ عبد الله، ولكنه فجأة فاق منزلة معلمه بصفته الممول الخاص الرئيسي للجهاد.

وقد رد عزام على هذا بالانضمام رسميًّا إلى تلميذه. وفي سبتمبر/أيلول من عام ١٩٨٤م، تقابل الرجلان في مكة في أثناء موسم الحج. ومع أن بن لادن كان يبدو هادئًا ويحترم رغبة شيخه، فقد كانت لديه خطط أخرى في ذهنه قد تكون ولدت في ذلك الهجوم على معسكر جاجي عندما اندفع جميع المقاتلين العرب للاختباء في الخنادق. فقد لاحظ أن الأفغان يعاملونهم على أنهم «ضيوف مبجلون» وليسوا مجاهدين حقيقيين. فطرح على عزام الاقتراح الذي كان يدور بخلده: «يجب أن نأخذ على عاتقنا مسئولية العرب لأننا نعرفهم أفضل ويمكننا توفير تدريبات أكثر قسوة لهم.» واتفق الرجلان على العمل على خلق دور أكثر فعالية للعرب في أفغانستان، مع أنه لم يكن هناك سوى القليل من العرب الذين يشتركون في الجهاد في ذلك الوقت. وقد تولى بن لادن مسئولية التغيير عن طريق توفير تذكرة سفر وإقامة ونفقات معيشة لكل عربي، وعائلته، ينضم إلى قواتهم، وقد وصلت تكلفة ذلك إلى ٣٠٠ دولار شهريًّا لكل أسرة.

عزز عزام إعلان بن لادن المذهل بإصدار فتوى أثارت حماسة الإسلاميين في كل مكان. ففي كتاب نُشر بعد ذلك تحت اسم «الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض

twitter @baghdad_library

الأعيان» يقول عزام: إن الجهاد في أفغانستان فرض على كل مسلم قادر على القتال.[1] وقد منح نسخة من هذا الكتاب قبل طرحه للشيخ عبد العزيز بن باز رئيس هيئة العلماء في المملكة العربية السعودية، الذي كتب له مقدمة وأعلن فتواه التي ساندت فتوى الشيخ عزام في مسجد عائلة بن لادن في جدة.

تفرق فتوى عزام بوضوح بين فرض العين وفرض الكفاية؛ فالأول فرض ديني واجب على كل مسلم مثل الصلاة والصوم، ولا يمكن لأحد تجاهل مثل هذه الفروض ويكون مسلمًا صالحًا. فإذا غزا الكفار أرض المسلمين، فإن طردهم فرض عين على أصحاب الأرض، ولكن إذا فشلوا يمتد الفرض إلى إخوانهم من المسلمين في البلاد المجاورة. ويقول: «أما إذا قعدوا عن القتال أيضًا، أو كان هناك نقص في عدد المقاتلين، فيمتد الفرض إلى من يليهم، ثم من يليهم، وهكذا، حتى يعم فرض العين الأرض كلها.» وفي الخروج للجهاد ضد العدو يخرج الولد دون إذن والده والمدين دون إذن دائنه والزوجة دون إذن زوجها. أما فرض الكفاية، فهو واجب المجتمع. ويضرب عزام على هذا مثلًا فيقول: إذا مر قوم يتنزهون على شاطئ البحر «ورأوا طفلًا يكاد يغرق»، ويعني بهذا الطفل أفغانستان، فإن إنقاذ الطفل الغريق فرض على كل السباحين الذين يرونه، «فإن تحرك أحدهم لإنقاذه، سقط الإثم عن الآخرين، وإن لم يتحرك أحد، فالإثم يلزم جميع السباحين.» وبهذا، يرى عزام أن الجهاد ضد السوفييت فرض على كل مسلم على حدة وعلى الأمة الإسلامية بالكامل، وأنهم جميعًا يتحملون الإثم حتى يخرج الغزاة من البلاد.

انتشرت أخبار الفتوى على الفور في جميع أنحاء العالم الإسلامي مدعومة بالموافقة على النشر التي منحها ابن باز وكبار العلماء الآخرين لكتاب عزام. ومع أن حركة الأفغان العرب ولدت بهذين الحدثين، أي: إعلان بن لادن بأنه سيعول عائلات المجاهدين، وفتوى عزام الخطيرة، يجب الاعتراف بأن جهودهما المبدئية قد ذهبت سدى؛ فلم يلبِ الدعوة سوى القليل من العرب، والكثير منهم جذبتهم نقود بن لادن بقدر ما تشجعوا بفتوى واجب الدفاع عن الإسلام بالأسلوب الذي وصفه عزام.

[1] المثير للدهشة أن ذلك الشيخ الفلسطيني الذي شارك في حروب العصابات الفلسطينية قدّم الجهاد في أفغانستان على الجهاد في فلسطين ضد إسرائيل. ويبرر ذلك بأن الحرب في أفغانستان تهدف إلى خلق دولة إسلامية أما القضية الفلسطينية فتتبناها العديد من الجماعات المختلفة، منها «الشيوعيون والقوميون والمسلمون المحدثون» الذين يحاربون من أجل إنشاء دولة علمانية.

وعندما عادا إلى باكستان، أسس بن لادن والشيخ عبد الله عزام ما أطلقا عليه «مكتب الخدمات» في منزل استأجره بن لادن في الجزء الذي يقطنه طلاب الجامعات في مدينة بيشاور. وخصص بن لادن خمسة وعشرين ألف دولار شهريًّا لإدارة المكتب، وكان المنزل أيضًا نُزلًا للمجاهدين العرب ومقر مجهودات عزام لنشر كتابه والمجلة التي كان يصدرها. وكان مكتب الخدمات في الأساس خزانة للنقود التي كانت تتدفق عليهما نتيجة جهودهما المكثفة في جمع التبرعات. وقد انضم جمال خليفة إلى أسامة بن لادن وعزام في مكتب الخدمات، وسعوا جاهدين لضمان وصول التبرعات، التي كانت غالبًا ما تصل في حقائب مكتظة بالنقود، إلى أيدي اللاجئين. وقد فتحت عضوية الشيخ عزام في جماعة الإخوان المسلمين منذ وقت بعيد أمامه محافل عالمية يطوف بها بروج لدعوته التي لا تتوقف للثورة. ولكن لم تكن جميع هذه الجهود تضاهي مجهودات بن لادن الذي أطلق عليه عزام بنفسه «رجل أرسلته السماء»، بصلته المباشرة بالعائلة المالكة السعودية وأصحاب المليارات التي يدرها النفط في الخليج.

واستفاد بن لادن أيضًا من علاقته بالأمير تركي، فكان أحمد باديب، مدير مكتب الأمير وأستاذ العلوم السابق لبن لادن، يسافر إلى بيشاور مرتين كل شهر لكي ينقل النقود إلى قادة المجاهدين. كانت الحكومة السعودية تسهم في حركة الجهاد الأفغانية بمبالغ تتراوح بين ٣٥٠ و٥٠٠ مليون دولار سنويًّا، كانت الأموال تودع في حساب في بنك سويسري تتحكم فيه حكومة الولايات المتحدة وكانت تستخدمه لمساعدة المجاهدين. ولكن كان لدى السعوديين برامج أخرى خاصة تعمل على جمع ملايين الدولارات لقادتهم المفضلين، وكان أكثر من عشر هذه المبالغ يذهب للمشاركة في تمويل أنشطة بن لادن غير الرسمية.

ويقول تركي: إنه قابل بن لادن للمرة الأولى في عام ١٩٨٥م أو ١٩٨٦م في مدينة بيشاور، ثم تقابلا بعد ذلك في حفلة أقامتها السفارة السعودية في إسلام أباد. وكان بن لادن يبلغ تركيًّا بأنشطته، مثل إحضار معدات ثقيلة ومهندسين لبناء حصون، على أكمل وجه. وقد صُدِم الأمير حين رآه خجولًا وعذب الحديث وودودًا، بل و«رقيقًا تقريبًا»، على حد تعبيره، وكثير النفع. وعن طريق بن لادن، تمكن تركي من تجنيد الشباب العرب للجهاد، وكان يقدم برامج تدريب، وبرامج لغرس الأفكار والمعتقدات داخل الشباب بعيدًا عن سيطرة المخابرات الباكستانية. بالإضافة إلى ذلك، كان بن لادن يجمع مبالغ كبيرة دون أن تسجل في الوثائق الرسمية، الأمر الذي يعد كنزًا ثمينًا يستطيع عميل مخابرات بارع الاستفادة منه.

twitter @baghdad_library

أصبح مكتب الخدمات مكتبًا لتسجيل أسماء الشباب العرب الذين وصلوا إلى بيشاور بحثًا عن طريق ينقلهم إلى أرض المعركة. وقد كان المكتب يوفر لهؤلاء الرجال، أو في الغالب طلاب المدارس الثانوية، منازل ضيوف ليقيموا بها، ويقودهم إلى معسكرات التدريب. وفي مثل هذه البيئة التي تظهر فيها الأساطير الخيالية بسهولة، أصبح بن لادن جزءًا لا يتجزأ من المعلومات التي يعرفها الجميع عن الجهاد. وقد أقسم الكثير من الأفغان العرب يمين الولاء لعزام، ولكن كان بن لادن هو من يتحمل أعباءهم المادية. وسريعًا ما جعلته ثروته الطائلة وسخاؤه الشديد شخصية مميزة، فكان يمر وحده على عنابر المستشفى، مميزًا بطوله وجسده النحيل، ويمنح الجرحى من المقاتلين حبوب الكاشو والشيكولاته، ويدون بحرص شديد أسماءهم وعناوينهم. وقام بإنشاء مكتبة دينية لتثقيف المجاهدين الذين كانوا يقضون وقت فراغهم في المدينة، وقام بتعليم أحد المقاتلين الأفغان، على الأقل، اللغة العربية. ومنح سيافًا النقود اللازمة لإنشاء جامعة «دعوى الجهاد» خارج بيشاور في المناطق القبلية، التي ستصبح مشهورة على مستوى العالم كأكاديمية لتدريب الإرهابيين. وأسهم أيضًا في إصدار مجلة الجهاد، وهي المجلة الصادرة باللغة العربية التي كان عزام ينشرها. ولم يكن أسامة بن لادن محنكًا سياسيًّا، على غرار بعض العاملين معه في المكتب، ولكنه كان لا يعرف التعب، وقد وصفه عبد الله أنس، وهو رجل جزائري كان يعمل معه في مكتب الخدمات، بأنه: «ناشط وعملي وواسع الخيال، لا يأكل كثيرًا ولا ينام كثيرًا، ولكنه كان شديد الكرم لدرجة أنه قد يعطيك ملابسه ونقوده.»

ومع ذلك، فإن بن لادن لم يترك انطباعًا بأنه قائد جذاب الشخصية، لا سيما في ظل وجود الشيخ عبد الله عزام. فيقول عنه مجاهد باكستاني صلب: «كانت على وجهه ابتسامة صغيرة وكانت يداه ناعمتين، فتشعر وأنت تصافحه أنك تصافح فتاة.» وكان خجولًا وجادًّا، وفاجأ الكثيرين بسذاجته، وكان يغطي فمه بيديه عندما يضحك. ويتذكر رجل سوري، أصبح فيما بعد صديقه الذي يأتمنه على أسراره، لقاءهما الأول، فيقول: «كان ذلك في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٨٥م، ولم يكن قد أصبح مشهورًا آنذاك، وكنا في قاعة الصلاة في أحد منازل الضيوف، فطلب منه الحاضرون أن يتحدث إليهم قليلًا فتحدث عن الخيل. وقال: إنك إذا أحببت حصانًا، فإنه سيستجيب لك. هذا هو كل ما كان في ذهنه: الخيل.»

أطلق الشيخ عبد الله على المجموعة الصغيرة من العرب الذين اجتمعوا في بيشاور «لواء الغرباء». وكان العرب منغلقين على أنفسهم؛ فقاموا بإنشاء المساجد والمدارس والصحف الخاصة بهم. وقد وصل بعضهم دون أن يكون بحوزته شيء سوى رقم هاتف في جيبه، ولكن بفضل دعم بن لادن الكريم لهم، استقر العديد منهم في ضاحية حياة أباد، وهي ضاحية بها العديد من المنازل التي تتكون من طابقين ذات تصميم موحد على حافة المناطق القبلية، ولديهم كافة وسائل المعيشة الحديثة مثل الثلاجات والغسالات والمجففات وغير ذلك. بل إن الكثيرين منهم كانوا يعيشون حياة مرفهة أكثر من حياة بن لادن نفسه.

أما الحرب، فقد كانت تدور على الجانب الآخر من ممر خيبر، وكان الشباب العرب الذين يصلون إلى بيشاور يدعون أن يكلل انتقالهم إلى الطرف الآخر من المضيق بالشهادة ومنها إلى الجنة. ولكي يقضوا وقتهم، كانوا ينسجون قصصًا أسطورية عن أنفسهم، وعن الدعوة التي جعلت شباب المسلمين يهبون لتحرير إخوانهم في أفغانستان. ولكن في الحقيقة، كان الأفغان هم من يحاربون وحدهم تقريبًا، فعلى الرغم من فتوى عزام الشهيرة والدعم المادي الذي كان بن لادن يوفره، فلم يصل عدد هؤلاء الغرباء، الذين أصبحوا يعرفون باسم الأفغان العرب، قط إلى أكثر من ثلاثة آلاف في الحرب ضد السوفييت، ومعظمهم لم يغادر بيشاور قط.

وكان معظم الأفغان العرب عناصر خارجة عن الاتجاه السائد غير مرحب بها في بلادها، ووجدوا أن الأبواب قد أغلقت خلفهم فور مغادرتهم. والبعض الآخر من الشباب المسلمين حثتهم حكوماتهم على المشاركة في الجهاد ثم وصفتهم بالمتطرفين بعد انضمامهم إليه، وسيكون من الصعب على العديد منهم بعد ذلك العودة إلى بلادهم مرة أخرى. وقد كان هؤلاء المثاليون الذين تخلت عنهم بلادهم يبحثون بطبيعة الحال عن قائد، ولم يكن لديهم الكثير ليتمسكوا به غير تمسكهم بقضيتهم وببعضهم. ونظرًا لأنهم بلا وطن أو دولة، فقد كان من الطبيعي أن يرفضوا مجرد فكرة الدولة، فكانوا يرون أنفسهم جيشًا من الرجال لا تقف أمامه حدود دولة أو غيرها، عهد الله بالدفاع عن الأمة الإسلامية، وهذا هو بالضبط ما كان بن لادن يحلم به.

وفي بيشاور، اتخذوا هويات جديدة، فالقليل فقط من الجالية العربية استخدموا أسماءهم الحقيقية، وكان من غير اللائق أن يُسأل شخص عن اسمه الحقيقي. وفي هذا المجتمع السري الذي يتستر بأسماء مستعارة، كان الأطفال غالبًا لا يعرفون

twitter @baghdad_library

هوية آبائهم الحقيقية. وكانت الأسماء المستعارة عادة كنى على اسم أول مولود ذكر للمجاهد أو صفة معينة تناسب شخصيته. أما الأسماء الجهادية الشهيرة، مثل أبي محمد، فقد كانت تتبعها جنسيته، مثل: الليبي. وتعد هذه شفرة سهلة ولكن من الصعب فك رموزها؛ إذ كان من الضروري معرفة شهرة المجاهد أو عائلته للتوصل إلى صاحبه.

لقد كان الموت، وليس النصر في أفغانستان، هو ما دفع العديد من الشباب العرب للسفر إلى بيشاور؛ وكانت الشهادة هي المنتج الذي يروج له عزام في كتبه وكتيبات الدعوة وشرائط الفيديو والكاسيت التي تروج في المساجد وفي مكتبات بيع الكتب العربية. ويقول عزام وهو يتذكر محاضراته التي كان يلقيها في المساجد والمراكز الإسلامية في جميع أنحاء العالم: «سافرت لكي أطلع الناس على دعوة الجهاد، لقد كنا نحاول أن نروي ظمأ الناس للشهادة، وما زلنا نعمل على هذه القضية بكل قلوبنا.» وكان عزام يزور الولايات المتحدة كل عام، فيذهب إلى كنساس وسانت لويس ودالاس وكبرى المدن وأهمها؛ بحثًا عن تمويل لحركة الجهاد ومتطوعين بين شباب المسلمين الذين كان يسحرهم بالأساطير التي ينسجها ويقنعهم بها.

كان عزام يخبرهم قصصًا عن المجاهدين الذين يهزمون أعدادًا هائلة من القوات السوفييتية وحدهم. وادعى أن بعض المقاتلين البواسل قد دهستهم الدبابات ولكنهم ظلوا على قيد الحياة، والبعض الآخر كان يتعرض لإطلاق الرصاص ولكن تفشل الرصاصات في اختراق جسده. أما إذا لفظ أحدهم أنفاسه الأخيرة، فيكون موته معجزة أكبر؛ فعندما تفارق الروح الطاهرة جسد أحد المجاهدين تجد سيارة الإسعاف التي تقله قد امتلأت بأصوات الطيور الطنانة والمغردة، مع أنهم في الصحراء الأفغانية في منتصف الليل. وكانت جثث الشهداء التي نبشت عنها القبور بعد مرور عام على دفنها لا تزال زكية الرائحة ودماؤها لا تزال تتدفق. لقد اتفقت السماء والطبيعة على طرد الغزاة الكفار من البلاد. وكانت الملائكة تحارب مع المجاهدين جنبًا إلى جنب في أرض المعركة، وتجد أن القنابل التي يسقطها السوفييت على المجاهدين تعترضها الطيور التي تطير بأقصى سرعة لتسبق الطائرات وتشكل مظلة واقية فوق رءوس المجاهدين لحمايتهم. وبطبيعة الحال، كان نشر وترويج قصص المعجزات هذه هو المقابل الذي يدفعه الشيخ عبد الله للمجاهدين الذين كانوا ينقلون له تلك القصص الرائعة.

ولقد كان الإغراء الذي يمثله الموت العظيم من أجل قضية هادفة قويًا، خاصة عندما تتحطم متع الحياة ومباهجها بسبب قهر الحكومات والحرمان الاقتصادي. فلقد كانت الحكومات العربية من العراق إلى المغرب تقيد الحريات، وفشلت فشلًا جليًا في تكوين الثروات في بلادها، في الوقت الذي كانت فيه الديمقراطية تنتشر في جميع أنحاء العالم ويرتفع مستوى دخل الفرد ارتفاعًا ملحوظًا. أما المملكة العربية السعودية، أغنى هذه الدول جميعًا، فقد اشتهرت بأنها بلد غير منتج، لدرجة أن الوفرة غير العادية للنفط قد فشلت في توليد أي مصدر آخر مهم للدخل. وبالفعل لو أننا طرحنا عائدات النفط لدول الخليج، سنجد أن ٢٦٠ مليون عربي يصدرون أقل مما يصدره خمسة ملايين شخص فنلندي. وهذه الفجوة بين التوقعات المتزايدة والفرص المضمحلة تمثل تربة خصبة لنمو التطرف. ويصبح ذلك المناخ ملائمًا بصفة خاصة عندما يكون السكان من الشباب العاطل الذي يشعر بالملل، وعندما يكون الفن فقيرًا وتكون وسائل الترفيه كدور العرض والمسارح والموسيقى خاضعة للرقابة الشديدة أو غير موجودة من الأساس، وعندما يكون الشباب معزولًا تمامًا عن الاختلاط بالنساء اللواتي يشكل حضورهن مصدر مواساة ويجعلهم ينخرطون في المجتمع. وظلت أمية الكبار القاعدة في كثير من الدول العربية، وكانت البطالة تصل إلى أعلى معدلاتها في الدول النامية. ولقد دفع الغضب والاستياء والذل شباب العرب للبحث عن علاج جذري لهذه المآسي.

ولقد منحت فكرة الاستشهاد هؤلاء الشباب بديلًا مثاليًا لحياتهم البائسة التي لا تمنحهم سوى أقل القليل. وذلك الموت العظيم يضمن للعصاة، كما يقال، المغفرة مع أول قطرة دم تراق، ويرى الشهيد مكانه في الجنة حتى قبل أن يموت، وقد يعتق سبعون من أهل بيته من نار جهنم بفضل تضحيته. وذلك الشهيد الذي عاش حياته فقيرًا، سوف يتوج في الجنة بجوهرة أغلى من الأرض نفسها. ولهؤلاء الشباب الذين عاشوا في ثقافات تبني بينهم وبين النساء حواجز منيعة تجعلهن مجرد حلم لا يمكن تحقيقه لهؤلاء الذين لا يمتلكون الإمكانيات، تمنح الشهادة كلًّا منهم اثنتين وسبعين حورية عذراء لتكون زوجة له، وهن كما يصفهن القرآن: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۞ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾[٢] واللائي يكن بانتظار الشهداء بطعام شهي وفواكه وأكواب من أنقى الخمور.

[٢] سورة الواقعة الآيتان (٢٢) و(٢٣).

twitter @baghdad_library

إن الصورة الرائعة للشهادة التي رسمها عزام أمام مستمعيه في جميع أنحاء العالم هي التي كوَّنت عقيدة الموت التي ستمثل يومًا جوهر تنظيم القاعدة. وفي نظر الصحفيين الذين كانوا يغطون أحداث الحرب، كان الأفغان العرب يمثلون عرضًا جانبيًّا مثيرًا للفضول بعيدًا عن الأحداث الحقيقية للحرب بسبب هاجس الموت الذي سيطر عليهم تمامًا. فحين كان يسقط أحد من المقاتلين، كان زملاؤه يهنئونه ويبكون لأنهم لم يقتلوا في المعركة مثله. ولقد أصابت هذه المشاهد المسلمين الآخرين بصدمة من فرط غرابتها؛ فالأفغان كانوا يقاتلون من أجل بلدهم، وليس من أجل الجنة أو المجتمع الإسلامي المثالي، وفي نظرهم، لم تكن الشهادة تحتل مثل هذه الأولوية.

وقد لاحظ رحيم الله يوسفزاي، رئيس مكتب صحيفة نيوز اليومية الباكستانية في بيشاور، أن هناك معسكرًا للأفغان العرب معرضًا للهجوم في جلال أباد. فقد نصب العرب خيامًا بيضاء على الخطوط الأمامية، حيث أصبحوا أهدافًا سهلة لقاذفات القنابل السوفييتية، فسألهم المراسل وهو لا يصدق نفسه: «لماذا؟» فأجابوه قائلين: «إننا نريدهم أن يقصفونا بالقنابل! نريد أن نموت!» وظنوا بهذا أنهم يلبون نداء الله، ولو أن الله يحبهم حقًّا، فسينعم عليهم بالموت شهداء. وقد استشهد بن لادن فيما بعد بحديث الرسول: «وددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل.»

والقرآن مليء بالإشارات إلى الجهاد، وبعضها يشير أيضًا إلى جهاد النفس الذي أطلق عليه الرسول «الجهاد الأعظم»، ولكن بعض الآيات الأخرى تنص على أوامر محددة للمؤمنين، مثل: ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾،[3] وأيضًا: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ ... ﴿حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.[4] ويفسر بعض علماء المسلمين هذه الأوامر قائلين إنها واجبة التطبيق عندما يبدأ الكفار بشن حرب على المسلمين، أو عندما يتعرض المسلمون لاضطهاد أو عندما يتعرض الإسلام نفسه للتهديد. ويشير هؤلاء العلماء إلى الآية القرآنية: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾.[5]

[3] سورة التوبة الآية (٥).
[4] سورة التوبة الآية (٢٩).
[5] سورة البقرة الآية (١٩٠)

وفي ظل تأثير الجهاد الأفغاني، أصبح العديد من الإسلاميين المتطرفين يؤمنون أن الجهاد لا ينتهي أبدًا. ففي نظرهم الحرب ضد الاحتلال السوفييتي ليست إلا جولة واحدة في هذه الحرب السرمدية، وأطلقوا على أنفسهم الجهاديين مشيرين بذلك إلى مركزية الحرب في فهمهم للدين. لقد كانوا نتاجًا طبيعيًّا لإجلال الإسلاميين الموت على الحياة. وقد قال حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين: «من مات ولم يغزُ أو تحدثه نفسه بالغزو، فقد مات ميتة الجاهلية»، وأضاف بلمحة صوفية «فالموت فن.»

والقرآن ينص بوضوح أيضًا أنه ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[6] وهو الأمر الذي يبدو أنه يمنع شن حرب على غير المسلمين أو على المسلمين الذين يختلفون في الأفكار أو المذاهب. ولكن سيد قطب احتقر مفهوم أن الجهاد مجرد مناورة دفاعية لحماية المجتمع الإسلامي، فيكتب: «الإسلام ليس مجرد «عقيدة». إن الإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد. فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر.» وقال قطب: إن الحياة بلا إسلام ليست إلا عبودية، ومن ثم، لا يمكن الوصول إلى الحرية الحقيقية إلا بعد القضاء على الجاهلية، وأنه لن يكون هناك إكراه في الدين إلا بعد التخلص من حكم البشر وتطبيق الشريعة، لأنه وقتها لن يكون هناك خيار آخر غير الإسلام.

ومع ذلك، كان إعلان الجهاد يمزق المجتمع الإسلامي؛ فلم يكن هناك إجماع أبدًا على أن الجهاد في أفغانستان فرض ديني حقيقي. ففي المملكة العربية السعودية، على سبيل المثال، فند فرع جماعة الإخوان المسلمين هناك الدعوة لإرسال أعضائه للجهاد، مع أنه شجع المشاركة في أعمال الإغاثة في أفغانستان وباكستان. أما من لبوا دعوة الجهاد وسافروا، فكانوا في الغالب لا ينتمون إلى أية مؤسسة إسلامية قائمة، ومن ثم كانوا عرضة أكثر للتطرف. وبالفعل ذهب الكثير من الآباء السعوديين الذين تملك منهم القلق إلى معسكرات التدريب ليعيدوا أولادهم إلى منازلهم.

أما المثاليون المتشددون الذين لبوا لدعوة عزام، فقد نظروا إلى أفغانستان على أنها بداية عودة الإسلام لحكم العالم، ولن تشهد تلك العودة تحرير أفغانستان فقط ولكن أيضًا استرداد السيطرة على الإمبراطورية القديمة من أسبانيا إلى الصين، التي

[6] سورة البقرة الآية (٢٦٥).

twitter @baghdad_library

كانت يومًا تحت الحكم الإسلامي المستنير، حين كانت أوروبا تتخبط في ظلمات العصور الوسطى. واستعادة تلك الإمبراطورية القديمة ليست بدورها سوى الخطوة الأولى، تليها بعد ذلك الحرب الحاسمة ضد الكفار التي تنتهي بيوم القيامة.

ولم يكن جميع الأفغان العرب انتحاريين أو مفكرين يرون لأنفسهم دورًا في حرب نهاية الزمان، بل كانوا يضمون بين صفوفهم أيضًا الفضوليين والطلاب الذين قرروا استغلال إجازاتهم في الجهاد والطلاب الذين لا يعرفون كيف يقضون إجازة مثيرة. والبعض الآخر كان يسعى لأن يكون له شأن لم توفره له حياته العادية.

يقول محمد لؤي بايزيد، مهاجر سوري إلى الولايات المتحدة: «لم أكن مؤمنًا.» وكان بايزيد في الرابعة والعشرين من عمره حين ذهب إلى هناك في عام ١٩٨٥م، ويتذكر أنه في ذلك الوقت كان شابًّا أمريكيًّا عاديًّا من الطبقة المتوسطة، يتجول في المراكز التجارية ومطاعم الوجبات السريعة، ولكنه صادف نسخة من كراسة الدعوة التي ينشرها عبد الله عزام وقرر أنه إذا كانت هناك معجزات فيجب أن يراها بنفسه. وكان آنذاك يدرس الهندسة في كلية محلية في مدينة كنساس بولاية ميسوري. ولم يكن يعرف كيف يصل إلى جبهة القتال من مدينة كنساس، لذا فقد استقل الطائرة إلى إسلام أباد واتصل بالرقم الموجود على الكراسة الدعوية لعبد الله عزام، ولو أن عزامًا لم يكن قد أجاب على الهاتف، ما كان ليعرف ماذا سيفعل.

كان بايزيد قد خطط للبقاء لمدة ثلاثة شهور فقط، ولكن غرابة المكان والصداقة الحميمة والألفة التي كانت تجمع بين الرجال الذين جاءوا طلبًا للشهادة قد استحوذت على كيانه. وبدا حاجباه الأسودان المعبران والسيل المتدفق من الدعابات على شفتيه في غير مكانهما بين هؤلاء المجاهدين الذين يتميزون بالرصانة. ويقول بايزيد: «لقد ذهبت إلى أفغانستان بذهن خالٍ تمامًا، وقلب طيب. ولقد كان كل شيء غريبًا بالمرة، وكأني ولدت الآن، وكأني طفل رضيع وعليّ تعلم كل شيء من البداية. ولم يكن من السهل بعد ذلك أن أغادر وأعود إلى حياتي العادية.» وكان اسمه الحركي هناك أبا رضا السوري.

أخذ لواء الغرباء، الذي لم يكن مدربًا ولكن متلهف للقتال، يلحون حتى وافق عزام على أن يصطحبهم إلى أفغانستان لينضموا إلى قوات القائد الأفغاني قلب الدين حكمتيار الذي كان يقاتل السوفييت بالقرب من جهاد وال. اتجه بن لادن ومعه ستون من العرب عبر الحدود وبصحبتهم مرشد أفغاني واحد. ولأنهم كانوا يعتقدون أنهم في طريقهم إلى قلب المعمعة مباشرة، فقد ملئوا جيوبهم بالزبيب والحمص، وقد

أكلوا معظمه في الطريق الطويل. وبدءوا يشيرون إلى أنفسهم باسم «لواء الحمص». وفي العاشرة تقريبًا من مساء ذلك اليوم وصلوا إلى معسكر الأفغان، ليكتشفوا أن السوفييت قد انسحبوا.

وفي صباح اليوم التالي، أخبرهم حكمتيار بنفاد صبر: «لم يعد هناك داع لوجودكم هنا، لذا عودوا حيثما كنتم.» وافق عزام على الفور، ولكن بن لادن وبعض العرب فزعوا من الفكرة وأخذوا يتساءلون: «إذا كانوا قد انسحبوا، أليس من المفترض أن نطاردهم على الأقل؟» وأقام عزام بعد ذلك بعض الأهداف على السياج حتى يتدرب الرجال على الرماية، ثم سلم العرب أسلحتهم لأحد القادة الأفغان واستقلوا الحافلات عائدين إلى بيشاور، وبدءوا يطلقون على أنفسهم «لواء الحمقى». وعندما عادوا إلى المدينة، تفرقوا.

في عام ١٩٨٦م، أحضر بن لادن زوجاته وأطفاله إلى بيشاور حيث انضموا إلى الجالية الصغيرة التي يتزايد عددها من العرب الذين استجابوا لفتوى الشيخ عبد الله عزام. وكان من الواضح وقتها أن الأفغان ينتصرون في الحرب؛ فقد أعد ميخائيل جورباتشوف Mikhail Gorbachev الأمين العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي جدولًا زمنيًّا للانسحاب الكامل للقوات السوفييتية من أفغانستان بعد أن اعترف أن أفغانستان تمثل لهم «جرح دام». وقد كان ذلك هو العام نفسه الذي طُرِحَ فيه الصاروخ الأمريكي ستينجر، وهو صاروخ يحمل على الكتف يطلق يدويًّا أثبت كفاءته في إسقاط الطائرات السوفييتية، وقلب الموازين لصالح لمجاهدين. ومع أن الأمر سيستغرق ثلاث سنوات دموية أخرى حتى يتمكن السوفييت من النجاة بأنفسهم من أفغانستان، فإن وجود عدة آلاف من العرب، وبضع مئات منهم فقط هم من كانوا في أرض المعركة، لم يحدث فارقًا حقيقيًّا في سير الأمور.

أخذت شحنات الأسلحة تتدفق على ميناء كراتشي، وكانت المخابرات الباكستانية، التي كانت تتولى عملية توزيع الأسلحة على القادة الأفغان، تحتاج إلى مستودع لتخزين الأسلحة، ومن الأفضل أن يكون خارج باكستان وفي الوقت نفسه بعيدًا عن قبضة السوفييت. يوجد جزء مميز من المناطق القبلية يمتد إلى أفغانستان على امتداد سلسلة من الجبال جنوب غرب مضيق خيبر يعرف باسم منقار الببغاء، والمنحدر الشمالي منه يطلق عليه تورا بورا، الذي يعني الغبار الأسود. وهذا المكان المنعزل القاحل غني بالكهوف التي تكونت من الكوارتز والفلسبار شديدي الصلابة. وقد

twitter @baghdad_library

قام بن لادن بتوسيع الكهوف وإنشاء كهوف جديدة تصلح أن تكون مخازن أسلحة. وهناك، بين جدران كهوف الذخيرة التي بناها للمجاهدين، سيقف بن لادن في يوم من الأيام في وجه أمريكا.

وفي مايو/أيار من عام ١٩٨٦م، قاد بن لادن مجموعة صغيرة من العرب للانضمام إلى القوات الأفغانية في جاجي في المقاطعة التي تقع تحت سيطرة سياف بالقرب من الحدود الباكستانية. وفي إحدى الليالي، تعرضت الخيام العربية لقذف بما بدا أنه صخور، وربما كان حطامًا قذفته التفجيرات التي تقع على بعد من حين لآخر. وعندما استيقظ طاه يمني لإعداد وجبة السحور، حدث انفجار هائل، فصرخ الطاهي: «الله أكبر! الله أكبر! ساقي! ساقي!» فاستيقظ العرب ليجدوا ألغامًا متناثرة حول مخيمهم، مع أنه كان من الصعب رؤية هذه الألغام لأنها خضراء اللون ومخفاة بين الحشائش. وبينما كانوا يخلون الموقع، انفجر صاروخ موجه على بعد ياردات قليلة من بن لادن. ثم حدث انفجار هائل في أعلى الجبال أدى إلى سقوط صخور ضخمة وشظايا الأخشاب على العرب المحاصرين، وقد جرح ثلاثة أشخاص وقُتل طالب دراسات عليا مصري. أصيب العرب بالذعر الشديد، وشعروا بخزي أكبر عندما طلبت منهم القوات الأفغانية أن يغادروا لأنهم عديمو المنفعة.

وعلى الرغم من ذلك الأداء المؤسف، فقد قام بن لادن بتمويل أول مخيم دائم للعرب فقط في نهاية عام ١٩٨٦م في إقليم جاجي أيضًا، وقد وضعه ذلك في خلاف مع معلمه عزام الذي عارض الفكرة بشدة. لقد كان يراود كل منهما حلم قوي وغير عملي؛ فكان عزام يتوق إلى محو جميع التقسيمات القومية التي تمنع المسلمين من الاتحاد. ولهذا السبب، كان يسعى دائمًا إلى نشر المتطوعين العرب بين القيادات الأفغانية المختلفة، مع أن القليل منهم فقط كان يعرف اللغات المحلية أو تلقى تدريبًا عمليًّا. لقد كانوا مجرد ذخيرة يضحي بها لتحقيق حلمه. ومن ناحية أخرى، كان وجود هدف ثابت مثل المعسكر الذي يتصوره بن لادن ما هو إلا إهدار للنقود والأرواح في حرب الكر والفر التي يشنها الأفغان. أما بن لادن فكان يفكر بالفعل في مستقبل الجهاد، وكان معسكر جاجي هو الخطوة الأولى تجاه إنشاء فيلق من العرب قادر على شن الحرب في أي مكان. وحتى تلك اللحظة، كان يُخضِع حلمه لأهداف الشيخ العجوز، ولكنه بدأ يشعر بقدره المحتوم.

وعندما يئس عزام في أن يمنع بن لادن من الانحراف بعيدًا عن مداره، أرسل إليه جمال خليفة ليتفاهم معه، فلم يكن هناك أحد يستطيع أن يتحدث إلى بن

لادن بصراحة أو له سلطة في الحديث معه أكثر من صديقه القديم وزوج أخته. سافر خليفة عبر الحدود الأفغانية مع سياف الذي كان يحكم المقاطعة الجبلية حول جاجي، وكان المعسكر في أعالي الجبال وقارس البرودة وعرضة للرياح القاسية. أطلق أسامة بن لادن، الذي يعني اسمه الأسد، على هذا المعسكر «مأسدة»، أي عرين الأسد. وقال: إنه استوحي الاسم من بعض أبيات الشعر لحسان بن ثابت شاعر الرسول الذي كتب القصيدة في حصن آخر يحمل الاسم نفسه، فيقول:

من سره ضرب يمعمع بعضه/بعضًا كمعمعة الأَباء المحرق
فليأت مأسدة تُسنّ سيوفها/بين المذاد وبين جزع الخندق
دربوا بضرب المُعلِمين وأسلموا/مهجات أنفسهم لرب المشرق

وفي ذلك الوقت، لم تكن مأسدة بن لادن تشبه على الإطلاق معسكر التدريب الجبلي الذي أصبحت عليه فيما بعد. وكان خليفة فتى كشافة رائعًا، ومن واقع خبرته رأى أن ذلك الموقع القذر غير المنظم المخبأ بين أشجار الصنوبر أقل بكثير من مقاييس معسكرات الأطفال. وكان بالمعسكر جرار وبنادق من طراز كلاشينكوف صناعة مصرية، ومدافع هاون، وبعض الأسلحة الصغيرة المضادة للطائرات التي اشتروها من الأسواق في بيشاور، وبعض الصواريخ الصينية بلا منصات إطلاق، ولكي يطلق المجاهد منهم أحد هذه الصواريخ، كان يضعه على صخرة ويزوده بسلك ثم يشعل الفتيل من على بعد مسافة منه، وهي عملية خطيرة للغاية وغير دقيقة أيضًا.

وباستخدام النظارات المقربة، قام خليفة بدراسة القاعدة السوفييتية الموجودة في وادٍ واسع على بعد ثلاثة كيلومترات فقط. لقد كان العرب معزولين وعرضة للهجوم، وكانت لديهم سيارة واحدة فقط يستخدمونها في تهريب المياه والمؤن ليلًا، ولكن من الممكن محاصرتهم والقضاء عليهم بسهولة. لقد كانوا معرضين للفناء بصورة متهورة تحت قيادة بن لادن، فاستشاط خليفة غضبًا بسبب المخاطرة التي ليس لها أي داع وتعريض الأرواح للخطر.

ظل خليفة هناك لمدة ثلاثة أيام يتحدث إلى الناس الملتفين حول بن لادن، ولا سيما المصريين المرتبطين بجماعة الجهاد بقيادة أيمن الظواهري وطلاب المدارس الثانوية السعوديين، ومنهم تلميذه والي خان الذي كان متميزًا للغاية في مادة الأحياء التي كان خليفة يدرِّسها في المدينة المنورة. وقد علم خليفة أنهم قد اختاروا بن لادن

twitter @baghdad_library

قائدًا لهم بدلًا من عزام أو سياف، وقد أذهلته هذه الأخبار بشدة إذ إنه لم يعتقد قط أن صديقه شخص يسعى إلى السلطة.

تساءل خليفة عمّا إذا كان المصريون يتحكمون في أسامة، وقد تزايدت هذه الشكوك عندما ضيق أبو عبيدة وأبو حفص، رفيقا أسامة المصريين وكلاهما طويل القامة وقيادي الشخصية، الخناق عليه ليعرفا ميوله السياسية. وبدآ يخبرانه كيف أن رؤساء الدول العربية مرتدون عن الإسلام، ويجب قتل مثل هؤلاء الخونة كما يرى الكثير من الأصوليين. وعندما اختلف معهم خليفة، حاولوا أن يبعدوه عن بن لادن، ولكن خليفة تجاهلهم وابتعد عنهم، ولم يسمح لغرباء مثلهم بالتحكم فيه.

كان خليفة وبن لادن ينامان معًا في حفرة من حفر المناوشة ذات جوانب مغطاة بالقماش وسقف خشبي مموه بتربة متراكمة فوقه. وكان أسامة مراوغًا للغاية في الحديث مع خليفة، حتى إن الأخير قرر أن صديقه يخفي شيئًا عنه. وفي اليوم الثالث، لم يستطع خليفة الصبر أكثر من هذا، فتحدث إليه صراحة قائلًا: «الجميع غاضبون، إنهم غير راضين عن هذا المكان، حتى مَن معك، لقد تحدثت إليهم أيضًا.»

أصاب هذا الحديث بن لادن بصدمة، فسأله: «لماذا لا يتحدثون إلي؟» فأجابه خليفة: «سل نفسك هذا السؤال، ولكن كل شخص في أفغانستان ضد هذه الفكرة!»

أعاد بن لادن على مسامع صديقه الصورة التي رسمها في ذهنه عن إنشاء قوة عربية قادرة على الدفاع عن قضايا المسلمين في كل مكان. وأن هذا هو ما يحاول إنشاءه في ذلك المعسكر الجبلي التعس. ولكن خليفة ذكره قائلًا: «لقد أتينا إلى هنا لمساعدة الأفغان، وليس لتكوين حزب خاص بنا! ثم إنك لست رجلًا عسكريًّا، فلماذا أنت هنا؟»

وارتفع صوت الصديقان وهما يتناقشان، وطوال سنوات صداقتهما العشر لم يدر بينهما جدال. فصرخ بن لادن في وجهه قائلًا: «هذا هو الجهاد، هذا هو الطريق الذي سيوصلنا إلى الجنة.»

فحذره خليفة من أنه مسئول عن أرواح هؤلاء الرجال وقال: «إن الله سيسألك عن كل قطرة دم تسيل منهم، ولأني صديقك، فأنا لا أوافق على بقائك هنا، يجب أن تترك هذا المكان أو سأتركك أنا.» ولكن بن لادن رفض ببرود، فغادر خليفة المعسكر. ولن يعودا مقربين بعد ذلك أبدًا.

مع أن بن لادن رفض مناشدات خليفة والآخرين، فإنه كان قلقًا بسبب الفشل المتكرر للواء العرب والمخاطر التي يواجهها رجاله في المأسدة، فيقول: «بدأت أفكر في استراتيجيات جديدة مثل شق كهوف وأنفاق.» فاستعار مجموعة من الجرارات والشاحنات، والشاحنات القلابة، وآلات الحفر من مجموعة بن لادن السعودية، بالإضافة إلى مجموعة من المهندسين الماهرين لشق سبعة كهوف مموهة جيدًا بين الجبال وتطل على خط الإمداد بالمؤن الرئيسي من باكستان. وسيصل طول بعض الكهوف إلى أكثر من مائة ياردة وارتفاعها إلى أكثر من عشرين قدمًا، لتكون ملاجئ من الهجمات الجوية، وأماكن للنوم، وعيادات لتطبيب الجرحى، ومستودعات أسلحة.

وكان رجال بن لادن يضيقون ذرعًا بأعمال البناء، ويلحون عليه بطلب فرص جديدة لمهاجمة الروس. وكان أكثرهم حماسة لهذا رجل فلسطيني بدين في الخامسة والأربعين من عمره يطلق عليه الشيخ تميم العدناني، وهو مدرس سابق للغة الإنجليزية، وأصبح الإمام في قاعدة القوات الجوية في الظهران في السعودية حتى طُرِد من هناك بسبب آرائه المتطرفة. والشيخ تميم رجل بدين شاحب اللون ذو لحية لم ينبت الشعر في بعضها وتميل إلى الشيب عند الصدغين. وقد تحول إلى إلقاء المحاضرات، وجَمَعَ ملايين الدولارات للمجاهدين. وقد منحه علمه وخبرته بالحياة والناس بالإضافة إلى شوقه الشديد للشهادة؛ سلطة بين المجاهدين تنافس سلطة بن لادن نفسه. وقد أطلق عليه الشيخ عبد الله عزام الذي كان شغوفًا به «الطود الشامخ».

كان وزن الشيخ تميم أربعمائة رطل تقريبًا، وقد كانت ضخامة جسده مصدرًا للفكاهة للمقاتلين العرب الشباب الذين لم يتجاوز عمر معظمهم الثامنة عشرة. وفي بعض الأحيان، كانوا يضطرون إلى سحبه بالحبال في مسالك الجبال الشاهقة، ويمزحون معه قائلين: إن الخيل صارت تعرف وجهه جيدًا وترفض أن تحمله على ظهورها. ولكن التزام الشيخ بالجهاد وحبه له كان يلهب مشاعرهم، وكان يتدرب معهم، على الرغم من سنه وحالته الصحية الضعيفة. وكان دائمًا يحث بن لادن على أن يدفع بالرجال في معركة حقيقية، معبرًا بذلك عن رغبة الكثير من العناصر الجريئة والمتهورة في المعسكر الذين كانوا متلهفين للموت. ولكن بن لادن كان ينجح في إقناعه بإرجاء الأمر مبررًا ذلك بأن الرجال غير مدربين تدريبًا كافيًا وأن هناك حاجة ماسة للانتهاء من عملية البناء، ولكن تميم لم يستسلم أبدًا.

twitter @baghdad_library

وفي نهاية شهر مارس/آذار من عام ١٩٨٧م، عاد بن لادن إلى المملكة العربية السعودية، واستغل الشيخ تميم تلك الفرصة فتقرب إلى أبي هاجر العراقي، الذي جعله بن لادن مسئولًا عن المأسدة نيابة عنه، وحاول أن يقنعه بمهاجمة موقع صغير تابع للقوات السوفييتية بالقرب منهم. ولكن أبا هاجر اعترض قائلًا: إنه ليست لديه سلطة اتخاذ مثل هذا القرار، إلا أنه استجاب أمام إصرار الشيخ تميم، وأعطاهم موافقته على مضض. استدعى الشيخ بسرعة أربعة عشر أو ستة عشر رجلًا، وجمعوا أسلحتهم الثقيلة على ظهر حصان وبدءوا يشقون طريقهم إلى أسفل الجبل، وطوال الطريق أخذت الأسلحة تسقط عن ظهر الحصان إلى الثلج. ولم يكن لدى الشيخ تميم أية خطة سوى مهاجمة السوفييت والانسحاب على الفور، حتى إنه لم يكن واثقًا إلى أين يتجه بالضبط. وإذا ما اشتبك العرب في تبادل لإطلاق النار مع العدو، فلن يكون بإمكان الشيخ العودة وتسلق الجبل مرة أخرى مع المقاتلين الصغار الرشيقين الذين يرافقونه. ولكن، كالعادة، لم يكن الحذر سمة من سمات خطط الشيخ تميم.

وفجأة جاءه صوت أبي هاجر على جهاز الإرسال والاستقبال الصغير الذي يحمله يخبره أن بن لادن قد عاد وأنه يشعر بالقلق، ويأمرهم أن يعودوا إلى المعسكر على الفور. ولكن الشيخ أجابه: «أخبره أني لن أعود»، فأخذ بن لادن جهاز الاستقبال وقال: «عد فورًا يا شيخ تميم! وإذا لم تفعل تصبح آثمًا لأنني أنا القائد، وأنا آمرك بالعودة.»

وافق الشيخ تميم على مضض أن يترك المعركة التي خطط لها، ولكنه أقسم أن يصوم حتى يحظى بفرصة المشاركة في معركة. ولمدة ثلاثة أيام بعد عودته إلى المأسدة، امتنع الشيخ عن الطعام والشراب حتى أصبح واهنًا للغاية حتى إن بن لادن رتب في النهاية هجومًا صغيرًا كي يفي الشيخ تميم بقسمه، رمزيًّا على الأقل. وسمح للشيخ بتسلق قمة أحد الجبال وإطلاق بعض قذائف الهاون والأسلحة الآلية في اتجاه العدو. ولكن ظل الشيخ تميم يمثل تحديًا لسلطة بن لادن لأن الكثير من العرب كانوا يتحيزون إليه قائلين إنهم جاءوا للجهاد وليس للتخييم في الجبال. وقد اعترف بن لادن بعد ذلك قائلًا: «لقد خشيت أن يعود بعض الإخوة إلى بلادهم ويقولون لأهلهم إنهم قضوا ستة أشهر دون حتى أن يطلقوا رصاصة واحدة، فقد يعتقد الناس أننا لا نحتاج إلى دعمهم.» وكان عليه أن يثبت أن العرب ليسوا مجرد سياح، وأنهم قادرون على المشاركة بفعالية في الجهاد الأفغاني. ولم يكن يعرف إلى

متى يستطيع السيطرة على الرجال تحت قيادته إذا فشل في إشراكهم في معركة حقيقية.

لذا ففي السابع عشر من أبريل/نيسان عام ١٩٨٧م، وقبل أن تذوب الثلوج تمامًا، قاد بن لادن قوة قوامها مائة وعشرون مقاتلًا للإغارة على موقع للحكومة الأفغانية بالقرب من مدينة خوست. وقد اختار أن يشن هجومه يوم الجمعة لأنه اعتقد أن المسلمين في جميع أنحاء العالم يدعون للمجاهدين في ذلك اليوم. وقد وافق القائدان الأفغانيان حكمتيار وسياف، الذي يتحدث العربية بطلاقة، أن يمدوهم بغطاء من نيران المدفعية. وكان الموعد المحدد للهجوم هو السادسة مساءً، وهو وقت مناسب لشن هجوم سريع يتبعه حلول الظلام الذي سيحمي الرجال من الطائرات السوفييتية التي سريعًا ما ستمطرهم بالقنابل. ولقد ترجاه الشيخ تميم أن يشترك في هذه المعركة ولكن بن لادن أمره بالبقاء في المأسدة.

وقد استغرقوا شهورًا في التخطيط لهذه العملية الوشيكة التي روجوا لها جيدًا في مدينة بيشاور، فيتذكر أبو رضا المجاهد من مدينة كنساس: «لقد سمعت بذلك الهجوم وقررت أن أشارك فيه، فاستقللت سيارتي إلى هناك ولم أكن أعرف الكثير عن الخطة، ولكني وجدت الكثير من الحمير والخيول تنقل أسلحة في الوادي.» وعندما وصل إلى منطقة تجمع القوات، وجد فوضى شديدة بين صفوف العرب. وفي الوقت المحدد للهجوم، لم تكن الذخائر قد وصلت إلى أي من المواقع، وكانت لا تزال موجودة في سيارة في نهاية طريق بعيد إلى حد ما. وكان الرجال ينقلون الصواريخ ومدافع الهاون باضطراب إما على ظهورهم أو على البغال الأربعة المتوفرة لديهم. وكان بعض المقاتلين منهكين بشدة حتى إنهم عادوا إلى المأسدة لينالوا قسطًا من الراحة، أما من بقي من الآخرين فقد كانوا جائعين غاضبين بسبب نفاد الطعام. وفي اللحظة الأخيرة، اكتشف أحد القادة أن أحدًا لم يحضر الأسلاك الكهربية اللازمة لربط الصواريخ بأجهزة التفجير، فأرسل رجلًا على صهوة حصان ليعود مسرعًا إلى المعسكر. وفوق كل هذا، كان بن لادن مريضًا، كما هو الحال قبل كل معركة تقريبًا، مع أنه حاول أن يحافظ على رباطة جأشه أمام رجاله.

أدلى الشيخ عبد الله عزام بعد ذلك بحديث مثير ليشعل حماسة المجاهدين، تحدث فيه عن ضرورة الثبات في المعركة، ولكن قبل أن يستعد العرب لوضع الذخيرة في أسلحتهم، سمع جندي أفغاني من القوات الحكومية إعداداتهم، فقام وحده بمحاصرتهم في مكانهم حتى هبوط الليل باستخدام مدفعه الرشاش من طراز

twitter @baghdad_library

جرينوف، فأمر بن لادن قواته بالانسحاب. والمثير للدهشة أنه لم يُقتَل سوى عربي واحد وأصيب اثنان بجروح خطيرة، ولكن تناثر كبرياؤهم أشلاءً بعدما هزمهم رجل واحد. وكان المجاهدون الأفغان يضحكون عليهم ويسخرون منهم. ونتيجة لهذا الفشل الذريع، بدأ الباكستانيون يغلقون منازل الضيوف التي يقطنها العرب في مدينة بيشاور، وبدا أن مأساة وجود الأفغان العرب قد وصلت إلى نهاية مخزية.

وفي الشهر التالي، اشتبكت مجموعة صغيرة من العرب في مناوشة حربية أخرى، ولكن كانت هذه المرة من تخطيط القائد العسكري المصري أبي عبيدة، الذي قاد مناورة ضد مجموعة من القوات السوفييتية. ويقول بن لادن فيما بعد: «لقد كان معي تسعة آخرون، ولم يتردد أي منا.» وهذه المرة انسحبت القوات السوفييتية وشعر العرب بفرح شديد، ولكن هذا النصر القصير تسبب في هجوم سوفييتي مضاد عنيف على المأسدة. وطبقًا للأساطير التي كان عبد الله عزام ينسجها في قصصه، حشد السوفييت قوة قوامها تسعة أو عشرة آلاف تشمل عناصر من القوات الخاصة السوفييتية، وجنودًا نظاميين في الجيش الأفغاني، في مقابل سبعين مجاهدًا فقط.

ناشد الشيخ تميم بن لادن أن يضعه على الخطوط الأمامية في المعركة، ولكن بن لادن أخبره أنه بدين إلى درجة تمنعه من المشاركة في قتال ضارٍ، وجعله على غرفة الاتصالات في حجرة سرية تحت الأرض. وانتظر العرب حتى أصبحت القوات السوفييتية المهاجمة بأكملها في مرمى مدافع الهاون الثلاثة التي يمتلكونها، وعندما صرخ بن لادن «الله أكبر»، فتح العرب النيران وتراجع الروس بعد أن أصابتهم المفاجأة. وقد كتب عزام بعد ذلك: «كان الإخوة في حالة من النشوة والبهجة الشديدة»، وشاهدوا سيارات الإسعاف وهي تصل لنقل الجنود الصرعى ومن بينهم القائد العسكري لمنطقة جاجي.

قام بن لادن بعد ذلك بتقسيم قواته إلى نصفين متوقعًا هجومًا سوفييتيًّا مضادًا أكبر، ووضع خمسة وثلاثين رجلًا لحماية المأسدة. وتقدم هو وتسعة آخرون إلى أعلى أحد التلال حيث رأوا مائتي جندي من القوات الخاصة الروسية يزحفون نحو المعسكر. ويقول بن لادن: «فجأة، بدأت قذائف الهاون تنهال على رءوسنا كالمطر» ولكن، بمعجزة، لم يصب أي من العرب. وبعد ساعة، واصل الروس تقدمهم بثقة، ويستكمل بن لادن: «وعندما وصلوا إلى القمة، بدأنا هجومنا، فقتلنا القليل منهم وهرب الباقون.»

ولمدة أسابيع، ظل السوفييت يمطرون موقع المجاهدين حول المأسدة بقذائف هاون عيار ١٢٠ ملم وقنابل النابالم الحارقة، الأمر الذي سبب دمارًا واسعًا حتى إن الشيخ عزام أخذ يبكي ويبتهل إلى الله أن ينجي المقاتلين. واحترقت الأشجار، حتى مع هطول المطر، لتضيء عتمة الليل. وفي صباح أحد الأيام، في خضم عاصفة من الشظايا والنيران التي تتناثر هنا وهناك، خرج الشيخ تميم من كهف الاتصالات ومصحفه في يده وبدأ يتجول في منطقة مفتوحة متجاهلًا توسلات زملائه وهو يتلو القرآن ويدعو بصوت عال متوجهًا بنظره ونظارته إلى السماء أن ينال الشهادة، وكانت الأرض تهتز والرصاصات والعبوات الناسفة تمزق الغابات من حوله. وكان ذلك في أواخر شهر رمضان، واعتقد تميم أن موته في مثل هذا الوقت سيكون مباركًا بصورة خاصة.

وبدا أن لهذه الجولة المجنونة تأثيرًا مهدئًا على الآخرين، ويذكر بن لادن قائلًا: «لقد تعرضنا للقصف بسرعة، وعندما توقفت النيران لمدة ثلاثين ثانية، أخبرت مَن كنت معهم أنني اعتقدت أننا سنموت. ولكن في غضون دقائق، فتحت النيران مرة أخرى وكنت أقرأ القرآن الكريم، حتى نجونا وتمكنا من التحرك إلى موقع آخر، ولكن قبل أن نبتعد سبعين مترًا، عاد القصف مرة أخرى، ولكننا شعرنا بأمان تام كما لو كنا نجلس في غرفة مكيفة.»

ومع ما أظهره المقاتلون من شجاعة، فقد شعر بن لادن بالقلق من أن يُقتل جميع رجاله إذا لبثوا مدة أطول، لذا فقد كان لزامًا عليه أن يغادر المأسدة، وكانت تلك أسوأ هزيمة تلقاها بن لادن في حياته. وقد صدم قراره هذا رجاله، وعندما اعترض أحدهم، فإن بن لادن، كما يتذكر الشيخ تميم: «صرخ في وجهي، وتلفظ بكلمات لم أسمعها منه من قبل.» فجأر الشيخ تميم وجذب شعر لحيته، فيقول بن لادن: «ظننت أنه قد أصابه مس.» وقد نهر بن لادن الشيخ تميم قائلًا: إنه يعرض حياة المقاتلين للخطر بعناده، وحذره قائلًا: «الرجال في السيارة يا شيخ تميم، إذا قُتل أي منهم فستتحمل أنت ذنبه، وستكون أنت مسئولًا عن دمه يوم القيامة.» فتنهد الشيخ تميم، وانضم إلى الرجال الآخرين في الشاحنة.

ومن استطاع السير من الرجال اتبعهم سيرًا على الأقدام بعد أن دمروا جزءًا كبيرًا من معسكر المأسدة حتى لا يكون هناك شيء ينهبه السوفييت. وقاموا بدفع مدافعهم في الأودية الضيقة العميقة ودفنوا أسلحتهم الآلية، وألقى أحد الرجال قنبلة

twitter @baghdad_library

بدوية في خزانة المؤن، وتحول المعسكر الذي كدوا في إنشائه إلى أنقاض. ومكثت خلفهم مجموعة لتغطية انسحاب المقاتلين الآخرين.

ومرة أخرى، سقط بن لادن مريضًا، فيقول: «كنت متعبًا للغاية، وبالكاد أستطيع السير لمسافة عشرين مترًا قبل أن أتوقف وأشرب المياه. لقد كنت تحت ضغط نفسي وجسدي شديدين.» ولكن كانت محنة بن لادن قد بدأت لتوها فقط.

استشاط سياف غضبًا عندما وصل العرب بهيئتهم الرثة إلى معسكره، وفي ذلك الوقت كان قد بدأ يعرف قيمة معسكر المأسدة الذي يطل على طريق استراتيجي تمر به القوافل لإمداد المجاهدين بالمؤن. فقام على حين غرة بإلغاء أوامر بن لادن وأمر العرب بالعودة، بل وأرسل معهم بعض المقاتلين الأفغان الذين يثق بهم إلى المعسكر لكي يتأكد من أنهم عادوا إلى مواقعهم.

وعاد المقاتلون المنهكون الذين يشعرون بالخجل أيضًا إلى معسكر المأسدة في مجموعات تتكون من خمسة أو عشرة أفراد. وعند بزوغ الفجر، كان قد وصل خمسة وعشرون مقاتلًا عربيًّا وعشرون أفغانيًّا إلى أنقاض المعسكر يحتفلون بكآبة بأول أيام عيد الفطر بعد انتهاء شهر رمضان. ولم يكن هناك أي طعام يؤكل بعدما قاموا بتفجير المطبخ، فتلقى كل منهم ثلاث ليمونات. وفي وقت لاحق من ذلك الصباح، عاد بن لادن ومعه عشرة مقاتلين. وكان كسير الكبرياء وغير راغب في تأكيد سلطته، فقد جعل قائده العسكري المصري أبا عبيدة يتولى السلطة، ومن المؤكد أن رؤية الخراب الذي أحدثه بيديه في معسكره دون أن يكون هناك داع لذلك لم تكن تحتمل.

فقرر أبو عبيدة أن يمنحه شيئًا يفعله، فقال له: «اذهب واحرس الجانب الأيسر من المعسكر، أعتقد أنهم لن يدخلوا سوى من هذا المكان لأنه أقصر طريق.»

قاد بن لادن الرجال إلى نتوء في الجبل ونشرهم في الخارج بين الأشجار، ورأوا قوة روسية على بعد سبعين مترًا فقط. فأمر بن لادن رجاله بالتقدم، ولكن صوته كان مبحوحًا، فلم يدركوا أنه يتحدث إليهم، فتسلق شجرة غير ذات أوراق حتى يسمعوا صوته ويطلقوا النار على الفور. فكادت قذيفة أر بي جي تسقطه عن الشجرة، ويقول بن لادن وهو يقص ما حدث: «لقد مرت من جواري وانفجرت بالقرب مني، ولكني لم أتأثر بها على الإطلاق، وفي الحقيقة، بفضل الله العظيم، بدا الأمر كأن حفنة من طين الأرض قد غطتني. فنزلت بهدوء وأخبرت الإخوة أن العدو في المحور المركزي وليس الجناح الأيسر.» وفي رواية أخرى لما حدث، تبدو أخطر

تجربة قتالية مر بها بن لادن أقل هدوءًا ورباطة جأش، فيقول: «لقد كانت هناك معركة رهيبة، انتهت بي مطروحًا أرضًا أطلق النار حولي على كل ما أراه.»

ظل بن لادن ورجاله محاصرين طوال اليوم بنيران قذائف الهاون التي يمطرهم بها العدو. ويقول: «كنت على بعد ثلاثين مترًا فقط من الروس، وكانوا يحاولون أسري. وكنت تحت القصف، ولكن الطمأنينة كانت تملأ قلبي حتى إني نمت.» وغالبًا ما تؤخذ قصة نوم بن لادن دليلًا على قوته وتماسكه تحت نيران أرض المعركة، ولكنه قد يكون سقط مغشيًا عليه؛ فقد كان ضغط دمه منخفضًا دائمًا، الأمر الذي جعله مصابًا بدوار معظم الوقت. وكان يحمل دائمًا كيس ملح، وعندما يشعر بدوار، يبلل إصبعه ويضعه في الكيس، ويمتص الملح لكي يمنع ضغط دمه من الانخفاض.

من المثير للدهشة أنه في الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم، كانت القوات العربية بقيادة أبي عبيدة قد نجحت في الالتفاف حول العدو. ومع غياب الدعم الجوي، انسحب الجزء الرئيسي من القوات السوفييتية. ويروي بن لادن فيما بعد: «كان هناك تسعة فقط من الإخوة في مقابل مائة جندي من القوات الخاصة الروسية، ولكن نظرًا للرعب الشديد والخوف في هذه الغابات الكثيفة، لم يستطع الروس معرفة عدد الإخوة. والغنيمة النهائية كانت مقتل نحو خمسة وثلاثين من جنود وضباط القوات الروسية الخاصة، في حين هرب الباقون ... وارتفعت معنويات المجاهدين كثيرًا ليس فقط في منطقتنا، بل في أفغانستان بأكملها.»

لقد حقق بن لادن أكبر انتصاراته بعد أن مُني بأكبر هزيمة في حياته بوقت قصير. وبعد معركة المأسدة، منح أبو عبيدة أسامة بن لادن غنيمة تذكارية من ضابط روسي ميت، وهي بندقية هجوم صغيرة من طراز كاليكوف أيه كيه-٧٤ ذات مقبض مصنوع من خشب جوز الهند وخزينة ذخيرة مميزة بنية مائلة للحمرة، التي كانت علامة على أنها النسخة المتقدمة الخاصة بالمظليين. وفي المستقبل، ستظل هذه الهدية دائمًا على كتفه.

استمرت هذه الأحداث لمدة ثلاثة أسابيع، وكان سياف (الذي استولى فيما بعد على المأسدة) هو من أشعل فتيل هذه الحرب أكثر من بن لادن، ولكن العرب خرجوا من هذه المعركة مشهورين بالشجاعة والتهور وهو ما ساعد على بناء أسطورتهم، على الأقل بين أنفسهم. وبدأت منازل الضيوف تعود لتفتح أبوابها بهدوء مرة أخرى في مدينة بيشاور. أما من وجهة نظر السوفييت، فلم تكن معركة المأسدة سوى حدث صغير في الانسحاب التكتيكي من أفغانستان. ولكن في ظل ذلك الجو الديني القوي

twitter @baghdad_library

السائد بين رجال بن لادن، فقد كان هناك إحساس مذهل بأنهم يعيشون في عالم خارق للطبيعة يخضع فيه الواقع للإيمان. وأصبحت تلك المواجهة في المأسدة أساس الأسطورة التي تقول: إنهم هزموا القوة العظمى في العالم. وفي غضون سنوات قليلة، انهار الاتحاد السوفييتي، ورأى الجهاديون أنه سقط صريعًا إثر الجروح القاتلة التي تلقاها على يد المسلمين في أفغانستان. وفي ذلك الوقت، كانت الطليعة التي قُدِّر لها الاستمرار في المعركة قد تكونت. وقد وُلد تنظيم القاعدة باقتران هذين الافتراضين: أن الإيمان أقوى من الأسلحة أو الأمم، وأن تذكرة دخول هذه المنطقة المقدسة حيث المعجزات هي الرغبة في الموت.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس

القاعدة

بحلول عام ١٩٨٦م، كان الملايين من اللاجئين الأفغان قد تدفقوا إلى الإقليم الحدودي الشمالي الغربي من باكستان، وتحولت بيشاور عاصمة الإقليم إلى نقطة التجمع الرئيسية للمجاهدين ضد الغزو السوفييتي. فكانت شوارع المدينة خليطًا من اللغات والعادات القومية المختلفة، مما أضفى على المدينة طابعًا عالميًّا غريبًا ومثيرًا يخلب لُب كل من يمر بها. وأخذ العاملون في مجال الإغاثة، ورجال الدين المستقلين، وعملاء المخابرات من جميع أنحاء العالم؛ يمارسون عملهم في هذا المناخ. وقد ساعد تدفق الأموال والأسلحة على البلاد بطريقة سرية على حدوث انتعاش اقتصادي في مدينة كانت تزدهر دائمًا بالسلع المهربة. وكانت كنوز المتحف الوطني الأفغاني، من تماثيل وأحجار نفيسة وآثار عتيقة، بل ومعابد بوذية كاملة، قد بدأت بالفعل تتسرب إلى سوق المهربين، وهي سوق تقام علانية على أطراف المدينة، وإلى محلات الهدايا في الفنادق البالية التي احتشد بها الصحافيون من جميع أنحاء العالم لتغطية أحداث الحرب. ونقل جنرالات الحرب الأفغانية عائلاتهم إلى الجزء المتحضر من المدينة الذي يعيش فيه طلاب الجامعات وأصحاب المهن المحترمة بين أشجار الكافور والمغنولية. وقد كوَّن هؤلاء الجنرالات ثرواتهم من اقتطاع الجزء الأكبر من الإعانات المادية التي يرسلها الأمريكيون والسعوديون. وقد جعلت المنافسات الدموية بينهم، بالإضافة إلى القصف الأسبوعي بالقنابل وعمليات الاغتيال التي تنفذها ضدهم المخابرات الروسية KGB والمخابرات الأفغانية KHAD، معدلات مقتل القادة الأفغان في بيشاور أعلى من مثيلاتها في أرض المعركة. وفجأة ظهر في المدينة التي كانت تعتمد اعتمادًا أساسيًّا على الحافلات الخاصة المطلية يدويًّا ودراجات الريكشا البخارية التي تثير خلفها خيطًا طويلًا من الدخان يشق الهواء كالمنشار؛ سيارات فخمة من طراز مرسيدس سيدان وتويوتا لاند كروزر التي تجول في المدينة بين عربات الكارو، وأصبح دخان

وقود الديزل يملأ الهواء. ويتذكر أسامة رشدي، أحد الجهاديين المصريين الشباب: «لقد تحولت بيشاور إلى مكان يقصده كل من ليس له مكان آخر. لقد كانت بيئة يمكن أن ينتقل فيها المرء من مكان سيئ إلى أسوأ، ومن ثم إلى اليأس والإحباط.»

بعد أن انتهت مدة عقد الدكتور أيمن الظواهري مع المستوصف الطبي في جدة عام ١٩٨٦م، انضم إلى الجالية العربية المتزايدة في بيشاور. وتفاخر الظواهري، الذي كان ممتلئ الجسد في تلك الزيارة أكثر مما كان في زياراته السابقة قبل سنوات السجن، بأن باكستان بمنزلة «وطنه الثاني» حيث إنه قضى بعض أيام طفولته فيها عندما كان جده لوالدته يشغل منصب السفير المصري في باكستان. وسريعًا ما تكيف على ارتداء الزي التقليدي الباكستاني الذي يطلق عليه «شالوار قميص» ويتكون من سِرْوال فضفاض وقميص طويل. وقد انضم إليه في بيشاور شقيقه محمد الذي اعتاد منذ صغره أن يتبعه ويسير على خطاه. وكان الشقيقان متشابهين كثيرًا، مع أن محمدًا كانت بشرته أسمر من بشرة أخيه، وكان أطول قليلًا من أيمن وأنحف منه أيضًا. وقد كوَّن محمد، الذي كان معروفًا بأنه شخصية محترمة وعذب الحديث، المضخة التي تضخ النقود من القاهرة إلى باكستان عبر السعودية.

تمكن أيمن الظواهري من ممارسة مهنته كطبيب في مستشفى الهلال الأحمر الذي تدعمه دولة الكويت. وكانت هذه المستشفى، على غرار معظم منظمات الإغاثة في المدينة، يسيطر عليها أعضاء من الإخوان المسلمين، الذين كانوا يكرهونه؛ بسبب نقده اللاذع لهم في كتابه «الحصاد المر»، الذي هاجم فيه الإخوان لتعاونهم مع الحكومات الكافرة، ويعني بهذا جميع الحكومات العربية. وقد أطلق الظواهري عليهم في كتابه «أداة في أيدي الطواغيت»، وطالبهم أن يعلنوا كفرهم «بالدساتير والقوانين الوضعية والديمقراطية والانتخابات والبرلمان» وأن يعلنوا الجهاد على الحكومات التي ساندوها فيما مضى. وبعد أن مُول الكتاب سرًا، نُشر بشكل لائق وانتشر في جميع أنحاء مدينة بيشاور. ويتذكر أحد أعضاء الإخوان المسلمين الذين كانوا يعملون في بيشاور في ذلك الوقت: «لقد كان الكتاب متاحًا دون مقابل، فإذا ذهبت لإحضار بعض الطعام، تجد البائع يسألك هل تريد الحصول على نسخة أو اثنتين من الكتاب.»

وصل في ذلك الوقت زميل آخر للظواهري ممن كانوا معه في الخلية السرية في القاهرة، وهو طبيب اسمه سيد إمام، واسمه الجهادي هو الدكتور فضل، وقد عملا معًا في المستشفى نفسها في بيشاور. وكان الدكتور فضل أيضًا مؤلفًا مثل الظواهري ويضع النظريات، ونظرًا لأنه كان أكبر سنًّا من الظواهري، وكان أمير

twitter @baghdad_library

جماعة الجهاد عندما كان الظواهري في السجن؛ فقد استحوذ على قيادة الجماعة مرة أخرى. وقد اختار أيمن الظواهري لنفسه اسمًا مستعارًا هو الآخر وهو الدكتور عبد المعز، وشرع هو والدكتور فضل على الفور في إعادة بناء جماعة الجهاد عن طريق تجنيد أعضاء من الشباب المصري من المجاهدين. وقد أطلقوا على أنفسهم في البداية اسم منظمة الجهاد ثم غيروا الاسم مرة أخرى إلى الجهاد الإسلامي، ولكن كانت لا تزال الجماعة في جوهرها هي جماعة الجهاد.

أصبحت مستشفى الهلال الأحمر التي تدعمها الكويت مركزًا للحركة التي أثارت خلافًا وانشقاقًا في مجتمع الأفغان العرب. ففي ظل تأثير الدكتور الجزائري أحمد الود والمعروف بتفكيره الدموي، تحولت المستشفى إلى رحم تتكون بداخله فكرة جديدة مهلكة، ستبث الفرقة بين صفوف المجاهدين، وتبرر المذابح التي ستنتشر بين الأشقاء في الدول العربية الإسلامية بعد انتهاء الحرب الأفغانية مباشرة.

طالما كانت بدعة التكفير مشكلة في الإسلام منذ بداية عهده: ففي منتصف القرن السابع الميلادي، ثارت جماعة تعرف باسم الخوارج على الإمام علي رابع الخلفاء الراشدين. وكان قرار علي أن يصل إلى اتفاق ودي مع خصم سياسي له بدلًا من شن حرب بين الأشقاء، هو ما أشعل فتيل ثورتهم عليه. وقد قرر هؤلاء الخوارج أنهم وحدهم مَن يتبعون العقيدة الصحيحة للدين وأن أي شخص لا يتفق معهم فهو مرتد، حتى الخليفة علي بن أبي طالب نفسه، الذي كان زوج ابنة النبي وقريبًا من قلبه، والذي اغتالوه في نهاية الأمر.

وفي بداية سبعينيات القرن العشرين، ظهرت جماعة في مصر أطلقت على نفسها جماعة التكفير والهجرة، التي تعد سلفًا لتنظيم القاعدة. ونجح قائد هذه الجماعة، وهو شكري مصطفى الذي كان نتاجًا للمعتقلات المصرية، في جذب نحو ألفين من الأتباع، وقد قرءوا جميعًا مؤلفات قطب وخططوا لليوم الذي تجتمع فيه لديهم القوة الكافية في المنفى ليعودوا ويقضوا على الكفار، وبهذا يصل العالم إلى آخر أيامه. وفي غضون ذلك، كانوا يتجولون في الصحراء الغربية في مصر وينامون في الكهوف الجبلية.

أطلقت الصحف المصرية على أتباع مصطفى «أهل الكهف». وهناك إشارة إلى قصة أهل الكهف في كل من الديانتين الإسلامية والمسيحية: ففي المسيحية، توجد قصة عن السبعة النيام في مدينة أفسس في اليونان، وتقول هذه القصة: إن سبعة من رعاة الأغنام رفضوا أن يرتدوا عن إيمانهم، ولكي يعاقبهم الإمبراطور الروماني

ديقيانوس Decius، أمر بحبسهم في كهف بمنطقة تقع في تركيا اليوم. وبعد ثلاثة قرون، طبقًا للأسطورة، عُثر على الكهف واستيقظ النيام معتقدين أنهم لم يناموا سوى ليلة واحدة. أما في القرآن، فهناك سورة كاملة وهي سورة «الكهف» تروي قصة أهل الكهف. وعلى غرار شكري مصطفى، سيتشبث بن لادن بالرمز الذي يمثله الكهف للمسلمين. بالإضافة إلى ذلك، فإن تنظيم القاعدة أخذ عن جماعة التكفير والهجرة أسلوب الانسحاب والإعداد والخداع الذي وضعته الجماعة في عام ١٩٧٥م والذي سيشكل الإطار العام لثقافة الخلايا النائمة التابعة للتنظيم.

وبعد عامين، قام أعضاء من الجماعة باختطاف الشيخ محمد الذهبي الوزير الأسبق للأوقاف، الذي كان عالمًا متميزًا ومتواضعًا يخطب في مسجد النور الذي كان الظواهري يتردد عليه في صباه. وعندما رفضت الحكومة المصرية الاستجابة لمطالب شكري مصطفى المادية والإعلامية، قتل مصطفى الشيخ العجوز، وقد عُثِر على جثته في أحد شوارع القاهرة ويداه مكبلتان خلف ظهره وقد انتزع جزء من لحيته.

وعلى الفور قامت الشرطة المصرية بإلقاء القبض على معظم أعضاء جماعة التكفير والهجرة وحاكمت العشرات منهم في محاكمة عاجلة، وصدر حكم بالإعدام ضد شكري مصطفى وخمسة آخرين معه. وبهذا، بدا للجميع أن المفهوم الثوري المتمثل في نزع الإيمان عن المسلمين واتهامهم بالكفر، ومن ثم تبرير قتلهم، قد طُمس تمامًا وانتهى من الوجود. ولكن كان استقر في حركات الجهاد السرية صورة مشوهة من صور التكفير. ففي جنوب مصر، حيث بدأ شكري مصطفى يدعو إلى هذا الفكر (وحيث نشأ الدكتور فضل)؛ كانت لا تزال بذور هذا الفكر كامنة. وكانت بقايا هذه الجماعة هم من أمدوا رفاق الظواهري في جماعة الجهاد بالقنابل والذخيرة التي استخدمت في عملية اغتيال أنور السادات. وحمل بعض الموالين للجماعة هذه البدعة معهم إلى دول شمال أفريقيا ومنها الجزائر، حيث تعرف الدكتور أحمد على ذلك الفكر.

والتكفير هو النقيض التام للإسلام، الذي يعكس جميع مبادئه الأساسية ولكن مع الحفاظ على المظهر الخارجي للدين. والقرآن ينصها صريحة أنه ليس من حق المسلم قتل أي شخص إلا قصاصًا لقتل شخص آخر. ويحذر القرآن أنه من قتل نفسًا واحدة بريئة ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾،[1] كما أن قتل المسلم لأخيه المسلم إثم

[1] سورة المائدة الآية (٣٢).

twitter @baghdad_library

أكبر، فيقول القرآن إن من يقتل مؤمنًا متعمدًا ﴿فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾.[٢] كيف استطاعت إذًا جماعات مثل الجهاد والجماعة الإسلامية أن تبرر استخدام العنف ضد إخوانهم من المسلمين لكي يصلوا إلى السلطة؟ في الواقع، لقد أشار سيد قطب إلى الطريق حين أعلن أن القائد الذي لا يطبق الشريعة في بلاده مرتد. وهناك حديث شهير عن الرسول يقول فيه: إن دماء المسلم لا تحل إلا في ثلاث حالات: القصاص لأنه قتل، أو الخيانة الزوجية، أو الارتداد عن الإسلام. ولقد كان الرئيس المؤمن أنور السادات أول ضحية في العصر الحديث لمنطق التكفير المغلوط.

أما التكفيريون الجدد، أمثال الدكتور فضل والدكتور أحمد، فقد وسعوا سلطتهم بسفك الدماء لتشمل، على سبيل المثال، كل من يسجل اسمه ليدلي بصوته في الانتخابات؛ فالديمقراطية، في نظرهم، ضد الإسلام لأنها وضعت في أيدي الناس سلطة من سلطات الله. ومن ثم، فإن كل من يدلي بصوته مرتد، ويجب أن يدفع حياته ثمنًا لهذا، وكذا كل من يعارض نظرتهم القاتمة للإسلام، ويتضمن ذلك قادة المجاهدين الذين جاءوا ظاهريًا لمساعدتهم، وحتى الشعب الأفغاني بأكمله الذي اعتبروه كافرًا لأنه ليس سلفيًا. باختصار، لقد آمن التكفيريون الجدد أن من حقهم قتل أي شخص يقف في طريقهم، بل ورأوا أن سفك دمه واجب ديني.

حتى لحظة وصوله إلى مدينة بيشاور، لم يكن الظواهري قد أيد قط فكرة القتل الجماعي هذه. فقد كان دائمًا ينظر إلى التغيير السياسي بعيني الجرّاح؛ فحلم حياته هو تنفيذ انقلاب سريع ودقيق. ولكن في أثناء عمله في مستشفى الهلال الأحمر مع الدكتور فضل والدكتور أحمد، أصبحت الحدود الأخلاقية التي تفصل بين المقاومة السياسية والإرهاب أكثر مرونة. وقد لاحظ أصدقاؤه ومن كانوا زملاءه في السجن التغيرات التي طرأت على شخصيته؛ فلقد تحول الطبيب المتواضع المهذب الذي طالما كان دقيقًا في مناقشاته، إلى شخص حاد وعدواني وغير منطقي بصورة غريبة؛ فكان يستغل التعليقات البريئة ويفسرها بطريقة غريبة وخبيثة. وربما تكون تلك هي المرة الأولى في حياته كرجل ناضج التي يواجه فيها أيمن الظواهري أزمة في الهوية وتحديد الاتجاه.

وفي حياة موجهة وهادفة مثل حياة شخص كأيمن الظواهري، لا توجد الكثير من اللحظات التي يمكن أن يُطلق عليها نقاط تحول مصيرية. وقد كان إعدام سيد

[٢] سورة النساء الآية (٩٣).

قطب، عندما كان الظواهري في الخامسة عشرة من عمره، إحدى هذه النقاط، بل كان النقطة الأساسية التي تمخضت عما حدث في حياته بعد ذلك. أما التعذيب، فإنه لم يغير الظواهري كثيرًا بقدر ما قوى من عزيمته. ولقد كانت كل خطوة في حياته تخدم سعيه وراء تكوين حكومة إسلامية في مصر بأقل قدر ممكن من الدماء، ولكن العقيدة التكفيرية زلزلت كيانه. لقد أقنع التكفيريون أنفسهم بأن خلاص البشرية يكمن في الجانب الآخر للأرض الأخلاقية التي كانت دائمًا المصير المحتوم للهالكين. وإنهم سوف يُحمِّلون أرواحهم الخالدة المخاطر بتولي السلطة الإلهية لتحديد من هو المسلم الحق ومن غير المسلم، ومن يجب أن يعيش ومن يجب أن يموت.

وهنا وقف الظواهري في مفترق الطرق، ففي الطريق الأول، أمامه عملية إعادة بناء جماعته في المنفى التي تتقدم باستمرار، ثم انتظار الفرصة المناسبة، إذا ما أتيحت يومًا، للعودة إلى مصر والسيطرة على زمام الحكم، وكان ذلك هو هدف حياته. ولكن هذا الطريق لا يمثل إلا خطوة صغيرة تجاه حرب نهاية العالم، التي بدت قاب قوسين أو أدنى عند النظر إلى الطريق الآخر. فهناك، عبر ما كان يعرف بالتأكيد أنه بحر هائل من الدماء، يقف حلم استعادة الإسلام الحقيقي على مستوى العالم.

وللسنوات العشر التالية، سيظل أيمن الظواهري ممزقًا بين الاتجاهين: الخيار المصري من ناحية وهو جماعة الجهاد التي بناها بيديه وحدد دورها وأهدافها، والخيار العالمي الذي لم يتحدد له اسمٌ بعد، ولكنه كان في طريقه لأن يتحدد شكله، وسيحمل اسم القاعدة.

اهتمت عزة، زوجة الظواهري، بتدبير شئون المنزل في حياة أباد في باكستان حيث كان كثير من العرب يعيشون. وقد كانت زوجات أعضاء منظمة الجهاد يعزلن أنفسهن نوعًا ما عن المجتمع من حولهن، فيرتدين جلبابًا أسود ويغطين وجوههن خارج المنزل. وقد استأجرت عائلة الظواهري فيلا تتكون من أربع غرف نوم، وكانوا يتركون دائمًا غرفة مخصصة للزوار الكثيرين الذين كانوا يزورونهم زيارات عابرة. ويقول عنهم عصام شقيق عزة: «كانوا إذا توافرت لديهم أموال فائضة، فإنهم يعطونها للمحتاجين، لقد كانوا سعداء بالعيش على أقل القليل.»

زارت نبيلة جلال، والدة عزة، أسرة الظواهري ثلاث مرات في باكستان. وقد ابتاعت لأحفادها صناديق من الألعاب ماركة فيشر برايس، وقالت عنهم: «إنهم عائلة

twitter @baghdad_library

مترابطة ترابطًا غير عادي، ودائمًا ما يتحركون معًا كالكتلة الواحدة.» ولكن كان لا يزال الرجل الذي اختارته ابنتها المتدينة يخيب ظنها فيه؛ فدائمًا كان يبدو أنه يجذب زوجته وأطفاله أكثر نحو الخطر. ولم يكن بإمكان نبيلة فعل شيء لكي تمنع الانجراف في ذلك التيار القاتل الذي بدأ في عام ١٩٨١م عندما دخل الظواهري السجن في الوقت الذي ولدت فيه ابنته الأولى فاطمة. وقد تولت نبيلة رعاية زوجته وطفلته حتى خرج هو من السجن بعد ثلاث سنوات. وبعد أن هرب الظواهري من مصر واستقر في جدة، ذهبت إليهم نبيلة لكي تحضر ولادة أميمة، التي سميت بهذا الاسم تيمنًا بوالدة أيمن. وفي هذه الزيارات، كانت عزة تعترف لأمها سرًّا بحنينها إلى مصر وإلى عائلتها هناك، ولطالما شعرت نبيلة بالقلق من الاتجاه الذي تنجرف إليه حياة عزة.

وتقول نبيلة: «في أحد الأيام جاءني خطاب منها شعرت وأنا أقرأ كلماته بألم شديد في قلبي، كتبت لي بأنها ستسافر إلى باكستان مع زوجها. كنت أتمنى ألا تذهب إلى هناك ولكن لا يمكن لأحد أن يمنع القدر. كانت تعلم جيدًا حقوق زوجها عليها وواجبها نحوه؛ لذلك كانت ستتبعه حتى آخر العالم.»

وفي بيشاور، وضعت عزة مولودة أخرى أطلقوا عليها نبيلة، اسم والدة عزة، وكان ذلك في عام ١٩٨٦م، وفي العام التالي وضعت مولودة رابعة وهي خديجة. وفي عام ١٩٨٨م، ولد ابن الظواهري الوحيد محمد، ومن ثَمَّ حاز أيمن أخيرًا شرف أن يطلق عليه أبو محمد. وقد جاءت نبيلة لتزورهم للمرة الأخيرة بعد ذلك بوقت قصير، ولن تنسى أبدًا مشهد عزة وبناتها وهن ينتظرنها في المطار مرتديات الحجاب ويبتسمن لها، وقد كانت تلك هي المرة الأخيرة التي تراهم فيها.

كان بن لادن يأتي في بعض الأحيان لإلقاء محاضرات في المستشفى التي يعمل بها أيمن الظواهري. ومع أنه كان لكل منهما أهداف مختلفة في الحياة في ذلك الوقت، فقد كان لديهما كثير من القواسم المشتركة التي قربت بينهما. فقد كان كل منهما رجلًا عصريًّا ينتمي إلى الطبقة المتعلمة المثقفة التي على وعي كبير بالتكنولوجيا الحديثة، على الرغم من آرائهما الدينية الأصولية. وكان كل منهما شخصية متميزة وناجحًا في حياته؛ فمنذ عمر مبكر، تمكن بن لادن من إدارة فرق كبيرة من العمال في مشروعات إنشاء معقدة، وكان لا يواجه أية متاعب في التعامل مع عالم الأوساط المالية العليا. أما الظواهري، الذي يكبره بسبع سنوات، فقد كان جرّاحًا منغمسًا في دراسة العلم

الحديث والتكنولوجيا الطبية. وكان كل منهما ينتمي إلى عائلة مشهورة في جميع أنحاء العالم العربي، وكانا هادئي الحديث وعلى قدر كبير من الزهد والورع، وكل منهما يختنق من القيود التي يفرضها عليه النظام السياسي في بلده.

لقد لبى كل منهما حاجة لدى الآخر؛ فالظواهري كان يحتاج إلى التمويل والعلاقات، وهي المميزات التي تتوافر بغزارة لدى بن لادن. وكان بن لادن، الشخص المثالي الذي كرس نفسه للدفاع عن قضايا معينة، يحتاج إلى تحديد الاتجاهات وهو ما قدمه له أيمن الظواهري الذي كان مروِّجًا متمرسًا لأفكاره. إنهما لم يكونا صديقين، بل حليفين يرى كل منهما أنه يستطيع استخدام الآخر والاستفادة منه، وكان كل منهما يتعرض للجذب كي يسير في طريق لم ينوِ أبدًا السير فيه. فالمصري لم يكن لديه أي اهتمام بأفغانستان سوى أنها تصلح أن تكون مقرًّا للإعداد لثورة في بلده؛ فخطط لاستخدام الجهاد الأفغاني كفرصة لجمع شتات منظمته الممزقة. وقد وجد في بن لادن راعيًا ثريًّا لين العريكة وذا شخصية جذابة يلتف حولها الناس. أما الشاب السعودي فقد كان سلفيًّا مخلصًا لعقيدته ولكنه لم يكن مفكرًا سياسيًّا، فحتى مقابلته للظواهري، لم يكن قد تحدث قط عن معارضته لحكومة بلده أو لأي نظام عربي قمعي آخر. لقد كان اهتمامه الرئيسي منصبًّا على طرد الغزاة الكافرين من أرض المسلمين، ولكن كان بداخله شوق دفين لمعاقبة أمريكا والغرب على ما رأى أنه جرائم ضد الإسلام. لقد جعلت ديناميكا علاقة الظواهري وبن لادن منهما شخصيتين لم يكونا أبدًا ليصلا إليهما كل على حدة. بالإضافة إلى ذلك، ستكون المنظمة التي سيقومان بإنشائها، القاعدة، موجهة بهاتين القوتين: المصرية والسعودية. وسيكون على كل منهما التنازل قليلًا لكي يتماشى مع أهداف الآخر، ومن ثم ستسلك القاعدة طريقًا فريدًا؛ ألا وهو الجهاد العالمي.

وفي إحدى محاضراته في المستشفى، تحدث بن لادن عن ضرورة مقاطعة المنتجات الأمريكية كوسيلة لمساندة القضية الفلسطينية. ولكن الظواهري حذره من أن مهاجمة أمريكا تعني الدخول إلى منطقة الخطر، وقال له: «من الآن يجب أن تغير طريقة حراستك، بل ويجب أن تغير نظام أمنك بالكامل، فإن رأسك من الآن أصبح مطلوبًا من الأمريكان واليهود وليس الشيوعيين والروس فقط. فأنت الآن تضرب الأفعى على رأسها.»

ولكي يدعم الظواهري اقتراحه، فقد قدم إلى بن لادن مجموعة شديدة التنظيم من المجاهدين الذين كانوا مختلفين عن المراهقين والمنشقين الذين يمثلون الغالبية

twitter @baghdad_library

العظمى من الجالية الأفغانية العربية. فقد كان مجندو الظواهري أطباء ومهندسين وجنودًا، وكانوا معتادين على العمل السري، بل وتعرض الكثيرون منهم للسجن ودفع ثمنًا باهظًا لمعتقداته. وهؤلاء الرجال هم من سيصبحون قادة تنظيم القاعدة.

في فبراير/شباط من عام ١٩٨٨م في أثناء سقوط الثلوج، وصل مخرج الأفلام المصري عصام دراز ومعه فريق عمله الذي جمعه على عجالة إلى معسكر المأسدة. كان المجاهدون الذين يحرسون مدخل الكهف الرئيسي الذي يقع تحت منحدر صخري ناتئ؛ يحملون على أكتافهم أحزمة الرصاص والذخيرة وبنادق من طراز كلاشينكوف، وقد أقلقتهم كثيرًا رؤية كاميرات الفيديو. فأوضح لهم دراز أنه حصل على تصريح من بن لادن لزيارة المأسدة وتصوير فيلم عن العرب، ولكنه أجبر هو وطاقمه على الانتظار في الخارج في ذلك الجو القارس لمدة ساعة كاملة. وأخيرًا، جاء أحد الحراس وأخبرهم أن دراز وحده سيدخل، في حين سينتظر فريقه في الخارج، ولكن دراز رفض بسخط قائلًا: «إما أن ندخل جميعًا أو نبقى جميعًا في الخارج.»

وفي غضون دقائق قليلة، ظهر أيمن الظواهري، وعرفهم بنفسه على أنه الدكتور عبد المعز، واعتذر عن أسلوب الترحيب الجاف الذي قوبلوا به، ودعاهم للدخول لتناول بعض الخبز واحتساء الشاي. وفي تلك الليلة، نام دراز على أرض الكهف بجوار الظواهري الذي كان موجودًا هناك للإشراف على بناء مستشفى في أحد الأنفاق.

أقام المصريون في معسكر خاص بهم داخل المأسدة، وقد أدرجهم بن لادن على قائمة المرتبات التي يدفعها، وكان يعطي كلًّا منهم ٤٥٠٠ ريال سعودي (أي ١٢٠٠ دولار تقريبًا) شهريًّا للإنفاق على عائلاتهم. وكان من بين المصريين مجاهد اسمه أمين علي الرشيدي، الذي أصبح اسمه الجهادي أبا عبيدة البنشيري. كان أبو عبيدة ضابط شرطة سابق، وقد اشترك شقيقه في عملية اغتيال السادات. وقد قدمه الظواهري إلى بن لادن الذي وجده شخصًا ليس له مثيل، حتى إنه جعله القائد العسكري للعرب. وكان أبو عبيدة قد اشتهر بالفعل بشجاعته في أرض المعركة، حيث قاتل في البداية تحت لواء سياف ثم انتقل ليقاتل تحت لواء بن لادن. وقد شُهد له بالفضل في ذلك النصر الوهمي الذي حققه العرب على السوفييت قبل عدة أشهر، وقد بدا لدراز خجولًا وكأنه طفل. ويأتي بعد أبي عبيدة في القيادة، ضابط شرطة سابق أيضًا أسمر البشرة وله عينان خضراوان لامعتان اسمه محمد عاطف، أو أبو حفص كما صارت كنيته.

وكان قد وصل منذ وقت قريب إلى الحصن رجل حاد الطباع متقلب المزاج اسمه محمد إبراهيم مكاوي متوقعًا أن يصبح القائد العسكري للأفغان العرب؛ نظرًا لخبرته كعقيد في القوات الخاصة في الجيش المصري. وكان مكاوي رجلًا ضئيل الجسم أسمر البشرة، ومع أنه كان محاطًا بالأصوليين الذين يطلقون لحاهم، فقد حافظ هو على هيئته العسكرية ووجهه الحليق. ويقول دراز: «لقد كان العرب الآخرون يكرهونه كثيرًا لأنه يتصرف كضابط.» وقد أثار انتباه بعضهم أنه كان مضطرب العقل على نحو خطير؛ فقبل أن يغادر القاهرة عام ١٩٨٧م، كان يفكر فيما إذا كان عليه السفر إلى الولايات المتحدة والانضمام إلى الجيش الأمريكي أو الذهاب إلى أفغانستان وإعلان الجهاد. وفي الوقت نفسه، أخبر مشرِّعًا مصريًّا عن خطة لضرب مبنى البرلمان المصري بطائرة. وقد يكون مكاوي هو نفسه الرجل الذي يحمل الاسم المستعار سيف العدل، ولم يجمعه مع الظواهري سوى عزمهما المشترك على الإطاحة بالحكومة المصرية.

أصبح دراز أول كاتب سيرة ذاتية لبن لادن، وسريعًا ما لاحظ كيف أن المصريين يحاصرون الشاب السعودي المذعن بصورة مثيرة للفضول، الذي كان نادرًا ما يغامر بالإدلاء بوجهة نظر خاصة به، بل كان يفضل أن يطلب آراء المحيطين به. وقد أثار تواضع بن لادن وسذاجته الواضحة رغبة لدى الجميع في حمايته، ومنهم دراز نفسه. ويزعم دراز أنه حاول أن يتحدث إلى بن لادن ليعكس تأثير أبناء وطنه عليه، ولكنه كلما حاول أن يتحدث إليه على انفراد، أحاط المصريون بالشاب السعودي واصطحبوه إلى غرفة أخرى. لقد كان لكل منهم خطط بشأنه، ورأى دراز أن بن لادن من الممكن أن يكون «أيزنهاور آخر» بتحويل أسطورته التي نشأت أيام الحرب إلى حياة سياسية سلمية، ولكن لم تكن هذه خطة الظواهري.

في مايو/أيار من عام ١٩٨٨م، بدأ السوفييت ينفذون خطة للانسحاب التدريجي من أفغانستان مشيرين بذلك إلى انتهاء الحرب. وببطء بدأت مدينة بيشاور تعود إلى شكلها الحقيقي الرث، وبدأ قادة المجاهدين الأفغان يملئون مخازنهم بالأسلحة ويستعدون لمواجهة عدو جديد لا مفر منه؛ أي بعضهم بعض.

وكان بن لادن ومن يقف وراءه من المصريين ينظرون إلى المستقبل أيضًا محاولين استكشافه. فكان الظواهري والدكتور فضل يمدان بن لادن دائمًا بتقارير تفصيلية تحدد المنظور «الإسلامي» الذي عكس ميولهم التكفيرية. وقد حدث ذات مرة في ذلك

twitter @baghdad_library

الوقت، أن أحد أصدقاء بن لادن المقربين جاء لزيارته في مدينة بيشاور، فقيل له إن بن لادن مشغول لأن «الدكتور أيمن يعطيه درسًا في كيفية أن يصبح قائد منظمة عالمية.»

وفي حين كان الظواهري يعد بن لادن للدور الذي رسمه له، كان يسعى في الوقت نفسه أيضًا إلى الحد من تأثير الشيخ عبد الله عزام عليه؛ حيث كان الشيخ أكبر منافس له في الاستحواذ على اهتمام بن لادن. وقد اشتكى عزام ذات مرة لزوج ابنته عبد الله أنس قائلًا: «لا أدري ما الذي يفعله بعض الأشخاص هنا في بيشاور، إنهم يتحدثون بالسوء عن المجاهدين، وليس لهم هدف إلا إشعال الفتنة بيني وبين المتطوعين.» وقد ذكر الشيخ اسم الظواهري كأحد الذين يثيرون المتاعب.

أدرك عزام أن مفهوم التكفير هو الخطر الحقيقي الذي يحدق بالمجتمع، فقد كانت هذه البدعة التي أصابت الجالية الأفغانية العربية تنتشر وتهدد بإفساد النقاء الروحي للجهاد والقضاء عليه. وكان عزام يرى أن الجهاد يكون ضد الكفار وليس داخل مجتمع المسلمين، بغض النظر عن مدى تمزقه. وأصدر فتوى تعارض تدريب الإرهابيين بالأموال التي جمعت لمساندة المقاومة الأفغانية، وكان يعظ الناس أن القتل العمد للمدنيين، ولا سيما النساء والأطفال، مناف للإسلام.

ومع ذلك، كان عزام نفسه يؤيد فكرة تكوين «طليعة رائدة» كتلك التي نادى سيد قطب بتكوينها؛ فقد كتب في أبريل/نيسان من عام ١٩٨٨م: «وهذه الطليعة تمثل «القاعدة» الصلبة للمجتمع المأمول.» وعلى هذه القاعدة، سيبنى المجتمع الإسلامي المثالي، وكان يرى أن أفغانستان ما هي إلا نقطة البداية، فيكتب: «سنواصل الجهاد مهما طال الطريق حتى آخر نفس يجري، وآخر عرق ينبض، أو نرى دولة إسلامية قائمة.» وشملت مواقع مسيرة الجهاد في المستقبل الجمهوريات السوفييتية الجنوبية والبوسنة والفلبين وكشمير وآسيا الوسطى والصومال وإريتريا وأسبانيا؛ أي الرقعة التي تكونت عليها الإمبراطورية الإسلامية التي كانت عظيمة في يوم من الأيام.

وعلى أية حال، تأتي فلسطين في المقدمة، لذا فقد ساعد عزام في إنشاء حركة المقاومة الفلسطينية حماس التي رأى أنها الامتداد الطبيعي للجهاد في أفغانستان. ونظرًا لأن حركة حماس كانت قائمة على مبادئ الإخوان المسلمين، فقد كان الهدف من إنشائها هو تكوين قوة إسلامية مقابلة لمنظمة التحرير الفلسطينية العلمانية التي أنشأها ياسر عرفات. وقد سعى عزام لتدريب فرق من مقاتلي حماس في أفغانستان؛ ليعودوا مرة أخرى إلى فلسطين ويحملوا راية الجهاد ضد إسرائيل.

ولكن جاءت خطط عزام لفلسطين متناقضة مع عزم الظواهري على إشعال الثورة في الدول الإسلامية، ولا سيما مصر، في حين عارض عزام بشدة أن يشن المسلمون حربًا ضد المسلمين. وفي الوقت الذي كانت فيه نار الحرب ضد السوفييت تخمد، كان النزاع حول مستقبل الجهاد يتحدد على يد هذين الرجلين قويي الإرادة. وكانت الجائزة التي يناضلون للفوز بها هي الشاب السعودي الثري الذي يسهل التأثير عليه، والذي كانت لديه أحلامه الخاصة أيضًا.

ماذا كان بن لادن يريد؟ في الواقع، لم يكن بن لادن يشارك الظواهري أو عزام أولوياتهما، فمع أن مأساة فلسطين كانت موضوعًا متكررًا في أحاديثه، فقد كان يعارض المشاركة في الانتفاضة ضد إسرائيل. وعلى غرار عزام، كان بن لادن يكره ياسر عرفات لأنه كان علمانيًّا، ولم يستسغ فكرة شن حرب ضد الحكومات العربية. وفي ذلك الوقت، كان يفكر في نقل أرض المعركة إلى كشمير والفلبين وبصفة خاصة جمهوريات آسيا الوسطى حيث يمكنه استكمال الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي. ومن الواضح أن الولايات المتحدة لم تكن بعد على قائمة أي منهم، فالطليعة التي يسعى إلى تكوينها كانت موجهة في المقام الأول إلى قتال الشيوعية.

وقد كان الحادي عشر من أغسطس/آب من عام ١٩٨٨م يومًا حاسمًا في مدينة بيشاور، حيث طلب الشيخ عبد الله عزام عقد اجتماع لمناقشة مستقبل الجهاد، وقد حضر الاجتماع بن لادن وأبو حفص وأبو عبيدة وأبو هاجر والدكتور فضل ووائل جليدان. ويجمع هؤلاء الرجال معًا المرور بتجارب غير مألوفة، ولكنهم كانوا مختلفين بشدة فيما يخص أهدافهم وفلسفاتهم. وكان أحد أهداف عزام التأكد من أنه في حالة نشوب حرب أهلية أفغانية، فإن العرب لن يشتركوا فيها، وثبت أن نظريته السابقة المتمثلة في توزيع العرب بين القادة المختلفين ستكون كارثة إذا ما بدأ الأفغان يحارب بعضهم بعضًا. وأصبح يوافق بن لادن على ضرورة تأسيس مجموعة عربية منفصلة، مع أنهما كانا يختلفان على الاتجاه الذي يجب أن تسلكه هذه المجموعة. أما التكفيريون أبو حفص وأبو عبيدة وفضل، فقد كانت تسيطر عليهم الرغبة في الاستيلاء على الحكم في مصر، ولكنهم أرادوا أن تكون لهم كلمة في القرار الأخير. أما أبو هاجر، الكردي العراقي، فكان دائم الارتياب بالمصريين ويميل لمعارضتهم من الأساس، ولكنه كان أكثرهم دراية بأمور القتال، وكان من الصعب معرفة أي من الجانبين سيساند. ومع أن عزامًا ترأس الاجتماع، فقد كانت جميع

twitter @baghdad_library

التعليقات موجهة لبن لادن لأن الجميع كانوا يعرفون جيدًا أن مصير الجهاد في يديه وليس أيديهم.

وطبقًا للملحوظات الغامضة التي دونها أبو رضا بخط يده عن الاجتماع، بدأ المجتمعون حديثهم بثلاث نقاط رئيسية:

أ – هل سألت الشيخ عبد الله رأيه؟

← حيث إنهم يعرفون أن الجماعة العسكرية للشيخ قد انتهت.

ب – هذا المشروع المستقبلي في مصلحة الإخوة المصريين.

ج – المرحلة التالية هي العمل الخارجي.

← الخلاف موجود.

← الأسلحة متوفرة.

أدرك الرجال أنه قد مر أكثر من عام على إنشاء المأسدة، ولكنها لم تتعد كونها معسكر تدريب، ولا يزال العرب مستبعدين من الصراع الحقيقي. وقد اعترف الرجال أن تعليم الشباب أمر مهم، ولكن الوقت حان لاتخاذ الخطوة التالية. ويكتب أبو رضا في ملحوظاته القصيرة: «يجب أن نركز على الفكرة الأصلية التي أتينا هنا من أجلها. وكل هذا يعني أن نبدأ مشروعًا جديدًا من لا شيء.»

وردًّا على ذلك، قال بن لادن، الذي أصبح يحمل لقب شيخ احترامًا لمكانته المتزايدة بين العرب، وهو يفكر مليًا في تجربته في أفغانستان حتى ذلك الوقت: «أنا مجرد شخص واحد. إننا لم نبدأ منظمة أو جماعة إسلامية. ولقد مر عام ونصف؛ وقت للتعليم وبناء الثقة واختبار الإخوة الذين جاءوا، ولإثبات أنفسنا أمام العالم الإسلامي. ومع أني بدأت كل هذا في أحلك الظروف وفي مثل هذه المدة الوجيزة، فإننا أحرزنا مكاسب عظيمة.» لم يعترف بن لادن بأي فضل لعزام، الأب الحقيقي للأفغان العرب، لقد أصبحت المعركة بطولة خالصة لبن لادن. وللمرة الأولى تظهر في صوته تلك النبرة البطولية التي بدأت تميز أحاديثه بعد ذلك — نبرة رجل أصبح في قبضة القدر.

استكمل بن لادن حديثه مشيرًا إلى الموضوع المثير للجدل للكثير من أتباعه: «وفيما يخص إخواننا المصريين، فلا يمكننا تجاهل وقفتهم معنا في أحلك الأوقات.»

بعد ذلك قال أحد الرجال: إنه مع أن الأهداف الأساسية للعرب لم تتحقق بعد، «فإننا عملنا بجميع ما أتيح لنا ... ولكننا أضعنا الكثير من الوقت.»

فأجابه بن لادن بأسلوب قد يكون دفاعيًّا: «لقد تقدمنا بصورة جيدة» ثم أشار إلى «الشباب المدرب المطيع المخلص» والجاهز للانتفاع به.

ومع أن الملاحظات لا تشير إلى هذا، فقد أجري تصويت لتشكيل منظمة جديدة تهدف إلى استمرار الجهاد بعد خروج السوفييت. ومن الصعب تخيل أن هؤلاء الرجال قد اتفقوا على شيء، ولكن لم يصوت ضد الجماعة الجديدة سوى أبي هاجر. وقد لخص أبو رضا الاجتماع قائلًا: إن من الضروري وضع خطة في إطار زمني مناسب والعثور على أشخاص مؤهلين لتنفيذ الخطة: «التقدير المبدئي: في ستة أشهر من تأسيس القاعدة، سيكون هناك ٣١٤ من الإخوة مدربين ومتأهبين للعمل.» لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يُذكر فيه اسم القاعدة بالنسبة لمعظم من حضروا الاجتماع وسيجري اختيار أعضاء التنظيم الجديد من أفضل المجندين بين الأفغان العرب. ولكن لم يكن واضحًا آنذاك ما دور المنظمة الجديدة أو أين ستذهب بعد الجهاد، وربما بن لادن نفسه لم يكن يعرف في ذلك الوقت.

عدد قليل فقط ممن كانوا في الغرفة كانوا يعرفون أن القاعدة قد تأسست سرًّا منذ بضعة أشهر على يد مجموعة صغيرة من العناصر القيادية المقربة من بن لادن. وقد انضم مدني الطيب، صديق بن لادن من جدة وزوج واحدة من بنات إخوته، إلى الجماعة في السابع عشر من مايو/أيار بعد رمضان، لذا فإن ذلك الاجتماع التنظيمي في الحادي عشر من أغسطس/آب قد أخرج إلى السطح ما كان موجودًا سرًّا بالفعل.

وفي صباح يوم السبت الموافق عشرين من أغسطس/آب، اجتمع هؤلاء الرجال مرة أخرى لتأسيس ما أطلقوا عليه القاعدة العسكرية. وقد سجل أمين السر في محضر وقائع الجلسة: «القاعدة المذكورة هي في الأساس تنظيم إسلامي هدفه رفع كلمة الله ونصرة دينه.» وقد قسم المؤسسون العمل العسكري، كما أطلقوا عليه، إلى جزأين: الأول «محدود الأمد» ويجري فيه تدريب العرب ووضعهم مع المجاهدين الأفغان حتى انتهاء الحرب، و«مفتوح الأمد» وفيه «يدخل المتدربون معسكر اختبار لاختيار أفضلهم.» وخريجو المعسكر الثاني سيصبحون أعضاء التنظيم الجديد: القاعدة.

وقد وضع أمين السر قائمة بالشروط التي يجب وجودها في مَن يسعون للانضمام إلى التنظيم الجديد:

- أن يكونوا أعضاء في المعسكر مفتوح الأمد.
- السمع والطاعة.

twitter @baghdad_library

- حسن الخلق.
- شهادة مصدر موثوق به.
- طاعة قوانين وتعليمات القاعدة.

بالإضافة إلى ذلك، كتب المؤسسون قسمًا يتلوه الأعضاء الجدد عند انضمامهم إلى تنظيم القاعدة: «أقسم بالله العلي العظيم أن أسمع أوامر رؤسائي القائمين على هذا العمل وأطيعهم بهمة وحماسة، وأن أهب للمساعدة في أوقات العسر واليسر.»

ويكتب أمين السر: «انتهى الاجتماع مساء يوم السبت الموافق ١٩٨٨/٨/٢٠م. وسيبدأ عمل القاعدة في ١٩٨٨/٩/١٠م، في مجموعة تتكون من خمسة عشر أخًا.» وفي أسفل الصفحة أضاف أمين السر: «حتى تاريخ ٩/٢٠، جاء القائد أبو عبيدة لكي يخبرني بوجود ثلاثين أخًا في القاعدة يستوفون الشروط، والحمد لله.»

لم يربط أسامة بن لادن معنى معين باسم التنظيم الجديد، وقد قال بعد ذلك: «أقام الأخ أبو عبيدة البنشيري، رحمه الله، معسكرًا لتدريب الشباب على القتال ضد الاتحاد السوفييتي المستبد الملحد الإرهابي. وأطلقنا على المكان اسم القاعدة، حيث إنه كان قاعدة تدريب، ومن هنا جاء الاسم.»

تباينت ردود أفعال رفاق بن لادن حول تأسيس القاعدة مختلفة. فعلى سبيل المثال، يزعم أبو رضا السوري، مجاهد مدينة كنساس، أنه حين سمع للمرة الأولى عن الفيلق العربي العالمي الذي يقوم بن لادن بتأسيسه؛ سأله مشككًا عن عدد الذين انضموا إليه، فأجابه بن لادن كذبًا: «ستون.» فعاد أبو رضا ليسأله: «وكيف ستقوم بنقلهم؟ على طائرات الخطوط الجوية الفرنسية؟»

ولقد أعطى تأسيس القاعدة شيئًا جديدًا للأفغان العرب ليتصارعوا عليه؛ فقد كانت كل مؤسسة جديدة تظهر في ذلك المحيط الثقافي غير المأهول موضعًا للنزاع، وأي رأس يرتفع فوق الحشد يصبح هدفًا. وأصبح الجهاد الدائر في أفغانستان يحتل المرتبة الثانية في حرب الكلمات والأفكار الدائرة في المساجد. حتى مكتب الخدمات، الذي أسسه بن لادن وعزام لغرض نبيل هو مساعدة العرب في تحقيق رغبتهم في الانضمام إلى الجهاد، تعرض لتشويه صورته واتُهِم بأنه واجهة للمخابرات المركزية الأمريكية، واتُهم الشيخ عزام بأنه جاسوس أمريكي.

ووراء تلك الصراعات يقف المتهم التقليدي: المال. لقد كانت بيشاور الأنبوب الذي تتدفق منه النقود إلى الجهاد ومجهودات الإغاثة الضخمة لمساعدة اللاجئين. وعندما بدأ السوفييت يستعدون للرحيل، بدأ المصدر الرئيسي للتمويل، أي مئات الملايين

من الدولارات التي تصل من الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية وتوزعها المخابرات الباكستانية كل عام على جنرالات الحرب الأفغان، ينضب. وقد جعلت قلة التمويل القادة الطماعين والمتلهفين للحصول على النقود يلتفتون إلى المصادر الأخرى المتبقية؛ أي منظمات الإغاثة الدولية والصدقات الخاصة، ومحفظة بن لادن.

ومنذ البداية، رأى المصريون الذين كانوا يتولون توجيه بن لادن أن الشيخ عزام عقبة هائلة في طريقهم؛ فلم يكن هناك شخص آخر بين العرب يتمتع بتلك المكانة. فلقد كان معظم الشباب الذين انجذبوا للجهاد، يستجيبون لفتواه وكانوا ينظرون إليه بهيبة وإجلال. ويقول عنه عبد الله أنس، مساعده السابق الذي تزوج من ابنته فقط ليكون قريبًا من معلمه: «لقد كان ملاكًا؛ يقضي ليله بالكامل في التعبد، ويبكي من خشية الله، ويكثر من الصوم.» وفي نظر معظم العرب الذين كانوا يعبرون بيشاور، كان عزام أشهر رجل قابلوه في حياتهم. ولقد قضى الكثيرون، ومنهم بن لادن نفسه، أول أيامهم في بيشاور ينامون في منزله، وكانوا يتحدثون بطريقة تثير المشاعر عن حكمته وكرمه وشجاعته. لقد أصبح يمثل الروح النبيلة للأفغان العرب، وبلغت شهرته وسمعته آفاقًا عالية. ومن ثم، فإن تدمير رمز بهذا الصيت سيكون عملًا غادرًا.

ولم يكن المصريون وحدهم هم من يريدون التخلص من عزام، فلقد شعر السعوديون أيضًا بالقلق من أن يحول هذا القائد جذاب الشخصية الجهاديين الشباب إلى جماعة الإخوان المسلمين. فقد أرادوا «كيانًا مستقلًّا» يديره شخص سعودي يمكنهم أن يثقوا به لإدارة شئون المجاهدين مع وضع مصلحة المملكة في الاعتبار. وكانوا ينظرون إلى القاعدة على أنها بديل سلفي مناسب يديره ابن مخلص للنظام السعودي هو بن لادن.

في ذلك الوقت كان عبد الله أنس، أفضل نموذج للأفغان العرب المقاتلين، قد عاد لتوه إلى بيشاور بعد أن قاتل إلى جوار أحمد شاه مسعود في شمال أفغانستان. وقد ذُهِل عندما علم أن من المقرر عقد اجتماع بين القادة العرب لاختيار بديل لحميه الشيخ عبد الله عزام. وعندما تحدث إليه أنس عن الأمر، أكد له عزام أن تلك الانتخابات صورية فقط لتجميل صورة الأفغان العرب، وشرح له قائلًا: «إن السلطات السعودية غير راضية عن حقيقة أني قائد العرب في أفغانستان. وجميع النقود التي تأتي لليتامى والأرامل وبناء المدارس تأتي من المملكة العربية السعودية، وهم غير سعداء لرؤية الشباب السعودي يُنظَّم تحت قيادتي، ويخشون أن يصبحوا

twitter @baghdad_library

جزءًا من الإخوان المسلمين.» لقد أراد السعوديون أن يكون القائد واحدًا منهم، وقال عزام: إنه مع وجود شخص مثل أسامة بن لادن في منصب الأمير، فإنهم سيشعرون بالأمان، وأردف قائلًا: «سيهدئون لأنهم عندما يشعرون أن أسامة قد خرج عن سيطرتهم، فبإمكانهم إيقافه، أما أنا ففلسطيني لا يملك أي منهم أن يوقفني.»

وقد تكبد عزام مشقة أكبر في إقناع صديقه القديم الشيخ تميم بدعم الاقتراح. ومع أن عزامًا قد أخبره أن الانتخابات مجرد لعبة تمثيلية لإرضاء السلطات السعودية، فقد كان من الواضح أن الرجال الآخرين في الاجتماع لديهم أجندة عمل مختلفة. فقد استغلوا هذه الفرصة لتشويه سمعة الشيخ عزام واتهامه بالسرقة والفساد وسوء إدارة مكتب الخدمات. فثارت ثائرة الشيخ تميم والتفت إلى بن لادن قائلًا: «قل شيئًا»، فأجابه الأخير: «أنا أمير هذا الاجتماع، انتظر حتى يحين دورك.»

بدأ الشيخ تميم يبكي وهو يقول: «من أخبرك أنك أميري؟ لقد أقنعني الشيخ عبد الله بمساندتك، ولكن كيف تترك هؤلاء الأشخاص يقولون هذه الأشياء؟» ورفض الشيخ تميم المشاركة في التصويت الذي أسفر عن اختيار بن لادن ليكون القائد الجديد للعرب بالإجماع. جاء رد فعل عزام فلسفيًّا وبدا غير مهتم بالأمر ظاهريًّا، فقد طمأن مؤيديه قائلًا: «إن أسامة محدود، ماذا يمكنه أن يفعل لتنظيم الناس؟ لا أحد يعرفه، لا تقلقوا.»

ولكن كان موقف عزام يضعف أكثر مما يدرك هو نفسه؛ فقد قام أحد رجال الظواهري يدعى أبو عبد الرحمن، مواطن كندي من أصل مصري، بتقديم شكوى ضد عزام. وكان أبو عبد الرحمن يرأس مشروعًا طبيًّا وتعليميًّا في أفغانستان، وادعى أن رجال عزام قد انتزعوا المشروع من يديه عن طريق مصادرة النقود التي كانت مخصصة لمشروعه. واتهم عزامًا أيضًا بترويج إشاعات بأن أبا عبد الرحمن يحاول بيع المشروع الإنساني إلى السفارة الأمريكية أو إلى مؤسسة مسيحية.

أثارت هذه الاتهامات ضجة في بيشاور، فوزعت الإعلانات وعلقت الملصقات على الحوائط تطالب بمحاكمة عزام، واندلعت الخلافات في المساجد بين معسكرات المؤيدين المختلفة. وكان الأطباء التكفيريون في مستشفى الهلال الأحمر الكويتي؛ أي الظواهري وزملاؤه، هم من يقفون وراء الاتهامات التي قذف بها عزام. وكانوا قد تمكنوا بالفعل من التخلص منه كإمام لمسجد المستشفى، ويترقبون بابتهاج لحظة سقوطه، وقد قال الدكتور أحمد الود الجزائري في أحد الاجتماعات: «قريبًا سنرى يد عبد الله عزام تُقطع في بيشاور.»

ولقد شكلوا محكمة لسماع الاتهامات أدى فيها الدكتور فضل دور المدعي والقاضي. وقد عقدت هذه المحكمة التكفيرية من قبل للبت في قضية مجاهد آخر أدانوه بالردة، وقد عُثِر بعد ذلك على جثته مقطعة داخل حقيبة من الخيش في أحد شوارع مدينة بيشاور.

وبعد منتصف ليل اليوم الثاني من المحاكمة، هرع بن لادن ليأتي بأقرب صديق سعودي له وهو وائل جليدان الذي كان طريح الفراش يعاني الارتجاف والحمى الشديدة لأنه كان مريضًا بالملاريا. ولكن بن لادن أصر أن يأتي جليدان على الفور وقال: «لا يمكننا أن نثق بالمصريين. وأقسم بالله أنه لو تسنت لهم الفرصة لإصدار حكم ضد الدكتور عبد الله عزام، ليقتلنه.» فتبع جليدان بن لادن عائدين إلى الاجتماع الذي استمر لساعتين أخريين. أدانت المحكمة عزامًا وأمرت بإعادة أموال التبرعات إلى أبي عبد الرحمن، ولكن بفضل تدخل بن لادن، فإنهم لم يقوموا بتشويه صورة الشيخ أمام العامة. وعلى أية حال، لم يكن هذا الحكم حاسمًا في نظر أعداء عزام، لأنه سمح له بالبقاء رئيسًا صوريًّا في حين أنهم عقدوا العزم على التخلص منه نهائيًّا.

في الخامس عشر من فبراير/شباط من عام ١٩٨٩م، عبر الجنرال بوريس جروموف Boris Gromov، قائد القوات السوفييتية في أفغانستان، جسر الصداقة إلى أوزباكستان، وقد قال الجنرال: «لم أترك خلفي جنديًّا أو ضابطًا سوفييتيًّا واحدًا، هذه هي نهاية السنوات التسع التي قضيناها هنا.» خسر السوفييت في هذه الحرب خمسة عشر ألف جندي، وأصيب أكثر من ثلاثين ألفًا آخرين. وعلى الجانب الآخر، قُتل ما بين مليون أو اثنين من الأفغان، ٩٠٪ منهم تقريبًا من المدنيين، ودُمرت قرى ومحاصيل وماشية، وتناثرت الألغام في كل شبر من أرض البلاد. وثلث السكان الأفغان أصبحوا لاجئين في معسكرات إما في باكستان أو إيران. وعلى كل حال، فقد ظلت الحكومة الشيوعية الأفغانية قائمة في كابول، ودخل الجهاد مرحلة جديدة حرجة.

تزامن انتهاء الاحتلال مع التدفق المفاجئ والمذهل للمجاهدين العرب، ومنهم مئات السعوديين الذين كانوا متلهفين لمطاردة الدب الروسي المتقهقر. وطبقًا لإحصائيات الحكومة الباكستانية، جاء أكثر من ستة آلاف عربي للمشاركة في الجهاد فيما بين عامي ١٩٨٧م و١٩٩٣م، وهو ضعف عدد من جاءوا للقتال ضد الاحتلال السوفييتي. ولكن كان هؤلاء الشباب مختلفين عن تلك المجموعة الصغيرة من المؤمنين الذين

twitter @baghdad_library

أغراهم عبد الله عزام بالقدوم إلى أفغانستان. ويصفهم أحد كتاب يوميات القاعدة بأنهم «رجال لديهم أموال طائلة ومشاعر جياشة.» وكان فتيان مدللون من الخليج الفارسي يأتون في رحلات قصيرة ويمكثون في حاويات شحن مكيفة، ويحصلون على أسلحة أر بي جي وكلاشينكوف، التي كانوا يطلقونها في الهواء ثم يعودون إلى بلادهم ويتفاخرون بمغامرتهم. والكثيرون منهم كانوا من طلاب المدارس الثانوية أو الجامعات الذين نمت لديهم النزعة الدينية حديثًا وليس لهم تاريخ في الجهاد أو عملوا تحت إمرة قائد يشهد لهم. وبعد أن تولى أسامة بن لادن زمام القيادة زادت بشدة الفوضى والهمجية التي كانت دائمًا تهدد بالسيطرة على الحركة. فأصبحت سرقة البنوك وحوادث القتل منتشرة أكثر من ذي قبل مبررة بادعاءات دينية منافية للعقل، حتى إن مجموعة من التكفيريين احتجزوا شاحنة من إحدى وكالات الإغاثة الإسلامية مبررة ذلك بأن السعوديين كافرون.

وبعد أن أصبح أسامة بن لادن أمير العرب، ترفع بنفسه عن المنافسات الهمجية على المجندين بين الجماعات الإسلامية المتناحرة التي كانت تتدافع في المطار وهي تحاول جذب الوافدين الجدد للركوب في الحافلات التابعة لها. وقد كانت هذه النزاعات شديدة وغير نزيهة بصورة خاصة بين المصريين؛ فقد أقامت المنظمتان المصريتان الرئيسيتان، الجماعة الإسلامية بقيادة الشيخ عمر عبد الرحمن والجهاد بقيادة أيمن الظواهري، منازل متنافسة لاستقبال المقاتلين الوافدين، وبدأت كل جماعة تنشر مجلات ومنشورات لا هدف من ورائها سوى التشهير بالجماعة الأخرى. ومن بين الاتهامات التي وجهتها الجماعة الإسلامية للظواهري أنه باع أسلحة في مقابل ذهب وضعه في حساب في بنك سويسري وأنه عميل للأمريكيين، أي التهمة العالمية بالخيانة. وفي المقابل، نشر الظواهري كتيبًا يهاجم فيه الشيخ عمر تحت عنوان «القائد الضرير»، يلخص فيه المشاحنات التي كانت تدور بينهما في السجن المتعلقة بقيادة الحركة الإسلامية المتطرفة. والسبب غير المعلن وراء هذا الوابل من الاتهامات التشهيرية هو من سيتحكم في بن لادن؛ الدجاجة السعودية التي تبيض ذهبًا. ولكن بن لادن أعلن عن اختياره بالفعل عندما منح جماعة الجهاد مائة ألف دولار لتبدأ عملياتها.

وفي غضون ذلك، كانت هناك معركة جديدة تبدأ في جلال أباد، التي تعد نقطة الدخول الاستراتيجية على الجانب الأفغاني من ممر خيبر حيث تلتقي جميع الطرق والأودية والممرات في نقطة واحدة. ولم يعد العدو هو القوة العظمى السوفييتية،

ولكن الحكومة الأفغانية الشيوعية التي أبت أن تسقط كما توقع لها الكثيرون. (ومن المفارقات البغيضة للحملات التي جاء الأفغان العرب ليشتركوا فيها أن هذه الحملات كانت تتكون بصورة أساسية من المسلمين الذين جاءوا لقتال إخوانهم المسلمين وليس الغزاة السوفييت.) وكان من المفترض أن يسدل الحصار حول جلال أباد الستار على الحكم الشيوعي في أفغانستان. وبعد أن قوى الانسحاب السوفييتي عزيمتهم، قرر المجاهدون باستخفاف شن هجوم مباشر على مقر الأفغان. وكان الآلاف من قوات الحكومة الأفغانية يحمون المدينة التي تقع وراء نهر وممر واسع مزروع بالألغام السوفييتية بعد أن ضعفت معنوياتهم بشدة بسبب المقالات التي تُنشر في الجرائد الباكستانية عن الهجوم الوشيك للمجاهدين الذي سيتبعه ولا ريب نصر محقق وسريع لمصلحتهم.

جاء الهجوم الأول في مارس/آذار عام ١٩٨٩م، حين اجتاح ما بين خمسة إلى سبعة آلاف من المجاهدين الأفغان طريق هاي واي ١ تحت قيادة ثمانية قادة مختلفين، بالإضافة إلى العرب الذين تبعوا بن لادن. وبعد اجتياح المطار الموجود على حافة المدينة، تراجع المجاهدون إثر تعرضهم لهجوم مضاد قوي من القوات الحكومية، ثم وصلت الأمور إلى طريق مسدود غير متوقع حين رفض عدد من قادة المجاهدين المشتركين في الحصار التنسيق مع بعضهم.

استقر بن لادن وجماعته العسكرية في كهف صغير في الجبال، على بعد أربعة كيلومترات فوق المدينة. وكان تحت إمرته أقل من مائتي رجل، وقد سقط مريضًا مرة أخرى.

وصل عصام دراز، كاتب سيرة بن لادن، إلى الكهف ومعه مجموعة من الفيتامينات واثنتي عشرة عبوة من عقار أركاليون الذي كان بن لادن يطلبه دائمًا، وقد أخبر دراز أنه يساعده على التركيز. ويصف الأطباء عقار أركاليون لعلاج الوهن الشديد في العضلات أو عدم القدرة على الاحتمال، التي من الممكن أن يتسبب بها نقص الفيتامينات أو التعرض للتسمم بالرصاص من بين أسباب أخرى. لقد تعرضت صحة بن لادن، الذي كان شابًا فتيًا حين كان يخيم في الصحراء؛ لعدد من المشكلات في حياة الجبال القاسية. فقد تعرض، مثل كثير من رجاله، للإصابة بمرض الملاريا، ثم في شتاء ١٩٨٨م-١٩٨٩م القارس، كاد أن يموت من جراء إصابته بالالتهاب الرئوي عندما دُفن هو ومجموعة من رجاله تحت انهيار ثلجي شديد في سيارتهم لبضعة أيام. وقد تسبب الحصار طويل الأمد وغير المتوقع لمدينة جلال أباد في

twitter @baghdad_library

إضعاف بنيته الواهنة أكثر، وكان يشكو باستمرار من نوبات ألم محيرة في ظهره وإجهاد يشله عن الحركة.

وكان الظواهري، الذي اشتهر بين المقاتلين العرب بأنه طبيب عبقري، يقود سيارته من بيشاور مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًا لعلاج الجرحى. وبالطبع كان مريضه الرئيسي هو بن لادن الذي كان يحتاج إلى العلاج الوريدي بالجلوكوز كي لا يفقد وعيه. فكان بن لادن يرقد لساعات على أرض الكهف غير قادر على الحركة من فرط الألم. وقد شخص تعبه هذا بأنه انخفاض ضغط الدم، الذي عادة ما يكون عرضًا لمرض آخر.[٣] وأيًا كانت المشكلات الصحية التي كان بن لادن يعانيها، فستظل علاقة الصداقة التي تربطه بالظواهري معقدة دائمًا بحقيقة أن كلًا منهما يضع حياته في يد الآخر.

كانت قاذفات القنابل الأفغانية تشن عشرين غارة يوميًا وتمطر مشاة المجاهدين بوابل من القنابل العنقودية، وكان بن لادن ورجاله متحصنين في خندق بين موقعين جبليين. وفي إحدى المرات، كان بن لادن ينتظر أن ينقل له الظواهري الجلوكوز، وبعد أن نصب الأخير قائمًا معدنيًا ليحمل الزجاجة ثم وضع أنبوب الحقن الوريدي في الزجاجة، وشمر بن لادن عن ساعده وانتظر أن يحقن طبيبه الإبرة في وريده، سمعوا هدير قاذفة قنابل تطير على ارتفاع منخفض فوق رءوسهم وتبع ذلك انفجارات هزت الجبلين. وغطت سحابة من الدخان والغبار المجاهدين الذين زحفوا إلى خارج الخندق لرؤية ماذا أصاب القصف. واتضح لهم أن القنابل قد أصابت قمة الجبل فوقهم، ولكن الصخور التي انهارت اصطدمت بحامل الجلوكوز وأسقطته على الأرض.

أعاد الظواهري بهدوء نصب الحامل وفك الأنبوبة منه وأحضر إبرة أخرى معقمة، ولكن مرة أخرى بينما كان بن لادن يمد ذراعه، وقعت سلسلة من الانفجارات قذفت الرجال بالصخور ونسفت العوارض الخشبية التي تدعم جدران الخندق. كانت الانفجارات فوق رءوسهم مباشرة، فانبطح الرجال أرضًا وانتظروا حتى اختفت الطائرة، ثم التقط الظواهري الحامل من الأرض وأحضر زجاجة الجلوكوز نفسها

[٣] أحد الأمراض المحتملة في حالة بن لادن هو داء أديسون (أو مرض نقص إفراز الغدة فوق الكلوية) وهو خلل في جهاز الغدد الصماء، يصحبه انخفاض ضغط الدم وفقد الوزن وارتخاء العضلات وتهيج المعدة وآلام حادة في الظهر وجفاف ورغبة غير عادية لتناول الملح. وهذا مجرد تخمين ليس أكثر، ولكن جميع هذه الأعراض قد ظهرت على بن لادن. ومع أنه يمكن السيطرة على هذا المرض بإعطاء المريض مادة الستيرويد، فإن التعرض لنوبة شديدة من هذا المرض ومن المحتمل أن بن لادن كان يعاني إحداها في ذلك الوقت — قد تكون قاتلة إذا لم يعالج المريض على الفور بالمحلول الملحي والجلوكوز.

مرة أخرى بعد أن دفعها الانفجار هذه المرة إلى نهاية الخندق. وفي تلك اللحظة، أخذ الرجال يحملقون بريبة إلى الزجاجة «وكأنها كائن حي يخفي وراءه سرًّا»، كما يتذكر دراز.

قال أحدهم للظواهري: «ألا ترى؟ كل مرة تضع فيها هذه الزجاجة على الحامل، نجد القصف فوق رءوسنا!» فضحك الظواهري ورفض أن يغير زجاجة الجلوكوز قائلًا: «إنها مجرد مصادفة.» ولكن بمجرد أن استعد لأن يغرز الإبرة، وقعت سلسلة أخرى من الانفجارات المروعة وحطمت المكان من حولهم وطرحت الرجال أرضًا وهم يتمتمون بآيات من القرآن.

وتحطمت الدعامات الخشبية الضخمة التي تحمل سطح الخندق وانكشف الخندق أمام السماء، ثم انطلقت صرخة تحذير بأنهم يتعرضون للهجوم بغاز سام، فأسرع الرجال بوضع أقنعة الغاز الخاصة بهم. وفي وسط الدخان والخوف والارتباك الذي عم المكان، أعاد الظواهري نصب الحامل المعدني والتقط زجاجة الجلوكوز مرة أخرى، ولكن بدأ جميع من في الخندق يصرخون فيه: «ألق هذه الزجاجة بالخارج! لا تلمسها!».

حاول بن لادن أن يذكرهم أن الفأل السيئ حرام في الإسلام، ولكن بينما كان الظواهري يضع طرف الأنبوبة بها، نهض أحد السعوديين وأخذ الزجاجة من يد الظواهري دون أن يتفوه بكلمة واحدة وألقاها خارج الخندق، فضحك الجميع حتى بن لادن نفسه، وكانوا جميعًا سعداء للتخلص من الزجاجة المشئومة.

كان هناك شاب يقاتل إلى جانب بن لادن في أثناء حصار مدينة جلال أباد اسمه شفيق. وكان شفيق، الذي يبلغ من الطول أقل من خمسة أقدام ومن الوزن تسعين رطلًا تقريبًا، واحدًا من السعوديين القلائل الذين ظلوا مخلصين لقائدهم رغم وجود الحاشية المصرية التي كانت تحيط به. ويتذكر جمال خليفة الذي كان أستاذه في المدينة المنورة أنه شاب مهذب ومهندم، ترك المدرسة حين كان في السادسة عشرة من عمره للانضمام إلى الجهاد. ولكن والده سافر وراءه إلى أفغانستان لكي يعيده إلى المنزل. وقد صدم خليفة حين رأى تلميذه السابق مرة أخرى في السعودية؛ فقد كان الفتى قد عقص شعره وراء ظهره على شكل جديلة تنسدل على كتفيه وانتعل حذاءً قذرًا وبِرْوالًا أفغانيًّا. لقد تحول الطالب إلى مقاتل صلب لا يطيق صبرًا كي يعود إلى أرض المعركة. وبالفعل، لم تمر سوى أسابيع قليلة حتى تمكن شفيق

twitter @baghdad_library

من سرقة جواز سفره من المكان الذي أخفاه فيه والده وعاد إلى الحرب، ولقد كان لقراره هذا عواقب تاريخية.

ففي أحد الأيام، لاحظ أحد الحراس في جلال أباد طائرات هليكوبتر تابعة للجيش الأفغاني تنقض على الموقع الذي تتمركز فيه القوات العربية، تتبعها دبابات وجنود المشاة ويقودهم مجاهد خائن باع نفسه لهم. فحذر الحارس رجال بن لادن وأخبرهم بضرورة إخلاء الكهف الذي يعسكرون فيه على الفور، ولكن في ذلك الوقت كانت الوحدات المدرعة قد وصلت إلى موقعهم وعلى أتم استعداد للقضاء على الموقع بأكمله.

هرع بن لادن هاربًا ومعه باقي الجنود فيما عدا شفيق الذي تمكن وحده من تغطية انسحاب الباقين باستخدام مدفع هاون صغير. ولولا تلك اللحظات القليلة التي عرقل فيها شفيق تقدم فريق الهجوم، لكان بن لادن على الأرجح قد مات في جلال أباد وانتهى معه حلمه الذي لا يعرفه أحد. وأسفرت تلك المعركة التي تعد أكبر كارثة تعرض لها الأفغان العرب عن مصرع ثمانين آخرين، من بينهم شفيق.

عقدت القاعدة أول اجتماع تجنيد لها في معسكر الفاروق بالقرب من خوست في أفغانستان بعد الهزيمة في جلال أباد بوقت قصير. ومعسكر الفاروق هذا معسكر تكفيري أقامه الظواهري والدكتور فضل، وكان مكرسًا بالكامل لتدريب الصفوة من المجاهدين العرب الذين يجري إعدادهم للانضمام إلى جيش بن لادن الخاص. ومع أن الجبل فقط هو ما كان يفصل بين معسكر الفاروق والمأسدة، فقد حافظوا على معسكر الفاروق معزولًا عن المعسكرات الأخرى حتى يمكن مراقبة الشباب عن كثب. ويُختار أعضاء هذا المعسكر من الشباب المتحمس المطيع، وكانوا يمنحونهم نقودًا إضافية ويطلبون منهم أن يودعوا عائلاتهم.

كان معظم أعضاء مجلس القيادة الذي تكون لتقديم المشورة لبن لادن من المصريين، ويشمل الظواهري وأبا حفص وأبا عبيدة والدكتور فضل، وكان هناك أيضًا ممثلون من دول أخرى مثل الجزائر وليبيا وعمان. وقد فتح التنظيم مكتبًا في فيلا تتكون من طابقين في حياة أباد، وهي الضاحية التي يقطن فيها معظم العرب في بيشاور.

وكان المجندون الجدد يملئون استمارات من ثلاث نسخ ويوقعون على يمين الولاء لبن لادن ويقسمون على السرية. وفي المقابل، يتلقى الأعضاء غير المتزوجين ألف

دولار شهريًا، أما الأعضاء المتزوجون فيتلقون ألفًا وخمسمائة دولار. وكان كل منهم يحصل كل عام على إجازة مدتها شهر كامل، وتذكرة ذهاب وعودة إلى بلده، وكانت هناك خطة تأمين صحي، وأما الذين يغيرون رأيهم ويريدون الانسحاب، فيحصلون على ٢٤٠٠ دولار ثم ينصرفون كل إلى طريقه. فمنذ البداية، قدمت القاعدة نفسها على أنها فرصة توظيف رائعة للذين تقلصت فرص استئناف تعليمهم أو حصولهم على عمل مناسب بسبب الجهاد.

وضع قادة القاعدة دستورًا وقوانين تصف بوضوح الأهداف المثالية الفاضلة التي يسعى التنظيم لتحقيقها: «إحقاق الحق والتخلص من الشر وتأسيس دولة إسلامية»، وسيتحقق هذا عن طريق التعليم والتدريب العسكري، وأيضًا التنسيق مع حركات الجهاد الأخرى في جميع أنحاء العالم ودعمها. وسيتولى قيادة الجماعة قائد نزيه وثابت العزيمة وجدير بالثقة وصبور وعادل ولديه خبرة لا تقل عن سبع سنوات من الجهاد، ومن الأفضل أن يكون جامعيًا. ومن واجباته تعيين مجلس استشاري يجتمع كل شهر، ووضع ميزانية، وتحديد خطة سنوية للعمل. ويستطيع المرء أن يقدر مدى طموح تنظيم القاعدة بالنظر إلى الهيكل الإداري المتكامل الذي وضعه لنفسه والذي تضمن لجانًا مكرسة للاهتمام بالشئون العسكرية والسياسات والمعلومات والإدارة والأمن والمراقبة. وكانت هناك أقسام فرعية تابعة للجنة العسكرية مخصصة للتدريب والعمليات والأبحاث والأسلحة النووية.

وبعد الإخفاق في جلال أباد، استسلم المجاهدون الأفغان إلى حرب أهلية طاحنة. وكان أقوى طرفين في هذه الحرب بين الأشقاء هما قلب الدين حكمتيار وأحمد شاه مسعود، وكلاهما قائد من شمال البلاد لا يعرف الرحمة، وذو شعبية كبيرة بين رجاله وعاقد العزم على إنشاء حكومة إسلامية في أفغانستان. وكان حكمتيار، السياسي المحنك، ينتمي إلى قبيلة بشتون وهي القبيلة المسيطرة في كل من باكستان وأفغانستان، ويحظى بدعم المخابرات الباكستانية، ومن ثم الولايات المتحدة والسعودية. أما مسعود، وهو أحد أكثر القادة الموهوبين في حروب العصابات في القرن العشرين، فكان ينتمي إلى قبيلة الطاجيك التي تتحدث اللغة الفارسية وتعد ثاني أكبر جماعة عرقية في أفغانستان. ونظرًا لأنه قد اتخذ قاعدته في وادي بنجشير شمال كابول، فإن مسعودًا نادرًا ما كان يسافر إلى بيشاور، مركز الأنشطة الاستخباراتية والإعلام الدولي.

كان معظم العرب يقفون إلى جانب حكمتيار، فيما عدا عبد الله أنس صهر عبد الله عزام الذي تحدث مع الشيخ وأقنعه بزيارة مسعود لكي يرى بنفسه الرجل

twitter @baghdad_library

ويعرفه على حقيقته. استغرقت الرحلة لزيارة «أسد بنجشير» ثمانية أيام من السير عبر القمم الأربع في جبال هندوكوش، وفي أثناء رحلتهما الجبلية، أخذ عزام يفكر في الفشل في جلال أباد، وأبدى قلقه من أن الجهاد الأفغاني كان إخفاقًا يفتقد إلى التنظيم والقيادة الحكيمة. لقد خرج السوفييت من البلاد وتحول المسلمون لقتال بعضهم بعضًا.

استقبلهما مسعود ومعه مائة من الحراس على حدود باكستان وقادوهما إلى وادي بنجشير. كان مسعود يعيش في كهف يتكون من غرفتي نوم «مثل الغجر»، على حد تعبير أنس الذي لعب دور المترجم بين الرجلين. أعجب عزام إعجابًا شديدًا بتواضع مسعود، وبمدى تنظيم قواته التي كانت تقف على حد النقيض مع قوات المجاهدين الأخرى غير المنظمة، وقد تعهد عزام أمامه قائلًا: «اعتبرنا جنودك، إننا نحبك وسنساعدك.»

وعندما عاد إلى بيشاور، لم يحتفظ عزام برأيه في مسعود سرًّا، بل لقد سافر إلى السعودية والكويت وأخذ يقول: «لقد رأيت الجهاد الإسلامي الحقيقي، إنه مسعود!» اشتعل غضب حكمتيار بسبب انقلاب عزام عليه، الأمر الذي قد يكلفه خسارة مؤيديه من العرب.

لقد كون عزام العديد من الأعداء الدمويين الذين يكنون له كرهًا شديدًا. وقد ترجى بن لادن معلمه السابق أن يبقى بعيدًا عن بيشاور التي أصبحت تمثل خطرًا شديدًا عليه. وفي أحد أيام الجمعة، اكتشف رجال حكمتيار قنبلة قوية في المسجد بالقرب من منزل عزام وتمكنوا من إيقافها. وكانت تلك القنبلة لغمًا مضادًا للدبابات وضع أسفل المنبر الذي يقف عليه عزام عندما يؤم المصلين، وإذا انفجر، كان من الممكن أن يقتل المئات من المصلين.

شعر بن لادن بالحيرة واليأس بسبب الحرب الأهلية التي نشبت بين المجاهدين، إلى جانب أنه كان لا يزال يشعر بالخجل بسبب هزيمة جلال أباد؛ فعاد إلى المملكة لاستشارة المخابرات السعودية، إذ كان يريد أن يعرف مع أي من الجانبين يقاتل. ولكن أحمد باديب، مدير مكتب الأمير تركي، قال له: «من الأفضل أن تغادر.»

وقبل أن يغادر بيشاور كلها، عاد بن لادن ليودع عزامًا. وكان سطوع نجم بن لادن قد ترك عزامًا عرضة للخطر، ولكن نجحت صداقتهما بطريقة ما في الاستمرار؛ فقد تعانقا لوقت طويل وبكيا كثيرًا وكأنهما يعرفان أن ذلك هو وداعهما الأخير.

وفي الرابع والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٨٩م، استقل عزام سيارته إلى المسجد ومعه اثنان من أولاده هما إبراهيم ومحمد الذي كان يقود السيارة. وبينما كان محمد يوقف السيارة، انفجرت قنبلة على جانب الطريق مصنوعة من عشرين كيلوجرامًا من مادة تي إن تي المتفجرة بقوة حتى إن السيارة قد نسفت تمامًا. وتناثرت أشلاء الجثث على الأشجار وأسلاك الكهرباء، وطارت إن ساق أحد ولديه واصطدمت بنافذة محل على بعد مائة ياردة. ولكن يقال: إن جثة عزام وجدت ترقد بسلام إلى جانب حائط لم يمسها ضرر ولم تشوه على الإطلاق.

في وقت مبكر من يوم الجمعة الذي وقع فيه الحادث، كان أيمن الظواهري الغريم اللدود لعزام يروج شائعات في شوارع مدينة بيشاور تقول: إن عزامًا يعمل لحساب الأمريكيين. وفي اليوم التالي ذهب إلى جنازة عزام، وأخذ يمدح الشيخ الشهيد ويثني عليه، كما فعل كثير من أعداء الشيخ الذين ابتهجوا لموته.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع

عودة البطل

للشهرة سلطتها، حتى في بلد مثل المملكة العربية السعودية حيث يقدر المجتمع التواضع ويحرص أفراد الشعب الذين لا ينتمون إلى العائلة المالكة على عدم إظهار المكانة والنفوذ. إنه بلد يمنع عرض الصور الشخصية فيما عدا تلك التي تحمل وجوه الأمراء وأفراد العائلة المالكة الذين يطلقون أسماءهم على الشوارع والمستشفيات والجامعات، مدخرين لأنفسهم كل ما يجدون من مجد وعظمة. لذا عندما عاد بن لادن إلى جدة مسقط رأسه في خريف عام ١٩٨٩م، كان يمثل معضلة فريدة من نوعها في تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث. فقد كان لا يزال في الحادية والثلاثين من عمره ويملك تحت إمرته جيشًا دوليًا من المتطوعين لا يعرف أحد حجمه. ولأنه صدق بالفعل الأسطورة التي روجت لها الصحافة السعودية بأن الفيلق العربي الذي يقوده هزم القوة العظمى الجبارة، فقد عاد وهو يدور بخلده توقعات غير مسبوقة لمستقبله. وقد كان يتمتع بشهرة لم يحظ بها أي شخص آخر في المملكة فيما عدا بعض الأمراء وصفوة العلماء الوهابيين، الذين يعدون أبرز الشخصيات في المملكة.

لقد كان بن لادن ثريًا، مع أنه لا يعد كذلك بالمقاييس الملكية أو حتى مقارنة بكبرى العائلات التجارية في الحجاز. ففي ذلك الوقت، وصل نصيبه من مجموعة بن لادن السعودية إلى سبعة وعشرين مليون ريال سعودي، أي أكثر قليلًا من سبعة ملايين دولار، وكان يتلقى سنويًا ما بين نصف مليون إلى مليون ريال سعودي نصيبه من الأرباح السنوية للشركة. وقد عاد مرة أخرى للعمل في شركة العائلة، فشارك في بناء الطرق في مدينتي الطائف وأبها. وكان لديه منزل في جدة وآخر في المدينة المنورة، أحب المدن إلى قلبه، حيث يكون قريبًا من مسجد الرسول.

عاد الشاب المثالي إلى المملكة وبداخله إحساس بأنه معد لمهمة مقدسة، فلقد خاطر بحياته وواجه الموت ونجا منه، كما يعتقد، بمعجزة إلهية. لقد ذهب إلى هناك

ليكون عونًا لمحارب مسلم يمثل رمزًا عظيمًا، وعاد وهو يتربع على عرش قيادة الأفغان العرب بلا منازع. وكانت تحيط به هالة من الثقة بالنفس تمنحه جاذبية أكثر نظرًا لطبيعته المتواضعة. وفي الوقت الذي كان يتزايد فيه شعور السعوديين بعدم الثقة في هويتهم في العالم الحديث، ظهر بن لادن مثالًا لا تشوبه شائبة للهوية السعودية. فكانت تقواه وأخلاقه المتواضعة تذكر السعوديين بصورتهم النقية التي حفروها في التاريخ من حيث الخجل وإنكار الذات، ولكن مع القوة والتقشف في الوقت نفسه. وقد أطلق عليه بعض معجبيه من الشباب «عثمان عصره» إشارة للخليفة عثمان بن عفان أحد الخلفاء الراشدين الذي كان رجلًا ثريًّا ومشهورًا بصلاحه واستقامته.

ومما لا شك فيه أن شهرة بن لادن قد ألقت بظلال من الاستياء على سلوك العائلة المالكة السعودية، وفي مقدمتها الملك فهد الذي كان يرسو على شواطئ الريفيرا، حيث الحفلات الصاخبة، بيخته الذي يحمل اسم «عبد العزيز» ويبلغ طوله ٤٨٢ قدمًا وكلفه مائة مليون دولار. ويحتوي يخته الضخم على حوضين للسباحة، وقاعة للرقص، وصالة للألعاب الرياضية، ومسرح، وحديقة محمولة، ومستشفى بها وحدة رعاية مركزة وغرفتان للعمليات، وأربعة صواريخ أمريكية من طراز ستينجر. وكان الملك يحب أيضًا السفر إلى لندن على متن طائرته البوينج ٧٤٧ التي كلفته ١٥٠ مليون دولار والمزودة بنافورة مياه. وكان يخسر الملايين على المسرات في هذه النزهات، وكان يغضب بسبب القوانين البريطانية التي تغلق الملاهي عند منتصف الليل ويقوم باستئجار عمال الملاهي حتى يتمكن من استكمال السهرات في جناحه بالفندق الذي يقيم فيه. وبالطبع اتبع الأمراء السعوديون خطاه بحماسة، وخاصة الأمير محمد ابن الملك فهد الذي انفق طبقًا لمستندات المحكمة البريطانية مليار دولار على الملذات حيث اشترى أكثر من مائة سيارة حديثة، وقصور في مدينتي كان وجنيف، بالإضافة إلى شراء الزوارق الآلية وتأجير الطائرات وشراء الشاليهات في مناطق التزلج على الجليد واقتناء المجوهرات.»

وفي منتصف الثمانينيات انهارت أسعار النفط مما تسبب في تعرض الاقتصاد السعودي للعجز، ولكن العائلة المالكة استمرت في الحصول على «قروض» شخصية ضخمة من بنوك الدولة، التي نادرًا ما كانت تُسدَّد. وكانت كل صفقة تجارية مهمة تتطلب الاتفاق مع أفراد من العائلة لتسهيل عقد الاتفاق. وكان من الممكن أن تتعرض أراضي العوام للمصادرة وأن يتدخل بعض أفراد العائلة في شئون الأعمال

twitter @baghdad_library

الخاصة. باختصار، لقد أصبح بعض أفراد عائلة «آل سعود» مثالًا حيًّا للطمع غير المحدود.

ولكن الهجوم على المسجد الحرام قبل عشر سنوات أيقظ العائلة المالكة على احتمال قوي لأن يثور الشعب ضدهم. وكان الدرس الذي خرجت به العائلة المالكة من ذلك المأزق الدموي الذي واجهته أنها لا يمكنها حماية نفسها من المتطرفين دينيًّا إلا بمنحهم سلطةً. ومن ثم، أصبحت جماعة «المطاوعة»، التي تمثل لجنة أمنية دينية تابعة للحكومة، أكثر بروزًا في المجتمع السعودي وهي تتجول في المراكز التجارية والمطاعم تطارد الرجال إلى المساجد في أوقات الصلاة، وتتحقق من أن النساء محجبات كما ينبغي، فإذا ظهرت جديلة واحدة من شعر إحداهن من تحت الحجاب، فقد تتسبب لصاحبتها في سيل من الضربات بالعصي التي يحملها أعضاء الجماعة في أيديهم. وفي سعيهم للقضاء على الفساد والبدع، كانوا يقتحمون المنازل الخاصة وأماكن العمل، وأعلنوا الحرب على أطباق الأقمار الصناعية التي كانت أعدادها في تزايد، فيطلقون عليها الرصاص بأسلحة حكومية مرخصة وهم يستقلون سيارات من طراز شيفروليه سوبربان تابعة للحكومة. وبعد أن عُرف أعضاء هذه الجماعة رسميًّا بأنهم ممثلون عن لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ستصبح المطاوعة النموذج الذي ستسير عليه طالبان في أفغانستان.

أما الأمير تركي، فكان يقف على النقيض التام من الصورة التي كونها الشعب عن العائلة المالكة. فقد كان الأمير من نوع الرجال الذي يعرفه الشعب ويحبه؛ فهو رجل جذَّاب ولطيف وعذب الحديث، ولكنه كان أيضًا محاطًا بالحراسة وتتمتع حياته بالخصوصية، وقد أبقى كثيرًا من جوانب حياته معزولة عن الحياة العامة بحرص شديد فلم يُعْرَف تمام المعرفة. وبالطبع كان يتمتع بالامتيازات الملكية المتمثلة في القوة والسلطان، إلا أنه كان يعيش داخل المملكة حياة متواضعة تحظى بإعجاب الجميع. فكان يقطن منزلًا متواضعًا نسبيًّا من طابق واحد في الرياض، مع زوجته الأميرة نوف وأطفالهما الستة، وفي العطلات الأسبوعية كان ينتقل إلى مزرعته في الصحراء حيث كان يربي النعام. وكان يرتدي الزي السعودي التقليدي الذي يتكون من ثوب أبيض طويل حتى الكاحل وغترة ذات مربعات حمراء. وكان يحظى باحترام الأصوليين لأنه كان دارسًا إسلاميًّا، ولكنه كان في الوقت نفسه مؤيدًا لحقوق المرأة لذلك اعتبره التقدميون حليفًا محتملًا. وكان تركي يتولى إدارة المخابرات، وهو الأمر

الذي يعني عادة في الشرق الأوسط عمليات تعذيب واغتيالات، ولكنه سريعًا ما اشتهر بتفضيله للعمليات النظيفة دون إراقة الدماء. والأمير تركي هو ابن الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز، ووالدته الملكة عفت هي السيدة الوحيدة في تاريخ المملكة العربية السعودية التي حملت لقب ملكة. وجميع هذه الصفات، بالإضافة إلى شبابه والعمل المهم الذي يتولاه، ستجعله منافسًا جديرًا بالاهتمام عندما يحين دور أحفاد الملك عبد العزيز ليتنافسوا على العرش.

أما خارج المملكة، فكان تركي يحيا حياة مختلفة؛ فقد كان لديه منزل في لندن وشقة فخمة في باريس، وكان يطوف البحر المتوسط على متن يخته الذي يحمل اسم «الفارس الأبيض»، وفي الحفلات الرسمية في لندن ونيويورك، كان معروفًا بأنه يفضل احتساء شراب الموز مع الليمون والسكر من حين لآخر، ولكنه لم يكن مقامرًا أو مدمنًا للخمر. ونظرًا لأنه كان مرنًا يستطيع العيش أكثر من حياة دون أدنى مشكلة، فقد كانت لديه القدرة على أن يعكس الصفات التي يتمنى أن يراها فيه الآخرون.

وفي أثناء الجهاد الأفغاني، كانت المخابرات الأمريكية تتعامل عن كثب مع تركي والمخابرات السعودية، وقد أثار إعجابهم بنفاذ بصيرته وسعة معرفته وتآلفه مع العادات الأمريكية. وقد اعتقد بعض رجال المخابرات الأمريكية أن تركيًّا هو «رجلنا في الرياض»، ولكن البعض الآخر كان يراه مخادعًا ولا يطلعهم على جميع المعلومات التي يمتلكها. وقد عكست ردود الأفعال هذه العلاقة الشائكة التي وجد الأمريكيون والسعوديون أنفسهم متورطين فيها.

وفي يوم من أيام الجمعة، ذهب تركي إلى مسجد في الرياض كان إمامه قد انتقد بعض المؤسسات الخيرية التي تديرها نساء، ومنها مؤسسة تشرف عليها خمس من نساء عائلة فيصل. وقد استمع تركي إلى تسجيل للخطبة التي أطلق فيها الإمام على السيدات اللائي يُدرن المؤسسات الخيرية فاجرات. ولقد كان ذلك الحديث خرقًا صاعقًا للاتفاقية القديمة بين آل سعود وعلماء الوهابية. وفي الأسبوع التالي، ذهب تركي إلى المسجد وجلس في الصف الأول وعندما صعد الإمام ليخطب، واجهه تركي بثورة من الغضب وصرخ في مكبر الصوت قائلًا: «هذا الرجل شوه سمعة عائلتي: شقيقاتي! زوجة ابني! فإما أن يثبت ما قال أو سأقاضيه.» وقال شاهد على هذه الحادثة: إن تركيًّا هدد بقتل الرجل في الحال.

twitter @baghdad_library

دفع ذلك القذف الجريء ورد فعل الأمير تركي الغاضب البلد إلى حالة من الاضطراب؛ فألقى الأمير سلمان حاكم الرياض القبض على الإمام المذنب الذي اعتذر سريعًا عما قال وتقبل الأمير تركي اعتذاره. ولكن تركي أدرك من ذلك الموقف أن ميزان القوة بين الجبهتين قد بدأ يتحول؛ فكثير من أفراد عائلته تعرضوا للترويع من قبل الجماعة الدينية التي تطوف المراكز التجارية والشوارع ومعها رجال من الشرطة تحت إمرتها. فالتقوى المفرطة للمطاوعة كانت تتجه نحو التركيز على أفعال بعض أعضاء العائلة المالكة، بل لقد هاجموا حتى الأعمال الخيرية التي ترعاها أميرات متميزات ومحبوبات يسعين لتحقيق إنجازات في قضايا المرأة. وبالطبع، لم يكن من الممكن أن تقبل العائلة المالكة مثل هذه الإهانة، ولكن حقيقة أن الأمر قد وصل إلى حد الجهر بالنقد كانت تعني أن المطاوعة قد واتتهم جرأة كافية لإشعال نيران الثورة في البلاد تحت مرأى ومسمع من الحكام.

وعلى غرار المخابرات الأمريكية، لم يكن من المفترض أن تعمل المخابرات السعودية بقيادة تركي داخل المملكة، حيث يقع هذا داخل سلطة الأمير نايف، عم تركي الشرس الذي يشغل منصب وزير الداخلية والذي كان يرفض بشدة تدخل أحد في نطاق نفوذه. ولكن تركي رأى أن الموقف داخل البلاد أخطر من أن يتجاهله، حتى لو كان ذلك يعني التدخل في مجال نفوذ الأمير نايف. فبدأ يتحرى سرًّا عن أعضاء من المطاوعة، وتوصل إلى أن كثيرًا منهم كانوا متهمين أدينوا في قضايا سابقة، وقد حفظوا القرآن لكي تُخفَّف عنهم الأحكام، وهذا هو الشيء الوحيد الذي أهلهم لهذا العمل. ولكن تركي رأى أنهم أصبحوا غاية في القوة حتى إنهم أصبحوا يمثلون تهديدًا للإطاحة بالحكومة.

دائمًا ما كان التقشف والخضوع والحماسة الدينية هو ما يميز الحياة في المملكة العربية السعودية، ولكن حكم المطاوعة كبت التفاعل الاجتماعي وفرض معتقدات وأفكار جديدة وخطيرة. فعلى مدار قرون، كانت تُدَّرس المدارس الفقهية الأربع: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية في مكة، وكان الوهابيون ينأون بأنفسهم ظاهريًّا عن هذه الاختلافات المذهبية، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يقضون على أي تفسيرات أخرى للدين. فقد منعت الحكومة الشيعة، التي تمثل أقلية جديرة بالاعتبار من الشعب السعودي، من بناء مساجد جديدة أو توسيع المساجد الموجودة بالفعل، فكان الوهابيون فقط هم الذين يمارسون شعائرهم وطقوسهم بحرية.

بدأت الحكومة السعودية تنشر عقيدتها في العالم الإسلامي بإنشاء المئات من المساجد والكليات، والآلاف من المدارس الدينية حول العالم التي يعمل بها أئمة ومعلمون وهابيون. ومن ثم، فإن المملكة العربية السعودية التي لا يمثل سكانها أكثر من ١٪ من تعداد المسلمين في العالم، تقدم ٩٠٪ تقريبًا من الأموال التي تنفق بالكامل على نشر الدين متجاوزة في طريقها المدارس والمذاهب الإسلامية الأخرى.

اختفت أنغام الموسيقى تمامًا من المملكة، فبعد الهجوم على المسجد الحرام في عام ١٩٧٩م في مكة، مُنع بث أغاني أم كلثوم وفيروز، أشهر مطربتين في العالم العربي، من محطات التليفزيون في المملكة التي سيطر عليها بالفعل رجال ملتحون يناقشون قضايا دقيقة في الشريعة الإسلامية. وكان في المملكة عدد قليل من دور عرض الأفلام قبل الهجوم على المسجد، ولكنها سريعًا ما أغلقت بعد ذلك. وفي عام ١٩٨٩م، انتهى إنشاء قاعة موسيقية رائعة في الرياض، ولكنها لم تشهد أي عروض قط. وتولت الرقابة مهمة إخماد صوت الفن والأدب، كما ذبلت الحياة الفكرية التي نادرًا ما وجدت فرصة لتزدهر في ذلك البلد الحديث. وبطبيعة الحال سيطر التطرف وجنون الارتياب على هذه العقول المنغلقة المليئة بالخوف.

وبالنسبة للشباب، لم يكن المستقبل في تلك البيئة الكئيبة يعدهم بأكثر من الحاضر، بل أقل منه. فمنذ بضع سنوات فقط، كانت المملكة العربية السعودية في طريقها لأن تكون أغنى دولة في العالم من حيث دخل الفرد بفضل ثروتها النفطية الهائلة، ولكن حطم تدهور أسعار النفط تلك الآمال. فسحبت الحكومة التي وعدت بتوفير فرص عمل لخريجي الجامعات جميع وعودها، مما أدى إلى ميلاد ظاهرة البطالة التي لم تعرفها المملكة من قبل قط. وما إن يجتمع اليأس والبطالة في شباب أمة حتى يصبحا رفيقين خطيرين، وكان من الطبيعي أن يبحث الشباب عن بطل يعبر عن رغبتهم الشديدة في التغيير ويقدم لهم هدفًا ينصب عليه غضبهم.

وهنا تولى أسامة بن لادن، الذي لم يكن عالم دين أو أميرًا، هذا الدور الجديد، مع أنه لم يحدث من قبل أن تولت أية جهة مستقلة هذا الدور في المملكة. فقدم لهم التحليل النقدي المعهود الذي يقدمه الإخوان المسلمون لمحنة العالم العربي، والذي يقول: إن الغرب، والولايات المتحدة بوجه خاص، هو المسئول عن ذلك الفشل المهين الذي يلحق بالعرب. وقد قال ذات مرة في إحدى ليالي الربيع بعد صلاة العشاء في مسجد عائلة بن لادن في جدة: «لقد هاجموا إخواننا في فلسطين كما هاجموا

twitter @baghdad_library

المسلمين والعرب في كل مكان. إن دماء المسلمين تراق في كل مكان، بل أصبحت تفيض أنهارًا ... إنهم ينظرون إلينا كالنعاج، لقد تعرضنا للذل والمهانة.»

كان بن لادن يرتدي ثوبًا أبيض ويضع على كتفيه عباءة شفافة لونها أصفر جملي، ويتحدث في نبرة هادئة رتيبة، وفي بعض الأحيان يشير بسبابته الطويلة النحيفة كي يوضح نقطة ما، ولكن كان أسلوبه هادئًا وإيماءاته واهنة وشاحبة. وكانت نظرة القائد المنقذ المحدقة في الفراغ التي ستميز جميع بياناته الرسمية بعد ذلك قد ظهرت بالفعل على وجهه. وكان يجلس أمامه على السجادة المئات من الرجال في وضع القرفصاء، وكثير منهم حارب معه في أفغانستان، وكان يسعى لتوجيه حياته إلى اتجاه جديد، فقد كان عدوهم القديم، الاتحاد السوفييتي، ينهار، ولكن أمريكا لم تبدُ في موضع البديل التالي.

في البداية كان من الصعب فهم الأساس الذي بنى عليه بن لادن شكواه. فالولايات المتحدة لم تكن قط قوة استعمارية، والسعودية نفسها لم ترزح تحت نير الاستعمار قط. وبالطبع، كان بن لادن يتحدث بلسان المسلمين جميعًا الذين آلمهم كثيرًا دعم أمريكا لإسرائيل، ولكن أمريكا كانت بلا شك حليفًا في الجهاد الأفغاني. لقد كان الإحساس بالذل الذي يعبر عنه بن لادن يرتبط أكثر بوضع المسلمين في العالم الحديث، فقد قال لمستمعيه من أهل وطنه: إن حياتهم تباع بأرخص ثمن، وهو ما أكد إحساسهم أن حياة الآخرين، الغربيين والأمريكيين، أهم من حياتهم وأعظم شأنًا.

ثم أعطاهم بعد ذلك درسًا في التاريخ حين قال: «لقد ذهبت أمريكا إلى فيتنام على بعد آلاف الأميال من أرضها، وبدأت تقصفهم من الطائرات، ولم يخرج الأمريكيون من هناك إلا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. فلقد قُتل منهم أكثر من ستين ألف جندي أمريكي حتى خرج الشعب الأمريكي في مظاهرات ضد الحرب. ولن يوقف الأمريكيون دعمهم لليهود في فلسطين حتى نسدد لهم الكثير من الضربات؛ إنهم لن يتوقفوا حتى نجاهد ضدهم.»

وهنا وقف بن لادن على عتبة تأييد العنف ضد الولايات المتحدة، ولكنه منع نفسه فجأة من الاستمرار في ذلك الاتجاه، واستأنف قائلًا: «إننا نحتاج إلى شن حرب اقتصادية على أمريكا. يجب أن نقاطع جميع المنتجات الأمريكية ... إنهم يأخذون النقود التي ندفعها ثمنًا لمنتجاتهم ويعطونها لليهود ليقتلوا أشقاءنا.» ثم استشهد بن لادن، الرجل الذي كوَّن اسمه في أثناء الحرب ضد السوفييت، بالمهاتما غاندي

الذي قضى على الإمبراطورية البريطانية «بمقاطعة منتجاتها وارتداء الملابس غير الغربية»، ثم حث على شن حملة علاقات عامة قائلًا: «يجب أن نخبر أي أمريكي نراه بشكوانا هذه»، ثم ختم بن لادن حديثه بخنوع: «يجب أن نكتب إلى السفارات الأمريكية.»

سيعترف بن لادن فيما بعد أن الولايات المتحدة كانت دائمًا عدوًّا له، ويؤرخ كرهه لها إلى عام ١٩٨٢م: «عندما أذنت أمريكا للإسرائيليين باجتياح لبنان، وساعد في ذلك الأسطول السادس الأمريكي.» ويتذكر المذبحة، فيقول: «دماء وأشلاء، وأطفال ونساء صرعى في كل مكان، منازل تدمر بمن فيها وأبراج تدك على ساكنيها ... وكان الحال كتمساح التقم طفلًا لا حول له ولا قوة إلا الصراخ.» وقد قال: إن ذلك المشهد ولَّد بداخله رغبة قوية في محاربة الطغيان وشوقًا للانتقام؛ «وبينما أنظر إلى تلك الأبراج المدمرة في لبنان، انقدح في ذهني أن نعاقب الظالم بالمثل وأن ندمر أبراجًا في أمريكا لتذوق بعض ما ذقنا.»

ولكن كانت أفعال بن لادن في ذلك الوقت تتناقض مع موقفه العلني، فقد تقرب سرًّا من أحد أفراد العائلة المالكة في أثناء الجهاد الأفغاني لكي يعبر له عن امتنانه لأمريكا لاشتراكها في تلك الحرب. ويتذكر الأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي لدى الولايات المتحدة، أن بن لادن جاء إليه وقال: «شكرًا لك، شكرًا لك لأنك أحضرت الأمريكيين ليساعدونا في التخلص من السوفييت العلمانيين الملحدين.»

لم يظهر بن لادن نفسه قط كمفكر سياسي مثير للاهتمام أو له فكره الخاص، فقد كان تحليله حتى ذلك الوقت هو التفكير التقليدي السائد بين الإسلاميين الذي لم تصقله أية تجارب حقيقية في الغرب. ومع ذلك، فقد كان، مع تلك الهالة من الهيبة والغموض التي تحيط به، يحتل مكانة متميزة في المجتمع السعودي تَمْنَح كل كلمة يقولها وزنًا وأهمية. بل إن مجرد النطق بانتقاد أمريكا، خاصة في دولة لا تزال حرية التعبير فيها في مراحلها الأولى، جعلت السعوديين يعتقدون أن هذه الحملة المناوئة لأمريكا التي يشنها بن لادن تحظى بالموافقة الملكية.

عدد قليل للغاية فقط من دول العالم يختلف عن بعضه هذا الاختلاف الشديد، وفي الوقت نفسه يعتمد على بعض كما هو حال أمريكا والسعودية. فقد بنى الأمريكيون صناعة النفط في السعودية، وشركات البناء الأمريكية مثل بيكتل هي التي شيدت الجزء الأكبر من البنية التحتية للبلاد. وقامت كل من شركة هوارد هيوز Howard

twitter @baghdad_library

Hughes وشركة ترانس وورلد أيرلاينز Trans World Airlines بتأسيس خدمات الطيران السعودية، وقامت مؤسسة فورد Ford Foundation بتحديث الحكومة السعودية، وقام سلاح المهندسين في الجيش الأمريكي ببناء مرافق البث التليفزيوني بالمملكة والإشراف على تطوير صناعة الدفاع بها. وفي الوقت نفسه، أرسلت السعودية أفضل طلابها إلى الجامعات الأمريكية، وقد وصل عددهم إلى أكثر من ثلاثين ألف طالب كل عام في السبعينيات والثمانينيات. وفي المقابل، كان أكثر من ٢٠٠ ألف أمريكي يعيشون ويعملون في المملكة منذ اكتشاف النفط. لقد كانت السعودية تحتاج إلى الولايات المتحدة في مجالات عديدة، منها: الاستثمارات، ونظم الإدارة، والتكنولوجيا، والتعليم؛ لتقودها إلى العالم الحديث. وكانت أمريكا بدورها تعتمد اعتمادًا متزايدًا على النفط السعودي لتغذية تفوقها الاقتصادي والعسكري. ففي عام ١٩٧٠م، كانت الولايات المتحدة تحتل المرتبة العاشرة بين أكبر مستوردي النفط السعودي، وبعد ذلك بعقد واحد أصبحت تحتل المرتبة الأولى.

وفي ذلك الوقت، حلت المملكة العربية السعودية محل إيران كالحليف الأساسي لأمريكا في منطقة الخليج الفارسي، وكانت المملكة تعتمد على الأسلحة الأمريكية واتفاقيات الدفاع لحمايتها. ومن ثم، فقد بدت موافقة العائلة المالكة الظاهرية على الحرب الشفهية التي يشنها بن لادن على أمريكا والتي تزداد احتدامًا بمنزلة تناقض مهلك. وقريبًا ستمنح الأحداث بن لادن المبرر الذي ينشده لكي يجعل من أمريكا العدو الذي يحتاج إليه.

في عام ١٩٨٩م، اقترح بن لادن على الأمير تركي خطة جريئة للغاية؛ فقد عرض عليه أن يستخدم جيشه غير النظامي للإطاحة بالحكومة الماركسية في اليمن الجنوبي. فقد كان بن لادن يستشيط غضبًا من الحكم الشيوعي في بلد أجداده، ورأى أن يستغل عمله المشترك مع الحكومة السعودية لتطهير شبه الجزيرة العربية من النفوذ العلماني. وكانت تلك هي الفرصة الأولى لبن لادن كي يسند للقاعدة مهمة حقيقية.

دائمًا ما كانت علاقة السعودية باليمنين، جاريها اللذين يقعان إلى جنوبها والأصغر منها مساحة والأفقر ماديًّا والأكثر تعدادًا للسكان، علاقة متوترة. وكان الشقيقان المتنازعان يمثلان مشكلة استراتيجية أيضًا؛ فقد كان اليمن الجنوبي، الذي يمتد على طول الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ويطل على البحر الأحمر

مباشرة، الكيان الماركسي الوحيد في العالم العربي. أما حكومة اليمن الشمالي، فقد كانت حكومة عسكرية موالية للغرب، ولكنها في نزاع حدودي مستمر مع المملكة.

استمع تركي إلى عرض بن لادن ولكنه رفض قائلًا: «إنها فكرة سيئة»، وكان للسعوديين تاريخ طويل من التدخل في شئون كل من اليمن الشمالي والجنوبي، لذا فلم يكن رفض تركي من باب اللياقة؛ فقد كان بن لادن يشير إلى رجاله في حديثه باسم «مجاهديَّ» وعن تحرير اليمن الجنوبي من الكفار، وقد تسبب أسلوبه المتفاخر في رفض تركي.

بعد لقاء بن لادن ورئيس المخابرات السعودية بوقت قصير، توصل اليمن الشمالي والجنوبي إلى اتفاق غير متوقع بدمج البلدين في كيان واحد يطلق عليها جمهورية اليمن بعد اكتشاف النفط في المنطقة الحدودية التائهة بين الدولتين الفقيرتين، وظهر حافز قوي يشجعهما على حسم الخلافات بينهما عن طريق السياسة بدلًا من السلاح.

ولكن لم يهدأ قلب بن لادن بعد هذه التطورات الأخيرة، وأصبح مقتنعًا أن الأمريكيين قد عقدوا اتفاقًا سريًّا مع الاشتراكيين لتأسيس قاعدة عسكرية في اليمن، لذا فقد اتجه لتدمير هذا التحالف عن طريق تمويل حرب عصابات. وبعد وقت قصير، بدأ المقاتلون اليمنيون ممن اشتركوا معه في الجهاد الأفغاني يظهرون في منزله في جدة من جديد ويغادرون محملين بحقائب مكتظة بالنقود لتمويل الثورة.

ذهب أحمد باديب، مدرس بن لادن القديم، لزيارته، بناءً على أوامر تركي ولا شك، وكان بن لادن آنذاك يدير بعض الاستثمارات في جدة. وبينما كانا يتبادلان أطراف الحديث، شعر باديب بمدى الغضب الذي يملأ صوت تلميذه السابق، وأدرك أن شيئًا ما على وشك أن يحدث؛ فبن لادن ببساطة لم يستطع تقبل فكرة وجود شيوعيين في الحكومة الائتلافية على الإطلاق، وأصر على فرض مفاهيمه المشوشة عن الحكومة الإسلامية، بدلًا من الحل السياسي العملي والسلمي الذي توصل إليه اليمنيون. فمن وجهة نظر بن لادن، شبه الجزيرة العربية بالكامل أرض مقدسة ويجب تطهيرها من العناصر الأجنبية، وحقيقة أن والده قد ولد في حضرموت في الجزء الجنوبي من اليمن، كانت تغذي رغبته المتقدة في تحرير أهله من أي أثر للحكم الشيوعي. وقد قام بعدد من الرحلات إلى الجمهورية الجديدة، وألقى في أثنائها خطبًا في المساجد لنشر بذور المعارضة. وكان جنوده من تنظيم القاعدة يتعاونون مع قادة القبائل في الشمال لتنفيذ غارات على مدن الجنوب واغتيال القادة الاشتراكيين.

twitter @baghdad_library

أتت تلك الغارات الدموية بالأثر المنشود. وعندما رأى الرئيس الجديد لجمهورية اليمن علي عبد الله صالح الاتحاد الجديد الهش على شفا الانهيار والتحول إلى حرب أهلية مرة أخرى، سافر إلى المملكة العربية السعودية لكي يناشد الملك فهد أن يكبح جماح بن لادن. فأمر الملك بن لادن بحزم ألا يدس أنفه في الشئون اليمنية، ولكن بن لادن أنكر أن له يدًا فيما يحدث، ولكنه سريعًا ما عاد إلى هناك مرة أخرى يلقي المزيد من الخطب ويشن حملات ضد الشيوعيين. فعاد الرئيس اليمني مرة ثانية وهو يشعر بالغضب واليأس إلى السعودية؛ لكي يطرح القضية ثانية أمام الملك فهد الذي لم يعتد أن يعصاه أحد رعاياه، بل والأكثر من هذا أن يكذب عليه، فلجأ إلى الرجل ذي القبضة الحديدية في العائلة.

استدعى وزير الداخلية الأمير نايف، وهو شخصًا مهيبًا غالبًا ما يُقارن بجون إدجار هوفر، بن لادن إلى مكتبه. وتحتل وزارة الداخلية مبنى يثير القلق بطريقة غريبة؛ إذ يتخذ شكل هرم مقلوب يلوح في أفق وسط مدينة الرياض، وترى أعمدة المصاعد الأنبوبية السوداء ترتفع داخل الردهات الرخامية الضخمة التي تفقد من يمر بها الإحساس بما حوله، والتي تبدو كأنها مصممة خصيصًا كي تحط من قدر أي شخص يقف بها. وقد جاء بن لادن إلى هذا المبنى عدة مرات إبان الجهاد الأفغاني لكي يبلغ الأمير نايف بتقارير دقيقة عن نشاطاته التي كان يحرص أن تكون الحكومة على اطلاع عليها. وكان دائمًا يحظى بمعاملة تنم عن احترام؛ نظرًا لوضع عائلته ومكانته هو وولائه للعائلة المالكة الذي كان واضحًا على مدار السنوات السابقة.

أما هذه المرة، فقد كان الوضع مختلفًا. فقد تحدث إليه نايف بحدة وطلب منه جواز سفره، ولم يشأ أن يسمع المزيد عن سياسته الشخصية الخارجية. ولقد أعاد هذا اللقاء بن لادن بقسوة إلى أرض الواقع، ولكنه شعر بأنه قد تعرض للخيانة، واشتكى لبعض أصدقائه قائلًا: «لقد كنت أعمل لصالح الحكومة السعودية.»

نظرًا لأن المملكة العربية السعودية هي أغنى دول المنطقة، ومحاطة بجيران يحسدونها على ثرواتها، فقد كانت أيضًا أكثرهم قلقًا. فعندما أمر الملك فيصل بإجراء أول إحصاء رسمي للسكان في عام ١٩٦٩م، صُدم بقلة عدد سكان بلاده حتى إنه ضاعف الرقم على الفور. ومنذ ذلك الوقت، بنيت جميع إحصائيات السكان في المملكة على ذلك الإحصاء غير الدقيق. وبحلول عام ١٩٩٠م، زعمت السعودية أن عدد سكانها قد

وصل إلى أكثر من أربعة عشر مليون نسمة، أي ما يساوي عدد سكان العراق تقريبًا، مع أن الأمير تركيًا قدَّر سرًّا تعداد سكان المملكة بأكثر قليلًا من خمسة ملايين نسمة. ونظرًا للخوف الذي كان يسيطر على المملكة من أن تتعرض للاجتياح والسلب والنهب، فقد أنفقت الحكومة السعودية مليارات الدولارات على الأسلحة، فكانت تشتري من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والصين أكثر الأجهزة والمعدات تطورًا في الأسواق، وبالطبع كان بضع أفراد من العائلة المالكة يستفيدون على هامش هذه الصفقات. وفي الثمانينيات، أنشأت المملكة نظام دفاع جويًّا تكلف خمسين مليار دولار، وقد نقل سلاح المهندسين في الجيش الأمريكي مقره الخارجي من ألمانيا إلى السعودية لبناء القواعد العسكرية والكليات ومباني القيادة للجيش السعودي والقوات الجوية والبحرية والحرس الوطني. وبعد أن أصدر الكونجرس الأمريكي قوانين تمنع الشركات الأمريكية من المشاركة في معاملات مالية خاصة مع العملاء الأجانب، عقدت الحكومة السعودية أكبر صفقة أسلحة في التاريخ مع بريطانيا العظمى. وفي نهاية ذلك العقد، كان من الممكن أن تكون المملكة كاملة العدة والعتاد وقادرة على الدفاع عن نفسها ضد أي تهديد من جيرانها؛ فلقد كانت تمتلك الأسلحة، ولكنها كانت تفتقر إلى القوات المدربة، بمعنى آخر كانت تحتاج إلى جيش حقيقي.

وفي عام ١٩٩٠م، حذر بن لادن من الخطر الذي يمثله صدام حسين ذلك الطاغية الدموي في العراق على المملكة، ولكنهم لم يستمعوا إليه وتجاهلوا تحذيره. وقد قال بن لادن بعد ذلك في حزن: «لقد قلت أكثر من مرة في خطبي في المساجد، وحذرت من أن صدامًا سيدخل الخليج، ولكن لم يصدقني أحد.» وكان جزء كبير من العالم العربي معجبًا بخطب صدام المعادية للغرب وبتهديداته بأن «يحرق نصف إسرائيل» بالأسلحة الكيميائية. وقد كان صدام مشهورًا بصورة خاصة في المملكة العربية السعودية التي كانت على علاقة طيبة بجارتها الشمالية، ومع ذلك، فقد استمر بن لادن في حملته الفردية ضد صدام وحزب البعث العلماني الذي يرأسه.

ومرة أخرى، انزعج الملك بسبب سلوكيات بن لادن، وهو موقف خطير لأي مواطن سعودي؛ فقد وقعت المملكة معاهدة عدم اعتداء مع العراق، وأكد صدام شخصيًّا للملك فهد أنه ليست لديه أية نية لغزو الكويت، حتى في الوقت الذي كان يحرك فيه فرق الحرس الجمهوري العراقي إلى الحدود. ومرة أخرى، حذرت الحكومة السعودية بن لادن من أن يدس أنفه في شئون الآخرين، ثم أتبعت هذا التحذير بإرسال الحرس الوطني لينقض على مزرعته ويلقي القبض على عدد من

twitter @baghdad_library

عماله. فاعترض بن لادن على هذا الانتهاك لدى ولي العهد الأمير عبد الله قائد الحرس الوطني الذي أنكر معرفته بأي شيء عن الحادث.

وفي الحادي والثلاثين من يوليو/تموز، رأس الملك فهد شخصيًّا اجتماعًا بين ممثلين عن العراق والكويت لحسم الخلافات القائمة بين الدولتين على ملكية حقول النفط التي لا تقدر بثمن على الحدود بينهما. وقد اشتكى صدام أيضًا أن معدلات الإنتاج الكويتية العالية تتسبب في انخفاض أسعار النفط، وتدمر الاقتصاد العراقي الذي تعرض للإفلاس بالفعل بسبب كارثة الحرب مع إيران التي أشعل صدام نيرانها عام ١٩٨٠م، والتي انتهت بعد ثماني سنوات، تاركة خلفها مليون من القتلى والجرحى. وعلى الرغم من وساطة الملك، انهارت المحادثات بين الدولتين سريعًا. وبعد يومين، اجتاح الجيش العراقي الجبار ذلك البلد الصغير، وفجأة أصبح كل ما يفصل بين صدام حسين وحقول النفط السعودية أميال قليلة من رمال الصحراء، يواجه بعدها الجيش السعودي جيد العدّة والعتاد ولكن قليل العدد والمفتقر إلى المقاتلين الأشداء. وكانت كتيبة واحدة فقط من الحرس الوطني السعودي، أي أقل من ألف رجل، هي التي تحرس حقول النفط.

أصاب ذلك الغزو العائلة المالكة بصدمة شديدة حتى إنها أجبرت وسائل الإعلام التي تحكم قبضتها عليها أن تنتظر أسبوعًا قبل أن تعلن عن الغزو. بالإضافة إلى ذلك، فقد صعقت حينما اكتشفت مدى عزلتها في العالم العربي، بعد أن تكبدت لسنوات مليارات الدولارات لنثر بذور الصداقة مع جيرانها العرب. وقد أعلن الفلسطينيون والسودانيون والجزائريون والليبيون والتونسيون واليمنيون وحتى الأردنيون مساندتهم لصدام.

ومع وجود الجيش العراقي مرابطًا على الحدود السعودية، كتب بن لادن خطابًا إلى الملك يناشده ألا يلجأ إلى الأمريكيين لحمايته، ثم اتبع ذلك بجولة حماسية لكسب تأييد كبار الأمراء. وانقسمت العائلة المالكة على نفسها حول أفضل وسيلة للتعامل مع الموقف؛ فقد كان ولي العهد الأمير عبد الله يعارض بشدة اللجوء للمساعدة الأمريكية، في حين لم يرَ الأمير نايف بديلًا آخر.

وعلى أية حال، كان الأمريكيون قد اتخذوا قرارهم بالفعل؛ فإذا سيطر صدام على المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية بعد أن ينتهي من الكويت سريعًا، فسيكون بذلك أحكم قبضته على الجزء الأكبر من موارد النفط العالمية المتوفرة. وكان هذا في حد ذاته تهديدًا خطيرًا لأمن الولايات المتحدة، وليس المملكة العربية السعودية

فقط. لذا فقد سافر وزير الدفاع الأمريكي ديك تشيني Dick Cheney إلى جدة ومعه فريق من المستشارين ومنهم الجنرال نورمان شوارزكوف Norman Schwarzkopf، ليقنع الملك بالموافقة على وجود القوات الأمريكية للدفاع عن السعودية. وقد عرض شوارزكوف صورًا بالأقمار الصناعية لثلاث فرق عراقية مدرعة داخل الكويت تتبعها قوات أرضية، وأخبره أن تعداد الجيش الذي اجتاح الكويت أكبر بكثير مما يتطلب احتلال بلد صغير كهذا. وقد نمى إلى علم المخابرات السعودية أن عددًا من فرق الاستطلاع العراقية قد عبرت الحدود السعودية بالفعل.

حذر ولي العهد الأمير عبد الله من دخول الأمريكيين إلى المملكة خوفًا من ألا يرحلوا عنها أبدًا. فتعهد تشيني نيابة عن الرئيس الأمريكي بأن القوات الأمريكية ستغادر المملكة فور انتهاء التهديد أو عندما يأمر الملك بذلك، وقد حسم هذا الوعد الأمر. لذا فقد ناشده الملك قائلًا: «تعالوا بكل ما يمكنكم من قوة، تعالوا بأسرع ما يمكنكم.»

في الأيام الأولى من شهر سبتمبر/أيلول، أي بعد أسابيع من بدء وصول القوات الأمريكية، تحدث بن لادن إلى الأمير سلطان وزير الدفاع وبصحبته مجموعة من قادة المجاهدين الأفغان والمقاتلين السعوديين الذين اشتركوا في الحرب الأفغانية. وقد أعاد بن لادن مرة أخرى على مسامع الأمير الحديث نفسه الذي ألقاه شوارزكوف ولكن بطريقة غريبة ومبالغ فيها. فقد أحضر بن لادن الخرائط الخاصة به للمنطقة، وقدم خطة هجوم مفصلة موضحة بالرسوم التوضيحية والتخطيطية، ومشيرة إلى الخنادق والشراك الرملية التي سيجري إنشاؤها على طول الحدود باستخدام آلات ومعدات البناء الكثيرة التي توفرها مجموعة بن لادن السعودية. بالإضافة إلى ذلك، كان بن لادن سيقوم بحشد جيش من المجاهدين من زملائه من الجهاد الأفغاني والشباب السعودي العاطل. ووعد الأمير سلطان قائلًا: «أنا جاهز لإعداد جيش يتألف من مائة ألف مقاتل يتمتعون بقدرات قتالية جيدة في ثلاثة أشهر. إنك لا تحتاج إلى الأمريكيين، لا تحتاج إلى أي قوات غير مسلمة، ستكون قواتنا كافية.»

ولكن الأمير نبهه قائلًا: «لا توجد كهوف في الكويت، ماذا ستفعل عندما يضربكم بصواريخ محملة بأسلحة كيميائية وبيولوجية؟» فأجابه بن لادن: «سنحاربه بالإيمان.»

قدم بن لادن العرض نفسه للأمير تركي الذي كان واحدًا من الأمراء القلائل الذين وافقوه على تقديره لصدام كتهديد يحدق بالمملكة. وفي الواقع، كان تركي قد

twitter @baghdad_library

تقدَّم للمخابرات الأمريكية على مدار سنوات بعدد من الاقتراحات للإطاحة بصدام حسين بوسائل سرية ولكن كانت اقتراحاته تقابل دائمًا بالرفض. وعندما غزت القوات العراقية الكويت، كان الأمير تركي في إجازة يقضيها في واشنطن العاصمة. وكان في دار عرض يشاهد الجزء الثاني من فيلم «الموت الصعب» Die Hard، عندما استدعي إلى البيت الأبيض وقضى الليل بأكمله في مبنى الاستخبارات المركزية الأمريكية يساعد في تنسيق حملة طرد العراقيين من الكويت. وكان يرى أنه إذا سُمِح لصدام بالبقاء في الكويت، فإنه سيغزو المملكة على أقل سبب.

لذا فعندما تقدم إليه بن لادن وفي جعبته هذه الخطة، صُدم من سذاجة مقاتل الحرب الأفغانية الشاب. فقد كان تعداد الجيش السعودي بالكامل لا يتعدى ثمانية وخمسين ألف رجل، في حين أن العراق من ناحية أخرى، يمتلك جيشًا قويًا يتكون من مليون جندي تقريبًا، وهو رابع أكبر جيش في العالم، هذا بالطبع إلى جانب قواته الاحتياطية والقوات المدنية المدربة على حمل السلاح. بالإضافة إلى قوات المدرعات العراقية التي تتكون من ٥٧٠٠ دبابة، وحرس صدام الجمهوري الذي يضم بين صفوفه أقوى وأفضل القوات العسكرية المدربة في الشرق الأوسط، ولكن كل هذا لم يؤثر في بن لادن الذي أجابه: «لقد طردنا السوفييت من أفغانستان.»

ضحك الأمير غير مصدق ما سمعه من بن لادن، ولأول مرة أقلقته «التغيرات الجذرية» التي طرأت على شخصية بن لادن الذي تحول من «رجل هادئ ومسالم ولطيف» كل هدفه مساعدة المسلمين في كل مكان إلى «شخص يصدق أنه يستطيع أن يحشد جيشًا ويقوده لتحرير الكويت. وقد عكست تلك الفكرة غروره وغطرسته.»

عندما رفضت الحكومة أفكاره، لجأ بن لادن إلى علماء الدين. وقد بنى رفضه للمساعدة الأمريكية على ما قاله الرسول وهو على فراش الموت: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»، وقد ظل معنى هذا الحديث محلًّا للخلاف منذ أن تفوه بها الرسول؛ فيقول الأمير تركي: إن الرسول كان يعني أنه يجب ألا يسيطر أي دين آخر على شبه الجزيرة العربية، مشيرًا إلى أنه حتى في أيام الرسول كان هناك يهود ومسيحيون يسافرون عبر شبه الجزيرة، وإنه في عام ٦٤١م فقط، أي في العام العشرين من التقويم الهجري، بدأ الخليفة عمر بن الخطاب ينقل بعض السكان الأصليين من المسيحيين واليهود من مناطق معينة في شبه الجزيرة العربية، ويعيد تسكينهم في العراق وسوريا وفلسطين. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت المدينتان المقدستان مكة

والمدينة المنورة محظورتين على غير المسلمين، ولكن لم يكن هذا كافيًا في نظر بن لادن وكثير من الإسلاميين، ورأوا أن ما كان الرسول يعنيه وهو على فراش الموت واضح: يجب طرد جميع غير المسلمين من شبه الجزيرة العربية بالكامل.

ومع ذلك، ضغطت الحكومة السعودية، التي تدرك جيدًا الخطورة التي يمثلها وجود قوات أجنبية على سلطتها الشرعية، على هيئة العلماء لإصدار فتوى تحلل دعوة الجيوش غير المسلمة إلى المملكة بحجة الدفاع عن الإسلام، وهذا من شأنه أن يمنح الحكومة الغطاء الديني الذي تحتاج إليه. ولكن بن لادن واجه كبار العلماء قائلًا بغضب: «هذا غير جائز.» فأجابه أحد الشيوخ وهو يضع يده على رقبته مشيرًا إلى أنها لن تظل في مكانها إذا تحدثوا عن هذا الأمر: «يا أسامة يا بني، لا يمكننا مناقشة هذا الأمر لأننا خائفون.»

وفي غضون أسابيع، تدفق نصف مليون جندي أمريكي إلى المملكة، وقد خشي الكثير من السعوديين أن يكون وصولهم إعلانًا عن حقبة لن تنتهي من الاحتلال. ومع أن القوات الأمريكية، وقوات التحالف الأخرى، كانت متمركزة بصفة أساسيّة خارج المدن كي تبقى بعيدة عن الشعب، فقد شعر السعوديون بالخزي لأنهم اضطروا للجوء إلى المسيحيين واليهود للدفاع عن أرض الإسلام المقدسة، ومما زاد من خزيهم أن كثيرًا من هؤلاء الجنود الأجانب كانوا نساء. وقد فُضح ضعف الدولة السعودية واعتمادها المذل على الغرب لحمايتها أمام العالم كله على يد ألف وخمسمائة صحفي أجنبي جاءوا إلى المملكة لتغطية استعدادات الحرب. ومن منظور هذا الشعب شديد التدين الذي اعتاد خصوصية شئونه ووجود صحافة تخضع للسيطرة الكاملة للدولة، فقد كانت تلك التغطية الدقيقة أمرًا مربكًا، وفي بعض الأحيان مهينًا ومثيرًا في الوقت نفسه. وخيمت على المملكة أجواء من الخوف والغضب والذل ورهبة الأجانب، ولكن بدلًا من الالتفاف حول حكومتهم المحاطة بالخطر، رأى كثير من السعوديين في ذلك الموقف فرصة لن تتكرر لتغييرها.

ففي تلك اللحظات الحرجة في تاريخ المملكة العربية السعودية، وفي الوقت الذي تركزت فيه أنظار العالم كله عليها، تجرأ التقدميون السعوديون لدرجة تقديم مطالبهم المتواضعة. ففي شهر نوفمبر/تشرين الثاني، قررت سبع وأربعون سيدة أنه قد حان الوقت لتحدي منع الحكومة غير الرسمي السيدات من قيادة السيارات، فقد اتضح أنه لا يوجد قانون فعلي يمنع ذلك. فتقابلت السيدات أمام أحد فروع سلسلة محال سيف واي Safeway في الرياض، وأمرن السائقين بمغادرة السيارات،

twitter @baghdad_library

ثم أخذن يتجولن بسياراتهن في تحدٍّ مدة خمس عشرة دقيقة في العاصمة. وقد أوقفهن أحد ضباط الشرطة، لكنه لم يجد سببًا قانونيًّا لإلقاء القبض عليهن. وعلى الفور، منع الأمير نايف تكرار ذلك الأمر، وتبعه الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس هيئة العلماء بإصدار فتوى وصف فيها قيادة النساء للسيارات بأنها مصدر للفسق. ففقدت هؤلاء السيدات جوازات سفرهن وطُرد عدد منهن، كن يعملن أستاذات جامعيات في كلية الفتيات في جامعة الملك سعود، من عملهن بعد أن اعترضت الطالبات ورفضن أن يتلقين العلم على أيدي «كافرات».

وفي شهر ديسمبر/كانون الأول، روج المصلحون عريضة يطلبون فيها وضع نهاية للتمييز القائم على الانتماء القبلي، وتأسيس مجلس شورى للملك، ومنح المزيد من الحرية للصحافة، وتشريع بعض القوانين الأساسية للحكم، وفرض نوع من الرقابة على الفتاوى الدينية الكثيرة.

وبعد بضعة شهور، ردت المؤسسة الدينية بخطابها المتقد الذي أطلق عليه «خطاب المطالب»، والذي كان دعوة صريحة لسيطرة الحكم الإسلامي على المملكة، وقد احتوى أيضًا على هجوم شبه صريح على سيطرة العائلة المالكة على شئون البلاد. وقد طالب الأربعمائة عالم ديني وقاض وأستاذ جامعي الذين وقعوا على الخطاب بالالتزام التام بالشريعة في جميع شئون المجتمع، بما في ذلك منع دفع الفوائد البنكية، وتكوين جيش إسلامي عن طريق تدريب عسكري على مستوى عالمي، و«تطهير» وسائل الإعلام لخدمة الإسلام بطريقة أفضل. وقد صُدمت العائلة المالكة بذلك الخطاب أكثر من صدمتها بغزو صدام حسين للكويت. وتردد صدى مطالب قادة هجوم ١٩٧٩م على المسجد الحرام في كثير من مطالب المعارضين المتدينين، وقد أصبحت تلك المطالب أساس الأجندة السياسية لبن لادن في المملكة.

سريعًا ما تطورت مهمة الجيش الأمريكي من مجرد حماية المملكة العربية السعودية إلى طرد العراقيين من الأراضي الكويتية. وقد بدأت الحرب في السادس عشر من يناير/كانون الثاني عام ١٩٩١م، وفي ذلك الوقت كان معظم السعوديين قد أذعنوا لفكرة وجود القوات الأمريكية، ومعها قوات أربع وثلاثين دولة أخرى التي كوَّنت قوات التحالف ضد العراق. وانتقل مئات الآلاف من المواطنين الكويتيين كلاجئين إلى المملكة، ونقلوا معهم قصصًا مؤثرة للغاية عن عمليات السلب والنهب الدائرة في البلاد، والخطف والتعذيب وقتل المدنيين وهتك عرض النساء الكويتيات على أيدي القوات العراقية. وعندما بدأت صواريخ سكود العراقية تمطر الرياض،

بغض النظر عن ضعف تأثيرها، لم يجرؤ أحد على المعارضة مرة أخرى. ولكن في نظر كثير من السعوديين، فإن وجود «الصليبيين» الأجانب، على حد وصف بن لادن لقوات التحالف، في أرض الإسلام المقدسة يمثل كارثة أعظم من تلك التي أنزلها صدام على الكويت.

وفي السادس من مارس/آذار من العام نفسه، تباهى الرئيس الأمريكي جورج بوش قائلًا: «الليلة في العراق يسير صدام بين الأنقاض. لقد تحطمت آلة الحرب التي يقودها، وانتهت قدرته على التهديد بإحلال الدمار الشامل.» ومع أن صدام ظل رئيسًا للبلاد، فقد بدا هذا الأمر حدثًا هامشيًّا للاستعراض المروِّع للقوة العسكرية الأمريكية والتحالف الدولي الذي اجتمع خلف قيادة الولايات المتحدة. وقد كان الرئيس الأمريكي مبتهجًا، فبعد انهيار الاتحاد السوفييتي وتحقيق ذلك النصر الصاعق، أصبح تربع أمريكا على عرش العالم أمرًا غير قابل للجدال. وقد قال بوش في خطبته أمام الكونجرس: «بإمكاننا أن نرى عالمًا جديدًا يلوح في الأفق أمامنا، عالمًا يوجد فيه أمل حقيقي للنظام العالمي الجديد ... عالمًا تكون فيه الأمم المتحدة بعد أن تحررت من أزمة الحرب الباردة مستعدة للقيام بالدور التاريخي الذي رسمه لها مؤسسوها، عالمًا تجد فيه الحرية واحترام حقوق الإنسان مكانها في جميع البلدان.»

وجدت هذه الكلمات التي تفوه بها الرئيس الأمريكي بأمل كبير في أسامة بن لادن مستمعًا يشعر بالمرارة. لقد أراد هو الآخر إنشاء نظام عالمي جديد، نظام يحكمه المسلمون، وليس نظامًا تمليه أمريكا وتفرضه الأمم المتحدة. لقد بدأ حجم طموحه يعلن عن نفسه، وفي خياله الجامح سيدخل هو التاريخ بصفته منقذ الإسلام.

شن بن لادن حملة على أعلى المستويات لاستعادة جواز سفره، وقال: إن عليه العودة إلى باكستان للمساعدة في التوسط لإنهاء الحرب الأهلية بين المجاهدين التي كانت الحكومة السعودية مهتمة بشدة بالتوصل لحل لها، وقد قال مناشدًا: «لدي دور لأقوم به هناك.» وقد تدخل كثير من الأمراء والشيوخ البارزين لمصلحته، ومن ثم تراجع الأمير نايف عن قراره وأعاد لبن لادن أوراق سفره، ولكن بعد أن جعل المقاتل المثير للمتاعب يوقع على تعهد بأنه لن يتدخل في سياسة المملكة العربية السعودية أو أي بلد عربي آخر.

وفي مارس/آذار من عام ١٩٩٢م، وصل بن لادن إلى بيشاور. كانت الحكومة الشيوعية في أفغانستان قد تمكنت من التشبث بالسلطة في السنوات الثلاث التي ابتعد

twitter @baghdad_library

فيها عن البلاد، ولكنها كانت على وشك الانهيار. وكانت قوات المجاهدين المتنافسة بقيادة أحمد شاه مسعود وقلب الدين حكمتيار اشتبكت بالفعل في معركة دامية لتحديد من يستحوذ على السلطة. أما القوى العظمى التي اختارت أفغانستان لتكون مسرحًا لمعركةِ البقاء بين الشيوعية والرأسمالية، فقد كانت غائبة غيابًا واضحًا في ظل الفوضى التي سيطرت على البلاد في مرحلة ما بعد الحرب. وكان الأمير تركي يأمل في تأسيس حكومة مؤقتة في أفغانستان توحد القادة المتحاربين وترسخ الأمن والاستقرار في البلاد. وقد رأس بنفسه المفاوضات في بيشاور ومعه رئيس الوزراء الباكستاني نواز شريف.

وقد كان تركي، خوفًا من تأثير إيران على الحدود الغربية لأفغانستان، يميل إلى دعم العناصر السنية الأكثر تمردًا وأصولية بقيادة حكمتيار. أما بن لادن، من ناحية أخرى، فقد حاول أن يقوم بدور الوسيط المحايد بين الطرفين، فرتب مؤتمرًا هاتفيًا بين مسعود وحكمتيار، ناشد فيه حكمتيار أن يجلس معهم على مائدة المفاوضات، ولكن الأخير كان عنيدًا لأنه يعرف أن الأمير تركي يقف وراءه ويدعمه. ولكن في منتصف الليل، تسللت قوات مسعود إلى المدينة، وفي الصباح التالي، قام حكمتيار بعد أن صعقته المفاجأة وتملك منه الغضب بإمطار مدينة كابول بوابل من الصواريخ، وفرض حصارًا على العاصمة. وبدأت الحرب الأهلية الأفغانية.

وبمعارضة الأمير تركي في المفاوضات، أيقن بن لادن أنه قد تجاوز حدوده، وقد قال لبعض رفاقه: إن السعودية قد جندت المخابرات الباكستانية لقتله. وهكذا، انهار التحالف القديم الذي نشأ إبان الجهاد الأفغاني، وأصبح هو والأمير تركي عدوين لدودين.

وقبل أن يغادر أفغانستان، تنكر بن لادن ودخل إلى مستوصف في كراتشي للعلاج من مرض مجهول، وكان طبيبه، الظواهري، في اليمن في ذلك الوقت، ولكنهما سيجتمعان ثانية قريبًا.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن

الفردوس

مع أن المعارك لم تتوقف قط بعد سقوط مدينة كابول، فقد أسدل الستار على الجهاد الأفغاني. وقد ظل بعض العرب في أفغانستان وتورطوا في الحرب الأهلية، ولكن معظمهم رحلوا. ولم تكن عودة هؤلاء المقاتلين إلى بلاهم أمرًا مرحبًا به؛ فقد كانت حكوماتهم تنظر إليهم على أنهم متطرفون وخارجون على نظامها السائد حتى قبل سفرهم إلى أفغانستان. وهذه الحكومات نفسها هي التي شجعت هؤلاء الشباب على الاشتراك في الجهاد وساعدتهم ماديًا على السفر أملًا منها أن تتخلص من مثيري الشغب والمشكلات في قضية مهلكة. ولم تفكر هذه الحكومات كثيرًا في احتمال عودة الآلاف من هؤلاء الشباب بعد أن تقوى شوكتهم بالتدريب على تقنيات وأساليب حروب العصابات وبالأسطورة التي نسجوها عن انتصارهم هناك. وعلى غرار كل المحاربين العائدين، فقد أحضروا معهم أيضًا مشكلات نفسية وذكريات أليمة من الصعب التعايش معها. حتى أولئك الذين لم تكن لديهم خبرة حقيقية في القتال، فقد عادوا وثقافة الشهادة والتكفير مترسخة في عقولهم، وكانوا يتجولون بخيلاء في المساجد، مرتدين في معظم الأحيان الزي الأفغاني إشارة إلى مكانتهم المتميزة.

قدرت المخابرات السعودية أن ما بين خمسة عشر ألفًا إلى خمسة وعشرين ألف شاب سعودي قد تدرب في أفغانستان، مع أن بعض التقديرات الأخرى تشير إلى أرقام أقل بكثير. وأما الذين عادوا إلى المملكة، فقد اعتُقلوا على الفور لمدة يومين أو ثلاثة للتحقيق معهم. أما بعض الدول الأخرى فقد رفضت عودة هؤلاء المقاتلين إليها، فأصبحوا عصبة من المرتزقة المتدينين المشردين الذين لا ينتمون إلى وطن. والكثيرون منهم استقروا في باكستان وتزوجوا من نساء باكستانيات وتعلموا اللغة الأردية. والبعض الآخر ذهب ليقاتل في كشمير أو كوسوفو أو البوسنة أو الشيشان.

أي تناثرت جمرات الحرب الأفغانية في العالم بأسره، وقريبًا ما ستضرم النيران في الجزء الأكبر من العالم الإسلامي.

أما أولئك الجنود المتمرسون الهائمون على وجوههم بلا وطن الذين ترسخت بداخلهم عقائد فكرية محددة، فقد كان هناك وطن جديد بانتظارهم. ففي يونيو/حزيران من عام ١٩٨٩م، في الوقت نفسه الذي كانت تطوى فيه صفحة الجهاد الأفغاني، نفذ الإسلاميون انقلابًا عسكريًّا ضد الحكومة المدنية الديمقراطية في السودان. وكان قائد الانقلاب هو الفريق عمر حسن البشير، ولكن المحرك الأساسي الذي يقف خلفه هو حسن الترابي، وهو أحد أكثر الشخصيات المعقدة والمبدعة والجذابة والمخادعة في أفريقيا.

وعلى غرار بن لادن والظواهري، كان الترابي يعزو فشل العالم العربي إلى أن الحكومات العربية ليست إسلامية كما ينبغي، وتعتمد اعتمادًا كبيرًا على الغرب. ولكنه كان يختلف معهما في أنه من علماء الدين، وعلى دراية بالحياة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، إذ إنه طاف أنحاء الولايات المتحدة عندما كان طالبًا عام ١٩٦٠م، وكان يقيم مع العائلات الأمريكية العادية، «حتى مع الهنود الحمر والمزارعين»، وهي المغامرة التي سوف تثري نقده الحاد للعلمانية والرأسمالية. وقد حصل الترابي على شهادة الماجستير في القانون من كلية لندن للاقتصاد في عام ١٩٦١م، وبعد ثلاث سنوات حصل على شهادة الدكتوراه في القانون من جامعة السوربون في باريس.

تصور الترابي تكوين أمة إسلامية يكون مركزها الرئيسي في السودان تفيض بعد ذلك على الدول الأخرى حاملة معها بذور الثورة الإسلامية في دائرة تتسع باستمرار. وسيكون السودان، الذي كان حتى ذلك الوقت في حالة من الركود الثقافي في العالم الإسلامي، المركز الثقافي لحركة الإصلاح، وسيكون الترابي هو الأب الروحي لها. وفي سبيل تنفيذ تلك الخطة، فتح الترابي أبواب بلاده على مصراعيها لاستقبال أي مسلم مهما كانت جنسيته، ودون أن تُطرَح عليه أي أسئلة. وبطبيعة الحال، فقد استجاب لدعوته أولئك الذين لم يكن مرحبًا بهم في أي مكان آخر.

بدأت حكومة السودان تتودد إلى بن لادن بإرسال خطاب دعوة له عام ١٩٩٠م، وتبعت ذلك بإرسال عدد من أعضاء المخابرات السودانية للقائه. في الواقع، لقد كانوا يعرضون على بن لادن بلدًا كاملًا يستطيع أن يعمل فيه بحرية. وفي نهاية ذلك العام، أرسل بن لادن أربعة من رجاله الذين يثق بهم لدراسة فرص العمل والاستثمار التي وعدتهم بها الحكومة السودانية. وقد بهر الترابي هؤلاء الممثلين بسعة معرفته

twitter @baghdad_library

واطلاعه، لذا فقد عادوا بتقرير مفعم بالحماسة إلى بن لادن قائلين: «ما تحاول القيام به موجود في السودان! هناك أناس ذوو عقول ومهنيون! إنك لن تتعامل مع أناس لا يفقهون شيئًا.»

وبعد ذلك بوقت قصير، ظهر رسول آخر من بن لادن في الخرطوم ومعه حقيبة مكتظة بالنقود، وقام هذا الرسول، الذي كان عضوًا سودانيًّا في تنظيم القاعدة واسمه جمال الفضل، بتأجير عدد من المنازل وشراء مساحات كبيرة من الأراضي لتكون أماكن للتدريب. وكان لجماعة الجهاد وجود في السودان بالفعل، وقد أعطى الظواهري بنفسه جمال الفضل مبلغ ٢٥٠ ألف دولار لشراء مزرعة شمال العاصمة. وبدأ الجيران يشكون من أصوات الانفجارات في الحقول غير المزروعة بجوارهم.

ولاستمالة بن لادن أكثر، منحت الحكومة مجموعة بن لادن السعودية عقد بناء مطار في مدينة بور سودان، الأمر الذي جعل بن لادن يزور البلد بصورة متكررة للإشراف على عمليات الإنشاء. وفي النهاية، انتقل إلى الخرطوم عام ١٩٩٢م على متن طائرة من أفغانستان حملته هو وزوجاته الأربع وأطفاله الذين كان عددهم في ذلك الوقت سبعة عشر طفلًا. وأحضر بن لادن جرافات ومجموعة من المعدات الثقيلة الأخرى معلنًا عزمه إنشاء طريق يبلغ طوله ثلاثمائة كيلومتر شرق السودان هدية للشعب السوداني، وقد حياه قائد السودان بمنحه أكاليل من الزهور.

من الصعب إيجاد شخصين تتفق أحلامهما على هذا النحو وتختلف جميع جوانب شخصيتيهما الأخرى مثل بن لادن والترابي. فبقدر ما كان بن لادن مقتضبًا قليل الحديث، كان الترابي فصيحًا ونظريًّا للغاية، أي ثرثارًا عبقريًّا. وكان يعقد في منزله جلسات مسامرة، فتجد في أية أمسية من تلك الأمسيات كبار رجال الدولة والعلماء المتميزين يجلسون على الأرائك القماشية الخضراء المستندة إلى الحائط في صالون منزل الترابي، يحتسون الشاي ويستمعون إلى أحاديثه المطولة. وكان بإمكان الترابي التحدث لساعات دون أن يتوقف ودون أن يكون هناك مبرر لهذا فيما عدا وجود مستمعين من حوله، ويُلَوِّح بكلتا يديه في أثناء الحديث ويؤكد الطُّرَف التي يلقيها بضحكات عصبية. وكان حسن الترابي هزيل الجسد أسود البشرة وكان هذا يتناقض مع ثوبه وعمامته شديدي البياض وابتسامته العريضة التي تظهر فيها أسنانه الناصعة، مما أضاف المزيد من الحيوية إلى مظهره.

وكان بن لادن يحضر واحدة من تلك الأمسيات كل شهر تقريبًا، ولكن من باب الكياسة أكثر من الفضول، وكان يختلف مع كل شيء يقوله الترابي تقريبًا، إلا أنه لم يكن ندًا للدكتور ليتناقش معه في جلساته الأدبية التي يقيمها في منزله. فالإسلام الذي يجاهد الترابي للوصول إليه بذلك الأسلوب المتطرف غير الديمقراطي في حقيقته تقدميًّا بصورة مدهشة؛ فقد كان الترابي يؤيد رأب الصدع القديم بين فرعي الإسلام السنة والشيعة، الأمر الذي كان في نظر بن لادن بدعة. وتحدث أيضًا عن دمج «الفن والموسيقى والغناء» في الدين، مخالفًا بذلك عقيدة بن لادن الوهابية. وفي بداية حياته العملية، اكتسب الترابي سمعته كمفكر إسلامي بالدفاع عن حقوق المرأة، وكان يرى أن النساء المسلمات قد عانين تراجعًا في حقوقهن لمدة طويلة عن المساواة النسبية التي كن يتمتعن بها فيما مضى. وكان يقول: «اعتاد الرسول نفسه أن يزور النساء، وليس الرجال، طلبًا للمشورة والنصح، وكان يجوز لهن إمامة الصلاة. وحتى في معاركه، كن معه! وكن يتمتعن بحق التصويت في الانتخابات بين عثمان وعلي لتحديد من سيكون خليفة النبي.»

عندما وجد بن لادن نفسه يعيش أخيرًا في دولة إسلامية متطرفة، بدأ يطرح بعض الأسئلة العملية مثل: كيف ينوي الإسلاميون تطبيق الشريعة في السودان؟ وكيف يخططون للتعامل مع المسيحيين في الجنوب؟ وفي الغالب لم تكن الإجابات تروق له. فقد أخبره الترابي أنهم يعتزمون تطبيق الشريعة بالتدريج وعلى المسلمين فقط، وسيتقاسم المسلمون السلطة مع المسيحيين عن طريق نظام حكم فيدرالي. ولم يكن بن لادن يطيق صبرًا للخروج من منزل الترابي في هذه الأمسيات، فكان يجلس مدة تتراوح ما بين عشرين وثلاثين دقيقة ثم يتسلل خارجًا. وقد قال بن لادن ذات مرة لبعض أصدقائه واصفًا الترابي: «هذا الرجل مكيافيلي، لا يأبه على الإطلاق بالوسائل التي يستخدمها.» ومع أنهما كانا لا يزالان بحاجة إلى بعضهما، فقد بدأ كل منهما ينظر إلى الآخر على أنه منافس له.

بدأت الحياة في الخرطوم كأسعد مرحلة في حياة بن لادن كرجل ناضج. فقد فتح مكتبًا صغيرًا في وسط المدينة في شارع مك نمر في مبنى متهالك يتكون من طابق واحد، به تسع غرف وسقف منخفض وجهاز تكييف هواء ثقيل يُسقط قطرات الماء على رصيف المشاة بجانب المبنى. وبدأ بن لادن في ذلك المبنى شركة وادي العقيق، الشركة القابضة للعديد من المشروعات التي أقامها هناك، وقد أطلق عليها ذلك

twitter @baghdad_library

الاسم تيمنًا باسم نهر في مكة. وعلى الجانب الآخر من الشارع، تقع وزارة الشئون الإسلامية في مبنى كان بيت دعارة شهيرًا في أثناء الاحتلال البريطاني، ويقول عصام ابن الشيخ حسن الترابي: «لقد ضحك أسامة عندما أخبرته بذلك.»

أصبح بن لادن وعصام صديقين بسبب شغفهما المشترك بركوب الخيل. ويوجد في السودان أربعة ملايين حصان إذ إن الشعب السوداني يعتمد عليها في النقل والمواصلات وحرث الحقول، ويهوى رياضة ركوب الخيل أيضًا. ومع أن عصامًا لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره عندما وصل بن لادن إلى الخرطوم، فقد كان واحدًا من أفضل مربي الخيول في السودان، وكان لديه إصطبل في مضمار سباق الخرطوم. وفي أحد أيام الجمعة، ذهب إليه بن لادن لكي يشتري فرسًا، فاصطحبه عصام ليريه مرابط الخيل التي يملؤها الذباب. وقد أعجب عصام بزائره السعودي كثيرًا، وقال عنه: «لم يكن طويلًا، ولكنه كان وسيمًا، انظر إلى عينيه وأنفه، لقد كان جميلًا.» اختار بن لادن جواد سباق رائع الشكل ولكن من مربٍّ آخر، فرتب عصام لشرائه له دون أن يطلب منه عمولة. وكان أسامة قد اعتاد أن جميع من حوله يحاولون الاستفادة من أمواله حتى إن تلك المجاملة البسيطة قد أثارت إعجابه، وقرر أن ينزل خيوله في إصطبل عصام. واشترى لنفسه أربعة خيول سباق سودانية أخرى واشترى لأولاده نحو عشرة من الخيل المحلي وقام بتهجينها مع بعض الخيول العربية التي أحضرها معه من المملكة. ولكن كان عصام يزدري ما وصفه بأنه ارتباط بن لادن الرومانسي بالخيل العربي، فيقول: «إننا نحاول هنا الوصول لخيول السباق الأصيلة بعيدًا عن الخيول العربية، ولكنه أراد أن تكون له خطة استيلاد خاصة به.»

ومضمار سباق الخرطوم أرض فوضوية مليئة بالغبار تمرح فيها الكلاب الضالة وتطارد الخيول في مضمار السباق الذي يخلو تمامًا من أي حشائش خضراء. وتنقسم المدرجات المتهالكة في ذلك المضمار إلى جزأين: الجزء السفلي حيث يقف العامة لمشاهدة السباقات، والجزء العلوي، حيث تكون الرؤية أفضل، المخصص لصفوة المجتمع وأصحاب الخيول حيث يجلسون في أماكن مريحة نسبيًّا. وكان أسامة يصر على مشاهدة السباقات من الجزء السفلي، مع أن عصام كان من أعضاء مجلس إدارة المضمار ولديه مقصورة في موقع متميز. وفي السودان، تكون سباقات الخيل صاخبة ويحدث المشاهدون جلبة بالرقص والغناء. وكان المجاهد الشهير يضع إصبعيه في أذنيه كلما عزفت الفرقة الموسيقية، وكان هذا كفيلًا بالقضاء على متعته في مشاهدة

الخيل، وعندما طلب من الجمهور التوقف عن الغناء، رفضوا ذلك ونهروه. فكان عصام يذكره برفق: «وجود الموسيقى ليس خطأك، فلست أنت من استعان بالفرقة الموسيقية.» إلا أن محاولته لم تفلح في تهدئة بن لادن الذي قال: «إن الموسيقى مزمار الشيطان.» ثم توقف عن حضور السباقات من الأساس.

اشترى بن لادن فيلا مزخرفة بالجص الأحمر، تتكون من ثلاثة طوابق في ضاحية من ضواحي الخرطوم يطلق عليها الرياض. وعلى الجانب الآخر من الشارع غير الممهد، اشترى أيضًا منزلًا للضيوف يخلو من الأثاث ليستقبل فيه ضيوفه. ويدعي الجيران أنه كان يستقبل نحو خمسين شخصًا يوميًّا بدءًا من الساعة الخامسة بعد الظهر، معظمهم من العرب الذين يرتدون أثوابًا يصل طولها حتى منتصف الساق ويطلقون لحاهم؛ أي موكبًا من الأصوليين. وكان أبناؤه الصغار يمرون حفاة الأقدام بين الضيوف يقدمون لهم شراب الكركديه المُحلى. وكان يذبح حملًا كل يوم لإكرام ضيوفه، إلا أنه لم يكن يأكل كثيرًا ويفضل أن يأكل البقايا التي يتركها ضيوفه في أطباقهم، معتقدًا أن هذه اللقيمات الصغيرة التي تركوها لها ثواب أعظم عند الله.

وفي بعض الأحيان، كان بن لادن يصطحب أولاده في نزهات على شاطئ النيل ومعهم شطائر ومشروبات غازية، وكان يعلمهم القيادة على الرمال الكثيفة على ضفة النهر. وقد ارتدى بن لادن زيًّا سودانيًّا متواضعًا يتكون من جلباب وعمامة بيضاء، وكان يحمل بيده عصا سير عادية بها مقبض على شكل V يتوكأ عليها. ويقول عصام: «كان قد بدأ يصبح سودانيًّا، وكان يبدو أنه يريد البقاء هنا إلى الأبد.» لقد استقر بن لادن أخيرًا في هدوء وسلام، وقد جعل أعضاء القاعدة يشغلون وقتهم بالعمل في مشروعاته المزدهرة، حيث إنه لم يكن لديهم شيء آخر للقيام به. وبعد صلاة الجمعة، كان فريقا كرة القدم من أعضاء القاعدة يلعبان مباراة معًا. وكان التدريب العسكري لا يزال مستمرًّا، ولكن بمستويات منخفضة؛ مجرد دورات تنشيطية للمقاتلين الذين كانوا في أفغانستان. وهكذا، أصبحت القاعدة مؤسسة زراعية إلى حد بعيد.

في السودان، أتيحت الفرصة أمام بن لادن ليسير على نهج أبيه في مجال إنشاء الطرق والعمل التجاري. فلقد كان «المستثمر الإسلامي العظيم» كما أطلق عليه الترابي في حفل استقبال أعده له بعد وصوله إلى السودان بوقت قصير. ومع أن بن لادن كان بالفعل القطب المالي الكبير في السودان، فقد كان من الناحية العملية الوحيد

twitter @baghdad_library

أيضًا. وكانت قيمة الدينار السوداني تنخفض باستمرار والحكومة تتأخر دائمًا في تسديد ديونها، والحرب الأهلية الدائرة بين الشمال العربي الإسلامي والجنوب الأسود المسيحي تستنزف خزانة الدولة وتخيف المستثمرين الذين أصيبوا بالهلع بالفعل من حشد الإرهابيين الذي تجمع هناك والطبيعة التجريبية لحكم الإسلاميين. وكان استعداد بن لادن لأن يستثمر نقوده في ذلك الاقتصاد سببًا آخر لمنحه المزيد من التقدير والإجلال. وقد تداول السكان شائعات مبالغًا فيها عن حجم ثروته، فيقول البعض: إنه كان يستثمر ٣٥٠ مليون دولار أو أكثر، وبالطبع كانت استثمارات بهذا الحجم كفيلة بإنقاذ البلد. وقيل إنه كان يوفر رأس مال قدره خمسون مليون دولار لأحد البنوك، ولكن ذلك كان أكبر من إمكانياته المادية.

وعن طريق شركة الإنشاء والتعمير التي فتحها بن لادن وأطلق عليها «الهجرة»، قام ببناء العديد من الطرق الرئيسية في السودان، ومنها طريق إلى بور سودان. وعندما لم تتمكن الحكومة من سداد مستحقاته المالية، أخذ في المقابل قطع أراض ضخمة بدلًا من النقود. وكانت إحدى تلك الأراضي وحدها «أكبر من دولة البحرين»، كما قال متفاخرًا أمام إخوانه. ومنحته الحكومة أيضًا مدبغة جلود في الخرطوم حيث كان موظفو بن لادن يعدون الجلود للسوق الإيطالية. وكان من بين مشروعات بن لادن شركة يطلق عليها «القُدرات» تستورد الشاحنات والآلات من روسيا وشرق أوروبا.

ولكن الزراعة هي ما أسرت انتباه بن لادن، وربما جعلته مقايضة الحكومة أكبر مالك أراض في البلاد؛ فكان لديه مليون فدان في دلتا نهر جاش في شمال شرق السودان، وقطعة أرض كبيرة في ولاية القضارف، أخصب الولايات في الجزء الشرقي من البلاد، وقطعة أرض أخرى في دمازين التي تقع على طول الضفة الغربية من النيل الأزرق بالقرب من الحدود الإثيوبية. وعن طريق شركته الزراعية، التي أطلق عليها اسم «الثمار المباركة»، احتكر بن لادن تقريبًا مجال الصادرات الزراعية السودانية الرئيسية من السمسم والذرة البيضاء والصمغ العربي. أما شركات بن لادن الأخرى، فكانت تنتج الذرة الرفيعة والعسل والفول السوداني، وتعمل في تربية الدجاج والماشية وزراعة البطيخ. وقد قال بن لادن: إن السودان يستطيع إطعام العالم كله إذا أدير إدارة صحيحة، ولكي يثبت صحة نظريته، فقد تفاخر بزهرة دوار شمس رائعة زرعها في القضارف، وقال لوزير الدولة: «من الممكن أن تدخل هذه الزهرة موسوعة جينيس للأرقام القياسية.»

وكان بن لادن كريمًا إلى حد ما في الأجور التي يمنحها لموظفيه طبقًا للمقاييس السودانية، فكان يعطي لمعظم العاملين لديه ٢٠٠ دولار شهريًّا، أما كبار الموظفين والمديرين فكانوا يحصلون على ما يتراوح بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ دولار. وقد فرض أساليب إدارية على مؤسسته كتلك المتبعة في كبرى الشركات، فيطلب ملء استمارات في ثلاث نسخ لأي إجراء، كشراء إطارات على سبيل المثال. وكان الموظفون الذين ينتمون إلى تنظيم القاعدة يحصلون على مكافأة شهرية تتراوح ما بين ٥٠ إلى ١٢٠ دولارًا، تحدد وفقًا لحجم الأسرة التي يعولها الموظف وجنسيته، فكان السعوديون يحصلون على مبالغ أكبر والسودانيون على مبالغ أقل، بالإضافة إلى إقامة مجانية ورعاية طبية. وكان هناك خمسمائة شخص تقريبًا يعملون لدى بن لادن في السودان، ولكن لم يصل قط عدد الأعضاء النشطين في تنظيم القاعدة منهم إلى أكثر من مائة عضو.

نأى بن لادن بنفسه عن الصراع الشرس الدائر في الجزء الجنوبي من السودان الذي كان يكلف الحكومة الفقيرة مليون دولار يوميًا، والذي أزهق في النهاية أرواح ما يزيد عن مليون نسمة. أما عصام، الذي كان مقاتلًا محنكًا، فقد اعتبر تلك الحرب جهادًا، وبدا من غير اللائق في نظره أن يبتعد المقاتل الإسلامي الشهير عن ميدانها. ولكن بن لادن برر ذلك قائلًا: إنه قد اكتفى من الحروب وإنه قرر أن يترك القاعدة ويصبح مزارعًا.

وقد صرح بن لادن برغبته هذه للعديد من أصدقائه، لقد كان يقف في مفترق طرق؛ فالحياة في السودان رتيبة ولكنها لطيفة وتروق له. ففي الصباح، كان يسير إلى مسجده المحلي لأداء الصلاة متبوعًا بسرب من الأعوان والمعجبين به، وكان يظل في المسجد لحضور الدروس مع الشيوخ، وفي معظم الأوقات يتناول إفطاره معهم قبل أن يذهب إلى مكتبه أو لزيارة أحد المصانع المتعددة التي كانت جزءًا من استثماراته المتزايدة، أو يقفز في أحد الجرارات ويحرث الحقول في واحدة من الضياع الكثيرة التي يمتلكها. ومع أنه كان الرئيس التنفيذي لإمبراطورية تزداد اتساعًا يومًا بعد يوم، فقد استمر في ممارسة العادة التي لازمته طوال حياته وهي صوم يومي الإثنين والخميس. وقبل صلاة الجمعة، كان في بعض الأحيان يلقي حديثًا في المسجد الرئيسي في الخرطوم، ويطالب إخوانه المسلمين بأن يكتشفوا نعمة السلام وينعموا بها.

لم يكن هناك سوى حقيقة واحدة مُرّة تكدر على بن لادن صفو حياته وتمنعه من الاسترخاء والاندماج في حياة العمل والتأمل الروحي التي كانت تجذبه بشدة،

twitter @baghdad_library

ألا وهي استمرار وجود القوات الأمريكية في المملكة العربية السعودية. لقد تعهد الملك فهد أن يرحل هؤلاء الكفار بمجرد انتهاء الحرب، ولكن مرت أشهر على هزيمة القوات العراقية ولا تزال قوات التحالف ترابط في القواعد الجوية السعودية تراقب اتفاق وقف إطلاق النار. وكان هذا يعذب بن لادن الذي رأى أنه احتلال دائم للأرض المقدسة. وأخذ يفكر أنه لا بد من فعل شيء ما إزاء ذلك الأمر.

تزامن ذلك مع توقف القوات الأمريكية في اليمن في طريقها إلى الصومال حيث جذبت المجاعة التي تفشت بها انتباه العالم بأسره، فأرسلت الولايات المتحدة قوة صغيرة إلى هناك لحماية عمال الإغاثة التابعين للأمم المتحدة من غارات القبائل المحلية.

ولكن الخبراء الاستراتيجيون في القاعدة شعروا أن أمريكا تحاصرهم، ورأوا في ذلك التطور الأخير للأمور إطباقًا عليهم؛ فالأمريكيون يسيطرون بالفعل على الخليج الفارسي والآن يستغلون المجاعة في الصومال ذريعة لاحتلال القرن الأفريقي؛ فاليمن والصومال تعدان مدخلين للبحر الأحمر الذي يسهل اجتياحه. وبعد كل الخطط التي وضعتها القاعدة لنشر بذور الثورة الإسلامية، لا يظهر في الأفق سوى أمريكا التي يزداد نفوذها في المنطقة، وتفرض سيطرتها على المناطق الحيوية الخطيرة في العالم العربي، وتفرض نفسها على نطاق نفوذ القاعدة. لقد كان الخناق يضيق على التنظيم، وقد تكون السودان هي المحطة التالية للقوات الأمريكية. جالت هذه الأفكار في أذهانهم في الوقت الذي لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية قد سمعت قط عن وجود تنظيم يحمل اسم القاعدة من الأساس، وهذه المهمة إلى الصومال ليست إلا عملًا خيريًّا لا تنتظر من ورائه شكرًا، وفي الوقت الذي لم تكن فيه للسودان أية أهمية كي تقلق بشأنها.

اعتاد أعضاء القاعدة الاجتماع مساء كل خميس في منزل الضيوف الذي أقامه بن لادن في الخرطوم لكي يحاضرهم قائدهم. وفي أحد هذه الاجتماعات في نهاية عام ١٩٩٢م، ناقشوا التهديد الذي يمثله الوجود الأمريكي المتزايد في المنطقة. وفي الواقع، ولد تنظيم القاعدة الإرهابي في القرارات التي اتخذها بن لادن ومجلس الشورى الخاص به في هذه الفترة الوجيزة التي كان يتردد فيها ما بين حياة السلام التي كانت تجذبه وصرخة الجهاد القوية التي كانت تتردد في أذنيه بالقدر نفسه.

كان المستشار الديني لبن لادن هو صديقه المقرب ممدوح سالم، والمعروف أيضًا بأبي هاجر العراقي، الذي كان رجلًا كرديًّا جريئًا وصعب المراس يترك انطباعًا

مذهلًا لدى أي شخص يقابله. وكان أبو هاجر، وهو رجل وقور مهيب الطلعة وله لحية صغيرة مهذبة وعينان سوداوان ثاقبتان، عقيدًا في جيش صدام إبان الحرب مع إيران، وكان متخصصًا في الاتصالات حتى ترك الجيش وهرب إلى إيران. وكان أبو هاجر في نفس عمر بن لادن (كل منهما في الرابعة والثلاثين من عمره في عام ١٩٩٢م)، وقد عملا معًا في مكتب الخدمات في بيشاور، وحاربا معًا في أفغانستان مكونين علاقة قوية للغاية، حتى إنه لا أحد يستطيع التدخل بينهما. وعلى عكس جميع من كانوا حول بن لادن في السودان، فإن أبا هاجر لم يقسم لبن لادن يمين الولاء قط، فقد كان يرى نفسه على قدم المساواة معه، وكان بن لادن من جهته يعامله على هذا الأساس. ونظرًا لتقواه وعلمه، كان أبو هاجر يؤم المسلمين في الصلاة، وكان صوته وهو يرتل القرآن بشجن عراقي مؤثرًا للغاية حتى إنه كان يدفع بن لادن للبكاء.

وإلى جانب كونه صديق بن لادن، فقد كان أبو هاجر إمامه أيضًا. ولم يكن هناك سوى عدد قليل فقط بين أعضاء القاعدة ممن تلقوا تعليمًا دينيًّا متعمقًا، فعلى الرغم من حماستهم الدينية الشديدة، كانوا هواة وليسوا دارسين متخصصين في الدين. لذا، كان أبو هاجر يتمتع بأكبر سلطة دينية بينهم لأنه يحفظ القرآن، ولكنه كان هو الآخر مهندسًا كهربائيًّا ولم يكن فقيهًا. ومع ذلك، فقد جعله بن لادن رئيس لجنة الفتوى لتنظيم القاعدة، الأمر الذي سيقلب موازين كل شيء؛ فعلى يدي أبي هاجر تحولت القاعدة من الجيش الإسلامي المناوئ للشيوعية الذي تخيله بن لادن إلى تنظيم إرهابي يهدف إلى مهاجمة الولايات المتحدة، القوة العالمية الوحيدة الباقية التي يرى بن لادن وأبو هاجر أنها تمثل أخطر تهديد على الإسلام.

لماذا انقلب هؤلاء الرجال على أمريكا، البلد شديد التدين الذي كان حليفهم في الحرب في أفغانستان حتى وقت قريب؟ يرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى أنهم رأوا أمريكا مركز القوة المسيحية. وفي يوم من الأيام جمعت التقوى بين المجاهدين المسلمين والقادة المسيحيين في الحكومة الأمريكية وكونت رابطة قوية. ورسمت الصحافة الأمريكية صورة رائعة تمس الوجدان لقادة المجاهدين، وكان أولئك القادة يقومون بجولات في الكنائس الأمريكية حيث كانوا يُغرَقون بالثناء والمديح لشجاعتهم الروحية في المعركة المشتركة ضد الماركسية والإلحاد. ولكن المسيحية، لا سيما الطائفة الإنجيلية الأمريكية التي تمارس عملية التبشير، والإسلام كانا دينين متنافسين بوضوح. ومن منظور أولئك الرجال الذين يعيشون بأرواحهم في القرن

twitter @baghdad_library

السابع الميلادي، فإن المسيحية لم تكن مجرد منافس بل هي العدو الرئيسي، وفي نظرهم أيضًا أن الحملات الصليبية مسيرة تاريخية مستمرة لن تنتهي حتى انتصار الإسلام في نهاية المطاف. وكانوا ينظرون بمرارة إلى التناقض المتمثل في تراجع الإسلام المستمر منذ أمد بعيد من على أبواب مدينة فيينا، حين بدأ ملك بولندا في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، الذي أصبح تاريخًا رنانًا الآن، من عام ١٦٨٣م الحرب التي أوقفت التقدم الكبير الذي أحرزته الجيوش الإسلامية. وعلى مدار القرون الثلاثة التالية، حجب نمو المجتمعات المسيحية الغربية الإسلام. ولكن بن لادن والأفغان العرب رأوا أنهم في أفغانستان قد عكسوا المد وأن الإسلام قد عاد إلى التقدم مرة أخرى.

إنهم يواجهون الآن أكبر قوة عسكرية ومادية وثقافية أنجبتها أية حضارة. وقد تساءل بعض أعضاء القاعدة في ذعر: «الجهاد ضد أمريكا؟ إن أمريكا تعرف كل شيء عنا. إنها تعرف حتى العلامات التجارية المطبوعة على ملابسنا الداخلية.» وكانوا يرون مدى ضعف حكوماتهم وتمزقها وأنها كانت تقوى فقط لرغبة أمريكا في الحفاظ على الوضع الراهن في العالم. لقد كانت عيون الأمريكيين تنتشر في كل مكان؛ في المحيطات والسماء والآفاق، فأمريكا ليست بعيدة؛ إنها موجودة في كل مكان.

وأشار رجال الاقتصاد في تنظيم القاعدة، وهم يشعرون كأن شيئًا ما قد سرق منهم، إلى أن «نفطنا» هو الذي يمول ذلك التوسع الأمريكي الجامح، وهم لا يعنون أن ما سُرِقَ منهم هو النفطَ بالضبط، مع أن بن لادن شعر بأنهم يبخسون أسعاره، ولكن ما سُرِقَ هو البعث الثقافي الذي كان يجب أن يتبع بيع النفط. ففي تلك المجتمعات غير المنتجة بصورة مثيرة للشفقة، كانت الثروات تذوب بسرعة شديدة كالثلوج في لهيب الصحراء، ولا يتبقى لديهم سوى إحساس قوي بالغدر.

ومما لا شك فيه أن النفط قد أنزل ثروة هائلة على بعض العرب، ولكن وهم في طريقهم للثراء، ألم يتحولوا أكثر إلى النمط الغربي؟ فأصبحت الاستهلاكية والرذيلة والفردية، التي كان الإسلاميون المتطرفون يرون أنها السمات المميزة للثقافة الأمريكية الحديثة، تهدد بالقضاء على الإسلام، وحتى مجرد فكرة الإسلام، عن طريق دمجه في عالم تجاري علماني شامل ومتحد ومعتمد بعضه على بعض الذي كان جزءًا مما كان هؤلاء الرجال يعنونه عندما قالوا بتعجب: «أمريكا؟» ولكنهم عندما وضعوا

العصرية والتقدم والتجارة والاستهلاك وحتى متع الحياة في قائمة حملات الغرب على الإسلام، فإن مفكري القاعدة لم يتركوا لأنفسهم سوى أقل القليل.

وإذا كانت أمريكا تمتلك المستقبل، فإن الأصوليين الإسلاميين يقولون إنهم يمتلكون الماضي، إنهم لم يكونوا يرفضون التكنولوجيا الحديثة أو العلوم، بل لقد كان العديد من قادة القاعدة مثل أيمن الظواهري وأبي هاجر من رجال العلم. ولكن كانت مشاعرهم متناقضة عندما يتعلق الأمر بالطريقة التي أضعفت بها التكنولوجيا الروح، وقد انعكس ذلك في اهتمام بن لادن بآلات شق الطرق والهندسة الوراثية للنباتات من ناحية، ورفضه للماء المثلج من ناحية أخرى. وعن طريق استعادة الحكم بالشريعة، يستطيع الإسلام المتطرف أن يوقف الغرب الذي ينتهك أرض الإسلام. حتى تلك المبادئ التي تروج لها أمريكا وتقول إنها رغبة جميع شعوب العالم، مثل الديمقراطية والشفافية وحكم القانون وحقوق الإنسان وفصل الدين عن الحكم، كانت محلًا للازدراء والتكذيب في أعين الجهاديين لأنها غربية، ومن ثم حديثة. وسيكون دور القاعدة هو إيقاظ العالم الإسلامي للتهديد الذي يمثله هذا الغرب العلماني الذي يسعى لدفعه إلى أبواب العصرية. ولكي يفعلوا ذلك، كما قال بن لادن لرجاله، فإن القاعدة ستستدرج الولايات المتحدة إلى حرب ضد الإسلام — «جبهة حرب واسعة النطاق لا تستطيع أمريكا التحكم فيها».

كانت الحركات السلفية المحلية تظهر من تلقاء نفسها في جميع أنحاء العالم العربي وأجزاء من أفريقيا وآسيا، وكانت هذه الحركات قومية إلى حد بعيد، ولكنها كانت بحاجة إلى مكان لتنظم صفوفها فيه. وقد وجدت في الخرطوم مأوى آمنًا لها، وبطبيعة الحال اندمجت هذه الحركات وتعلمت من بعضها.

وكان من بين تلك الجماعات المنظمتان المصريتان الرئيسيتان: الجهاد بقيادة أيمن الظواهري والجماعة الإسلامية بقيادة الشيخ عمر عبد الرحمن، بالإضافة إلى جميع الجماعات المتطرفة العنيفة في الشرق الأوسط تقريبًا. وجماعة حماس الفلسطينية التي تسعى لتدمير إسرائيل وإحلال دولة إسلامية سنية مكانها، وكانت مشهورة بقتل المواطنين الإسرائيليين وتعذيب وقتل الفلسطينيين الذين تعتقد أنهم يتعاونون مع إسرائيل. وثمة جماعة أخرى، منظمة «أبو نضال»، أكثر عنفًا ورفضًا للآخر وقتلت ما يزيد عن تسعمائة شخص في عشرين دولة مختلفة وتستهدف في المقام الأول اليهود والعرب المعتدلين. ومن أشهر العمليات التي نفذتها هذه

twitter @baghdad_library

المنظمة إطلاق النار بالمدافع الرشاشة على معبد يهودي في فيينا، والهجوم بالقنابل اليدوية على مطعم في باريس، وتفجير مكتب شركة الخطوط الجوية البريطانية في مدريد، واختطاف طائرة تابعة للخطوط الجوية المصرية كانت في طريقها إلى مالطة، وهجمات دموية على مطارات روما وفيينا. وحزب الله الذي كان يسعى لإنشاء دولة شيعية ثورية في لبنان والذي فاق عدد ضحاياه من الأمريكيين أية منظمة إرهابية أخرى في ذلك الوقت. وكان حزب الله، الذي ترعاه إيران، متخصصًا في اختطاف البشر والطائرات، بالإضافة إلى أنه كان مسئولًا عن سلسلة من التفجيرات في باريس. وقد استقر في الخرطوم أيضًا أكثر إرهابي مطلوب في العالم وهو إلييتش راميريز سانشيز Ilich Ramírez Sánchez، والمعروف بكارلوس ذي الألف وجه، بصفته تاجر أسلحة فرنسيًا. وقد قام كارلوس، الذي كان ماركسيًا وعضوًا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، باختطاف أحد عشر عضوًا من منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) في فيينا عام ١٩٧٥م، وطار بهم إلى الجزائر العاصمة ليطالب بفدية. وبعد أن فقد كارلوس الإيمان بالشيوعية، رأى أن الإسلام المتطرف هو القوة الوحيدة التي تتمتع بالشراسة الكافية لتدمير الهيمنة الثقافية والاقتصادية الأمريكية. ومع أنه كان مطلوبًا في جميع أنحاء العالم، فقد كان يظهر علانية في الأماكن العامة، فتجده يتناول القهوة والكعك المحلى هلالي الشكل كل صباح بهدوء في فندق الميريديان بالخرطوم.

ومع أن بن لادن لم يكن يثق بالترابي، بل يمكن القول إنه كان يكرهه، فقد اختبر واحدة من أكثر الأفكار التقدمية والمثيرة للجدل التي طرحها، ألا وهي السعي وراء قضية مشتركة مع الشيعة. فجعل أبا هاجر يعظ أعضاء القاعدة أن هناك عدوًّا واحدًا فقط يحدق بهم وهو الغرب، وأن الطائفتين الرئيسيتين في الإسلام يجب أن تتحدا لتدميره. وقد دعا بن لادن ممثلين من الشيعة وجعلهم يلقون أحاديث أمام أعضاء القاعدة، وأرسل مجموعة من أفضل رجاله إلى لبنان ليتدربوا مع جماعة حزب الله التي تدعمها إيران. وجاء عماد مغنية، رئيس القوات الأمنية لحزب الله، لمقابلة بن لادن ووافق على تدريب أعضاء من القاعدة مقابل أسلحة. وكان عماد مغنية هو العقل المدبر لتفجير السيارات الانتحارية في السفارة الأمريكية عام ١٩٨٣م، والثكنات العسكرية للقوات البحرية الأمريكية، والمظلات الفرنسية في بيروت، التي أسفرت عن مقتل أكثر من ثلاثمائة جندي أمريكي، وثمانية وخمسين آخرين من الفرنسيين، وأدت إلى الانسحاب الفوري لقوات حفظ السلام الأمريكية من لبنان. وقد ترك هذا السبق انطباعًا قويًّا على بن لادن الذي رأى أن التفجيرات الانتحارية

من الممكن أن تكون مؤثرة للغاية، وأن أمريكا، بكل قوتها، ليست لديها رغبة في القتال.[1]

وفي التاسع والعشرين من ديسمبر/كانون الأول من عام ١٩٩٢م، انفجرت قنبلة في فندق موفينبك في عدن في اليمن، وانفجرت أخرى قبل موعدها في مرأب فندق فخم آخر مجاور يطلق عليه جولد مور. وكانت هذه التفجيرات تستهدف قوات أمريكية في طريقها إلى الصومال لكي تشارك في عملية إعادة الأمل للصومال، الجهود الدولية للتخفيف من المعاناة التي سببتها المجاعة. ولكن في الحقيقة، كانت القوات الأمريكية تقيم في فندق آخر. وفي وقت لاحق ادعى بن لادن مسئوليته عن ذلك الهجوم الذي أخطأ هدفه والذي لم يحظ بأدنى اهتمام في الولايات المتحدة نظرًا لأنه لم يسفر عن مقتل أي أمريكي. وذهبت القوات الأمريكية إلى الصومال كما كان مخططًا لها، ولكن قادة القاعدة المنتصرين أوهموا أنفسهم أنهم أخافوا الأمريكيين وحققوا نصرًا سهلًا عليهم.

ولكن لم تمر تلك العملية دون ضحايا، فقد قُتل فيها اثنان، سائح أسترالي وعامل يمني في الفندق، وأصيب سبعة آخرون أغلبهم من اليمنيين بجروح خطيرة. وخلف الثرثرة الانفعالية والتهاني التي سادت بين أعضاء القاعدة، بدأت أسئلة أخلاقية تطرح نفسها وبدءوا يتساءلون: إلى أي اتجاه تسير منظمتهم؟

وفي مساء أحد أيام الخميس، تحدث أبو هاجر في خطبته عن قتل الأبرياء، واستشهد في حديثه بابن تيمية، وهو عالم فقيه عاش في القرن الثالث عشر وأحد المرجعيات الرئيسية للفلسفة الوهابية. وفي عصره، واجه ابن تيمية مشكلة المغول الذين اجتاحوا بغداد بوحشية، ولكنهم اعتنقوا الإسلام بعد ذلك، ومن ثم ظهرت مشكلة: هل من حق المسلمين الانتقام ممن أصبحوا إخوانهم في الدين؟ رأى ابن تيمية أن اعتناق المغول للإسلام لا يجعلهم مؤمنين حقًا، ومن ثم يمكن قتلهم. وشرح أبو هاجر لثلاثين أو أربعين عضوًا جالسين أمامه على السجاد في صالون بن لادن وهم

[1] ولد الجزء الأكبر من علاقة القاعدة بإيران على يد أيمن الظواهري. وقد أخبر علي محمد مكتب التحقيقات الفيدرالي أن جماعة الجهاد كانت قد خططت لانقلاب عسكري في مصر عام ١٩٩٠م، وقام الظواهري بدراسة خطة الإطاحة بالشاه في إيران عام ١٩٧٩م، وسعى لأن يكون التدريب على أيدي الإيرانيين. وقد أمدهم بمعلومات عن خطة تدبرها الحكومة المصرية لاجتياح عدة جزر في الخليج الفارسي تطالب بها كل من إيران والإمارات العربية المتحدة. وطبقًا لما قاله محمد، فإن الحكومة الإيرانية قد منحت الظواهري مليوني دولار مقابل هذه المعلومات وساعدت في تدريب أعضاء من جماعة الجهاد على محاولة الانقلاب التي لم تنفذ قط.

twitter @baghdad_library

يتكئون على المساند ويرتشفون عصير المانجو، أن ابن تيمية أصدر فتوى تاريخية تقول بأن كل من ساعد المغول أو اشترى منهم أو باع لهم بضائع أو حتى وقف بالقرب منهم، يجوز قتله أيضًا. فإذا كان مسلمًا صالحًا فمصيره الجنة، أما إذا كان طالحًا فمثواه جهنم وسينال جزاءه. ومن ثم، سيحصد كل من السائح وعامل الفندق اللذين قتلا في التفجيرات الجزاء الذي يستحقانه.

وهكذا ولدت رؤية جديدة لتنظيم القاعدة. لقد حولت فتويا أبي هاجر، الأولى التي تجيز شن هجمات على القوات الأمريكية، والثانية تجيز قتل الأبرياء، القاعدة إلى منظمة إرهابية عالمية. وستركز القاعدة جهودها بعد ذلك على قتل المدنيين وليس محاربة الجيوش. لقد طرحوا جانبًا الصورة التي رسموها من قبل للقاعدة كجيش متحرك من المجاهدين يدافع عن أرض المسلمين أينما تعرضت للتهديد، وتحول التنظيم إلى تبني سياسة إلحاق الخراب والدمار الدائمين بالغرب. وفي ذلك الوقت، كان الاتحاد السوفييتي قد انهار ولم تعد الشيوعية تهدد أطراف العالم الإسلامي، وبقيت أمريكا هي القوة الوحيدة في العالم القادرة على الوقوف حجرة عثرة في طريق استعادة الخلافة الإسلامية القديمة، ومن ثم يجب مواجهتها وهزيمتها.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع

وادي السليكون

في وقت مبكر من الصباح، عندما تسطع الشمس على مركز التجارة العالمي، يلقي برجاه بظلالهما الضخمة لتغطي جزيرة مانهاتن بأكملها. وتظهر الغاية من وراء بنائهما جلية؛ فهذان البرجان كانا أطول برجين في العالم حين انتهى إنشاؤهما في عامي ١٩٧٢م و١٩٧٣م، ولكنهما لم يحتفظا بهذا اللقب طويلًا نظرًا للسباق المحموم في عالم البناء لبلوغ السماء. وكانت الخيلاء هي ميزتهما الأكثر وضوحًا، أما فيما عدا ذلك فقد كانا غير مثيرين وغير عمليين. وكان العاملون في البرجين يشعرون أنهم منعزلون عن العالم، حتى مجرد فكرة الهبوط إلى الأرض والذهاب لتناول طعام الغداء لم تكن تعني سوى إهدار الكثير من الوقت في الهبوط بعدد من المصاعد والسير بسرعة عبر الزحام نحو ساحة المدينة برائحتها وزحامها بعد أن وصلوا إليها أخيرًا. وقد تطلب البناء «أنبوبي» الشكل الذي يحمل هذه الركائز الضخمة إنشاء أعمدة لا يفصلها عن بعضها سوى اثنتين وعشرين بوصة، الأمر الذي كان يمنح جميع من في مكاتب البرجين إحساسًا بأنهم داخل قفص. أما المشهد من داخل البرجين فقد كان رائعًا؛ فترى أمامك في الأفق الأضواء المتموجة التي لا تنتهي في طريق نيوجيرسي تيرنبايك، الطريق الرئيسي في نيوجيرسي، والميناء النشط الذي لا تهدأ فيه الحركة وبه تمثال الحرية الذي يبدو قزمًا، وناقلات النفط والعبَّارات وهي تشق أفق المحيط الأطلنطي، والشواطئ فضية اللون لجزيرة لونج آيلاند، والأشجار التي يبدأ لونها يتغير في كونيكتيكت، وجزيرة مانهاتن الهادئة ترقد كالملكة على فراشها الضخم بين الأنهار. لقد كان هذان البناءان الضخمان يوقعان في النفس أثرًا رهيبًا، وهو بالضبط الهدف من إنشائهما، وقد وصفهما بن لادن قائلًا: «تلك الأبراج المعنوية الهائلة التي تتحدث عن الحرية وعن حقوق الإنسان وعن الإنسانية.»

وكان أكثر مشاهد مركز التجارة العالمي إثارة للإعجاب عبر نهر هودسون في مدينة جيرسي. وهناك في ضاحية تعرف باسم ليتل إيجيبت، كان أتباع الشيخ الضرير عمر عبد الرحمن يتآمرون لتسوية البرجين بالأرض. وكان الشيخ عبد الرحمن يسعى للحصول على حق اللجوء السياسي في الولايات المتحدة، مع أنه كان مدرجًا كإرهابي على قائمة المراقبة في وزارة الخارجية. وكما فعل في مصر، فقد أصدر الشيخ فتوى في أمريكا تشرع لأتباعه سرقة البنوك وقتل اليهود. وكان يجوب أنحاء الولايات المتحدة وكندا يثير الآلاف من المسلمين الشباب المهاجرين بخطبه الحماسية التي غالبًا ما يهاجم بها الأمريكيين الذين يقول عنهم: «أحفاد القردة والخنازير الذين تربوا على موائد الصهاينة والشيوعيين والمحتلين.» ودعا المسلمين إلى مهاجمة الغرب قائلًا: «قسموا أمتهم بقطع وسائل المواصلات، مزقوها إربًا، دمروا اقتصادهم، أحرقوا شركاتهم، اقضوا على مصالحهم، أغرقوا سفنهم، أسقطوا طائراتهم، واقتلوهم أينما وجدتموهم في البر والبحر والجو.»

وبالطبع كان أتباعه لا يدخرون جهدًا لتنفيذ وصيته ونشر الدمار في كل مكان. فكانوا يسعون إلى شل الحياة في نيويورك عن طريق اغتيال العديد من الشخصيات السياسية وتدمير العديد من أهم معالمها، مثل جسر جورج واشنطن ونفقي لينكولن وهولاند وساحة فيدرال بلازا ومبنى الأمم المتحدة، بتفجيرات متزامنة، وذلك في إطار الرد على مساندة أمريكا للرئيس المصري حسني مبارك، الذي كانوا يعتزمون اغتياله عندما أتى إلى نيويورك. وقد توصل مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد ذلك إلى أن أسامة بن لادن كان يدعم مجهودات الشيخ الضرير ماديًّا.

ولم يكن لدى الكثير من الأمريكيين، حتى في الأوساط الاستخباراتية، أدنى فكرة عن شبكة الإسلاميين المتطرفين التي بلغت أشدها داخل بلدهم. ومن المحتمل أن الشيخ كان يتحدث باللغة العربية التي بدت غريبة وغير مفهومة للأمريكيين، شأنها شأن لغة المخلوقات الفضائية؛ فلم يكن هناك سوى عدد قليل للغاية من المتخصصين في لغات الشرق الأوسط في مكتب التحقيقات الفيدرالي، وعدد أقل بكثير في الشرطة المحلية. وحتى إذا سمعوا تلك التهديدات وفهموها جيدًا، فقد كان أفق استيعاب معظم الأمريكيين محدودًا للغاية؛ نظرًا لعزلتهم عن مشكلات العالم، ويشوش رؤيتهم للأمور اطمئنانهم أن أي شخص يعيش في أمريكا لا يمكن أن ينقلب ضدها.

وفي السادس والعشرين من فبراير/شباط عام ١٩٩٣م، دخلت شاحنة مؤجرة من طراز فورد إيكونولاين إلى مرأب مركز التجارة العالمي الضخم في الدور السفلي

twitter @baghdad_library

منه وبداخلها رمزي يوسف. ولا يمكن الجزم بأن بن لادن هو الذي أرسله، ولكنه أحد خريجي معسكر القاعدة في أفغانستان حيث تعلم التعامل مع المتفجرات. وقد جاء إلى أمريكا للإشراف على صنع ما قرر مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد ذلك أنه أضخم جهاز تفجير مرتجل قابله المكتب في تاريخه. أشعل يوسف أربعًا من فتائل المتفجرات يبلغ طول كل منها عشرين قدمًا، وهرب إلى نقطة مناسبة في شمال شارع كنال ستريت تتيح له رؤية واضحة وتوقع أن يرى من هناك المبنى وهو ينهار.

كان يوسف أسمر البشرة وهزيل الجسد، وإحدى عينيه بعيدة عن مكانها الطبيعي في محجرها، وتوجد علامات حروق على وجهه ويديه نتيجة انفجار عارض. واسمه الحقيقي هو عبد الباسط محمود عبد الكريم، وهو ابن لأم فلسطينية وأب باكستاني، ونشأ في مدينة الكويت ثم درس الهندسة الكهربائية في ويلز. وكان متزوجًا ولديه طفل وينتظر أن تضع زوجته طفلًا آخر قريبًا في مدينة كويتا عاصمة إقليم بلوشستان في باكستان. ولم يكن يوسف مسلمًا شديد التدين، ولكن كان يحركه إخلاصه للقضية الفلسطينية وكرهه لليهود، وكان أول إرهابي إسلامي يهاجم أمريكا في عقر دارها. والأهم من ذلك، أن خياله الأسود المغرور الذي تفتق عن هذه الفكرة كان هو الشرنقة التي ستحول فيها الحركة نفسها. وحتى لحظة وصول يوسف إلى أمريكا، كانت خلية بروكلين تختبر القنابل الأنبوبية، ولكن طموح يوسف ومهارته غيرا طبيعة الإرهاب تغييرًا جوهريًّا.

زرع يوسف القنبلة في الركن الجنوبي من المرأب معتزمًا قلب أحد البرجين على الآخر مدمرًا المجمع ومتسببًا في مقتل ما كان يأمل أن يصل إلى ٢٥٠ ألف شخص، الرقم الذي رأى أنه يساوي آلام الشعب الفلسطيني بسبب مساندة أمريكا لإسرائيل. وكان يأمل في زيادة عدد الخسائر البشرية عن طريق ملء المتفجرات، التي تتكون من نترات الأمونيوم وزيت الوقود، بسيانيد الصوديوم أو بصنع قنبلة قذرة تصدر مواد مشعة مهربة من الاتحاد السوفييتي السابق، التي كانت كفيلة بتلويث جزء كبير من جنوب مانهاتن.

دوى الانفجار عبر ستة طوابق من المنشأة المبنية بالحديد الصلب والأسمنت، وصولًا إلى محطة قطار باث أسفل المرأب وحتى قاعة الرقص في فندق ماريوت في الأعلى. ولقد كانت صدمة الانفجار عنيفة حتى إن السياح شعروا بأن الأرض ارتجفت تحت أقدامهم في جزيرة إيليس على بعد ميل من موقع الحادث. راح ستة أشخاص ضحية ذلك الانفجار وأصيب ١٠٤٢ آخرون، وهو أكبر عدد من المصابين يصل إلى

المستشفيات في تاريخ أمريكا منذ الحرب الأهلية. أما البرجان الشامخان، فقد اهتزا وتمايلا قليلًا ولكنهما أبيا أن يسقطا. وعندما ذهب لويس شيليرو Lewis Schiliro، رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي في نيويورك آنذاك، ليفحص فوهة البركان الناجمة عن الانفجار التي بلغ عرضها مائتي قدم في أساس البناء الضخم تحت الأرض، أصابه الذهول، وقال لأحد المهندسين الإنشائيين: «هذا البناء سيبقى شامخًا إلى الأبد.»

هرب يوسف عائدًا إلى باكستان، وبعد ذلك بوقت قصير انتقل إلى مدينة مانيلا حيث بدأ يدبر مجموعة من الخطط الخارقة لتفجير اثنتي عشرة طائرة أمريكية في الوقت نفسه، واغتيال البابا يوحنا بولس الثاني، والرئيس بيل كلينتون، وضرب المقر الرئيسي للمخابرات الأمريكية بطائرة خاصة. ومن المثير للانتباه رؤية مدى لهفة الإسلاميين في ذلك الوقت المبكر لشن هجمات معقدة تحمل معنى رمزيًّا كبيرًا لم تحققه أية جماعة إرهابية أخرى. ودائمًا ما يكون مسرح الجريمة سمة تدل على طبيعة العمل الإرهابي، ولم يكن هؤلاء إرهابيين عاديين، بل كان لديهم طموح جامح لا يمكن منافسته. ولم يكن رمزي يوسف وأتباع الشيخ الضرير يسعون فقط لجذب الانتباه إلى قضية، بل لقد كانوا يتمنون إذلال عدو بقتل أكبر عدد ممكن من شعبه. وكانوا يضعون نصب أعينهم أهدافًا اقتصادية سهلة كفيلة باستفزاز رد فعل شرس، وفي الواقع لقد كانوا يسعون لدفع العدو للانتقام كوسيلة لحث المسلمين الآخرين. وعلى أية حال، لا يمكن القول إنه كانت لديهم خطة سياسية دامغة، فلقد كانت فقط الرغبة في الانتقام هي ما يحركهم؛ بسبب الكثير من الظلم الذي وقع عليهم، مع أن معظم المتآمرين كانوا يتمتعون بحريات وفرص في أمريكا لم تكن بلادهم لتوفرها لهم. لقد كانت لديهم شبكة من المتآمرين الراغبين في المشاركة الذين كانوا يشتعلون غضبًا ويتلهفون للهجوم، ولكن الشيء الوحيد الذي كان هؤلاء الإرهابيون الجهاديون يفتقدون إليه كي يشنوا هجمة مدمرة على أمريكا هو المهارات التنظيمية والتقنية التي يوظفها أيمن الظواهري وجماعة الجهاد.

بعد شهر واحد من تفجير مركز التجارة العالمي، ظهر الظواهري في دوائر الدعوة والخطابة في عدد من المساجد في كاليفورنيا. وقد جاء من مدينة بيرن في سويسرا حيث كان لدى الجهاد منزل آمن هناك، (وكان أحد أقرباء الظواهري دبلوماسيًّا في سويسرا). ومع أنه دخل الولايات المتحدة باسمه الحقيقي، فقد كان يسافر باسمه الحركي الدكتور عبد المعز وبصفته ممثلًا عن مستشفى الهلال الأحمر الكويتي.

twitter @baghdad_library

وقال: إنه يجمع الأموال والتبرعات للأطفال الأفغان الذين أصيبوا بسبب الألغام التي زرعها السوفييت في أرضهم في أيام الجهاد.

ولسنوات كانت الولايات المتحدة واحدة من الجهات الأساسية التي يلجأ إليها المجاهدون العرب والأفغان لجمع الأموال والتبرعات. وقد مهد الشيخ عزام ذلك الطريق في مساجد بروكلين وسانت لويس ومدينة كنساس وسياتل وساكرامنتو ولوس أنجلوس وسان دييجو، بالإضافة إلى أن مكتب الخدمات الذي أنشأه بن لادن وعزام قد فتح فروعًا له في ثلاث وثلاثين مدينة أمريكية لدعم الجهاد. لقد خلقت الحرب ضد الاتحاد السوفييتي شبكة عالمية من الجمعيات الخيرية، قوية بصورة خاصة في الولايات المتحدة، ظلت فعالة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وانقلاب الأفغان على بعض، وكان الظواهري يأمل أن يحول ذلك المجرى الأمريكي المتدفق من التبرعات إلى جماعة الجهاد.

كان مرشد الظواهري في الولايات المتحدة شخصًا فريدًا من نوعه في تاريخ الجاسوسية اسمه علي عبد السعود محمد. كان علي محمد، الذي يبلغ من الطول ٦,١ أقدام ومن الوزن مائتي رطل، والذي كان رياضي البنية بصورة فذة؛ خبيرًا عسكريًّا ولغويًّا ماهرًا يتحدث الإنجليزية والفرنسية والعبرية بطلاقة، بالإضافة إلى لغته الأم العربية. ولقد كان شخصًا منظمًا وبارعًا واجتماعيًّا يتمتع بقدرة كبيرة على تكوين الأصدقاء، أي من النوع المناسب من الرجال الذي يسلك طريقه بسهولة إلى قمة أية منظمة يشترك فيها. وكان علي رائدًا في الوحدة نفسها من الجيش المصري التي أنجبت خالد الإسلامبولي الذي اغتال السادات، وقد اشتبهت الحكومة في كونه إسلاميًّا متطرفًا (وقد كان بالفعل عضوًا في جماعة الجهاد). وعندما طُرد من الجيش المصري، كلفه الظواهري مهمة مروعة وهي اختراق صفوف المخابرات المركزية الأمريكية.

وفي عام ١٩٨٤م، اتجه محمد بمنتهى الجرأة إلى مكتب المخابرات الأمريكية في القاهرة ليعرض خدماته. ولكن الضابط الذي قام بتقييمه قرر أنه على الأرجح مزروع من قبل المخابرات المصرية، ولكنه أرسل برقيات إلى المقر الرئيسي للوكالة والمكاتب الأخرى؛ ليرى ما إذا كانت هناك أية جهة مهتمة بتجنيده. واستجاب مكتب فرانكفورت الذي يضم المكتب المختص بشئون إيران في الوكالة، وسريعًا ما وجد علي نفسه في هامبورج عميلًا جديدًا للمخابرات. ولكنه دخل إلى أحد المساجد التابعة لحزب الله وأخبر رجل الدين الإيراني على الفور أنه جاسوس أمريكي مكلف باختراق

صفوفهم، ولكنه لم يدرك أن الوكالة قد اخترقت صفوف رجال الدين في المسجد بالفعل، وقد وصل إليهم إعلانه عن هويته ومهمته على الفور.

وتقول وكالة المخابرات المركزية الأمريكية: إنها أنهت التعامل معه على الفور وأرسلت برقيات تخبر مكاتبها الأخرى أنه غير جدير بالثقة على الإطلاق ووضعته على قائمة المراقبة في وزارة الخارجية لكي تمنعه من دخول الولايات المتحدة. ولكن في ذلك الوقت، كان محمد في كاليفورنيا بالفعل، ضمن برنامج إعفاء من تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة ترعاه الوكالة نفسها، وكان مصممًا بغرض حماية العملاء المهمين أو الذين أسدوا خدمات مهمة للولايات المتحدة. ولكي يبقى محمد في الولايات المتحدة، كان لا بد أن يصبح أحد مواطنيها، لذا فقد تزوج من سيدة من كاليفورنيا اسمها ليندا سانشيز Linda Sanchez تعمل فنية خدمات طبية، كان قد قابلها على متن الرحلة الجوية التي نقلته عبر المحيط الأطلنطي إلى الولايات المتحدة.

وبعد عام من وصول محمد إلى أمريكا عاد مرة أخرى إلى ممارسة مهنته العسكرية، ولكن هذه المرة مجندًا في الجيش الأمريكي. فقد تمكن من الالتحاق بمدرسة جون إف كينيدي الحربية الخاصة في فورت براج في كارولاينا الشمالية. ومع أنه كان مجرد رقيب في وحدة الإمداد، فقد ترك انطباعًا رائعًا لدى القادة، وحصل على تزكية خاصة من قائد وحدته على «الأداء المتميز»، وحصل على جوائز في اللياقة البدنية في منافسات ضد أفضل الجنود المدربين في العالم. وقد قال عنه رؤساؤه المبهورون به: «إنه لم يتعرض قط للتوبيخ» و«ماهر دائمًا».

قد يكون السر وراء حفاظ علي محمد على هويته المزدوجة هو أنه لم يخف معتقداته قط. فكان يبدأ يومه بصلاة الفجر، ثم يمارس رياضة الركض مسافات طويلة وهو يستمع في مذياعه المحمول إلى القرآن الذي كان يحاول حفظه، وكان يعد طعامه بنفسه حرصًا على اتباع الشريعة الإسلامية. وبالإضافة إلى مهامه العسكرية، كان يسعى للحصول على دكتوراه في الدراسات الإسلامية. وكان الجيش الأمريكي يحترم آراءه ومعتقداته بشدة، حتى إنهم طلبوا منه أن يساعد في تدريس دورة عن سياسات الشرق الأوسط وثقافاته، وأن يسجل مجموعة من شرائط الفيديو يشرح فيها الدين الإسلامي لزملائه الجنود. وطبقًا لما جاء في سجل خدمة محمد، فقد «حضَّر وأدى أكثر من أربعين محاضرة توجيهية لفرق منتشرة في الشرق الأوسط.» وفي الوقت نفسه، كان يسرب خرائط وكتيبات تدريب من القاعدة التي يعمل بها لتصغيرها ونسخها في أحد فروع سلسلة محال كينكو. وقد استخدمها في كتابة دليل

twitter @baghdad_library

تدريب الإرهابيين الذي صدر في أكثر من جزء، وأصبح المرجع الرئيسي للتدريب في تنظيم القاعدة. وفي الإجازات، كان ينتقل إلى بروكلين ومدينة جيرسي حيث يقوم بتدريب مقاتلين مسلمين على التقنيات الحربية، من بينهم أعضاء من جماعة الجهاد، ومنهم السيد نصير، المصري الذي قتل المتطرف اليهودي رابي مائير كاهانا Rabbi Meir Kahane عام ١٩٩٠م.

وفي عام ١٩٨٨م، أخبر محمد رؤساءه بهدوء ولا مبالاة أنه سيذهب في عطلة «ليقتل بعض الروس» في أفغانستان. وعندما عاد، أظهر لزملائه متباهيًا حليتين معدنيتين لحزامين قال إنه حصل عليهما من جنود سوفييت قتلهم في كمين. ولكنه في الحقيقة كان يدرب المتطوعين الأوائل في صفوف القاعدة على التقنيات الحربية غير التقليدية بما في ذلك الاختطاف والاغتيال واختطاف الطائرات التي تعلمها من القوات الخاصة الأمريكية.

ترك محمد الخدمة العسكرية الفعلية عام ١٩٨٩م، وانضم إلى القوات الاحتياطية بالجيش الأمريكي، واستقر هو وزوجته في وادي السليكون، وتمكن من الحصول على وظيفة حارس أمن (في شركة من الشركات التي المتعاقدة مع وزارة الدفاع حيث كانت تعمل على تطوير تقنية إطلاق لنظام صاروخ ترايدنت)، مع أنه كان يختفي لأشهر في باكستان وأفغانستان تحت ذريعة «شراء السجاد». وفي الوقت نفسه، استمرت محاولاته لاختراق صفوف المخابرات الأمريكية، فقد تقدم للعمل مترجمًا في كل من المخابرات الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالي عندما كان في ولاية كارولاينا الشمالية.

وفي مايو/أيار من عام ١٩٩٣م، اقترب جون زينت John Zent، أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي في سان خوزيه، من محمد ليسأله عن تجارة رخص القيادة المزيفة. ولأنه كان لا يزال يأمل أن تُجنده المخابرات الأمريكية، فقد تطرق محمد في حديثه إلى النشاطات المتطرفة في المساجد المحلية وأخبره بعدد من القصص المذهلة عن محاربة السوفييت في أفغانستان. ونظرًا للطبيعة العسكرية لهذه القصص، فقد اتصل زينت بوزارة الدفاع، ووصل فريق من المتخصصين في مكافحة الجاسوسية من قاعدة فورت ميد في ميريلاند، إلى سان خوزيه ليتحدثوا إلى محمد. وبسطوا أمامه خرائط لأفغانستان على أرضية مكتب زنت، وحدد علي عليها مواقع معسكرات تدريب المجاهدين، وذكر اسم أسامة بن لادن الذي قال عنه: إنه يعد جيشًا للإطاحة بالنظام السعودي. وتحدث محمد أيضًا عن تنظيم يحمل اسم القاعدة يدير معسكرات تدريب

في السودان، بل واعترف أنه كان يحاضر أعضاء تلك المعسكرات في كيفية اختطاف الطائرات وفي التجسس. ومن الواضح أن المحققين لم يفعلوا أي شيء بتلك المعلومات. ولن يسمع أحد في المخابرات الأمريكية اسم القاعدة مرة أخرى إلا بعد أن تمر ثلاث سنوات حاسمة أخرى.

من المحتمل أن محمدًا قد صرح بتلك المعلومات بسبب حاجة نفسية لأن يرفع من أهميته في نظر العملاء، وقد قال أحد العملاء الفيدراليين الذين تحدثوا معه بعد ذلك: «لقد كان يرى نفسه جيمس بوند.» ولكن على الأرجح كان ذلك العميل شديد الالتزام بالتعليمات يسعى بكل كيانه لتنفيذ أوامر الظواهري باختراق صفوف المخابرات الأمريكية. وقد كانت القاعدة والجهاد في ذلك الوقت من ربيع عام ١٩٩٣م لا تزالان منظمتين منفصلتين، ولم يكن الظواهري قد انضم بعد إلى حملة بن لادن المعادية لأمريكا. ويتضح من هذا أن الظواهري كان مستعدًّا للتخلي عن بن لادن في سبيل اختراق صفوف المخابرات الأمريكية، الأمر الذي كان سيفيد منظمته الخاصة.

لو كان مكتب التحقيقات الفيدرالي وفريق مكافحة الجاسوسية التابع لوزارة الدفاع قد تجاوبا مع العرض الذي قدمه محمد، لكان من الممكن أن يكون لديهم عميل مزدوج ومحترف خطير للغاية. فقد أفصح محمد بوضوح أنه عضو موثوق به في الدوائر المقربة من بن لادن، ولكن هذا لم يكن يعني شيئًا للمحققين في ذلك الوقت. وقد قدم العميل زينت تقريرًا رُفِع إلى المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي، ثم طواه النسيان. وبعد ذلك، عندما أراد المكتب استعادة الملحوظات التي دونت في أثناء الاستجواب الذي قام به المتخصصون في مكافحة الجاسوسية من قاعدة فورت ميد ليعرفوا الموضوعات الأخرى التي طرحت للنقاش، أبلغتهم وزارة الدفاع أنها قد فقدت.

كانت جماعة الجهاد دائمًا ما تواجه عجزًا من الناحية المادية؛ فالعديد من أتباع الظواهري لديهم عائلات يتكفلون بالإنفاق عليها، وقد اتجه بعضهم إلى السرقة والابتزاز لكي ينفقوا على عائلاتهم. ولكن الظواهري رفض تلك السلوكيات بشدة؛ فعندما قام أعضاء من الجهاد بسرقة ملحق عسكري ألماني في اليمن، حقق في الحادثة وطرد المسئولين من الجماعة. ولكن ظلت مشكلة المال قائمة، وكان يأمل أن ينجح في جمع ما يكفي من المال في أمريكا للحفاظ على بقاء منظمته واستمرارها.

twitter @baghdad_library

ولم يكن الظواهري يتمتع بشيء من جاذبية الشيخ الضرير أو شهرته، لذا فعندما ظهر بعد صلاة العشاء في مسجد النور في سانتا كلارا وقدم نفسه على أنه الدكتور عبد المعز لم يعرفه أحد. فقام علي محمد بتقديمه للدكتور علي ذكي، وهو طبيب أمراض النساء في سان خوزيه، وطلب منه أن يرافقهم في جولة الدكتور عبد المعز بوادي السليكون. فاصطحب الدكتور ذكي الظواهري إلى مساجد في ساكرامنتو وستوكتون، وكان الطبيبان يقضيان معظم وقتهما في مناقشة المشكلات الطبية التي قابلها الظواهري في أفغانستان. ويتذكر الدكتور ذكي فيقول: «لقد تحدثنا عن الأطفال المصابين والمزارعين الذين كانوا يفقدون أطرافهم بسبب الألغام الروسية، لقد كان طبيبًا متزنًا ومثقفًا.»

ولكن في وقت من الأوقات، اشتبك الرجلان في مشاحنة حول ما اعتبره ذكي نظرة الظواهري المحدودة للإسلام. فعلى غرار معظم الجهاديين، كان الظواهري يتبع التعاليم السلفية للشيخ ابن تيمية، الإصلاحي الذي عاش في القرن الثالث عشر والذي أراد أن يفرض تفسيرًا حرفيًّا للقرآن. وقد قال ذكي للظواهري: إنه بذلك يتجاهل التيارين الآخرين في الإسلام: التيار الصوفي الذي ولد في كتابات الحارث المحاسبي مؤسس الصوفية، والمدرسة العقلانية التي انعكست في فكر شيخ الأزهر الأكبر محمد عبده. وقال له ذكي: «إن الإسلام الذي تراه أنت لن ينتشر أبدًا في الغرب، لأن أفضل شيء في الغرب هو حرية الاختيار. فستجد هنا أن الحركة الصوفية تنتشر كالنار في الهشيم، أما الحركة السلفية فلم تنجح في حث أي شخص على اعتناق الإسلام.» ولكن الظواهري لم يتراجع عما في ذهنه.

وقد قدر ذكي التبرعات التي جمعها الظواهري من زيارته إلى مساجد كاليفورنيا بمئات الدولارات على الأكثر، ولكن علي محمد قدرها بألفي دولار. وبغض النظر عن نتائج الزيارة، فقد عاد الظواهري إلى السودان ليواجه خيارًا مثبطًا للعزيمة: إما أن يحافظ على استقلال منظمته التي تناضل دائمًا من أجل توفير الدعم المادي، أو أن ينضم رسميًّا إلى بن لادن. عندما تقابل الظواهري وبن لادن قبل ذلك الوقت بعقد تقريبًا، كان الظواهري هو الشخص الأهم بكثير؛ فقد كانت لديه جماعة تقف وراءه وهدف واضح يسعى لتحقيقه ألا وهو الإطاحة بالحكومة المصرية. ولكن بن لادن، الذي طالما تمتع بأفضلية المال، أصبح لديه منظمته أيضًا التي فاق طموحها حدود طموح جماعة الجهاد بكثير. ومثلما كان بن لادن يدير العديد من المشروعات المختلفة تحت مظلة شركة واحدة، فقد كان يسعى أيضًا إلى دمج جميع الجماعات

الإسلامية الإرهابية في تنظيم متعدد الجنسيات يعمل وفقًا لخطة تدريب مشتركة ولديه ميزانية اقتصادية، مع توفير أقسام مختصة بجميع الأمور بدءًا من الاهتمام بشئون الأعضاء إلى وضع السياسات، وهكذا كان من الواضح أن التلميذ قد بدأ يتفوق على أستاذه، وكان ذلك جليًا للطرفين.

كان الظواهري يواجه أيضًا احتمال أن يحجب بروز الشيخ الضرير ونشاطات الجماعة الإسلامية وجوده وجماعته. فمع أن الظواهري قد حشد فريقًا بارعًا ومتفانيًا، والكثير منهم من أصحاب المؤهلات العليا أو العملاء المحترفين مثل علي محمد، الذي كان ينتقل بسهولة من ضواحي وادي السليكون الراقية إلى شوارع الخرطوم التي يغطيها التراب؛ فإن جماعته لم تنفذ عملية واحدة ناجحة تحسب لها. وفي الوقت نفسه، قام أتباع الشيخ الضرير بتنفيذ موجة ليس لها مثيل من القتل والسلب والنهب. ففي سبيل إضعاف شأن الحكومة ودفع الشعب للثورة، كانوا يهاجمون السياحة، الركيزة الأساسية للاقتصاد المصري، لأنها فتحت البلاد للفساد الغربي. وقد شنت الجماعة الإسلامية أيضًا حربًا على قوات الأمن المصرية عندما أعلنت أنها تهدف إلى قتل شرطي كل يوم. وكانوا يستهدفون الأجانب والمسيحيين وكذلك الكوادر الفكرية، بدءًا من إطلاق النار عام ١٩٩٢م على فرج فودة الصحفي العلماني الذي كان يحرر عمودًا في إحدى الصحف، والذي أشار في آخر مقالاته إلى أن الإسلاميين يتحركون بدافع الإحباط الجنسي أكثر من السياسات. وأصدر الشيخ الضرير أيضًا فتوى ضد الكاتب المصري نجيب محفوظ الفائز بجائزة نوبل ونعته بالكافر، وبالفعل في عام ١٩٩٤م، تلقى نجيب محفوظ عدة طعنات كادت أن تودي بحياته. وهناك مفارقة محزنة في محاولة اغتيال محفوظ؛ فقد كان سيد قطب هو أول من اكتشف نجيب محفوظ، وفيما بعد عندما أصبح محفوظ مشهورًا، رد الجميل بزيارة سيد قطب في السجن، وهكذا تحول نتاج أفكار قطب إلى مهاجمة الرموز الفكرية التي اكتشفها قطب بنفسه.

كان الظواهري يرى أن تلك العمليات انهزامية ولا جدوى من ورائها. وفي نظره، لم تسفر عن شيء سوى استفزاز قوات الأمن وتقليص فرص تنفيذ انقلاب عسكري يؤدي إلى تغيير شامل وفوري للحكومة؛ هدف حياته. وفي الواقع، الحملات التي شنتها الحكومة على المقاتلين بعد تنفيذ هذه العمليات قضت على وجود المنظمتين في مصر تقريبًا.

twitter @baghdad_library

وكان الظواهري قد فرض على جماعة الجهاد سياسة الخلايا العمياء؛ أي أن أعضاء كل خلية لا يعرفون شيئًا عن هوية أو نشاطات أعضاء الخلايا الأخرى، ولكن بالمصادفة ألقت السلطات المصرية القبض على الشخص الوحيد الذي كان لديه جميع الأسماء: المدير المسئول عن العضوية في الجماعة. ووجدوا على جهاز الكمبيوتر الخاص به قاعدة بيانات بها جميع عناوين الأعضاء والأسماء المستعارة التي يحملونها والمخابئ التي من الممكن أن يلجئوا إليها. وبالاعتماد على تلك المعلومات، اعتقلت قوات الأمن المئات من المشتبه بهم واتهمتهم بالتحريض على الفتنة. وقد أطلقت الصحف المصرية على هذه الجماعة «طلائع الفتح»، ولكنها كانت في الواقع جناحًا من جماعة الجهاد. ومع أن الأدلة ضدهم كانت واهية، فإن المعايير القضائية لم تُطبَق بحذافيرها.

ويقول الظواهري بمرارة في الكتاب الذي يعد ملخصًا لسيرته الذاتية: «وخرجت الصحف الحكومية مزهوة متفاخرة بالقبض على ثمانمائة عضو في جماعة الجهاد دون إطلاق طلقة واحدة.» وأصبح كل ما تبقى من الجماعة التي كافح لبنائها مجرد جماعات مشتتة في دول أخرى — في إنجلترا وأمريكا والدنمارك واليمن وألبانيا وغيرها. لذا، فقد أدرك أن عليه اتخاذ خطوة ما للحفاظ على شتات منظمته، ولكي يفعل هذا فقد كان بحاجة إلى النقود.

ومع أن الوضع المالي لجماعة الجهاد كان حرجًا، فقد كان العديد ممن تبقى من أعضائها لا يثقون ببن لادن، وليست لديهم رغبة في تحويل نشاطهم خارج مصر. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانوا يشعرون بسخط شديد بسبب إلقاء القبض على زملائهم في القاهرة والمحاكمة الصورية التي تبعت القبض عليهم، وأرادوا الانتقام لهم. ومع ذلك، فقد كان معظم أعضاء جماعة الجهاد في ذلك الوقت تقريبًا يتلقون مرتباتهم من القاعدة. وقد نظر الظواهري إلى ذلك التحالف على أنه اتحاد مؤقت الهدف من ورائه المنفعة. وقد اعترف لأحد كبار مساعديه فيما بعد أن الانضمام إلى منظمة بن لادن كان «الحل الوحيد للحفاظ على بقاء جماعة الجهاد في الخارج.»

لم يتخل الظواهري ولا ريب عن حلمه بالسيطرة على مصر، بل كان السودان من وجهة نظره نقطة مثالية لشن الهجمات على مصر. فقد سهلت الحدود الشاسعة غير المطروقة بين الدولتين التي تخلو من الحراسة تقريبًا التحركات السرية، وقد استغلوا الطرق القديمة التي كانت تسلكها القوافل في تهريب الأسلحة والمتفجرات

إلى مصر على ظهور الجمال. إلى جانب أن التعاون الفعال من قِبل وكالة المخابرات السودانية وقواتها العسكرية جعل من السودان ملجأً مضمونًا للظواهري ورجاله.

بدأت جماعة الجهاد هجماتها على مصر بمحاولة أخرى لاغتيال حسن الألفي وزير الداخلية الذي كان يقود حملة القضاء على المقاتلين الإسلاميين. ففي أغسطس/آب من عام ١٩٩٣م، انفجرت دراجة نارية مفخخة بالقرب من سيارة الوزير وأسفرت عن مقتل منفذ العملية وشريكه، ويقول الظواهري في كتابه بأسى: «نجا الوزير من الموت ولم يصب إلا بكسر في ذراعه.»

لقد كانت هذه العملية فشلًا آخر للجماعة، ولكنه كان فشلًا مهمًّا لأن الظواهري قدم فيها أسلوب التفجير الانتحاري الذي أصبح توقيع جماعة الجهاد على عمليات الاغتيال التي تنفذها، ثم بعد ذلك توقيع القاعدة على «العمليات الاستشهادية» التي تنفذها. لقد اقتحمت هذه الاستراتيجية منطقة محرمة في الدين الإسلامي ألا وهي الانتحار. فمع أن حزب الله، التنظيم الشيعي، قد استخدم الشاحنات المفخخة التي يقودها انتحاريون للهجوم على السفارة الأمريكية وثكنات القوات البحرية الأمريكية في بيروت عام ١٩٨٣م، فإن هذا الأسلوب لم يُستخدم قط من قِبل جماعة سنية. وفي فلسطين، لم تعرف التفجيرات الانتحارية حتى منتصف التسعينيات عندما بدأت اتفاقية أوسلو تنهار.[1] وقد ذهب الظواهري إلى إيران لجمع التبرعات، وأرسل علي محمد ومجموعة من أعضاء التنظيم إلى لبنان للتدريب مع حزب الله، لذا فمن المحتمل أن فكرة التفجيرات الانتحارية قد انتقلت إليهم من ذلك المصدر. ومن الابتكارات الجديدة للظواهري أيضًا تسجيل نَذْرِ منفذ العملية نفسه للشهادة عشية تنفيذ العملية، وكان يوزع هذه الشرائط بأصوات المنفذين لتبرير قرارهم بالتضحية بأرواحهم.

وفي شهر نوفمبر/تشرين الثاني، في أثناء محاكمة أعضاء الجهاد، حاول الظواهري اغتيال رئيس الوزراء المصري عاطف صدقي حيث انفجرت قنبلة وضعت في سيارة عندما كان الوزير يمر في سيارته بمدرسة للفتيات في القاهرة. وبالطبع لم يصب الوزير بجرح وهو في سيارته المصفحة، ولكن الانفجار جرح واحدًا وعشرين شخصًا وقتل فتاة صغيرة في المدرسة اسمها شيماء عبد الحليم التي لقيت حتفها فور أن

[1] في السادس من أبريل/نيسان عام ١٩٩٤م، فجرت أول عملية انتحارية فلسطينية حافلةً في العفولة في إسرائيل.

twitter @baghdad_library

انهار عليها باب أطاح به الانفجار. ولقد فجر موت الفتاة غضب المصريين الذين شهدوا مقتل أكثر من ٢٤٠ شخصًا على يد الجماعة الإسلامية في العامين السابقين. ومع أن تلك العملية كانت الوحيدة على يد الجهاد، فقد أثر موت الطفلة شيماء على مشاعر المصريين تأثيرًا لم يحدثه أي حادث آخر من قبل. وعندما مرت جنازتها في شوارع القاهرة، أخذت الحشود تهتف «الإرهاب عدو الله».

اهتز الظواهري بذلك الغضب الشعبي، وقال في كتابه: «وقد آلمنا مقتل هذه الطفلة البريئة دون قصد. ولكن ما حيلتنا ولا بد لنا من جهاد الحكومة»، وعرض دية على أسرة الطفلة. ألقت الحكومة المصرية القبض على ٢٨٠ آخرين من أتباعه، وصدر حكم بالإعدام على ستة منهم، فكتب الظواهري: «أي طالبتْ بالحكم على ابنتي الصغيرة التي كانت تبلغ عامين من عمرها وعلى بنات إخواني بالتيتم!! فمن الذي بكى على بناتنا واهتم بشأنهن؟»

twitter @baghdad_library

الفصل العاشر

الفردوس المفقود

تدفق الشباب من دول كثيرة على مزرعة سوبا النائية المغطاة بالتراب التي تقع على بعد عشرة كيلومترات جنوب الخرطوم. وكان بن لادن يستقبلهم، ثم يبدأون دورات تدريبهم على الإرهاب. ويختلف هؤلاء الشباب في الدوافع التي تحركهم، ولكنهم يشتركون جميعًا في إيمانهم بأن الإسلام، في صورته النقية الأصلية دون أن تؤثر عليه العصرية أو تطوعه السياسات، قادر على علاج المشكلات التي فشلت الاشتراكية أو القومية العربية في علاجها. لقد كانوا يشعرون بالغضب ولكن يعجزون عن القيام بشيء داخل بلادهم. فهؤلاء الشباب لم ينظروا إلى أنفسهم على أنهم إرهابيون بل ثوريون دفعتهم إلى التحرك، على غرار العديد من الشخصيات الثورية عبر التاريخ، الحاجة الإنسانية الفطرية للعدالة. وقد عانى بعضهم القمع الوحشي، في حين أن البعض الآخر وجد نفسه ينجرف في تيار الفوضى الدموية. ومنذ بدء تكوين تنظيم القاعدة كان يضم بين صفوفه إصلاحيين وعدميين. وكانت طبيعة القوى التي تحركهم متعارضة وكفيلة بأن يدمر بعضها بعضًا، ولكن كانت الأحداث تتطور بسرعة كبيرة تجعل من المستحيل تقريبًا تمييز الفلاسفة عن المختلين اجتماعيًّا. أما الشيء الذي جمعهم معًا فهو شخصية بن لادن الجذابة التي كانت تجمع بدورها بين الاتجاهين المثالي والعدمي في مزيج قوي.

ونظرًا لاختلاف المتدربين والقضايا التي تحركهم، فقد كانت مهمة بن لادن الأساسية هي توجيههم إلى عدو مشترك. وكان قد كوَّن بالفعل فكرة ثابتة عن أمريكا يشرحها لكل مجموعة جديدة من المجندين في القاعدة؛ فكان يخبرهم أن أمريكا تبدو شديدة البأس ولكنها في الواقع ضعيفة وجبانة، والدليل على ذلك ما حدث في فيتنام ولبنان، فكلما رأوا جثث جنودهم تعود في النعوش ارتعدت فرائصهم وانسحبوا. ودولة مثل هذه لا تحتاج إلا إلى مواجهتها بضربتين قاصمتين أو ثلاث، ثم ستولي

الأدبار مذعورة كما تفعل دائمًا. ويرجع ذلك إلى أنه على الرغم من ثرائها ومصادرها الهائلة، فإن أمريكا تفتقر إلى الإيمان الراسخ، فلا تستطيع التصدي لجنود الإيمان الذين لا يهابون الموت. وستنسحب السفن الحربية الراسية في الخليج إلى المحيط، وستختفي القاذفات من القواعد الحربية في شبه الجزيرة العربية، وستعود القوات المرابطة في القرن الأفريقي تجر أذيال الخيبة إلى ديارها.

إن الرجل الذي كوَّن هذا الرأي عن أمريكا لم تطأ قدماه أرضها قط، ولكنه كان يحب أن يجمع حوله الأشخاص الذين عاشوا هناك، مثل أبي رضا السوري، ووائل جليدان، وعلي محمد، الذين أكدوا له الصورة التي رسمها في ذهنه عن أمريكا كبلد مغرور ومنحل. وكان بن لادن لا يطيق صبرًا كي يوجه رمحه إلى قلب آخر قوة عظمى في العالم فيقضي عليها، ورأى أن الفرصة الأولى لهذا متاحة على أرض الصومال.

في الأشهر التي تلت هزيمة صدام حسين، برز الاختبار الأول للنظام العالمي الجديد الذي تحاول أمريكا المنتصرة فرضه على العالم في الصومال. فقد كانت الأمم المتحدة تشرف على الجهود الدولية للقضاء على المجاعة في الصومال التي قضت بالفعل على ٣٥٠ ألف شخص. وعلى غرار ما حدث في حرب الخليج، تجمع تحالف دولي تحت مظلة الأمم المتحدة مدعومًا بالقوة الأمريكية. ولكن هذه المرة لم يكن هناك جيش عراقي قوي يواجهونه، فلا يوجد حرس جمهوري أو فرق مدرعات، فقط حشود غير منظمة مسلحة بمدافع رشاشة وقذائف أر بي جي. ولكن ظهر بوضوح ما يمثلونه من تهديد عندما قتلوا أربعة وعشرين جنديًّا باكستانيًّا في كمين.

وقد زعم بن لادن أنه أرسل ٢٥٠ رجل إلى الصومال لقتال القوات الأمريكية. ولكن طبقًا للمخابرات السودانية، فقد كان العدد الحقيقي لمقاتلي تنظيم القاعدة في ذلك الوقت قليلًا للغاية. قدم رجال حروب العصابات في القاعدة برامج تدريبية وحاولوا أن يشاركوا في الحرب القبائلية الفوضوية المشتعلة التي اندلعت داخل إطار لوحة المجاعة التي رسمتها يد الأعمال العدائية. ولم يترك رجال القاعدة انطباعًا مبهرًا لدى مضيفيهم، فعلى سبيل المثال، أعد العرب ذات مرة سيارة مفخخة لمهاجمة قوات الأمم المتحدة ولكن القنبلة لم تنفجر. وقد اشتكى أحد العرب قائلًا: «كان الصوماليون يعاملوننا معاملة سيئة للغاية. وحاولنا أن نقنعهم أننا بعثة من قِبل أناس يقفون وراءنا ولكنهم لم يقتنعوا، ونظرًا لموقف القيادة السيئ هناك، قررنا أن ننسحب.»

twitter @baghdad_library

وفي إحدى الليالي في مقديشيو، رأى اثنان من مقاتلي القاعدة إسقاط طائرتين هليكوبتر أمريكيتين، وقد أصابت الضربات الانتقامية المنزل المجاور لذلك الذي كانوا يقيمون فيه، وخشيا أن يلقي الأمريكيون القبض عليهم فتركوا الصومال في اليوم التالي. وعلى أية حال، فقد أصبح إسقاط الطائرتين الهليكوبتر الأمريكيتين في أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٩٣م نقطة التحول في الحرب، فقد أخذ رجال القبائل الثائرين يجرون جثث طاقم الطائرتين في شوارع مقديشيو احتفالًا بنصرهم، المشهد الذي دفع الرئيس كلينتون لسحب جميع الجنود الأمريكيين من هناك على الفور. ومن ثم، أثبتت الأحداث أن تحليل بن لادن للشخصية الأمريكية كان صحيحًا.

ومع أن رجال القاعدة هربوا من أرض المعركة، فقد نسب بن لادن للتنظيم عملية إسقاط الطائرتين الهليكوبتر في الصومال والتمثيل بجثث الجنود الأمريكيين. لقد ازداد نفوذ بن لادن بشدة بسبب انتصارات المتمردين، كما في أفغانستان والصومال، التي لم يكن له يد فيها، كل ما كان يفعله هو أنه ينسب هذه الانتصارات لنفسه، وقد قال بن لادن ذات مرة متفاخرًا على شاشة الجزيرة: «ومما بلغنا من أخبار إخواننا الذين جاهدوا في الصومال، وجدوا العجب العجاب من ضعف الجندي الأمريكي، ومن هزالة الجندي الأمريكي، ومن جبن الجندي الأمريكي. ما قتل منهم إلا ثمانية عشر، ومع ذلك فروا في ليل أظلم لا يلوون على شيء، بعد ضجيج ملأ الدنيا عن النظام العالمي الجديد.»

نجح بن لادن في جذب العديد من الجماعات القومية تحت مظلته عن طريق إمدادهم بالأسلحة وتدريب قواتهم، فقد كان يمتلك مدربين لديهم سنوات من الخبرة في القتال. وكان عميل الظواهري المزدوج علي محمد يُدَرِّس دورة للتدريب على المراقبة باستخدام الأساليب التي تعلمها من القوات الخاصة الأمريكية (وقد حضر بن لادن نفسه في صفوف الطلاب أول دورة تدريبية دَرَّسها علي محمد). أما الأسلحة، فكانت تأتي من مخازن بقايا أسلحة المجاهدين في تورا بورا التي تمكن بن لادن من تهريبها إلى السودان. وكان يوفر لهم أيضًا النقود اللازمة لزرع بذور الثورة في بلادهم، ومن المؤكد أن رؤية مدى ما يستطيع فعله دون أن يتكبد الكثير من المشاق مرضية في نظره.

في الجزائر عام ١٩٩٢م، منع انقلاب عسكري إجراء الانتخابات التي كان من المتوقع أن تفوز بها الجبهة الإسلامية للإنقاذ Front Islamique du Salut (FIS). وفي

العام التالي، أرسل بن لادن قاري السعيد، الجزائري الذي كان أحد أعضاء مجلس الشورى في القاعدة، لكي يقابل بعض قادة الثوار الذين لجئوا إلى الجبال. وفي ذلك الوقت، كان الإسلاميون يحاولون الضغط على الحكومة العسكرية التي لا تحظى بتأييد الشعب للتفاوض معهم. حمل رسول بن لادن معه أربعين ألف دولار من نقود بن لادن، وحذر القادة الإسلاميين من أنهم كانوا يلجئون إلى الجهاد من أجل السياسة فقط وليس في سبيل الله، وهذا في حد ذاته إثم، وإنه لا سبيل للتوصل إلى تسويات مع حكومة كافرة، والحل الوحيد هو شن حرب شاملة. ويقول عبد الله أنس الذي كان جزءًا من المقاومة: «هذا الجدال البسيط دمرنا.» فقد كان الأفغان العرب الذين ترسخت عقيدة التكفير في عقولهم دائمًا ما ينحون جانبًا أولئك الذين يفضلون لغة الحوار مع الحكومات مثل عبد الله أنس.

اتحد رجال حرب العصابات من الشباب الفقير، والمدني إلى حد بعيد، الذين انجذبوا إلى الثورة الجزائرية تحت لواء الجماعة الإسلامية المسلحة Groupe Islamique Arme (GIA)، وللسنوات الخمس التالية، أغرقوا البلاد في أنهار من الدماء. وقد تطورت الأحداث في الاتجاه التكفيري المتوقع لها، فبدأ الإسلاميون بقتل غير المسلمين لا سيما القساوسة والراهبات والدبلوماسيين والمثقفين والمنادين بحقوق المرأة والأطباء ورجال الأعمال. وطبقًا لمنطق الجماعة الإسلامية المسلحة، فإن الديمقراطية والإسلام متعارضان، ومن ثم فإن كل من لديه بطاقة انتخابية عدو للإسلام ويستحق أن يُقتَل. وامتد هذا التصريح بالقتل ليشمل كل من يعمل في المؤسسات التابعة للحكومة مثل المدارس العامة؛ ففي غضون شهرين فقط من عام ١٩٩٤م، قُتِل ثلاثون مدرسًا وناظرًا وأضرمت النيران في ٥٣٨ مدرسة. بيد أن إرهابيي الجماعة المسلحة لم يستهدفوا المدرسين والديمقراطيين فقط، فقد ذبحوا سكان قرى كاملة في مذابح في منتصف الليل. وكانوا يشيدون بهذه الفظائع على صفحات جريدة الأنصار الأسبوعية التي تنشرها الجماعة المسلحة في لندن، التي كانت تتصدرها عناوين مثل «الحمد لله، لقد ذبحنا اليوم مائتي شخص» و«أحد إخواننا يطيح برأس أبيه في سبيل الله»، وقد وصلت موجة الجنون الديني إلى ذروتها في إعلان أدان الشعب الجزائري برمته؛ فقد نص بيان رسمي للجماعة على هذه المعادلة بوضوح: «لا يوجد حياد في الحرب التي نشنها، ففيما عدا أولئك الذين يحاربون في صفوفنا، الجميع مرتدون ويستحقون الموت.» وكانت هذه المعادلة ممكنة ومقبولة في أعين أولئك الذين رأوا في ذلك الصراع حرب نهاية العالم.

twitter @baghdad_library

حتى بن لادن نفسه تراجع، إن لم يكن بسبب موجة العنف تلك، فبسبب نظرة الاشمئزاز التي رمق بها العالم كله المشروع الإسلامي، فقد كان يسعى لرسم «صورة أفضل للجهاد»، وعندما جاء بعض قادة الجماعة الإسلامية المسلحة إلى الخرطوم يستجدون المزيد من الأموال، واتتهم الجرأة الكافية كي ينتقدوا بن لادن؛ لأنه «لين العريكة بصورة مفرطة» مع الديمقراطيين، الأمر الذي جعله يبدو «ضعيفًا»، فاستشاط بن لادن غضبًا وسحب دعمه لهم بالكامل، ولكن بعد أن أسهمت الأربعون ألف دولار التي أرسلها في البداية في كارثة. وقد حصدت الحرب الأهلية الجزائرية أرواح أكثر من مائة ألف شخص.

في نهاية عام ١٩٩٣م، انتشرت شائعة في الخرطوم أن جنرالًا سودانيًّا قد تمكن من الحصول على بعض اليورانيوم من السوق السوداء. وقد كان بن لادن مهتمًّا بالفعل بامتلاك أسلحة قوية تناسب رؤيته الواسعة للقاعدة كتنظيم إرهابي عالمي. وكان يعمل مع الحكومة السودانية على تطوير أسلحة كيميائية يمكن استخدامها ضد المتمردين المسيحيين في الجنوب، وتهريب أسلحة من أفغانستان على طائرات الشحن التابعة لخطوط الطيران السودانية. واشترى طائرة عسكرية أمريكية من طراز تي-٣٩ بالتحديد لنقل المزيد من صواريخ ستينجر. لذا، فعندما وصل إلى مسامعه خبر اليورانيوم، كان من الطبيعي أن يتحمس بشدة، فأرسل جمال الفضل ليتفاوض على سعره.

وكان الفضل، طبقًا لما رواه، يحظى بمكانة خاصة في قلب بن لادن لكونه ثالث شخص يقسم يمين الولاء للقاعدة. وكان الفضل رياضيًّا رشيق القوام نحيفًا، يلعب في مركز الوسط في فريق بن لادن لكرة القدم، ودائم الابتسام ويفاجئ من حوله بضحكته السريعة التي تشبه صهيل الخيول. وعلى غرار الكثيرين من العناصر القيادية في القاعدة، فقد جاء الفضل من أمريكا للاشتراك في الجهاد حيث كان يعمل في فرع مكتب الخدمات في شارع أتلانتيك أفنيو في بروكلين. ونظرًا لأن الفضل سوداني وكان يعرف جيدًا سوق العقارات المحلية، فقد ائتمنه بن لادن على نقود شراء منازل ومزارع القاعدة قبل أن ينتقل التنظيم إلى الخرطوم.

طلب الجنرال مليون ونصف مليون دولار مقابل اليورانيوم بالإضافة إلى عمولته الخاصة. وقدم له أسطوانة يبلغ طولها قدمين ونصفًا وقطرها ست بوصات تقريبًا، وبعض المستندات التي تثبت أن تلك العُلبة جاءت من جنوب أفريقيا. اقتنع بن لادن

بتلك المعلومات ودفع للفضل عشرة آلاف دولار لدوره في الصفقة. ولكن اتضح بعد ذلك أن الاسطوانة مليئة بمادة تسمى الزئبق الأحمر، التي تعرف أيضًا بكبريتيد الزئبق، التي تشبه أكسيد اليورانيوم من حيث الشكل إلا أنها تختلف عنها تمامًا في الخواص الكيميائية. وفي الواقع، فقد ظل الزئبق الأحمر يستخدم في مجال بيع المواد النووية المزيفة لأكثر من خمسة وعشرين عامًا. ورغم ذلك الدرس المكلف، استمر بن لادن في بحثه عن اليورانيوم المخصب أو الرءوس النووية الروسية التي قيل إنها متاحة بين أنقاض الاتحاد السوفييتي.

وحتى ذلك الوقت في بداية التسعينيات، كان بن لادن لا يزال يحاول صقل مفهوم تنظيم القاعدة وتوضيحه. فقد كانت حتى ذلك الوقت واحدة من مشروعاته العديدة، إلا أنها تعده بتكوين قاعدة غير عادية من القوة والسلطة. لقد كانت عملياته، مثل تلك الغزوة في الصومال، صغيرة وتنطوي على مخاطرة، ولكن إذا توافرت لها أدوات قوية، مثل الأسلحة النووية أو الكيميائية، سيكون بإمكان القاعدة تغيير مجرى حياة البشرية.

بحلول عام ١٩٩٤م، وصلت حياة بن لادن إلى أوجها، فقد غمرت السعادة والحظ الوفير أول عامين قضاهما في السودان. فكانت زوجاته وعائلته يعيشون معًا في فيلته الضخمة، وكانت أرباح أعماله ومشروعاته تزداد، وكانت القاعدة تكتسب المزيد من القوة والدوافع، ولكنها كانت تثير القلق أيضًا. فمع أن أجهزة المخابرات الغربية لم تكن، إلى حد بعيد، على دراية بوجود بن لادن، أو فشلت في تقدير حجم تنظيمه؛ فقد لاحظ السعوديون والمصريون الأنشطة الدائرة في السودان. ولكن أثبت تنظيم القاعدة أن من الصعب اختراق صفوفه، فقد كان الولاء وصلة القرابة بين الأعضاء والتعصب الذي يجمعهم حواجز منيعة أمام المتطفلين من خارج التنظيم.

اعتاد بن لادن الذهاب للصلاة في أيام الجمعة في مسجد أنصار السنة الذي يقع على الجانب الآخر للنيل من الخرطوم في ضاحية أم درمان، والذي كان مسجدًا وهابيًّا يتردد عليه السعوديون. وفي الرابع من فبراير/شباط، قامت مجموعة صغيرة من التكفيريين المسلحين ببنادق من طراز كلاشينكوف بقيادة رجل ليبي اسمه محمد عبد الله الخليفي، باقتحام قسمين للشرطة بجرأة شديدة، وقتلوا اثنين من رجال الشرطة واستولوا على أسلحة وذخائر من هناك. ثم ذهب الخليفي بعد ذلك ومعه اثنان من أعوانه إلى المسجد مع انتهاء صلاة العشاء، وقاموا بإطلاق النار عشوائيًّا

twitter @baghdad_library

على جموع المصلين، مما أسفر عن مقتل ستة عشر شخصًا على الفور وإصابة ما يقرب من عشرين آخرين، واختفى القتلة بعد ذلك خلف المطار. وفي اليوم التالي، أخذت هذه الجماعة تتجول في الخرطوم بحثًا عن أهداف أخرى، فأطلقت النار على رجال الشرطة في الشوارع وعلى بعض موظفي بن لادن في مكتب وادي العقيق في وسط البلد. لقد كانوا مجموعة همجية وغير منظمة، ولكن كان من الواضح أنهم يستهدفون بن لادن.

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر، وهو الوقت الذي اعتاد فيه بن لادن فتح صالونه الخاص لاستقبال الزوار، كان يدور بينه وبين ابنه الأكبر عبد الله نقاش حاد. فقد كان عبد الله يعاني مرض الربو منذ طفولته، وكانت تجربة الحياة في بيشاور والخرطوم صعبة عليه. وقد كان في السادسة عشرة من عمره ويتلهف ليكون مع أصدقائه وأقاربه في جدة، فقط على الجهة الأخرى من البحر الأحمر. ففي النهاية ينتمي عبد الله إلى عائلة ثرية للغاية، وفي جدة يستطيع الاستمتاع بوقته في المنتجع الذي تملكه العائلة على الشاطئ، بالإضافة إلى الرحلات باليخوت وحضور الحفلات وشراء السيارات، وجميع مباهج الحياة التي نفر منها والده. وكان يخشى أيضًا أن أسلوب التعليم المنزلي الذي كان والده يتبعه معهم جعله يتخلف كثيرًا عن أقرانه، وفي الواقع كان أولاد بن لادن من زوجته الأولى يقرءون بشق الأنفس. في حين أن أسامة كان يرى أن عائلته تحيا حياة مرفهة للغاية في السودان وكان يريد أن يجعلها أكثر تقشفًا، وليس أقل.

وفي حين كان الأب والابن يتحدثان في منزل بن لادن، بدأ الضيوف يصلون إلى المكتب على الجهة الأخرى من الشارع، وفجأة حدث شيء غير متوقع؛ فيقول بن لادن: «وفي تلك اللحظة، سمعت صوت إطلاق نار يأتي من جهة منزل الضيوف، ثم انطلقت العديد من الرصاصات على المنزل»، فالتقط بن لادن مسدسه من جيب جلبابه وأعطى سلاحًا آخر لعبد الله.

كان القتلة قد استقلوا سيارتهم إلى الشارع الذي يفصل بين منزلي بن لادن وفتحوا النيران على الفور حيث توقع الخليفي ومعاوناه أن يكون بن لادن في مكتبه. ويقول بن لادن: «لقد استهدفوا المكان الذي اعتدت الجلوس فيه.» أطلق بن لادن وعبد الله وبعض رجال الأمن السودانيين الذين يحرسون المنطقة النار على المهاجمين فقتلوا معاوني الخليفي وجرحوه هو، في حين أصيب ثلاثة من ضيوف بن لادن وعدد من الحراس.

ألقى بن لادن بأسلوب غير مباشر باللوم في هذه الهجمات على «أنظمة الحكم في منطقتنا العربية»، على حد قوله. وعندما سأله صديقه القديم جمال خاشقجي عما يعنيه بذلك، أشار بن لادن بأصابع الاتهام إلى المخابرات المصرية، في حين اعتقدت المخابرات الأمريكية أن السعوديين هم من وراء محاولة الاغتيال، ولكن سعيد باديب رئيس هيئة استخبارات الأمير تركي قال: «إننا لم نحاول اغتياله قط، بل أردنا تهدئته فقط.»

ولكن محاولة القتل الوشيكة هذه منحت الظواهري فرصة رائعة لكي يزيد نفوذه لدى بن لادن؛ فكلف رجله علي محمد التحري عمن حاولوا تنفيذ عملية الاغتيال. وتوصل علي محمد إلى أن الخليفي رجل ليبي تدرب في لبنان ثم سافر إلى بيشاور عام ١٩٨٨م حيث انضم إلى المجاهدين وقابل بن لادن، ولكنه وقع أيضًا تحت تأثير التكفيريين؛ أي أن الخليفي كان مختلًّا اجتماعيًّا يستخدم هذه الفلسفة لتبرير قتل أي شخص يرى أنه كافر. ولم يكن ما يفعله يختلف كثيرًا عما يفعله الظواهري وبن لادن، فيما عدا اختلاف درجة الطموح. فقد كان التكفير هذا سلاحًا يمكن أن ينفجر في وجه أي شخص.

رتب الظواهري لأن يتولى علي محمد تدريب حراس بن لادن، وحرص على أن يكون أكبر عدد منهم من المصريين؛ مما زاد من قوة نفوذ المصريين على السعودي. أما بن لادن، فقد استنتج بكآبة أن حياته الهادئة المطمئنة في السودان قد انتهت، ولم تعد نزهاته في النيل وجولاته التأملية وهو في طريقه إلى المسجد وسباقات الخيل في أيام الجمعة سوى جزء من الماضي. فأصبح يتحرك محاطًا بموكب من الحراسة ويحمل معه دائمًا سلاحه من طراز كاليكوف أيه كيه-٧٤ الذي حصل عليه كجائزة في أرض المعركة.

لم يقتصر التغيير الذي طرأ على حياة بن لادن على هذا الجانب فقط، بل امتد أيضًا إلى الجانب العائلي. فبقدر ما كان بن لادن صارمًا مع أطفاله، كان متساهلًا بصورة مذهلة مع زوجاته اللائي يعملن؛ فقد حافظت كل من أم حمزة أستاذة علم نفس الأطفال وأم خالد أستاذة النحو العربي، على وظيفتيهما في الجامعة، وكانتا تسافران بانتظام إلى السعودية في أثناء سنوات الحياة في السودان. وكانت أم حمزة تعيش في الدور الأرضي من منزل الخرطوم حيث كانت تحاضر النساء عن تعاليم الإسلام.

twitter @baghdad_library

أما أم عبد الله، فلم تعد عليها سنوات الحياة في الخرطوم بثمار جيدة؛ فقد كان اثنان من أبنائها وهما عبد الله وعمر يكرهان حياة الحرمان والخطر التي فرضها عليهم والدهما، واستمرت أيضًا مشكلة رعاية عبد الرحمن، الابن المعاق، الذي كانت نوباته الانفعالية أصعب في التعامل معها في تلك البيئة المقيدة المحدودة.

أما زوجته الرابعة أم علي، فقد طلبت الطلاق. وكان بن لادن قد توقع هذا من قبل حيث قال لجمال خليفة: «لم نكن على وفاق منذ البداية.» عندما قرر أسامة وجمال وهما في الجامعة أن يجمعا بين أكثر من زوجة، تعهدا ألا يسيئا إلى مبادئهما الأخلاقية بالمبادرة بالطلاق. فقد كان بن لادن يعتزم الالتزام بالتعاليم القرآنية وأن يعدل بين زوجاته بدلًا من اتباع نهج أبيه في الزواج بعشرات السيدات. ولكن كان ذلك يعني أنه سينتظر طويلًا على أم علي حتى تطلب الطلاق بنفسها ويضعا نهاية لحياتهما التعيسة معًا.

وطبقًا للشريعة الإسلامية، يظل الأطفال دون السابعة في حضانة الأم، وبعد بلوغ السابعة تذهب الفتيات إلى حضانة الأب، أما الصبية فبإمكانهم الاختيار ما بين والديهما. وقد اختار علي ابنهما البكر ذو السنوات الثماني البقاء مع والدته، فاصطحبت أم علي أطفالها الثلاثة وعادت إلى عائلتها في مكة، وقد استمرت الفتيات معها حتى بعدما كبرن.

كان بن لادن يقدر الإخلاص بشدة، وجميع من حوله تقريبًا تعهدوا له بالولاء رسميًّا. فكان يعيش مثل أمير إقطاعي يتحكم في مصائر المئات من الأشخاص، ولم تزر الخيانة عالمه حتى ذلك الوقت. لذا، شكل الرحيل المفاجئ لعدد من أفراد عائلته خسارة فادحة لرجل كان يعتبر نفسه آية لقيم الأسرة الإسلامية. لقد أدت حياة الزهد والتقشف التي فرضها على أولاده إلى انقلاب بعضهم عليهم، ومع ذلك، فقد تركهم يذهبون عن طيب خاطر.

كان بن لادن أيضًا يشعر بالشوق والحنين لوطنه، ولم يتسن له رؤية والدته وغيرها من أفراد عائلته إلا عندما كان البلاط الملكي السعودي يرسلهم إلى الخرطوم كي يضغطوا عليه ليعود. فقد كان الملك فهد يحتدم غضبًا من استمرار بن لادن في عصيانه. وكانت الجزائر واليمن تضغطان على السعوديين بغضب كي يوقفوا الرجل الذي تريان أنه مصدر حركات التمرد في البلدين. وعلى أية حال، فقد كانت مصر هي التي أجبرت المملكة في النهاية على الاختيار ما بين ابنها الضال وبين استمرار

علاقتها الطيبة مع حليف قوي. فقد سئم المصريون العنف الذي كان يتسرب إلى بلادهم من السودان، واشتكوا مرارًا وتكرارًا من أن بن لادن هو من يقف وراءه. وفي النهاية، في الخامس من مارس/آذار عام ١٩٩٤م، قرر الملك فهد شخصيًّا سحب جنسية أسامة بن لادن السعودية.

تتسم المملكة العربية السعودية بأنها أمة مترابطة، فعائلاتها وقبائلها الكبيرة ترتبط معًا بعلاقات معقدة، وطرد أي شخص من البلاد يعني استبعاده أيضًا من هذه العلاقات المعقدة التي تمثل جزءًا أساسيًّا من الهوية السعودية. إلى جانب أن الجنسية السعودية تعد شيئًا قيمًا للغاية، ومن النادر أن تُمنَح لأي أجنبي، وحقيقة أن عائلة بن لادن، وهي يمنية الأصل، جزء لا يتجزأ من المجتمع السعودي تشير إلى المكانة المتميزة، والحساسة أيضًا، التي تحظى بها في المجتمع. وبعد أن ألغى الملك جنسية أسامة بن لادن مباشرة، قام بكر بن لادن الأخ الأكبر في العائلة باستنكار وشجب أفعال أسامة علانية، معلنًا بهذا تخلي العائلة بالكامل عنه. ويؤرخ الكثيرون من أبناء وطنه اللحظة التي تحول فيها أسامة بن لادن إلى التطرف الكامل إلى اليوم الذي أعلن فيه الملك قراره. وقد سافر مبعوث إلى السودان لكي ينقل إليه الخبر رسميًّا، وطلب منه جواز سفره الذي ألقاه إليه أسامة قائلًا: «خذه، إذا كان وجوده معي يعني أي شيء من جانبي.»

فوض بن لادن الذي كان يشعر بالمرارة والخزي ممثلين عنه بتأسيس مكتب في لندن. (وكان يفكر في طلب اللجوء إلى بريطانيا، ولكن عندما سمعت وزارة الداخلية البريطانية ذلك منعته على الفور). وكان يتولى إدارة ذلك المكتب الجديد، الذي يحمل اسم لجنة النصح والإصلاح، رجل سعودي اسمه خالد الفواز، ومعه عضوان مصريان من جماعة الجهاد. وقد قاموا بإرسال المئات من رسائل الفاكس إلى أبرز الشخصيات في المجتمع السعودي الذين أذهلهم شجب بن لادن العلني للفساد الملكي وللصفقات السرية التي يقوم بها أفراد العائلة المالكة مع هيئة العلماء. وقد أثارت تلك الرسائل ضجة هائلة في الوقت الذي كانت تشتعل فيه بالفعل الرغبة في الإصلاح. ونشر بن لادن خطابًا مفتوحًا موجهًا للشيخ ابن باز رئيس هيئة العلماء السعودية يشجب فيه الفتاوى التي أصدرها بمنح العائلة المالكة السلطة لإبقاء القوات الأمريكية في الأرض المقدسة والقبض على العلماء الإسلاميين المعارضين لهم.

— «اكسر شوكة هذا الرجل!» أصدر الملك فهد هذا الأمر للأمير تركي في السعودية، فدرست خطط لاغتياله، ولكن السعوديين ليسوا قتلة مهرة، وتركي لم

twitter @baghdad_library

تكن لديه الجرأة الكافية للإقدام على هذه المخاطرة. وبدلًا من ذلك، أمرت وزارة الداخلية عائلة بن لادن بمقاطعته، واستولت على حصته من الشركة، سبعة ملايين دولار تقريبًا، ومع أن رد الفعل هذا كان متوقعًا إلى حدٍّ بعيد، فقد فوجئ به بن لادن الذي كان يعتمد اعتمادًا أساسيًّا على الراتب الشهري الذي تدفعه له الشركة، بل في الواقع كان هو مصدر دخله الحقيقي الوحيد.

وهكذا انتهى المطاف بحياة أسامة بن لادن العملية إلى فشل ذريع. فقد بدأ حياته في السودان بتوزيع النقود هنا وهناك، فعلى سبيل المثال، أقرض الحكومة بالعملة الصعبة لشراء قمح عندما تسبب النقص الحاد في اصطفاف طوابير الخبز، وساعد في بناء مرافق محطة الإذاعة والتليفزيون السوداني، وكان من حين لآخر يسدد فواتير واردات الدولة من النفط عندما لا تستطيع الحكومة ذلك. لقد كانت ثروة بن لادن المتواضعة في دولة فقيرة مثل السودان تمثل اقتصادًا ثانيًّا تقريبًا. ولكنه لم يهتم كثيرًا بإدارة شركاته أو الإشراف على استثماراته، ومع أنه كان لديه مكتب به جهاز فاكس وجهاز كمبيوتر، فإنه نادرًا ما كان يقضي وقتًا كبيرًا هناك، بل كان يفضل إهدار وقته في مشروعاته الزراعية في أثناء النهار، وفي المساء يستضيف كبار رجال الدولة والمجاهدين في صالونه.

وأهدر بن لادن أموالًا طائلة على مشروعات لم يكن يعرف عنها الكثير، فأصبحت أعماله تتضمن آلات تكسير الصخور ومبيدات حشرية وصناعة الصابون ودبغ الجلود، أي العشرات من المشروعات غير المرتبطة. وكانت لديه أرصدة في بنوك في الخرطوم ولندن وماليزيا وهونج كونج ودبي جميعها بأسماء أعضاء مختلفين من تنظيم القاعدة؛ مما جعل من الصعب على أجهزة المخابرات تتبعها، ولكن في الوقت نفسه من المستحيل تقريبًا التحكم فيها. وكان بن لادن يندفع ويورط نفسه في مشروعات دون تفكير أو دراسة، فعندما رأى أحد معاونيه أن استيراد دراجات رخيصة من أذربيجان إلى السودان، مع العلم أنه لا أحد في السودان يركب دراجات، استثمار جيد، فإن الأمر لم يتطلب سوى توقيع ثلاثة من كبار مسئولي القاعدة على استمارة حتى يدخل العمل في تجارة الدراجات أجندة بن لادن.

وقد ضُمت هذه المشروعات المختلفة التي لا يوجد ما يربطها ببعضها عشوائيًّا تحت مظلة مجموعة من الشركات المختلفة. ومنذ البداية، أدرك الرجال الذين يشرفون على مصالح بن لادن وأعماله أنهم سيواجهون المتاعب في المستقبل. ففي اجتماع مع بن لادن عام ١٩٩٢م، سأله جمال الفضل وأبو رضا السوري ما إذا كان يهتم فعلًا

بأن تدر شركاته أرباحًا، وحذروه قائلين: «الاستثمار سيئ للغاية في السودان.» فقد كان معدل التضخم أكثر من ١٥٠٪ والعملة السودانية تفقد قيمتها بصورة متواصلة أمام الدولار، مما تسبب في خفض حجم استثماراته بالكامل. فأجابه بن لادن بعدم اكتراث: «إن أجندتنا أكبر من المشروعات التجارية»، وهي عبارة كافية بالقضاء على أية محاولات يمكن أن تقوم بها إدارة يساورها إحساس بالمسئولية. وعندما قُطِعت عن بن لادن فجأة الإعانة المادية التي كانت تصل إليه من السعودية، كان عليه أن يواجه موجة ضخمة من العجز وغياب مصدر دخل مستمر يعتمد عليه. وقد قال أبو رضا الذي كان مستشاره التجاري الرئيسي: «كان هناك خمس شركات مختلفة، ولكن لم يكن أي منها يعمل. لقد كانت جميع تلك الشركات تخسر، فلا يمكن إدارة العمل بالريموت كنترول.»

وقعت هذه الأزمة في نهاية عام ١٩٩٤م، وقد أخبر بن لادن أعضاء القاعدة أنه سيضطر إلى خفض مرتباتهم لأنه، كما قال لهم: «خسرت جميع أموالي» وعندما أخبره الحسين خرشتو وهو أحد طياريه أن عليه السفر إلى كينيا لتجديد رخصته كطيار التي حصل عليها بعد ثلاث سنوات من الدراسة على نفقة القاعدة، أجابه بن لادن: «انس هذا الأمر.» وبعد بضعة أشهر، احتاجت زوجة خرشتو الحامل إلى عملية ولادة قيصرية، فطلب من المسئول عن صرف الرواتب خمسمائة دولار للعملية، ولكن الرجل قال له: «لا توجد نقود، لا يمكننا أن نعطيك شيئًا.»

فجأة شعر خرشتو أنه لم تعد له أية أهمية أو قيمة، فقد كانت الصداقة الحميمة التي تجمع رجال القاعدة تعتمد اعتمادًا أساسيًّا على الأمان المادي الذي كان يوفره لهم بن لادن. وكانوا دائمًا ينظرون إليه على أنه ملياردير؛ نبع لا ينضب من النقود، ولم يحاول هو قط تصحيح تلك الفكرة. وقد دفع هذا التناقض بين الصورة المبالغ فيها التي رسموها في أذهانهم عن مصادر بن لادن وبين الوضع المعدم الجديد على أرض الواقع بعضهم إلى التفكير في أنفسهم.

كان جمال الفضل، أحد أشهر رجال بن لادن ومن أكثر الموثوق بهم، يشعر بالحنق الشديد بسبب التفرقة في المرتبات التي يتقاضاها الموظفون، والتي كانت تصب في مصلحة السعوديين والمصريين. وعندما رفض بن لادن أن يمنحه علاوة، قرر السكرتير السوداني أن يحصل هو بنفسه على ما يريد؛ فاستغل النقود في شراء العديد من قطع الأراضي واشترى لنفسه سيارة، وبالطبع في بيئة محدودة للغاية مثل الخرطوم، سرعًان ما لاحظ الجميع هذه الموجة المفاجئة من الثراء. وعندما ووجه

twitter @baghdad_library

الفضل، اعترف أنه أخذ ١١٠ آلاف دولار من نقود التنظيم، ولكن بن لادن قال له: «أنا لا أهتم بالنقود، أنا أهتم بك أنت، إنك أحد أفضل الرجال في القاعدة. إذا احتجت إلى النقود، يجب أن تأتي إلينا.» وأشار بن لادن إلى الأعضاء الآخرين في التنظيم الذين حصلوا على سيارة جديدة أو منزل عندما طلبوا المساعدة، ثم قال له: «ولكنك لم تفعل هذا، لقد سرقت النقود فقط.»

توسل الفضل إلى بن لادن كي يسامحه، ولكن بن لادن قال له إن هذا لن يحدث «حتى تعيد النقود».

فكر الفضل في العرض، ثم اختفى فجأة، وبذلك أصبح أول خائن للقاعدة. بل وعرض قصته للبيع على أجهزة المخابرات المختلفة في الشرق الأوسط، بما في ذلك المخابرات الإسرائيلية. ثم وجد المشتري الذي يبحث عنه عندما ذهب إلى السفارة الأمريكية في إريتريا في يونيو/حزيران من عام ١٩٩٦م، وأصبح شاهدًا للحكومة مقابل مليون دولار تقريبًا. وهكذا حصل جمال الفضل، وهو محتجز لحمايته، على أكثر مما كان يحلم به.

في منتصف التسعينيات، كانت أفريقيا تنزف: حروب دامية وصراعات أهلية تمزق ليبيريا وأنجولا وسيراليون والكنغو ونيجيريا ورواندا وبوروندي وزيمبابوي، أزهقت الملايين من الأرواح. وفي نظر بن لادن، كانت هذه النزاعات تمثل فرصة لمد تأثير ونفوذ القاعدة. فأرسل علي محمد إلى العاصمة الكينية نيروبي لرصد أهداف أمريكية وبريطانية وفرنسية وإسرائيلية لضربها، وقد اختار هذه الدول بالذات لأنها تشارك في عملية إعادة الأمل للصومال التي كانت لا تزال مستمرة حتى ذلك الوقت.

أخذ علي محمد يتجول في أنحاء نيروبي بصفته سائحًا، ومن بين الأهداف المحتملة التي فكر فيها المركز الثقافي الفرنسي وفندق نورفولك، أحد أعظم آثار العصر الاستعماري البريطاني. أما السفارة الإسرائيلية فقد كانت محاطة بسوار محكم من الحراسة المكثفة، وكذلك كان مكتب العال الذي يقع في شارع مليء بالأشجار محاطًا بالحراسة.

وكانت السفارة الأمريكية تمثل هدفًا مغريًا وسهلًا في الوقت نفسه، فلم يكن هناك أي حواجز على الطريق وهو ما يتيح الفرصة لاقتراب سيارة مفخخة منها بصورة كافية لإحداث أضرار جسيمة. وكان محمد يحمل آلتي تصوير واحدة يضعها حول رقبته مثل السياح والثانية كاميرا صغيرة من طراز أوليمبوس يحملها في قبضة

يده. ولمدة أربعة أو خمسة أيام كان يتجول حول المبنى يلتقط الصور في أوقات مختلفة من النهار ويلاحظ نمط حركة المرور بالقرب منها ودورة تغيير الحراسة. ولاحظ أيضًا وجود الكاميرات التليفزيونية ذات الدوائر المغلقة وحدد مداها. وقام بتحميض الصور بنفسه ووضعها وسط مجموعة كبيرة من الصور الأخرى حتى لا يلحظها أحد. ثم رسم خطة للهجوم ووضعها على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به من طراز أبل باور بوك ١٤٠ وعاد إلى الخرطوم ليعرض الخطة على بن لادن.

وقد قال محمد في شهادته بعد ذلك: «نظر بن لادن إلى صورة السفارة الأمريكية وأشار إلى المكان الذي يمكن أن تقتحمه شاحنة في عملية انتحارية.» ولكن عندما انسحبت القوات الدولية من الصومال وانهارت تلك الدولة البائسة إلى أحضان اليأس الذي لا يزال عليها أن تناضل لتخرج منه؛ فقدت القاعدة حجتها الواهية لمهاجمة السفارة في نيروبي، ولكنها لم تصرف النظر عن الخطة، بل أجلتها فقط.

في عام ١٩٩٥م، بدأ بن لادن يعيد النظر فيما آلت إليه حياته. لقد كان يناضل كي يحافظ على استمرار عمله ويحمي منظمته من الانهيار. ولم يكن بإمكانه الاستمرار في الإنفاق بالبذخ المعتاد، ولكنه لم يكن مستعدًا للتخلي عن مشروعاته غير المربحة ويخشى مأزق التعرض للإفلاس الذي لم يألفه، وكان يحن أيضًا إلى ما يألفه، فقد قال لأحد أتباعه ذات مرة: «أنا متعب، وأشتاق إلى الحياة في المدينة، الله وحده يعلم كم أحن إليها.»

حتى ذلك الوقت لم تكن القاعدة قد وصلت إلى شيء، لقد كانت واحدة من المشروعات التي أغراه بريقها فانجرف فيها والتي ليس لها قيادة أو اتجاه واضح. وكان مدني الطيب، أمين صندوق القاعدة الذي تزوج واحدة من بنات إخوة بن لادن، يلح عليه كي يسوي خلافه مع الملك كوسيلة لتصحيح الوضع المالي المتأزم للتنظيم. وقد أرسلت الحكومة السعودية العديد من الوفود لزيارته في الخرطوم، وطبقًا لما قاله بن لادن، فقد عرضت عليه الحكومة أن تعيد له جواز سفره وأمواله شريطة أن، على حد قوله: «أقول عبر وسائل الإعلام إن الملك مسلم صالح.» وزعم أيضًا أن الحكومة عرضت ملياري ريال (أي ما يساوي ٥٣٣ مليون دولار) على عائلته إذا ما تراجع عن السير في طريق الجهاد. لقد كان بن لادن ممزقًا بين موقفه المستقيم ضد الملك وحاجته المفاجئة إلى النقود للحفاظ على القاعدة. وعندما رفض العرض، انشق مدني الطيب عن التنظيم مسببًا حالة من الهلع بين الأعضاء عندما عاد للظهور مرة

twitter @baghdad_library

أخرى في المملكة العربية السعودية. وقد عزا البعض انشقاقه المفاجئ الذي أصابهم بصدمة إلى أنه كان تحت تأثير تعويذة سحرية.

أراد بن لادن أيضًا العودة إلى وطنه، ولكن كان نفوره من الملك فهد أكبر من أن يستطيع أن يطلق عليه «مسلم صالح». وفي ذلك الوقت، حلم بأنه في المدينة وسمع هناك أصوات احتفالات هائلة، ونظر إلى حائط طيني ورأى الأمير عبد الله قادمًا. فقال لأبي رضا: «هذا يعني أن عبد الله سيصبح الملك، وسيريح ذلك الشعب ويسعده. فإذا أصبح عبد الله الملك، سأعود.»

ولكن كان عبد الله لا يزال ولي العهد، فكتب إليه بن لادن رسالة استرضائية حذرة محاولًا سبر أغواره. وتوصل إلى أن الحكومة السعودية توافق على عودته إذا تعهد بالتخلي عن الجهاد، وإلا فإنه سيسجن أو تفرض عليه الإقامة الجبرية في منزله. سمعت عائلته أيضًا بشوقه للعودة إلى وطنه مرة أخرى، فتوجهوا إلى صديقه القديم الصحفي جمال خاشقجي الذي غطى أعماله البطولية في أفغانستان. وكانت مهمة خاشقجي هي أن يقنع أسامة بأن يجري معه حديثًا صحفيًا يعلن فيه نبذه للعنف، وسيكون ذلك بمنزلة إشارة علنية للحكومة بأنه قد قبل شروطها.

استقبل بن لادن صديقه القديم بسعادة شديدة، وكان خاشقجي قد زاره من قبل عدة مرات في الخرطوم. وفي الماضي، عندما بدأ أسامة يبدأ حملته الإعلامية ضد الحكومة السعودية، وجده خاشقجي محاطًا بالشباب السعودي المنشق الذي كان يُحضر له قصاصات من الجرائد كلما أراد توضيح نقطة ما. أما هذه المرة، فلم تكن هناك مقالات؛ لقد كان بن لادن خاضعًا ومستغرقًا في التفكير ويضع سلاحه الآلي إلى جواره. تناول الصديقان العشاء على المصطبة بجوار المنزل بالقرب من الحديقة، وشاركهما الطعام شخصان سعوديان وآخر سوداني بالإضافة إلى أبي هاجر العراقي. وقد تناولوا العشاء في الساعة التاسعة تقريبًا عندما أصبحت درجة الحرارة تُحتمَل، فبسط الخدم السودانيون حصائر بلاستيكية على الأرض، ووضعوا صحنًا كبيرًا من الأرز والضأن؛ عشاء على الطريقة السعودية.

شرح الخاشقجي لبن لادن المهمة التي جاء من أجلها، وبلغة واضحة قاطعة شجب بن لادن استخدام العنف داخل المملكة، فأخرج خاشقجي جهاز التسجيل الخاص به وقال: «لماذا لا تقول هذا على جهاز التسجيل؟» فأجابه بن لادن: «دعنا نقوم بذلك مساء غد.»

وفي اليوم التالي، اصطحب بن لادن خاشقجي لزيارة معمله الجيني، حيث قضى ساعات طويلة يتحدث عن واجب المسلمين في اقتناء التكنولوجيا لتحسين حياتهم. فعلى سبيل المثال، يحتكر الهولنديون زراعة أفضل شتلات الموز، فلماذا لا يكرس المسلمون أنفسهم لزراعة الأشجار والفواكه باستخدام المستوى نفسه من الأساليب المتطورة. وفي ذلك المعمل كان بن لادن يحاول تطوير بذور عالية الجودة تصلح للزراعة في السودان، وناقش أيضًا فكرة طريق سريع رئيسي آخر كان على وشك البدء في إنشائه. كان من الواضح من حديثه أنه مرتبط بمشروعاته تمامًا؛ أي أنه كان مبتهجًا وراضيًا عن حياته وينعم بالهدوء والسلام، ولكنه كان يشعر بالحنين إلى وطنه.

ثم على العشاء، بدأ بن لادن بطريقة غير متوقعة يتفاخر بتنظيم القاعدة وقال: إنه مقتنع بأنه يمكن طرد الأمريكيين من شبه الجزيرة العربية بسهولة، وضرب اليمن مثالًا على ذلك، فقال متفاخرًا: «لقد ضربناهم في عدن، فولوا الأدبار، وضربناهم في الصومال، فولوا الأدبار ثانية.» فأجابه خاشقجي قائلًا: «هذا الأمر خطير للغاية يا أسامة، إنك بهذا تعلن الحرب وستمنح الأمريكيين الحق في مطاردتك»، ولكن بن لادن اكتفى بالابتسام. ومرة أخرى أخرج خاشقجي جهاز التسجيل، ومرة أخرى رفض صديقه تسجيل الحديث.

وفي الليلة التالية، جاء خاشقجي لتناول العشاء للمرة الأخيرة، وجلسا ثانية معًا على المصطبة، وتناولا الطعام نفسه الذي أكلاه في المرة السابقة — الأرز والضأن. وكان بن لادن في بعض الأحيان يأكل بالملعقة، ولكنه كان يفضل استخدام أصابع يده اليمنى اتباعًا لسنة النبي. وأخذ يتغنى بشوقه الشديد للمدينة المنورة وكم يحب أن يعود ويستقر هناك، فأجابه خاشقجي بأن كل ما يحتاج أن يفعله هو أن يسجل ما قاله من قبل بالفعل — أي أنه ينبذ العنف.

وفي تلك اللحظة، اقترب شخص من بن لادن وهمس في أذنه، فهب أسامة واقفًا واتجه إلى الحديقة، وفي الظل رأى خاشقجي رجلين أو ثلاثة يتحدثون إلى بن لادن بهدوء باللهجة المصرية. وبعد خمس دقائق، عاد بن لادن فأعاد عليه خاشقجي السؤال نفسه، فسأله أسامة بدوره: «وعلام سأحصل في المقابل؟»

تفاجأ خاشقجي بالسؤال؛ فأسامة لم يتصرف قط كسياسي يفاوض من أجل منفعة شخصية، فاعترف قائلًا: «لا أعلم، فأنا لا أمثل الحكومة. كل ما أطلبه منك هو

twitter @baghdad_library

أن تقول بضع كلمات لقطع حبل الصمت وبدء طريق العودة! وقد يكون هناك رد فعل إيجابي من جانبهم. ولا تنس أنك قد قلت بعض الأشياء البغيضة عن المملكة.»

فابتسم بن لادن وقال له: «نعم، ولكن خطوة كهذه يجب أن تحسب جيدًا»، وأخبره بمكافأتين في مقابل ما سيقول: عفو شامل عنه وجدول زمني للانسحاب الكامل للقوات الأمريكية من شبه الجزيرة العربية.

شعر خاشقجي أن صديقه قد ابتعد بخياله كثيرًا عن أرض الواقع. ثم بدأ بن لادن يتحدث بشغف عن السودان وعن فرص الاستثمار العظيمة المتاحة فيه، وسأل خاشقجي عن بعض أصدقائهما واقترح أن يأتوا إلى السودان لدراسة الفرص الزراعية المتاحة في البلاد، وقال إنه سيحب كثيرًا اصطحابهم في جولة في السودان.

فقال له خاشقجي: «أي مواطن سعودي سيخشى أن يراه أحد في صحبتك يا أسامة، لماذا لا تدرك ذلك؟» فارتسمت على وجه بن لادن بالابتسامة نفسها التي طالما رآها خاشقجي على وجهه، وكان من الواضح أنه لم يدرك ما فعله أو كيف أصبح في عيون أبناء وطنه.

شعر خاشقجي بالحنق الشديد، فأخبر أسامة أنه سيرحل في اليوم التالي فإذا أراد إجراء المقابلة الصحفية، فليتصل به في فندق الهيلتون.

ولكن بن لادن لم يتصل قط.

twitter @baghdad_library

الفصل الحادي عشر

أمير الظلام

في صباح أحد أيام الأحد من شهر فبراير/شباط عام ١٩٩٥م، ذهب ريتشارد أ. كلارك Richard A. Clarke، المنسق القومي لمكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، إلى مكتبه لمراجعة برقيات المخابرات التي وردت في عطلة نهاية الأسبوع. وقد أشار أحد التقارير إلى أن رمزي يوسف، المشتبه أنه العقل المدبر وراء تفجيرات مركز التجارة العالمي قبل عامين، قد ظهر في إسلام أباد. اتصل كلارك على الفور بالمقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي، مع أنه كان يعلم من واقع خبرته أنه من النادر أن يجد أحدًا من رجال المكتب هناك في أيام الأحد. وعلى عكس ما توقع، أجاب على الهاتف رجل صوته غير مألوف له، وقال بصوت أجش: «أونيل يتحدث.»

فسأله كلارك: «من أنت؟»

فأجابه الرجل: «أنا جون أونيل، من أنت بحق الجحيم؟»

كان جون أونيل John O'Neill قد استلم لتوه منصب رئيس قسم مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي ونُقِل من مكتب شيكاغو. وبعد أن قاد سيارته طوال الليل، اتجه مباشرة إلى المقر الرئيسي في صباح يوم الأحد حتى دون أن يذهب إلى المنزل ليضع حقائبه. وباستثناء حراس الأمن، كان أونيل وحيدًا في مبنى إدجار هوفر الضخم، وكان من المفترض ألا يبدأ تولي مهام منصبه الجديد قبل يوم الثلاثاء التالي. أخبره كلارك أن رمزي يوسف، الإرهابي الذي يتصدر قائمة المطلوبين في مكتب التحقيقات، قد ظهر على بعد تسعة آلاف ميل، فأصبحت مسئولية أونيل أن يكوِّن فريقًا ليسافر إلى هناك ويحضر المتهم إلى نيويورك حيث وجهت إليه تهمة تفجير مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣م والتآمر لتفجير طائرات أمريكية.

سار أونيل في رواق المبنى الخالي وفتح مركز العمليات والمعلومات الاستراتيجية SIOC. وهذه الغرفة التي تخلو من أية نوافذ معدة خصوصًا لمؤتمرات الفيديو المؤمنة

مع البيت الأبيض ووزارة الخارجية وفروع مكتب التحقيقات الفيدرالي الأخرى، أي أنها المركز العصبي للمكتب ولا تفتح سوى في حالات الطوارئ. وبدأ أونيل يجري اتصالاته، ولم يغادر المقر الرئيسي للمكتب للأيام الثلاثة التالية.

وعملية «التسليم غير القضائي»، كما يطلق المكتب على عمليات الاختطاف القانونية للمشتبه بهم الموجودين على أرض أجنبية، عملية معقدة وتستغرق الكثير من الوقت، وغالبًا ما يبدأ الإعداد لها قبل شهور من تنفيذها. فسيحتاج أونيل طائرة لنقل المشتبه به إلى أمريكا، ونظرًا للمكافأة التي تبلغ مليوني دولار التي رصدتها الحكومة مقابل رأس يوسف، فقد تدفق سيل من البلاغات الكاذبة عن المكان الذي يوجد فيه، لذا فقد كان أحد أولويات أونيل التأكد من صحة المعلومات هذه المرة. ومن ثم، سيحتاج إلى خبير بصمات يتولى مهمة التأكد من أن هذا الرجل هو حقًّا رمزي يوسف. وسيحتاج إلى طبيب ليتولى علاجه إذا ما أصيب أو كان يعاني شيئًا ما ويحتاج إلى رعاية طبية، وعليه أيضًا أن يحث وزارة الخارجية على الحصول على تصريح من الحكومة الباكستانية لتنفيذ عملية الاختطاف على الفور. وفي الظروف العادية، يتطلب الأمر من الدولة المضيفة اعتقال المشتبه به حتى يتم توقيع أوراق تسليمه ويحتجزه مكتب التحقيقات. ولكن تلك المرة، لم يتح وقت لذلك، فقد كان يوسف يخطط لأن يستقل حافلة إلى بيشاور في غضون ساعات قليلة. وإذا لم يتمكنوا من إلقاء القبض عليه سريعًا، فسينتقل قريبًا من خلال ممر خيبر إلى أفغانستان حيث لا تصل إليه أيديهم.

بدأت الغرفة تمتلئ تدريجيًّا بعملاء المكتب الذين كانوا يرتدون ملابس غير رسمية وبعضهم يرتدون أفضل ملابسهم التي يرتادون بها الكنيسة في عطلة نهاية الأسبوع. وحضر أيضًا فريق من مكتب نيويورك ليتولى إلقاء القبض على يوسف إذا نجحت عملية اختطافه، إذ إنه قد وجهت إليه التهمة في الضاحية التي تقع تحت سيطرتهم.

وقد كان أونيل وجهًا غير مألوف للعديد من العملاء الفيدراليين في الغرفة، ولا شك أنه كان غريبًا عليهم أن يتلقوا فجأة أوامر من رجل لم يقابلوه قط. ولكن كان معظمهم سمع عنه من قبل، ففي ذلك العالم الغامض حيث يُفضَّل أن تظل الهويات مجهولة، كان أونيل شخصية لا تنسى. فقد كان وسيمًا أسمر البشرة ناعم الشعر يمشطه إلى الخلف ذا عينين سوداوين ناعستين وفك كبير مستدير، ويتحدث بحدة وقوة بلهجة نيوجيرسي التي كان يحب الكثيرون تقليدها. وقد التحق أونيل بمكتب

twitter @baghdad_library

التحقيقات الفيدرالي في عهد إدجار هوفر، وطوال مدة عمله كان به ما يجعله يشبه رجال العصر القديم لمكتب التحقيقات؛ فكان يرتدي خاتمًا ضخمًا في خنصره ويضع مسدسًا ٩ ملم في جراب صغير حول كاحله. وكان يفضل احتساء نبيذ شيفاز ريجال مع الماء وشرائح قشر الليمون، بالإضافة إلى السيجار الفاخر. وكان أونيل بطبيعته صريحًا وفظًّا، ولكنه أنيق المظهر لامع الأظافر ومهندم الملبس بصورة مبالغ فيها؛ فيرتدي حلة سوداء ذات صفين من الأزرار وجوربًا أسود نصف شفاف وحذاءً جلديًّا لامعًا لينًا مثل حذاء الباليه، أو كما وصف أحد زملائه ملابسه بأنها «ملابس يصلح ارتداؤها في ملهى ليلي».

كان أونيل يرغب في العمل في مكتب التحقيقات الفيدرالي منذ صغره عندما شاهد الممثل إفريم زيمباليست الابن Efrem Zimbalist, Jr. يلعب دور المفتش التقليدي لويس إيرسكين في مسلسل تليفزيوني يحمل اسم مكتب التحقيقات الفيدرالي The F.B.I. وبمجرد أن تخرج في المدرسة الثانوية في أتلانتيك سيتي في نيوجيرسي، عمل أونيل موظفًا لرفع البصمات في مكتب التحقيقات، واستطاع توفير نفقات التحاقه بالجامعة الأمريكية والحصول على درجة الماجستير في علم الأدلة الجنائية من جامعة جورج واشنطن عن طريق العمل مرشدًا سياحيًّا في المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي. وفي عام ١٩٧٦م، أصبح عميلًا متفرغًا في مكتب التحقيقات في بالتيمور، وفي عام ١٩٩١م، أصبح عميلًا خاصًّا مساعدًا مسئولًا عن مكتب شيكاغو. وقد أطلق عليه العديد من الألقاب، منها الشيطان وأمير الظلام، التي ظلت تلاحقه منذ أيام عمله في مكتب شيكاغو، والتي كانت تعبر عن حدته الوحشية ويقظته، والخوف الذي كان يبثه في نفوس من يعملون معه. ولم يكن الوقت يعني له الكثير، فقد كان يبقي ستائر مكتبه مغلقة طوال الوقت كما لو أنه يعيش في ليل سرمدي.

وفي مركز العمليات والمعلومات الاستراتيجية، كان أونيل يتحرك وعلى كل أذن من أذنيه هاتف؛ فكان ينسق مع فريق الاختطاف على خط، ويرتب لنقلهم على متن طائرة تابعة للقوات الجوية على الخط الآخر. ونظرًا لأن باكستان لم تكن ستسمح لطائرة حربية أمريكية أن تهبط على أرضها، فقد أمر أونيل القوات الجوية بطلاء الطائرة بألوان الطائرات المدنية — على الفور! وطلب أيضًا، إذا تم إلقاء القبض على يوسف، أن يُعاد تزويد الطائرة بالوقود في الجو خوفًا من أن يطلب يوسف اللجوء للدولة التي تهبط فيها الطائرة. لقد كان أونيل يجيد التعامل مع الدوائر الأخرى خارج نطاق سيطرته، ولكنه كان متهورًا ويميل بطبيعته إلى السيطرة على

الآخرين. (وقد أرسل البنتاجون إليه بعد ذلك فاتورة بمبلغ اثني عشر مليون دولار نفقة التزود بالوقود في الجو وطلاء الطائرة، ولكن هذه الفاتورة لم تسدد قط.)

عندما انتشر خبر ظهور يوسف، اتجهت جانيت رينو Janet Reno المدعية العامة الأمريكية ولويس فريه Louis Freeh مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى مركز العمليات والمعلومات الاستراتيجية. وقد أديرت العديد من العمليات الخطيرة من تلك الغرفة، ولكن لم يكن أي منها عاجلًا أو معقدًا بهذا الشكل. وقد بدأت سياسة التسليم غير القضائي حديثًا بأمر مباشر من السلطة التنفيذية يمد نفوذ مكتب التحقيقات الفيدرالي خارج حدود الولايات المتحدة، مما حوَّله إلى قوة شرطة دولية. أما من الناحية العملية، فقد كان المكتب لا يزال يتعلم ليس فقط كيف يمكنه العمل في بيئات أجنبية، ولكن أيضًا كيف يشق طريقه بين الهيئات الحكومية الأمريكية في الخارج، وكل منها يحتاج إما الاستئساد عليها أو استرضائها. وبالطبع يتطلب مثل هذا النوع من الدبلوماسية مفاوضات مطولة، ولكن هذه المرة لم يكن هناك أي وقت للمحادثات؛ فإذا تمكن يوسف من الهرب، فلا شك في أنه سيحاول تنفيذ خطته بتفجير الطائرات الأمريكية أو حتى ضرب مقر المخابرات الأمريكية بطائرة كما خطط من قبل.

تمكن أونيل من وضع فريق التسليم غير القضائي على متن طائرة، ولكنه كان لا يزال بحاجة إلى فريق لتنفيذ عملية الاختطاف. ولم يكن هناك سوى عميل فيدرالي واحد في باكستان يمكن تكليفه المهمة، وكان هناك عدد من العملاء من إدارة مكافحة المخدرات DEA ومكتب الأمن الدبلوماسي التابع لوزارة الخارجية في البلد أيضًا، وقد استعانوا ببعض الجنود الباكستانيين وأسرعوا إلى النُّزل الذي يقيم فيه يوسف ليقبضوا عليه قبل أن يستقل الحافلة.

وفي التاسعة والنصف بتوقيت باكستان من صباح يوم السابع من فبراير/شباط، دخل العملاء إلى نُزل «سو كازا جيست هاوس» في إسلام أباد واقتحموا الغرفة رقم ١٦. وعلى الفور طرح رمزي يوسف الذي كان نائمًا على الأرض وقيدت يداه. وفي غضون دقائق قليلة، وصلت الأخبار إلى العملاء المبتهجين في المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي.

بلغ أونيل الثالثة والأربعين من عمره في الأيام الثلاثة التي قضاها في مركز العمليات والمعلومات الاستراتيجية. وأخيرًا، أخذ حقائبه إلى شقته الجديدة، وكان ذلك يوم الثلاثاء — اليوم الأول لاستلامه العمل رسميًّا.

twitter @baghdad_library

في واشنطن، أصبح أونيل جزءًا من مجموعة مترابطة من خبراء الإرهاب تكونت حول ريتشارد كلارك؛ فقد كان كلارك بمنزلة العنكبوت داخل شبكة الوكالات الفيدرالية المعنية بالإرهاب، وكان على دراية بكل ما يمس هذه الشبكة. وكان كلارك أول منسق لمكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي، المنصب الذي صنعه لنفسه بقوة شخصيته وقدرته على فرض وجوده. وكان أعضاء هذه الدائرة الداخلية، التي عرفت باسم المجموعة الأمنية لمكافحة الإرهاب CSG، يختارون بصفة أساسية من وكالة المخابرات الأمريكية ومجلس الأمن القومي وكبار العاملين في وزارات الدفاع والعدل والخارجية، وكانوا يجتمعون كل أسبوع في غرفة العمليات في البيت الأبيض.

كان مكتب التحقيقات الفيدرالي دائمًا عضوًا مثيرًا للمشكلات في المجموعة الأمنية لمكافحة الإرهاب، حيث كان ممثلوه غير متعاونين ويميلون إلى تكتم المعلومات الاستخباراتية ويتعاملون معها على أنها أدلة محتملة لا يمكن المخاطرة بكشفها، سواء أكانت هناك قضية جنائية يعملون عليها أم لا. أما أونيل، فقد كان مختلفًا؛ فقد كان يغرس بذور الصداقة مع نظرائه في الوكالات الأخرى بدلًا من التقيد بالبيروقراطية وإغلاق جميع منافذ التعاون بين الجهات المختلفة. وعلى ضوء خبرة كلارك، فقد كان معظم ضباط السلطات المسئولة عن تطبيق القانون أغبياء ومتبلدي الذهن، وعندما يصلون إلى أعلى رتبهم في الإدارة يكونون بالفعل يتقاضون أعلى مرتبات منصبهم ويتحينون فرصة التقاعد. وفي هذه الأوساط الكئيبة، ظهر أونيل؛ القائد الجذاب طليق اللسان الذي يتمتع بقدرة كبيرة على الارتجال والمعقد بصورة تثير الفضول.

كان كلارك وأونيل مقاتلين لا يعرفان الرحمة ويثيران العداء بسهولة، ولكن أدرك كل منهما أن في الآخر صفات يمكنه أن ينتفع بها. وكان كلارك يجمع حوله دائمًا الحلفاء الرئيسيين لحمايته من التغييرات الإدارية وتسليحه بالأسرار الداخلية. وبعد قضاء أكثر من عقدين في الحكومة، منذ أن بدأ تدريبه في الإدارة في البنتاجون عام ١٩٧٣م، أصبح لديه العديد من الأتباع المنتشرين في أرجاء الكونجرس الأمريكي. لقد كان كلارك عبقريًّا ولكنه منعزل، فيعيش وحده في منزل مدهون باللون الأزرق في مدينة أرلينجتون بولاية فيرجينيا تحيط بشرفته الأمامية نباتات الأزالية ويرفرف علم أمريكي في شرفة الطابق الثاني. وكان يتحدث في لهجة تقريرية تأكيدية لا تدع مجالًا للجدال. ولأنه كان طموحًا ولا يتمتع بالصبر، فلم يكن لديه الكثير من الوقت لتكوين حياة خارج مكتبه الذي يقع في الطابق الثالث من المبنى التنفيذي القديم

ويطل على الجناح الغربي من البيت الأبيض. ومن النادر أن ينظر إلى أي شخص على أنه منافس له، إذ إنه يستطيع دفع المنافسين البيروقراطيين جانبًا لأنه كان يجيد اللعب أكثر من الجميع باستثناء القليل.

ومع أن كلارك كان محنكًا وشخصية جبارة، فإنه يفتقر إلى الذكاء الاجتماعي ويميل إلى النظر بعيدًا عن الناس عندما يتحدث إليهم. كان يبدو عليه امتقاع وجه ذوي الشعر الأحمر الذي تحول إلى اللون الأبيض، كما كانت ترتسم على شفتيه تلك الابتسامة المتوترة وغير المريحة التي ترتسم على وجوه الأشخاص شديدي الواقعية. وقد لاحظ أن أونيل يشاركه هاجسه بشأن التهديد الذي يمثله الإرهاب في وقت لم يصدق الكثيرون في واشنطن أنه حقيقة واقعة. وكانا يتشاركان الاستياء الذي يشعر به الغريب الذي لم يتمتع يومًا بأي مزايا وتخطى آفاق التوقعات المحدودة لنشأته. فنفحات الحياة في شوارع نيوجيرسي كانت لا تزال تؤثر على أونيل بقوة وهو ما قدره كلارك الذي ولد لأم ممرضة وأب عامل في مصنع. وكان أونيل، على غرار كلارك، يدرك طبيعة المهزلة السياسية التي تدور في البلاد.

عمل الرجلان بجد لتقسيم المسئوليات بوضوح بين الأجهزة الاستخباراتية التي لها باع طويل في الحرب البيروقراطية الضارية. وفي عام ١٩٩٥م، أثمرت جهودهما عن أمر رئاسي مباشر يخول مكتب التحقيقات الفيدرالي السلطة الأساسية للتحقيق في أي أعمال إرهابية والعمل على منعها في أي مكان في العالم يتعرض فيه أمن المواطنين الأمريكيين أو المصالح الأمريكية للتهديد. وبعد التفجيرات في مدينة أوكلاهوما في شهر أبريل/نيسان من ذلك العام، فتح أونيل قسمًا منفصلًا للتعامل مع الإرهاب المحلي فيما ركز جهوده على إعادة تصميم وتوسيع القسم الذي يتعامل مع القضايا الخارجية. فنظم عملية لتبادل أعضاء منتدبين بين مكتبه ومركز مكافحة الإرهاب في وكالة المخابرات الأمريكية، رغم مقاومة الجهتين لذلك.

أما بالنسبة للعملاء الشباب الذين منحوه ما يريد، أي الولاء التام، فقد أصبح بمنزلة المعلم والناصح الأمين لهم. وفي بيئة عمل مكتب التحقيقات الفيدرالي التي تشبه المجتمعات الإقطاعية، كان أونيل راعيًا قويًا لهم؛ فكان في الكثير من الأحيان يحيط موظفيه بذراعه ويخبرهم عن مدى حبه لهم، وكان يظهر هذا الحب بصورة مذهلة في مساعدته لهم عندما يقابل أحدهم مشكلات صحية أو صعوبات مادية. ولكن من ناحية أخرى، كان من الممكن أن يصبح قاسيًا لا يعرف الرحمة، ليس فقط مع مرءوسيه ولكن مع رؤسائه أيضًا عندما يخيبون ظنه فيهم. وقد تحول

twitter @baghdad_library

الكثيرون ممن كانوا يكرهونه في البداية إلى أكثر أتباعه إخلاصًا، ولا يزالون يطلقون على أنفسهم حتى اليوم «أبناء جون». أما الآخرون فقد وضعوا ألسنتهم في أفواههم وأفسحوا له الطريق، ووجد من حاول مواكبة خطواته أنفسهم يتساءلون: بم يمكنهم التضحية أكثر مما فعلوا؟ فقد ضحوا بحياتهم الزوجية وعائلاتهم وحياتهم الخاصة؛ أي أنهم ضحوا بكل شيء فيما عدا العمل، ولكن مثل هذه الأشياء كان أونيل قد ضحى بها منذ زمن بعيد.

تزامن تولي أونيل منصبه في مكتب التحقيقات الفيدرالي مع عولمة نطاق السلطات المسئولة عن تطبيق القانون ومكافحة الجريمة. ومنذ عام ١٩٨٤م، كان مكتب التحقيقات الفيدرالي هو المسئول عن التحقيق في الجرائم ضد المواطنين الأمريكيين في الخارج، ولكن أعاق تنفيذ هذا التفويض غياب العلاقات بأجهزة الشرطة الأجنبية. أما أونيل فقد أخذ على عاتقه مهمة إقامة هذه العلاقات، فكان يستضيف أي رجل شرطة أجنبي أو عميل مخابرات يدخل إلى نطاق نفوذه، وأطلق على هذه المهمة «العمل الليلي». وفي نظر كلارك، كان أونيل مثل رئيس حرس أيرلندي يدير عمله من خلال شبكة علاقات متداخلة من الصداقة والديون والالتزامات. وكان دائمًا يتحدث في الهاتف ويسدي خدمات لهذا وذاك ويراسل معارفه بهدف تكوين شبكة قوية من العلاقات الشخصية التي ستسهل مسئوليات المكتب على المستوى العالمي. وفي غضون بضع سنوات، أصبح أونيل ربما أشهر رجل أمن في العالم، وسيشتهر بعد ذلك أيضًا بأنه الشخص الأكثر اهتمامًا بمطاردة أسامة بن لادن.

لم يكن سوى عدد قليل فقط من الأشخاص في أجهزة الأمن أو الاستخبارات الأمريكية، ويشمل هذا أونيل، لديهم خلفية عن الإسلام أو يفهمون الظلم الذي أدى إلى الهجوم على مركز التجارة العالمي أو المخططات الأخرى ضد الولايات المتحدة. بل في بلد متنوع كالولايات المتحدة، كانت قيادات مكتب التحقيقات الفيدرالي مقصورة بصورة مثيرة للدهشة على نوع محدد من الرجال. فقد كان يدار على أيدي رجال أيرلنديين أو إيطاليين كاثوليكيين. وكانت الخلفيات الثقافية للكثير من عملاء المكتب، وخاصة أولئك الذين يحتلون المراكز العليا، متطابقة بصورة رتيبة، فمعظمهم مثل أونيل نفسه من أبناء نيوجيرسي أو فيلادلفيا أو بوسطن، وكانوا يخاطب بعضهم بعضًا بأسماء صبيانية مثل تومي وداني ومايكي، التي أطلقت عليهم عندما كانوا شمامسة في الكنيسة وهم صغار أو عندما كانوا يلعبون الهوكي في فريق هولي

كروس. وكانوا أيضًا شديدي الوطنية ومدربين منذ نعومة أظفارهم على طاعة أوامر رؤسائهم.

تطورت ثقافة مكتب التحقيقات كثيرًا في العقود التي حارب فيها عصابات المافيا، وهي المنظمة التي نشأت على أيدي أشخاص من أصول لا تختلف كثيرًا عن أصول رجال المكتب. ولكن في ذلك الوقت كان المكتب يعرف أعداءه، أما هذه المرة فلم تكن لديه أية معلومات عن ذلك التهديد الجديد، فقد جاء الإسلاميون المتطرفون من أماكن لم يزرها أو حتى يسمع بها سوى قلة قليلة من العملاء، ويتحدثون بلغة يفهمها عدد ضئيل فقط من عملاء المكتب، حتى إن مجرد نطق أسماء المشتبه بهم أو الوشاة يمثل لهم تحديًا كبيرًا. وكان من الصعب أن يصدق أحد آنذاك أن هؤلاء الغرباء الذين يعيشون في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية يمثلون تهديدًا حقيقيًّا، بل ساد إحساس بأنه نظرًا لأنهم يختلفون عنهم تمامًا، فمن غير المحتمل أن يصبحوا يومًا أعداءهم.

إن ما ميَّز أونيل منذ وقت مبكر من توليه منصبه الجديد هو أنه أدرك أن طبيعة الإرهاب قد تغيرت إذ أصبح عالميًّا ودمويًّا. فمنذ عهد قريب، كان الإرهاب في أمريكا إلى حد بعيد منتجًا محليًّا تصنعه الجماعات السرية مثل منظمة كو كلوكس كلان Ku Klux Klan أو الفهود السود أو عصبة الدفاع اليهودية. وقد واجه المكتب من قبل بالفعل عناصر أجنبية على الأراضي الأمريكية مثل جماعة القوات المسلحة للتحرير الوطني Fuerzas Armadas de Liberación Nacional (FALN) وهي جماعة تنادي باستقلال جزيرة بورتوريكو وقد نفذت نحو ١٥٠ عملية إرهابية في الولايات المتحدة في السبعينيات وأوائل الثمانينيات. ولكن كان سقوط ضحايا في هذه العمليات أمرًا غير مقصود، أو على الأقل لم يكن هو الهدف الرئيسي. أما ما أدركه أونيل، وشاركه فيه القليلون، هو أن الإسلاميين المتطرفين لديهم رؤية درامية شديدة تضمنت القتل على نطاق واسع. وكان أونيل من أوائل من أدركوا نطاق منظمتهم ووجودهم النشط داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وهو أيضًا هو من اكتشف أن الرجل الذي يقف وراء هذه الشبكة المتشعبة في جميع أنحاء العالم هو ذلك المنشق السعودي المنعزل الذي يقيم في السودان ويراوده حلم القضاء على أمريكا والغرب. وفي بداية حياته المهنية كرئيس لقسم مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي، تحول اهتمام أونيل بأسامة بن لادن إلى هاجس يسيطر عليه حتى إن زملاءه بدءوا يشككون في صحة رأيه.

twitter @baghdad_library

لقد كانت هناك العديد من الاختلافات الثقافية والعقائدية التي تفصل أونيل عن بن لادن، ولكن الأول كرس نفسه لمحاولة فهم عدوه الجديد عن طريق محاولة فهم الجانب المظلم من الطبيعة البشرية. لقد كانا مختلفين تمامًا، ولكنهما غريمان متكافئان؛ فكلاهما طموح وذو خيال جامح ولا يعرف الشفقة ومتلهف لتدمير الآخر وكل ما يمثله.

وعلى الجانب الآخر، كان بن لادن ينظر إلى أمريكا على أنها شيء آخر غير كونها دولة عادية أو حتى قوة عظمى؛ فقد كان ينظر إليها على أنها طليعة حملة صليبية عالمية يشنها المسيحيون واليهود للقضاء على البعث الإسلامي. ومع أنه ربما لم يقرأ البحث الذي أجراه صامويل فيليبس هنتنجتون Samuel P. Huntington في عام ١٩٩٣م عن «صراع الحضارات»، فقد استوعب بن لادن هذه الفكرة تمامًا وسيشير إليها في لقاءات لاحقة قائلًا: إن من واجبه أن يعزز هذا الصراع، ورأى أن التاريخ يتحرك في موجات هادئة طويلة، وإن هذه المنافسة كانت موجودة ومستمرة منذ ميلاد الإسلام. وقد شرح بن لادن ذلك فيما بعد قائلًا: «إن هذه المعركة ليست بين تنظيم القاعدة والولايات المتحدة، إنها معركة بين أهل الإسلام والصليبية العالمية.» بعبارة أخرى، إنها حرب دينية أصبح فيها إنقاذ البشرية في خطر محدق.

وفي أغسطس/آب من عام ١٩٩٥م، قطع بن لادن على نفسه خط الرجعة إلى وطنه عندما هاجم فيما أطلق عليه «بيان مصارحة» الملك فهد مباشرة في أحد تعقيباته التي كانت ترسل بالفاكس. وقد جاء هذا البيان في ظاهره ردًّا على إعادة تشكيل مجلس الوزراء السعودي قبل أسبوع من إصداره، وكان الغرض من وراء هذا التغيير، على غرار معظم الأحداث السياسية في المملكة، إضفاء مظهر الإصلاح ولكن دون تغيير حقيقي. وفي مقدمة طويلة، طرح بن لادن قضية شرعية مبنية على القرآن وتفسير العلماء الإسلاميين تثبت أن الملك نفسه كافر. ويعكس ذلك بالطبع تأثير جماعة التكفيريين على تفكير بن لادن، مع أن جزءًا من حجته كان غامضًا ومتطرفًا. فعلى سبيل المثال، يستشهد بن لادن بالفقرة التاسعة من ميثاق مجلس التعاون الخليجي الذي أنشئ لحل النزاعات التجارية بين الدول العربية في الخليج. وتنص هذه الفقرة على أن المجلس سيتبع أحكام نظامه الأساسي والقانون والعرف الدوليين ومبادئ الشريعة الإسلامية، فيقول بن لادن متعجبًا: «أي استهزاء هذا بدين الله! أجعلتم شريعة الله السماوية في آخر قائمة مصادر أحكامكم.»

ولكن العديد من النقاط التي أثارها بن لادن في ذلك النقد اللاذع تتفق مع ما يؤمن به الكثير من السعوديين، وتُردِّد صدى التماسات الإصلاحيين الإسلاميين التي طرحوها من قبل في عريضة أكثر أدبًا تسببت في اعتقال عدد من كبار العلماء. وقد بدأ أسامة هذا الخطاب قائلًا: «مناسبة هذه الرسالة ليس ظلمك للعباد وهضمك لحقوقهم، ولا ما عرضت له الأمة من إهانة لكرامتها وتدنيس لمقدساتها وسلب لخيراتها ونهب لثرواتها.» وأشار بن لادن إلى الأزمة الاقتصادية التي تبعت حرب الخليج، وإلى «التضخم الجنوني»، واكتظاظ الفصول بأعداد هائلة من الطلاب تفوق استيعابها، وتفشي البطالة. ثم سأل الملك: «كيف تدعون الناس إلى الاقتصاد في الطاقة، والكل يرى قصوركم الساحرة منارةً بالليل والنهار؟ أليس من حقنا أيها الملك أن نسألك أين ذهبت كل هذه المبالغ؟ لا عليك في عدم الإجابة، فنحن نعلم نسبة العمولات والرشاوى التي تَحصل عليها.»

ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن المشكلة التي تكدر عليه صفو حياته ألا وهي وجود القوات الأمريكية في المملكة، فقال: «فمن غير المعقول السكوت على تحويل البلاد إلى محمية أمريكية يدنسها الجنود الأمريكيون بأقدامهم النجسة حمايةً لعرشكم وحفاظاً على منابع النفط التي ينتفعون من ورائها. يجب ألا ندع هؤلاء الصليبيين الكفرة يدنسون الأرض المقدسة ويبقون فيها أكثر من هذا.»

أثبت تسامح الملك مع القوانين الوضعية وتقبله لوجود القوات الكافرة لبن لادن أن الملك مرتد وتجب الإطاحة به. وقال له في رسالته: «قد جمعت أيها الملك على الناس أعظم ما يستعاذ منه من الشر: وهو الكفر والفقر. فإننا نرى أيها الملك أن تقدم استقالتك.»

يمكن أن يتخيل المرء مدى الصدمة التي تسبب بها هذا الخطاب للشعب السعودي، ناهيك عن صدمة الملك نفسه. ففي مجتمع لا يمكن لأحد أن يتحدث فيه بحرية، زلزلت صاعقة لغة بن لادن في خطابه كيان أبناء وطنه الساكنين، إلا أنه لم يدعهم إلى الثورة ضد الملك. ومع أنه اتهم العديد من كبار الأمراء بالفساد وعدم الأهلية، فإنه لم يطلب الإطاحة بالعائلة المالكة، ولم يقدم حلولًا، فيما عدا تنازل الملك عن العرش، للمشكلات التي طرحها، ومن الواضح أنه لم يشر على الإطلاق إلى ولي العهد الأمير عبد الله. وعلى الرغم من النبرة المحرضة في الخطاب، فقد كان محدودًا في طموحه. لقد أظهر بن لادن نفسه بصورة المصلح المخلص الذي لا يملك الكثير ليقدمه فيما يخص الأفكار السياسية المفيدة؛ لقد كان يوجه حماسته الثورية المتمردة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وليس إلى وطنه.

twitter @baghdad_library

وكان الكثير من السعوديين يشاركونه عداءه لاستمرار وجود القوات الأمريكية في المملكة، خاصة بعد الوعد الشهير الذي قطعه ديك تشيني بأن القوات ستغادر البلاد. وقد استمر وجود هذه القوات، ظاهريًّا، لفرض حظر الطيران على العراق طبقًا لقرار الأمم المتحدة. ولكن بحلول عام ١٩٩٢م، وبصورة قاطعة في عام ١٩٩٣م، كانت هناك العديد من الاتفاقيات الجديدة لإقامة القواعد العسكرية في المنطقة، مما يشير إلى أن الأمريكيين كان باستطاعتهم الانسحاب دون تعريض مهمتهم للخطر. ولكن القواعد العسكرية السعودية كانت ملائمة وجيدة الإعدادات، ولم يبد أن هناك حاجة ملحة لدفع القوات الأمريكية لمغادرة البلاد.

في الأسبوع الذي تبع خطاب بن لادن المهين إلى الملك، أعلن الأمير نايف إعدام عبد الله الحذيف. ولم يكن الحذيف، وهو أحد الأفغان العرب، يواجه عقوبة الإعدام بل السجن لمدة عشرين عامًا بتهمة قذف مادة حمضية في وجه ضابط أمن اشتهر بتعذيب السجناء. وكان السعوديون في ذلك الوقت يستشيرون وزير الداخلية المصري السابق الذي نفذ عملية الانقضاض الوحشية على المنشقين في مصر. ولقد ساد شعور في المملكة أن القبضة الحديدية قد رفعت، وأن هذا الإعدام العاجل رسالة إلى بن لادن وأتباعه. ومن جانبهم، طالب رفاق الحذيف من الأفغان العرب بالانتقام من النظام.

يوجد في شارع التلاتين في وسط مدينة الرياض على الجهة الأخرى من مطعم ستيك هاوس مركز اتصالات للحرس الوطني السعودي. ومهمة الحرس الوطني السعودي هي حماية الأسرة المالكة وتطبيق النظام. ونظرًا لأن هذه الأهداف مهمة أيضًا للولايات المتحدة الأمريكية، فقد كانت هناك اتفاقية بين البلدين بأن يتولى الجيش الأمريكي بالإضافة إلى شركة فينيل، وهي شركة أمريكية متعاقدة مع وزارة الدفاع، تدريب الحرس الوطني على مراقبة المواطنين السعوديين ورصدهم.

وفي الثالث عشر من نوفمبر/تشرين ثاني من عام ١٩٩٥م قبل الظهيرة بوقت قصير، خرج العقيد ألبرت إم. بليكلي Albert M. Bleakley، وهو مهندس يعيش في المملكة منذ ثلاث سنوات، من المركز ليستقل شاحنته التي تقف في الشارع خارج المركز. وفجأة دفعه انفجار عنيف عدة أقدام إلى الخلف، وعندما تمكن من الوقوف على قدميه مرة أخرى، رأى صفًّا من السيارات يحترق ومن بينها بقايا شاحنته المحطمة من طراز شيفروليه يوكن، فتساءل: «لماذا تنفجر سيارتي؟ لا توجد هنا قنابل؟»

أوقف منفذو العملية شاحنة تحتوي على مائة رطل من مادة سيمتكس المتفجرة خارج المبنى الذي يتكون من ثلاثة طوابق، الذي تحول بعد الانفجار إلى كتلة مشتعلة من الحطام. نهض بليكلي وهو يترنح واتجه إلى أنقاض المبنى وهو ينزف من رقبته ولا يزال دوي الانفجار الشديد يصم أذنيه. وقد راح ضحية ذلك الانفجار سبعة أشخاص، ثلاثة منهم قتلوا عندما سقط عليهم حائط أسمنتي في مطعم الوجبات الخفيفة، وأصيب ستون شخصًا. وكان خمسة من إجمالي القتلى من الأمريكيين.

ردت الحكومة السعودية على تلك العملية باعتقال الأفغان العرب وحصلت على اعترافات من أربعة منهم تحت وطأة التعذيب، وكان ثلاثة من المشتبه بهم قد شاركوا في الحرب في أفغانستان، وأحدهم شارك في الحرب في البوسنة أيضًا. أما قائد الجماعة المزعوم، مصلح الشمراني، فقد تلقى تدريباته في معسكر الفاروق التابع للقاعدة في أفغانستان. وقد قرأ المتهمون اعترافاتهم المتطابقة تقريبًا على شاشة التليفزيون السعودي معترفين بأنهم تأثروا بقراءة أحاديث بن لادن وأبرز العناصر المنشقة الأخرى، وبعد ذلك اقتيدوا إلى ميدان عام حيث نُفِّذ فيهم حكم الإعدام.

ومع أن بن لادن لم يعترف قط بأنه أجاز ذلك الهجوم أو درب منفذيه، فقد أطلق عليهم «أبطالًا» وأشار إلى أنهم كانوا يستجيبون لفتواه بالجهاد ضد الاحتلال الأمريكي. وقال عنهم: «لقد رفعوا العار والذل عن جبين أمتهم.» وقد لاحظ انخفاض عدد القوات الأمريكية الموجودة في المملكة نتيجة الهجوم، وهو ما أكد له للمرة الثانية صحة تحليله لضعف أمريكا.

أضاع الإعدام الفوري لمنفذي العملية فرصة معرفة طبيعة علاقتهم بتنظيم القاعدة بالضبط. وقد اعترف بن لادن بنفسه سرًّا لمحرر جريدة القدس العربي أنه قام بتنشيط خلية نائمة من المقاتلين الأفغان عندما لم تستجب الحكومة السعودية لاعتراضه على وجود القوات الأمريكية على أرض شبه الجزيرة العربية. ساور جون أونيل الشك في أن المتهمين الذين تم إعدامهم ليست لهم أية علاقة بالجريمة، وكان قد أرسل العديد من العملاء لمحاولة استجواب المشتبه بهم، ولكن نُفِذ فيهم حكم الإعدام قبل أن يتمكن الأمريكيون من التحدث إليهم. وأيًّا كانت طبيعة العلاقة التي تربط القاعدة بذلك الهجوم، فقد وصف الأمير تركي بعد ذلك تفجير مبنى الحرس الوطني بأنه «أول عملية إرهابية» لأسامة بن لادن.

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني عشر

الجواسيس الصغار

الرئيس المصري حسني مبارك رجل قصير القامة ممتلئ الجسد قصير العنق، شفته السفلى غليظة تبرز إلى الأمام عندما يتحدث، وهو ممتلئ الوجنتين وجفنا عينيه منتفخان مثل قطعة من الصلصال لم ينته تشكيلها بعد. وفي عام ١٩٩٥م، كان يناهز السابعة والستين من العمر، ولكن كان شعره المجعد مصبوغًا بلون أسود لامع، وتظهره لوحات الإعلانات التي تحمل صورته في القاهرة أصغر عشرين عامًا من عمره الحقيقي، ويعد الثبات أبرز ما يميز عهد حكمه لمصر. وكان مبارك يقف إلى جوار أنور السادات على منصة العرض عندما نفذ المغتالون هجومهم، وفور توليه الرئاسة أعلن حالة طوارئ في البلاد استمرت أربعة عشر عامًا بعد ذلك. وقوبلت جهوده المبكرة في تحرير العملية السياسية بانتصار الإخوان المسلمين، ثم الحملات الإرهابية التي شنها الإسلاميون المتطرفون في التسعينيات. وقد ظهر مبارك القدر نفسه من القسوة التي يتسم بها المتمردون، ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن العنف قد وصل إلى ذروته بعد.

في شهر أبريل/نيسان، علمت المخابرات المصرية أن الظواهري رأس اجتماعًا لجماعة الجهاد في الخرطوم شهد حضور أعضاء قياديين من الجماعة الإسلامية المنافسة؛ وهو ما يعد تطورًا مزعجًا للأمور. وأفادت التقارير أن المنظمتين كانتا تتعاونان معًا لإعادة إطلاق العمليات الإرهابية في مصر، وأن الحكومة السودانية تساعدهما وتمدهما بالأسلحة وأوراق هوية مزيفة، ولكن لم تتوفر أية معلومات عن كيفية تنفيذ تلك العمليات أو مكانها.

لقد توقفت الثورة الإسلامية الكبرى التي أشعل حسن الترابي فتيلها عند حدود السودان ولم تستطع اجتيازها، وبالطبع كانت مصر هي الهدف النهائي، ولكن الرئيس مبارك كان يسيطر على البلد بقبضة من حديد. ففكر الظواهري والمتآمرون

أنهم إذا تخلصوا منه، فسيتسبب هذا في ترك فراغ في السلطة، ثم في الانتخابات البرلمانية التالية ستتمكن الحركات الإسلامية البديلة من الاستيلاء على السلطة.

وفي السادس والعشرين من يونيو/حزيران، استقل مبارك الطائرة متجهًا إلى أديس أبابا لحضور اجتماع منظمة الوحدة الأفريقية. وكان المتطرفون المصريون ينتظرون ذلك الحدث منذ أكثر من عام، وقد أعدوا خطتهم بوضع أعضاء من الخلية المسئولة عن تنفيذ عملية الاغتيال في العاصمة الإثيوبية، وقد تزوج بعضهم من نساء إثيوبيات وأصبحوا ظاهريًّا جزءًا من المجتمع.

وبالتعاون مع مجموعة من القتلة من الجماعة الإسلامية، قامت المخابرات السودانية بتهريب أسلحة إلى سفارتها في إثيوبيا. وكان قائد المؤامرة هو مصطفى حمزة، وهو عضو قيادي مصري في القاعدة وقائد الجناح العسكري للجماعة الإسلامية. وفي مزرعة في شمال الخرطوم، ألقى الظواهري خطبة لإثارة حماسة الإرهابيين التسعة المسئولين عن تنفيذ العملية، ثم ذهب إلى إثيوبيا لدراسة ساحة تنفيذ عملية الاغتيال.

وكانت الخطة تقضي بوضع سيارتين على طريق المطار، وهو الطريق الوحيد المؤدي إلى العاصمة، وعندما تقترب السيارة الليموزين التي تقل الرئيس من السيارة الأولى، يفتح عليها القتلة نيران مدافعهم الآلية وقذائف أر بي جي، فإذا نجا مبارك من الفخ الأول، تكون هناك سيارة أخرى بانتظاره على الطريق.

وصلت طائرة الرئيس قبل ميعادها المحدد بساعة، ولكن تأخر وصول الحاشية والحراس منح القتلة وقتًا كافيًا للوصول إلى المكان المحدد. وعندما ظهرت السيارة الليموزين، فتح منفذو العملية النيران عليها ولكن حدث خلل في عمل قاذفات الأر بي جي. قُتل اثنان من الحراس الإثيوبيين للرئيس وخمسة من المهاجمين في تبادل لإطلاق النيران، ولعل مبارك أنقذ حياته عندما أمر السائق بالعودة إلى المطار، ومن ثم تجنب الفخ الثاني. وقد أُلقي القبض على ثلاثة من منفذي العملية وهرب الأخير عائدًا إلى السودان.

تمكنت الشرطة الإثيوبية سريعًا من اكتشاف أجزاء المخطط، وفضحت تورط الحكومة السودانية فيه. وقد أدت تلك الكارثة إلى موافقة جماعية في الأمم المتحدة على فرض عقوبات اقتصادية قاسية على السودان. أنكر ممثل السودان التهم الموجهة إليهم، ولكن كان موقف الوفد السوداني سيئًا بالفعل؛ نظرًا لتورطه قبل عامين في مخطط لتفجير المقر الرئيسي للأمم المتحدة الذي كان جزءًا من خطة الشيخ الضرير

twitter @baghdad_library

لتدمير أبرز معالم مدينة نيويورك. لقد سئم المجتمع الدولي من ثورة الترابي، الذي جعل الأمور أسوأ عندما مدح محاولة الاغتيال قائلًا: «كان المسلمون من أبناء النبي موسى له بالمرصاد، تصدوا له وأربكوا خططه وردوه إلى بلاده.» أما عن علاقته المستقبلية بالرئيس المصري، فقد قال الترابي: «لقد وجدت الرجل أقل بكثير من مستوى تفكيري وآرائي وأغبى من أن يفهم بياناتي الرسمية.»

وكما أدرك الجميع، فقد كانت هناك تصفية حسابات.

انتشرت قوات مبارك الأمنية بجميع أنحاء الجمهورية؛ من الأحياء العشوائية بالقاهرة إلى قرى الصعيد المبنية بالطوب باللبن لاجتثاث الحركة الإسلامية المتطرفة من جذورها نهائيًّا فأحرقت المنازل، واختفى المشتبه بهم. وفي بعض الأحيان كانت الأم تسحب خارج المنزل إلى الشارع وتُنزع عنها ملابسها ويُحذر أولادها بأنها ستتعرض للاغتصاب إذا لم يجدوا أخاهم الذي يبحثون عنه في المنزل عندما يحضرون المرة القادمة. وقد وضع مبارك قانونًا لمحاربة الإرهاب يجرم حتى التعبير عن التعاطف مع الحركات الإرهابية. وأُنشئتْ خمسة سجون جديدة لاستيعاب آلاف المشتبه بهم الذين اعتقلوا، ولم يوجه للكثير منهم أية اتهامات على الإطلاق.

وللتعامل مع الظواهري، ابتكر رجال المخابرات المصرية خطة شيطانية، فأغروا فتى في الثالثة عشرة من عمره اسمه أحمد بالذهاب إلى شقة مع بعض الأشخاص ووعدوه باستضافته لبعض الوقت لاحتساء العصير ومشاهدة أفلام الفيديو. وكان أحمد هو ابن محمد شرف، وهو متعصب مصري معروف وعضو قيادي في جماعة الجهاد. وفي تلك الشقة، تم تخدير الفتى واغتصابه، وعندما استيقظ واجهوه بصور التقطت له وهو في وضع اللواط وهددوه بإرسال الصور إلى والده. وكانت عاقبة مثل هذه الفضيحة على الطفل وخيمة «قد تصل إلى أن يقتله والده»، على حد قول مصدر مقرب من الظواهري.

أجبرته المخابرات المصرية على تجنيد طفل آخر اسمه مصعب، وهو ابن أبي الفرج، العضو في الجهاد وأمين صندوق القاعدة. تعرض مصعب لعملية التجنيد المذلة نفسها عن طريق التخدير والاعتداء الجنسي وأرغم على الانقلاب على عائلته. قام رجال المخابرات بتدريب الطفلين على كيفية زراعة أجهزة تنصت في منازليهما وتصوير المستندات، وقد شنت السلطات عددًا من حملات الاعتقالات اعتمادًا على المعلومات التي سربها الجواسيس الصغار.

قرر رجال المخابرات المصرية بعد ذلك استخدام الفتيان لقتل الظواهري، فأعطوا مصعبًا قنبلة ليضعها داخل المبنى السكني المكون من خمسة طوابق الذي تقطن به أسرة الظواهري. ولكن الظواهري لم يكن موجودًا هناك، واكتشفت المخابرات السودانية القنبلة. أما الطفل الآخر، أحمد، فقد كان في المستشفى مريضًا بالملاريا، ولم يكتشف أحد بعد أنه جاسوس، وكان الظواهري هو طبيبه المعالج الذي يزوره كل يوم، فعرف منه رجال المخابرات متى بالضبط يتوقع حضور طبيبه. وفي اليوم التالي، انتظر فريق الاغتيال الظواهري، ولكنه، ولسبب ما، لم يأت ذلك اليوم.

وعلى أية حال، أتيحت فرصة أفضل لتنفيذ عملية الاغتيال؛ فقد علمت المخابرات المصرية بعقد اجتماع لمجلس شورى جماعة الجهاد. فأعطى أحد رجالها مصعبًا قنبلة في حقيبة وأخبره بأن يضعها في المكتب الذي سيجتمع فيه الظواهري وأعوانه. ولكن عندما خرج الطفل من سيارة رجل المخابرات، وجد المخابرات السودانية ورجال أمن جماعة الجهاد في انتظاره، فانطلق رجل المخابرات بسيارته مسرعًا تاركًا وراءه الطفل ليواجه مصيره.

تصارعت جماعة الجهاد والمخابرات السودانية على من له الحق في احتجاز مصعب. وفي النهاية، سمحت المخابرات للظواهري باستجواب الطفل، ووعد هو بإعادته سالمًا. وسريعًا ما ألقى القبض أيضًا على مريضه الصغير أحمد، ودعا إلى عقد محكمة لتطبيق حكم الشريعة.

اعترض كثير من أعضاء جماعة الجهاد والقاعدة على محاكمة الطفلين قائلين: إن هذا يخالف الإسلام. ولكن الظواهري، ردًّا على اعتراضهم، أمر بنزع ملابس الطفلين عنهما ليحدد ما إذا كانا قد بلغا أم لا، وكانا بالفعل قد بلغا. اعترف الطفلان المسكينان بكل شيء، فأدانتهما المحكمة بممارسة اللواط والخيانة ومحاولة القتل.

أمر الظواهري بإعدام الصبيين رميًا بالرصاص. ولكي يتأكد من أن الجميع يفهمون الرسالة، فقد صور اعترافاتهما وإعدامهما على شرائط فيديو ووزعها لتكون عبرة لمن يحاول أن يخون الجماعة.

وعندما علم الترابي وجماعته بإعدام الصبيين، اشتعل غضبهم واتهمت الحكومة السودانية جماعة الجهاد بالتصرف وكأنها «دولة داخل الدولة»، وأمرت الظواهري وجماعته بالخروج من البلاد على الفور، حتى إنهم لم يجدوا متسعًا من الوقت لجمع أغراضهم. وقد قال الظواهري متذمرًا: «كل ما فعلناه هو أننا طبقنا شرع الله، فإذا لم نطبقه على أنفسنا، كيف سنطبقه على الآخرين؟»

twitter @baghdad_library

تناثرت صفوف جماعة الجهاد واتجه معظمهم إلى أفغانستان والأردن واليمن، والكثير منهم انشق عن الجماعة وهم يشعرون بعار الجريمة الوحشية التي ارتكبوها بإعدام الصبيين. وهكذا تمزقت جماعة الجهاد على يد الظواهري وتحولت إلى شراذم من الرجال الثائرين والمشردين. ولم يتبق في المنظمة سوى أقل من مائة عضو، وكان الكثير منهم لا يزالون يحاولون أن يستردوا عائلاتهم ومتعلقاتهم من الخرطوم. وقد اعترف الظواهري في اليمن حيث اتخذ مأوى: «إننا نمر بأوقات عصيبة»، واعترف لبعض زملائه أنه بدأ يعاني القرحة.

أما أتباعه الذين أفاقوا من الوهم، فقد تذكروا رأي الرائد عصام القمري، الذي خانه الظواهري، عندما كانوا في السجن، بأن الظواهري يفتقر إلى صفة ضرورية، فقد كان القمري هو من قال للظواهري: «إذا كنت عضوًا في أية جماعة، فإنك لا تصلح أن تكون القائد»، وقد تردد صدى تلك الكلمات في ذلك الوقت كالنبوءة.

لم يتبق لدى الظواهري سوى موارد قليلة فضلًا عن دعم بن لادن له، وكان قد عقد العزم على الرد على السلطات المصرية سريعًا كي يسترد سمعته ويحافظ على بقايا شتات منظمته. لقد تغيرت أفكار أيمن الظواهري بشدة عما كان عليه عندما كان شابًّا يرفض الثورة لأنها ستريق أنهارًا من الدماء، فأصبح يؤمن أن العنف وحده يغير التاريخ. وفي رده على العدو، سيصنع واقعًا جديدًا؛ فقد كانت سياسته هي دفع الحكومة المصرية لأن تكون أكثر قمعًا فيكرهها الشعب. وقد نجح في هذا بالفعل، إلا أن الشعب المصري لم يتحول إليه أو إلى مساندة حركته؛ كل ما حدث هو أنه أصبح أكثر بؤسًا وخوفًا ويأسًا وأكثر وعيًا بواقعه المرير. وعلى أية حال، ففي اللعبة التي بدأها الظواهري، كان الانتقام عاملًا أساسيًّا، بل لقد كان هو اللعبة نفسها.

كثيرًا ما ترسم الأحداث الأولى الخط الذي ستسير عليه الأمور في المستقبل. ففي التاسع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٥م، الموافق للذكرى الثامنة عشرة لزيارة أنور السادات للقدس، فجر رجال الظواهري السفارة المصرية في إسلام أباد في باكستان. ومع أن جماعة الجهاد هي التي نفذت تلك العملية، فقد أصبح أسلوب تنفيذ هذه العملية هو نمط هجمات القاعدة في المستقبل من حيث اختيار الأهداف وسبل التدمير. فقد قام أحد رجال الظواهري يُعرف بأبي خباب، وهو سائق سيارة أجرة مصري درس الكيمياء وأصبح خبيرًا في المتفجرات ويدرسها للمتطوعين، بصناعة

قنبلة جديدة قوية. ولتنفيذ العملية، اقترب رجلان من مبنى السفارة أحدهما يحمل حقيبة سامسونيت مليئة بالأسلحة، ثم ألقى قنابل يدوية على الحراس ليخيفهم في حين اقتحمت شاحنة خفيفة محملة بمتفجرات تزن ٢٥٠ رطلًا وفجَّر السائق القنبلة. وانهارت السفارة. وأصيب كثير من المباني المحيطة بالسفارة بأضرار بالغة في دائرة نصف قطرها نصف ميل. وقد أسفرت تلك العملية عن مقتل ستة عشر شخصًا بالإضافة إلى الشخصين اللذين نفذا العملية، وأصيب ستون آخرون.

كانت عملية القتل الجماعي هذه أول عملية ناجحة لجماعة الجهاد بقيادة الظواهري. ويقول الظواهري في مذكراته: «وتركت خرائب السفارة رسالة بليغة المعنى واضحة البيان.» وعلى كل حال، لم يوافق بن لادن على تلك العملية، ولم يكن سعيدًا بها. وحتى ذلك الوقت، كانت باكستان لا تزال أفضل طريق للدخول إلى أفغانستان، وكانت لا تزال تتيح مأوى للعديد من الأفغان العرب الذين مكثوا فيها بعد انتهاء الحرب. فقامت الحكومة باعتقال مائتين منهم تقريبًا واحتجزتهم في قاعة حفلات زفاف في بيشاور استعدادًا لترحيلهم إلى بلادهم. وقد فوجئت السلطات عندما ظهر بن لادن في القاعة ومعه تذاكر طيران إلى السودان للمعتقلين. وهكذا، أصبح بين يدي بن لادن فجأة مجموعة من الإرهابيين الذين كرسوا حياتهم للقضية، والذين أصبحوا يعتمدون عليه، ولكنهم يكنون الولاء للظواهري.

تسبب الظواهري أيضًا في نفور مجموعة من أتباعه الذين بقوا معه، والذين أزعجهم كثيرًا موت الأبرياء واستخدام أسلوب العمليات الانتحارية. وستظل هاتان القضيتان مشكلتين مزعجتين في الحديث عن مدى أخلاقية الجهاد العالمي. وردًّا على تلك الاعتراضات، وضع الظواهري نظرية تشكل إطار العمل اللازم لتبرير تفجيرات إسلام أباد والهجمات المماثلة التي ستنفذها القاعدة بعد ذلك.

فشرح لهم الظواهري أنه لا يوجد أبرياء داخل أسوار السفارة، فجميع العاملين بها، بدءًا من الدبلوماسيين إلى الحراس، يدعمون النظام المصري الذي اعتقل الآلاف من الأصوليين ووقف حائلًا دون تطبيق حكم الإسلام. ويجب أن يتحمل من ينفذ أوامر الحكومة مسئولية جرائمها؛ فالمسلم الحقيقي لا يمكن أن يعمل لصالح مثل هذه الحكومة. وبهذا التفسير كان الظواهري يكرر مرة أخرى نظرية التكفير التي طبقت في أكثر صورها تطرفًا في الجزائر. واعترف أنه قد يكون هناك ضحايا أبرياء، أطفال على سبيل المثال أو مؤمنين صالحين، ماتوا أيضًا في الانفجار، ولكن المسلمين

twitter @baghdad_library

ضعفاء ويواجهون عدوًا شديد البأس، وفي هذه الحالة الطارئة يجب أن تكون القوانين التي تمنع ذبح الأبرياء أكثر مرونة.

أما مسألة الانتحار، فقد كانت أكثر صعوبة وتعقيدًا؛ فلا يوجد أي سند ديني في الإسلام يبرر الانتحار، بل إنه محرم صراحة حيث جاء في القرآن: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾.[1] والأحاديث النبوية مليئة بمواقف يحرم فيها النبي الانتحار، ويوضح أن عقابه في الآخرة نار جهنم خالدًا فيها يموت بالطريقة نفسها التي قتل بها نفسه في الدنيا. فحتى عندما أثخنت الجروح أحد أشجع مقاتليه في إحدى المعارك وألقى بجسده على سيفه ليتخلص من عذاب الألم الشديد، أعلن النبي أنه ملعون. فيقول الرسول: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس عمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بخواتيمها.»

وفي دفاعه عن التفجيرات، كان على الظواهري أن يتخطى تلك العقبة المحرمة، فقال: إن الذين نفذوا عملية إسلام أباد يمثلون «جيلًا من المجاهدين قرر أن يضحي بنفسه وكل ما يملك في سبيل الله؛ ذلك لأن طريق الموت والشهادة سلاح لا يملكه أولئك الطغاة وأعوانهم الذين يعبدون مرتباتهم بدلًا من الله.» وقارنهم بشهداء المسيحية الأوائل، والمثال الوحيد الذي استطاع أن يشير إليه في تاريخ الإسلام هو المسلمون الأوائل في بداية ظهور الإسلام الذين أسرهم «الكفار» وأجبروهم على الاختيار بين الارتداد عن دينهم أو الموت، فاختاروا الشهادة في سبيل دينهم.

وقال الظواهري: إن ذلك كان اختيارًا انتحاريًّا، ولم يستنكر المسلمون الآخرون ذلك لأنهم كانوا يعملون لرفعة اسم الله ولمصلحة الإسلام. ومن ثم، فإن أي شخص يضحي بحياته في سبيل الدين الحق، مثل منفذي التفجيرات في إسلام أباد، يجب ألا يعتبر منتحرًا جزاؤه جهنم، وإنما شهيدًا بطلًا ستدر عليه تضحيته بنفسه مكافأة لا تخطر على ذهن بشر في الجنة.

وبهذه المغالطة، ناقض الظواهري كلام الرسول وفتح باب القتل على مصراعيه على العالم بأسره.

[1] سورة النساء الآية (٢٩).

«هل تتذكر ذلك الشاب بن لادن؟» ألقى حسن الترابي ذلك السؤال على ولده عصام في بداية عام ١٩٩٦م، فأجابه عصام: «بالطبع، لقد كنا نتقابل كثيرًا في إصطبل الخيول.» فقال له والده: «بعض الأشخاص في الحزب يريدون أن يطردوه من البلد.»

في المرة التالية التي قابل فيها عصام بن لادن، تفاجأ لرؤية مدى الاكتئاب الذي يرتسم على ملامحه؛ فقد طُرد الظواهري وجماعة الجهاد من البلاد مما حرمه من النواة المصرية لتنظيمه وقد أصابته تلك الخسارة في مقتل. ولاحظ عصام أن الشخص الهادئ المرح الذي عرفه من قبل قد اختفى. فبعد أن سمحت الحكومة السودانية للمخابرات الفرنسية باختطاف كارلوس ذي الألف وجه عندما كان يجري عملية في خصيته اليمنى، انتشرت شائعات في الخرطوم تقول: إن بن لادن هو «كارلوس التالي». وقد اختلقت المخابرات السودانية ببراعة قصة كاذبة بأن الفرنسيين قد أصدروا قرارًا مماثلًا بتوجيه اتهامات لبن لادن، هادفة ولا شك إلى إخافته ودفعه إلى الهروب من البلاد.

لقد كان بن لادن يشعر بالوحدة والارتباك من دون المصريين؛ فلا يوجد حوله من يمكنه الوثوق به، وكان يعلم أنه قد يتعرض لخطب ما. وكان بالفعل يبحث عن مأوى آخر له، في حال اضطرته الظروف لذلك، ولكن عصام نصحه قائلًا: «يجب ألا تغادر السودان، فإذا رحلت، من سيدير استثماراتك هنا؟» ولم يجد بن لادن إجابة لذلك السؤال.

شعر عصام بالشفقة تجاه صديقه الذي يواجه مأزقًا حقيقيًّا، فهو يعرف مدى قسوة السياسة السودانية، خاصة تجاه أجنبي ساذج مثله ولديه الكثير ليخسره. ويقول عصام: «لقد أحببت ذلك الرجل حقًّا آنذاك لأني رأيت فيه العديد من الأفكار، فليس هناك نفاق في شخصيته ولا تجد تناقضًا بين ما يقول وما يفعل، ولكنه للأسف لم يكن متقد الذكاء.»

بدأت في ذلك الوقت معالم الكارثة التي جلبها القادة الإسلاميون المتطرفون في السودان على أنفسهم تتضح بشدة. فقد تسبب تواطؤ الحكومة في المخططات الإرهابية ضد نيويورك ومحاولة اغتيال الرئيس مبارك في الموافقة على فرض عقوبات اقتصادية دولية على البلد بدءًا من أبريل/نيسان عام ١٩٩٦م. وفي ذلك الوقت، كانت السفارة الأمريكية في الخرطوم قد نقلت بالفعل العاملين فيها بالإضافة إلى مكتب المخابرات الأمريكية في الخرطوم إلى كينيا، وذلك في إطار الانسحاب الشامل للوجود الدبلوماسي

twitter @baghdad_library

في السودان، أي أن العالم كان يدفع السودان إلى حالة من العزلة التامة، وكان قادتها يناضلون لإيجاد طريق للخروج من ذلك المأزق.

في ليلته الأخيرة في السودان، تناول السفير الأمريكي تيموثي كارني Timothy Carney العشاء مع نائب الرئيس السوداني علي عثمان طه، وناقشا السبل المتاحة أمام السودان لتحسين سمعته. وكان من بين الاقتراحات التي قدمها كارني إعادة بن لادن إلى المملكة العربية السعودية، وكان قد تحدث بالفعل إلى مسئول سعودي رفيع المستوى أكد له أن بن لادن لا يزال بإمكانه العودة إلى المملكة مرة أخرى «إذا قدم اعتذاره»، على حد قوله.

وبعد شهر، قابل وزير الدولة السوداني للدفاع اللواء الفاتح عروة السفير كارني ورجالًا من المخابرات الأمريكية متخفيين في غرفة بفندق في منطقة روزلين بولاية فرجينيا، وأعرب عن رغبة حكومته في أن يُحذَف اسمها من على قائمة وزارة الخارجية الأمريكية للدول الراعية للإرهاب، وطلب منه قائمة بالإجراءات التي ترضي الحكومة الأمريكية. أجابت المخابرات الأمريكية على ذلك الطلب بتقديم مذكرة جاء فيها، إلى جانب عدد من المطالب الأخرى، أن يقدم السودان قائمة بجميع أسماء المجاهدين الذين أحضرهم بن لادن إلى البلاد بالإضافة إلى أرقام جوازات سفرهم وتواريخ سفرهم. وفي الاجتماعات التالية، ضغط الأمريكيون على الممثل السوداني لطرد بن لادن من البلاد. ولكن عروة أخبر رجال المخابرات أنه من الأفضل أن يبقى في السودان حيث سيظل تحت عين الحكومة. ومن ناحية أخرى، صرح أيضًا أنه إذا كانت الحكومة الأمريكية تريد توجيه اتهامات لبن لادن، فإنهم، على حد قوله: «مستعدون لتسليمه لكم.»

كانت حكومة الرئيس كلينتون لا تزال تنظر إلى بن لادن على أنه شاب ثري مثير للمتاعب، وليس تهديدًا قاتلًا يحيك خيوط الدمار على بلادها. وقد اشتهر اسمه كممول للإرهاب نظرًا لدعمه للشيخ الضرير. وقد كان هناك إجماع أنه لا بد من دفعه خارج ملجئه في السودان؛ لأن البلد يعج بالإرهابيين الإسلاميين الذين يصبحون أكثر خطورة في ظل توافر التمويل المادي. ولكن لم يكن هناك نقاش حقيقي لعواقب طرده من البلاد، ولم يكن هناك أي معنى لإجبار السودان على تسليمه للسلطات الأمريكية لأنه لا يوجد دليل على أنه تسبب في أي أذى للمواطنين الأمريكيين. وقد أوهم بعض المسئولين في الإدارة الأمريكية أنفسهم أن السعودية ستقبل عودة ابنها العاصي وتعاقبه بالإطاحة برأسه. وكان الرئيس السوداني عمر البشير قد ذهب إلى

المملكة لأداء فريضة الحج وفي أثناء وجوده هناك قابل ولي العهد الأمير عبد الله، وعرض عليه أن يسلمهم بن لادن إذا تعهد السعوديون بأنه لن يتعرض للسجن أو المقاضاة. ولكن ولي العهد رفض هذه الشروط. وفي الوقت نفسه، كانت الحكومة المصرية، التي اعتبرت بن لادن مسئولًا عن تمويل محاولة اغتيال مبارك، تضغط على السعوديين لمقاضاة بن لادن. ولكن الأمير تركي هو الذي اعترض هذه المرة لأنه لم يكن هناك دليل قاطع على تورط بن لادن في العملية. وأبلغ أحمد باديب، نائب الأمير تركي، المصريين سرًا: «امنحونا دليلًا، وسنختطفه من هناك»، ولكن أوضح السعوديون للجميع أنهم يتبرءون من بن لادن. أي أن أسامة بن لادن لم يكن وقتها «مطلوبًا»، ولكنه كان بالتأكيد غير مرغوب فيه في أي بلد.

واستمر الأمريكيون في حث الحكومة السودانية على طرده، فقالوا للجنرال عروة: «اطلبوا منه أن يغادر البلاد، ولكن لا تدعوه يذهب إلى الصومال.»

فحذرهم عروة قائلًا: «سيذهب إلى أفغانستان.»

فأجابه الأمريكيون: «دعوه يذهب.»

لمدة ثلاثة أيام متواصلة، كان الترابي وبن لادن يعقدان جلسات مناقشات محتدمة كانت تستمر حتى وقت متأخر من الليل. قال له بن لادن: إنه لا يحق للحكومة طرده من البلاد بعد أن استثمر فيها كل هذه الأموال، فهو لم يرتكب أية جرائم ضد السودان، إلى جانب أنه لا يوجد أي مكان آخر في العالم يمكنه أن يذهب إليه. ولكن الترابي أجابه قائلًا: إنه ليس لديه سوى خيارين: إما أن يغادر السودان أو أن يبقى فيها ويلتزم الصمت. ولكن بن لادن قال: إنه لا يستطيع أن يصمت مادام يرى الإسلاميين الشباب يسجنون ظلمًا في السعودية. وفي نهاية الأمر وافق على ترك البلاد.

لكن إلى أين يذهب؟ فإنه لم يعد يمتلك جواز السفر السعودي الذي يفتح أمامه أبواب جميع بلدان العالم، وأصبح يسافر بصفته رجل أعمال سوداني سيئ السمعة ومتهم بأنه راعٍ للإرهاب. وقد عرض بعض أفراد جماعة الجهاد أن يرتبوا له إجراء عملية تجميل لتغيير شكله وتهريبه إلى مصر، ولكن الظواهري الذي قيل إنه كان مختبئًا في بلغاريا في ذلك الوقت، لم يؤيد ذلك الاقتراح. فقد كان الظواهري يرى دائمًا أنه من السهل افتضاح أمرهم في مصر، وأنها تفتقد إلى المخابئ الطبيعية الآمنة، مثل الكهوف والجبال، حيث يمكن أن تنمو بذور الثورة حتى تكتمل. وكانت

twitter @baghdad_library

الصومال مكانًا مناسبًا إلى حد ما، ولكن عداء أهلها للعرب جعل منها مكانًا غير جدير بالثقة.

وكما حذر السودانيون بالفعل، كانت أفغانستان أفضل مكان يقصده، وربما تكون المكان الوحيد. وقد قدم الترابي خدمة لبن لادن حين طلب من السفير السوداني لدى أفغانستان أن يسهل إجراءات عودة بن لادن إلى هناك. ثم جلس حكام السودان لتقسيم استثمارات بن لادن.

كانت الحكومة السودانية لا تزال تدين لبن لادن بتكاليف إنشاء الطريق السريع الذي يبلغ طوله ٤٥٠ ميلًا ويربط بين الخرطوم وبور سودان، الذي كلف إنشاؤه ٢٠ مليون دولار. وكان بن لادن قد وافق على قبول المدبغة، التي قدرت الحكومة ثمنها بخمسة ملايين دولار، كجزء من المبلغ الذي تدين به، ولكنه وجد نفسه مضطرًّا لتحمل مهانة بيعها مرة أخرى إلى الحكومة في مقابل جزء صغير من قيمتها. وقام بعد ذلك بتصفية أعماله الأخرى بأقصى سرعة ممكنة على أمل أن يسترد ولو جزءًا من ثروته، ولكنه أجبر على ترك كل ما يملك تقريبًا. فقد صادرت الحكومة معداته الثقيلة، الجرارات والحادلات البخارية والرافعات، التي تمثل الأصول الأساسية لشركة الإنشاء الخاصة به، والتي يقدر ثمنها وحدها بنحو ١٢ مليون دولار. أما المساحات الشاسعة من الأراضي التي زرعها بكثير من الترقب والسعادة، فقد انتزعتها الحكومة منه دون مقابل تقريبًا، وباع خيوله إلى عصام مقابل بضع مئات من الدولارات. وقد اعترف بن لادن بأسى أن صافي الخسارة وصل إلى أكثر من ١٦٠ مليون دولار،[٢] وقد خلُص بن لادن مما حدث أن الحزب الإسلامي بقيادة الترابي «مزيج من الدين والجريمة المنظمة.»

تسبب الرحيل الوشيك لقائد القاعدة في إصابة أعضائها بالهلع. وقد تلقى بعض أعضاء التنظيم دعوة للانضمام إلى بن لادن في أفغانستان في المستقبل، أما البعض الآخر فقد قيل لهم إن التنظيم لم يعد قادرًا على تولي الإنفاق عليهم، فحصل كل منهم على شيك بمبلغ ٢٤٠٠ دولار وتذكرة طيران للعودة إلى وطنه.

---

[٢] قال بن لادن لعبد الباري عطوان إنه قد تمكن من استعادة ١٠٪ تقريبًا من استثماراته بعد أن عرضت عليه الحكومة السودانية أن تسدد له نقوده حبوبًا وماشية وقد تمكن من بيعها إلى دول أخرى (Atwan, Secret History, 52) ولكن محمد لؤي بايزيد أخبرني أن حجم استثمارات بن لادن في السودان لم يتجاوز عشرين مليون دولار، وأنه على الأرجح غادر البلاد وهو لا يملك سوى خمسين ألف دولار تقريبًا. أما حسب الله عمير، الذي كان يتولى ملف القاعدة في المخابرات السودانية، فيقدر حجم استثمارات بن لادن بثلاثين مليون دولار تقريبًا ويقول: إنه غادر البلد وهو «لا يملك أي شيء على الإطلاق».

وبعد أن جردت الحكومة السودانية بن لادن من الجزء الأعظم من ممتلكاته، حرصت على تأجير طائرة سوفييتية عتيقة من طراز توبوليف ليرحل على متنها. وفي أثناء الرحلة، جلس سيف العدل، الذي سيصبح فيما بعد القائد العسكري لتنظيم القاعدة، على مقعد مساعد الطيار يحمل خريطة يوجه بها الطيار الروسي الذي لم يثقوا به ولم يكن يتحدث العربية. وكان مع بن لادن اثنان من أبنائه الصغار هما سعد وعمر، بالإضافة إلى اثنين من حراسه. غادر بن لادن الأراضي السودانية في الثامن عشر من مايو/أيار عام ١٩٩٦م وقد تمزقت عائلته وانهارت منظمته، وقد حمَّل أمريكا مسئولية انهيار أركان مملكته الذي أوصله إلى تلك الحالة.

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث عشر

الهجرة

حلقت الطائرة التي تقل بن لادن فوق البحر الأحمر بمياهه الصافية تاركة السودان خلفها. وسرعان ما مر فوق جدة ومكة وجبال السروات ثم الصحراء الشاسعة برمالها الصفراء التي لا يميزها شيء سوى الطرق التي أنشأها والده عبرها. وكان آنذاك قد بلغ الثامنة والثلاثين من عمره؛ لقد كان مشهورًا، بل بطلًا، ثم أصبح مجرد لاجئ ممنوع حتى من أن تمس قدماه أرض وطنه. أعيد تزويد الطائرة بالوقود في الإمارات العربية المتحدة حيث استقبله لوقت قصير وفد من الحكومة، ومن المحتمل أنهم قد منحوه بعض النقود. لقد كان ثريًّا طوال حياته ولكنه أهدر أمواله على استثمارات ضعيفة سرقت منه في النهاية، والآن يقبل الصدقات من أولئك الذين يتذكرون اسمه.

حلقت الطائرة فوق ناقلات النفط العملاقة التي تنهل البترول بنهم وهي راسية بجوار معامل التكرير الضخمة التي تصطف على موانئ الخليج الفارسي، مصدر الكثير من الثروات والمتاعب أيضًا. وخلف إيران تقبع الصحراء الجنوبية الأفغانية الخاوية تليها قندهار المحاطة بحطام قنوات الري وحدائق الرمان، ولم يعد هناك ما يستحق المخاطرة بزراعته في بلد دمرته عشرون عامًا من الحروب سوى حقول الخشخاش. وقد نُسيت وحشية السوفييت بعد الفوضى العارمة التي سببتها الحرب الأهلية، ولم تعد هناك أية سلطة حاكمة في أي مكان. وتُركت الطرق لقطاع الطرق الذين يتقاضون من الناس إتاوة، وفي بعض الأحيان يختطفون الأطفال إذا لم تكن النقود كافية، وقاتلت القبائل بعضها بعضًا، وجنرالات الحرب الأفغانية قاتل بعضهم بعضًا، وسيطرت عصابات المخدرات ومافيا النقل على الاقتصاد المحتضر. وتعرضت المدن للقصف الشديد حتى إنها تحولت إلى أكوام من الحجارة والحطام، وتحولت أعمدة الكهرباء، التي نخرتها الثقوب بعد عقدين من القتال وبعد زمن طويل من

انتزاع الأسلاك منها، إلى مجرد أشباح تقف على جانبي الطرقات تلقي بظلالها المخيفة وتذكر كل من يمر بها بالوقت الذي خطت فيه أفغانستان أولى خطواتها تجاه العصرية. وانتشرت ملايين الألغام البرية في الريف، مما أدى، طبقًا لتقرير الأمم المتحدة، إلى إصابة ٤٪ من السكان بإعاقات، وتحويل جزء كبير من الأراضي الصالحة للزراعة إلى أرض قاحلة.

وعندما مر بن لادن فوق كابول، وجد العاصمة تحت الحصار مرة أخرى، ولكن هذه المرة من قبل جماعة طالبان. وقد تكونت تلك الجماعة في عام ١٩٩٤م من مجموعة صغيرة من الطلاب، معظمهم ممن فقدوا ذويهم ونشئوا في معسكرات اللاجئين وضاقوا ذرعًا بفوضى وفساد حكم المجاهدين. فلقد تحول جنود الحرية في الحرب ضد السوفييت إلى حكام أكثر همجية من أعدائهم. وبعد أن دفعت المأساة التي جلبها النصر على أفغانستان حركة طالبان إلى التحرك، سطع نجمهم بسرعة مذهلة. وبفضل دعم المخابرات الباكستانية، تحولوا من مجرد ميليشيا شعبية إلى جيش هائل من رجال حروب العصابات، لديه قدرة كبيرة على التحرك بسرعة ويوشك على تعزيز صعوده السريع إلى السلطة، وهو على أعتاب كابول يمطر بالصواريخ تلك المدينة التي تحولت إلى أنقاض.

وفي الوادي التالي، تقع مدينة جلال أباد عند قاعدة جبال هندوكوش. وقد هبطت طائرة بن لادن في المطار نفسه الذي فرض هو عليه الحصار عام ١٩٨٩م، وهناك استقبله ثلاثة من قادة المجاهدين القدامى وانتقل إلى مأوى قديم فوق النهر كان في يوم من الأيام موقعًا عسكريًّا سوفييتيًّا. وبعد أسابيع قليلة، انتقل مرة أخرى إلى مزرعة متهالكة على بعد خمسة أميال من جنوب جلال أباد، كانت ملكًا ليونس خالص، وهو جنرال حرب مسن وأحد رعاة بن لادن القدامى يهوى الزواج بالمراهقات.

إن أفغانستان دولة شاسعة ذات تضاريس وعرة يقسمها من الشرق إلى الغرب جبال هندوكوش، وينقسم سكانها إلى أربع جماعات عرقية رئيسية، وكثير من القبائل واللغات المحلية. إنها دولة من الصعب حكمها حتى في أوقات السلم، مع أن السلم لم يعد سوى ذكرى بعيدة لم يعشها الكثيرون من أهلها، وقد كان الشوق لفرض النظام قويًّا لدرجة أن الشعب سيرحب بأية سلطة قوية تفرض الاستقرار على البلاد.

twitter @baghdad_library

تمكنت حركة طالبان سريعًا من السيطرة على تسعة أقاليم من أقاليم أفغانستان الثلاثين. وقد حاول الرئيس برهان الدين رباني أن يتفاوض معهم، ولكنهم، ببساطة، طالبوه بالاستقالة. ولكن تمكن القائد الماكر المحنك أحمد شاه مسعود من دفع المتمردين الشباب خارج جنوب كابول ثم أعاق تقدمهم في بعض الأقاليم الأخرى. وبعد أن رأت كل من السعودية وباكستان الفوضى التي صاحبت حكم المجاهدين ورأتا أن حركة طالبان تمثل أفضل فرصة لفرض النظام، قررتا إعادة بناء قواتها عن طريق إتاحة التدريب والأسلحة والمركبات — خاصة الشاحنات الخفيفة رباعية الدفع ٤ × ٤ من طراز داتسون مزودة بمدافع رشاشة ثقيلة، أو مدافع، أو مدافع مضادة للطائرات أو منصات متعددة الفوهات لإطلاق الصواريخ على ظهر تلك الشاحنات. وكانت جماعة طالبان تتحرك بسرعة وفي حشود هائلة، يعوضون بسرعتهم وجرأتهم ما يفتقدون إليه من تنظيم وانضباط. وقد استأجروا طيارين وقادة من النظام الشيوعي السابق كجنود مرتزقة، فأدرك زعماء المعارضة ما يعنيه سير الأحداث بهذا الشكل واستغلوا الفرصة في ملء جيوبهم بالرِّشا التي تدفعها طالبان. وفجأة استسلمت جلال أباد التي صدت غزو المجاهدين لأشهر أمام أربعة أعضاء من طالبان في سيارة جيب. وهكذا أصبحت طالبان تسيطر على مدخل ممر خيبر، ووجدت نفسها أيضًا مسئولة عن استقبال اللاجئ ذائع الصيت.

إن طالبان لم تدعُ بن لادن للعودة إلى أفغانستان ولم تكن ملزمة أمامه بأي شيء؛ فأرسلت إلى الحكومة السعودية تسألها ماذا تفعل معه، فأُبلغت أن تبقيه في البلاد وتبقي فمه مغلقًا. وهكذا، وقع بن لادن تحت سيطرة زاهد سياسي يدعى الملا محمد عمر الذي كان قد أعلن نفسه منذ وقت قريب «أميرًا للمؤمنين».

كان الملا عمر قد فقد عينه اليمنى في انفجار قذيفة مدفعية في معركة جلال أباد في عام ١٩٨٩م، التي تسببت أيضًا في تشويه وجنته وجبهته. وكان نحيفًا وطويل القامة وقوي البنية ومشهورًا بأنه رام بارع دمر العديد من الدبابات السوفييتية في أثناء الحرب الأفغانية. وعلى عكس معظم المجاهدين الأفغان، كان الملا عمر يتحدث العربية بمستوى مقبول، وكان مواظبًا على حضور محاضرات الشيخ عبد الله عزام. وكانت التقوى والتواضع والشجاعة أهم ملامح شخصيته. ولم يكن هناك ما يميزه في محاضرات الشيخ عزام، عدا تلك الابتسامة الخجولة التي تظهر على وجهه من حين لآخر وتُدْفَن تحت لحيته السوداء الكثيفة، ومعرفته الجيدة بالقرآن والحديث إذ إنه درس الشريعة الإسلامية في باكستان.

وبعد انسحاب السوفييت من أفغانستان، عاد الملا عمر للتدريس في مدرسة داخلية دينية في قرية صغيرة بالقرب من قندهار. ولكن القتال لم ينته حتى عندما سقطت الحكومة الشيوعية على يد المجاهدين في أبريل/نيسان عام ١٩٩٢م. ولم يعرف العنف حدودًا؛ فكانت القبائل المتحاربة وقطاع الطرق يتجولون في جميع أرجاء البلد، واتحدت الكراهية العرقية القديمة مع المطالبة بالانتقام في ظل تصاعد الوحشية. وقام أحد القادة المحليين بتنظيم عمليات اغتصاب جماعي للعديد من الصبية الصغار، وكانت مثل هذه الأعمال الفاحشة منتشرة. وقد قال الملا عمر فيما بعد: «لقد أحكم الفساد والانحلال الخلقي قبضتيهما على البلاد؛ فأصبح القتل والنهب والعنف هو القاعدة، لم يتخيل أحد قط أن الموقف قد يسوء إلى هذا الحد، ولم يتخيل أحد أيضًا أنه من الممكن أن يتحسن.»

وفي تلك اللحظات اليائسة، ظهرت الرؤيا؛ حيث جاء الرسول في المنام لذلك الفقيه القروي البسيط وأمره أن يحل السلام على بلده. فقام عمر بكل الشجاعة التي بثها في عروقه الالتزام الديني التام باقتراض دراجة بخارية وبدأ يزور الطلاب في المدارس الأخرى في الإقليم. وقد وافقه الطلاب (أو طالبان بلغة الباشتو) على أنه لا بد من فعل شيء ما، ولكن القليل منهم فقط كان مستعدًّا لترك دراسته والانضمام إلى الملا عمر في هذه المهمة المحفوفة بالمخاطر. وفي نهاية المطاف، جمع عمر ثلاثة وخمسين شخصًا من أشجع الرجال وقد ساعده حاجي بشار، قائده السابق في الحرب ضد السوفييت الذي تواضع له بعد الرؤيا التي ظهر فيها النبي، بجمع التبرعات والأسلحة وتبرع هو شخصيًّا بسيارتين وشاحنة. وبعد وقت قصير، استولت طالبان على إدارة منطقة مايواند في إقليم قندهار بعد أن أصبح عدد مؤيدي الحركة مائتين تقريبًا. وقد استسلم القائد المحلي ومعه ٢٥٠٠ من رجاله ومخزون ضخم من الأسلحة وبعض الطائرات الهليكوبتر والمركبات المصفحة وست طائرات مقاتلة من طراز ميج-٢١. واحتشد الكثير من الأفغان المتلهفين بشدة لفرض النظام وراء طالبان الذين أعلنوا أنهم عباد الله الأتقياء المتحمسين لنصرته.

كانت هناك ثلاثة مصادر لتغذية طالبان تتدفق إلى أفغانستان بسرعة غير عادية. المصدر الأول هو الدعم المادي بالمال والسلاح والنقود من السعودية وباكستان. وكان بعض أعضاء طالبان طلابًا في مدرسة مهنية أنشأها أحمد باديب، مدير مكتب الأمير تركي، في أثناء الحرب، ومن ثم فقد كانت هناك علاقة منذ البداية بين المخابرات السعودية والمتمردين الشباب.

twitter @baghdad_library

أما المصدر الثاني، فقد كان من المدارس الدينية على الجانب الآخر من الحدود الباكستانية، مثل تلك التي أنشأها أحمد باديب، التي كانت تعج بأبناء اللاجئين الأفغان. وكانت هناك حاجة ماسة لإنشاء مثل تلك المدارس لأن باكستان، وهي واحدة من أكثر الدول التي ترتفع بها معدلات الأمية في العالم، قد فشلت في إنشاء نظام للمدارس الحكومية لتعليم أطفالها تعليمًا جيدًا، ناهيك عن أطفال ثلاثة ملايين لاجئ أفغاني هربوا إلى باكستان بعد الغزو السوفييتي. (وكان هناك عدد مماثل من اللاجئين في إيران.) وكانت تلك المدارس الدينية تمول من قبل المنظمات الخيرية في السعودية ودول الخليج الأخرى التي كانت تنقل الأموال عن طريق الأحزاب الدينية المحلية. ونتيجة لذلك، تم إغلاق العديد من الأماكن المقدسة الصوفية المحلية، وتحولت إلى مدارس تدرس العقيدة الوهابية. وبطبيعة الحال، فقد خلقت تلك المدارس جمهورًا سياسيًّا قويًّا للأحزاب الوهابية المحلية، ليس فقط لأنها كانت تتيح لهم إقامة ومعيشة مجانية ولكن لأنها كانت تدفع لهم أيضًا رواتب شهرية تشكل مصدر دعم أساسيًّا للعديد من عائلات الطلاب.

نشأ هؤلاء الطلاب في مجتمع يقتصر على الذكور فقط معزولين عن عائلاتهم مدة طويلة من الوقت، وكانت العادات والتقاليد والمعتقدات الخاصة ببلادهم بعيدة عنهم. وقد وصموا بأنهم متسولون ومخنثون وغالبًا ما كانوا ضحايا للرجال المحرومين من وجود النساء حولهم. وكان هؤلاء الطلاب مستغرقين تمامًا في دراستهم التي تقتصر على القرآن والشريعة وتمجيد الجهاد، فأخذ الطلاب يحلمون بالمجتمع الإسلامي المثالي في الوقت الذي تفشت فيه من حولهم الوحشية والفوضى. لقد كانوا يعيشون في ظلال آبائهم وأشقائهم الأكبر منهم الذين نجحوا في القضاء على القوة العظمى الجبارة، وكانوا يتوقون لصنع مجد لأنفسهم أيضًا. وكلما احتاج جيش طالبان إلى تعزيزات، كانت المدارس في بيشاور والمناطق القبلية ببساطة تغلق الفصول وترسل طلابها إلى الحرب وهم يكبرون والحافلات تنقلهم عبر الحدود. وبعد ستة أشهر من استسلام قندهار، بلغ عدد مقاتلي طالبان اثني عشر ألف مقاتل وتضاعف العدد مرة أخرى بعد ستة أشهر.

أما المصدر الثالث للتمويل فهو الأفيون. فبعد الاستيلاء على قندهار مباشرة، عززت طالبان سيطرتها على إقليم هلمند الذي يعد مركز زراعة الأفيون. وفي ظل حكم طالبان، تحولت أفغانستان إلى أكبر مزرعة للخشخاش في العالم، فكان المهربون وكبار

تجار المخدرات يعتمدون على طالبان لتأمين الطرق من قطاع الطرق، وفي المقابل يدفعون لهم ضريبة قدرها ١٠٪، التي أصبحت مصدرًا رئيسيًّا للدخل لطالبان.

يوجد في قندهار ضريح فيه ما يقال إنها عباءة النبي، ولا يُخرج ذلك الثوب الأثري من صندوقه الفضي إلا في الأزمات الشديدة، وآخر مرة حدث فيها ذلك كان قبل سبعين عامًا حين انتشر وباء الكوليرا في البلاد. وفي الرابع من أبريل/نيسان عام ١٩٩٦م، أخذ الملا عمر عباءة الرسول إلى مسجد في وسط المدينة، وبعد أن أعلن في الإذاعة أنه سيعرض الأثر المقدس أمام العامة، صعد سطح المسجد ولمدة ثلاثين دقيقة أخذ يستعرض وهو يرتدي العباءة، فابتهجت الجماهير المنفعلة لتنصيبه أميرًا للمؤمنين. وقد فقد بعض العامة وعيهم، في حين ألقى البعض الآخر قبعاتهم وعمائمهم في الهواء على أمل أن تمس الثوب المقدس.

كان أمل الإسلاميين في كل مكان بالطبع أن يتوحد دينهم مرة أخرى تحت حكم رجل صالح من المسلمين. وقد حاول الملوك والسلاطين في العالم الإسلامي ممارسة هذا الدور، ولكن أيًّا منهم لم يلف عباءة الرسول حول جسده مثلما فعل ذلك الملا المغمور. لقد كان ذلك تصرفًا منافيًا للعقل ولكن مثيرًا للمشاعر، نجح الملا عمر عن طريقه في الحصول على السلطة السياسية التي كان يحتاج إليها لمتابعة الحرب، لكن الأهم أن ذلك السلوك يعد، رمزيًّا، بأن تسيطر طالبان كقوة أخلاقية على أفغانستان بالكامل ثم تمد سلطانها إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وصلت عائلة بن لادن وبعض أتباعه إلى جلال أباد ليجدوا مساكن بدائية في انتظارهم؛ فهناك خيام لزوجاته محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة وبها مراحيض وقنوات لمياه الصرف الصحي. وبحلول الشتاء، تمكن بن لادن من توفير مسكن جديد للعائلات في مزرعة جماعية كانت ملكًا للسوفييت، وأطلق عليها اسم نجم الجهاد. وقد أقام الرجال في مكان قريب في كهف تخزين الذخيرة القديم الذي شقه بن لادن في تورا بورا. وقام بن لادن بتزويد الكهف الرئيسي بمخزن بنادق كلاشينكوف ومكتبة دينية وأرشيف من قصاصات الجرائد، ومرتبتين وضعتا فوق العديد من صناديق القنابل اليدوية.

عاد بن لادن مرة أخرى إلى عالم الأعمال فأقام مشروعًا متواضعًا لتجارة العسل، ولكن كانت أفغانستان تفتقر تقريبًا لأية بنية تحتية تجارية، لذا لم يكن بإمكانه فعل الكثير. وكانت الزوجات الثلاث اللائي بقين معه قد اعتدن على حياة الصعاب

twitter @baghdad_library

التي يهواها بن لادن بطبيعته. ولم يعد هو يمارس عادته القديمة بذبح حمل كل يوم لإكرام ضيوفه، فأصبح نادرًا ما يأكل اللحم ويفضل العيش على التمر واللبن والزبادي والخبز. وكانت الكهرباء متاحة لمدة ثلاث ساعات فقط يوميًّا، ونظرًا لأنه لم تكن هناك خطوط هاتفية دولية، فقد كانت زوجاته معزولات تمامًا عن عائلاتهن في سوريا والسعودية. وكان لدى بن لادن هاتف متصل بالأقمار الصناعية، ولكنه كان نادرًا ما يتحدث فيه معتقدًا أن الأمريكيين يراقبون مكالماته، وكان يشك في الآلات الميكانيكية بصفة عامة، حتى ساعات الحائط التي رأى أنه يمكن استخدامها للمراقبة.

وعلى أية حال، كانت طالبان هي المصدر الرئيسي لقلق بن لادن، ولم تكن لديه أية فكرة عمن هم بالضبط. وقد نشر رجال القبائل القلقين في المنطقة الشمالية، إشاعات أن طالبان جيش ضخم من الشيوعيين. وعندما قُتِل اثنان من قادة المجاهدين، الحاكم محمود ومولوي سازنور، في كمين بعد مدة قصيرة من سقوط جلال أباد، شعر بن لادن بقلق شديد حتى إنه علَّم زوجاته كيف يطلقن الرصاص.

كان لدى طالبان بعض المعلومات عن بن لادن، ومع ذلك كانوا يشعرون بالقلق تجاهه بقدر قلقه منهم. وقد أعلن القائم بأعمال وزير الإعلام الطالباني: «إننا لا نريد أن تُوجه أية أعمال تخريبية ضد أي بلد آخر من هنا، فلا يوجد إرهابيون في المناطق التي تقع تحت حكم طالبان.» ولكنهم سمعوا أيضًا بالملايين التي أغرق بها السودان وظنوا أنه لا يزال متصدقًا إسلاميًّا ثريًّا، وأملوا أن يستغلوا أمواله وخبرته في إعادة بناء البلد المحطم. وكان الملا عمر يضع نصب عينيه أيضًا العهد الذي قطعه على نفسه، والذي دعمه ولا شك عدة ملايين من الريالات السعودية، بأن يبقي ضيفه صامتًا وبعيدًا عن المتاعب.

بعد سقوط جلال أباد، نجحت قوات طالبان أخيرًا في دخول كابول. فاقتحم المقاتلون الشباب المنتصرون مبنى الأمم المتحدة الذي لجأ إليه نجيب الله، الرئيس الأفغاني السابق من العهد الشيوعي، منذ سقوط الحكومة قبل أربع سنوات. وعندما ألقوا القبض عليه، تعرض هو وأخوه للضرب والتعذيب والإخصاء وعذبوهما بربطهما في سيارة جيب انطلقت لتجرهما وراءها، ثم أطلقوا النار عليهما وعلقوهما على عمود لإشارات المرور في وسط مدينة كابول بعد أن وضعوا السجائر في فميهما وملئوا جيوبهما بالنقود. وفي الواقع، لم يكن هناك ما يدفع إلى الحزن على رجل بدأ حياته العملية متخصصًا في تعذيب السجناء في الشرطة السرية، ولكن ذلك التجاهل الصريح

للبروتوكول الدولي والبربرية التي لا تكترث لشيء التي تعاملوا بها معه والتمثيل بجثته، وهو الأمر المحرم في الإسلام، وغياب أي أثر لمحاكمة عادلة قد مهد الطريق أمام الاستبداد الديني الذي ميز عهد طالبان. وسرعان ما أعلنت السعودية وباكستان، الدولتان الرئيسيتان المساندتان للحركة، اعترافهما بشرعية الحكومة الجديدة، ولم تنضم إليهما طوال حكم طالبان سوى دولة واحدة أخرى هي الإمارات العربية المتحدة.

أصدرت الحكومة الجديدة أوامر موجهة للنساء تقول: «أيتها النساء، يجب ألا تخرجن من منازلكن» حيث كانت النساء هدفًا خاصًا لها، كما هو متوقع من رجال ليست لديهم خبرة في التعامل مع النساء. وقد جاء في القرار الرسمي أيضًا: «إذا خرجت المرأة من منزلها وهي ترتدي ملابس أنيقة ومزخرفة وضيقة وجذابة ليراها الناس، فإنها ملعونة بحكم الشريعة الإسلامية ويجب ألا تنتظر أبدًا أن تدخل الجنة.» وعلى الفور توقف ذهاب النساء إلى مدارسهن وأعمالهن مما أدى إلى تدمير نظام الرعاية الصحية والخدمات المدنية وقضى على التعليم في المراحل الأساسية تقريبًا؛ فقد كان ٤٠٪ من الأطباء، ونصف موظفي الحكومة، وسبعة من كل عشرة مدرسين؛ من السيدات، وتحول العديد منهن في ظل حكم طالبان إلى متسولين.

وتحول انتباه طالبان أيضًا إلى مباهج الحياة العادية فمنعوا اللهو بالطائرات الورقية وسباقات الكلاب وذبحوا الحمام المدرب. وطبقًا لقانون العقوبات الطالباني جرى حظر على «الأشياء القذرة» في البلاد، وهي فئة شاملة تضمنت «الخنازير ولحومها وزيوتها وأي شيء مصنوع من شعر الإنسان، وأطباق الأقمار الصناعية وصناعة السينما وأية آلة تصدر صوتًا موسيقيًا، وطاولات البلياردو والشطرنج والأقنعة والكحوليات والشرائط وأجهزة الكمبيوتر وأجهزة الفيديو وأجهزة التليفزيون وأي شيء به موسيقى ويثير الغرائز الجنسية، والخمر وسرطان البحر وطلاء الأظافر والألعاب النارية والتماثيل وكتالوجات الخياطة والصور وبطاقات التهنئة بعيد الميلاد.»

وفرض هؤلاء الديكتاتوريون أن يزيد طول لحية الرجل عن قبضة يده، وكانوا يلقون بمن لا يلتزمون بهذه القواعد في السجن حتى يصل طول اللحية إلى ما يريدون، ويحلق شعر الرجل إذا أطلقه على طريقة «الخنافس». وإذا خرجت امرأة من منزلها دون حجاب، فإنه، طبقًا لقانون العقوبات «توضع علامة تميز منزلها ويعاقب زوجها»، أما الحيوانات الموجودة في حديقة الحيوانات، أو ما تبقى منها ولم

twitter @baghdad_library

يُسرَق في الإدارات السابقة، فقد ذُبحَت أو تُركَت لتموت جوعًا. ومن المواقف الطريفة في هذا الشأن أن عضوًا شديد الحماسة، أو ربما مجنونًا، من أعضاء طالبان، قفز إلى قفص الدب وقطع أنفه، وقد تردد أن السبب في هذا أن «لحية» الدب لم تكن طويلة بالقدر الكافي. وقفز مقاتل آخر أفقدته الأحداث الأخيرة وإحساسه بقوته صوابه إلى عرين الأسد وصرخ: «أنا الأسد الآن!»، فقتله الأسد، فألقى جندي آخر قنبلة يدوية في العرين مما أدى إلى إصابة الأسد بالعمى. وقد كان ذلك الدب الذي فقد أنفه والأسد الذي فقد بصره، بالإضافة إلى ذئبين، هي فقط من نجا من الحيوانات من الحكم الطالباني.

وكانت هناك لوحة معلقة على حائط مكتب الشرطة الدينية كتب عليها: «ألق بالعقل إلى الكلاب، فإنه مليء بالفساد»، ومع ذلك، فقد رحب الشعب الأفغاني الذي أرهقته الحروب في البداية بفرض ذلك النظام الذي كلفه الكثير.

في الوقت الذي كان بن لادن يستقر فيه بجلال أباد، كان صديقه وقائده العسكري أبو عبيدة في شرق أفريقيا يشرف على خلية القاعدة التي تمت زراعتها هناك قبل عامين. وقد كان ذلك الضابط السابق في الشرطة المصرية رجلًا يشار إليه بالبنان في القاعدة، ويضرب به المثل في الشجاعة. وكان مع بن لادن في أثناء الحرب ضد السوفييت منذ معركة المأسدة وحتى حصار جلال أباد. وقد قال البعض: إنه إذا كان الظواهري قد نجح في السيطرة على عقل بن لادن، فإن أبا عبيدة استحوذ على قلبه، فقد كان أكثر رسول يثق به، وغالبًا ما كان يلعب دور الوسيط بين القاعدة وجماعة الجهاد. وقام أبو عبيدة بتدريب المجاهدين في البوسنة والشيشان وكشمير وطاجيكستان ونجح في استقطاب عناصر ماهرة إلى معسكرات القاعدة. وفي كينيا، انتحل هوية جديدة وتزوج سيدة كينية مدعيًا أنه يعمل في مجال التعدين، في حين أنه كان في حقيقة الأمر يعد لأول ضربة قوية توجهها القاعدة لأمريكا.

وفي الحادي والعشرين من مايو/أيار، أي بعد ثلاثة أيام من خروج بن لادن من السودان إلى أفغانستان، كان أبو عبيدة وشقيق زوجته الكينية أشيف محمد جمعة، في غرفة درجة ثانية في مركب محملة بحمل زائد في بحيرة فيكتوريا في طريقهما إلى تنزانيا، وكان أحد صهاريج مياه الصابورة لحفظ توازن السفينة فارغًا، وفي الصباح الباكر تقلبت المركب وسط الأمواج الهائجة، وقد تمكن جمعة من الخروج من باب الغرفة إلى الممر، ولكن المسافرين الخمسة الآخرين المحتشدين في المقصورة بالغة

الصغر لم يتمكنوا من الخروج. وكان الباب في ذلك الوقت قد أصبح فوقهم والمياه تتدافع إلى الغرفة من مدخل مفتوح. أخذ المسافرون يصرخون والحقائب والفُرش تقع فوقهم وكان كل منهم يتمسك بالآخر محاولًا الوصول إلى الباب، مخرجهم الوحيد. تمكن جمعة من الإمساك بيد أبي عبيدة وجذبه حتى منتصف الطريق خارج الغرفة، ولكن فجأة خُلِع الباب من مفصلاته، وسُحِب القائد العسكري للقاعدة إلى الغرفة مرة أخرى على يد رفاقه الهالكين.

لقد كان ذلك الوقت أسوأ ما مر به بن لادن في حياته العملية. فلم يكن موت أبي عبيدة الخسارة الوحيدة التي تكبدها، ولكن بعض الأعضاء الآخرين مثل أبي هاجر اختاروا ألا يتبعوه إلى أفغانستان. وهكذا وجد السعودي نفسه وحيدًا مجردًا من ثروته التي كانت في يوم من الأيام طائلة، وأصبح يعتمد على ضيافة قوة لا يعرفها، ومع ذلك لم يخضع أو تنكسر شوكته. فقد كان بن لادن يعيش حياته في عالمين: الوجودي والروحاني المقدس. فمن المؤكد أن رحلته إلى جلال أباد والخزي الذي شعر به بسبب وضعه آنذاك، من ناحية، يشكل صدمة شديدة له كشخص منفي لا يرى بريقًا واحدًا من الأمل. أما على المستوى الروحاني، فقد أعادت تلك الأحداث إلى ذهنه لحظة حرجة في حياة الرسول عندما خرج من مكة إلى المدينة المنورة عام ٦٢٢م بعد أن نبذه أهل مكة وسخروا منه. وقد كانت هجرة الرسول نقطة تحول خطيرة حتى إن التقويم الإسلامي بدأ بها. لقد غيرت الهجرة حياة الرسول وأتباعه مثبطي الهمم. وفي غضون سنوات قليلة اندفع دينهم الوليد خارج المدينة لينتشر من أسبانيا إلى الصين بسرعة خاطفة في حملات الغزو واهتداء الناس للدين الجديد.

ومنذ طفولته، كان بن لادن يحاول عمدًا أن يتأسى في حياته بجوانب محددة من حياة الرسول؛ فيصوم في الأيام التي كان الرسول يصومها، ويرتدي ثيابًا كتلك التي قد يكون الرسول ارتداها، بل يجلس ويأكل بالأسلوب نفسه الذي ورد عن الرسول في سنته. ومع أن هذا الأمر ليس غريبًا على مسلم متشدد، فإن بن لادن كان، على نحو غريزي، يشير إلى الرسول وعصره كنموذج لحياته وزمنه هو، ولم يعر الحقبة التاريخية التي فصلت بين العصرين اهتمامًا. وبطبيعة الحال، فقد اتجه بن لادن إلى سيرة النبي بحثًا عما يهون عليه مرحلة الهزيمة والتقهقر التي يمر بها. وعلى أية حال، فقد كان ذكيًا بدرجة كافية أيضًا ليدرك القوة الرمزية لهجرته وفائدتها كوسيلة لإلهام أتباعه ودعوة المسلمين الآخرين للانضمام إليه في هجرته المقدسة.

twitter @baghdad_library

لقد نجح بن لادن بعبقرية في إعادة تصوير الكارثة التي ألمت به هو وتنظيمه عن طريق استحضار رموز ثرية بالمعاني في نظر العديد من المسلمين ولا يدركها تقريبًا من ليست لديهم خلفية عن الدين.

كانت أفغانستان مشهورة بالفعل بأنها أرض معجزات واستشهاد للمسلمين وهزيمة القوة العظمى، وقد أطلق بن لادن عليها اسم خراسان، إشارة للإمبراطورية الإسلامية القديمة التي كانت يومًا تضم جزءًا كبيرًا من آسيا الوسطى، وأطلق أتباعه على أنفسهم أسماء تعود إلى أصحاب النبي أو إلى محاربين عظماء من العهد الأول للإسلام. وهناك حديث عن النبي مختلف على صحته يقول: إنه في آخر الزمان ستخرج جيوش الإسلام رافعة أعلامًا سوداء (مثل تلك التي ترفعها طالبان) من خراسان، وستكون أسماؤهم مستعارة ومنسوبين إلى بلادهم، مثل الأسلوب الذي يتبعه جيش القاعدة في اختيار الأسماء. وقد كانت جميع هذه الإشارات تساعد على خلق صلة بعصر ذهبي انقضى، وتذكر المسلمين بخسارتهم الفادحة.

وعلى أية حال، فإن الرمز الأساسي في هجرة بن لادن هو الكهف؛ فعندما قابل الرسول لأول مرة الملاك جبريل الذي أوحى إليه «إنك رسول الله»، كان ذلك في كهف في مكة. ومرة أخرى في المدينة عندما لحق به أعداؤه، اختبأ في كهف مموه بطريقة سحرية بنسيج عنكبوت. والفن الإسلامي مليء بصور الكهوف التي تشير إلى المأوى ومكان تلقي الوحي، كما كان بالنسبة للنبي. وفي نظر بن لادن، كان الكهف هو آخر مكان طاهر في الأرض، ولا يمكنه التجرؤ والحديث عن الدين الحق إلا إذا هاجر من المجتمع، ومن الزمن والتاريخ والعصرية والفساد والغرب الذي يحاول قمع العالم. لقد كانت عبقرية من بن لادن في مجال العلاقات العامة أن يختار استغلال وجود كهوف الذخيرة في تورا بورا كطريقة لخلق أوجه تطابق بينه وبين الرسول في عقول الكثير من المسلمين الذين يتلهفون لتطهير المجتمع الإسلامي واستعادة سلطانه السابق.

أما على المستوى الدنيوي، فقد كان بن لادن مهمشًا بعيدًا عن مسرح الأحداث، ولكن داخل شرنقة الأسطورة التي نسجها حول نفسه، كان يتحول إلى ممثل عن جميع المسلمين المضطهدين والمهانين. وكانت حياته والرموز التي يتدثر بها تجسد بقوة الإحساس المتغلغل بالخسارة وفقد المكانة الذي يميز العالم الإسلامي الحديث. وفي منفاه التعيس، استوعب مأساة رفاقه المؤمنين، ومنحته خسارته الحق في أن

يتحدث نيابة عنهم، وأصبح يؤمن أن انتقامه لهم هو ما سيخفف معاناتهم. والعلاج الذي توصل إليه بن لادن هو إعلان الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية.

في الثالث والعشرين من أغسطس/آب عام ١٩٩٦م، أصدر بن لادن بيانًا أطلق عليه «إعلان الحرب على الأمريكان الذين يحتلون أرض الحرمين الشريفين»، وجاء فيه: «إنكم لستم بغافلين عما وقع على المسلمين من ظلم وقهر وعدوان من تحالف اليهود والمسيحيين وعملائهم، حتى إن دماء المسلمين أصبحت أرخص الدماء، وأموالهم وثرواتهم ينهبها أعداؤهم.» وآخر هذه الإهانات، أو كما وصفها بن لادن: «واحدة من أسوأ الكوارث التي سقطت على رءوس المسلمين منذ وفاة النبي» هي وجود الأمريكيين وقوات التحالف في المملكة العربية السعودية. وكان هدف هذه الرسالة، كما أوضح: «أن نتشاور ونبحث ونناقش وسائل لتدارك ما حل بالعالم الإسلامي بوجه عام، وأرض الحرمين الشريفين بوجه خاص.»

وقال بن لادن معبرًا عن رأي الشارع الإسلامي: «الجميع يشكون من كل شيء. فأصبحت ظروف المعيشة هي ما يشغل بال الجميع، والجميع يتحدث عن التدهور الاقتصادي وارتفاع الأسعار وتراكم الديون وازدحام السجون.» أما المملكة العربية السعودية: «فالجميع يدرك أنها تتجه نحو الهاوية.» وقد تجاهل النظام الحاكم أصوات القلة الشجاعة من السعوديين الذين واجهوه وطالبوا بالتغيير، وفي الوقت نفسه دفعت ديون الحرب الحكومة إلى فرض الضرائب، حتى، كما يقول بن لادن: «بدأ الشعب يتساءل: هل بلدنا حقًّا هي أكبر دولة مصدرة للبترول؟ ويشعرون أن الله يعذبهم لأنهم سكتوا عن ظلم النظام الحاكم.»

وبعد ذلك اتجه للسخرية من ويليام بيري، وزير الدفاع الأمريكي في ذلك الوقت قائلًا: «وسترى غدًا يا ويليام أي شاب يواجه إخوانك المضللون ... إن إرهابكم — وأنتم تحملون السلاح على أرضنا — هو أمر واجب شرعًا ومطلوب عقلًا.»

وكان بن لادن أبعد ما يكون عن القدرة على تنفيذ هذه التهديدات، حتى إن المرء ليستنتج أن مؤلف ذلك البيان مجنون تمامًا. وفي الواقع، لقد دخل الرجل الذي يعيش في الكهف عالمًا منفصلًا؛ عالمًا يرتبط بقوة بالعاطفة الأسطورية لهوية المسلمين ويرمز في حقيقة الأمر إلى أي شخص تتهدد ثقافته بالعصرية والبذاءة وضياع التقاليد. وبإعلان الحرب على الولايات المتحدة من كهف في أفغانستان، قلَّد

twitter @baghdad_library

بن لادن نفسه دور الرجل النقي ذي الفطرة السليمة الذي لا يقهر ويقف في وجه قوى المارد العلماني والعلمي والتكنولوجي المخيفة؛ لقد كان يقاتل العصرية نفسها.

ولم يهتم بن لادن، قطب البناء والتشييد، كثيرًا بأنه قد بنى ذلك الكهف باستخدام الآلات الثقيلة وأنه زوده بأجهزة الكمبيوتر الحديثة وأجهزة الاتصالات المتقدمة. لقد كان موقف الرجل ذي الفطرة السليمة قويًّا بدرجة تثير الإعجاب، لا سيما في نظر من خذلتهم الحياة العصرية، ولكن كان العقل الذي يفهم هذه الرمزية وكيفية استغلالها مثقفًا وعصريًّا إلى أبعد مدى.

بعد أن أقام بن لادن معسكره في تورا بورا بمدة قصيرة، وافق على مقابلة زائر اسمه خالد شيخ محمد. وكان بن لادن قد عرف محمدًا معرفة سطحية في أثناء الجهاد ضد السوفييت، عندما كان الأخير يعمل سكرتيرًا لدى سياف راعي بن لادن القديم، وعمل أيضًا لدى عبد الله عزام. والأهم من ذلك بكثير أن خالد شيخ محمد هو أحد أقرباء رمزي يوسف الذي فجَّر مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣م الذي كان معتقَلًا في ذلك الوقت، وقريبه هاربًا.

وفيما عدا كرههما لأمريكا، فإن خالد شيخ محمد وأسامة بن لادن لا يشتركان في شيء آخر تقريبًا. فكان محمد قصيرًا ممتلئ الجسم ولم يتلق تعليمًا دينيًّا جيدًا، وكان ممثلًا ومهرجًا وسكيرًا وزير نساء. وفي حين كان بن لادن يكره السفر، خاصة إلى الغرب، كان محمد كثير الترحال يحب أن يطوف العالم ويجيد العديد من اللغات منها الإنجليزية التي أتقنها في أثناء دراسته للهندسة الميكانيكية في جامعة ولاية كارولاينا الشمالية للعلوم الزراعية والتقنية، وهي كلية معظم طلابها من السود في مدينة جرينسبورو.

وفي تورا بورا، أخبر محمد بن لادن باختصار عما فعله في حياته منذ الجهاد ضد السوفييت. فبعد أن ألهمه هجوم رمزي يوسف على مركز التجارة العالمي بعض الأفكار، انضم إليه لمدة شهر في الفلبين عام ١٩٩٤م، وقد ابتكرا معًا خطة مذهلة لتفجير اثنتي عشرة طائرة أمريكية من طراز جامبو فوق المحيط الهادئ، وقد أطلقوا على تلك العملية اسم «بوجينكا»، وهي كلمة ليس لها معنى سمعها محمد عندما كان يقاتل في أفغانستان. وقد نجح رمزي يوسف، خبير صناعة القنابل، في صنع جهاز صغير من النيتروجليسرين لا تستطيع أجهزة الأمن في المطارات اكتشافه. وقد اختبره في رحلة جوية من مانيلا إلى طوكيو، فغادر يوسف الطائرة في مدينة سيبو، وهي مدينة تقع في واحدة من الجزر الوسطى من مجموعة جزر الفلبين، واتخذ

مكانه مسافر آخر اسمه هاروكي إيكيجامي Haruki Ikegami، مهندس ياباني في الرابعة والعشرين من عمره. وبعد ساعتين انفجرت القنبلة تحت مقعد إيكيجامي ومزقته إربًا وكادت تتسبب في سقوط الطائرة. وقد كان الهجوم الذي يعده يوسف ومحمد كفيلًا بأن يوقف رحلات الطيران الدولية تمامًا.

ومع أن بن لادن يزعم أنه لا يعرف يوسف شخصيًّا، فقد أرسل رسولًا إلى مانيلا يطلب منه أن يقدم له معروفًا ويغتال الرئيس بيل كلينتون عندما يزور مانيلا في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٩٤م. وبالفعل، وضع يوسف وأعوانه خطة مفصلة لطريق الرئيس وأرسلوا إلى بن لادن رسمًا تخطيطيًّا وصورًا وصفية للنقاط التي يمكنهم الهجوم منها، ولكن في نهاية الأمر رأى يوسف أن الحزام الأمني حول الرئيس محكم للغاية. وقد فكر الرجال بدلًا من ذلك في قتل البابا يوحنا بولس الثاني عندما جاء لزيارة المدينة في الشهر التالي، حتى إنهم فكروا في التنكر في زي قساوسة، ولكن هذه الخطة أيضًا لم تنفذ. وقد ألقت قوات الشرطة في مانيلا القبض عليهم بعد أن نشبت النيران في المواد الكيميائية التي يحتفظون بها في شقتهم، ولكن نجح يوسف في الفرار تاركًا وراءه جهاز الكمبيوتر الخاص به وعليه جميع خططهم مشفرة على القرص الصلب به.

وعلى أية حال، ظلت تلك الخطط في ذهن خالد شيخ محمد الذي جاء إلى بن لادن وفي جعبته ملف من الخطط لهجمات مستقبلية على الولايات المتحدة الأمريكية، منها خطة ستتطلب تدريب طيارين لضرب مبان بطائرات. ولم يلتزم بن لادن بشيء، مع أنه عرض رسميًّا على محمد الانضمام إلى القاعدة والانتقال هو وعائلته إلى أفغانستان، ولكن الأخير رفض بأسلوب مهذب لكن بعد أن زرع بذور فكرة هجمات ١١ سبتمبر/أيلول.

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

العمل الميداني

في الخامس والعشرين من يونيو/حزيران عام ١٩٩٦م، نظم جون أونيل نزهة خاصة لعملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي والمخابرات المركزية في مركز التدريب التابع للمكتب في مدينة كوانتيكو في ولاية فيرجينيا. وقُدِّمت في النزهة شطائر الهامبورجر والهوت دوج، وترك أونيل ضباط المخابرات يتدربون في ساحة التدريب على الرماية لأنه نادرًا ما تتاح لهم فرصة لإطلاق الرصاص. لقد كان يومًا جميلًا وممتعًا وذهب أونيل نفسه للعب مباراة جولف في ملعب كوانتيكو، وفجأة انطلق جهاز الاستدعاء الذي يحمله كل منهم.

لقد وقع انفجار مروع في المملكة العربية السعودية استهدف مجمعًا سكنيًّا عسكريًّا في أبراج الخُبر في الظهران. وكان ذلك المبنى يضم ثكنات جناح النقل الجوي رقم ٤٤٠٤، التي كانت تطبق على العراق قرار الحظر الجوي. وراح ضحية ذلك الانفجار تسعة عشر جنديًّا أمريكيًّا وأصيب ما يقرب من أربعمائة شخص. استدعى أونيل فريقًا يتكون من أكثر من مائة عميل وفني متخصص وأعضاء من أجهزة الأمن المختلفة. وفي اليوم التالي، كانوا جميعًا على متن طائرة تابعة للقوات الجوية تقلهم إلى المملكة العربية السعودية، وبعد أسابيع قليلة، انضم إليهم أونيل بنفسه ومعه لويس فريه، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي.

كان فريه رجلًا نحيفًا ووقورًا ويتناقض في طبيعته مع أونيل في العديد من الجوانب؛ فكان مدير مكتب التحقيقات يفتخر بأنه رجل يهتم كثيرًا بعائلته، فيغادر مكتبه عادةً في السادسة مساء كي يعود إلى منزله ويقضي وقته مع زوجته وأطفاله. وعلى عكس أونيل الذي كان معجبًا بالتكنولوجيا الحديثة ولديه دائمًا أحدث مفكرة إليكترونية ويحمل في جيبه أحدث هاتف محمول، كان فريه يسأم وسائل التكنولوجيا الحديثة. ومن أول ما قام به بعد أن تقلد المنصب عام ١٩٩٣م كان التخلص من

الكمبيوتر الموجود على مكتبه. وكان المكتب متخلفًا تكنولوجيًا حتى قبل أن يتولى فريه إدارته، ولكن عندما ترك فريه المنصب، كانت أجهزة مكتب التحقيقات الفيدرالي عتيقة حتى إن المؤسسات الخيرية لم تكن لتقبلها تبرعات. وعلى غرار العديد من مرءوسيه من الرجال، كان فريه يميل إلى ارتداء الحُلَل الرخيصة والأحذية البالية، الأمر الذي جعله يقف على حد النقيض مع مرءوسه أونيل الذي كان يشتري أفخم الحُلل ذات الخيوط الرفيعة من تصميم بوربيري وأفخم الأحذية من ماركة برونو ماجلي.

وصل الرجلان ومعهما فريق تنفيذي صغير إلى الظهران في المساء. وكان موقع الحادث مثل فوهة بركانية هائلة يصل عرضها إلى خمسة وثمانين قدمًا وعمقها إلى خمسة وثلاثين قدمًا مضاءة بكشافات قوية موضوعة على أعمدة عالية، وبالقرب منها سيارات متفحمة وسيارات هامفي الحربية مقلوبة على جانبها، وتلوح فوق الحطام أنقاض المجمع السكني. وكانت القنبلة التي تسببت في ذلك الانفجار أكبر بكثير من تلك التي استخدمت في تدمير مركز تدريب الحرس الوطني السعودي قبل عام، بل أقوى من المتفجرات التي قتلت ١٦٨ شخصًا في مدينة أوكلاهوما عام ١٩٩٥م. سار أونيل بين الأنقاض يعانق العملاء المرهقين الذين كانوا يبحثون في الرمال بدقة متناهية عن أي دليل، ويجمعون بدأب ومثابرة الممتلكات الشخصية في حقائب. وكانت الأشلاء لا تزال ترقد على الرمال مشارًا إليها بدوائر من الطلاء الأحمر، وبالقرب منها تحت مظلة من القماش المشمع (التربولين) كان المحققون يعيدون بالتدريج تركيب بقايا الشاحنة التي حملت القنبلة.

وكانت العقبات التي يضعها المحققون السعوديون في طريق عملاء مكتب التحقيقات في موقع الحادث تثبط من عزيمتهم. فلم يُسمح لهم بالتحدث إلى الشهود أو استجواب المشتبه بهم، بل لم يكن بإمكانهم في الواقع مغادرة موقع التفجيرات. وفي نظر العملاء، كان السعوديون يعوقون التحقيقات لأنهم لا يريدون أن يفضحوا وجود معارضة داخلية في المملكة. وكان الانطباع السائد بينهم، الذي كونه سريعًا العملاء من غير ذوي الخبرة في شئون الشرق الأوسط، هو أن العائلة المالكة السعودية تتشبث بالحكم بصعوبة.

كان فريه في بداية الأمر متفائلًا أن السعوديين سيتعاونون معهم، ولكن تزايد إحباط أونيل يومًا بعد يوم عندما تتحول الاجتماعات التي كانوا يعقدونها في وقت متأخر من الليل إلى جلسات سمر ومزاح. وفي طريقهما عائدين إلى أمريكا من إحدى

twitter @baghdad_library

الرحلات العديدة التي قاما بها معًا إلى المملكة، بدا فريه متفائلًا وقال: «ألم تكن تلك الرحلة رائعة؟ أعتقد أنهم سيساعدوننا حقًّا.»

ولكن أونيل أجابه: «لا بد أنك تمزح؛ إنهم لم يمنحونا أي شيء، إنهم لم يفعلوا شيئًا سوى خداعك.»

وطوال ما تبقى من الرحلة، رفض فريه التحدث إلى أونيل، ولكن لأنه كان يدرك مدى براعة أونيل واهتمامه بالقضية، فقد أرسله مرة أخرى إلى المملكة لمواصلة محاولات حث السعوديين على التعاون. وقد قابل أونيل الأمير نايف وبعض المسئولين الآخرين الذين استمعوا إلى طلباته على مضض. إن أجهزة المخابرات في جميع أنحاء العالم تشتهر بالارتياب والتعصب ولا تميل إلى مشاركة المعلومات، وهو ما كان أونيل يقدره جيدًا، وكان قد اعتاد السعي للحصول على ما يريد باللباقة والإلحاح، ولكن كان من الواضح أن وسائله تلك لم تجد نفعًا مع السعوديين فقد كانوا متكتمين أكثر من أية جهة أمنية أخرى تعامل معها في حياته. وقد اشتعل غضب الأمريكيين عندما علموا أن السلطات السعودية اعترضت قبل بضعة أشهر طريق سيارة قادمة من لبنان محملة بمتفجرات وفي طريقها إلى الخُبر، وكان نايف هو من قرر ألا يطلع نظراءه الأمريكيين على هذه المعلومات.

فبالإضافة إلى ثقافة السعوديين المتحفظة المترسخة بداخلهم، كان لديهم أسباب قانونية تبرر حذرهم في التعامل مع الأمريكيين. فنظرًا لأن المملكة تحكمها قوانين الشريعة الإسلامية، للقضاة كامل الحق في تجاهل أي دليل لا يأبهون لسماعه، مثل الأدلة التي تصل عن طريق الوكالات الأجنبية. كان السعوديون يخشون أن يتسبب تدخل مكتب التحقيقات الفيدرالي في إفساد القضية. وقد نجح أونيل في التوصل إلى اتفاق يسمح لعملاء مكتب التحقيقات بالتحدث إلى المشتبه بهم عبر زجاج عاكس مما يمنح المكتب ما يريد، وفي الوقت نفسه يحافظ على الجدار العازل بينهما الذي يصر عليه السعوديون.

وعندما بدأت الأدلة تشير إلى احتمال أن يكون الجناة الذين يقفون وراء التفجيرات إرهابيين تدعمهم إيران، تردد السعوديون في الاستمرار في التحقيقات خوفًا مما يمكن أن يفعله الأمريكيون إذا ثبت تورط إيران، وهو ما حدث بالفعل بعد وقت قصير. فقد أشارت تحقيقات السعوديين أنفسهم بأصابع الاتهام إلى فرع من حزب الله داخل المملكة، ولكن لم يكن فرض عقوبات اقتصادية ودبلوماسية على إيران واردًا لأن الأوروبيين لن يوافقوا. وقد قال أحد السعوديين لأونيل: «ربما

ليس لديكم خيارات، فإذا أردتم الرد عسكريًّا، ماذا ستقصفون؟ هل ستوجهون لهم ضربة نووية؟ هل ستدمرون منشآتهم العسكرية؟ أم ستدمرون معامل تكرير البترول لديهم؟ وماذا ستحققون؟ إننا جيرانهم، أما أنتم فعلى بعد ستة آلاف ميل.»

ولكن في العصر الجديد الذي امتدت فيه سلطة مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى جميع أنحاء العالم، كان أونيل يعرف أن حل القضية شيء، وتحقيق العدالة شيء آخر.

كان أونيل يتوق لمغادرة من واشنطن و«الاشتراك في عمليات ميدانية»، فقد كان يريد العودة مرة أخرى لتولي مهمة الإشراف على قضايا. وفي يناير/كانون الثاني من عام ١٩٩٧م، أصبح أونيل عميلًا خاصًّا مسئولًا عن قسم الأمن القومي في نيويورك، وهو أكبر مكتب ميداني تابع لمكتب التحقيقات وأكثرها مكانة. وعندما وصل إلى هناك، أفرغ أربع علب من بطاقات التعارف على مكتب سكرتيرته الجديدة لورين دي ترانتو Lorraine di Taranto، ثم أعطاها قائمة بأسماء جميع الأشخاص الذين يريد مقابلتهم، عمدة المدينة ومفوض الشرطة ونواب مفوضي الشرطة ورؤساء الوكالات الفيدرالية وقادة الجماعات الدينية والعرقية في الضواحي الخمس للمدينة. وفي غضون ستة أشهر، أنهى أونيل قائمة مقابلاته تمامًا.

وهكذا بدا أونيل كأنه قضى حياته بالكامل في نيويورك، لقد كانت المدينة بالكامل مسرحًا كبيرًا يلعب فيه أونيل دور البطولة. فقد وقف مع جون كاردينال أوكونور John Cardinal O'Connor، رئيس أساقفة نيويورك، على منبر كاتدرائية سانت باتريك في يوم الاحتفال بعيد القديس باتريك، وكان يحضر الصلاة مع أئمة المسلمين في بروكلين. وكان أبرز نجوم الرياضة والسينما مثل روبرت دي نيرو Robert De Niro يستشيرونه ويعتبرونه صديقهم. وقد قال له أحد أصدقائه بعد سهرة لوقت متأخر من الليل عندما بدا أن الجميع ينحنون أمامه: «يبدو أنك قد أحكمت قبضتك على هذه المدينة يا جون»، فأجابه أونيل: «ما فائدة أن تكون الشريف في بلدة إذا لم تستطع التصرف كشريف حقيقي؟!»

أصبح أونيل مسئولًا عن مكافحة الإرهاب ومكافحة الجاسوسية في مدينة مليئة بالمهاجرين والجواسيس والدبلوماسيين المشبوهين. وكانت الفرقة المسئولة عن شئون الشرق الأوسط يطلق عليها بلغة الدوائر البيروقراطية المبهمة: الفرقة I-49. وكان

twitter @baghdad_library

موظفو تلك الفرقة يقضون أغلب وقتهم في مراقبة السودانيين والمصريين والإسرائيليين الذين كانوا يعملون بنشاط في تجنيد العملاء في نيويورك.

كان معظم أعضاء الفرقة من أبناء نيويورك الذين يعملون في مدينتهم، ومن بينهم لويس نابولي Louis Napoli وهو محقق من شرطة نيويورك كُلِّفَ العملَ في الفرقة I-49 من قوة العمل المشتركة لمكافحة الإرهاب JTTF. وكان نابولي لا يزال يعيش في المنزل نفسه في بروكلين الذي نشأ وترعرع فيه. وكذلك الأخوان جون ومايك أنتيسيف John Anticev وMike Anticev من بروكلين أيضًا، وهما ابنا مهاجرين كرواتيين، أما ريتشارد كارنيفتش Richard Karniewicz فهو ابن مهاجرين بولنديين ولكنه ولد في بروكلين وكان يعزف موسيقى البولكا على آلة الأكورديون. وكانت الفرقة تضم أيضًا جاك كلونان Jack Cloonan الذي نشأ في مدينة والثام في ولاية ماساشوسيتس، ولم تكن لكنته فقط هي ما يميزه ولكنه كان أيضًا متخصصًا في اللغة الإنجليزية واللاتينية، انضم إلى المكتب عام ١٩٧٢م في اليوم نفسه الذي توفي فيه المدير إدجار هوفر. أما كارل سومرلين Carl Summerlin فقد كان عميلًا أسود البشرة من شرطة نيويورك وبطل تنس سابق. وكان كيفن كروز Kevin Cruise خريج جامعة ويست بوينت ونقيبًا سابقًا في الوحدة الثانية والثمانين للنقل الجوي. أما العميلة ماري ديبورا دوران Mary Deborah Doran فقد كانت ابنة عميل فيدرالي وقد عملت في مجلس العلاقات الخارجية قبل أن تذهب إلى أيرلندا الشمالية للدراسات العليا في التاريخ الأيرلندي. وكان يشرف عليهم توم لانج Tom Lang، وهو رجل أيرلندي فظ وبغيض وسريع الغضب من ضاحية كوينز، وكان يعرف أونيل منذ أيام عملهما مرشدين سياحيين في المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي. وقد كان بعض أعضاء الفرقة، مثل لانج والأخوين أنتيسيف، يعمل في مجال مكافحة الإرهاب منذ سنوات، أما البعض الآخر، مثل دوران التي انضمت إلى المكتب في عام ١٩٩٦م وعُيِّنَت في مكتب نيويورك قبل شهر من تولي أونيل منصبه الجديد، فقد كانوا جددًا على الفرقة. وقد انضم المزيد من الأعضاء لهذه الفرقة بعد وقت قصير، ولكن كان هؤلاء العملاء السبعة والضابط من وحدة شرطة المدينة ومحقق الشرطة هم النواة الأولى للفرقة. أما العضو الآخر في الفرقة فهو دانيال كولمان الذي نُقِل إلى وحدة المخابرات المسئولة عن تعقب أسامة بن لادن، التي عرفت باسم أليك ستيشن، والذي كان يعمل بدأب وحده على تلك القضية.

وعلى أية حال، عندما وصل أونيل كان معظم أعضاء الفرقة I-49 قد تحولوا للعمل على قضية تحطم طائرة الرحلة رقم ٨٠٠ التابعة لشركة ترانس وورلد إيرلاينز التي وقعت بعيدًا عن شواطئ جزيرة لونج آيلاند في يوليو/تموز من عام ١٩٩٦م. وقد أفاد العشرات من الشهود أنهم رأوا خيطًا متصاعدًا من اللهب انتهى بانفجار في وسط السماء. وقد بدا هذا الحادث واحدًا من أفظع الأعمال الإرهابية في التاريخ الأمريكي، فحشد المكتب جميع موارده الهائلة لحل لغز الجريمة بأسرع وقت ممكن. في الواقع، لقد كانت التحقيقات في حادثي تفجير أبراج الخُبر وانفجار طائرة ترانس وورلد إيرلاينز تستنفدان جميع العناصر البشرية في المكتب دون أن يلوح أمامهم حل.

في البداية، اعتقد المحققون أن أتباع الشيخ عمر عبد الرحمن فجروا الطائرة أوأسقطوها انتقامًا لزعيمهم الذي كان يُحاكم في نيويورك آنذاك. ولكن بعد ثلاثة أشهر من التحقيقات، توصلوا إلى أن الطائرة تعرضت لخلل ميكانيكي غريب. فأصبحت القضية إلى حد بعيد مشكلة علاقات عامة؛ ففي ظل وجود شهود عيان على الحادث، لم يعرف المكتب كيف يشرح ما توصل إليه للشعب المتشكك. فاستمر العملاء المحبطون في بحثهم الدقيق في أنقاض الطائرة التي كانت تُجَمَّع قطعة قطعة مرة أخرى في حظيرة طائرات على جزيرة لونج آيلاند.

أراد أونيل استعادة أعضاء فريقه، فتمكن بالتعاون مع وزارة الدفاع من تحديد الارتفاع الذي كانت عليه الطائرة والمسافة التي تفصلها عن الشاطئ وقت الانفجار. ثم أوضح أنها كانت بعيدة عن المدى الذي يصل إليه صاروخ ستينجر، التفسير الأرجح لخيط الدخان الذي رآه الشهود. وقد اقترح أونيل أن اللهب قد يكون بسبب اشتعال بعض الوقود المتسرب من الطائرة. ثم أقنع وكالة المخابرات الأمريكية بصنع محاكاة فيديو للسيناريو الذي وضعه، فثبت أنها مشابهة بصورة مذهلة لقصة الشهود. وبهذا، تمكن أونيل من التحول للعمل على قضية بن لادن.

سميت وحدة أليك ستيشن بهذا الاسم تيمنًا باسم الابن الكوري الذي تبناه مايكل شوير Michael Scheuer، نظير أونيل متقلب المزاج في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. ولأول مرة كان المكتب والوكالة يعملان معًا في مشروع واحد؛ وهي شراكة صعبة ومربكة والأولى من نوعها. وفي نظر شوير، كان مكتب التحقيقات الفيدرالي يريد فقط زرع جاسوس داخل أليك ستيشن لكي يسرق أكبر قدر ممكن من المعلومات،

twitter @baghdad_library

إلا أنه وجد نفسه على مضض يحترم دانيال كولمان الذي يعد أول عميل لمكتب التحقيقات يدخل نطاق نفوذه. كان كولمان بدين الجسد أشعث الشعر والشارب أيضًا اللذين كانا يرفضان البقاء ممشطين، وكان حاد الطباع (فكان زملاؤه في مكتب التحقيقات يطلقون عليه من ورائه «سانتا كلوز الفَظّ»)، إلا أنه كان بعيدًا كل البعد عن الخيلاء التي عُرفت عن رجال مكتب التحقيقات، والتي كان شوير يحتقرها كثيرًا. وكان من الممكن أن يكون التخلص من كولمان سهلًا بوصفه بيروقراطيًّا آخر لا يجيد شيئًا لولا أنه كان ذكيًّا ومهذبًا وهي أكثر الصفات التي تروق لشوير. ولكن كان هناك صراع أساسي بين كل من المؤسستين لم تتمكن الصداقة الشخصية من تخطيه؛ فقد كانت مهمة كولمان بصفته عميلًا فيدراليًّا هي أن يجمع الأدلة بهدف توجيه تهمة لبن لادن وإدانته في نهاية المطاف، أما شوير، ضابط المخابرات، فقد رأى منذ وقت مبكر أن أفضل طريقة للتعامل مع بن لادن هي، ببساطة، قتله.

ومع أن كولمان كان يقدم تقاريره لرؤسائه في مكتب التحقيقات الفيدرالي على أكمل وجه، فقد كان الشخص الوحيد الذي يهتم حقًّا بكل ما يتوصل إليه هو أونيل، الذي قابله لأول مرة في إحدى جلسات ريتشارد كلارك لتقديم التقارير الموجزة في البيت الأبيض. ولقد كان أونيل معجبًا بشدة بالمنشق السعودي في الوقت الذي كان من النادر أن تجد فيه أي شخص، حتى في مكتب التحقيقات الفيدرالي، يعرف من هو أسامة بن لادن. بالإضافة إلى ذلك، فقد حقق كولمان قبل بضعة أشهر من وصول أونيل إلى نيويورك مع جمال الفضل الذي انشق عن تنظيم القاعدة وفضح وجود التنظيم الإرهابي وطموحه العالمي. وفي الأسابيع العديدة التي قضاها مع الفضل في منزل آمن في ألمانيا يستخلص منه معلومات عن هيكل التنظيم وشخصيات قادته، توصل كولمان إلى أن أمريكا تواجه تهديدًا جديدًا وخطيرًا. ومع ذلك، فلم تجد تقاريره أي رد فعل حقيقي خارج دائرة صغيرة من المدعين العامين وعدد قليل من رجال المخابرات ومكتب التحقيقات الذين كانوا يهتمون بالأمر، أي شوير وأونيل في المقام الأول.

لقد كانا هما المسئولين الأساسيين عن وضع نهاية لبن لادن والقاعدة، إلا أن كلًّا منهما كان يبغض الآخر بشدة، وهو الشعور الذي عكس العداء المتأصل بين الجهتين اللتين يمثلانهما. ومنذ البداية، كانت العلاقات الشخصية السيئة والحرب بين المنظمتين اللتين يمثلهما هذان الرجلان هي ما يعوق تعامل المخابرات الأمريكية مع التحدي الذي تمثله القاعدة. وقد وقع كولمان بين هذين الشخصين الشرسين

العنيدين والماهرين أيضًا اللذين كانا في صراع دائم حول قضية، ألا وهي بن لادن، لا تهتم بها أي من مؤسستيهما.

وفي مكتبه الصغير في أليك ستيشن، استمر دانيال كولمان في تتبع الخيوط التي توصل إليها من حديثه مع جمال الفضل. وأخذ يفحص نصوص المكالمات الهاتفية المرتبطة بأعمال بن لادن في الخرطوم التي جرى التنصت عليها. ومن بين تلك الأرقام رقم في نيروبي في كينيا يتلقى اتصالات بصورة متكررة يخص وديع الحاج، سكرتير بن لادن السابق. وقد تمت ترجمة معظم أحاديث الحاج التي كانت باللغة العربية، ولكن البعض الآخر كان باللغة الإنجليزية خاصة عندما كان يتحدث إلى زوجته الأمريكية. وكان في أغلب الأحيان يقوم بمحاولات خرقاء للتحدث بالشفرة، ولكن زوجته أبت أن تفهمها؛ فعلى سبيل المثال، دار الحوار الآتي بينهما في إحدى المكالمات الهاتفية:

- «أرسلي عشر أوراق خضر، اتفقنا؟»
- «عشر أوراق حمر؟»
- «خضر.»
- «آه، تقصد نقود.»
- فأجابها ساخرًا: «شكرًا جزيلًا.»

كان كولمان مهتمًّا بوديع الحاج الذي كان من الواضح أنه، على الرغم من أسلوبه الأخرق في استخدام الأساليب السرية، زوجًا حنونًا وأبًا يهتم بشئون عائلته. فكلما سافر بعيدًا عن أسرته، كان يحرص على الاتصال بأطفاله ويحذر زوجته من أن تتركهم يشاهدون التليفزيون كثيرًا، وكان يدير ظاهريًا مؤسسة خيرية يطلق عليها «ساعدوا شعوب أفريقيا»، في حين أنه كان يكسب عيشه من تجارة الأحجار الكريمة.

وقد اعتقدت المخابرات الأمريكية أنه من الممكن تجنيد الحاج كعميل لها، ولكن عندما درس كولمان نصوص المكالمات الهاتفية قرر أنه على الأرجح لن ينشق عن التنظيم، ولكنه وافق على الذهاب إلى كينيا معتقدًا أنه قد يعثر على بعض الأدلة التي تبرهن على وجود تنظيم القاعدة الذي وصفه الفضل.

وفي أغسطس/آب من عام ١٩٩٧م، ذهب كولمان ومعه ضابطان من المخابرات إلى منزل الحاج في نيروبي ومعهما تصريح بتفتيش المنزل، وبصحبتهم ضابط شرطة كيني متوتر يحمل في يده بندقية من طراز كلاشينكوف أيه كيه-٤٧. كان المنزل يقع خلف حائط مرتفع من الكتل الخرسانية يعلوه زجاج مهشم، ويحرسه كلب هزيل

twitter @baghdad_library

الجسم من نوع الراعي الألماني مقيد بحبل. وكان بالمنزل زوجة الحاج الأمريكية إبريل برايتسكاي راي April Brightsky Ray وأطفالها الست بالإضافة إلى والدتها ماريون براون Marion Brown، وقد اعتنقت السيدتان الإسلام وارتدتا الحجاب.

وكان من الغريب رؤية الأسرة وجهًا لوجه بعد دراسة كل ما يتعلق بها من على مسافة بعيدة. وقد صنف كولمان السيدتين بأنهما تنتميان إلى الفئة نفسها التي تنتمي إليها زوجات رجال العصابات؛ أي كانتا على دراية بصفة عامة أن هناك شيئًا غير قانوني يحدث ولكنهما غير متورطتين من الناحية القانونية. وكانت أبريل سيدة ممتلئة الجسد ذات وجه مستدير وجذاب، وقد أخبرتهم أن زوجها خارج البلد في عمل (وفي الواقع، كان في أفغانستان يتحدث إلى بن لادن) وسيعود مساء ذلك اليوم. فأراها كولمان تصريح تفتيش المنزل بحثًا عما قال إنه وثائق مسروقة.

كان المنزل قذرًا ويعج بالذباب، وكان أحد الأطفال يعاني حمى شديدة. وفي حين كان ضابطا المخابرات يتحدثان إلى أبريل في غرفة أخرى، كانت ماريون براون تراقب كولمان عن كثب وهو يبحث في الأدراج وخِزانات الملابس، فسألته: «هل ترغب في احتساء بعض القهوة؟» فألقى كولمان نظرة سريعة على المطبخ ثم رفض العرض، فأجابته: «هذا أفضل، فقد أحاول أن أضع لك سمًّا فيها.»

كان المنزل مليئًا بالفوضى، فهناك أوراق ودفاتر متكدسة في كل مكان، وفواتير غاز ترجع إلى ثماني سنوات مضت، وبطاقات تعارف تخص مصرفيين ومحامين ووكلاء سفر وبعض شركات القضاء على الحشرات المنزلية، ولكن على الرف العلوي من خزانة الملابس في غرفة النوم وجد كولمان جهاز كمبيوتر محمول من طراز أبل باور بوك.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، عاد وديع الحاج، الذي كان رجلًا ملتحيًا هزيل الجسد يعاني إعاقة في ذراعه اليمنى، إلى المنزل. ولد الحاج في لبنان ولكنه حصل على الجنسية الأمريكية عن طريق زوجته، وقد اعتنق الإسلام بعد أن كان مسيحيًّا كاثوليكيًّا، ولديه أفكاره الخاصة حول عملية التجنيد؛ فقد وصل إلى الاجتماع مع العملاء وهو يحمل بعض الكتيبات الدينية وقضى المساء في محاولة إقناع كولمان وضابطي المخابرات بقبول الإسلام.

وعلى أية حال، فقد تمكن أحد رجال المخابرات الأمريكية في تلك الليلة في نيروبي من استعادة العديد من المستندات التي حُذِفَت من على القرص الصلب لجهاز الكمبيوتر المحمول، التي أكدت العديد من ادعاءات جمال الفضل عن وجود

تنظيم القاعدة وأهدافه الإرهابية، ولكن ظل توجيه تهمة جنائية لبن لادن ليس محلًا للاهتمام.

تفحص كولمان وضابطا المخابرات تلك المستندات وحاولوا الربط بين رحلات الحاج، وتوصلوا إلى أنه قد اشترى بعض الأسلحة لبن لادن من أوروبا الشرقية وقام برحلات متكررة إلى تنزانيا. لقد كانت القاعدة تعتزم القيام بشيء ما، ولكن لم تتضح ماهيته. وعلى أية حال، كان من الواضح أنها عملية صغيرة وغير جديرة بالاهتمام، وأن اكتشاف المنزل الآمن في نيروبي قد وضع ولا شك حدًّا لها.

twitter @baghdad_library

الفصل الخامس عشر

خبز وماء

أرسل الملا عمر وفدًا إلى تورا بورا لتحية بن لادن ومعرفة المزيد من المعلومات عنه، وكان إعلان بن لادن الحرب والعاصفة الإعلامية العالمية التي تبعته قد صدم أعضاء طالبان وبث الفرقة بين صفوفهم. فأشار بعضهم إلى أنهم لم يدعوا بن لادن للمجيء إلى أفغانستان في المقام الأول، وغير ملزمين بحماية رجل يعرض علاقتهم بالدول الأخرى للخطر. وفي ذلك الوقت، لم تكن هناك خلافات بين طالبان والولايات المتحدة التي كانت تشجع اسميًّا نفوذهم من أجل استقرار البلاد. إلى جانب أن هجوم بن لادن على العائلة المالكة السعودية يعد انتهاكًا صريحًا للعهد الذي قطعه الملا عمر أمام الأمير تركي بإبقاء ضيفه تحت السيطرة.

ومن ناحية أخرى، كانت طالبان تأمل أن يساعد بن لادن في عملية إعادة بناء البنية التحتية المدمرة في أفغانستان وتوفير فرص عمل لإنعاش الاقتصاد الراكد تمامًا. لذا فقد تملقوه قائلين: إنهم يعتبرون أنفسهم مثل الأنصار الذين ساندوا النبي عندما لجأ إلى المدينة، وأكدوا له أنه ما دام يحجم عن مهاجمة المملكة العربية السعودية، الدولة الراعية لهم، أو التحدث إلى الصحافة، فإن بقاءه تحت حمايتهم أمر مرحب به. وفي المقابل، اعترف بن لادن بحكمهم وسانده بلا شروط، إلا أنه سريعًا ما خان ثقتهم.

وفي مارس/آذار من عام ١٩٩٧م، انتقل فريق تصوير تليفزيوني من قناة سي إن إن إلى الجبال القارسة البرودة فوق جلال أباد واستقروا في كوخ طيني مبطن بالبطاطين لمقابلة أسامة بن لادن. ومنذ وصوله إلى أفغانستان، كان المنفي السعودي قد تحدث بالفعل إلى صحفيين من جريدتي الإندبندنت والقدس العربي اللندنيتين، ولكن كان ذلك أول لقاء تليفزيوني يسمح به على الإطلاق. وقد لاحظ المنتج بيتر

بيرجن Peter Bergen أن بن لادن يبدو مريضًا؛ فقد دخل الغرفة وهو يتكئ على عكاز وكان يسعل برفق طوال اللقاء.

ربما لم يكن بن لادن، حتى تلك اللحظة، قد قتل أي أمريكي أو أي شخص آخر إلا في أرض المعركة. وقد تكون أحاديثه هي ما ألهم منفذي العمليات في عدن والصومال والرياض والظهران، ولكن لم يثبت قط أنه هو من أصدر الأوامر لأي من الإرهابيين الذين نفذوا تلك العمليات. ومع أن رمزي يوسف قد تدرب في أحد المعسكرات التابعة للقاعدة، فإن بن لادن لم تكن له أية علاقة بتفجير مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣م. وقد قال بن لادن لعبد الباري عطوان، المحرر الفلسطيني للجريدة اللندنية، إن القاعدة مسئولة عن الكمين الذي نُصِب للقوات الأمريكية في مقديشيو عام ١٩٩٣م، وتفجير مركز تدريب الحرس الوطني في الرياض عام ١٩٩٥م وتفجيرات أبراج الخبر عام ١٩٩٦م، ولكن لا توجد أدلة تبرهن تلك الادعاءات. ومن المؤكد أن بن لادن كان محاطًا برجال تلطخت أيديهم بالكثير من الدماء مثل الظواهري، وأنه كان يساند أعمالهم في مصر؛ أي أنه كان، كما صنفته المخابرات الأمريكية في ذلك الوقت، مموِّلًا للإرهاب، وإن كان مموِّلًا لا يملك الكثير من النقود. وقد تبين أن إعلان الحرب على أمريكا دعاية مبهرة له ولقضيته، وإغراء لا يقاوم لرجل نُهِبَت منه ثروته. وبالطبع، منع مستضيفوه تلك الدعاية، ولكن بمجرد أن نجح بن لادن في جذب انتباه العالم، فإنه لن يسمح لأي شيء أن يسرقه من بين يديه.

بدأ بيتر أرنيت Peter Anett مراسل سي إن إن بسؤال بن لادن أن يحدد أوجه نقده للعائلة المالكة السعودية. فقال بن لادن: إنها خاضعة للولايات المتحدة الأمريكية، وهذا في حد ذاته، «طبقًا لقوانين الشريعة، ينزع عن النظام انتماءه إلى المجتمع الإسلامي.» بعبارة أخرى، كان يعلن تكفيره للعائلة المالكة ويقول: إنهم لم يعودوا مسلمين، ومن ثم يمكن قتلهم.

فسأله أرنيت عن المجتمع الذي يعتزم إنشاءه إذا نجحت الحركة الإسلامية في الاستيلاء على السعودية، فأجابه بن لادن: «إننا نثق بإذن الله سبحانه وتعالى أن المسلمين سينتصرون في شبه الجزيرة العربية، وأن دين الله سبحانه وتعالى سيسود في هذه الجزيرة. وإنه لفخر كبير وأمل عظيم أننا سنعود للحكم بما نزل على محمد عليه الصلاة والسلام في الوحي. فإننا عندما كنا نتبع وحي محمد عليه الصلاة والسلام كنا في أسعد حال وأشرف مقام، ولله الحمد والثناء.»

twitter @baghdad_library

وما يظهر جليًّا في إجابة بن لادن المليئة كالمعتاد بالتعبيرات الدينية، الافتقار التام لأية خطة سياسية حقيقية فيما عدا فرض الشريعة، المطبقة بالفعل في المملكة العربية السعودية. لقد كانت السعادة والكرامة التي يتحدث عنهما بن لادن توجدان على الطرف الآخر من التاريخ من مفاهيم القومية والدولة؛ فالحركة الإسلامية المتطرفة لم يكن لديها على الإطلاق فكرة واضحة عن الحكم، أو حتى اهتمام به، كما سيثبت ذلك حكم طالبان في نهاية الأمر. لقد كان الوصول إلى النقاء والطهر هو الهدف؛ وكلما كان ذلك النقاء أبعد وأسمى، أصبح الإرهاب أقرب.

وقد ذكر بن لادن أن الدعم الأمريكي لإسرائيل هو السبب الأول لإعلانه الحرب عليها، يليه وجود القوات الأمريكية في جزيرة العرب. وأضاف أن المدنيين الأمريكيين يجب أن يغادروا الأراضي الإسلامية المقدسة لأنه لا يستطيع أن يضمن سلامتهم فيها.

وفي أكثر جزء من الحوار يبوح بمكنون صدر بن لادن سأله أرنيت ما إذا كان سيوقف دعوته للجهاد إذا ما أذعنت الولايات المتحدة لمطالبه بالخروج من شبه الجزيرة العربية، فأجابه بن لادن: «لقد جاء رد فعلنا نتيجة للسياسة الأمريكية العدوانية تجاه العالم الإسلامي بالكامل، وليس فقط في شبه الجزيرة العربية.» ومن ثم، يجب على الولايات المتحدة أن تتراجع عن أية صورة من صور التدخل ضد المسلمين «في جميع أنحاء العالم». لقد كان بن لادن يتحدث بالفعل بصفته ممثلًا عن الأمة الإسلامية؛ كأنه الخليفة المنتظر. واشتكى قائلًا: «لقد وضعت الولايات المتحدة اليوم معايير مزدوجة وتطلق على كل من لا يوافق على ظلمها إرهابيًّا. إنها تريد احتلال بلادنا وسرقة مواردنا وفرض عملائها ليحكمونا ... وتريدنا أن نوافق على كل هذا. وإذا رفضنا، تقول لنا «إنكم إرهابيون».»

هذه المرة أرسل الملا عمر طائرة هليكوبتر إلى جلال أباد واستدعى بن لادن إلى قندهار. ولم يكن واضحًا ما إذا كان بن لادن سيكون حليفًا أم منافسًا، ولكن في كلتا الحالتين، لم يستطع عمر أن يتركه في جلال أباد، على الجانب الآخر من البلد في منطقة لا تحكم طالبان قبضتها عليها. ومن ثم، فقد كان من الواضح أنه لا بد من كبح جماح الثرثار السعودي أو طرده من البلاد.

تقابل الرجلان في مطار قندهار، وأخبر الملا عمر بن لادن أن مخابرات طالبان تزعم أنها اكتشفت مخططًا يعده بعض المرتزقة من رجال القبائل لاختطافه. وبغض

النظر عما إذا كانت هذه القصة حقيقية أم لا، فإنها قد منحت الملا عمر مبررًا كي يطلب من بن لادن الانتقال هو وجميع من معه من جلال أباد إلى قندهار حيث يمكن لطالبان مراقبته طوال الوقت. لقد مد الملا عمر شخصيًّا مظلة حمايته لتشمل بن لادن، ولكنه أخبره بضرورة إيقاف اللقاءات الصحفية التي يعقدها، فأخبره بن لادن أنه قد قرر بالفعل تجميد حملته الإعلامية.

وبعد ثلاثة أيام، نقل بن لادن جميع أفراد عائلته وأعوانه إلى قندهار جوًّا، وتبعهم هو بالسيارة. ومرة أخرى وجد بن لادن نفسه مضطرًا لاقتلاع جذور تنظيمه من مكان بعد الاستقرار فيه، ومرة أخرى انشق بعض أتباعه مثبطو الهمم. وقد منح الملا عمر بن لادن والقاعدة خيارين للإقامة: إما في مجمع سكني كان قد أنشئ من أجل عمال شركة الكهرباء ومزود بجميع المنافع الضرورية، أو في مجمع زراعي مهجور يطلق عليها مزارع تارناك ولا يتوفر به أي من هذه المنافع، ولا حتى مياه جارية، ولكن بن لادن اختار المزرعة الخربة قائلًا: «إننا نريد حياة بسيطة.»

وخلف الجدران التي يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام كان يوجد نحو ثمانين بناء من الطين اللبن أو الخرسانة، بما في ذلك غرف للنوم ومسجد صغير ومخازن ومبنى إداري متهالك يتكون من ستة طوابق. وقد حشد بن لادن زوجاته الثلاث في مجمع واحد محاط بسور حيث كن يعشن «في انسجام تام»، على حد قول أحد حراس بن لادن، وخارج تلك الجدران وضعت طالبان دبابتين سوفييتيتين من طراز تي-٥٥.

وكما هو الحال دائمًا، كان بن لادن يستمد قوته من الفقر والحرمان ويبدو كأنه ينسى تأثير هذه الظروف على الآخرين. فعندما ذهب إليه الجهادي اليمني أبو جندل ليشكو له أن الرجال لا يجدون ما يأكلونه، أجابه بن لادن: «يا ابني يا جندل نحن لم نصل حتى الآن إلى المرحلة التي وصل إليها الصحابة حين شدوا على بطونهم الحجر، والرسول عليه الصلاة والسلام الحجرين.»

فاعترض أبو جندل قائلًا: «إن أولئك من قوة إيمانهم امتحنهم الله، أما نحن أصحاب ذنوب ومعاص، لا يمكن أن يبتلينا الله.» فضحك بن لادن من قوله.

وكانت الوجبات لا تتعدى غالبًا خبزًا يابسًا وماء آبار، فكان بن لادن يبلل الخبز اليابس في الماء ويقول: «الحمد لله، نحن الآن نأكل ويوجد غيرنا ملايين يتمنون أن يجدوا مثله.» ولم يكن هناك سوى القليل من النقود لشراء مؤن. وذات مرة، جاء أحد العرب إلى بن لادن يطلب منه بعض النقود للسفر في رحلة طارئة إلى الخارج، فدخل بن لادن إلى منزله وجمع كل ما وجده من نقود وعاد ومعه نحو مائة دولار.

twitter @baghdad_library

وعندما أدرك أبو جندل أن بن لادن قد أفلس تقريبًا، قال متذمرًا: «لماذا لم تبق لنا جزءًا من هذا المبلغ، فالباقون هنا أولى من المسافرين؟» فأجاب بن لادن قائلًا: «لا تحمل هم رزقنا، لن يضيع.» ولكن في الأيام الخمسة التالية، لم يكن في المعسكر ما يأكلونه سوى الرمان الأخضر الذي ينمو حول منزل بن لادن. وقال أبو جندل وهو يتذكر تلك الأيام: «كنا نأكل الرمان مع الخبز فقط في وجباتنا الثلاث.»

بعد أن غادر الظواهري السودان عام ١٩٩٦م، أصبح شبحًا. وقد تعقبه رجال المخابرات المصرية إلى سويسرا وسراييفو، وزُعِم أنه سعى للحصول على حق اللجوء إلى بلغاريا، ولكن جاء في صحيفة مصرية أيضًا أنه كان يعيش حياة مترفة في فيلا في سويسرا بالقرب من الحدود الفرنسية وأنه يمتلك ثلاثين مليون دولار في حساب سري. وفي الوقت نفسه، كان الظواهري يتولى اسميًا تحرير الجريدة التي تصدرها جماعة الجهاد وتحمل اسم المجاهدين، ومقرها في كوبنهاجن. وفي الواقع، لا تعرف المخابرات السويسرية أو الدنماركية ما إذا كان الظواهري قد دخل أيًا من البلدين قط في ذلك الوقت أم لا. وقد أظهر أحد جوازات السفر المزورة التي كان يستخدمها أنه قد سافر إلى ماليزيا وتايوان وسنغافورة وهونج كونج. وقد ورد أنه كان في هولندا يناقش إنشاء قناة تليفزيونية فضائية، وقال إنه مدعوم من قِبل بعض الأثرياء العرب الذين أرادوا أن يقدموا بديلًا أصوليًا لشبكة الجزيرة التي أُطلقت مؤخرًا في قطر. وكانت خطة الظواهري هي تقديم بث مدته عشر ساعات يوميًا إلى أوروبا والشرق الأوسط باستخدام مذيعين رجال فقط، ولكنه لم يسع لتنفيذ خطته أبدًا.

وسافر الظواهري أيضًا إلى الشيشان حيث كان يأمل أن يؤسس قاعدة جديدة لجماعة الجهاد، وقد كتب في مذكرة إلى زملائه: «لقد كانت الظروف هناك ممتازة.» فقد بدأ الروس ينسحبون من الشيشان في وقت مبكر من ذلك العام، بعد التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار مع الثوار، بالإضافة إلى أنها بقعة إسلامية كبيرة. وفي نظر الإسلاميين، فإن الشيشان تمنحهم فرصة إنشاء جمهورية إسلامية في القوقاز يمكنهم منها شن الجهاد في جميع أجزاء آسيا الوسطى. وقد كتب الظواهري في سيرته الذاتية: «ووصول المجاهدين من الشيشان والقوقاز إلى سواحل بحر قزوين الغني بالبترول يجعل بينهم وبين أفغانستان دولة تركمنستان المحايدة فقط مما سيشكل حزامًا إسلاميًا مجاهدًا جنوب روسيا متصلًا شرقًا مع باكستان التي تموج

بحركات الشباب المجاهد في كشمير.» ومن ثم، ستبدأ الخلافة الإسلامية بعث نفسها من جديد، وقد بدا العالم الذي يتحدث عنه قاب قوسين أو أدنى.

في الساعة الرابعة صباحًا من اليوم الأول من شهر ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٩٦م، عبر الظواهري الحدود إلى روسيا في حافلة صغيرة (ميني فان) ومعه اثنان من أقرب مساعديه هما محمود هشام الحناوي وأحمد سلامة مبروك الذي كان قائد خلية جماعة الجهاد في أذربيجان. ولكنهم أُوقفوا عند حاجز على الطريق واعتقلوا لأنهم كانوا يسافرون دون تأشيرات، واصطحبوا إلى جهاز الأمن الفيدرالي الذي وجه إليهم تهمة دخول البلاد بصورة غير شرعية. وكان الظواهري يحمل أربعة جوازات سفر كل منها صدر من بلد مختلف وباسم مختلف، ولم يتمكن الروس قط من تحديد هويته الحقيقية. ووجدوا بحوزته أيضًا ٦٤٠٠ دولار نقدًا وبعض المستندات المزورة الأخرى منها شهادات تخرج لشخص اسمه «الأستاذ أمين» من كلية الطب جامعة القاهرة، وعددًا من الكتب الطبية وجهاز كمبيوتر محمول وجهاز فاكس وهاتفًا متصلًا بالأقمار الصناعية. وفي المحاكمة، تقدم الظواهري بصفته تاجرًا سودانيًّا، وادعى أنه لم يدرك أنه تخطى الحدود الروسية بصورة غير شرعية. ودافع عن نفسه قائلًا: إنه جاء إلى روسيا «للتعرف على أسعار الجلد والأدوية والبضائع الأخرى»، وقد أصدر القاضي حكمًا على الظواهري ورفاقه بالسجن لمدة ستة أشهر، كانوا قد قضوها تقريبًا مع انتهاء المحاكمة. وبعد بضعة أسابيع، اصطحبتهم السلطات إلى حدود أذربيجان وأطلقت سراحهم. وقد تفاخر الظواهري في قصته عن هذه الرحلة أمام أعوانه الساخطين الذين تساءلوا أين كان قائلًا: «لقد أعماهم الله عن هوياتنا.»

ولكن كان لتلك الرحلة التي لم يكتب لها النجاح عواقب وخيمة، ومع ازدياد عدد المنشقين عن الجماعة وغياب أي مصدر حقيقي للدخل، لم يكن أمام الظواهري خيار آخر سوى الانضمام إلى بن لادن في قندهار. وقد رأى كل منهما مزايا في توحيد قواتهما. فقد شهد كل من تنظيم القاعدة وجماعة الجهاد تراجعًا شديدًا في عدد الأعضاء مقارنة بأوقات ازدهارهما في السودان. وكانت المخابرات الباكستانية قد أقنعت حركة طالبان بأن تعيد معسكرات القاعدة في خوست وفي جميع الأماكن الأخرى إلى سيطرة بن لادن؛ لتدريب المقاتلين للقتال في كشمير. ومع تحمل المخابرات الباكستانية التكاليف، أصبحت معسكرات التدريب مصدرًا مهمًّا للدخل. بالإضافة إلى ذلك، كان لا يزال بإمكان بن لادن الاستعانة ببعض المتبرعين الذين كانوا يدعمونه أيام الجهاد ضد السوفييت. لذا فقد كان هناك على الأقل دخل متواضع كافٍ لأن

twitter @baghdad_library

يشتري بن لادن بعض المركبات الباهظة للملا عمر وكبار قادته، الأمر الذي جعله مرحبًا به أكثر في أفغانستان. وعلى الرغم من استمرار الوضع المالي المتأزم، رأى الظواهري أن وضعه في ظل التحالف مع بن لادن أفضل كثيرًا من وضعه بدونه.

تجمع الكثير من المصريين مرة أخرى في أفغانستان، وكان منهم أبو حفص الذي أصبح القائد العسكري للقاعدة بعد موت أبي عبيدة غرقًا. ولم يكن بإمكان القاعدة أن تدفع أكثر من مائة دولار راتبًا شهريًّا لأعضائها، وهو نصف ما كانت تدفعه لهم في السودان. وانضم إليهم أيضًا قادة الجماعة الإسلامية وبعض الإسلاميين من باكستان وبنجلاديش. وفي البداية تجمعوا في جلال أباد في المجمع نفسه الذي تقيم فيه عائلات أعضاء القاعدة، فصاروا نحو ٢٥٠ شخصًا، وتبع معظمهم بن لادن عندما انتقل إلى قندهار. وقد أزعجتهم كثيرًا القذارة التي تنتشر حولهم والطعام الكريه والماء الملوث وخاصة نقص المرافق. فتفشى بينهم التهاب الكبد الوبائي والملاريا بصورة كبيرة، حتى إن أحد المصريين كتب في رسالة أرسلها إلى بلده: «هذا المكان أسوأ من مقبرة.» وفي نهاية المطاف، انضم إليهم قائدهم الظواهري.

وفي أفغانستان، لم يعد الأطفال يذهبون إلى المدارس، لذا فقد كانوا يقضون معًا وقتًا طويلًا، وكان من بينهم زينب أحمد خضر، وهي الابنة قوية الإرادة لأحد أبرز معاوني الظواهري وتحمل الجنسية الكندية. وقد غضبت زينب كثيرًا عندما تركت عائلتها بيشاور حيث عاشت حياة مريحة لمدة خمسة عشر عامًا من سنوات عمرها الثمانية عشر. ومع أن أفغانستان على الجانب الآخر من سلسلة الجبال الشاهقة التي تحجب ضوء الشمس، فقد بدت لها كأنها بلد يعيش في زمن آخر. ومع أن زينب كانت تغطي نفسها تمامًا وترتدي قفازين ونقابًا، فقد كانت تحتقر البرقع الذي كانت النساء الأفغانيات مرغمات على ارتدائه. ولقد وعدها والداها أنها ستكون سعيدة في هذا البلد حيث التطبيق السليم للدين الإسلامي، وأنها ستتمكن سريعًا من اكتساب صديقات جديدات بدلًا من رفيقات المدرسة اللائي نشأت معهن، ولكن زينب أجابت وهي مكتئبة بأنها لا تريد تكوين أية صداقات.

وبعد يومين، أخبرتها والدتها أنهم سيقابلون عائلة بن لادن، ولكن زينب أجابتها بتحدٍّ: «أنا لا أريد مقابلة أحد.» فنهرها والدها قائلًا بنفاد صبر: «إذا لم تتصرفي بأدب، فإنكِ حتى لن تحلمي بالذهاب إلى بيشاور مرة أخرى.»

وكما اتضح بعد ذلك، أصبحت ابنتا بن لادن فاطمة وخديجة من أقرب أصدقاء زينب. كانت فاطمة، الكبرى، في الرابعة عشرة من عمرها عام ١٩٩٧م، وهي ابنة أم عبد الله، وقد أطلق عليها أسامة هذا الاسم تيمنًا بابنة الرسول، أما خديجة، التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها، فهي ابنة أم خالد، وقد أطلق عليها هذا الاسم تيمنًا باسم الزوجة الأولى للرسول. ولقد تقبلت زينب الفارق في السن بينها وبين ابنتي بن لادن ببساطة نظرًا لصغر حجم المجتمع الذي يعشن فيه.

كانت زوجات بن لادن الثلاث وأطفالهن يعشن في منازل منفصلة داخل المجمع السكني الخاص بهم. وكان جميع أبناء أعضاء القاعدة يرتدون ملابس رثة، وكانت محاولات الحفاظ على أقل مستويات النظافة تذهب هباءً. ولكن زينب لاحظت أن كل منزل من منازل بن لادن نظيف ومميز عن الآخر. فزوجته الأولى أم عبد الله لم تحظ بتعليم جيد، ولكنها كانت مرحة وطيبة القلب وتحب تزيين منزلها، وفي حين كان المنزلان الآخران نظيفين ومرتبين أيضًا، كان منزلها جميلًا؛ فقد كان به زهور وملصقات وكتب تلوين للأطفال الصغار، وقد لاحظت زينب أن فاطمة كانت تنظف المنزل كثيرًا لأن والدتها، على حد تعبيرها: «لم تعتد على العمل.»

ولقد كانت فاطمة مرحة ولكنها متبلدة الذهن قليلًا. وقد اعترفت لزينب سرًّا أنها لن تتزوج قط أيًّا من الرجال المحيطين بوالدها؛ لأنه «سيكون مطلوبًا في جميع أنحاء العالم.»

ولكن زينب أجابتها: «ستكون جريمته هي الزواج بك يا فاطمة.»

- «معك حق!»

ولم تكن زينب تمزح فيما قالت، ففي المجتمع الذي عاشت فيه الفتاتان، كان الزواج اتحادًا بين عائلات وليس مجرد زواج أفراد، وبدا لزينب أن فاطمة قد نسيت من هي. (وبالطبع، لم يكن لفاطمة رأي في اختيار زوجها، وقد تزوجت بالفعل من أحد أتباع بن لادن الذي قتل بعد أربع سنوات عند إجلائهم من قندهار.)

أما الحياة في منزل أم خالد، فقد كانت مختلفة تمامًا؛ فقد كانت أهدأ وأكثر تنظيمًا. فعلى عكس أم عبد الله، حاولت أم خالد تعليم بناتها الثلاث وابنها الوحيد. وقد افتتحت مدرسة خاصة في المجمع السكني لتعليم أولاد العرب، ولكن الفتيات كن يتعلمن في المنزل. وساعدت أم خالد زينب في دراسة النحو العربي فقد كانت تحمل شهادة دكتوراه في ذلك المجال، وكانت كثيرًا ما تساعد الفتيات في إعداد العشاء. وكان بن لادن يعلم بناته الرياضيات والعلوم، ويقضي معهن بعض الوقت كل يوم، وفي بعض الأحيان كان يختبرهن ليتأكد من استيعابهن.

twitter @baghdad_library

وكانت خديجة، الابنة الكبرى لأم خالد، تحب قراءة التاريخ والسير الذاتية. ومع أنه في نظر زينب، لم يكن أي من الأطفال على مستوى جيد من التعليم، فقد رأت أن خديجة «ذكية ومتقدة الذهن.»

أما أم حمزة، فقد كان لديها ولد واحد فقط، ولكن من وجهة نظر زينب، كانت «أم حمزة هي أعظمهن»، مقارنة بالزوجتين الأخرتين، وكانت أكبرهن سنًّا، وأكبر من زوجها بسبع سنوات، وكان نظرها ضعيفًا وبنيتها هزيلة وتعرضت للإجهاض أكثر من مرة. ونظرًا لأنها امرأة سعودية من عائلة ثرية ورفيعة الشأن، فقد كانت تظهر عليها سمات ملكية، ولكنها كانت متفانية بشدة في سبيل القضية. وعندما تقدم بن لادن لخطبتها، استاءت عائلتها بشدة لأنها ستكون زوجته الثانية، ولكنها وافقت لأنها كانت تريد الزواج بمجاهد حقيقي. وكانت أم حمزة شهيرة للغاية في مجتمع القاعدة، فكانت النساء يرين أن بإمكانهن الذهاب إليها، وكانت تتحدث إليهن كما لو أن مشكلاتهن تعنيها كثيرًا. وتقول زينب: «كنا نعرف أن الأمور قد تنهار من حولنا وكنا نصاب بالإحباط، ولكنها كانت تساعد الجميع على الاستمرار.»

وكان بن لادن أيضًا يعتمد عليها، ومع أنه كان يحاول العدل بين زوجاته كما أمر القرآن، فقد كان الجميع يعلم أن أم حمزة هي المفضلة لديه. ولم تكن أم حمزة جميلة، ولكن حساسة ومخلصة، ودائمًا ما يكون منزلها أكثر المنازل نظافة وترتيبًا. وكان المنزل يحتوي على سرير وصندوق به جميع ملابسها، وكانت تحتفظ بشالوار قميص (الزي الأفغاني) نظيف معلق على ظهر الباب استعدادًا لقدوم بن لادن. وفي الحمام يوجد رف صغير عليه زجاجة عطر لها وأخرى لزوجها.

وكانت أم عبد الله تغير بشدة من علاقتها ببن لادن، ومع أنها كانت الزوجة الأولى لأسامة وأم لأحد عشر من أطفاله، فقد كانت أصغرهن سنًّا وأقلهن تعليمًا، وكان جمالها هو ميزتها الوحيدة، فكانت تبذل مجهودًا كبيرًا للحفاظ على جاذبيتها. فكلما سافرت إحدى السيدات الأخريات إلى الخارج، ولا سيما إلى الدول الغربية، كانت تمنحهن قائمة تسوق خاصة بها لشراء منتجات تجميل وملابس داخلية من ماركات مميزة، وكانت تفضل المنتجات الأمريكية التي ما كان غيرها ليفكر في شرائها. وكانت نساء بن لادن يعشن داخل مبنى صغير محاط بسور داخل المجمع السكني الكبير، فكانت أم عبد الله ترتدي زيًّا رياضيًّا وتركض في محيط المبنى لكي تحافظ على رشاقتها. وتقول صديقتها مها السمنة: «كانت دائمًا ما تتشاجر مع أسامة. وكنت أقول لها: إنك قد تخسرين هذا الرجل في لمح البصر، فيجب أن تجعليه يشعر بالراحة وهو معك، لا تجعليه تعيسًا هكذا كلما أتى إلى منزلك.»

وكانت الفتيات في بعض الأوقات يحتلن على بعض بحيل طفولية. ففي إحدى المرات، عندما لم تشأ فاطمة أن تترك زينب تعود إلى منزلها، جعلت أختها الصغرى إيمان تخبئ حذاءها وغطاء رأسها، حتى سمعن دوي صافرة بدء حظر التجوال، ومكثت معهن في المنزل طوال الليل.

ولم يرَ أطفال بن لادن والدهم صلبًا وورعًا بالقدر نفسه الذي رآه عليه باقي المجتمع. فعندما أرادت فاطمة اقتراض عدة شرائط كاسيت من زينب، قالت لها الأخيرة: «سأعطيها لك شرط ألا يسمعهم والدك لأن بعض الرجال هنا متشددون للغاية.»

ولكن فاطمة اعترضت قائلة: «إن والدي لن يكسرها، إنه ليس بهذا التشدد حقًّا، إنه يتصرف هكذا فقط أمام الرجال.»

فسألتها زينب في دهشة: «هل يستمع إلى الأغاني حقًّا؟»

- «نعم، إنه لا يمانع.»

ونظرًا لولع بن لادن بالخيل، احتفظ بمكتبة بها كتب عن الخيل في منزل أم خالد، وكان يسمح بوجود كتب تلوين ونتائج الحائط التي تحمل صور الخيل، مع أنه لم يسمح أحد غيره في الجماعة بتعليق صور على الحوائط. وقد استنتجت زينب من ذلك أن «الشيخ كان متفتحًا إلى حد ما.»

وكان أولاد بن لادن الصبية الكبار يبقون عادة بصحبة والدهم في تورا بورا بالقرب من المجمع السكني. وكان يسود بين الشباب المراهق إحساس غريب متقلب يجمع ما بين الملل والإحساس بخطر قاتل يحدق بهم. وعلى عكس الفتيات، كان لدى الأولاد فرصة للذهاب إلى المدرسة، إلا أنهم لم يفعلوا شيئًا أكثر من حفظ القرآن طوال اليوم. وقد سمح بن لادن لأطفاله الصغار باللهو بألعاب الفيديو من إنتاج شركة نينتندو لأنه لم يكن يوجد شيء آخر لتسليتهم. وكان الأولاد متهورين وينزعون إلى السلوكيات الطائشة هربًا من الملل. وقد نشأت صداقة بين أحد أشقاء زينب الصغار واسمه عبد الرحمن وعبد الرحمن ابن أسامة بن لادن، وكانا الولدين الوحيدين في المجمع السكني اللذين استطاع والداهما شراء حصان لكل منهما. ولكنهما كانا في بعض الأحيان، بدلًا من امتطاء الخيول، يجعلانها تتصارع، وكان حصان عبد الرحمن بن لادن حصانًا عربيًّا مقدامًا ومفعمًا بالحيوية، ولكن عندما أحضر عبد الرحمن خضر حصانًا أقوى كاد أن يقتل الحصان العربي، ذخر ابن بن

twitter @baghdad_library

لادن مسدسه وصوبه إلى صديقه مهددًا بقتله إذا لم يبعد حصانه. لقد كانت أفكار القتل والإعاقات تلقي بظلالها دائمًا على عقولهم.

وكان الأولاد يلعبون الكرة الطائرة بعد الظهيرة وكان أسامة يشترك معهم في بعض الأحيان. وكان يبدو بصحة جيدة. وذات مرة اشترى حصانًا من طالبان قالوا إنهم استولوا عليه من أحمد شاه مسعود، وكان فحلًا ضخمًا ذهبي اللون وثلاث من أرجله بيض. ولم يستطع أحد امتطاء هذا الحصان حتى قفز بن لادن على ظهره وانطلق مبتعدًا به، وبعد خمس وعشرين دقيقة عاد بن لادن إلى المجمع وهو يسيطر تمامًا على الحصان.

لم يكن الرجال الذين كان العالم بأسره يخشاهم ويزدريهم مرعبين بهذا القدر في منازلهم، فقد كانوا يلعبون مع أطفالهم في المنزل ويساعدونهم في تأدية واجباتهم المدرسية. وتتذكر زينب إحدى المرات عندما كانت عائلتها في منزل عائلة الظواهري في قندهار، وعاد الظواهري إلى المنزل وهو يحمل مدفعه الرشاش، وبينما كان في طريقه إلى الأعلى، أمسك شقيقها الصغير ذو السنوات العشر بساق الظواهري وترجاه أن يعطيه السلاح، فقال له الظواهري: «انتظر يا عبد الكريم حتى نصعد إلى الغرفة!» ولكن الصبي رفض أن يتركه وأخذ يرجوه ويجذب السلاح من يده، حتى أذعن الظواهري لطلب الصبي وأعطاه السلاح ليفحصه. وقد صعقت هذه اللحظة الحانية زينب والآخرين، وقالت بدهشة: «أهذا هو الرجل الذي يصورونه وحشًا!»

كانت فتيات الظواهري الأربع ذكيات وطليقات اللسان وجميلات، خاصة نبيلة التي عندما بلغت الثانية عشرة من عمرها أصبحت محور اهتمام الأمهات اللائي يبحثن عن زوجات لأبنائهن. أما محمد، الابن الوحيد للظواهري، فقد كان شديد الجاذبية ومدللًا من قبل شقيقاته الكبريات. ولكن عندما كبر، صار يمضي الكثير من الوقت مع الرجال ومع زملائه في المدرسة. ولكنها كانت بيئة قاسية للغاية على طفل رقيق ومهذب مثل محمد، فكان يتعرض دائمًا للاستهزاء والتنمر من الآخرين، لذا فقد كان يفضل البقاء في المنزل ومساعدة والدته.

وكانت فتيات الظواهري في الغالب يتجمعن معًا للاشتراك في الألعاب أو التدريبات، وكانت والدتهن عزة تحب إقامة حفلات صغيرة، مع أنه لم يكن لديها الكثير لتقدمه لضيوفها، ففي بعض الأحيان لم يكن لديها أكثر من المكرونة والطماطم. وعندما زارت زينب عائلة الظواهري عند خطبة ابنتهما الثانية أميمة، أخذت الفتيات يتحدثن ويثرثرن على الإفطار والغداء والعشاء. وحتى وقت متأخر من الليل، كن لا يزلن

يغنين ويحدثن ضوضاء شديدة حتى إنهن لم يسمعن صوت الدكتور أيمن وهو يطرق الباب ويطلب منهن خفض أصواتهن. فتقول زينب: «كنت أفكر كيف من الممكن أن يخيف هذا الرجل العالم بأسره، في حين أنه حتى لا يصرخ فينا؛ لقد كنا نرى هؤلاء الرجال لطفاء ودمثي الخلق.»

ومع أن عزة زوجة الظواهري كانت متواضعة الخلق، فقد حرصت على الحفاظ على درجة من الأناقة، فكانت تحيك ملابسها بنفسها وتفضل ارتداء الأزياء الكلاسيكية. وكانت تحتفظ ببعض نماذج التفصيل من إيران، وعلمت نفسها بعض اللغة الفارسية كي تفهم الإرشادات، وكانت تحيك بعض ملابس النوم وتبيعها لكسب النقود، وغالبًا ما كانت تتبرع بجزء من دخلها للمشروعات المختلفة التي تحتاج إلى النقود. وقد كانت هي والفتيات يصنعن جدائل من الزهور من أغلفة الحلوى ويعلقنها بخيوط على الحائط، ويضعن الأحجار في تصميم أنيق أمام كوخهن الطيني المتواضع.

وفي عام ١٩٩٧م، فوجئت عزة بأنها حامل مرة أخرى بعد عقد كامل تقريبًا من وضع طفلها الأخير. وضعت عزة الطفلة الجديدة في الشتاء ولكن كان وزنها أقل بكثير من الوزن الطبيعي، وقد أدرك الدكتور أيمن على الفور أن طفلته الخامسة مصابة بمتلازمة داون. وقد تقبلت عزة ذلك الحمل الجديد، مع أن مسئولية رعاية أسرة كبيرة في ظروف غير عادية كانت تثقل كاهلها بالفعل. وكان الجميع يحبون الطفلة الجديدة التي أسموها عائشة، ولكن عزة وحدها هي التي كان بإمكانها رعايتها وتلبية جميع احتياجاتها.

وعندما استرجعت زينب ذكريات صداقتها مع أولاد بن لادن والظواهري، أدركت أن هذه العائلات «كانت تمر بمآزق في حياتها، كما كانت تمر بلحظات سعيدة في حياتها، ولكن الأطفال كانوا أطفالًا عاديين وعاشوا مرحلة طفولة عادية إلى حد بعيد.»

في يوليو/تموز من عام ١٩٩٧م، أي بعد شهرين من عودة الظواهري إلى أفغانستان، اشتعل غضبه عندما علم بحدوث تطور في مصر يهدد بتقويض حركته بالكامل. فقد توسط المحامي الإسلامي منتصر الزيات في صفقة بين الجماعة الإسلامية والحكومة المصرية، وقد وُلِدَت «مبادرة وقف العنف»، كما أطلق عليها، في السجون نفسها التي وقف خلف قضبانها الزيات والظواهري معًا منذ ستة عشر عامًا. فقد وجدت الحركة الأصولية نفسها بعد أن وقع عشرون ألف إسلامي في أيدي السلطات المصرية،

twitter @baghdad_library

بالإضافة إلى الآلاف الذين قضت عليهم قوات الأمن، مصابة بالشلل التام، وأدرك قادة الجماعة الإسلامية أنهم إذا لم يعلنوا رسميًّا نبذهم للعنف فإنهم لن يروا النور مرة أخرى.

وبعد إعلان المبادرة، أعلن الشيخ عمر عبد الرحمن موافقته عليها من زنزانته في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي حين أنكرت الحكومة وجود صفقة، أطلقت سراح ألفي عضو من الجماعة الإسلامية في السنة التالية. وقد انضم العديد من كبار الأعضاء في جماعة الجهاد التي يقودها الظواهري إلى الحركة لإصلاح علاقتهم بالنظام الحاكم.

في البداية، كان الظواهري هو المنشق الوحيد عن الاتفاق، وقد قال ثائرًا من شدة الغضب: «إن الترجمة السياسية لهذه المبادرة هي الاستسلام. ففي أي معركة يرغم المقاتل على وقف قتاله وتحريضه والرضا بالأسر وتسليم رجاله وأسلحته بدون مقابل؟» وقد أُطلِق على وابل الخطابات الخاصة بهذا الشأن بين الظواهري والإسلاميين الآخرين الذي انهال على محرر جريدة عربية في لندن «حرب الفاكسات». وقال الظواهري: إنه يفهم جيدًا معاناة القادة المعتقلين ولكن «إذا كنا سنتوقف الآن، فلماذا بدأنا أصلًا؟»

وقد قسم موقف الظواهري الإسلاميين المصريين بين من لا يزالون داخل مصر ويريدون إحلال السلام من ناحية، والمقيمين خارجها ويعارضون التسوية من ناحية أخرى. ضم الظواهري إليه مصطفى حمزة، الأمير الجديد للجماعة الإسلامية المنافسة، والقائد العسكري للجماعة رفاعي أحمد طه، اللذين كانا في أفغانستان أيضًا. (وفيما يتعلق بمشاركة الشيخ الضرير في المبادرة، فمن المحتمل أنه رآها وسيلة فعالة للتفاوض مع الأمريكيين الذين كان يأمل أن يطلقوا سراحه، ولكن بعد أن تأكد من أنهم لن يفعلوا، تراجع عن تأييده لها.) فقرر المصريون المنفيون إعلان استمرار استخدامهم للعنف عن طريق توجيه ضربة قاسية تقلب الأمور رأسًا على عقب.

ربما كان الهجوم يستهدف أحد عروض أوبرا عايدة، العرض الأوبرالي عن مصر القديمة من تأليف فيردي Verdi، الذي كان مقامًا في أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٩٧م أمام معبد الملكة حتشبسوت على الضفة الغربية للنيل بالقرب من الأقصر. ويعد ذلك المعبد العريق الرائع واحدًا من أعظم الإبداعات الفنية للدولة الحديثة من تاريخ مصر القديمة. وكانت سوزان مبارك زوجة الرئيس مبارك تستضيف حفل افتتاح العرض. كانت استراتيجية الجماعة الإسلامية تتمثل في مهاجمة السياحة، العمود الفقري للاقتصاد المصري والمصدر الرئيسي للعملة الصعبة، وذلك لاستفزاز

ردود أفعال قمعية من الحكومة لا يوافق عليها الشعب. أما جماعة الجهاد، فقد كانت دائمًا تزدري ذلك الأسلوب وترى أنه يؤدي إلى نتائج عكسية. ولكن في ظل حضور العديد من الشخصيات المهمة وكبار المسئولين في الحكومة ومن بينهم الرئيس نفسه، فقد كان ذلك العرض فرصة لتحقيق هدف جماعة الجهاد المتمثل في الإطاحة برأس الحكومة. ولكن حال وجود ثلاثة آلاف من رجال الأمن دون تنفيذ الهجوم.

وفي السابع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٧م، كان ذلك المبنى المهيب يتلألأ على الرمال الذهبية للصحراء الجنوبية كما كان لمدة خمسة وثلاثين قرنًا، قبل ميلاد المسيح أو محمد أو حتى إبراهيم أبي الأديان الموحدة. وكانت حرارة الصيف قد بدأت تنخفض قليلًا معلنة بداية موسم ذروة النشاط السياحي في مصر، وكان المئات من السياح يتجولون في المزار السياحي، بعضهم في مجموعات بصحبة مرشدين سياحيين مصريين، والبعض الآخر يلتقط صورًا ويتبضع من الأكشاك.

وقبل الساعة التاسعة صباحًا بوقت قصير، اقتحم ستة شباب يرتدون زي الشرطة الأسود ويحملون حقائب من البلاستيك المقوى إلى المعبد. وقد أطلق أحدهم الرصاص على أحد الحراس، ثم ارتدوا جميعًا عصابات رأس حمراء تفصح عن انتمائهم إلى الجماعة الإسلامية. وقد مكث اثنان منهم على البوابة ينتظران تبادل إطلاق النار مع الشرطة التي لم تصل أبدًا. أما الآخرون فقد كانوا يقطعون أرض المعبد ذهابًا وإيابا يحصدون السياح حصدًا بإطلاق النار على سيقانهم، ثم القضاء عليهم بوتيرة واحدة بإطلاق الرصاص على رءوسهم عن قرب، ثم توقفوا قليلًا للتمثيل بأجساد بعضهم باستخدام السكاكين الحادة، فانتزعوا أحشاء كهل ياباني، وقد عُثِر فيما بعد على نشرة محشوة داخل جسده مكتوب عليها: «لا لوجود السياح في مصر» وتحمل توقيع «جماعة الشيخ عمر عبد الرحمن للخراب والدمار — الجماعة الإسلامية.»

حاول السياح الذين علقوا في المعبد الاختباء وراء الأعمدة الجيرية، ولكن لا محيص؛ فقد أحكم منفذو العملية إغلاق الشراك عليهم. وقد تردد مع صرخات الضحايا صيحات تكبير منفذي العملية «الله أكبر» وهم يستكملون مذبحتهم. استمرت المذبحة لمدة خمس وأربعين دقيقة حتى غرقت الأرض في أنهار من الدماء، وتناثرت على الحوائط المزخرفة بالنقوش أشلاء متطايرة من المخ وخصلات من الشعر. وكان من بين القتلى طفل بريطاني في الخامسة من عمره وأربعة أزواج يابانيين يقضون شهر العسل.

twitter @baghdad_library

وعندما انتهى المعتدون من مهمتهم، قاموا باختطاف حافلة باحثين عن المزيد من السياح لقتلهم، ولكنهم اصطدموا أخيرًا بنقطة تفتيش. وفي تبادل إطلاق النار الذي تبع هذا الصدام، جُرح أحدهم فقتله زملاؤه، وفروا إلى التلال يطاردهم المرشدون السياحيون وقرويون على دراجات أو على ظهور الحمير، ولم يكن لديهم ما يقاتلون به سوى الجواريف والأحجار.

وبعد ذلك عُثر على جثث المنفذين في كهف منظمة على شكل دائرة، وقد ظنت الصحافة المصرية أن الفلاحين الثائرين هم من قتلوهم، ولكن يبدو أنهم قد أقاموا طقسًا للانتحار وقتلوا أنفسهم، وقد عُثر على ملحوظة في جيب أحدهم يعتذر فيها عن عدم تنفيذه العملية قبل ذلك.

لقد كانت تلك العملية أفظع عمل إرهابي في تاريخ مصر الحديث. وقد أسفرت عن مقتل ثمانية وخمسين سائحًا وأربعة مصريين، بالإضافة إلى منفذي العملية. وكان أغلب الضحايا، بالتحديد خمسة وثلاثين منهم، من سويسرا والباقون من اليابان وألمانيا والمملكة المتحدة وفرنسا وبلغاريا وكولومبيا. وأصيب أيضًا سبعة عشر سائحًا آخرون وتسعة مصريين، وقد رأت سيدة سويسرية رأس أبيها تقطع أمام عينيها.

وفي اليوم التالي، أعلنت الجماعة الإسلامية مسئوليتها عن الهجوم، وقال رفاعي طه: إنه كان من المفترض أن يحتجز منفذو العملية رهائن للمفاوضة على إطلاق القادة الإسلاميين المعتقلين، ولكن الأسلوب النظامي الذي اتبعه منفذو العملية في القتل ينفي ذلك الادعاء. ويعكس موت منفذي العملية مدى تأثير الظواهري؛ حيث إن الجماعة الإسلامية لم تكن حتى ذلك الوقت قد اشتركت في أية عملية انتحارية قط. وقد توصلت الشرطة الفيدرالية السويسرية بعد ذلك إلى أن بن لادن هو الذي موَّل تلك العملية.

تلقت مصر صدمة قوية هزت كيانها، وتحول الشعب المصري الذي شعر بالخزي والاشمئزاز بصورة قاطعة ضد الإسلاميين الذين بدءوا فجأة يسحبون بياناتهم بمسئوليتهم عن الهجوم ويشيرون بأصابع الاتهام إلى الجهات المعتادة. فقد ألقى الشيخ عمر عبد الرحمن من سجنه بالمسئولية على الإسرائيليين قائلًا: إن الموساد هو الذي نفذ تلك المذبحة، في حين ألقى الظواهري بالمسئولية على عاتق الشرطة المصرية قائلًا: إنها هي التي نفذت عملية القتل، ولكنه حمَّل السياح أيضًا مسئولية وجودهم في البلاد، وقال: «إن شعب مصر يعتبر وجود هؤلاء السياح الأجانب عدوانًا

على المسلمين وعلى مصر. فالشباب يقول هذه بلدنا وليست مكانًا للهو والمرح، خاصة لكم أنتم.»

أثبتت حادثة الأقصر أنها نقطة التحول في حملة مكافحة الإرهاب في مصر. وبغض النظر عن الثمار التي توقع المدبرون في أفغانستان حصادها من وراء هذه الضربة الساحقة، فقد انقلبت العاقبة على رءوسهم وليس على رءوس أعدائهم. فقد تبخر الدعم الشعبي الذي كانوا يتسترون به ولم يعد لهم، دون تأييد الشعب، مكان يختبئون فيه. وفي السنوات الخمس التي سبقت حادث الأقصر، قتلت الجماعات الإرهابية الإسلامية في مصر أكثر من ١٢٠٠ شخص الكثير منهم من الأجانب، أما بعد حادث الأقصر، فقد توقفت هجمات الإسلاميين تمامًا. وقد قال أحد العاملين في مجال حقوق الإنسان في القاهرة: «لقد اعتقدنا أننا لن نسمع عنهم مرة أخرى.»

ربما لم يقدر القادة الجهاديون، لا سيما المصريون منهم، في العزلة التي يعيشون فيها في قندهار طبيعة الهزيمة التي حلت بهم. فقد كانوا سجناء منطق وضعوه بأنفسهم، فكانوا يتحدثون بصفة أساسية بعضهم إلى بعض ويؤكدون آراءهم بآيات محددة من القرآن ودروس من الأحاديث تجعلهم يؤمنون أنه لا يمكن الهروب من مصائرهم. لقد كانوا يعيشون في بلد تجرد تمامًا من إنسانيته بفيضانات العنف المتواصلة التي تغرقه، حتى إن مذبحة الأقصر لم تؤثر فيهم كثيرًا، بل لقد ألهمتهم ثورة طالبان أن يصبحوا أكثر دموية وتعصبًا. ومع ذلك، فقد كانت هناك وقفة مع النفس بعد حادث الأقصر مباشرة بين القادة الذين أخذوا يحللون المأزق الذي وقعوا فيه ويضعون خطة لنصرة الإسلام والمواجهة الأخيرة مع الكفار.

وكانت النقطة المحورية في تحليلهم للموقف هي أن الأمة الإسلامية في شقاء بسبب القيادة غير الشرعية. ثم سأل الجهاديون أنفسهم: من المسئول عن ذلك الموقف؟ وأشاروا بأصابع الاتهام إلى ما أطلقوا عليه التحالف المسيحي اليهودي الذي ظهر بعد اتفاقية سايكوس-بيكو عام ١٩١٦م، التي قسمت فيها إنجلترا وفرنسا العالم العربي بينهما، وتصريح بلفور في العام التالي الذي دعا إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين. وبعد ذلك بوقت قصير انهارت الإمبراطورية العثمانية، ومعها الخلافة الإسلامية. وقد رأوا كل ذلك على أنه حملة مستمرة من التحالف المسيحي اليهودي للقضاء على الإسلام باستخدام أدوات مثل الأمم المتحدة والقادة العرب المذعنين والشركات متعددة الجنسيات والقنوات الفضائية ووكالات الإغاثة الدولية.

twitter @baghdad_library

كانت الجماعات الإسلامية في الماضي تظهر وتفشل بسبب الشقاق وغياب خطة عمل واضحة. لذا، ففي يناير/كانون الثاني من عام ١٩٩٨م، بدأ الظواهري يكتب مسودة إعلان رسمي يوحد جميع جماعات المجاهدين المختلفة التي تجمعت في أفغانستان تحت لواء واحد، وهذا من شأنه أن يحول الحركة بعيدًا عن الصراعات الإقليمية ويوجهها إلى الجهاد الإسلامي العالمي ضد أمريكا.

كانت لغة الظواهري بليغة ودقيقة مقارنة ببيان إعلان الحرب الذي أصدره بن لادن قبل عامين. وقد استشهد الظواهري بثلاث مظالم ضد الأمريكيين؛ أولًا: استمرار وجود القوات الأمريكية في المملكة العربية السعودية بعد سبع سنوات من انتهاء حرب الخليج، وقال: «إذا كان البعض قد شك فيما مضى في حقيقة أنه احتلال، فجميع شعوب شبه الجزيرة العربية الآن يعترفون به.» وثانيًا: اعتزام أمريكا تدمير العراق الذي أكده موت ما قال إنه أكثر من مليون مدني، وثالثًا: هدف أمريكا المتمثل في دعم إسرائيل عن طريق إضعاف الدول العربية التي يعد ضعفها وتفككها هو الضمان الوحيد لاستمرار إسرائيل.

وكل ذلك يعادل: «حرب على الله ورسوله والمسلمين.» ومن ثم، أصدر أعضاء التحالف فتوى تقول: «إن قرار قتل الأمريكان وحلفائهم، مدنيين وعسكريين، واجب فردي على كل مسلم قادر على تنفيذه في أي بلد تتاح فيه الفرصة.»

وفي الثالث والعشرين من فبراير/شباط، نشرت جريدة القدس العربي في لندن نص الفتوى التي أصدرها التحالف الجديد الذي أطلق على نفسه «الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين» وقد وقع على تلك الوثيقة بن لادن بصفته الشخصية، والظواهري بصفته قائد جماعة الجهاد، ورفاعي طه بصفته قائد الجماعة الإسلامية، ورموز المعارضة الباكستانية: الشيخ مير حمزة أمين عام جمعية العلماء، وفضل الرحمن قائد حركة الأنصار، والشيخ عبد السلام محمد خان قائد جماعة حركة الجهاد البنجلاديشية. ولكنهم لم يستخدموا اسم القاعدة، فكان وجودها لا يزال سرًّا مكنونًا.

أما خارج أفغانستان، فقد استقبل أعضاء الجماعة الإسلامية البيان بالاستنكار، فبعد كارثة الأقصر، شعروا بذعر شديد حين وجدوا أنفسهم جزءًا من تحالف لم يطلب منهم أحد الانضمام إليه. ولذا أرغم طه على سحب اسمه من الفتوى بعد أن تذرع بحجة واهية أمام زملائه من أعضاء الجماعة الإسلامية قائلًا: إنهم طلبوا منه على الهاتف الانضمام إلى بيان لتأييد الشعب العراقي.

وقد أثار ذلك البيان أيضًا ضجة كبيرة داخل جماعة الجهاد. فعقد الظواهري اجتماعًا مع أعوانه في أفغانستان ليشرح لهم التنظيم العالمي الجديد، وقد اتهمه الأعضاء بالابتعاد عن هدفهم الأساسي وهو الاستيلاء على مقاليد الحكم في مصر، واعترضوا على انجراف جماعة الجهاد إلى حرب بن لادن المتغطرسة ضد أمريكا. بل إن بعضهم اعترض على بن لادن شخصيًّا قائلين: إن له «ماضيًا أسود» ولا يمكن الوثوق به رئيسًا لهذا التحالف الجديد. وقد رد الظواهري على هذا الهجوم على بن لادن عن طريق رسالة بالبريد الإليكتروني جاء فيها: «إذا كان المقاول (بن لادن) قد قطع فيما مضى وعودًا لم يفِ بها، فقد تغير الرجل الآن ... حتى في هذا الوقت، فإن كل شيء نتمتع به تقريبًا هو بفضل الله أولًا ثم بفضله.» وبهذا، أصبح ارتباط أيمن الظواهري بأسامة بن لادن كاملًا، فبدون نقود بن لادن، على قلتها آنذاك، لا توجد جماعة الجهاد.

وفي النهاية، تعهد الظواهري بالاستقالة إذا لم يوافق الأعضاء على أعماله. ولقد كانت الجماعة تمر بمرحلة من الفوضى والارتباك بسبب حملات الاعتقالات وانشقاق الأعضاء وتقف على شفا الإفلاس حتى إنه لم يكن أمامهم سوى اتباع الظواهري أو ترك الجماعة. وقد اختار العديد من الأعضاء، ومنهم محمد شقيق الظواهري الذي كان قائده العسكري أيضًا، الخيار الثاني. لقد كان الشقيقان معًا منذ أيام العمل السري، وكانا يختلفان في بعض الأحيان؛ فذات مرة، اتهم أيمن شقيقه بسوء إدارة المصادر المالية المحدودة للجماعة أمام زملائهما. وكان محمد شخصية مشهورة، وبصفته نائب الأمير كان يدير الجماعة عندما يكون أيمن في أي من رحلاته الطويلة أو في السجن. ولكن كان التحالف مع بن لادن أكثر مما يستطيع محمد احتماله، وشكل انشقاقه عن الجماعة صدمة كبيرة.

حاول الكثير من أعضاء الجماعة الإسلامية أن يجعلوا الشيخ الكفيف هو أمير الجبهة الإسلامية الجديدة، ولكن لم يلق أحد بالًا للاقتراح لأن الشيخ عمر في السجن في أمريكا. وكان بن لادن قد سئم الصراع الداخلي الدائر بين الجماعتين المصريتين، فأخبرهما أن عملياتهما في مصر كانت غير مجدية ومكلفة للغاية وقد حان الوقت «لتصويب أسلحتهم» إلى الولايات المتحدة وإسرائيل. وقد اعترف أحمد النجار مساعد الظواهري بعد ذلك للمحققين المصريين: «لقد سمعت بنفسي بن لادن يقول: إن هدفنا الرئيسي الآن مقصور على بلد واحد هي الولايات المتحدة الأمريكية، ويشمل هذا شن حرب عصابات على المصالح الأمريكية، ليس فقط في المنطقة العربية، ولكن في جميع أنحاء العالم أيضًا.»

twitter @baghdad_library

في هذه الصورة، يعرض سيد قطب، المعلم والأديب الذي أشعل كتابه «معالم في الطريق» فتيل الحركة الإسلامية المتطرفة، أحد كتبه (وهو على الأرجح كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام») على الدكتور ويليام روس، رئيس كلية ولاية كولورادو للتربية.

صورة من أعلى لمدينة جريلي في ولاية كولورادو في أربعينيات القرن العشرين وقد كتب عنها قطب: «وهذه المدينة الصغيرة «جريلي» التي أقيم بها الآن. إنها جميلة جميلة، حتى يخيل للإنسان أنه في الجنة.» ولكنه رأى أيضًا الجانب المظلم من أمريكا.

صورة لقطب في المحكمة في عام ١٩٦٥م تقريبًا، وقد نُفِّذ فيه حكم الإعدام عام ١٩٦٦م. وقال عندما صدر هذا الحكم ضده: «الحمد لله. لقد عملت خمسة عشر عامًا لنيل الشهادة.»

نشأ أيمن الظواهري في المعادي وهي ضاحية المستوى في القاهرة. وكان الظواهري طفلًا منطويًا وكان زملاؤه في الفصل يعتبرونه عبقريًّا. وهذه إحدى صوره في طفولته في أحد متنزهات القاهرة

(إلى اليمين): الظواهري وهو طفل في المدرسة، وبالأسفل صورته وهو طالب في كلية الطب جامعة القاهرة

(أسفل في الصفحة المقابلة): كان أيمن الظواهري المدعى عليه رقم ١١٣ بين ٣٠٢ متهم إما بالمساعدة في عملية اغتيال أنور السادات في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٨١م أو بالتخطيط للعملية. وقد أصبح المتحدث باسم المتهمين نظرًا لإجادته الإنجليزية أفضل منهم. ويظهر في هذه الصورة وهو يتحدث إلى الصحافة العالمية في ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٨٢م. ويرى الكثيرون أن التعذيب الذي تعرض له المعتقلون في السجون المصرية هو السبب الرئيسي لوحشية الحركة الإسلامية. فقد قال الظواهري: «لقد كانوا يركلوننا ويضربوننا ويجلدوننا بأسلاك الكهرباء! لقد صعقونا بالكهرباء! وأطلقوا علينا الكلاب المتوحشة!»

twitter @baghdad_library

المدعى عليهم أثناء المحاكمة

(إلى اليسار): كان الشيخ عمر عبد الرحمن «الشيخ الضرير» واحدًا من المدعى عليهم، وقد كان حينذاك أمير الجماعة الإسلامية.

(إلى اليسار): جاء محمد بن لادن إلى السعودية عام ١٩٣١م، وكان عاملًا بعد ذلك المقاول يمنيًا مُعدمًا، وأصبح المفضل لدى الملك والرجل الذي شيد جزءًا كبيرًا من البنية التحتية للمملكة العربية السعودية الحديثة. وهو يشير في هذه الصورة إلى الأمير طلال بن عبد العزيز في أثناء جولة تفقدية لترميم المسجد الحرام في مكة عام ١٩٥٠م تقريبًا.

(إلى اليمين) توضح الصورة محمد بن لادن والملك فيصل، وكان الأخير يأتي في أثناء بناء الطريق إلى الطائف للإشراف على تقدم عملية البناء ويسأل عن أسباب تجاوز النفقات للميزانية وعندما اكتمل بناء ذلك الطريق، توحدت المملكة أخيرًا وأصبح محمد بن لادن بطلًا قوميًا.

(إلى اليسار): استغرق تجديد المسجد الحرام عشرين عامًا، وأصبح يستوعب مليون حاج في الوقت نفسه.

twitter @baghdad_library

انتقل جمال خليفة، صديق بن لادن في الجامعة الذي أصبح فيما بعد زوج أخته، إلى منزل بن لادن هو وزوجته الأولى. وقد افترقا بسبب المناقشة حول موضوع تكوين فيلق من العرب فقط في أفغانستان، الذي كان سلفًا للقاعدة.

انتقل أسامة بن لادن إلى هذا المنزل في مدينة جدة مع والدته بعد أن طلقها محمد بن لادن.

منزل أسامة بن لادن الثاني في جدة الذي يتكون من أربع شقق سكنية، والذي اشتراه بعد أن أصبح له أكثر من زوجة.

(أسفل في الصفحة المقابلة): جهيمان العتيبي، قائد الهجوم على المسجد الحرام عام ١٩٧٩م، الأمر الذي كان نقطة تحول في تاريخ المملكة العربية السعودية. ولقد أنذرت مطالب المتمردين بالمطالب التي ستكون أجندة بن لادن بعد ذلك. وعندما التمس العتيبي العفو بعد إلقاء القبض عليه، قال له الأمير تركي رئيس المخابرات السعودية: «اطلب من الله أن يسامحك!»

عبد الله عزام الذي أصدر فتوى عام ١٩٨٤م تدعو المسلمين في كل مكان أن «ينضموا إلى قافلة» الجهاد الأفغاني. وقد أنشأ هو وبن لادن مكتب الخدمات في بيشاور لتسهيل انتقال العرب إلى أرض المعركة.

بن لادن وهو في كهف في جلال أباد في عام ١٩٨٨م، في الوقت نفسه تقريبًا الذي ولدت فيه القاعدة.

(بالأسفل): الشيخ عزام وهو في وادي بنجشير عام ١٩٨٨م حيث سافر للقاء أحمد شاه مسعود، أبرز القادة الأفغان في الحرب ضد الغزو السوفيتي. وفي هذه الصورة، يجلس مسعود بجوار عزام وهو يطوق بذراعه كتفي إبراهيم ابن عزام. وبعد هذه الزيارة بوقت قصير، اغتيل عزام مع اثنين من أولاده، منهما إبراهيم، في حادث انفجار لم يُحل لغزه قط.

twitter @baghdad_library

الجنرال حميد جول الذي كان يدير المخابرات الباكستانية في أثناء الجهاد الأفغاني. وقد قدمت الولايات المتحدة والسعودية مئات الملايين من الدولارات إلى الحرب عبر المخابرات الباكستانية، التي كانت مسئولة في المقام الأول عن نشأة حركة طالبان عندما انسحب السوفييت من أفغانستان.

(إلى اليمين): كان الأمير تركي الفيصل، رئيس، المخابرات السعودية هو المسئول عن ملف أفغانستان وكان يتعاون آنذاك مع بن لادن. وقد تفاوض في وقت لاحق مع الملا محمد عمر قائد طالبان، إلا أنه عاد خاوي اليدين .

صورة للأمير تركي وهو يتوسط بين المجاهدين المتحاربين بعد انتهاء الاحتلال السوفييتي، و هو يجلس إلى أقصى اليسار بجوار برهان الدين رباني، رئيس حزب أحمد شاه مسعود السياسي، في حين يجلس رئيس الوزراء الباكستاني نواز شريف إلى اليمين.

صورة لمركز التجارة العالمي من نيوجيرسي حيث خطط أتباع الشيخ عمر عبد الرحمن لتدميره

كان رمزي يوسف هو العقل المدبر لتفجير مركز التجارة العالمي المرة الأولى، ولقد كان خياله الأسود هو الذي شكل أجندة القاعدة الطموحة.

twitter @baghdad_library

حسن الترابي المفكر الثرثار الاستفزازي الذي دبر الانقلاب الإسلامي في السودان وتودد إلى بن لادن لكي يستثمر أمواله في السودان. وقد قال أحد الأصدقاء سرًّا: «لقد كان بن لادن يكره الترابي، ويرى أنه مكيافيللي.» ولقد جاء بن لادن إلى السودان رجلًا ثريًّا، وغادر وهو لا يملك سوى القليل.

عندما كان بن لادن في السودان، نزع عنه ملك السعودية جنسيته وأرسل رسولًا إليه ليسترد جواز سفره، فألقاه بن لادن في وجه الرسول وقال له: «خذه، إذا كان وجوده معي يعني أي شيء من جانبي.»

كان بن لادن يسير كل صباح من منزله إلى المسجد ومعه أتباعه، وكان يبقى في المسجد ليدرس مع علماء الدين وكثيرًا ما كان يتناول إفطاره معهم قبل أن يذهب إلى مكتبه.

عاد أسامة بن لادن إلى أفغانستان عام، ١٩٩٦م وكان عادةً ما يحمل سلاحه من طراز كاليكوف أيه كيه- ٧٤ الذي حصل عليه كجائزة في الجهاد ضد السوفييت.

(أعلى الصفحة المقابلة): الظواهري وبن لادن يعقدان مؤتمرًا صحفيًا في أفغانستان في مايو/أيار عام ١٩٩٨م. وفي أفغانستان، أصبح مصير الرجلين مرتبطًا بصورة لا رجعة فيها، وفي نهاية المطاف اندمجت منظمتاهما الإرهابيتان؛ القاعدة والجهاد، في منظمة واحدة أيضًا.

مقاتلو طالبان وهم يتجهون إلى الجبهة لمحاربة التحالف الشمالي في عام ٢٠٠١ م. وقد ولدت حركة طالبان في ظل الفوضى التي كانت سمة حكم المجاهدين في عام، ١٩٩٤م ثم بدأوا سريعًا يتحركون لإحكام قبضته محلى أفغانستان. وفي البداية، لم يعرف بن لادن وأتباعه من هؤلاء الرجال بالضبط، وكانت هناك شائعات تقول إنهم شيوعيون.

twitter @baghdad_library

صورة لقصر دار الأمان في كابول، وقد علق هذا القصر بين الأطراف المتصارعة في أثناء الحرب الأهلية التي نشبت عقب الانسحاب السوفييتي. وبعد خمسة وعشرين عامًا من الحروب المتواصلة، خرجت أفغانستان والجزء الأكبر منها أنقاض.

(بالأعلى): أنقاض السفارة الأمريكية في نيروبي بكينيا التي فُجِّرت في السابع من أغسطس/آب عام ١٩٩٨م، وتعد هذه العملية أول ضربة إرهابية للقاعدة تسجلها الوثائق الرسمية. وقد أسفرت هذه العملية عن مقتل ٢١٣ شخصًا وإصابة الآلاف، كما أصيب أكثر من ١٥٠ شخصًا بالعمى بسبب الزجاج المتطاير.

(إلى اليمين) انفجرت السفارة الأمريكية في دار السلام في تنزانيا بعد تسع دقائق تاركة وراءها أحد عشر قتيلًا وخمسة وثمانين جريحًا.

(إلى اليسار) ردت إدارة كلينتون على العمليتين بتدمير عدد من معسكرات التدريب التابعة للقاعدة في أفغانستان ومصنع الشفاء للأدوية في الخرطوم الذي يظهر في هذه الصورة. وقد قتل حارس ليلي في المصنع، واتضح بعد ذلك أن المنشأة ليست لها أية علاقة بإنتاج أسلحة كيميائية أو بيولوجية.

twitter @baghdad_library

المدمرة يو إس إس كول بعد هجوم انتحاري نفذه اثنان من عملاء القاعدة في قارب صيد في أكتوبر / تشرين الأول من عام ٢٠٠٠م. وقد أسفر ذلك الهجوم تقريبًا عن إغراق واحدة من أكثر السفن الحصينة في البحرية الأمريكية، ومقتل سبعة عشر بحارًا. وقد قال بن لادن: «كانت المدمرة تمثل عاصمة الغرب، والقارب الصغير يمثل محمدًا.»

صورة لمايكل شوير الذي أنشأ أليك ستيشن، مكتب المخابرات الأمريكية المسئول عن تتبع أسامة بن لادن. وقد كان هو وجون أونيل غريمين لدودين.

اقترح ريتشارد كلارك، قيصر مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، أن يخلفه أونيل في منصبه، وهو العرض الذي ربما قاد إلى نهايته.

رأت فاليري جيمس جون أونيل في إحدى الحانات في شيكاغو عام ١٩٩١م واشترت له مشروبًا لأن «لديه أكثر عينين جذابتين رأيتهما». وكان أونيل متزوجًا في ذلك الوقت، وهو الأمر الذي لم يفصح عنه للنساء الكثيرات اللائي كان يصادقهن.

وفي الوقت الذي كان أونيل يقابل فيه فاليري في شيكاغو، طلب من ماري لين ستيفينز في واشنطن العاصمة «أن ينفرد وحده بقلبها».

وفي واشنطن، كان أونيل أيضًا على علاقة بأنا ديباتيستا، وقد حذرها القس في الكنيسة التي تتردد عليها قائلًا: «هذا الرجل لن يتزوجك أبدًا.»

twitter @baghdad_library

ودع جون أونيل دانيال كولمان وزملاءه الآخرين في مكتب التحقيقات الفيدرالي في حفلة قهوة أقيمت بمناسبة تقاعده من العمل في مكتب التحقيقات في الثاني والعشرين من أغسطس/ آب عام ٢٠٠١م، وفي اليوم التالي بدأ عمله في مركز التجارة العالمي.

(بالأعلى) بعد أن نجح علي صوفان (يقف إلى اليسار مع العميل الخاص جورج كراوتش George Crouch) في الحصول على أسماء مختطفي الطائرات من أعضاء القاعدة المشتبه بهم في اليمن، سافر إلى أفغانستان. وهو يقف في هذه الصورة على أنقاض ما كان مخبأ بن لادن في كابول.

كانت جنازة أونيل الصدفة المفجعة التي ظل يخشاها طوال حياته. وتظهر في الصورة والدته دوروثي Dorothy وزوجته كريستين وهما تغادران كنيسة سانت نيكولاس في مدينة أتلانتيك سيتي، وقد حضر معهما الجنازة ألف شخص ممن حزنوا لموت أونيل.

ظلت أنقاض مركز التجارة العالمي تحترق لمدة مائة يوم، وقد عُثِر على جثة جون أونيل بعد عشرة أيام من هجمات ١١ سبتمبر/أيلول.

twitter @baghdad_library

الفصل السادس عشر

وبدأت اللعبة

بدأ طالع القاعدة يتحسن بعد الفتوى التي أصدرها التحالف بقتل الأمريكيين حيثما وجدوا. وحتى ذلك الوقت، كان اسم بن لادن وقضيته غير معروفين خارج المملكة العربية السعودية والسودان، ولكن أخبار تلك الفتوى أثارت حماسة جيل جديد من المقاتلين. وقد جاء بعضهم من المدارس الدينية في باكستان والبعض الآخر من شوارع القاهرة أو طنجة. وتردد صدى تلك الدعوة أيضًا بين الجاليات المسلمة المقيمة في الغرب. ففي مارس/آذار من عام ١٩٩٨م، أي بعد شهر واحد من إصدار الفتوى، جاء أحمد رسام من مونتريال لينضم إلى المجاهدين. وهو لص صغير من أصل جزائري سُيقبَض عليه فيما بعد بتهمة محاولة تفجير مطار لوس أنجلوس الدولي، وكان رسام واحدًا من قرابة ثلاثين جزائريًا في معسكر خالدان الذي يعد نقطة الدخول لمتدربي القاعدة في أفغانستان. وفي الشهر نفسه، وصل زكريا موسوي Zacarias Moussaoui، وهو مواطن فرنسي من أصل مغربي كان يعيش في لندن، الذي اعترف بعد ذلك أمام المحكمة بجريمة التخطيط لمهاجمة الولايات المتحدة الأمريكية. وقد وصل إلى خالدان أيضًا شباب من اليمن والسعودية والسويد وتركيا والشيشان، وكان لكل جنسية أميرها. وقاموا بتأسيس خلايا تمكنوا بعد ذلك من نقلها وزراعتها في بلادهم الأم أو في البلاد التي تبنتهم. وقد ذهب بعضهم للقتال في كشمير والشيشان، والعديد منهم قاتل في صفوف طالبان.

كانت الدعاية هي العملة التي ينفقها بن لادن بدلًا من نقوده مستعيضًا عن ثروته بالشهرة التي كانت تعود عليه بالمجندين والتبرعات. ومع أنه تعهد للملا عمر أن يظل صامتًا، فقد أتبع بن لادن الفتوى بسلسلة من المؤتمرات واللقاءات الصحفية؛ أولها مع مجموعة تتكون من أربعة عشر صحفيًا باكستانيًا قادهم رجاله إلى المكان الذي يوجد فيه بعد أن ظلوا يدورون بهم في دوائر مفرغة لمدة يومين قبل

أن يصلوا بهم إلى معسكر القاعدة على بعد أميال قليلة فقط من المكان الذي بدءوا منه رحلتهم. وقد انتظروا ظهور بن لادن بعض الوقت دون أيما عمل، وفجأة دوى صوت وابل من النيران والقنابل الصاروخية لإعلان وصول بن لادن في موكب يتكون من أربع شاحنات خفيفة مصحوبًا بحراس يغطون وجوههم. وقد فزع كلب ضال من تلك الأصوات، فركض يبحث عن مخبأ وانزلق خلف إحدى الأشجار.

رأى الصحفيون الباكستانيون أن الحدث مدبرًا واستعراضيًّا، ولم يكونوا مهتمين بإعلان بن لادن الحرب على أمريكا الذي بدا حينها وسيلة دعائية سخيفة؛ فقد كانت الهند اختبرت لتوها جهازًا نوويًا، وأراد الصحفيون أن يعلن بن لادن الجهاد على الهند بدلًا من أمريكا. فأصيب بن لادن بالإحباط وحاول أن يعيد توجيه اهتمام الصحفيين مرة أخرى للحديث عن أجندته الخاصة، فقال: «دعونا نتحدث عن المشكلات الحقيقية.»

وفي أثناء اللقاء، أجاب بن لادن بأسلوب فلسفي على أحد الأسئلة المتفق عليها التي ألقاها عليه أحد أتباعه قائلًا: «الإرهاب قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا. فترويع إنسان بريء وإرهابه أمر مذموم وجائر، وكذلك إرهاب الناس بغير حق، أما إرهاب الطغاة والمجرمين واللصوص وقطاع الطرق فهو أمر ضروري لسلامة الشعوب وحماية ممتلكاتهم ... أما الإرهاب الذي نمارسه نحن فهو من الإرهاب المحمود.»

بعد انتهاء اللقاء الرسمي، انتحى رحيم الله يوسفزاي، الصحفي بجريدة نيوز في إسلام أباد، ببن لادن جانبًا وطلب منه أن يتحدث إليه قليلًا عن حياته الخاصة، فعلى سبيل المثال، كم عدد زوجاته وكم أنجب من أطفال؟

فأجابه بن لادن ضاحكًا: «لا أتذكر العدد.»
فقال يوسفزاي: «إنك تعرف على الأقل عدد زوجاتك؟»
فأجابه بن لادن: «أعتقد أن لدي ثلاث زوجات، ولكني لا أتذكر عدد أولادي.»

فسأله يوسفزاي بعد ذلك عن الثروة التي يمتلكها، فوضع بن لادن يده على قلبه وابتسم قائلًا: «ثروتي هنا»، واستمر في المراوغة في الإجابة عن الأسئلة الشخصية.

فور عودة يوسفزاي إلى بيشاور، تلقى مكالمة هاتفية من الملا عمر الذي سأله وهو يستشيط غضبًا: «بن لادن يعقد مؤتمرات صحفية ويعلن الجهاد دون حتى أن يبلغني! لا يمكن أن يكون هناك أكثر من حاكم في أفغانستان؛ إما أنا أو بن لادن.»

twitter @baghdad_library

كان صوت بن لادن يدفع ضريبة تلك اللقاءات، مع أنه كان يحتسي كميات هائلة من الشاي والمياه. فكان في اليوم التالي لا يتحدث على الإطلاق ويتواصل مع من حوله بالإشارة بسبب الالتهابات الحادة في أحباله الصوتية. وقد ادعى الحارس الخاص به أن السبب في هذا يرجع إلى الآثار المتخلفة عن الأسلحة الكيميائية السوفييتية، ولكن بعض الصحفيين استنبطوا أنه كان يعاني مرضًا في الكلى، وذلك هو مصدر الخرافة التي ظلت تلاحقه بدون سند.

بعد يومين من الحديث إلى الصحافة الباكستانية، استقبل بن لادن صحفيًّا اسمه جون ميلر John Miller وطاقم عمل من شبكة أيه بي سي نيوز الإخبارية. وقبل عقد اللقاء، جاء المراسل الأمريكي صعب المراس إلى المعسكر وجلس على أرض أحد الأكواخ مع الظواهري يشرح له احتياجات فريقه، فقال: «إننا نحتاج يا دكتور إلى لقطات لبن لادن وهو يتجول في المعسكرات ويتفاعل مع رجاله ويراقبهم وهم يتدربون أو غير ذلك، ومن ثم يكون لدينا بعض المشاهد التي نروي عليها قصته.» فأومأ الظواهري متفهمًا ما يتحدث عنه، وقال: «إنك تحتاج إلى لقطات 'B' Roll» مستخدمًا المصطلح الفني لهذا النوع من التغطية الصحفية، ثم ابتسم في خفوت واستأنف: «سيد ميلر، يجب أن تفهم أن هذا ليس مثل اللقاءات التي يجريها الصحفي سام دونالدسون Sam Donaldson الذي يعمل في وكالتكم وهو يتجول مع الرئيس في روز جاردن، فالسيد بن لادن «شخص مهم للغاية».»

خطر على ذهن ميلر حينها أن الظواهري قد يكون هو القوة الحقيقية وراء القاعدة، ولكن في تلك اللحظة وصل بن لادن في نفس الموكب الاستعراضي المروع مع وابل من الطلقات النارية كما حدث من قبل. وعلى صوت صرير الجداجد خارج الكوخ الطيني، سأل ميلر بن لادن ما إذا كانت فتواه موجهة لتشمل جميع الأمريكيين أم القوات العسكرية فقط، فأجابه بن لادن بهدوء: «عبر التاريخ، لم تُعرَف أمريكا بأنها تفرِّق بين العسكريين والمدنيين أو بين الرجال والنساء أو الكبار والأطفال.» ورمق الصحفي الأمريكي بنظرة خجولة خبيثة كما لو كان قلقًا من أن يكون قد أساء إليه، ثم أردف قائلًا: «إننا نتوقع مستقبلًا أسود لأمريكا، فبدلًا من أن تبقى ولايات متحدة، سينتهي بها الحال إلى ولايات متفرقة» أي مثل الاتحاد السوفييتي. وكان بن لادن يرتدي في أثناء اللقاء عمامة بيضاء وسترة عسكرية خضراء، وتلوح من وراء رأسه خريطة كبيرة لأفريقيا — مفتاح لغز لم يلحظه أحد.

ختم ميلر الحوار قائلًا: «إنك تبدو كنسخة شرقية من تيدي روزفلت.»

وفي أثناء اللقاء، احتشد العديد من أتباع بن لادن في الكوخ. وكان اثنان من رجاله السعوديين وهما: محمد العوهلي، و«جهاد علي» عزام يعدان لأول عملية كبرى للقاعدة في الشهر التالي. وبعد أن انتهى طاقم ميلر من التسجيل، قام خبراء بن لادن الفنيون بمحو وجوه السعوديين من على شريط الفيديو قبل أن يعيدوه إلى الأمريكيين.

في ذلك اللقاء، سأل ميلر عن والي خان أمين شاه الذي ألقي القبض عليه في مانيلا، فقال: «تعتقد السلطات الأمريكية أنه كان يعمل لديك، وأنك تموله لإقامة معسكرات تدريب هناك وكان جزء من هذه الخطة ... اغتيال أو محاولة اغتيال الرئيس كلينتون في أثناء رحلته إلى مانيلا.» فأجابه بن لادن بهدوء قائلًا: إن خان «صديق مقرب، أما فيما يتعلق بما قلته عنه بأنه يعمل لحسابي، فليس لدي ما أقوله في هذا الشأن. إننا جميعًا معًا في هذا الأمر.»

كان من المفترض أن يكون خبر وجود خان في أيدي السلطات الأمريكية سرًّا، ولكن شخصًا ما سرب تلك المعلومات إلى ميلر. وقد ثارت ثائرة بعض العملاء في مكتب التحقيقات الفيدرالي ومكتب المدعي العام الأمريكي عندما ذُكِر اسم خان مباشرة أمام بن لادن على شاشة التليفزيون. وكانوا يعلمون أن جون أونيل صديق كريستوفر إيشام Christopher Isham منتج برامج التحقيقات في شبكة أيه بي سي نيوز، وأنهما غالبًا ما يحتسيان الشراب معًا في حانة إيلاين. وقد ثارت ثائرة باتريك فيتزجيرالد مساعد المدعي العام للمنطقة الجنوبية من نيويورك حتى إنه هدد بمقاضاة أونيل. ولكن أنكر كل من إيشام وميلر أن أونيل هو مصدر تلك المعلومة، وتطوعا للخضوع لاختبار كشف الكذب لإثبات صدقهما، فتراجع فيتزجيرالد ولكن ظل الادعاء بأن أونيل يتحدث بعدم اكتراث أمام الصحفيين يشوه سمعته. ولم يشفع له أن تحريات بعض الصحفيين عن بن لادن كانت أكثر جدوى من تحريات الأوساط الاستخباراتية الأمريكية.

في الواقع، لم يكن للمخابرات الأمريكية أي عيون داخل القاعدة أو قوات أمن طالبان المحيطة ببن لادن، ولكن كان لديها بعض الصلات بعدد قليل من رجال القبائل الأفغان، بعض العملاء المتبقين من أيام الجهاد ضد السوفييت. وفي أليك ستيشن، أعد مايكل شوير خطة لاستخدامهم في اختطاف بن لادن، فكان من المُفترض أن

twitter @baghdad_library

يتسلل الأفغان عبر قناة الصرف الصحي التي تجري أسفل السياج الخلفي لمزارع تارناك. وتتسلل مجموعة أخرى من الأفغان عبر البوابة الأمامية ومعهم مسدسات مزودة بكواتم للصوت لقتل كل من يعترض طريقهم. وعندما يعثرون على بن لادن، يختطفونه ويخبئونه في كهف على بعد ثلاثين ميلًا. فإذا قُبِضَ عليهم، لن يكون للأمريكيين أية علاقة بعملية الاختطاف، أما إذا نجحوا فسيسلم الأفغان بن لادن إلى الأمريكيين بعد شهر أو أكثر بعد أن تيأس فرق البحث وتتوقف عن البحث عنه.

أعدت المخابرات الأمريكية ما يشبه حاوية شحن تجاري تناسب الجزء المخصص للبضائع في الطراز المدني من الطائرة سي-١٣٠. وداخل الحاوية يوجد مقعد كالذي يستخدم في عيادات الأسنان مزود بقيود معدة لرجل شديد الطول (فقد كانت المخابرات الأمريكية تعتقد أن طول بن لادن ستة أقدام وخمس بوصات) وكان من المقرر أن يكون هناك طبيب داخل الصندوق بحوزته مجموعة كبيرة من المعدات الطبية، بما في ذلك جهاز غسيل الكُلى في حالة ما إذا كان بن لادن يعاني بالفعل مشكلات في الكلى. بل لقد أعدت الوكالة أيضًا مدرجًا احتياطيًّا لهبوط وإقلاع الطائرات في حظيرة طائرات خاصة بالقرب من مدينة إلباسو في تكساس، بحيث يتم الهبوط في أثناء الليل دون استخدام أنوار ويرتدي الطيارون نظارات للرؤية الليلية.

وقد كانت خطة شوير هي تسليم بن لادن للسلطات المصرية حيث يجري استجوابه بلا رحمة ثم التخلص منه بهدوء، ولكن جون أونيل اعترض بغضب شديد على هذه الفكرة؛ فهو رجل قانون، وليس قاتلًا. لقد أراد القبض على بن لادن ومحاكمته في أمريكا، وقد احتكم إلى جانيت رينو المدعية العامة الأمريكية التي وافقت أن يكون بن لادن في قبضة مكتب التحقيقات في حالة نجاح عملية القبض عليه بالفعل. وسرعان ما وجد دانيال كولمان نفسه في مدينة إلباسو يتدرب على دوره ضابطًا مسئولًا عن اعتقال بن لادن. فبعد أن تهبط الطائرة ويُفتَح باب البضائع، تُخرج الحاوية وبداخلها الإرهابي المصفد بالقيود وتُدْخل إلى الحجيرة المعدة لاستقبالها. وسيدخل كولمان إلى الحاوية ليجد أسامة بن لادن مقيدًا إلى مقعد علاج الأسنان، فيقرأ عليه حقوقه طبقًا للقانون الأمريكي.

لكن لكي يفعل ذلك، كان بحاجة إلى توجيه اتهام محدد له، وقد كانت هناك بالفعل هيئة محلفين كبرى في نيويورك تستمع إلى أدلة حتى في الوقت الذي كان يتدرب فيه على العملية. وكان أحد المستندات التي عثر عليها كولمان على جهاز الكمبيوتر الخاص بوديع الحاج في نيروبي يشير إلى وجود علاقة غير مؤكدة بين

القاعدة ومقتل جنود أمريكيين في الصومال، وقد أصبح ذلك هو أساس التهمة الجنائية التي وجهت إلى بن لادن في النهاية في نيويورك في يونيو/حزيران من عام ١٩٩٨م. ولكن أُسْقطت هذه التهم بالتحديد فيما بعد، ولم تثبت أية شهادات في محاكمات لاحقة لإرهابيين مسئولية القاعدة أو بن لادن عن مقتل أمريكيين، أو أي شخص آخر، قبل شهر أغسطس/آب من ذلك العام. ولو كانوا نجحوا في إلقاء القبض على بن لادن حينذاك، كان على الأرجح لن يدان.

ولكن الصراع بين أونيل ممثلًا عن مكتب التحقيقات الفيدرالي وشوير عن المخابرات المركزية، بالإضافة إلى معارضة مجلس الأمن القومي لما اعتبره عملية دموية فاشلة ومثيرة للخجل، أوقف تنفيذ العملية. وبدافع من اليأس، توجه جورج تينيت George Tenet، مدير المخابرات الأمريكية، إلى المملكة العربية السعودية مرتين في شهر مايو/أيار من عام ١٩٩٨م يستجدي مساعدة السعوديين. وطبقًا لما قاله شوير، فإن ولي العهد الأمير عبد الله أوضح صراحة أنه إذا تمكن السعوديون من انتزاع بن لادن من طالبان، فإن المخابرات الأمريكية «لن تتفوه بكلمة قط».

كان لدى السعوديين ما يقلقهم من بن لادن، فقد نمى إلى علم الأمير تركي أنه حاول تهريب أسلحة إلى أتباعه داخل المملكة لمهاجمة مراكز الشرطة. وقد اشتكت السلطات السعودية مرارًا وتكرارًا لحركة طالبان من أن بن لادن يدس أنفه في الشئون الداخلية السعودية، ولكن دون جدوى. وفي النهاية، في يونيو/حزيران من عام ١٩٩٨م، استدعى الملك الأمير تركي وقال له: «أنهِ هذا الأمر».

هبطت الطائرة التي تقل الأمير تركيًا في مطار قندهار الذي يقع مباشرة على الجانب الآخر من مزارع تارناك التي تشبه الحصن. وحتى ذلك الوقت، لم يكن تركي قد قابل الملا عمر. واصطحب الأمير إلى منزل ضيوف متداع للسقوط كان فيما مضى منزل تاجر ثري، أحد بقايا ما كان يومًا مدينة جميلة. تقدم الملا عمر وهو يعرج لتحية الأمير، وقد بدا القائد الأعور نحيفًا وشاحب اللون وذا لحية طويلة، وبدا أنه يعاني نوعًا من العجز في إحدى يديه التي كان يضمها إلى صدره. ولقد كانت إصابات الحروب والإعاقات شائعة جدًا في أفغانستان، وكان معظم أعضاء مجلس وزراء طالبان والحكام قد فقدوا طرفًا أو أكثر أو يعانون إعاقات خطيرة بطريقة أو أخرى. وكان من النادر في أية مجموعة من الرجال أن يكونوا محتفظين بأذرعهم أو أقدامهم أو أعينهم كاملة. صافح الأمير تركي الملا عمر وجلس أمامه على الأرض

twitter @baghdad_library

في صالون المنزل. ومن وراء ظهر عمر كانت هناك أبواب على الطراز الفرنسي تطل على شرفة نصف دائرية ومن ورائها تظهر ساحة جرداء يغطيها التراب.

وحتى في أثناء مثل تلك المناسبات المهمة، كان هناك جو من الفوضى المربكة يعم المكان؛ فكانت الغرفة مليئة بأشخاص كثر في مختلف الأعمار يدخلون ويخرجون كما يشاءون. ولكن تركي كان ممتنًا على الأقل لوجود تكييف الهواء الوحيد في الغرفة الذي خفف قليلًا من وطأة حرارة صيف أفغانستان الحارق.

أحضر الأمير تركي معه الشيخ عبد الله تركي، العالم الإسلامي ذائع الصيت والوزير السابق للأوقاف التي كانت مصدرًا يتدفق بالتبرعات لطالبان. وبالإضافة إلى أن وجود الشيخ عبد الله يمثل إشارة لتذكير الجميع بالدعم السعودي لطالبان، فقد كانت سلطته الدينية تخوله أن يبت على الفور في أي خلاف ديني أو قضائي يخص حالة بن لادن. وبعدما ذكر الأمير تركي الملا عمر بالعهد الذي قطعه على نفسه بأن يمنع بن لادن من شن أي هجوم من أي نوع على المملكة، طلب منه أن يسلمه بن لادن الذي ترك المدينة على نحو غير لائق طوال المدة التي زارها فيها تركي.

اعترف الملا عمر أن ذلك الطلب قد فاجأه، وقال متذمرًا: «لا يمكنني أن أسلمك إياه هكذا كي تضعه على الطائرة، لقد أمّنَّا له الحماية رغم كل شيء.»

صُدِم الأمير تركي من هذا التحول، فأخذ الملا عمر يحاضره عن قانون قبيلة الباشتو الذي قال إنه صارم للغاية فيما يخص خيانة الضيوف.

أبدى الشيخ عبد الله تركي رأيه قائلًا: إنه إذا كان ذلك الضيف قد خان عهده، مثلما فعل بن لادن مرة تلو الأخرى عندما استمر في إجراء اللقاءات الصحفية، فإن هذا التصرف يحل المضيف من عهد حمايته، ولكن قائد طالبان لم يقتنع بذلك.

اعتقد الأمير تركي أن الملا عمر يحتاج إلى تسوية تحفظ ماء وجهه، فاقترح عليه أن يكوِّنا معًا لجنة تبحث الطرق المناسبة لتسليم بن لادن رسميًّا. وبعد ذلك نهض الأمير تركي ومن برفقته استعدادًا لمغادرة المكان، وقبل أن يرحل سأله تحديدًا: «هل توافق من حيث المبدأ على أن تسلمنا بن لادن؟» فأخبره الملا عمر أنه يوافق.

بعد ذلك الاجتماع، ورد أن المملكة العربية السعودية أرسلت أربعمائة شاحنة خفيفة من شاحنات الدفع الرباعي (٤ × ٤) وبعض المساعدات المالية الأخرى إلى طالبان كدفعة مقدمة لتسليم بن لادن. وبعد ذلك بستة أسابيع، ساعدت الشاحنات والنقود طالبان في استعادة السيطرة على مدينة مزار الشريف وهي معقل قبيلة من الأقلية الشيعية التي تتحدث الفارسية يطلق عليها الهزارة. وكان من بين مقاتلي

طالبان عدة مئات من العرب الذين أرسلهم بن لادن. وقد ساعدت الرشا الموجهة جيدًا على ترك المدينة تحت حراسة نحو ١٥٠٠ جندي من الهزارة فقط، وسرعان ما قتلوا. وعندما اقتحمت قوات طالبان المدينة بعد أن انهارت دفاعاتها، استمرت حملات القتل والاغتصاب لمدة يومين، وأخذوا يطلقون النيران دون تمييز على كل ما يتحرك ويضربون الأعناق ويطلقون النيران على الأعضاء الحساسة في جثث الرجال، ثم تركوا جثث الضحايا للكلاب الضالة لمدة ستة أيام قبل أن يسمحوا للناجين أن يدفنوهم. أما الذين هربوا من المدينة على أقدامهم، فقد قصفتهم قوات طالبان الجوية بالقنابل، وحُمل المئات الآخرون في حاويات شحن ثم تُركوا يحترقون أحياء في شمس الصحراء. وقد قدرت الأمم المتحدة عدد ضحايا تلك المجزرة ما بين خمسة وستة آلاف شخص، من بينهم عشرة دبلوماسيين إيرانيين وصحفي اعتقلتهم قوات طالبان وأطلقت النار عليهم في قبو القنصلية الإيرانية، واختطفت نحو أربعمائة سيدة ليصبحن محظيات. ولكن سريعًا ما حجبت مآسٍ أخرى وقعت على بعد آلاف الأميال الاهتمام عن مجزرة مزار الشريف.

بعد تشكيل الجبهة الإسلامية، ازداد اهتمام الأجهزة الاستخباراتية الأمريكية بالظواهري وجماعة الجهاد التي كانت لا تزال منفصلة عن تنظيم القاعدة ولكنها حليف مقرب للغاية منها. وفي يوليو/تموز من عام ١٩٩٨م، تمكن عملاء المخابرات الأمريكية من اختطاف أحمد سلامة مبروك وعضو آخر من جماعة الجهاد خارج مطعم في مدينة باكو في أذربيجان. وقد كان مبروك هو أمين أسرار الظواهري السياسية الأول، وتمكن العملاء من نسخ محتويات جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به الذي كان يحتوي على رسم تخطيطي لتنظيم القاعدة وقائمة بأسماء أعضاء جماعة الجهاد في أوروبا، باختصار «حجر رشيد القاعدة»، كما وصفه دانيال كولمان، ولكن رفضت المخابرات الأمريكية تسليمه إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي.

لم يكن موقف الوكالة هذا سوى تحفظ بيروقراطي تقليدي لا جدوى من ورائه من النوع الذي أعاق جهود مكافحة الإرهاب في المنظمتين منذ البداية، والذي ازداد سوءًا بسبب العداء الشخصي الذي كان العديد من كبار المسئولين في وكالة الاستخبارات، ومنهم شوير نفسه، يكنونه لأونيل. وكانت الوكالة تبالغ في تقدير أية معلومة تحصل عليها، أي أنها كانت بمنزلة ثقب أسود لا يصدر عنه غير ما ينفجر خارجه بفعل قوة تفوق قوة الجاذبية، وكانت تعرف أن أونيل يمتلك مثل تلك القوة،

twitter @baghdad_library

و«سيستغل» هذه المعلومات لتوجيه اتهامات يليها بالطبع محاكمة علنية، ومن ثم، فإنها لن تصبح سرًّا أو معلومات استخباراتية، بل ستصبح دليلًا وتنشرها الصحف، ومن ثم تفقد أهميتها للوكالة. وكانت الوكالة تتعامل مع أي كشف للمعلومات على أنه هزيمة، لذا فقد كان من الطبيعي أن تتشبث بكل قوتها بجهاز كمبيوتر مبروك وكأنه غنيمة ثمينة. ولقد كان الحصول على مثل تلك المعلومات القيمة أمرًا صعبًا، والأصعب منه هو التحرك على أساسها بعد العثور عليها. فنظرًا لخفض الرصيد البشري للمخابرات لمدة عقود، لم يعد لدى الوكالة سوى ألفي عميل حقيقي، جاسوس، لتغطية العالم بأكمله.

كان أونيل يستشيط غضبًا فأرسل أحد عملائه إلى أذربيجان ليطلب جهاز الكمبيوتر الأصلي من رئيس البلاد. وعندما فشلت تلك المحاولة، أقنع الرئيس كلينتون أن يناشد رئيس أذربيجان شخصيًّا. وفي نهاية المطاف، تمكن مكتب التحقيقات من الحصول على جهاز الكمبيوتر، ولكن ظلت الضغائن بين مكتب التحقيقات والمخابرات متقدة متسببة في الإضرار بمحاولات الجهتين للعثور على شبكة القاعدة واجتثاثها.

تحركت المخابرات الأمريكية بعد ذلك ضد خلية أخرى من خلايا جماعة الجهاد في مدينة تيرانا في ألبانيا أنشأها محمد الظواهري في بداية التسعينيات. فقام عملاء ألبان تحت إشراف المخابرات الأمريكية باختطاف خمسة أعضاء من الخلية وعصب أعينهم والتحقيق معهم لعدة أيام، ثم أرسلت الأعضاء المصريين إلى القاهرة حيث تعرضوا للتعذيب ثم حوكموا مع أكثر من مائة إرهابي مشتبه بهم. وبالطبع أثمر تعذيبهم عن مذكرة اعتراف تتكون من عشرين ألف صفحة، وصدر حكم بالإعدام على ابني عائلة الظواهري غيابيًّا.

وفي السادس من أغسطس/آب، أي بعد شهر من القضاء على خلية ألبانيا، أرسل الظواهري البيان التالي إلى جريدة الحياة اللندنية: «لقد أردنا إخبار الأمريكان بإيجاز أننا قد تلقينا رسالتهم وأننا نتولى التحضير للرد عليها، ونتمنى أن يفهموا هذا الرد جيدًا، لأننا سنكتبه، بعون الله، باللغة التي يفهمونها.»

حتى ذلك الوقت لم تكن القاعدة قد نفذت أية عملية حقيقية، على الرغم من الضجة الشديدة التي أثارتها، ووسائل الإعلام والدعوات المدوية للجهاد. كل ما كان لديهم حتى ذلك الوقت مجرد خطط كبيرة وادعاءات بنجاحات سابقة ليس للقاعدة فيها

سوى دور صغير، أو لا يد لها فيها على الإطلاق. ومع أن القاعدة قد تأسست قبل عشر سنوات، فقد كانت لا تزال منظمة مغمورة وعديمة الأهمية، لا تقارن بمنظمات أخرى مثل حماس أو حزب الله على سبيل المثال. لقد تدرب الآلاف من الشباب في معسكرات القاعدة وعادوا إلى أوطانهم ليتسببوا في فوضى عارمة، ونظرًا لأنهم تلقوا تدريباتهم على أيدي التنظيم، فستطلق عليهم أجهزة المخابرات «مرتبطين بالقاعدة». ولكن لم يكن هؤلاء جزءًا من التنظيم بشكل رسمي ما لم يقسموا يمين الولاء لبن لادن. كما انخفض عدد أعضاء القاعدة الحقيقيين في قندهار عما كان عليه في الخرطوم؛ لأن بن لادن لم يعد بإمكانه الإنفاق عليهم. وتلك الألعاب النارية التي استعرض بها بن لادن أمام الصحفيين قام بها مجاهدون مؤجرون، أي أن بن لادن والقاعدة كانا، مثل الطاووس المنتفخ، يحاولان الظهور بحجم أكبر مما كانا عليه حقًا. ولكن القاعدة الجديدة كانت على وشك أن تعلن عن نفسها.

في السابع من أغسطس/آب عام ١٩٩٨م، وهو اليوم نفسه الذي بدأت فيه مذبحة مزار الشريف، حلت الذكرى الثامنة لوصول القوات الأمريكية إلى المملكة العربية السعودية.

وفي كينيا، كان أحد رجال الظواهري وهو محترف صناعة قنابل مصري اسمه صالح، يشرف على صنع جهازي تفجير ضخمين. الجهاز الأول، وهو مصنوع من ألفي رطل من مادة تي إن تي المتفجرة ونيترات الألمونيوم ومسحوق الألمونيوم، وضع في صناديق جرى توصيلها بأسلاك إلى بطاريات ثم تحميلها على شاحنة بضائع بنية اللون من طراز تويوتا. ثم قاد عضوا القاعدة السعوديان اللذان حضرا اللقاء الصحفي مع شبكة أيه بي سي نيوز، محمد العوهلي وجهاد علي، الشاحنة عبر وسط مدينة نيروبي في اتجاه السفارة الأمريكية. وفي الوقت نفسه في تنزانيا، كانت القنبلة الثانية التي صنعها صالح في طريقها إلى السفارة الأمريكية في دار السلام. وقد كانت هذه القنبلة مشابهة في صناعتها للأولى فيما عدا أن صالحًا أضاف عددًا من أسطوانات الأكسجين أو عبوات غاز لزيادة القوة التفجيرية. وكانت المركبة المستخدمة في توصيل القنبلة شاحنة تعمل بالبنزين يقودها شاب مصري اسمه أحمد عبد الله، ولقبه أحمد الألماني نظرًا للون شعره الأشقر. وكان من المخطط تنفيذ التفجيرين في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الجمعة، وهو الوقت الذي من المفترض أن يكون فيه المسلمون المتدينون في المساجد.

twitter @baghdad_library

حملت أول عملية إرهابية تُسجَّل في الوثائق الرسمية باسم القاعدة العلامات التي ستميز عملياتها المستقبلية؛ فقد كانت بدعة تنفيذ أكثر من هجوم انتحاري متزامن استراتيجية جديدة ومحفوفة بالمخاطر نظرًا لزيادة نسبة احتمال الفشل أو اكتشاف العمليات. فإذا نجح الانفجاران، تستحوذ القاعدة دون منافس على انتباه العالم، وستكون التفجيرات جديرة ببيان بن لادن المتغطرس الذي أعلن فيه الحرب على الولايات المتحدة الذي بدا مجنونًا، كما سيمنح انتحار منفذي العمليتين غطاء أخلاقيًّا واهيًا لعمليات تستهدف قتل أكبر عدد ممكن من الأشخاص. وفي هذا الأمر أيضًا، كانت القاعدة فريدة؛ فقد كان القتل على نطاق واسع هدفًا لها في حد ذاته. ولم تكن هناك أية محاولات للإبقاء على حياة الأبرياء؛ إذ إن القاعدة أسقطت من حساباتها مفهوم البراءة. ومع أن القرآن يحرم قتل النساء والأطفال خاصة، فقد كان أحد أسباب اختيار السفارة في كينيا هي أن موت السفيرة الأمريكية بروديـنس بوشنيل Prudence Bushnell، سيحظى بقدر أكبر من الاهتمام الإعلامي.

كشفت كلتا العمليتين عن عدم خبرة تنظيم القاعدة. ففي العملية الأولى، قاد جهاد علي الشاحنة إلى المرأب الخلفي للسفارة، وقفز منها العوهلي واتجه نحو مركز الحراسة. وكان من المفترض أن يجبر الحارس الأعزل على رفع الحاجز عن الطريق، ولكن الحارس رفض، وكان العوهلي قد نسي مسدسه في جيب سترته في الشاحنة. ولكنه نفذ بالفعل جزءًا من المهمة المنوطة به في العملية ألا وهو إلقاء قنبلة يدوية في الفناء فقط لإحداث صدمة. وبالطبع أثارت الضجة التي أحدثها صوت الانفجار انتباه الأشخاص الموجودين داخل المبنى. وكان من الدروس التي تعلمها الظواهري من عملية تفجير السفارة المصرية في إسلام أباد قبل ثلاث سنوات أن إحداث انفجار مبدئي سيجعل الجميع يهرعون إلى النوافذ، وعندئذ يفقد الكثيرون رءوسهم بسبب الزجاج المتطاير عندما يقع الانفجار الرئيسي.

وفجأة وجد العوهلي نفسه يواجه خيارًا أخلاقيًّا اعتقد أنه سيقرر مصيره الأبدي، أو على الأقل هذا ما أخبر به أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي في وقت لاحق. لقد توقع أن يموت شهيدًا، فموته في العملية يضمن له مكانًا في الجنة على الفور، ولكنه أدرك أنه أنجز مهمته المتمثلة في إلقاء القنبلة اليدوية، فإذا تقدم أكثر إلى موته المحتوم، يكون بذلك منتحرًا وليس شهيدًا، ويكون مصيره النار بدلًا من الجنة. ويا له من خيط رفيع يفصل بين النعيم والعذاب! ولكي ينقذ نفسه، فقد عاد أدراجه

وانطلق هاربًا بعد أن فشل في تنفيذ الجزء الأساسي من مهمته وهو رفع الحاجز حتى تقترب الشاحنة أكثر من المبنى.

ولكنه لم يبتعد كثيرًا، فقد دفعه الانفجار الرئيسي إلى رصيف المشاة في الطريق، مما أدى إلى تمزيق ملابسه وإصابته بشظية في ظهره. وعندما تمكن من الوقوف على قدميه، استطاع أن يرى في ذلك الصمت الرهيب الذي خيم بعد الانفجار، نتائج ما صنعت يداه. فقد تهدمت واجهة السفارة وتحولت إلى كتل أسمنتية ضخمة، وقُتِل الموظفون وهم جالسون على مكاتبهم. واشتعلت النيران في الشارع المرصوف بمادة الزفت وتحولت حافلة مزدحمة إلى كتلة من اللهب. وانهار تمامًا مبنى أوفندي Ufundi Building المجاور للسفارة الذي كان يضم كلية كينية للسكرتارية. وقد احتجز الكثيرون تحت الأنقاض، وسريعًا ما ارتفعت صيحاتهم بالألم والخوف التي استمرت لأيام حتى جرى إنقاذهم أو أسكتهم الموت. وقد أسفرت تلك العملية عن مقتل ٢١٣ شخصًا منهم ١٢ أمريكيًّا وإصابة ٤٥٠٠ شخص، منهم أكثر من ١٥٠ شخصًا أصيبوا بالعمى بسبب الزجاج المتطاير. وظلت الأنقاض تحترق لعدة أيام.

وبعد تسع دقائق، قاد أحمد الألماني شاحنته نحو مرأب السفارة الأمريكية في دار السلام، ثم ضغط على جهاز التفجير المتصل بأسلاك بلوحة أجهزة الشاحنة. وبالصدفة، كانت هناك شاحنة بصهريج لنقل المياه تحول بينه وبين السفارة، وقد انفجرت وطارت في الهواء حتى ارتفاع ثلاثة طوابق ثم هبطت مرة أخرى أمام مكتب حفظ السجلات في السفارة، ولكنها منعت الشاحنة المفخخة من الاقتراب من مبنى السفارة بالقدر الكافي لتدميره، وراح ضحية تلك العملية أحد عشر شخصًا وأصيب خمسة وثمانون آخرون، جميعهم من الأفارقة.

وبعيدًا عن الهدف الجلي المتمثل في جذب الانتباه إلى وجود تنظيم القاعدة، فإن المغزى من وراء هذين التفجيرين كان مبهمًا ومحيرًا. وأطلق على عملية نيروبي «الكعبة الشريفة» على اسم الكعبة في مكة، أما تفجير دار السلام فقد أطلق عليه عملية «الأقصى» على اسم المسجد الأقصى في القدس، وكما يتضح لا يمت أي من الاسمين بصلة واضحة للسفارتين الأمريكيتين في أفريقيا. وقد قدم بن لادن العديد من التفسيرات لتبرير الهجومين، فذكر في بادئ الأمر أن العمليتين استهدفتا هذين الموقعين بسبب «غزو» الصومال، ثم شرح خطة أمريكية لتقسيم السودان قال إنها كانت تدبر في السفارة في نيروبي. وأخبر أتباعه أيضًا أن عمليات الإبادة الجماعية في رواندا خُطِّطَ لها داخل السفارتين الأمريكيتين.

twitter @baghdad_library

استقبل المسلمون في جميع أنحاء العالم هذين التفجيرين بالرعب والاشمئزاز. فقد سبب موت الكثير من الأشخاص، معظمهم من الأفارقة والكثير منهم مسلمون، موجة من الغضب الشعبي. ولكن بن لادن قال: إن هذه التفجيرات جعلت الأمريكيين يتجرعون من كأس الأهوال التي يتجرعها المسلمون. ولكن في رأي معظم العالم، وحتى بعض أعضاء القاعدة، بدا الهجومان عديمي الجدوى؛ مجرد أداء استعراضي للقتل الجماعي من غير المتوقع أن يؤثر على السياسة الأمريكية في شيء سوى استفزاز رد قوي على الهجمات.

وكما اتضح بعد ذلك، كان ذلك بالضبط هو الهدف. فقد أراد بن لادن استدراج الولايات المتحدة إلى أفغانستان التي كان يُطلَق عليها بالفعل مقبرة الإمبراطوريات؛ فالهدف المعهود من وراء الإرهاب هو استدراج الخصم إلى ارتكاب أخطاء فادحة تنم عن طبيعة قمعية، وقد أوقع بن لادن بأمريكا في وقت حساس وسيئ للغاية من تاريخها.

«لقد بدأت اللعبة!» هكذا قال باتريك فيتزجيرالد مساعد المدعي العام الأمريكي لدانيال كولمان عندما وصلت أخبار الانفجارين، وقد كانت الساعة الثالثة والنصف صباحًا في نيويورك عندما اتصل به، فنهض كولمان من فراشه وقاد سيارته على الفور متجهًا إلى واشنطن. وبعد يومين، قابلته زوجته في أحد فروع سلسلة مطاعم دايري كوين للوجبات السريعة على الطريق السريع I-95 الذي يربط بين الولايات كي تعطيه أدويته وبعض الملابس، فقد كانت تعلم أنه سيظل في مركز العمليات والمعلومات الاستراتيجية لمدة طويلة.

قرر المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي أن يتولى مكتب واشنطن الميداني الذي كان يتولى عادة التحقيق في القضايا الخارجية قضية تفجيرات السفارتين. ولكن أونيل أراد أن يتولى هو دفة القيادة في تلك القضية، وكان لدى مكتب نيويورك اتهام محكم ضد بن لادن مما يمنحه الحق في تولي القضية إذا ثبت أن بن لادن وراء التفجيرات بالفعل، ولكن كان بن لادن لا يزال شخصًا مغمورًا، حتى في الدوائر العليا في مكتب التحقيقات، وكان اسم القاعدة أيضًا غير معروف تقريبًا. وكانوا يدرسون عددًا من المشتبه في أنهم وراء العملية منهم حزب الله وحماس. وكان على أونيل أن يثبت للمكتب أن بن لادن هو اليد الخفية وراء هذه العملية.

وكان أونيل قد نجح في انتزاع عميل من فرقة أخرى اسمه علي صوفان، وهو شاب أمريكي من أصل لبناني. وكان صوفان هو العميل الفيدرالي الوحيد في نيويورك الذي يتحدث العربية، وواحدًا من ثمانية أشخاص فقط في الدولة بأكملها. وقد درس صوفان من تلقاء نفسه الفتاوى التي أصدرها بن لادن واللقاءات التي أجراها، لذا فعندما وصل إلى العديد من وكالات الأنباء في اليوم نفسه الذي وقع فيه الانفجاران ادعاء من جماعة لم يسمع أحد عنها من قبل تعلن فيه مسئوليتها عن التفجيرين، تعرف صوفان على الفور على بصمات بن لادن على العملية. فقد كانت لغته متطابقة مع ما جاء في بياناته السابقة. وبفضل صوفان، تمكن أونيل من إرسال برقية إلى المقر الرئيسي في اليوم نفسه الذي وقع فيه التفجيران موضحًا التشابه الشديد بين بيانات بن لادن السابقة والمطالب التي جاءت في ادعاء تحمل المسئولية الذي يحمل اسمًا مستعارًا.

كان توماس بيكارد Thomas Pickard، رئيس القسم الجنائي في المقر الرئيسي آنذاك، هو المدير المسئول عن المكتب مؤقتًا نيابة عن المدير فريه الذي كان في إجازة. وقد رفض بيكارد بازدراء طلب أونيل أن يمنح مكتب نيويورك سلطة التحقيق في القضية. فقد أراد أن يظل التحقيق تحت إشراف مكتب واشنطن الذي كان يرأسه من قبل. فاستعان أونيل الذي كان يشتعل غضبًا بكل شخصية قوية يعرفها، ومنهم جانيت رينو المدعية العامة وصديقه ريتشارد كلارك. وفي النهاية، رضخ المكتب لسياسة الضغط التي تمكن المرءوس من اتباعها، ولكنه لم يسمح لأونيل بالسفر شخصيًّا إلى كينيا للإشراف على التحقيقات بنفسه هناك عقابًا له. فالجراح التي تركها ذلك الصراع الداخلي لن تُشفَى البتة.

بعد ثماني ساعات فقط من التفجيرات كان العشرات من محققي مكتب التحقيقات الفيدرالي في طريقهم إلى كينيا. وفي نهاية المطاف سيصل عدد المحققين في القضيتين في أفريقيا إلى خمسمائة عميل، وهو أكبر انتشار للمحققين في تاريخ مكتب التحقيقات. وفي الطريق إلى نيروبي، توقفت حافلة المطار التي تقل العملاء في الطريق لكي يعبر رجل من قبيلة ماساي الطريق وهو يرعى الماشية. حدق العملاء في الشوارع المزدحمة والمكتظة بالدراجات وعربات الكارو؛ لقد كانت مشاهد تشده العقول؛ جميلة وغريبة وصادمة في الوقت نفسه من مدى الفقر الذي تدل عليه. وكان العديد من العملاء لا يعلمون شيئًا عن العالم خارج أمريكا، بل إن بعضهم لم يحصل على جواز سفر إلا في اليوم الذي سافر فيه ليجد نفسه فجأة على بعد تسعة

twitter @baghdad_library

آلاف ميل من وطنه. ولم يكونوا على دراية بالقوانين والعادات والتقاليد المتبعة في البلاد التي يعملون بها؛ وكانوا قلقين وحذرين لأنهم يعرفون أنهم أصبحوا هم أيضًا هدفًا للقاعدة.

أخرج ستيفن جودين Stephen Gaudin، وهو عميل قصير القامة ممتلئ الجسم أحمر الشعر من الطرف الشمالي لبوسطن، بندقيته الآلية قصيرة المقبض ووضعها على حجره. وحتى وقت قريب، كان قد قضى عمله في مكتب التحقيقات الفيدرالي في مكتب به شخصان في المنطقة الشمالية من نيويورك يقع فوق أحد فروع سلسلة المقاهي والفطائر المحلاة دانكن دونتس. ولم يكن قد سمع قط عن القاعدة. وقد جاء مع المحققين لكي يوفر لهم الحماية، ولكنه صعق من ذلك العدد الهائل من الناس المحيطين بالسفارة، الذي يتضاءل مقارنة به أي تجمع شاهده من قبل. في الواقع، لم يكن أي شيء مما شاهده مألوفًا له. كيف سيتمكن من حماية العملاء الآخرين وليس لديه أية فكرة عما يحدث؟

أنزلتهم الحافلة أمام أنقاض السفارة المحترقة، وكان الدمار على نطاق واسع للغاية، فالمبنى مجوف من أثر الانفجار من جانب إلى الآخر، أما الكلية الكينية للسكرتارية المجاورة له فقد سويت تمامًا بالأرض. وكان عمال الإنقاذ يحاولون إخراج المصابين أسفل الأنقاض بالحفر بأيديهم العارية. حدق ستيفن جودين في الأنقاض فاغرًا فاه وتعجب قائلًا: «ماذا سنفعل بحق الجحيم؟» فمكتب التحقيقات الفيدرالي لم يحل أبدًا قضية تفجيرات خارج البلاد.

وكان من بين المدفونين تحت أنقاض كلية السكرتارية فتاة اسمها روزالين وانجيكو موانجي Roselyn Wanjiku Mwangi، أو روزي كما اعتاد الجميع أن ينادوها. وكان عمال الإنقاذ يسمعونها تتحدث إلى أحد الضحايا وقد تحطمت ساقه محاولة الحفاظ على ارتفاع روحه المعنوية، ولمدة يومين كان صوت روزي المشجع يلهم عمال الإنقاذ الذين يعملون بدأب حتى وصلوا أخيرًا إلى الرجل ذي الساق المحطمة وأخرجوه من تحت الأنقاض. ووعدوا روزي بأنهم سيحررونها في أقل من ساعتين، ولكن عندما وصلوا إليها في النهاية، كان الأوان قد فات. وقد كان موتها فاجعة للعمال المرهقين.

كان تفجير السفارتين هجومًا جريئًا على مكانة أمريكا في العالم. وكان مستوى التنسيق والتعقيد التقني اللازم لتنفيذ هجومين متزامنين تقريبًا مدهشًا، ولكن الأخطر من ذلك رغبة القاعدة في تصعيد مستوى العنف. اكتشف مكتب التحقيقات

الفيدرالي في نهاية المطاف أن عدد السفارات الأمريكية المستهدفة كان خمسًا، ولكن الحظ وأجهزة المخابرات الأفضل في الدول الأخرى أنقذت السفارات الثلاث الأخرى. وقد صعق المحققون عندما علموا أنه منذ عام تقريبًا دخل عضو مصري من تنظيم القاعدة إلى السفارة الأمريكية في نيروبي وأخبر المخابرات الأمريكية عن خطة التفجيرات، ولكن الوكالة تجاهلت تلك المعلومات واعتبرتها غير موثوق بها. ولم يكن ذلك الإنذار الوحيد، فطوال الربيع كانت هناك سلسلة من التهديدات والفتاوى من بن لادن، ولكن القليلون فقط هم من أخذوها على محمل الجد، والآن رأوا بوضوح عواقب ذلك الإهمال.

بعد ثلاثة أيام من التفجيرات، تلقى ستيفن جودين أوامر من رئيسه بات دامورو Pat D'Amuro أن يتتبع خيطًا، حيث قال له: «هناك شخص في فندق خارج نيروبي، إنه مختلف.» فسأله جودين: «هل هذه هي كل المعلومات؟ مختلف؟ ماذا يعني هذا؟» فأجابه دامورو: «إذا كان هذا لا يعجبك، فلدي مائة خيط آخر.»

قاد جودين شاحنته ومعه عميلان آخران إلى مدينة مليئة بالأكواخ يقطنها عدد كبير من اللاجئين الصوماليين، وشقت الشاحنة طريقها ببطء عبر حشد من الناس يحدقون النظر إليهم، وتوقف أمام فندق متهالك. فحذرهم زميلهم الكيني قائلًا: «أيًا كان ما تفعلونه، فلا تخرجوا من الشاحنة، إنهم يكرهون الأمريكيين هنا.»

وبينما انتظر الأمريكيون بتوتر عودة الشرطي الكيني، انحنى رجل في الزحام مديرًا ظهره لنافذة الشاحنة قائلًا بصوت خافت: «لقد قلت لكم لا تأتوا إلى هنا، ستقتلون.»

خمن جودين أن هذا الرجل هو الذي باع لهم هذه المعلومة، فسأله: «هل بإمكانك مساعدتنا؟»

فهمس الرجل: «إنه ليس هنا، إنه في فندق آخر.»

وبالفعل في الفندق التالي، وجد العملاء «رجلًا مختلفًا»؛ فهو شاب عربي نحيف الجسد وفي جبهته العديد من غرز خياطة الجروح المسننة وعلى يديه ضمادات عليها آثار الدماء. وأخبرهم أن اسمه خالد سليم بن رشيد من اليمن، وقال: إنه جاء إلى البلد ليستطلع فرص العمل، فهو بائع جوز هند، وأنه كان في أحد البنوك بالقرب من السفارة عندما وقعت «الحادثة»، وكل ما وجدوه معه هو ثمانية أوراق نقدية جديدة تمامًا من فئة المائة دولار.

twitter @baghdad_library

«كيف وصلت للفندق بعد الحادث؟» ألقى المحقق هذا السؤال على ابن رشيد الذي قال: إنه عندما خرج من المستشفى، أقله سائق سيارة أجرة إلى هناك عندما علم أنه لا يتحدث اللغة السواحيلية حيث إن ذلك هو المكان الذي ينزل به العرب في بعض الأحيان.

«أين باقي أغراضك: ملابسك وأوراق هويتك؟»

«لقد فقدت كل شيء في الانفجار، وهذه هي الملابس التي كنت أرتديها ذلك اليوم.»

وعندما استمع جودين إلى ما يقوله الشاب العربي للمحققين الأمريكيين، رأى أن قصته مقبولة ظاهريًّا. ولم يكن من سلطة جودين أن يطرح أية أسئلة، فقد كان رجال المكتب الأكثر خبرة هم الذين يتولون تلك المهمة. ولكن جودين لاحظ أن ملابس ابن رشيد مهندمة أكثر من ملابسه هو؛ فمع أن الأول لم يصل إلى البلد إلا من يومين فقط، فقد أصبح أشعثًا رث الهيئة ومغطى بالتراب، في حين أن ابن رشيد، الذي يدعي أنه فقد كل شيء في انفجار مروع، كان أنيقًا للغاية مقارنة به. ولكن لماذا يكذب بشأن ملابسه؟

لم يستطع جودين النوم تلك الليلة، فقد كانت فكرة بعيدة الاحتمال تقض مضجعه. وفي الصباح التالي، عندما استأنف المحققون التحقيقات، سأل جودين رئيس المحققين عما إذا كان بإمكانه أن يلقي بضعة أسئلة على المشتبه به. بدأ جودين حديثه مع ابن رشيد قائلًا: «لقد قضيتُ ست سنوات في الجيش»، وأخبره أنه تلقى تدريبًا متخصصًا في وسائل التصدي للتحقيقات في مركز جون إف كينيدي الحربي الخاص، ولقد كانت تجربة قاسية. فقد تعلم الجنود ماذا يتوقعون إذا وقعوا في الأسر؛ فتعرضوا للضرب والترويع، وتدربوا أيضًا على كيفية إخبار المحققين قصصًا وهمية مقنعة، وقال له في لهجة واثقة: «أعتقد أنك قد خضعت للتدريبات نفسها. والآن إذا كنت تتذكر التعليمات التي تلقيتها، فإنك عندما تكذب يجب أن تقول قصة واحدة منطقية، ولكنك ارتكبت خطأ؛ لقد قلت شيئًا غير منطقي.»

بدلًا من أن يضحك ابن رشيد مستنكرًا ما يقوله جودين، اقترب من الأخير بمقعده وسأله باهتمام: «في أي جزء من القصة لم أكن منطقيًّا؟» فأجابه جودين وهو يحدق بوضوح في حذائه الذي كان باليًا ومتسخًا مثل حذاء جودين، وقال له: «هنا تنهار قصتك؛ فلديك جروح على كلتا يديك ولكن لا توجد قطرة دماء واحدة على سِرْوالك القطني الأخضر، في الحقيقة إنك نظيف تمامًا.»

فأجابه ابن رشيد: «الرجال العرب أنظف من الأمريكيين.»

فقال له جودين وهو لا يزال يحدق في حذائه: «سأوافقك على ذلك، وربما يكون لديك صابون سحري ينظف ملابسك تمامًا من الدماء.»

- «نعم.»

- «وهناك جرح غائر في ظهرك أيضًا، أعتقد أن قطعة زجاج قد طارت بطريقة ما وسقطت من المبنى لتخترق ظهرك دون أن تمزق قميصك.»

- «أي شيء ممكن.»

- «سأوافقك على هذا أيضًا. ثم قمت بتنظيف قميصك بذلك الصابون السحري حتى إنه يبدو جديدًا، ولكن هناك شيئان لا تغسلهما.» تتبع ابن رشيد نظرات جودين إلى حذائه وقال: «طبعًا أنا لا أغسل حذائي!»

أجابه جودين وهو ينحني للأمام ويضع يده على ركبة ابن رشيد: «لا، لقد قلت إنه يوجد شيئان لا تغسلهما؛ وهذه هي النقطة التي نسيت فيها تدريباتك.» وهنا وقف جودين ووضع يده على حزامه القديم البالي، وقال: «إنك لا تغسل الحزام! انظر إلى حزامك، إنه جديد! قف وانزع حزامك!»

هبَّ ابن رشيد واقفًا على قدميه مثل جندي تلقى أمرًا، وبمجرد أن نزع حزامه لاحظ جميع من بالغرفة بطاقة السعر الخاصة به عليه.

ومع أن ابن رشيد استعاد رباطة جأشه سريعًا، فقد انتقل التحقيق عند هذه النقطة إلى مستوى مختلف. فدعا جودين إلى الغرفة جون أنتيسيف، أحد الأعضاء الأساسيين في الفرقة I-49، وهو شخص هادئ الطباع ولكنَّ عينيه الزرقاوين براقتين مثل مصباح كهربائي. وبدأ أنتيسيف حديثه بالسؤال بأسلوب مهذب عما إذا كان ابن رشيد قد حظي بفرصة للصلاة، وقد قادهم هذا إلى مناقشة عن سيد قطب وعبد الله عزام والشيخ الضرير. وقد استرخى ابن رشيد وبدا كأنه يستمتع بفرصة محاضرة رجل غربي عن أهمية هؤلاء الرجال، واستمر الحديث الودي بينهما حتى وقت متأخر من الليل.

ثم قال أنتيسيف: «هناك شخص واحد فقط لم نتحدث عنه: أسامة بن لادن.» ضاقت عينا ابن رشيد وتوقف عن الحديث وظهرت على وجهه ابتسامة صغيرة.

وفجأة ألقى أنتيسيف الذي كان يستمع لحديث ابن رشيد كطالب يأسر الدرس انتباهه ورقة وقلمًا في يد ابن رشيد وقال في لهجة آمرة: «اكتب أول رقم هاتف اتصلت به بعد الانفجار!»

twitter @baghdad_library

ومرة أخرى، أطاع ابن رشيد الأمر وكتب الرقم التالي: «٩٦٧١٢٠٠٥٧٨»، وهو رقم هاتف في اليمن. وكان ذلك الرقم يخص جهادي اسمه أحمد الحدا، وقد اتصل به ابن رشيد قبل العملية وبعدها، مثلما فعل أسامة بن لادن كما عرف المحققون بعد ذلك. وسيتضح أن رقم الهاتف هذا من أهم المعلومات التي توصل إليها مكتب التحقيقات الفيدرالي على الإطلاق، مما ساعد المحققين على رسم خريطة لشبكة اتصالات القاعدة حول العالم.

بعد أن أعطاهم ابن رشيد رقم الهاتف، توقف عن التعاون، فقرر جودين والعملاء الآخرون أن يتركوه وشأنه على أمل ألا يعتقد أنه شديد الأهمية لهم. وفي الوقت نفسه، بدءوا يتحققون من صحة قصته؛ فذهبوا إلى المستشفى ليروا ما إذا كانوا سيتمكنون من مقابلة الطبيب الذي عالج جروحه ولكن كان هناك نحو خمسة آلاف شخص مصاب يوم الانفجار، ولم يتذكر معظم فريق العمل بالمستشفى وجوه المصابين في خضم بحر الدماء والآلام الذي وجدوا أنفسهم يواجهونه. ثم سأل أحد الحراس العملاء إذا كانوا قد أتوا من أجل طلقات الرصاص والمفاتيح التي وجدها، وكانت هذه الأشياء مخبأة في إطار نافذة فوق المرحاض، وكانت المفاتيح تناسب طراز الشاحنة التي استخدمت في التفجيرات.

وفي المطار، اكتشف العملاء بطاقة وصول ابن رشيد التي توضح عنوانه في نيروبي على الفندق الذي وجدوه فيه، ومن ثم، فقد كان يكذب عندما قال: إن سائق سيارة الأجرة هو الذي اصطحبه إلى هناك بعد التفجيرات. وقادتهم سجلات الهاتف إلى فيلا كبيرة أجري منها اتصالًا هاتفيًّا بهاتف الحدا في اليمن قبل نصف ساعة من التفجيرات. وعندما وصل فريق البحث عن أدلة إلى المكان، اكتشفت أجهزتهم بقايا متفجرة؛ فتوصلوا إلى أن القنبلة قد صنعت في ذلك المكان.

عندما واجه جودين ابن رشيد بهذه الأدلة صرخ الأخير قائلًا: «هل تريد أن تحملني مسئولية التفجيرات؟ إنه خطؤكم، خطأ دولتك التي تساند إسرائيل!» وكان يتحدث بغضب والزبد يتطاير من فمه. شكَّل ذلك الموقف نقطة تحول مذهلة من السيطرة على سلوكه الذي شهده منه المحققون في الأيام القليلة الماضية، ثم توعده قائلًا: «إن عشيرتي ستقتلك وجميع أفراد عائلتك.»

كان جودين غاضبًا أيضًا بسبب ارتفاع معدلات الوفيات طوال الأسبوع من جراء موت العديد من المصابين بجروح خطيرة، فسأله في غضب شديد: «ما الإثم الذي اقترفه هؤلاء الناس ليموتوا؟ ليست لهم أية علاقة بالولايات المتحدة وإسرائيل وفلسطين!»

بدلًا من أن يجيبه ابن رشيد مباشرة، قال شيئًا مثيرًا للدهشة: «أريد منك وعدًا بأن أحاكم في أمريكا، لأن أمريكا هي عدوي وليس كينيا. اضمن لي هذا وسأخبرك بكل شيء.»

أحضر جودين باتريك فيتزجيرالد، مساعد المدعي العام للمنطقة الجنوبية لنيويورك، إلى الغرفة، وكتب فيتزجيرالد اتفاقية يتعهد فيها أن المحققين سيبذلون قصارى جهدهم لكي يُسلَّم المتهم إلى الولايات المتحدة.

فبدأ المشتبه به يقول: «اسمي ليس خالد سليم بن رشيد، اسمي محمد العوهلي وأنا من المملكة العربية السعودية.»

وأخبرهم أن عمره واحد وعشرون عامًا وأنه على مستوى عال من التعليم ومن عائلة تجارية مرموقة. وقد بدأ طريقه إلى التدين وهو في سن المراهقة، فكان يستمع إلى خطب على شرائط كاسيت ويقرأ كتبًا ومجلات تمجد الاستشهاد في سبيل الله. وقد أثر فيه بشدة شريط سمعه للشيخ سفر الحوالي عن «وعد كيسنجر» — وهو شريط عن خطة مزعومة لوزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر أن يحتل شبه الجزيرة العربية. وقد ثارت ثائرته حين سمع هذه المعلومات الزائفة، فبدأ يشق طريقه إلى أفغانستان لينضم إلى الجهاد.

وقد تلقى تدريباته الأساسية في معسكر خالدان، وتعلم كيفية استخدام الأسلحة الآلية والمتفجرات. وقد كان أداء العوهلي جيدًا للغاية حتى إنه كوفئ بمقابلة شخصية مع بن لادن، الذي نصحه بتلقي المزيد من التدريبات. فاستكمل العوهلي تدريباته وتعلم تقنيات اختطاف الأشخاص والطائرات والحافلات والاستيلاء على المباني وجمع المعلومات. وكان بن لادن يراقبه مؤكدًا له أنه سيحصل على مهمة في نهاية المطاف.

وبينما كان العوهلي يقاتل في صفوف طالبان، أتى إليه جهاد علي وأخبره أنهما قد قبلا أخيرًا للقيام بعملية استشهادية، ولكنها ستكون في كينيا. فشعر العوهلي بخيبة الأمل وبرر ذلك قائلًا: «أريد تنفيذ عملية داخل أمريكا.» ولكن المسئولين عن إعداده أخبروه أن عمليتي السفارتين مهمتان لأنهما ستشتتان انتباه أمريكا في الوقت الذي يعدون فيه للهجوم الحقيقي.

وقال المشتبه به لجودين والمحققين الآخرين: «لدينا خطة لمهاجمة الولايات المتحدة، ولكننا غير مستعدين بعد. علينا توجيه ضربات لكم خارج البلاد في بضعة أماكن حتى لا تروا ما يحدث في الداخل. إن الهجوم الكبير قادم ولا يسعكم فعل شيء لمنعه.»

twitter @baghdad_library

في بعض الأحيان يشبه العمل مع أونيل العمل في المافيا؛ ولاحظ العملاء الآخرون أن ذوق أونيل في ملابسه وأسلوبه، بالإضافة إلى جذوره التي تعود إلى أتلانتيك سيتي، تمنحه مظهر أعضاء العصابات الإجرامية. وقد كان المدير المؤسس لمكتب التحقيقات الفيدرالي إدجار هوفر مهتمًا بشدة بالعميل الشاب عندما دخل المكتب لأول مرة حتى إنه انتحى به جانبًا ليسأله عن «علاقاته». وقد كانت العلاقة الوحيدة التي يمتلكها أونيل هي أنه، على غرار المافيا، نتاج ثقافة تزدهر على الولاء الشخصي، إلى جانب أنه لم يكن بعيدًا عنه أن يهدد بالقضاء على العملاء الذين يتخطونه.

وبعد تفجيري السفارتين، كان أونيل يعقد اجتماعًا في الساعة الرابعة بعد الظهيرة كل يوم، ويصل دائمًا متأخرًا ساعة تقريبًا عن موعد الاجتماع. وقد أثار تأخره الدائم الكثير من الثرثرة الغاضبة بين العملاء المتزوجين الذين لديهم أطفال يعتنون بهم. وعندما يصل أونيل أخيرًا إلى غرفة الاجتماعات يدور حول مائدة الاجتماعات ويصافح كل عضو من أعضاء الفريق، طقس آخر يستهلك المزيد من الوقت.

وفي إحدى هذه المناسبات، قبَّل جاك كلونان، عضو الفرقة 49-I، الخاتم الضخم الذي يرتديه أونيل في إصبعه ويحمل شعار مكتب التحقيقات الفيدرالي قائلًا: «شكرًا لك أيها الأب الروحي» ساخرًا من أسلوبه وعاداته التي تجعله بالفعل أشبه بزعماء المافيا، فجذب أونيل يده منه قائلًا: «تبًّا لك.»

وفي أحد تلك الاجتماعات، كان دانيال كولمان يشرح لهم بعض المعلومات الاستخباراتية عندما قاطعه أونيل قائلًا: «إنك لا تعرف ما تتحدث عنه»، قال هذه العبارة للرجل الذي درس بن لادن وتنظيمه أكثر من أي شخص آخر في أمريكا، باستثناء مايكل شوير.

فأجابه كولمان: «حسنًا.»

- «لقد كنت أمزح فقط.»

فقال كولمان بحدة: «أتعرف شيئًا، أنا أخرق لا أفقه شيئًا وأنت العبقري هنا، ولا يمكنني الدفاع عن نفسي في موقف كهذا.»

وفي اليوم التالي مر أونيل على مكتب كولمان واعتذر له قائلًا: «ما كان يجب أن أفعل هذا»، فتقبل كولمان الاعتذار بهدوء، مع أنه لم يفوت على نفسه فرصة إعطاء أونيل محاضرة عن مسئولية أن يكون الرئيس. فاستمع إليه أونيل، ثم قال له: «إنك تبدو وكأنك تمشط شعرك بقنبلة يدوية.»

فأجابه كولمان: «ربما يجب أن أستخدم بعضًا من ذلك الزيت الذي تغرق أنت به شعرك.» ضحك أونيل ثم سار مبتعدًا.

بعد ذلك، بدأ كولمان يدرس أونيل خلسة، وتوصل إلى أن المفتاح الرئيسي لشخصية أونيل هو أنه «بدأ من لا شيء». فكانت والدته لا تزال تقود سيارة أجرة في أتلانتيك سيتي في أثناء النهار، ووالده يقود السيارة نفسها ليلًا. وكان عم أونيل، وهو عازف بيانو، يساعدهم ببعض النقود عندما يتعرضون لأزمات. وقد ترك أونيل المنزل فور أن استطاع ذلك، وفي عمله الأول مرشدًا سياحيًّا في المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي كان يحمل حقيبة جلدية صغيرة إلى العمل كأنه يحتاج إليها. وقد حاول على الفور فرض سيطرته على زملائه المرشدين. ولكنهم كانوا يطلقون عليه بامتعاض «كريه الرائحة» حيث كان كثير التعرق.

شعر كولمان بالفجوة الكبيرة بين الجانب الذي يظهره أونيل من شخصيته أمام الناس والجانب الآخر الذي يخفيه بداخله؛ فالملابس الأنيقة والأظافر اللامعة تخفي رجلًا من أصل متواضع وموارد محدودة. وقد كان المرتب الذي يتقاضاه أونيل من الحكومة بالكاد يكفي هذه الواجهة. لقد كان أونيل، المحارب والذي كان يستخف بالآخرين في بعض الأحيان، قلقًا يفتقر إلى الأمان ويسعى باستمرار لإعادة الطمأنينة إلى نفسه ويحمل على عاتقه جبلًا من الديون. لم يعرف الكثيرون مدى التهديد الذي تتعرض له حياته العملية، ومدى تمزق حياته الشخصية، ومدى افتقاد روحه إلى السلام والهدوء. وفي إحدى المرات، عندما ثار عليه أحد عملاء المكتب بشدة في أحد الاجتماعات وبدأ يصرخ في وجهه، خرج أونيل من الغرفة وأخذ يهدئ نفسه بإجراء مجموعة من المكالمات على هاتفه المحمول. فقال كولمان للعميل الثائر: «لا يمكنك أن تفعل هذا، اعتذر له وأخبره أنك لم تقصد إظهار عدم الاحترام له.» فكان أونيل يعتمد معنويًّا على الاحترام قدر اعتماد رجال العصابات عليه.

ولكن كانت لديه قدرة مبالغ فيها وتكاد تثير القلق على الاهتمام بالآخرين، فقد كان يجمع بنفسه سرًّا تبرعات لضحايا التفجيرات التي يحقق فيها، ويتأكد شخصيًّا من أن رجاله يتلقون أفضل رعاية طبية على يد أفضل الأطباء في المدينة عندما يسقط أحدهم مريضًا. وفي إحدى المرات، خضع أحد أصدقاء أونيل في واشنطن لجراحة لتغير مسار الشريان التاجي في القلب في أثناء عاصفة ثلجية، ومع أن الطرق كانت مغلقة، فقد استيقظ ذلك الصديق ليجد أونيل بجواره، بعد أن ذهب إليه سيرًا على قدميه في الوقت الذي وصل فيه ارتفاع الثلوج إلى ثماني عشرة بوصات. وكان

twitter @baghdad_library

يحرص كل صباح على أن يحضر كوبًا من القهوة وفطيرة محلاة لسكرتيرته من كشك في الشارع، وكان يتذكر دائمًا أعياد الميلاد. ولقد كانت هذه اللفتات، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، تدل على مدى توقه لأن يلاحظ الآخرون وجوده ويمنحونه اهتمامهم.

بعد عشرة أيام من تفجير السفارتين، تلقى جاك كلونان اتصالًا هاتفيًا من أحد مصادره الاستخباراتية في السودان يخبره أن رجلين من المتورطين في العملية موجودان في الخرطوم، وقد أجرا شقة تطل على السفارة الأمريكية هناك. أعطى كلونان هذه المعلومات لأونيل الذي اتصل في اليوم التالي بريتشارد كلارك في مجلس الأمن القومي وقال له: «أريد التعاون مع السودانيين في هذه القضية.» وكان أونيل يدرك جيدًا أن تلك الدولة على قائمة الدول الإرهابية في وزارة الخارجية، ولكن كانت حكومتها على الأقل تحاول تحسين موقفها.

ولكن كلارك أجابه في الهاتف: «هناك شيء لا أستطيع أن أخبرك به يا جون»، واقترح عليه أن يأتي إلى واشنطن ويتحدث بنفسه إلى المدعية العامة التي أخبرته أنه من المستحيل أن يعمل مع السودانيين؛ فقد كانت الولايات المتحدة تعد لقصف البلد خلال ساعات قليلة انتقامًا للهجمات على السفارتين في شرق أفريقيا. وكانت الصواريخ توضع في عبواتها بالفعل وتُعَد للإطلاق في سفن حربية أمريكية متمركزة في البحر الأحمر. وصل أونيل إلى واشنطن في اليوم نفسه الذي شهدت فيه مونيكا لوينسكي Monica Lewinsky، متدربة سابقة في البيت الأبيض، أمام لجنة محلفين كبرى في واشنطن أنها قد مارست الجنس عن طريق الفم مع رئيس الولايات المتحدة. وستكون قصتها عاملًا حاسمًا في بنود الاتهام التي واجهها الرئيس أمام الكونجرس بعد ذلك. وفي نظر الإسلاميين، بل العديد من العرب أيضًا، فقد كانت علاقة الرئيس والمتدربة تمثل تمامًا نفوذ اليهود في أمريكا، وأي رد عسكري على التفجيرين سيُنظر إليه على أنه حجة لعقاب المسلمين وتشتيت الانتباه عن الفضيحة. وظهرت في العديد من الشوارع العربية لافتات تحمل عبارة «لا للحرب من أجل مونيكا!»، ولكن لم يكن لدى رئاسة كلينتون الضعيفة الكثير من الخيارات.

كانت المخابرات الأمريكية تشك في أن بن لادن يعمل على تطوير أسلحة كيميائية في السودان، وقد وصلت إليهم هذه المعلومات من جمال الفضل مساعده السابق الذي أصبح شاهدًا للحكومة الأمريكية. ولكن الفضل قد ترك السودان قبل عامين، في الوقت

نفسه تقريبًا الذي طُرِد فيه بن لادن من البلد. ولأن المخابرات لم تكن مقتنعة بصدق مساعي الحكومة السودانية المتكررة لدى الحكومة الأمريكية لأن تُحذف من القائمة السوداء في وزارة الخارجية، فقد استخدمت جاسوسًا من دولة عربية للحصول على عينة من تربة قريبة من مصنع الشفاء للأدوية الذي تشك أنه منشأة سرية لتصنيع الأسلحة الكيميائية وأن بن لادن شريك في ملكيته. وعلى ما يزعم، أظهرت العينة التي أخذت في يونيو/حزيران من عام ١٩٩٨م آثارًا لحمض EMPTA، وهو مادة كيميائية أساسية في صناعة غاز الأعصاب في إكس VX شديد الفعالية، ولا يستخدم في أغراض أخرى كثيرة. وفي العشرين من أغسطس/آب، وبناءً على تلك المعلومة، صرح الرئيس كلينتون بإطلاق ثلاثة عشر صاروخًا من طراز توماهاوك كروز على الخرطوم كدفعة أولى من الانتقام الأمريكي لتفجيرات السفارتين، فدُمِّرَت المنشأة بالكامل.

وقد اتضح بعد ذلك أن المنشأة كانت تصنع مستحضرات طبية وأدوية بيطرية فقط وليس أسلحة كيميائية، ولم يُعثر قط على أية آثار لذلك الحمض داخل الموقع أو حوله. وقد تكون تلك المادة الكيميائية قد نتجت عن تحلل أحد المبيدات الحشرية المتوفرة في الأسواق التجارية والمستخدمة على نطاق واسع في أفريقيا والمتشابهة معها بشدة. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن لبن لادن أية صلة بالمصنع. ولقد أدت تلك الضربة المتهورة إلى أن دولة السودان الفقيرة فقدت أحد أهم مصانع الأدوية بها الذي يعمل به ثلاثمائة شخص وينتج أكثر من نصف أدوية البلد، وأسفرت عن مقتل حارس ليلي أيضًا.

وترك السودان اثنين من المتورطين في تفجيرات شرق أفريقيا يهربان، ولم يرهما أحد بعد ذلك، ومن ثم، خسر أونيل وفريقه فرصة ذهبية لإلقاء القبض على اثنين من رجال القاعدة.

وفيما كانت الرءوس الحربية تنفجر في شمال الخرطوم، كان هناك ستة وستون صاروخ كروز أمريكي في طريقهم إلى معسكرين بالقرب من خوست في أفغانستان على مقربة من الحدود الباكستانية.

وبالصدفة كان الظواهري في ذلك الوقت يتحدث في هاتف بن لادن المتصل بالأقمار الصناعية إلى رحيم الله يوسفزاي، صحفي متميز يعمل في البي بي سي والصحيفة الباكستانية نيوز. وقد قال له الظواهري: «السيد بن لادن لديه رسالة

twitter @baghdad_library

ويقول: «أنا لم أفجر السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا. لقد أعلنت الجهاد ولكني غير متورط في العمليتين».»

كانت أفضل طريقة لدى المخابرات الأمريكية لتتبع تحركات بن لادن والظواهري آنذاك هي تعقب هاتفهما المتصل بالأقمار الصناعية. فلو كانت هناك طائرة استطلاع متمركزة في المنطقة، لحدد اتصال الظواهري الهاتفي بالصحفي لرجال المخابرات مكانه بالضبط. ولكن وجهت الضربة بسرعة شديدة حتى إنه لم يكن هناك الكثير من الوقت للإعداد. وكانت المخابرات الأمريكية تعرف بوجه عام مكان اختباء بن لادن والظواهري، لذا فإن عدم وجود طائرة استطلاع قبل توجيه الهجوم ليس له تفسير. ولو كانوا تمكنوا من تحديد مكان الظواهري بالضبط قبل شن الهجوم، لكان لقي حتفه دون شك. ولكن من ناحية أخرى، يستغرق إعداد الصاروخ للإطلاق عدة ساعات، والوقت المستغرق للوصول من السفن الحربية في بحر العرب عبر باكستان إلى شرق أفغانستان أكثر من ساعتين. ولذا فعلى الأرجح في الوقت الذي التقط فيه الظواهري الهاتف لإجراء المكالمة، كانت الصواريخ في طريقها بالفعل وكان الأوان قد فات.

ومع أنه كان بإمكان وكالة الأمن القومي مراقبة المكالمات على هاتف الأقمار الصناعية، فقد رفضت مشاركة البيانات الأولية مع مكتب التحقيقات الفيدرالي أو المخابرات الأمريكية أو ريتشارد كلارك في البيت الأبيض. وعندما علمت المخابرات الأمريكية من أحد عملائها الذين يعملون في وكالة الأمن القومي أن هواتف القاعدة تخضع للمراقبة، طلبت من الوكالة نسخة من نصوص المكالمات. ولكن وكالة الأمن القومي رفضت، وبدلًا من هذا أعطتهم ملخصات لحوارات قديمة. اتجهت المخابرات الأمريكية بعد ذلك إلى رئيس قسم العلوم والتكنولوجيا لابتكار جهاز يمكنه مراقبة بث هواتف الأقمار الصناعية من ذلك الجزء في أفغانستان. ولم يكن بإمكانهم سوى استقبال حديث طرف واحد من المكالمة، ولكن بالاعتماد على اعتراض جزئي لأحد المكالمات تمكنت المخابرات الأمريكية من تحديد أن بن لادن والآخرين سيتوجهون إلى خوست.

جاءت هذه المعلومة في الوقت المناسب وكانت وثيقة الصلة بالموقف؛ حيث إن بن لادن لم يقرر الذهاب إلى خوست سوى في الليلة السابقة فقط. ولكن بينما كان هو ورفاقه يمرون بإقليم فارداك، توقفوا في مفترق الطرق وسأل بن لادن رفاقه: «أين تقترحون أن نذهب يا أصدقائي؟ إلى خوست أم كابول؟» صوت حارسه الخاص

والآخرون للذهاب إلى كابول حيث يمكنهم زيارة أصدقائهم. فقرر بن لادن قائلًا: «إذًا فبعون الله دعونا نتجه إلى كابول.» وقد يكون ذلك القرار أنقذ حياته.

في الخامسة عشرة من عمره، كان عبد الرحمن خضر أصغر متدرب في معسكر الفاروق بالقرب من خوست. وقد قدر أنه كان هناك ما بين سبعين ومائة وعشرين متدربًا، وعدد مماثل تقريبًا في معسكر جهاد وال بالقرب منهم. وبعد صلاة العشاء، كان يسير عائدًا من الحمام ويحمل دلوًا، وفجأة سطعت أضواء متوهجة في السماء فوقه تمامًا، فألقى بالدلو جانبًا، ولكن قبل أن يصل الدلو إلى الأرض، بدأت الصواريخ تنفجر.

كان أول عشرين انفجارًا في جهاد وال، وعندما بدأت الموجة التالية من الهجوم، ألقى عبد الرحمن بنفسه أرضًا بحثًا عن ساتر في حين بدأ كل ما حوله ينفجر. نظر عبد الرحمن إلى أعلى ليرى أن السماء تمطر سيولًا من المتفجرات، وعندما توقف تساقط الصخور والحصى، أخذ يتجول بين الأنقاض التي ينبعث منها الدخان ليرى ما تبقى من المعسكر.

وجد عبد الرحمن أن مبنى الإدارة قد تدمر تمامًا، فاستنبط من هذا أن جميع المدربين قد لقوا حتفهم، ولكنه بعد ذلك سمع صياحًا فسار إلى جهاد وال ليجد أن جميع المدربين كانوا في اجتماع، والمثير للدهشة أنهم جميعًا نجوا، ولم يتأذ أي من قادة القاعدة في ذلك الهجوم.

وكان هناك خمسة مصابين، حملهم عبد الرحمن في سيارة من سيارات الدفع الرباعي (٤ × ٤) وهرع بهم إلى المستشفى في خوست، ومع أنه كان صغير السن، فقد كان هو الوحيد الذي يستطيع القيادة. وفي الطريق، توقف ليعطي أحد المصابين بجروح خطيرة جرعة ماء، ثم مات الرجل بين ذراعيه.

عاد عبد الرحمن إلى المعسكر لكي يساعد في دفن الموتى. وكانت إحدى الجثث مشوهة بشدة حتى إنه كان من المستحيل التعرف عليها، فقال عبد الرحمن لمن معه: «هل تستطيع على الأقل العثور على قدميه؟» فوجد أحدهم إحدى قدميه، وتعرف عبد الرحمن من وحمة على إصبع القدم على جثة صديقه، وهو مواطن كندي من أصل مصري مثله. وكان هناك أربع جثث أخرى، فدفنوهم في الوقت الذي كانت فيه طائرات الاستطلاع تحلق فوق رءوسهم لتقدير الخسائر.

twitter @baghdad_library

أطلق على هذه الهجمات الفاشلة بلغة المخططين العسكريين الأمريكيين المتعجرفة «عملية المدى المطلق» Operation Infinite Reach. وفي حين أن تلك الضربات كانت موجهة كرد حاسم ومحكم يتناسب والهجمات الإرهابية، أي تفجيرين إرهابيين يقابلهما ضربتان عسكريتان حاسمتان، فقد فضح الهجوم بالصواريخ عدم كفاءة المخابرات الأمريكية وعدم جدوى قوتها العسكرية التي أمطرت بلدين من أفقر بلدان العالم بأسلحة تساوي ما يقرب من ثلاثة أرباع مليار دولار.

وطبقًا للجنرال حميد جول، الرئيس السابق للمخابرات الباكستانية، فإن أكثر من نصف الصواريخ قد سقط على إقليم باكستاني مما أسفر عن مقتل مواطنين باكستانيين. ومع أن عبد الرحمن خضر قد دفن خمسة أشخاص فقط في معسكر القاعدة، بالإضافة إلى ذلك الذي لفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيه، فقد ظهرت العديد من الادعاءات الكاذبة. فيدعي ساندي بيرجر Sandy Berger، مستشار الأمن القومي في إدراة كلينتون، أن «عشرين أو ثلاثين من عملاء القاعدة قد لقوا حتفهم» وقد اشتكت طالبان بعد ذلك أن اثنين وعشرين أفغانيًا قتلوا وأصيب أكثر من خمسين بجروح خطيرة. وعلى أية حال، فقد شاهد حارس بن لادن ما عم من خراب ووافق عبد الرحمن على تقديره للخسائر، فيقول: «أصيب كل منزل بصاروخ ولكنهم لم يدمروا المعسكر بالكامل. فقد قصفوا مطبخ المعسكر والمسجد وبعض المراحيض. وقد قتل ستة رجال: سعودي ومصري وأوزباكستاني وثلاثة يمنيين.»

وفي الواقع، لقد كان للهجمات عواقب وخيمة أخرى؛ فالعديد من صواريخ توماهوك لم تنفجر. وطبقًا لمصادر المخابرات الروسية، فقد باع بن لادن الصواريخ التي لم تنفجر للصين مقابل أكثر من عشرة ملايين دولار، ومن المحتمل أن باكستان قد استخدمت بعض الصواريخ التي سقطت على أرضها لتصميم نسختها من صواريخ كروز.

أما أكبر النتائج التي أثمرت عنها عملية المدى المطلق فهي تحويل بن لادن إلى رمز للمقاومة، ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في كل مكان جعلت فيه أمريكا من نفسها، بسبب الجلبة التي تثيرها ثقافتها النرجسية والحضور المهيب لقواتها العسكرية، بلدًا غير مرحب به. فعندما جاء صوت بن لادن المبتهج في بث متقطع في الراديو وهو يقول: «بفضل الله، أنا لا زلت على قيد الحياة»، وجدت جميع القوى المعادية لأمريكا في كل مكان بطلها. ولقد روَّع المسلمون الذين اعترضوا على قتل الأبرياء في السفارتين في شرق أفريقيا من ذلك التأييد الشعبي للرجل الذي بدا تحديه

لأمريكا وكأنه مدعوم بمباركة إلهية. حتى في كينيا وتنزانيا، أكثر بلدين تضررتا من هجمات القاعدة، شوهد أطفال يرتدون قمصانًا عليها صورة بن لادن واسمه.

وفي اليوم التالي للهجمات، اتصل الظواهري بيوسفزاي مجددًا وقال له: «لقد نجونا من الهجوم. أخبر الأمريكيين أننا لا نخاف القصف أو التهديدات أو العدوان. لقد واجهنا القصف السوفييتي لمدة عشر سنوات في أفغانستان ونجونا منه، ونحن مستعدون للمزيد من التضحيات. لقد بدأت الحرب للتو، وعلى الأمريكيين الآن أن ينتظروا ردنا.»

twitter @baghdad_library

الفصل السابع عشر

الألفية الجديدة

بعد يومين من الهجوم الصاروخي الأمريكي، اتصل الملا عمر سرًّا بوزارة الخارجية الأمريكية ليقدم لهم نصيحة. فأخبرهم أن الهجمات العسكرية لن تثمر عن شيء سوى إثارة مشاعر عدائية تجاه أمريكا في العالم الإسلامي واستفزاز المزيد من العمليات الإرهابية، وأن أفضل حل هو أن يستقيل الرئيس كلينتون.

أشار مايكل إي. مالينوسكي Michael E. Malinowski، المسئول ثابت الجنان في وزارة الخارجية الذي تلقى الاتصال، إلى أن هناك أدلة قوية تؤكد أن بن لادن هو الذي يقف وراء التفجيرات في شرق أفريقيا. وأضاف مالينوسكي أنه يقدر القانون القبلي الذي جعل الملا عمر يحمي بن لادن، ولكن السعودي كان يتصرف مثل ضيف يطلق النيران على الجيران من نافذة مضيفه. وحذره أنه ما دام ظل بن لادن في أفغانستان، فلن تكون هناك مساعدات لإعادة إعمار أفغانستان. ومع أن ذلك الحوار لم يحل شيئًا، فقد كان الحلقة الأولى من سلسلة من المحادثات الصريحة غير الرسمية بين الولايات المتحدة الأمريكية وطالبان.

أدرك الملا عمر ولا ريب أنه يواجه مشكلة؛ فإعلان بن لادن الحرب على أمريكا بث الفرقة في صفوف طالبان؛ فهناك من قال: إن الولايات المتحدة كانت دائمًا صديقة لأفغانستان، فلماذا يحولونها إلى عدو رهيب دون ضرورة لذلك؟ وأشاروا إلى أنه لا يوجد أي شخص من العناصر المقربة من بن لادن أو حتى بن لادن نفسه لديه السلطة الدينية لإصدار فتوى، ناهيك عن فتوى بالجهاد. في حين رأى آخرون أن أمريكا جعلت من نفسها عدوًّا لأفغانستان عندما قصفتها بالصواريخ.

أما الملا عمر، فقد كان يستشيط غضبًا بسبب تحدي بن لادن لسلطته، ولكن الهجوم الأمريكي على الأراضي الأفغانية وضعه في مأزق حقيقي. فإذا سلَّمهم بن لادن، سيصبح في نظر الكثيرين يخضع للضغط الأمريكي، وقدر أن حركة طالبان

لن تستمر في الحكم إذا فعل ذلك. وبالطبع، كانت هناك الصفقة التي عقدها مع الأمير تركي الذي سيعود قريبًا إلى قندهار لكي يتسلم بن لادن ويعود به إلى المملكة.

ومرة أخرى، استدعى الملا عمر بن لادن الذي اعترف بعد ذلك قائلًا عن ذلك اللقاء: «لقد بكيت، وأخبرت الملا عمر أننا سنغادر بلده ونتجه إلى أرض الله الواسعة، ولكننا سنترك أطفالنا وزوجاتنا في حمايته. وأخبرته أننا سنسعى إلى أرض كانت ملاذًا لنا، ولكن الملا عمر أجاب بأن الأمور لم تصل بعد إلى هذه المرحلة.»

تعهد بن لادن بعد ذلك بالولاء الشخصي للملا عمر بيمين يشبه كثيرًا ذلك الذي يقسمه له أعضاء القاعدة، واعترف بالملا عمر أميرًا للمؤمنين. وقد كتب بن لادن: «إننا نعتبرك أميرنا الشرعي وندعو جميع المسلمين إلى تقديم المساعدة لك والتعاون معك بشتى الطرق الممكنة.»

وبعد أن حصل الملا عمر على ذلك العهد، تغير موقفه تمامًا. فلم يعد ينظر إلى بن لادن على أنه مصدر تهديد، بل تكونت بينهما علاقة صداقة. ومنذ ذلك الوقت، كلما اشتكى أحد أعضاء طالبان من الضيف السعودي، كان الملا عمر يدافع عنه بضراوة، وكانا يذهبان معًا في الكثير من الأحيان للصيد أسفل سد في غرب قندهار.

«لماذا لا تأتي معي هذه المرة؟ فبهذه الطريقة يـتأكد الملا عمر من أن كلًّا منا جاد في هذا.» طرح الأمير تركي هذا السؤال على زميله الباكستاني الجنرال نسيم رانا، رئيس المخابرات الباكستانية، في منتصف شهر سبتمبر/أيلول. وبناءً على بعض المعلومات الاستخباراتية التي حصل الباكستانيون عليها بأنفسهم، أخبروا تركيًّا أن بن لادن هو الذي يقف وراء تفجير السفارتين وأن مواطنين سعوديين هم من نفذوا العملية في نيروبي. وهنا أدرك تركي بحزن شديد أنه لم يعد يفاوض من أجل استرداد مجرد منشق، بل زعيم إرهابي. وبالطبع، سيتمكن أقوى حليفين لطالبان، السعودية وباكستان، من إقناع الأفغان بتسليمهما الضيف المزعج.

وصل الأمير تركي والجنرال رانا إلى منزل الضيوف نفسه في قندهار الذي استقبل فيه الملا عمر الأمير السعودي من قبل. فحيا تركي قائد طالبان ثم ذكره بوعده السابق، ولكن قبل أن يجيب الملا عمر عليه، هب واقفًا فجأة وغادر الغرفة لمدة عشرين دقيقة تقريبًا. فتساءل تركي ما إذا كان يستشير مجلس الشورى الخاص به أو حتى بن لادن نفسه. وأخيرًا، عاد أمير المؤمنين وقال: «لا بد أن المترجم قد أخطأ، فأنا لم أخبرك قط أننا سنسلم بن لادن.»

twitter @baghdad_library

فأجابه تركي بانفعال شديد: «ولكنني لم أقل هذا مرة واحدة فقط يا ملا عمر.» ثم أشار إلى الملا وكيل أحمد متوكل، كبير مستشاري الملا عمر ووزير خارجيته الفعلي، وذكره بأنه كان في المملكة قبل شهر واحد يتفاوض على عملية التسليم، فكيف يتظاهر الملا عمر بغير ذلك؟

أخذ الملا عمر يصيح وهو يتحدث ثم بدأ يتصبب عرقًا، فتعجب تركي وتساءل ما إذا كان تحت تأثير مخدر ما. وصرخ الملا عمر في وجه الأمير قائلًا: إن بن لادن «رجل ذو شرف، رجل ذو مكانة» وكل ما يريده هو رحيل الأمريكيين من شبه الجزيرة العربية، وقال لهما: «بدلًا من السعي وراءه، يجب أن تضعوا أيديكم في أيدينا وفي يديه لنقاتل الكفار.» وكان يشير في حديثه إلى المملكة العربية السعودية على أنها «بلد محتل»، وأخذ يوجه بعض الإهانات الشخصية حتى إن المترجم كان يتردد في ترجمة ما يقول.

فقال تركي غاضبًا: «لن أتحمل المزيد من هذا الهراء، ولكن يجب أن تتذكر يا ملا عمر أن ما تفعله الآن سيضر الشعب الأفغاني كثيرًا.»

استقل تركي والجنرال رانا السيارة عائدين إلى المطار يخيم عليهما صمت مطبق. وكان المرور على مزارع تارناك، حصن بن لادن المتهدم، مرة أخرى مثيرًا للحنق والمرارة. فبدءًا من تلك اللحظة، ستصبح ليس سمعة الأمير تركي فقط، ولكن مكانة المملكة العربية السعودية في العالم أيضًا؛ رهينة بين يدي الرجل بداخل هذه المزرعة.

مع أن الضربة الأمريكية قد دمرت معسكرات التدريب الأفغانية، فقد نُقلَت إلى مكان آخر بسهولة، هذه المرة بالقرب من الأماكن المأهولة بالسكان في قندهار وكابول. ولكن الهجوم خلَّف وراءه شعورًا بالارتياب فانقلب أعضاء القاعدة، الذين كانوا يرتابون دائمًا من الغرباء، بعضهم على بعض. فقد كان سيف العدل، رئيس قوات بن لادن الأمنية، واثقًا بوجود خائن في المعسكر، ففي نهاية الأمر كان من المفترض أن يكون بن لادن والأعضاء الأساسيون في مجلس الشورى في خوست عندما بدأ الهجوم بالصواريخ لولا القرار الذي اتخذه بن لادن في اللحظة الأخيرة وجعلهم يغيرون اتجاههم إلى كابول.

ظل بن لادن بعد تلك التطورات يجلس مع رجاله بالطريقة البسيطة غير المكترثة نفسها وكان من السهل لأي شخص الاقتراب منه. وفي إحدى المرات، جاء

رجل سوداني اسمه أبو الشعثاء إلى مجلس بن لادن وتحدث إليه بوقاحة أمام القادة الآخرين. فتعرف أبو جندل، أحد رجال بن لادن، على الرجل وأدرك أنه تكفيري، وعرض أن يجلس بينه وبين بن لادن، فطمأنه بن لادن قائلًا: «لا داعي لهذا»، ولكنه وضع يده على مسدسه وهو يتحدث معه.

وعندما قام التكفيري السوداني بحركة مفاجئة، انقض عليه أبو جندل وجذب يديه خلف ظهره، وجلس فوقه حتى أفقده القدرة على الحراك، فضحك بن لادن وقال: «اترك الرجل يا أبا جندل.»

أعجب بن لادن وحراسه المصريون كثيرًا بيقظة تابع بن لادن المخلص وقوته. فأعطاه بن لادن مسدسًا وجعله حارسه الشخصي. ولم يكن في المسدس سوى طلقتين لاستخدامهما في قتل بن لادن نفسه إذا ما كان يواجه خطر القبض عليه. وكان أبو جندل يحرص على تنظيف الرصاصتين كل ليلة ويقول لنفسه: «هاتان طلقتا الشيخ أسامة، الله لا يجعلني أستعملهما.»

بعد الإهانة التي وجهها الملا عمر للأمير تركي، كان كل من حركة طالبان وقوات بن لادن الأمنية يترقبون بقلق رد الفعل السعودي على ما حدث. وبالفعل، ألقت طالبان القبض على شاب أوزبكي في خوست كان يتصرف بغرابة. واعترف الشاب، واسمه صديق أحمد نشأ في المملكة كوافد، أن الأمير سلمان حاكم الرياض قد استأجره لقتل بن لادن (وقد أنكر الأمير سلمان ذلك). وفي المقابل، سيحصل القاتل على مليوني ريال سعودي والجنسية السعودية. فسأله أبو جندل: «هل توقعت أن تتمكن من قتل الشيخ أسامة بن لادن وتهرب من أربعة عشر حارسًا مدربًا ومسلحًا بأسلحة آلية؟» كان الصبي في الثامنة عشرة فقط من عمره ويبدو كطفل صغير، فأخذ يبكي قائلًا: «لقد أخطأت» وكان زائغ العينين مصدومًا وهيئته مثيرة للشفقة، فقال بن لادن في النهاية: «أطلقوا سراحه.»

في الأيام الأولى من شهر فبراير/شباط عام ١٩٩٩م، عاد بن لادن للظهور على الساحة أمام مايكل شوير مرة أخرى. فقد تلقت المخابرات الأمريكية معلومات تفيد أن بن لادن كان يخيم في الصحراء جنوب قندهار مع مجموعة من أفراد العائلة الحاكمة الإماراتية الذين يهوون الصيد بالصقور. وقد كانوا يصطادون دجاج الحبارى البري وهو طائر مهدد بالانقراض ويشتهر بالسرعة والذكاء وكفاءته كغذاء مقوي للقدرة الجنسية. وصل الأمراء على متن طائرة من طراز سي-١٣٠ ومعهم مولدات كهربائية

twitter @baghdad_library

وشاحنات تبريد وخيم فاخرة مكيفة وصوارٍ عالية لاستقبال إشارات أجهزة الاتصالات والتليفزيون الخاصة بهم ونحو خمسين شاحنة خفيفة من شاحنات الدفع الرباعي (٤ × ٤) التي سيتركونها وراءهم كإكرامية لحركة طالبان التي تستضيفهم. كان شوير يرى المعسكر واضحًا بشدة في الصور الاستطلاعية، بل وكان يستطيع تمييز مجاثم الصقور على الأعمدة، ولكنه لم يستطع العثور على معسكر بن لادن الصغير الذي كان واثقًا أنه بالقرب من ذلك المعسكر.

وكلما وطئت قدما بن لادن المعسكر، كان الحارس الإماراتي ينقل المعلومة إلى المدرب الأمريكي المسئول عنه في باكستان، وتنتقل المعلومة إلى مكتب شوير في دقائق. وكان الجواسيس الأفغان المنتشرون في دائرة واسعة حول المعسكر يؤكدون مجيء وذهاب الهدف السعودي.

وشوير رجل طويل القامة أشعث يرتدي نظارة وله لحية خشنة بنية اللون، يذكرنا شكله بأحد أولئك الذين كانت صورهم تعلق على جدران بيوت كبار الملاك في بروسيا في القرن التاسع عشر. وهو رجل عالي الهمة كثير المطالب وتحفزه على العمل قوة داخلية ولا ينام سوى ساعات قليلة فقط من الليل. وقد كان كولمان يلاحظ أنه يوقع في دفتر الحضور الساعة «الثانية والنصف صباحًا» أو في مثل هذه الأوقات، وكان يستمر في العمل حتى الساعة الثامنة مساءً. وكان شوير كاثوليكيًّا ملتزمًا من النوع الذي يعرفه كولمان جيدًا، فكان يتجرد تمامًا من أية مشاعر تربطه بالعمل الذي يتحتم عليه القيام به. فقبل بضعة أشهر فقط، تلقى شوير معلومة استخباراتية تفيد أن بن لادن سيقضي الليل في مسكن حاكم مدينة قندهار. وعندما اقترح شوير هجومًا صاروخيًّا عاجلًا بصواريخ كروز، اعترضت القوات المسلحة قائلة: إنه من المحتمل أن يلقى ما يقرب من ثلاثمائة شخص مصرعهم ويُدمَر مسجد قريب من المنزل، ولكن مثل هذه الاعتبارات كانت تشعل غضب شوير.

وكان شوير مقتنعًا أن معسكر الصيد هو أفضل فرصة ستتسنى له على الإطلاق لاغتيال بن لادن، فاصطحب جورج تينيت، مدير المخابرات لمقابلة ديك كلارك في البيت الأبيض. ومرة أخرى، كان البنتاجون يعد صواريخ كروز، الخيار الأمريكي المفضل في علميات الاغتيال، لتوجيه ضربة أخرى في صباح اليوم التالي. وبالصدفة، كان كلارك قد عاد منذ وقت قريب من الإمارات حيث ساعد في التفاوض على بيع طائرة مقاتلة أمريكية الصنع قيمتها ثمانية مليار دولار، وكانت تربطه علاقات شخصية بالعائلة الحاكمة الإماراتية. ومن المؤكد أن صورة الأمراء القتلى وجثثهم

متناثرة على رمال الصحراء، بالإضافة إلى فشل عملية المدى المطلق، قد داعبت ذهنه، إلى جانب أن المخابرات الأمريكية لم تستطع أن تؤكد وجود بن لادن في المعسكر.

رفض كلارك تنفيذ العملية، وكذلك صوت تينيت ضدها، فشعر شوير بالخيانة، وبدت له الاعتبارات التي جعلتهما يقفان في وجه المشروع تافهة ومادية مقارنة بفرصة التخلص من بن لادن. وقد اعترف شوير قائلًا: «أنا لست رجلًا يهتم كثيرًا بدراسة العواقب»، وكي يثبت ذلك، أرسل سلسلة من الرسائل الإليكترونية الغاضبة التي تدين القرار. وانتشرت الأحاديث الجانبية في الوكالة تقول: إنه أصيب بانهيار وأن استحواذ بن لادن على تفكيره قد أفقده صوابه. وفي غضون ذلك، انفجر غضبًا في وجه أحد كبار مديري مكتب التحقيقات الفيدرالي في أليك ستيشن، الأمر الذي أدى إلى تلقي جورج تينيت اتصالًا هاتفيًّا غاضبًا من المدير فريه يشكو مما حدث. وفي شهر مايو/أيار، أقيل شوير من منصبه كرئيس لأليك ستيشن؛ وقال له رئيسه: «لقد انتهى أمرك.»

كان مكتب أونيل في الركن الشمالي الشرقي من الطابق الخامس والعشرين من المبنى الفيدرالي الكائن في ٢٦ ساحة فيدرال بلازا في نيويورك، وتطل إحدى نافذتي مكتبه على المبنيين كريزلر وإمباير ستيت، والأخرى على جسر بروكلين. وحرص أونيل على ألا يكون هناك مكتب آخر في مكتب التحقيقات الفيدرالي مثل مكتبه الخاص. وقد تخلص من الأثاث الحكومي الذي يُصنَع في السجون وأحضر أريكة ذات لون أرجواني فاتح، وعلى منضدة القهوة الحمراء الخاصة به المصنوعة من أخشاب الماهوجني، كان هناك كتاب عن نباتات التوليب يحمل عنوان «الزهرة التي تثير الرجال» The Flower that Drives Men Wild، وكان يملأ الغرفة بالنباتات والزهور الموسمية. وكان يحتفظ في مكتبه بجهازي كمبيوتر؛ الأول: هو ذلك الكمبيوتر العتيق عديم الفائدة الذي أمده به المكتب، والثاني: جهازه الشخصي فائق السرعة. وفي خلفية مكتبه يوجد تليفزيون صغير يبث قناة سي إن إن باستمرار، وبدلًا من الصور العائلية التقليدية التي عادة ما تزين الجدران وأسطح المكاتب، كان أونيل يضع صورًا لأعمال فنانين من الحركة الفرنسية الانطباعية.

لم يعرف الكثير من زملائه في المكتب أنه متزوج ولديه طفلان (جون الابن وكارول) في نيوجيرسي لم يرحلوا معه عندما انتقل إلى شيكاغو عام ١٩٩١م. وبعد أن وصل إلى تلك المدينة بوقت قصير، قابل فاليري جيمس التي كانت تعمل مديرة

twitter @baghdad_library

مبيعات أزياء وهي مطلقة ولديها طفلان. كانت فاليري طويلة وجميلة ولها نظرة ثابتة وصوت مثير، وقد قابلت أونيل في حانة واشترت له شرابًا لأنه — على حد تعبيرها: «لديه أكثر عينين جذابتين رأيتهما»، وقد ظلا يتحدثان معًا حتى الخامسة صباحًا.

وكان أونيل يرسل لفاليري زهورًا كل يوم جمعة، الذكرى الأسبوعية لليوم الذي تقابلا فيه. وكان راقصًا ماهرًا وقد اعترف بأنه عندما كان مراهقًا كان يشارك في عروض برنامج أميركان براندستاند American Brandstand. وكلما اضطرت فاليري للسفر في رحلة عمل، كانت تجد زجاجة خمر بانتظارها في غرفتها بالفندق، وكانت تسأله دائمًا: «هل أنت واثق أنك غير متزوج.»

وقبل أن ينتقل أونيل إلى واشنطن، انتحت إحدى عميلات مكتب التحقيقات الفيدرالي بفاليري جانبًا في الحفلة التي أقامها المكتب في عيد الميلاد وأخبرتها عن عائلة أونيل في نيوجيرسي ولكن فاليري أجابتها: «هذا مستحيل، إننا على وشك أن نتزوج، لقد طلب يدي من والدي.»

وفي حين كان أونيل يتودد إلى فاليري، كانت لديه حبيبة في واشنطن وهي ماري لين ستيفنز التي كانت تعمل في اتحاد الائتمان الفيدرالي التابع للبنتاجون. وقد طلب منها قبل سنتين عندما زارته في شيكاغو في عشية رأس السنة الجديدة «أن ينفرد وحده بقلبها» ولا تجعل غيره يشاركه فيها. وقد اكتشفت ماري لين علاقته بفاليري عندما سمعت بالصدفة رسالة مسجلة على جهاز الرد الآلي الخاص بأونيل. وعندما واجهته، ركع أمامها على ركبتيه طالبًا منها أن تسامحه ووعدها أنه لن يرى فاليري مرة أخرى. وعندما عادت إلى واشنطن، أخبرها مصفف الشعر الذي تتردد عليه، والذي تصادف أنه من أتلانتيك سيتي، عن زوجة أونيل. وقد برر أونيل ذلك قائلًا: إنه كان لا يزال يتحدث مع المحامين عن إجراءات الانفصال وإنه لم يشأ أن يخاطر بعلاقته مع ماري لين عندما يخبرها عن زواجه الذي انتهى بالفعل ولا يتبقى منه سوى بعض الإجراءات القانونية الأخيرة، وقد أخبر فاليري جيمس العذر نفسه تقريبًا.

وبعد أن ذهب إلى واشنطن بوقت قصير، قابل امرأة أخرى اسمها آنا ديباتيستا، سيدة شقراء أنيقة تعمل في مجال الصناعة العسكرية. وقد كانت تعلم منذ البداية أنه متزوج؛ إذ أخبرتها إحدى زميلاتها في العمل بذلك، ولكن أونيل لم يخبرها قط عن النساء الأخريات في حياته. وقد حذرها القس قائلًا: «هذا الرجل لن يتزوجك أبدًا

فإنه لن يحصل قط على إلغاء لعقد زواجه.» ومع ذلك، أخبرها أونيل ذات مرة أنه حصل أخيرًا على إلغاء عقد الزواج، وكان يكذب في ذلك الشأن، وأضاف قائلًا: «أعلم جيدًا كم يعني لك هذا الأمر.» وكان غالبًا ما يقضي جزءًا من الليل مع ماري لين وبقيته مع آنا، فتقول ماري لين: «لا أتذكر قط أنه بقي معي بعد الساعة الخامسة أو السادسة صباحًا، ولم أعد له الإفطار قط.» وفي الوقت نفسه، حافظ أونيل على علاقته بفاليري في شيكاغو، وقد أقنع ثلاثتهن أنه سيتزوجهن. وكان يهوى امرأة جميلة تحتل منصبًا رفيعًا في وزارة العدل، ولكنها كانت متزوجة، الأمر الذي سبب له إحباطًا دائمًا.

لقد كانت حياة أونيل العائلية المتقلبة تشبه بطريقة غريبة حياة أسامة بن لادن، الطريدة التي يسعى وراءها. وربما لو كان أونيل يعيش في ثقافة تشرع تعدد الزوجات، لكان خصص جناحًا في منزله ليكون «للحريم»، ولكنه كان ماكرًا بطبيعته ويستمتع بالعيش في أجواء من الأسرار الخطيرة والأكاذيب المبتكرة. وبالطبع كانت طبيعة عمله تتيح له غطاءً مثاليًا إذ كان بإمكانه الاختفاء لأيام بحجة أنه في مهمة «سرية».

ولكن كان هناك جزء منه يسعى دائمًا لأن تكون له علاقة ثابتة، التي كان يبدو أقرب للوصول إليها مع فاليري جيمس. فعندما انتقل أونيل إلى نيويورك، انضمت إليه فاليري وحصلا على شقة في مدينة ستيفيسانت. وكان مولعًا بولديها اليافعين حتى إن أصدقاء الأسرة كانوا يخطئون ويعتقدون أنهما ولداه هو. وعندما ولد أول أحفادها واحتاج إلى من يجالسه ويرعاه، كان أونيل يجلس في المنزل حتى تستطيع فاليري الذهاب إلى عملها. وقد استقرت حياتهما على نوع من الروتين؛ ففي صباح أيام الثلاثاء، كانا يتركان ملابسهما في المغسلة للتنظيف والتجفيف ويذهبان لممارسة رياضة الجري معًا، وفي صباح أيام السبت، يقوم أونيل بحلاقة شعره وذقنه. وفي أيام الأحد، كانا يذهبان معًا إلى الكنيسة وفي بعض الأحيان يستكشفان المدينة على الدراجات. وكان عندما يعود إلى المنزل في وقت متأخر من الليل وهو منهك القوى بعد القيام بمهام عمله المختلفة مثل استضافة ضباط من فنزويلا أو أوزباكستان، يزحف إلى الفراش وفي يده كوب من اللبن وطبق من الكعك المحلى برقائق الشيكولاتة، وكان يحب توزيع الحلوى في عيد الهالووين.

ولكن كان هناك دائمًا إحساس بالقلق في حياته جعله يخشى بعض الترتيبات البسيطة، فعلى سبيل المثال، عندما حصلت آنا ديباتيستا على عرض عمل في نيويورك

twitter @baghdad_library

عام ١٩٩٩م وشعر بأن ذلك يهدد بتعقيد حياته، ترجاها أن تأتي قائلًا: «يمكننا أن نتزوج!» ولكن عندما وصلت، أخبرها أنها لا تستطيع الانتقال للعيش معه على الفور مبررًا ذلك أنه يستضيف بعض «اللغويين» في شقته.

وكان أونيل يعيش حياة مختلفة مع كل سيدة منهن، وقد نجح في جعل دائرة علاقاته الاجتماعية منفصلة؛ فكانت مجموعة من الأصدقاء تعرفه مع فاليري ومجموعة أخرى مع آنا وثالثة مع ماري لين. وكان يصطحبهن إلى مطاعم مختلفة، وحتى إلى بلاد مختلفة في الإجازات. وحتى الموسيقى التي يستمع إليها مع كل منهن كانت مختلفة فتقول فاليري: «كان يحب موسيقى الجاز» أما مع آنا، فكان يستمع إلى أغنيات المطرب الإيطالي أندريا بوتشيللي Andrea Bocelli، وتتذكر آنا فتقول: «كانت أغنيتنا المفضلة هي حان وقت الوداع Time to Say Goodbye.» في حين أن ماري لين أدخلته إلى عالم الأوبرا، فتقول: «لقد طار إلى هنا من كاليفورنيا عندما دعوته إلى أوبرا ميفيستو.» وكانت ميوله السياسية مرنة أيضًا ويتماشى مع آراء من برفقته منهن؛ فكان ديمقراطيًّا معتدلًا مع واحدة، وجمهوريًّا معتدلًا مع الأخرى.

وفي الإجازات، كان يعود إلى منزله في نيوجيرسي لزيارة والديه ورؤية زوجته وطفليه. ومع أنه انفصل عن كريستين Christine منذ عدة سنوات، فإنه لم يطلقها أبدًا. وقد أوضح لأصدقائه الذين كانوا يعرفون بشأن عائلته أن الطلاق هذا ما هو إلا «أمر كاثوليكي»، واستمر في الإنفاق على عائلته، وكان يتحدث إلى أطفاله كثيرًا في الهاتف، ولكن كانت أتلانتيك سيتي جانبًا من حياته لا يعرف عنه سوى القلة. ولأن النساء اللائي كن في حياته شعرن أنه لا يمكنهن الوثوق به، فإن أيًّا منهن لم تمنحه الحب والإخلاص المطلقين اللذين كان يسعى إليهما، لذا فقد ظل وحيدًا ومنعزلًا بسبب خداعه المتأصل فيه.

وبالطبع، كان لا بد أن يجبي ذلك التعقيد ضريبته، فذات مرة ترك مفكرته الرقمية الشخصية من طراز بام بايلوت في ستاد يانكي وعليها أرقام هواتف مصادر في الشرطة من جميع أنحاء العالم. ولحسن الحظ، عثر أمن الإستاد عليها، ومرة أخرى ترك هاتفه المحمول في سيارة أجرة. وفي صيف عام ١٩٩٩م، كان يقود سيارته إلى شاطئ مدينة نيوجيرسي ومعه فاليري، ولكن أصيبت سيارته من طراز بويك بعطل بالقرب من منطقة ميدولاندز، وكانت إحدى سيارات مكتب التحقيقات موجودة بالصدفة في مكان قريب منه في موقع خارجي سري، فاستبدل أونيل السيارتين مع أن المكتب يمنع استخدام سيارة رسمية لأغراض شخصية. وكان من الممكن أن ينجو

أونيل من اختراقه للقانون لولا أنه سمح لفاليري بدخول المبنى لاستخدام الحمام، ولم تكن تدري شيئًا عن ماهية المبنى. وعندما علم مكتب التحقيقات الفيدرالي عن هذا الخرق للقوانين على ما يبدو من عميل حاقد، ضُبِط من قبل يستخدم الموقع التابع للمكتب كورشة لإصلاح السيارات، تعرض أونيل للتأنيب الرسمي وخصم خمسة عشر يومًا من راتبه.

وقد كان ذلك العقاب شديد القسوة على أونيل الذي لا يتحمل أي نقص في دخله المادي. فقد كان دائمًا مضيفًا يميل إلى التظاهر بالثراء ويصر على دفع جميع الفواتير، حتى إنه مزق نقود عميل آخر إلى نصفين عندما عرض أن يتقاسم معه قيمة الفاتورة، وبالطبع كانت مثل هذه الأشياء تكلفه الكثير. وقد لاحظ عميل يعد إقرارات أونيل الضريبية أن بطاقة ائتمانه تشير إلى أنه مدين، فقال له: «يا إلهي! ستكون هدفًا للتجنيد يا جون!»، وكان أونيل يدفع قسط الرهن العقاري على منزل زوجته ويأخذ نقودًا من مدخرات تقاعده ويقترض من أصدقائه الأثرياء مقابل توقيعه على كمبيالات بالسداد. ومن الطبيعي أن يخضع أي شخص عليه مثل هذه الالتزامات للمراقبة لأنه يمثل خطرًا على المستوى الأمني.

كان أونيل غير مستقر ومخادعًا وعرضة للشبهات، ولكنه كان أيضًا واسع الحيلة وعبقريًّا وتحفزه على العمل قوة داخلية. وفي مختلف الأحوال، فهذا هو الرجل الذي أصبحت أمريكا تعتمد عليه لإيقاف بن لادن.

لم يكن العراق حليفًا محتملًا في حرب القاعدة على الغرب، ولكن جرت سلسلة من الاتصالات بين العراق والتنظيم منذ نهاية حرب الخليج الأولى. فقد كان صدام حسين يسعى لتكوين حلفاء لإنقاذ نظامه المتداعي، وكان الإسلاميون المتطرفون يشاركونه على الأقل رغبته في الانتقام. وفي عام ١٩٩٢م، رتب حسن الترابي لقاءً بين المخابرات العراقية والقاعدة بهدف خلق «استراتيجية مشتركة» لخلع الحكومات العربية الموالية للغرب. قابل الوفد العراقي بن لادن وتملقه وادعى أنه المهدي المنتظر ومنقذ الإسلام. وطلبوا منه أن يتوقف عن دعم المتمردين المناهضين لصدام، فوافق بن لادن وطالب في المقابل أن يوفروا له أسلحة ومعسكرات تدريب داخل العراق. وفي العام نفسه، سافر الظواهري إلى بغداد حيث قابل الديكتاتور العراقي شخصيًّا. ولكن لا توجد أدلة على أن العراق قد زود القاعدة بأسلحة أو معسكرات تدريب، وسريعًا ما عاد بن لادن إلى دعم المنشقين العراقيين.

twitter @baghdad_library

وعلى أية حال، فقد استمرت المحادثات على فترات متقطعة. وعندما أصدر بن لادن فتواه ضد أمريكا عام ١٩٩٨م، سافر مسئولون من المخابرات العراقية إلى أفغانستان لمناقشة إمكانية نقل مقر القاعدة إلى العراق مع الظواهري. وكانت علاقة بن لادن بطالبان متوترة في ذلك الوقت، وكان العديد من كبار أعضاء القاعدة يفضلون الانتقال إلى مأوى جديد. ولكن بن لادن عارض تلك الفكرة؛ إذ لم يكن يريد أن يدين بالفضل للطاغية العراقي.

وفي سبتمبر/أيلول من عام ١٩٩٩م، ذهب الظواهري إلى بغداد مرة أخرى بجواز سفر مزور لحضور المؤتمر الإسلامي الشعبي التاسع، وهو اتحاد دولي من العلماء والنشطاء ترعاه الحكومة العراقية. وقد تزامن ذلك مع وصول جهادي أردني اسمه أبو مصعب الزرقاوي إلى العراق. ولم يكن الزرقاوي عضوًا في القاعدة، ولكنه كان يدير معسكر تدريب في هرات في أفغانستان، وكان يرى نفسه منافسًا لبن لادن، ولكن تربطه علاقات قوية بجماعة الجهاد. ومن المحتمل أن تكون المخابرات العراقية قد ساعدت الظواهري والزرقاوي في إنشاء منظمة إرهابية من المتطرفين الأكراد يطلق عليها أنصار الإسلام، وقد استوحوا الفكرة من رعاية إيران لحزب الله.[1] (أصبح الزرقاوي فيما بعد قائد عمليات القاعدة ضد القوات الأمريكية بعد غزو العراق في عام ٢٠٠٣م.)

كان أونيل قلقًا بصورة خاصة من أن تستغل القاعدة فرصة اقتراب الألفية الجديدة وتصعد الحرب على أمريكا على نحو مثير، وكان واثقًا أن الإرهابيين الإسلاميين قد غرسوا جذورهم في الأراضي الأمريكية. ولكن كانت وجهة نظره تختلف كثيرًا عن وجهة نظر قيادة مكتب التحقيقات؛ فقد أكد المدير فريه أكثر من مرة في اجتماعات البيت الأبيض أن القاعدة لا تمثل أي تهديد داخلي. وحتى يونيو/حزيران من عام ١٩٩٩م، لم يكن اسم بن لادن قد ظهر على قائمة أكثر الإرهابيين المطلوبين في مكتب التحقيقات الفيدرالي.

شعر أونيل أن هجمات القاعدة تسير على خطى معينة، وقد قال ذات مرة لبعض أصدقائه: «لقد حان وقتنا.» وقد تزايد ذلك الشعور لديه في النصف الثاني

[1] هذه الافتراضات مبنية على ملحوظات أبداها رئيس الوزراء العراقي المؤقت السابق إياد علاوي الذي ادعى أنه اكتشف هذه المعلومات في أرشيف المخابرات العراقية.

من عام ١٩٩٩م. وكان يعلم جيدًا ما يعنيه الوقت والرموز لبن لادن، وبالطبع كانت الألفية الجديدة تمثل فرصة ليس لها مثيل لتنفيذ عملية يتردد صداها بقوة. وقد اعتقد أونيل أن الهدف سيكون جزءًا أساسيًّا من البنية التحتية الحيوية مثل مياه الشرب أو شبكة الكهرباء أو ربما شبكة النقل والمواصلات. ولكن للأسف لم يكن هناك معلومات تؤكد مثل تلك الافتراضات.

وفي شهر ديسمبر/كانون الأول، ألقت السلطات الأردنية القبض على ستة عشر إرهابيًّا مشتبه بهم كانت تعتقد أنهم يخططون لتفجير فندق راديسون في عمان وعدد من المواقع السياحية التي يتردد عليها الغربيون. وقد كان أبو مصعب الزرقاوي أحد المخططين، ولكنه نجا من الاعتقال. واكتشف الأردنيون أيضًا دليل تدريبات القاعدة المكون من ستة أجزاء على قرص مضغوط، وكانت خلية الأردن تلك تضم العديد من الأمريكيين العرب.

حذرت المخابرات الأمريكية من احتمال شن العديد من الهجمات داخل الولايات المتحدة الأمريكية ولكنها لم تقدم الكثير من التفاصيل. وبعد أن أصبح الجميع على أهبة الاستعداد؛ إدارة الملاحة الجوية الفيدرالية ودوريات الحدود والحرس الوطني والمخابرات وكل مأمور وضابط في كل قسم شرطة في جميع أنحاء البلد، لم تكن هناك أية علامات حقيقية تدل على هجمات وشيكة. وقد طغى الهلع من الإخفاق المحتمل لمعظم أجهزة الكمبيوتر في التكيف مع تغيرات التقويم في الألفية الجديدة مما سيؤدي إلى انهيار عالم التكنولوجيا بالكامل، على المخاوف من الهجمات الإرهابية.

ثم في الرابع عشر من ديسمبر/كانون الأول، أوقفت ضابطة في حرس الحدود الأمريكي في ميناء أنجيليز في واشنطن رجلًا جزائريًّا اسمه أحمد رسام حين أثار القلق البادي على ملامحه شكوكها. فطلبت منه أن يخرج من السيارة في حين فتح زميل لها صندوق السيارة وصرخ قائلًا: «انظروا، لدينا شيء ما هنا.» فجذب أحد ضباط الجمارك رسامًا من ظهر سترته وقاده إلى صندوق السيارة التي وجدوا بداخلها أربعة مؤقتات وأكثر من مائة رطل من مادة اليوريا وأربعة عشر رطلًا من مادة السلفات — أي مكونات صناعة قنبلة من نوع تلك التي انفجرت في مدينة أوكلاهوما.

نزع رسام سترته وتركها في يد ضابط الجمارك وانطلق هاربًا، ولكن الحراس طاردوه وألقوا القبض عليه على بعد أربع بنايات يحاول سرقة سيارة كانت تقف في إشارة مرور. اتضح بعد ذلك أن هدف رسام كان مطار لوس أنجلوس الدولي.

twitter @baghdad_library

وعلى الرغم من جميع إجراءات الحذر والحيطة التي اتخذت في البلاد، فلولا أن توتر رسام قد أشعل فضول ضابطة الحدود، كان من الممكن أن تبدأ الألفية الجديدة بكارثة كبيرة، ولكن القدر اختار موقعًا آخر للأحداث.

لم يكن رسام في الواقع عميلًا للقاعدة، مع أنه تعلم صناعة القنابل في أحد معسكرات بن لادن في أفغانستان؛ فقد كان إرهابيًّا مستقلًّا يتموه بزي القاعدة، وهو النوع من الإرهابيين الذي سيتفشى بعد أحداث ١١ سبتمبر/أيلول. ومن الممكن اعتبار رسام باكورة هذا الجيل الجديد؛ فهو لص على قدر ضئيل من التعليم الديني تلقى تدريبه على يد القاعدة واستمد قوته منها، ثم قام ببناء خلية خاصة به لذلك الغرض في مونتريال. وقد اتصل بأفغانستان قبل العملية لكي يعرف ما إذا كان بن لادن يحب أن ينسب لنفسه تلك العملية، ولكنه لم يتلق ردًّا.

كان جون أونيل واثقًا أن رسامًا له حلفاء في الولايات المتحدة، ولكن من هم؟ وأين هم؟ وشعر أن هناك ساعة تتحرك عقاربها في اتجاه العد التنازلي لإعلان حلول العام الجديد حيث سيجذب هجوم القاعدة أنظار العالم بأسره.

وفي محفظة رسام، عثرت سلطات ولاية واشنطن على قصاصة من ورقة عليها اسم «غني»، بالإضافة إلى عدد من أرقام الهواتف. كان أحد هذه الأرقام يحمل كود منطقة هو ٣١٨، ولكن عندما اتصل جاك كلونان بالرقم، أجاب طفل في مدينة مونرو في ولاية لويزيانا على الهاتف. فعاد كلونان يفحص الرقم مرة أخرى وخمن أنه من الممكن أن يكون الكود ٧١٨، وعندما تأكد من الرقم، وجد أنه يخص مواطنًا جزائريًّا يعيش في ضاحية بروكلين اسمه عبد الغني مسكيني.

أشرف أونيل على عملية مراقبة منزل مسكيني من مقر القيادة التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي الموجود في بروكلين. وقد التقطت أجهزة التنصت على الهاتف اتصالًا أجراه مسكيني بالجزائر وتحدث فيه عن رسام وإرهابي آخر مشتبه به في مونتريال. وفي الثلاثين من ديسمبر/كانون الأول، ألقى أونيل القبض على مسكيني بتهمة التآمر وكذلك على عدد آخر من الإرهابيين المشتبه بهم بتهمة انتهاك شروط الهجرة. وفي نهاية المطاف، سيصبح مسكيني ورسام شهودًا متعاونين مع الحكومة.

وفي عشية رأس السنة قارسة البرودة، وقف أونيل بين مليوني شخص في ميدان تايمز، وفي منتصف الليل تحدث إلى كلارك في البيت الأبيض ليخبره أنه يقف تحت الكرة العملاقة في الوقت الذي كانت الأجراس تدق فيه معلنة حلول الألفية الجديدة وقال له: «إذا كانوا سيفعلون شيئًا في نيويورك، فسيفعلونه هنا، لذا فأنا هنا.»

بعد حملة اعتقالات الألفية الجديدة، توصل أونيل إلى أن القاعدة لديها خلايا نائمة مزروعة في أمريكا؛ فقد كانت الصلات بين الخلايا الكندية والأردنية تعود لتشير إلى الولايات المتحدة، ومع ذلك، وحتى بعد الهجمات على السفارتين الأمريكيتين ومحاولة تفجير مطار لوس أنجلوس، كانت القيادات العليا في مكتب التحقيقات لا تزال ترى أن القاعدة تهديد بعيد يمكن التحكم فيه. أما ديل واتسون Dale Watson، مساعد مدير قسم مكافحة الإرهاب، فقد كانت له رؤية مختلفة. وقد اجتمع أونيل وواتسون بديك كلارك في الأشهر القليلة التي تلت احتفالات الألفية لوضع خطة استراتيجية أطلق عليها تقييم أداء عمليات الألفية Millennium After-Action Review، التي حددت عددًا من التغييرات في السياسة أُعِدت لاستئصال خلايا القاعدة. وقد تضمنت هذه التغييرات زيادة عدد مجموعات قوة العمل المشتركة لمكافحة الإرهاب في جميع أنحاء الدولة، وتكليف المزيد من العملاء من مصلحة الضرائب ودائرة الهجرة والجنسية بمراقبة تدفق الأموال والأشخاص، ووضع عملية منظمة لتحليل المعلومات التي يحصلون عليها من عمليات التنصت. ولكن لم تكن تلك التغييرات كافية للتغلب على التراخي البيروقراطي الذي خيم على واشنطن بعد مرور الألفية.

تحيي ليلة القدر، التي تحل قرب انتهاء شهر رمضان، ذكرى بدء تلقي الرسول رسالته الإلهية في غار حراء. وفي تلك المناسبة المباركة التي وافقت الثالث من يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠٠م، خرج خمسة رجال في عدن في اليمن ليسيروا على الشاطئ بعد الإفطار. وفي أثناء ذلك، رأوا أغرب شيء وقعت عليه أعينهم: أمواج الشاطئ تغمر مركب صيد مصنوع من الألياف الزجاجية. وفي الواقع، لم يكن ما رأوه سوى المحرك الخارجي من إنتاج شركة ياماها الذي تصل قوته إلى ٢٢٥ حصان. ولكن أخذ الرجال يتحدثون عما رأوه وقرروا أنه هدية من الله، ولأنهم كانوا في حالة من النقاء الديني، فقد اعتقدوا أن الله يكافئهم على ورعهم. لذا شرعوا في انتزاع كل ما يستطيعون من المركب، وبدأوا بالمحرك الذي يبلغ وزنه ستمائة رطل والذي كان يساوي أكثر من عشرة آلاف دولار. وعندما قاموا بفك المحرك الضخم، غاص في المياه المالحة، وكان عليهم أن يجذبوه إلى الشاطئ، وفي ذلك الوقت كان قد تلف تمامًا.

ثم فتح أحدهم الغطاء، ووجدوا أنه مليء بكتل غريبة فاعتقد أنها حشيش، ولكن كانت هناك أسلاك تربط بينها وبين بطارية، فانتزع الرجل إحدى هذه الكتل

twitter @baghdad_library

من الأسلاك التي تربطها وشمها، فوجد أن لها رائحة زيت غريبة، ولكنها لا تشبه الحشيش على الإطلاق. فقرر الرجال أن تلك الكتل بلا شك قيِّمة بغض النظر عن ماهيتها، لذا فقد كونوا صفًّا من القارب إلى الشاطئ وبدءوا يلقون الكتل إلى بعض.

وفجأة، ظهر اثنان من عملاء القاعدة في سيارة رياضية صغيرة، وسألوهم ماذا يفعلون بقاربهم، ولكن عندما رأى العملاء الرجال اليمنيين وهم يتقاذفون الكتل فيما بينهم، تراجعوا في حذر.

وسيعلم المحققون الأمريكيون فيما بعد أن قارب الصيد المصنوع من الألياف الزجاجية كان من المقدر استخدامه في هجوم انتحاري على المدمرة الأمريكية يو إس إس ذا سوليفانز التي كانت تتزود بالوقود في ميناء عدن. وقد نزع عملاء القاعدة، الذين حمَّلوا المركب بكميات زائدة من مادة سي فور المتفجرة، أجهزة الطفو من المركب مما جعله يغوص في الرمال الناعمة بمجرد أن انزلق عن القاطرة التي كانت تنقله. وقد تمكنوا في النهاية من استعادة القارب مرة أخرى باستخدام رافعة بحرية، وسرعان ما سيكون جاهزًا لعملية أخرى.

twitter @baghdad_library

الفصل الثامن عشر

الانفجار

لم يكن الرجال الذين جاءوا ليتدربوا في أفغانستان في التسعينيات فقراء فاشلين اجتماعيًّا، ولكنهم كمجموعة كانوا يمثلون «نموذج الشباب المصري» الذي كوَّن الجماعات الإرهابية التي درسها سعد الدين إبراهيم في بداية الثمانينيات. وقد كان أكثر المجندين المتوقع انضمامهم إلى صفوف القاعدة من الطبقة المتوسطة أو الراقية، وجميعهم تقريبًا من عائلات رفيعة الشأن ومعظمهم من خريجي الجامعات ومجال دراسة الغالبية العظمى منهم هو العلوم الطبيعية والهندسة. والقليل منهم فقط من خريجي الكليات الدينية، بل إن الكثيرين منهم قد تلقوا تعليمهم في أوروبا أو الولايات المتحدة ويجيدون خمس أو ست لغات تقريبًا. ولم تكن تظهر عليهم أعراض خلل عقلي، والكثيرون منهم لم يكونوا على قدر كبير من التدين عندما سلكوا طريق الجهاد.

وكان تاريخهم أكثر تنوعًا وتعقيدًا من سلفهم الذين حاربوا السوفييت. فالجيل السابق ضم العديد من أصحاب المهن المرموقة من الطبقة المتوسطة، أطباء ومدرسين ومحاسبين وأئمة مساجد، الذين سافروا إلى أفغانستان مع عائلاتهم. أما الجهاديون الجدد فقد كانوا في أغلب الأمر شبابًا غير متزوج، ولكن كان من بينهم أيضًا مجرمون بارعون أثبتت مهاراتهم في التزوير والنصب ببطاقات الائتمان والاتجار في المخدرات فائدتها. وكان الجزء الأكبر من السلف من السعودية ومصر، أما المتطوعون الجدد فقد تدفق الكثيرون منهم من أوروبا والجزائر، ولم يكن بينهم في الواقع شباب من السودان أو الهند أو تركيا أو بنجلاديش أو حتى من أفغانستان أو باكستان. وفي حين شارك بعض المسلمين الشيعة في الجهاد ضد السوفييت، حتى إنه كان هناك معسكر للشيعة في مأسدة بن لادن؛ فإن الجماعة الجديدة من الجهاديين كانت جميعها من السنة، وكان هدفهم المباشر هو إعداد أنفسهم للقتال في البوسنة

والشيشان ثم العودة إلى أوطانهم لإقامة حكومات إسلامية بها. وقد التحق ما بين عشرة إلى عشرين ألف متدرب بالمعسكرات الأفغانية من عام ١٩٩٦م حتى تدميرها عام ٢٠٠١م.

وكان القادة يعقدون مقابلات شخصية مع المجندين ويسألونهم عن خلفياتهم ومهاراتهم الخاصة، وكانت المعلومات التي يجمعونها مفيدة في تحديد نوع المهام التي ستُناط بكل منهم. فعلى سبيل المثال أشار شاب سعودي اسمه هاني حنجور أنه درس الطيران في الولايات المتحدة، ومن ثم فإنه سيلعب دورًا في مخطط ١١ سبتمبر/أيلول.

وبالإضافة إلى التدريبات البدنية العنيفة التي يخضع لها المجندون الجدد، كانوا يغرسون في عقولهم أيضًا نظرة القاعدة إلى العالم. وتفصح الملاحظات التي دونها بعض المتدربين في المحاضرات عن الأهداف المثالية للتنظيم، مثل:

١- إقامة حكم الله على الأرض.

٢- نيل الشهادة في سبيل الله.

٣- تطهير صفوف الإسلام من عناصر الفساد.

وهذه الأهداف الثلاثة المحددة بدقة ستشكل الإطار العام لسر جاذبية القاعدة، وكذلك حدود طموحها. لقد أغوت تلك الأهداف المثاليين الذين لم يتوقفوا لحظة ليتساءلوا كيف سيبدو حكم الله في أيدي رجال هدفهم السياسي الوحيد هو تطهير الدين. ولكن ظل الموت، الهدف الشخصي، هو أكثر ما يجذب العديد من المجندين.

وكان المجندون الجدد يدرسون العمليات السابقة سواء العمليات الناجحة مثل تفجيري السفارتين، أو العمليات غير الناجحة مثل محاولة اغتيال مبارك. وكان المقرر الذي يدرسونه هو كتيب يتكون من ١٨٠ صفحة يحمل عنوان «الدراسات العسكرية في الجهاد ضد الطغاة»، وكان يتضمن فصولًا عن التزوير والتدريب على الأسلحة ونظم الأمن والتجسس. ويبدأ ذلك الكتيب بعبارة تقول: «إن المواجهة التي ندعو إليها مع تلك الأنظمة الكافرة لا تعرف جدالًا سقراطيًا ... أو مُثُلًا أفلاطونية ... أو دبلوماسية أرسطية، ولكنها تعرف حوار الرصاص، ومُثُل الاغتيال والتفجير والتدمير، ودبلوماسية المدافع والرشاشات.»

يتكون التدريب من ثلاث مراحل رئيسية: فكان المجندون الجدد يقضون خمسة عشر يومًا في معسكر إعداد، حيث كانوا يتعرضون لأقسى أساليب التدريب حتى ينال منهم الإنهاك تمامًا ولا ينامون سوى بضع ساعات في بعض الليالي. وفي المرحلة

twitter @baghdad_library

الثانية التي تستمر خمسة وأربعين يومًا، يتلقى المجندون التدريب العسكري الأساسي في قراءة الخرائط والاحتماء بالخنادق والملاحة الفلكية واستخدام مجموعة غير عادية من الأسلحة المختلفة، بما في ذلك المدافع الرشاشة الخفيفة وألغام كلايمور ومدافع الهاون والصواريخ التي تطلق من على الكتف والصواريخ المضادة للطائرات، وكانت الأهداف دائمًا أمريكية؛ إما جنود أو مركبات. ولكن طبقًا لما ورد في الملاحظات التي دونها أحد الطلاب بخط يده في إحدى المحاضرات التي يدرسون فيها مذهب القاعدة الفكري، فقد كانت الفئة التي يطلق عليها «أعداء الإسلام» تشمل أيضًا:

١- المرتدين (أمثال بعض حكام العالم).

٢- الشيعة.

٣- أمريكا.

٤- إسرائيل.

وقد كان تنوع الأعداء مصدر إزعاج وعناء للقاعدة، ولا سيما مع ظهور أعضاء جدد لهم أولويات مختلفة على مسرح الأحداث.

وكان بإمكان خريجي المرحلة الثانية الانضمام إلى مدرسة حرب العصابات التي تستمر الدراسة بها أيضًا لمدة خمسة وأربعين يومًا. وكانت هناك معسكرات متخصصة للتدريب على اختطاف الطائرات والتجسس، ودورة تدريبية على الاغتيال مدتها عشرة أيام. وقد سجل أحد المتدربين في معسكرات القاعدة في يومياته أنه تعلم «إطلاق النار على الشخص المستهدف وحارسه من على دراجة نارية» في أحد الأيام و«إطلاق النار على هدفين في سيارة من الأعلى والأمام والخلف» في اليوم التالي. وكان هناك معسكر آخر متخصص في التدريب على صناعة القنابل، وآخر يطلق عليه معسكر الكاميكاز مخصص لمنفذي العمليات الانتحارية الذين كانوا يرتدون ملابس خاصة بيضاء أو رمادية ويعيشون وحدهم لا يتحدثون إلى أحد.

وكانت هناك مكتبة عامرة بالكتب العسكرية، ومن بينها كتاب «الثورة» Revolt وهو السيرة الذاتية لمناحم بيجن Menachem Begin، الإرهابي الإسرائيلي الذي أصبح رئيسًا للوزراء بعد ذلك. وقد تضمن كتاب آخر، يتحدث عن إنشاء قوات الانتشار السريع لمشاة البحرية الأمريكية (المارينز)، سيناريو تفجير ناقلة غاز طبيعي مسال في مضيق هرمز عند مدخل الخليج الفارسي مما سيؤدي إلى ارتفاع هائل في أسعار النفط. وقد أسرت هذه الفكرة انتباه المتدربين فقضوا وقتًا طويلًا يخططون لكيفية تنفيذ مثل هذه المناورة بنجاح. وفي المساء، كانوا كثيرًا ما يشاهدون أفلام الإثارة

الأمريكية بحثًا عن أفكار تفيدهم، وكانوا يفضلون بصورة خاصة أفلام أرنولد شوارزنيجر Arnold Schwarzenegger.

وكان الظواهري شديد الاهتمام باستخدام الأسلحة الكيميائية والبيولوجية بوجه خاص، وقد قال عنها: «إن القدرة التدميرية لهذه الأسلحة لا تقل عن الأسلحة النووية.» وقد بدأ برنامجًا اسمه الكودي «زبادي» لدراسة استخدام تقنيات غير تقليدية للقتل الجماعي، وكان يستغرق في قراءة المجلات الطبية لإجراء أبحاث علمية عن السموم المختلفة. وقد كتب ذات مرة: «ومع خطورة تلك الأسلحة، فقد تنبهنا إليها فقط عندما جذب العدو انتباهنا إليها بالتعبير مرارًا وتكرارًا عن قلقه من أن هذه الأسلحة يمكن تصنيعها بسهولة.» وقد أنشأ أحد رجاله واسمه أبو خباب معملًا بالقرب من جلال أباد حيث كان يجري تجارب على الكلاب باستخدام غاز أعصاب صنعه بنفسه ويصور آلامها على شرائط فيديو حتى تموت بعد أكثر من خمس ساعات من العذاب. وقد شرح أبو خباب للمتدربين أن البشر أكثر حساسية ويتأثرون بطريقة أسرع لأن أجسام البشر لا تحتوي على أجسام مضادة بقوة تلك التي لدى الكلاب. وقد أقام الظواهري معملًا آخر بالقرب من قندهار، حيث أمضى رجل الأعمال الماليزي يزيد سوفات شهورًا يحاول تطوير أسلحة بيولوجية خاصة الجمرة الخبيثة. كان سوفات حاصلًا على شهادة في الكيمياء والعلوم المعملية من جامعة ولاية كاليفورنيا الموجودة في مدينة ساكرامنتو.

في البداية، كان بن لادن لا يجد مشكلة في استخدم الأسلحة البيولوجية أو الكيميائية، ولكنه وجد نفسه بعد ذلك على خلاف مع أبي حفص الذي كان يقود فريق الصقور في المناقشات بين أعضاء القاعدة عن أخلاقية استخدام مثل هذه الأسلحة التي لا تميز في أهدافها، وعواقب استخدامها. فهل ستستخدم هذه الأسلحة في أرض المسلمين؟ وهل يستهدف بها المدنيون؟ أما فريق الحمائم، فرأى أن استخدام أي سلاح من أسلحة الدمار الشامل سيحول تعاطف العالم كله ضد القضية الإسلامية ويستفز رد فعل أمريكي عنيف ضد أفغانستان. أما بن لادن، فكان يفضل دون مواربة القنابل النووية على البدائل الأخرى، ولكن أدى ذلك إلى ظهور اعتبارات أخلاقية أخرى. ولكن أشار الصقور إلى أن الأمريكيين قد استخدموا الأسلحة النووية بالفعل مرتين في اليابان ثم كانت تستخدم في العراق آنذاك قنابل تحتوي على يورانيوم منضب. فإذا قررت الولايات المتحدة استخدام الأسلحة النووية مرة أخرى،

twitter @baghdad_library

من سيحمي المسلمين؟ الأمم المتحدة؟ الحكام العرب؟ إنها مسئولية القاعدة أن تصنع سلاحًا يحصن العالم الإسلامي ضد الغرب الاستعماري.

بالإضافة إلى دماثة أخلاقهم وخلفياتهم الثقافية العالية وتعليمهم وإتقانهم لمختلف اللغات ومهارتهم في استخدام الكمبيوتر، كان هؤلاء المجندون الجدد يشتركون في شيء آخر ألا وهو أنهم مهاجرون تركوا بلادهم إلى موطن جديد. فمعظم من انضم إلى الجهاد انضم إليه في بلد غير ذلك الذي نشأ به؛ فقد كانوا جزائريين يعيشون مغتربين في فرنسا أو مغربيين في أسبانيا أو يمنيين في المملكة العربية السعودية. وعلى الرغم مما حققوه من إنجازات في حياتهم، فلم يكن لهم شأن كبير في المجتمعات التي كانوا يعيشون بها. وعلى غرار سيد قطب، أدركوا أنهم إسلاميون متطرفون وهم يعيشون في الغرب. فقد كان الباكستاني الذي يعيش في لندن لا يجد نفسه بريطانيًّا حقيقيًّا أو باكستانيًّا خالصًا، وهذا الإحساس بالتهميش ينطبق بالضبط على اللبنانيين في الكويت مثلما ينطبق على المصريين في بروكلين. فيتجه المنفي الذي يشعر بالوحدة والغربة، وغالبًا ما يكون بعيدًا عن عائلته، إلى المسجد حيث يجد في الدين رفيقًا لغربته وأنيسًا لوحدته. وكان الإسلام يمنحهم إحساسًا بالرفقة، فهو أكثر من دين؛ إنه هوية كاملة.

وبطبيعة الحال، استجاب الأئمة إلى الإحساس بالاغتراب والغضب اللذين دفعا هؤلاء الشباب إلى البحث عن وطن روحي تطمئن فيه أنفسهم. وكانت المملكة العربية السعودية قد مولت عددًا مختلفًا من المساجد الجديدة في بلاد المهجر، وعينت بها علماء وهابيين متعصبين كان الكثير منهم يتغنون في خطبهم بالجهاد. وقد أشعلت الخطب الحماسية وأسطورة النصر على السوفييت، حمية الشباب وحثتهم على اتخاذ قرارهم، عادة في جماعات صغيرة العدد، بالسفر إلى أفغانستان.

وهذا بالضبط ما حدث مع أربعة من الشباب في مدينة هامبورج.

في عام ١٩٩٩م، كانت مدينة هامبورج، وهي أكثر مدن ألمانيا ازدهارًا ويزيد فيها عدد أصحاب الملايين بالنسبة لعدد السكان عن أي مدينة أخرى في أوروبا، معقلًا للبرجوازيين والمؤمنين بحرية العقل والإرادة. وتبدو المدينة، بتحفظها مع رفعة أخلاقها وبأرستقراطيتها مع تعدد ثقافاتها، بريطانية أكثر من كونها ألمانية. وأصبحت المدينة وجهة مشهورة للطلاب الأجانب واللاجئين السياسيين، من بينهم ما يزيد عن ٢٠٠ ألف مسلم. وقد وصل محمد عطا إلى هامبورج في خريف عام

١٩٩٢م وسجل اسمه كطالب دراسات عليا في قسم التخطيط العمراني في جامعة هامبورج هاربورج الفنية. وفي ألمانيا، يستطيع الطلاب الأجانب البقاء كما يشاءون دون أن يدفعوا مصاريف دراسية، وبإمكانهم السفر إلى أية دولة من دول الاتحاد الأوروبي.

وبالطبع، من السهل ملاحظة الندوب التي تركها التاريخ على جبين تلك الدولة، ليس فقط في الجزء المتهدم من المدينة القديمة الذي أعيد بناؤه، ولكن أيضًا في قوانين البلد وشخصية الشعب الألماني. فقد حرصت ألمانيا الجديدة على تقديس التسامح في دستورها، موفرة سياسة هي الأكثر تساهلًا في العالم فيما يتعلق بمنح اللجوء السياسي. وكان يحق للجماعات الإرهابية المعروفة العملُ بحرية تحت مظلة القانون، وجمع التبرعات وتجنيد الأفراد فقط إذا كانت تعمل خارج البلاد وليس داخلها. بل إن التخطيط لعملية إرهابية ليس ضد القانون ما دامت ستنفذ خارج ألمانيا، وبالطبع استغل العديد من المتطرفين ذلك الملجأ الآمن.

وبالإضافة إلى العوائق التي يضعها الدستور الألماني في طريق التحقيق مع الجماعات المتطرفة، كان هناك حذر داخلي أيضًا. فقد عانت البلد فيما مضى الخوف من الأجانب وكرههم والعنصرية وإطلاق يد الشرطة، وكان أي عمل يستحضر تلك الأشباح من الماضي محرمًا. ففضلت الشرطة الفيدرالية تركيز جهودها على العناصر اليمينية من أهل البلاد ولم تكترث كثيرًا للجماعات الأجنبية. أي أن ألمانيا كانت تخشى نفسها وليس الآخرين، وبدا الأمر كما لو أن الألمان قد عقدوا اتفاقًا ضمنيًّا مع العناصر الأجنبية المتطرفة داخل بلدهم يقول إنه ما داموا لا يهاجمون الألمان أنفسهم، فسيتركونهم وشأنهم. ولكن عندما أرادت ألمانيا الهروب من ماضيها المتطرف، أصبحت دون قصد منها موطنًا لحركة شمولية جديدة.

لا توجد الكثير من القواسم المشتركة بين المتطرفين الإسلاميين والنازيين. ومع أن الإسلاميين يواجهون تهمًا بأنهم عقيدة فاشية، فإن الاستياء الذي تأجج داخل مسجد القدس، حيث اجتمع عطا وأصدقاؤه، لم يتحول إلى أجندة سياسية عنيفة. ولكن على غرار النازيين، الذين ولدوا في كنف عار الهزيمة، تشارك الإسلاميون المتطرفون إصرارًا متعصبًا بأن يتربعوا على عرش التاريخ بعد أن ظلوا على هامشه للعديد من الأجيال.

ومع أن عطا لم يكن لديه سوى قشور أفكار اشتراكية عن الحكومة، فقد ملأ هو ورفاقه الفراغ السياسي الذي تركه النازيون وراءهم والذي تنكر له الجميع.

twitter @baghdad_library

وقد أشار منير المتصدق أحد أصدقاء عطا إلى أن هتلر «رجل صالح». وكان عطا نفسه يقول في الكثير من الأحيان: إن اليهود يتحكمون في وسائل الإعلام والبنوك والصحف والسياسات من مقرهم العالمي في مدينة نيويورك. كما أنه كان مقتنعًا أن اليهود هم من خططوا للحروب الدائرة في البوسنة وكوسوفو والشيشان كوسيلة لإعاقة تقدم الإسلام. وكان يرى أن مونيكا لوينسكي عميلة يهودية أرسلوها لتشويه سمعة كلينتون الذي أصبح يتعاطف تعاطفًا زائدًا مع القضية الفلسطينية.

وقد كانت الصرامة الشديدة التي لاحظها الجميع في شخصية عطا إحدى السمات التي كانت تميز النازيين، ولا شك أنها قويت بداخله بحاجته إلى مقاومة إغراءات هذه المدينة السخية. ومن المؤكد أن مهندس التخطيط العمراني قد أعجب كثيرًا بنظافة وكفاءة مدينة هامبورج التي تقف على حد النقيض من القاهرة حيث نشأ وترعرع. ولكن كانت الصفات الكريهة التي اكتشفها سيد قطب في أمريكا، المادية والخلاعة والزيف الروحاني، واضحة أيضًا في مدينة هامبورج التي تنتشر فيها الكازينوهات الصاخبة وبائعات الهوى اللائي يعرضن أجسادهن في واجهات المحلات والكاتدرائيات الرائعة الخالية.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، كانت هامبورج مركزًا عظيمًا لبناء السفن، وقد تم بناء السفينة الحربية بسمارك هناك، بالإضافة إلى أسطول الغواصات الألماني، وبطبيعة الحال أصبحت هدفًا أساسيًا لقصف قوات التحالف. وفي يوليو/تموز من عام ١٩٤٣م، كانت عملية تدمير مدينة هامبورج، التي أطلق عليها عملية عَموره، أقوى قصف جوي في التاريخ حتى ذلك الوقت. ولكن الهجمات أسفرت عما هو أكثر من تدمير المصانع والميناء؛ فقد قتلت الهجمات التي استمرت ليلًا ونهارًا أكثر من خمسة وأربعين ألف شخص في حملات متعمدة لإرهاب الشعب. وكان معظم العاملين في أحواض بناء السفن يسكنون في منازل متشابهة متلاصقة في ضاحية هاربورج على الجانب الآخر من نهر الألب، وكان قصف الحلفاء مكثفًا هناك بصورة خاصة. وكان عطا يقطن شقة في العقار رقم ٥٤ في شارع مارين شتراسه — وهو مبنى أعيد تشييده في شارع كان قد دُمر تمامًا في ذلك القصف الإرهابي.

وكان عطا يسعى لإتقان عمله والوصول إلى الكمال فيه، وقد كان مخططًا ماهرًا ولكنه لا يتمتع بقدرات إبداعية. أما من الناحية الجسدية، فقد كانت هناك ملامح أنثوية في هيئته، حيث كان «أنيقًا» و«رقيقًا» حتى إنه كان من الصعب معرفة ميوله الجنسية، مع إنه لم يعبر عنها. وقد كانت عيناه السوداوان تشعان حذرًا وذكاءً،

ولكنهما تفصحان عن بعض العاطفة. وتقول إحدى زميلاته: «لقد تكبدت مشقة كبيرة حتى تمكنت من رؤية ذلك الجزء الذي يفصل بين قزحية عينه وحدقتها، وقد منحه ذلك الفارق في حد ذاته هيئة مخيفة ومروعة للغاية، وكانت لديه عادة غريبة؛ فعندما يسأل سؤالًا ويسمعك وأنت تجيب، يضم شفتيه معًا ويضغط عليهما.»

وفي الحادي عشر من أبريل/نيسان ١٩٩٦م، عندما كان عطا في السابعة والعشرين من عمره، وقع على وصية من تلك الوصايا ذات الصيغة الموحدة المعدة سلفًا التي حصل عليها من مسجد القدس. وكان ذلك في اليوم الذي هاجمت فيه إسرائيل لبنان في العملية التي أطلق عليها «عناقيد الغضب». وطبقًا لما قاله أحد أصدقائه، فقد اشتعل غضب عطا وعندما ملأ وصيته الأخيرة في أثناء ذلك الهجوم، كان بذلك يقدم حياته في المقابل.

ومع أن العواطف التي تبثها الوصية تمثل عقيدة المجتمع الإيماني الذي ينتمي إليه، فقد كان عطا يعبر دائمًا عن بغضه للنساء اللائي كن في رأيه مثل اليهود في قوتهن وفسادهن؛ فقد جاء في الوصية: «يجب ألا تسير أية سيدة حامل أو أي شخص كافر في جنازتي ولا يزوروا قبري، ولا تطلب لي أية سيدة المغفرة. ويجب أن يرتدي من سيقوم بتغسيل جسدي قفازين حتى لا يمس أعضائي التناسلية.» وما تعبر عنه تلك الوصية من غضب موجه إلى النساء والرعب من فكرة أي اتصال جنسي يدعو إلى الاعتقاد أن اتجاه عطا للإرهاب يرتبط بحياته الجنسية المضطربة بقدر ارتباطه بصراع الحضارات.

وصل الأصدقاء الأربعة: محمد عطا ورمزي بن الشيبة ومروان الشحي وزياد جراح من هامبورج إلى معسكر خالدان في نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٩م للالتحاق بدورة تدريبية تمهيدية، وقد وصلوا في الوقت المناسب.

ففي السنوات الثلاث منذ أن عرض خالد شيخ محمد «عملية الطائرات» على بن لادن في كهف في تورا بورا، كانت القاعدة تدرس خطة لتسديد ضربة للأمريكيين في عقر دارهم. وقد تخيل محمد موجتين من الطائرات المختطفة؛ خمس من الساحل الشرقي وخمس من آسيا، ثم تقوم تسع من تلك الطائرات بالاصطدام بأهداف مختارة مثل مبنى المخابرات الأمريكية ومبنى مكتب التحقيقات الفيدرالي ومنشآت نووية. أما الطائرة الأخيرة، فسيقودها خالد شيخ محمد بنفسه ويقتل جميع الرجال

twitter @baghdad_library

على متنها، ثم يصدر بيانًا يشجب فيه السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وفي النهاية يهبط بالطائرة ويطلق سراح النساء والأطفال.

ولكن بن لادن رفض الخطة المغرورة التي رسمها شيخ محمد للطائرة العاشرة، ولكن في ربيع عام ١٩٩٩م، استدعى بن لادن محمدًا مرة أخرى إلى قندهار وأعطاه إشارة البدء لوضع خطته قيد التنفيذ.

وبعد بضعة أشهر، اجتمع بن لادن وخالد شيخ محمد وأبو حفص في قندهار لتحديد الأهداف التي يمكن توجيه الضربات إليها، وكان هؤلاء الثلاثة فقط هم المتورطين في تلك العملية. ولم يكن هدفهم إلحاق ضرر له دلالة رمزية بالولايات المتحدة الأمريكية فقط، فقد تخيل بن لادن أن أمريكا، ككيان سياسي، يمكن تدميرها. وقد قال فيما بعد: «إن أمريكا دولة عظمى ذات قوة عسكرية ضخمة وذات اقتصاد عريض، ولكن كل ذلك على قاعدة هشة، لذا فإنه بالإمكان استهداف تلك القاعدة الهشة والتركيز على أبرز نقاط الضعف فيها. وإذا ما ضربت في عُشر معشار تلك النقاط، فإنها — بإذن الله — ستترنح وتنكمش وتتخلى عن قيادة العالم.» ورأى أن الاتحاد الكونفدرالي الذي يكوِّن الولايات المتحدة الأمريكية حتمًا سيتفكك.

ومن ثم، فقد كان من الطبيعي أن يرغب بن لادن في مهاجمة البيت الأبيض ومبنى الكونجرس، ووضع البنتاجون أيضًا على قائمته. فإذا نجح في تدمير مقر الحكومة الأمريكية ومركز قيادة قوتها العسكرية، فإن تفكك البلد لن يبدو وهمًا بعيد المنال. ورشح خالد شيخ محمد مركز التجارة العالمي الذي فشل قريبه رمزي يوسف في تدميره منذ ست سنوات. وناقشوا أيضًا تدمير برج سيرز في شيكاغو وبرج المكتبة (الذي يطلق عليه الآن برج بنك الولايات المتحدة) في لوس أنجلوس، ولكن بن لادن رأى أنه يمكن تأجيل الهجمات على المدن الأمريكية على الساحل الغربي.

لم يكن هناك سوى القليل من الموارد المالية لاستخدامها في تنفيذ العملية، ولكن كان هناك الكثير من الشباب الراغب في نيل الشهادة. فعندما كانت الخطة لا تتعدى تفجير طائرات في منتصف الجو، لم يكن هناك داع للاستعانة بطيارين مدربين، ولكن عندما تطورت الخطة واتخذت ذلك الشكل العبقري في نهاية الأمر، أصبح من الواضح أنها تتطلب مجموعة مدربة تتمتع بمهارات قد يستغرق اكتسابها سنوات.

حدد بن لادن أربعة من أكثر الرجال الذين يثق بهم ليكونوا جزءًا من العملية، ولكن لم يكن أي منهم يستطيع قيادة طائرة أو يتحدث الإنجليزية، إحدى متطلبات الحصول على رخصة طيران، ولم تكن لديهم أية خبرة عن الحياة في الغرب. حاول

محمد تعليمهم، فعلمهم بعض العبارات الإنجليزية وحصل على عدد من الكتيبات الخاصة بمدارس الطيران في الولايات المتحدة. واشتركوا في ألعاب محاكاة للطيران على الكمبيوتر، وشاهدوا مجموعة من أفلام هوليود التي تتحدث عن اختطاف الطائرات. ولكن من المؤكد أن الفجوة بين قدرات الرجال ومدى عظمة المهمة كانت مخيبة للآمال.

كان نواف الحازمي أحد هؤلاء الرجال، وقد جاء إلى أفغانستان عام ١٩٩٣م عندما كان في السابعة عشرة من عمره. وكان قوي البنية ذا ابتسامة جميلة مفعمة بالحيوية، وكان والده بقالًا ثريًّا في مكة، وكان صديق صباه خالد المحضار أيضًا من عائلة مرموقة في مكة. ولأنهما سارا على خطى بن لادن، فقد قاتل الشابان السعوديان الثريان معًا في البوسنة ثم بعد ذلك في صفوف طالبان في حربها ضد التحالف الشمالي، الذي يتكون من بقايا شتات المجاهدين ومؤيدي الحكومة الأفغانية السابقة تحت قيادة أحمد شاه مسعود. ومع أن المحضار كان يحمل الجنسية السعودية، فقد كان يمني الأصل وقد تزوج من هدى الحدا شقيقة أحد رفاقه اليمنيين في الجهاد وأنجب منها طفلتين. وفي الواقع، كان رقم هاتف عائلتها هو ذلك الذي توصل إليه مكتب التحقيقات الفيدرالي في التحقيق في تفجير السفارتين؛ والذي ستثبت أهميته الشديدة في فهم شبكة القاعدة. وقد منحت تحركات هذين الرجلين، الحازمي والمحضار، المخابرات الأمريكية أقرب أمل إلى أرض الواقع لاكتشاف مؤامرة ١١ سبتمبر/أيلول.

ولأنهما كانا مواطنين سعوديين، فقد حصل كل من الحازمي والمحضار بسهولة على تأشيرة لدخول الولايات المتحدة، بل لم يكن عليهما حتى التقدم بنفسيهما لطلب التأشيرة. أما المختطفين المحتملين الآخرين، وكليهما من اليمن، فقد كان موقفهما مختلفًا. فقد رأت سلطات الهجرة أن اليمنيين على الأرجح سيختفيان في شريحة المهاجرين غير القانونيين بمجرد أن تطأ أقدامهما أرض الولايات المتحدة، لذا فقد كان طلب حصولهم على تأشيرة يُقابَل دائمًا بالرفض. وعندما شعر بن لادن بالإحباط لأنه لا يستطيع نقل جميع رجاله إلى الولايات المتحدة، أرسلهم بدلًا من ذلك إلى جنوب شرق آسيا لدراسة إمكانية تنفيذ خطة خالد شيخ محمد لتفجير طائرات أمريكية في الجو فقط. وهكذا، كان من الواضح أن الخطة الكبرى لمهاجمة أمريكا في عقر دارها قد أزيحت جانبًا.

twitter @baghdad_library

وفي ذلك الوقت ظهر محمد عطا وأصدقاؤه في أفغانستان للمرة الأولى. وفي آخر أسبوعين من شهر نوفمبر/تشرين الثاني وصلوا واحدًا تلو الآخر عندما بدأت أوراق الشجر تتساقط واقترب شهر رمضان. وعلى الفور جذب وجودهم انتباه أبي حفص؛ فهم متعلمون وعلى دراية بالأمور الفنية والتقنية وتتراوح معرفتهم باللغة الإنجليزية ما بين معرفة البدايات الأساسية إلى الإتقان التام، إلى جانب أنهم لا يحتاجون إلى تعليمهم كيف يعيشون في المجتمعات الغربية، ولن يمثل الحصول على التأشيرات أية مشكلة. كل ما يحتاجون إليه هو تعلم الطيران والرغبة في الموت.

وبمجرد أن وصل ابن الشيبة، أخبره عطا وجراح والشحي أنهم قد اختيروا لتنفيذ عملية سرية لا تزال طي الكتمان. وقد تلقى أربعتهم دعوى للإفطار في رمضان مع بن لادن شخصيًّا، وتناقشوا معه عن حركة طالبان، وسألهم بن لادن عن أحوال المسلمين الذين يعيشون في أوروبا. ثم أخبرهم بعد ذلك أن لديهم فرصة لنيل الشهادة.

ولم تتجاوز التعليمات التي تلقوها العودة إلى ألمانيا والتقدم للالتحاق بمدرسة لتعليم الطيران في الولايات المتحدة.

أصبح لدى بن لادن فريقان منفصلان لتنفيذ عملية اختطاف الطائرات التي تتغير بسرعة، وسيؤدي وجود كل فريق منهما إلى عملية كبرى. وقد أبلغتْ خلية هامبورج أن جوازات سفرهم قد ضاعت أو سرقت وذلك لتغطية رحلتهم إلى أفغانستان. وفي الوقت نفسه، سافر الأربعة الذين اختيروا في البداية لتنفيذ عملية الطائرات، وهم خالد المحضار ونواف الحازمي واليمنيين أبو براء وتوفيق بن عطاش الذي اتخذ اسمًا آخر هو خلاد، إلى كوالالمبور.

وخلاد شخصية أخرى محيرة ومهمة للغاية في تنظيم القاعدة. وكان قد فقد ساقه اليمنى في الحرب ضد التحالف الشمالي بقيادة أحمد شاه مسعود ويضع ساقًا صناعية بدلًا منها. ومع أنه ولد في اليمن، فقد نشأ في المملكة العربية السعودية وعرف بن لادن منذ أن كان طفلًا. وقد شارك خلاد في عملية تفجير السفارة والمحاولة الفاشلة لتفجير المدمرة يو إس إس ذا سوليفانز في ميناء عدن، وسيكون هو العقل المدبر لعملية تفجير المدمرة يو إس إس كول بعد عشرة أشهر.

في نهاية عام ١٩٩٩م، اتصل خلاد هاتفيًّا بالمحضار واستدعاه للقائه في كوالالمبور، وقد كانت تلك هي المرة الوحيدة التي اجتمع فيها أعضاء من الفريقين

معًا. وقد استطاعت وكالة الأمن القومي التقاط حديث من هاتف أحمد الحدا، والد زوجة المحضار، في اليمن وهو الهاتف الذي استخدمه تنظيم القاعدة ليكون مركز استقبال الاتصالات الخاص بهم، وقد ذُكر فيه اللقاء القادم في ماليزيا بالإضافة إلى اسم خالد المحضار بالكامل والاسم الأول لكل من المشاركين الآخرين نواف وسالم. وكانت وكالة الأمن القومي قد حصلت أيضًا على معلومات من الهاتف نفسه أن لقب نواف هو الحازمي، ولكنها لم تراجع قاعدة البيانات الخاصة. وقد جاء في تقاريرها: «من المحتمل أن يكون هناك عمل إجرامي رهيب قيد الإعداد»، ولكنها لم تتبع الخيط أكثر من ذلك.

أما المخابرات الأمريكية، فقد كان لديها اسما المحضار والحازمي بالفعل، فقد حذر سعيد باديب، كبير محللي الأمير تركي في المخابرات السعودية، زملاءه الأمريكيين من قبل من أنهما عضوان في تنظيم القاعدة في أثناء أحد الاجتماعات الشهرية في الرياض. وبعد الحصول على تلك المعلومة، اقتحم رجال المخابرات الأمريكية غرفة المحضار في الفندق الذي يقيم فيه في دبي حيث توقف هناك في طريقه إلى ماليزيا. وصور رجال المخابرات الأمريكية جواز سفره، وأرسلوه بالفاكس إلى أليك ستيشن. وقد اكتشفوا معلومة خطيرة داخل جواز السفر وهي أن المحضار لديه تأشيرة تخوله الدخول إلى الولايات المتحدة عدة مرات ولكنها ستنتهي في شهر أبريل/نيسان. فأرسل أليك ستيشن العديد من أجهزة المخابرات حول العالم إنذارًا جاء فيه: «إننا نحتاج إلى استمرار محاولات التعرف على هؤلاء المسافرين ونشاطاتهم ... لتحديد ما إذا كنا نواجه تهديدًا حقيقيًّا.» وقد جاء في البرقية نفسها أن مكتب التحقيقات الفيدرالي قد أُخطر بشأن اجتماع ماليزيا وأنه حصل على نسخ من أوراق سفر المحضار، ولكن اتضح بعد ذلك أن هذه المعلومة غير صحيحة.

طلبت المخابرات الأمريكية من السلطات الماليزية أن تراقب الاجتماع في كوالالبور الذي عقد في الخامس من يناير/كانون الثاني في شقة منعزلة في منتجع يطل على ملعب جولف صممه جاك نيكلاوس Jack Nicklaus. وقد كانت تلك الشقة ملكًا ليزيد سوفات، رجل الأعمال الماليزي الذي عمل مع الظواهري على إنتاج جرثومة الجمرة الخبيثة. ولكنهم لم يتنصتوا على الاجتماع، ومن ثم أضاعوا من أيديهم فرصة اكتشاف المخططات التي انتهت بتفجيرات المدمرة يو إس إس كول وهجمات ١١ سبتمبر/أيلول. لقد فقد أليك ستيشن فعاليته بعد أن تركه مايكل شوير، الذي يتميز بالحرص واليقظة، والذي كان لا يزال يجلس في المكتبة منتظرًا أن يحتاجوا إليه.

twitter @baghdad_library

تلقى أليك ستيشن ذلك اليوم برقية من مكتب الوكالة في الرياض خاصة بتأشيرة المحضار لدخول أمريكا. قرأ دوج ميلر Doug Miller، أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي المكلفين العمل في أليك ستيشن، البرقية وكتب مسودة مذكرة يطلب فيها تصريحًا بأن يُطلع مكتب التحقيقات الفيدرالي على الاجتماع الذي عقد في ماليزيا وعلى احتمال أن يسافر واحد أو أكثر من الإرهابيين إلى الولايات المتحدة قريبًا. وكان لا بد من الحصول على ذلك التصريح لنقل هذه المعلومات الاستخباراتية من مؤسسة إلى أخرى. ولكن الجواب الذي حصل عليه ميلر هو: «إن هذا الأمر لا يخص مكتب التحقيقات الفيدرالي.» تابع ميلر جهوده بعد أسبوع واحد بمحاولة استيضاح الأمر من توم ويلشاير Tom Wilshire، وهو نائب رئيس أحد مكاتب المخابرات الأمريكية المكلَّف العمل لدى المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي، وكانت مهمته ظاهريًّا هي تسهيل نقل المعلومات من الوكالة إلى المكتب، فأرسل إليه ميلر المذكرة التي كتبها وسأله: «هل هذا رفض تام أم علي إعادة صياغته بطريقة ما؟» ولكنه لم يتلق ردًّا من ويلشاير على الإطلاق، وبعد ذلك نسي ميلر الأمر برمته.

التقطت المخابرات الماليزية صورًا لاثني عشر شخصًا تقريبًا تربطهم علاقات بالقاعدة يدخلون إلى تلك الشقة ويزورون مقاهي الإنترنت. وفي الثامن من يناير/كانون الثاني، أبلغت المخابرات الماليزية رئيس مكتب المخابرات الأمريكية في تايلاند أن ثلاثة من الرجال الذين كانوا في الاجتماع، وهم المحضار والحازمي وخلاد، كانوا في طريقهم إلى بانكوك. وهناك كما اتضح بعد ذلك، قابل خلاد منفذي عملية يو إس إس كول. ولكن أهملت المخابرات الأمريكية تنبيه أي شخص إلى ضرورة تتبع هؤلاء الأشخاص، إلى جانب أنها لم تبلغ وزارة الخارجية بوضع اسم المحضار على قائمة مراقبة الإرهابيين حتى يُمنَع من دخول الولايات المتحدة أو يوضع تحت المراقبة في حالة دخولها.

وبعد ثلاثة أشهر، نمى إلى علم المخابرات الأمريكية أن الحازمي قد سافر إلى لوس أنجلوس في الخامس عشر من يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠٠م. فلو فحصت المخابرات قائمة المسافرين على تلك الرحلة، لاكتشفت أن المحضار كان برفقته. لقد أهملت الوكالة إخبار مكتب التحقيقات الفيدرالي أو وزارة الخارجية أن أحد عملاء القاعدة على الأقل يوجد داخل البلاد.

لماذا تحجب وكالة المخابرات الأمريكية هذه المعلومات عن الجهات الحكومية الأخرى وهي تعلم أن المحضار والحازمي عملاء للقاعدة، وأن لديهم تأشيرة لدخول الولايات المتحدة الأمريكية، وأن أحدهما على الأقل قد نجح بالفعل في الوصول

إلى الأراضي الأمريكية؟ كالعادة، لقد خشيت المخابرات الأمريكية أن مقاضاة أي شخص بناءً على معلومات استخباراتية محددة قد تعرض علاقتها بأجهزة المخابرات الأجنبية الأخرى للخطر، ولكن هناك إجراءات وقائية لحماية المعلومات السرية، ولطالما عمل مكتب التحقيقات الفيدرالي مع الوكالة في قضايا مشابهة. ولكن خبرة وكالة الاستخبارات الأمريكية مع جون أونيل أخبرتهم أنه سيطلب أن يكون زمام أية قضية تمس تحقيقات مكتب التحقيقات الفيدرالي، مثل هذه القضية، في يديه. ولقد كان الكثيرون في المخابرات، وليس فقط شوير الذي تنحى جانبًا، يكرهون أونيل ويخشون أن مكتب التحقيقات يتصرف بعشوائية ويرتكب الكثير من الأخطاء لدرجة لا تؤهله للثقة بإطلاعه على معلومات استخباراتية حساسة كهذه. لذا فمن المحتمل أن تكون المخابرات الأمريكية قد قررت حجب هذه المعلومات لإبقاء أونيل بعيدًا عن القضية. وفي الواقع، يؤيد العديد من مرءوسي أونيل هذه النظرية.

قد تكون هناك بعض الأسباب الأخرى التي دفعت المخابرات الأمريكية إلى حماية معلومات كانت مرغمة على نقلها إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي. وسيصبح بعض أعضاء الفرقة I-49 بعد ذلك يؤمنون أن الوكالة كانت تحمي المحضار والحازمي لأنها كانت تأمل في تجنيدهما؛ فقد كانت المخابرات في أمس الحاجة إلى مصدر معلومات داخل القاعدة حيث إنها فشلت تمامًا في اختراق صفوف قادة التنظيم أو حتى زرع عميل متطوع في معسكرات التدريب التي كانت تقريبًا مفتوحة لكل من يريد الالتحاق بها. ومن المؤكد أن المحضار والحازمي كانا فرصة مغرية للغاية لها، ولكن بمجرد دخولهما الأراضي الأمريكية تنتقل السلطة إلى قبضة مكتب التحقيقات الفيدرالي. فالمخابرات الأمريكية لا يحق لها تنفيذ أية عمليات داخل الولايات المتحدة، مع أن المكتب كثيرًا ما كشفها وهي تنفذ عمليات سرية داخل الأراضي الأمريكية. وقد كان هذا الأمر ينطبق بوجه خاص في مدينة نيويورك حيث توجد الكثير من الوفود الأجنبية. وقد اشتكى أونيل أكثر من مرة إلى رئيس مكتب المخابرات الأمريكية في نيويورك من الخدع التي تكتشفها الفرقة I-49. ومن المحتمل أيضًا، كما يشك بعض محققي مكتب التحقيقات، أن المخابرات الأمريكية كانت تتعاون مع المخابرات السعودية للالتفاف حول ذلك العائق القانوني. وبالطبع من غير القانوني أيضًا أن تعمل أية مخابرات أجنبية داخل الولايات المتحدة، ولكن هذا بدوره يحدث باستمرار.

وهذه الأفكار ما هي إلا مجرد نظريات حول إهمال المخابرات الأمريكية نقل هذه المعلومات الخطيرة إلى مكتب التحقيقات، الأمر الذي يمكن تفسيره بصورة أفضل

twitter @baghdad_library

على ضوء معرفة أن الوكالة كانت تغرق في فيضان من التهديدات والتحذيرات. بدأ أليك ستيشن عام ١٩٩٦م وبه اثنا عشر موظفًا، الرقم الذي وصل إلى خمسة وعشرين عندما عُقد اجتماع ماليزيا. وكان هناك نحو ثلاثين محللًا تقريبًا في مركز مكافحة الإرهاب الذي كان يتولى التعامل مع جميع أشكال الإرهاب على مستوى العالم، ولكن لم تكن القاعدة مسئوليته الأساسية. وقد كان المحللون في أليك ستيشن مجموعة من الشباب متوسط سنوات خبرتهم ثلاث سنوات تقريبًا، وكان أكثرهم من السيدات، الأمر الذي كان يحسب ضدهن في الثقافة الذكورية التي تحيط بالقسم الذي يتولى شئون الشرق الأدنى في الوكالة. وكانت هؤلاء المحللات الشابات هن المسئولات في المقام الأول عن منع وقوع هجوم إرهابي على الولايات المتحدة الأمريكية، ولقد كان حملًا ثقيلًا على كواهلهن حتى إن العملاء الآخرين في الوكالة أصبحوا يرون أنهن متعصبات، وقد أطلق البعض عليهن «عائلة مانسون» نسبة إلى القاتل المريض نفسيًّا تشارلز مانسون Charles Manson. ولكنهن دققن أجراس خطر لم يشأ الموظفون من الجيل القديم سماعها.

وكان مناخ العمل داخل أليك ستيشن مسممًا بسبب موقف محللي المخابرات الأمريكية الذين حملوا أونيل مسئولية إقالة مايكل شوير، الرئيس المتحمس لأليك ستيشن منذ إنشائه. فقبل شهور قليلة فقط، طلب مسئول مكتب التحقيقات الفيدرالي لدى أليك ستيشن أن يُخوَّل سلطة نقل معلومات من المخابرات إلى المكتب، وقد تصعد النزاع على ذلك الأمر إلى كل من فريه وتينيت، رئيسا مكتب التحقيقات والمخابرات الأمريكية على التوالي. أجبر شوير على التنحي عن منصبه، ولكن أصيب عميل مكتب التحقيقات الذي حصل على سلطة نقل المعلومات بمرض السرطان واضطر إلى الاستقالة قبل أيام قليلة فقط من اجتماع ماليزيا. ولم يكن لدى أي من عملاء مكتب التحقيقات الثلاثة الباقين في أليك ستيشن سلطة نقل المعلومات، ومن ثم كان عليهم انتظار إذن الوكالة بنقل أية برقيات سرية. وظل ذلك ساريًا حتى شهر يوليو/تموز من عام ٢٠٠٠م، عندما عُيِّنَ عميل لديه سلطة أعلى وهو تشارلز إي. فرام Charles E. Frahm في أليك ستيشن، إلا أنه لم يرَ قط أية مذكرات أو برقيات أو سمع أية مناقشات عن حجب معلومات عن مكتب التحقيقات الفيدرالي. وعندما علم في وقت لاحق بالاجتماع الذي عُقِد في ماليزيا، توصل إلى أن عدم نقل هذه المعلومات إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي كان خطأ يرجع في المقام الأول إلى كثرة التهديدات التي ظهرت في أثناء الاحتفالات بالألفية الجديدة. ولكن في غضون ذلك، وقعت الكثير من الأحداث الخطيرة.

عندما وصل المحضار والحازمي إلى لوس أنجلوس في الخامس عشر من يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٠م، كان من المفترض أن يلتحقا بمدرسة لتعليم الطيران، ومن المؤكد أن مهمتهما كانت تستحوذ على تفكيرهما تمامًا. وكان العثور على مكان ليقيما فيه تحديًا صعبًا حيث إن أيًا منهما لم يكن يتحدث الإنجليزية. ولكن بعد وقت قصير من وصولهما، تعرفا على عمر بيومي وهو طالب في الثانية والأربعين من عمره نادرًا ما يحضر دروسه، ويعيش على الراتب الذي تقدمه له شركة خاصة تقدم الخدمات للحكومة السعودية. وكان بيومي قد جذب انتباه رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي المحلي في عام ١٩٩٨م بسبب شكوك مدير المبنى السكني الذي يقطن فيه. وقد أكد أحد مصادر المكتب في سان دييجو أن بيومي عميل للحكومة السعودية، ولكن هذا لم يعنِ الكثير لرجال مكتب التحقيقات لأنهم كانوا ينظرون إلى السعودية على أنها حليف مخلص. وعلى أية حال، فقد ألغى رجال مكتب التحقيقات التحقيق بناءً على أوامر من رؤسائهم الذين خشوا من أن يتداخل التحقيق في قضية بيومي مع عملية كبرى قائمة بالفعل لمكافحة الإرهاب.

أخبر بيومي المحققين بعد ذلك أنه قاد سيارته من سان دييجو في الأول من فبراير/شباط عام ٢٠٠٠م للقيام ببعض الإجراءات المتعلقة بالتأشيرة في القنصلية السعودية، وبعد ذلك اتجه مباشرة لتناول الغداء في مطعم يقدم وجبات طبقًا للشريعة الإسلامية بالقرب من القنصلية وسمع بعض الأشخاص يتحدثون العربية بلكنة خليجية. تحدث بيومي لبعض الوقت مع المحضار والحازمي اللذين اشتكيا من أنهما يمران بأوقات عصيبة في لوس أنجلوس، فدعاهما إلى سان دييجو. وبعد ثلاثة أيام ظهرا في سان دييجو، فدعاهما بيومي للبقاء في مسكنه، ثم وجد لهما مسكنًا على الجانب الآخر من الشارع وأقرضهما بعض النقود لتعينهما على تسديد إيجار أول شهرين، وأقام لهما حفلًا لتقديمهما إلى الجالية المسلمة هناك.

إذا كان بيومي قد أرسل للإشراف على الرجلين، فمن أرسله؟ ربما كان هو همزة الوصل بينهما وبين القاعدة، فمن المؤكد أنهما كانا يحتاجان إلى من يرعاهما. ولكن انتقال بيومي من القنصلية السعودية إلى المطعم مباشرة تشير في نظر بعض المحققين إلى أن مسئولين في الحكومة السعودية كانوا يراقبون هذين الشخصين بالفعل لمعرفتهما أنهما عضوان في القاعدة. وقد كانت المخابرات الأمريكية هي الجهة الحكومية الوحيدة التي كانت تعلم حقيقة الحازمي والمحضار وأنهما موجودان داخل الولايات المتحدة، فقد تتبعتهما من كوالالمبور إلى بانكوك ثم إلى لوس أنجلوس.

twitter @baghdad_library

وربما رأت أن فرصة المخابرات السعودية في تجنيد الرجلين أفضل من فرصتها، إلى جانب أن هذا لن يترك بصمات المخابرات الأمريكية على العملية.

هذه هي وجهة نظر بعض محققي مكتب التحقيقات الذين يشعرون بالمرارة ويتساءلون لماذا لم يخبرهم أحد على الإطلاق بوجود عملاء للقاعدة داخل الأراضي الأمريكية. لقد وصل المحضار والحازمي قبل تسعة عشر شهرًا من ١١ سبتمبر/أيلول، وكان مكتب التحقيقات الفيدرالي يتمتع بكافة السلطات التي يحتاج إليها للتحري عن الرجلين ومعرفة ما يعتزمان فعله، ولكن نظرًا لإهمال المخابرات الأمريكية إعلان حقيقة وجود عضوين نشطين من تنظيم القاعدة داخل أمريكا، فقد تمتع المختطفان بحرية شديدة للمضي قدمًا في مخططاتهما حتى فات أوان إيقافهما.

تقاعد لويس شيليرو، رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي في نيويورك، بعد وقت قصير من الألفية الجديدة، وكان أونيل في أمس الحاجة إلى ذلك المنصب. ونظرًا لحجم وأهمية مكتب نيويورك، فإنه سيكون مساعد مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، وقد شغل المنصب بالفعل بصورة مؤقتة في الوقت الذي كان المكتب يختار ما بين مرشحين للمنصب هما أونيل وباري ماون Barry Mawn، رئيس مكتب بوسطن. وفي الواقع، كانت كفة الميزان أرجح لصالح ماون الذي كان أكثر خبرة، في حين كان لدى أونيل الكثير من الأعداء، بالإضافة إلى أن سجل الأخير، الذي كان لا تشوبه شائبة فيما مضى، قد لطخته نقطة سوداء عندما سمح لفاليري جيمس بدخول المبنى الخارجي التابع للمكتب لاستخدام الحمام. وقد قيل إن توماس بيكارد، نائب مدير مكتب التحقيقات، قال لأونيل ذات مرة: إن عمله في مكتب التحقيقات ليس له مستقبل. وبالفعل حصل ماون على المنصب.

وكان ماون لا يزال يشعر بالإهانة من الحملة التي شنها أونيل ضده عندما تقابلا مصادفة في ندوة في أكاديمية مكتب التحقيقات في كوانتيكو بعد إعلان القرار مباشرة. وعندما تولى ماون منصبه الجديد، فوجئ بأونيل يطرق باب مكتبه ويدخل وبيده كأسان من الجعة ويقول: «أنا أعلم أنك أيرلندي.»

كان ماون حذرًا لأن هناك احتمالًا في أن يعملا معًا، لذا فقد أخبر أونيل أنه بحاجة إلى أن يكون كل من يعمل معه في المكتب مخلصًا له. ثم قال له بصراحة شديدة: «أنا غير واثق أني أستطيع الاعتماد عليك» وعرض عليه أن يجد له عملًا آخر، ربما في مكتب نيوجيرسي. ولكن أونيل ناشده أن يبقى في نيويورك «لأسباب

عائلية»، وقال: إنه إذا أبقاه في المكتب، فإنه، على حد قوله: «سأصبح مخلصًا لك أكثر من أقرب أصدقائك.»

فحذره ماون قائلًا: «لا يزال عليك أن تثبت نفسك أمامي.» فوافق أونيل قائلًا: «كل ما أطلبه منك في المقابل هو أن أحظى بدعمك لي.» فوافق ماون على الصفقة، ولكنه اكتشف بعد وقت قصير أن دعم أونيل مهمة تتطلب تفرغًا تامًا.

يتداول مسئولو مكافحة الإرهاب طُرفة عن عملية التسليم غير القضائي لرمزي يوسف. وكان يوسف بعد إلقاء القبض عليه في باكستان، نُقِل بالطائرة إلى ميناء ستيوارت الجوي في نيوبرج في نيويورك، ثم نُقِل في طائرة هليكوبتر تابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي إلى سجن متروبوليتان بالقرب من ساحة فيدرال بلازا في جنوب منهاتن. ويقول شيليرو عن ذلك الموقف: «حمله رجلان ضخما الجثة وأخرجاه من الطائرة مقيدًا ومعصوب العينين. وبعد أن أصبحنا على متن الطائرة الهليكوبتر وحلقت بنا فوق نهر هادسون، سألني أحد رجال وحدة التكتيك والأسلحة الخاصة أيمكننا نزع العصابة عن عينيه؟ ونزعناها بالفعل واستغرق يوسف دقيقة كي يستطيع أن يفتح عينيه ويرى جيدًا، ومن المفارقات العجيبة أن الطائرة كانت تمر في تلك اللحظة بجانب مركز التجارة العالمي، فوكزه الرجل بمرفقه وقال له: «أترى! إنه لا يزال منتصبًا» فأجابه يوسف: «لو توفر لدينا المزيد من النقود، لما كان منتصبًا حتى الآن.»

ولكن لأنه كان لا يزال منتصبًا، فقد أصبح مركز التجارة العالمي رمزًا لنجاح قوة العمل المشتركة لمكافحة الإرهاب في نيويورك، وهي ائتلاف من عملاء من مكتب التحقيقات الفيدرالي والمخابرات الأمريكية وقسم شرطة نيويورك وسلطة الموانئ والعديد من الوكالات المحلية والفيدرالية الأخرى. وفي سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٠م، اختارت قوة العمل المشتركة أن تحتفل بالذكرى السنوية العشرين لها هناك في قاعة احتفالات «نوافذ على العالم» الشهيرة في مركز التجارة العالمي. وبدا بعض ممثلي الوحدة غير مناسبين قليلًا للاحتفال وهم يرتدون ربطات عنق سوداء، ولكنهم كانوا هم ملوك تلك الحفلة التي أقيمت لتهنئتهم. وقد حضر الحفل العمدة رودي جولياني Rudy Giuliani الذي كان المدعي العام الأمريكي السابق للمنطقة الجنوبية من نيويورك، وكذلك خلفه ماري جو وايت Mary Jo White التي تولت المنصب بعده. وقد مدحت الأخيرة الوحدة كثيرًا وهنأتها على «سجل التحقيقات والإدانات الرائع

twitter @baghdad_library

الذي يقترب من الكمال» الذي تضمن يوسف وستة آخرين شاركوا في تفجير مركز التجارة العالمي، وكذلك الشيخ عمر عبد الرحمن وتسعة من أتباعه الذين خططوا لاغتيال شخصيات عامة من المسئولين وتفجير معالم مدينة نيويورك البارزة. لقد شهد المشاركون في ذلك الاحتفال تحول الإرهاب من الأيام البريئة نسبيًّا للقوميين الكروات والكوبيين المعادين لكاسترو، الذين كانوا يهتمون بتسليط الأضواء عليهم أكثر من الإرهاب، إلى العالم الجديد الخطير من القتل الجماعي المتعمد.

كانت ليلة كثيرة الضباب، وحجبت السحب الرؤية من الطابق السادس بعد المائة من البرج. وكان أونيل يتجول بحرية في القاعة، مع أن البعض قد تساءل لماذا حذفت ماري جو وايت اسمه من قائمة مسئولي مكتب التحقيقات الفيدرالي الذين اختارت أن تقدم لهم الشكر والتقدير. وقد كان مارك روسيني Mark Rossini، الممثل الجديد للفرقة I-49 في أليك ستيشن، حاضرًا، وكان قد خطب مؤخرًا وقدم خطيبته لرئيسه الذي يحبه ويحترمه. وكان روسيني أحد أولئك الذين أطلق عليهم «أبناء جون»، وقد درس كل شيء يخص أونيل بما في ذلك النوع المفضل له من السجائر والمطاعم التي يتردد عليها، حتى إنه كان يقلده في ملبسه. ولكن روسيني لم يكن يعلم أن حياة أستاذه العملية تواجه المزيد من الأزمات بسبب حادثة مزعجة وقعت قبل شهرين.

ففي شهر يوليو/تموز، كان أونيل يحضر مؤتمرًا خاصًّا بالإعداد لمرحلة التقاعد في مدينة أورلاندو. وفي الواقع، لم تكن لديه أية نية للتقاعد وكان ضيق الصدر لأنه أرغم على حضور المؤتمر، ولكن لأنه كان في فلوريدا فقد طلب من فاليري جيمس الانضمام إليه حتى يقضيا عطلة نهاية الأسبوع في ميامي.

وفي أثناء المؤتمر، تلقى أونيل نداء، فغادر القاعة ليعاود الاتصال. ولكن عندما عاد بعد بضع دقائق، كان المؤتمر قد توقف وذهب العملاء الآخرون لتناول الغداء، ولم يجد حقيبته في مكانها. فاتصل أونيل بالشرطة المحلية أولًا ثم اتصل بماون، واعترف أن الحقيبة كانت تحوي بعض الرسائل الإليكترونية السرية، ووثيقة واحدة حساسة للغاية، وهي التقرير السنوي للمكتب الميداني الذي يحتوي على تفصيل دقيق لجميع العمليات التي تتعلق بالأمن القومي في نيويورك، وكان من الضروري إخبار كل من مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي والمدعي العام بالحادث.

وعندما عاد أونيل إلى الغرفة شاحب الوجه كالموتى قال لفاليري: «إنه لأمر مشين.» وقد عثرت الشرطة على الحقيبة بعد ساعتين في فندق آخر وقد سُرق منها

قلم مونت بلانك وقاطعة سيجار فضية وقداحة باهظة الثمن. ولكن الأوراق كانت كما هي لم يمسسها أحد، وأكد فحص بصمات الأصابع أن السارق لم يمسها، ولكن الأمر برمته كان خطأً ناجمًا عن إهمال من جانب أونيل في لحظة حرجة من حياته المهنية.

ومع أن أونيل قد أبلغ عن السرقة على الفور وأن المعلومات في الحقيبة لم تتعرض للخطر على الإطلاق، فقد أمرت وزارة العدل بإجراء تحقيق جنائي. ولكن ماون رأى أن ذلك أمر سخيف، فكان يحبذ توجيه تأنيب شفهي أو، على أسوأ تقدير، خطاب تعنيف رسمي. فالجميع يصطحبون معهم بعض أوراق العمل إلى منازلهم طوال الوقت ولم تسرق منهم قط. وشعر بالذنب لأنه كان يضغط على أونيل كي ينهي التقرير السنوي للمكتب الميداني سريعًا، وكان الأخير ينفذ الأوامر فقط.

على الرغم من تنافسهما على المنصب القيادي في مكتب نيويورك، أصبح ماون يدافع عن أونيل بضراوة أكثر من أي شخص آخر. فقد كان ماون يعي جيدًا أن البراعة هي عدو البيروقراطية، وأن الأمر يتطلب شخصية قوية لمقاومة المنافسات بين الوكالات والأحقاد بين الأقسام المختلفة التي كانت تستنزف إرادة أفضل العناصر، وهذه الشخصيات هي التي تستحق حمايتها وتشجيعها. وحينئذ فقط يستطيع مكان تتحكم فيه البيروقراطية التي لا تعرف الرحمة مثل مكتب التحقيقات الفيدرالي، تحت رئاسة قائد قوي ولديه رؤية، تحقيق إنجازات، وكان أونيل هو هذا القائد؛ فقد أصبح مكتب نيويورك على يديه أكثر فرع مؤثر من فروع مكتب التحقيقات الفيدرالي. ولكن الثمن، كما أدرك ماون تدريجيًا، كان باهظًا؛ فالأعداء الذين تراكموا على مدار نضاله المثير للجدل مع البيروقراطية كانوا يتلهفون لتدميره وقد منحهم هو بنفسه الفرصة لذلك.

وضعت القاعدة فلسفة إدارية أطلقت عليها «مركزية القرار ولامركزية التنفيذ»؛ فكان بن لادن هو الذي يحدد الأهداف ويختار القادة ويقدم على الأقل جزءًا من تمويل العملية، وبعد ذلك يترك التخطيط للعملية وطريقة الهجوم للرجال الذين يتحملون مسئولية التنفيذ.

نجح ذلك الأسلوب في عمليتي تفجير السفارتين، أما العمليات التي كان من المخطط تنفيذها في الاحتفالات بالألفية، فقد فشلت وتحولت إحداها إلى فشلًا هزليًا، وهي محاولة تفجير المدمرة يو إس إس ذا سوليفانز في نهاية شهر رمضان، عندما

twitter @baghdad_library

غرق القارب الصغير المصنوع من الألياف الزجاجية الذي كان من المفترض أن يهاجم المدمرة بتلك الصورة المخزية في ميناء عدن.

كان التنظيم يعتزم في الأساس مهاجمة ناقلة نفط بعيدًا عن ساحل اليمن، ولكن بن لادن طلب من المخططين، كعادته، أن يكونوا أكثر طموحًا؛ فطلب منهم إغراق سفينة حربية أمريكية. وعندما فشلت العملية، طلب بن لادن استبدال الانتحاريَّين اللذين كانا سينفذان العملية. ولكن عبد الرحيم النشيري، المشرف على تلك العملية، عارض بن لادن بشدة، وقال: إن أحد المنفذين قد أصيب في الهجوم الأمريكي بصواريخ كروز على معسكرات التدريب التابعة للتنظيم، وإنه لمن الظلم أن يسلبوه فرصة ضرب سفينة أمريكية ربما تكون شاركت في ذلك الهجوم. بالإضافة إلى ذلك، فقد تدرب الفريق معًا لمدة عام ونصف العام، وقد صنع النشيري قنبلة جديدة معقدة بها شحنات موجهة ستعمل على تركيز قوة الانفجار في اتجاه واحد، أي لقد كان كل شيء معدًّا لاستقبال السفينة الحربية الأمريكية التالية التي تطرق أبواب الميناء اليمني.

استسلم بن لادن وترك مشرف العملية يتولى زمام الأمور، وقد أذاع شريط فيديو يهدد فيه أمريكا بهجوم آخر. وكما فعل من قبل في اللقاء مع قناة أيه بي سي قبل تفجير السفارتين، فقد ظهر في الشريط مفتاح للغز؛ حيث كان يرتدي هذه المرة خنجرًا يمنيًّا منحنيًا مميزًا في حزامه، وبجواره كان الظواهري يقول: «كفانا من الكلمات، لقد حان وقت العمل.»

تقع عدن على منحدر بركان قديم يمثل الجزء المخروطي المنهار منه واحدًا من أفضل موانئ المياه العميقة في العالم. ويرجع اختيار هذا الاسم إلى الاعتقاد بأن هذا هو مكان جنة عدن. ويقال إن سفينة نوح قد انطلقت منها وإن قابيل وهابيل مدفونان هناك. ولقد شهدت هذه المدينة الغارقة في الأساطير ونفحات العصور القديمة ازدهارًا في عصر الاحتلال البريطاني الذي انتهى عام ١٩٦٧م، عندما انقسم البلد إلى جزأين، وبدأت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تجربتها الشاقة مع الاشتراكية العلمانية. وقد كانت آثار التمزق لا تزال واضحة في عام ١٩٩٤م بعد أن انتهت الحرب وتوحدت البلاد مرة أخرى. وقد تركت العقود من العنف وعدم الاستقرار ميناء عدن الذي كان يومًا ميناءً عالميًا وقد فقد كثيرًا من مكانته.

وفي إحدى مناطق التزود بالوقود، رست المدمرة الأمريكية يو إس إس كول المزودة بصواريخ موجهة تكلف صنعها مليار دولار. وقد كانت السفينة الحربية المموهة مصممة بحيث لا تلتقطها شاشات الرادار بسهولة باستخدام تكنولوجيا التخفي المتقدمة (ستيلث)، إلا أن السفينة العملاقة كانت واضحة كالشمس في ميناء عدن حيث يصل طولها إلى أكثر من خمسمائة قدم ووزنها إلى ٨٣٠٠ طن، ولها هوائي استطلاع يمسح السماء فوقها تحسبًا لأي تهديد. ولقد كانت كول واحدة من أكثر سفن البحرية الأمريكية قدرة على الصمود؛ فكانت مزودة بدروع يصل وزنها إلى سبعين طنًّا تحمي الفراغات الحيوية بها، بالإضافة إلى حماية ضد الهجمات بالأسلحة الكيميائية أو البيولوجية أو النووية، وهيكل السفينة نفسه قادر على تحمل انفجار قوته واحد وخمسون ألف رطل في كل بوصة مربعة، بالإضافة إلى صواريخ من طراز توماهوك كروز، التي أطلقتها في عملية المدى المطلق. وكول مزودة أيضًا بصواريخ مضادة للسفن والطائرات، ومدفع خمس بوصات، ونظام الدفاع المركزي فالنكس الذي يطلق خمسين قذيفة في الثانية الواحدة من عيار ٢٠ ملم. وكانت شبكة أجهزة الكمبيوتر والرادارات في المدمرة، التي يطلق عليها أيه إي جي آي إس AEGIS، قادرة على تتبع مئات الصواريخ أو الطائرات القادمة في الوقت نفسه وهي لا تزال على بعد مائتي ميل. وقد كانت تلك المدمرة الخارقة معدة خصوصًا لمحاربة القوات البحرية السوفييتية.

وفي الثاني عشر من أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠٠م، في الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة صباحًا عندما كانت كول تستعد للإبحار، اقترب قارب صيد مصنوع من الألياف الزجاجية من فريسته العملاقة. وكان بعض البحارة يقفون يراقبون ما يحدث، ولكن كان الكثيرون منهم بالأسفل أو يقفون في طابور للحصول على طعام في قاعة الطعام. أوقف رجلان المركب الصغير بمحاذاة وسط السفينة وابتسما ولوَّحا بأيديهما للطاقم، ثم انتصبا في وقفتهما. وكانت الرمزية واللاتكافؤ اللذان تعبر عنهما تلك اللحظة هما بالضبط ما حلم به بن لادن حين قال: «لقد كانت المدمرة تمثل عاصمة الغرب، والقارب الصغير يمثل محمدًا.»

أطاحت موجة التصادم التي نتجت عن ذلك الانفجار الرهيب في الميناء بالسيارات التي كانت موجودة على الشاطئ. وعلى بعد ميلين اعتقد الناس أن هناك زلزالًا. وفي سيارة أجرة في المدينة، هزت الصدمة فهد القصع، أحد أعضاء فريق الدعم التابع للقاعدة الذي تأخر في الوصول. وكان من المفترض أن يقوم بتصوير الهجوم على

twitter @baghdad_library

شريط فيديو، ولكنه استغرق في النوم ولم يستيقظ على التنبيه الذي ضبطه على هاتفه ليوقظه كي يعد الكاميرا للتصوير.

وبمجرد انفجار القنبلة، انطلقت كرة من النار لابتلاع بحار كان ينحني فوق الحاجز ليرى ما كان يشرع الرجال في القارب الصغير في القيام به. وقد تسبب الانفجار في إحداث فجوة أبعادها أربعون قدمًا في أربعين قدمًا في جانب السفينة المواجه للميناء، ومزقت البحارة الذين كانوا ينتظرون تناول وجبة الغداء إربًا. وقد أسفر الانفجار عن مقتل سبعة عشر منهم وإصابة تسعة وثلاثين بجروح، وقد سبح العديد من البحارة عبر الفجوة التي أحدثها الانفجار هربًا من لهيب النيران. وبعد الانفجار، كانت المدمرة الحديثة ترقد في الميناء مثل حيوان ضخم انتزعت أحشاؤه.

في غضون ساعات من الهجوم على المدمرة كول، اتصل باري ماون بالمقر الرئيسي وطلب أن يتولى مكتب نيويورك التحقيقات، وقال لتوماس بيكارد على الهاتف: «إنها القاعدة»، وأراد أن يتولى أونيل التحقيق في موقع الحادث.

وكما فعل بيكارد من قبل في التحقيق في تفجيرات السفارتين الأمريكيتين، فقد رفض وقال: إنه لا يوجد دليل على تورط القاعدة، وكان يعتزم إرسال مكتب واشنطن الميداني بدلًا من مكتب نيويورك. ولكن ماون تخطاه وقدم طلبه إلى لويس فريه الذي وافق على الفور أن يتولى مكتب نيويورك القضية، ولكن كان إرسال أونيل محلًا للنقاش.

أصر ماون على رأيه قائلًا: «أونيل هو رجل هذه المهمة.» فلم يكن هناك شخص آخر يتمتع بخبرة أونيل والتزامه، فقيل له: «إذا حدثت أية مشكلات، فستتحمل أنت العواقب الوخيمة»، فوافق ماون.

شعر أونيل بسعادة غامرة، فهذه هي أفضل فرصة له للقضاء على التنظيم الإرهابي، وربما تكون فرصته الأخيرة لإعادة حياته المهنية إلى مسارها الصحيح، وقد قال لصديق له في واشنطن: «هذه هي الفرصة المناسبة لي.»

كان أونيل قد تعلم دروسًا كثيرة منذ أول يوم التحق فيه بالعمل في واشنطن قبل خمس سنوات عندما نسق عملية التسليم غير القضائي لرمزي يوسف. وكان من بين الدروس التي تعلمها تخزين إمدادات في صناديق خشبية سهلة التحريك في قاعدة أندروز الجوية؛ حتى يكون هناك فريق جاهز للتحرك السريع في أية لحظة. وبالفعل لم يكن قد مر على تفجير المدمرة أكثر من أربع وعشرين ساعة بوقت طويل

حين كان أونيل وما يقرب من ستين عميلًا وموظف دعم من مكتب التحقيقات يحلقون في الهواء.

وكان عليهم التوقف أولًا في ألمانيا لانتظار تصريحات السلطات اليمنية التي كانت لا تزال تزعم أن الانفجار مجرد حادث. وبالصدفة، كان هناك أيضًا عدد كبير من البحارة المصابين في ألمانيا حيث نُقِلوا جوًّا إلى مركز لاندستول الطبي، وهو أكبر مستشفى أمريكي خارج الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اصطحب أونيل رجاله على الفور إلى الجناح الذي يتلقى فيه البحارة العلاج. وفي حين كان خبراء المتفجرات يفحصون بدقة ملابس الضحايا وشعرهم بحثًا عن آثار متبقية، كان أونيل يمر في الغرفة ومعه محقق بحري يتحدث إلى البحارة المصابين. لقد كانوا شبابًا من الجنسين لم يتخط معظمهم مرحلة المراهقة بعد، وقد فقد بعضهم أطرافه والبعض الآخر أصيب بحروق شديدة. وكان ثلاثة منهم مصابين بشدة حتى إنهما لم يستطيعا التحدث إليهما. ولكن واحدة منهم، ضابطة صف بحري اسمها كاثي لوبيز Kathy Lopez كانت ترقد مغطاة تمامًا بالضمادات، أشارت بإصرار أنها تريد أن تقول شيئًا ما، فأدنت إحدى الممرضات أذنها من شفتي كاثي وسمعتها وهي تهمس: «اقبضوا عليهم.»

عندما صعد علي صوفان، العميل الفيدرالي الشاب الذي يتحدث العربية بطلاقة الذي انضم مؤخرًا إلى الفرقة I-49، — على متن الطائرة المتجهة إلى اليمن، أخبره أونيل أنه سيكون العميل المسئول عن التحقيق في قضية المدمرة يو إس إس كول، أكبر قضية تسند إليه في حياته.

كان صوفان متحدثًا مفعمًا بالحيوية يحمل صوته لكنة لبنانية؛ إذ إنه ولد في لبنان. وكان يعرف ما يبدو عليه الأمر حين يعيش المرء في مكان تشيع فيه الفوضى ويفتقر إلى القانون، وحين يرى المدن وهي تدمر. فقد هربت عائلته إلى أمريكا في أثناء الحرب الأهلية، وأحب هو أمريكا لأنها منحته الفرصة ليحلم، وفي المقابل احتضنته أمريكا. لقد كانت تجربته متناقضة تمامًا مع تجربة أولئك المسلمين الذين شعروا بالغربة الموحشة في الغرب وتحولوا إلى التيار الإسلامي كطريقة للعثور على هوية. ولم يعان صوفان أبدًا التحيز ضده لأنه عربي أو مسلم، بل على العكس، لقد انتخب رئيسًا للجماعة الطلابية التي كان عضوًا فيها وحصل على العديد من الجوائز الأكاديمية. وبعد أن حصل على شهادة الماجستير في العلاقات الدولية من جامعة

twitter @baghdad_library

فيلانوفا، كان يعتزم الحصول على شهادة الدكتوراه من جامعة كامبريدج. ولكنه أعجب بشدة بالدستور الأمريكي، وعلى غرار العديد من المواطنين الذين حصلوا على الجنسية الأمريكية، فقد شعر أنه مدين للبلد الذي منحه الحياة الجديدة. وبينما كان يقف على عتبة حياته المهنية الأكاديمية، قرر، «على سبيل الدعابة»، إرسال سيرته الذاتية إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي. وقد رأى أن احتمال تعيين طالب مسلم أمريكي من أصل عربي في مكتب التحقيقات بعيدًا للغاية بصورة مثيرة الضحك، ولكن كان يدفعه للمحاولة صوت غامض يصرخ بوضوح بداخله لإنقاذه من البقاء على مقاعد الدراسة. وبينما كان يعد أغراضه للسفر إلى إنجلترا، جاءه الرد بالتقدم إلى أكاديمية مكتب التحقيقات الفيدرالي في أسبوعين.

وقد ضمه أونيل إلى الفرقة نظرًا لقدرته على التحدث باللغة العربية، ولكنه سريعًا ما أصبح يدرك قيمة صوفان من حيث قدرته على اتخاذ المبادرة وسعة حيلته وشجاعته. فعندما هبطت الطائرة في عدن، تطلع العملاء إلى فرقة القوات الخاصة اليمنية التي ترتدي الزي الرسمي الأصفر والخوذات الروسية القديمة، وكل منهم يصوب سلاحه من طراز أيه كيه-٤٧ إلى الطائرة. فرد فريق إنقاذ الرهائن شديد العصبية الذي أُرسل لحماية المحققين على هذا الموقف بسحب صمام الأمان في أسلحتهم الآلية من طراز إم-٤. وأدرك صوفان أنهم جميعًا سيغرقون في بحر من الدماء على مدرج هبوط الطائرة إذا لم يفعل شيئًا بسرعة.

ففتح صوفان باب الطائرة، واتجه وهو يحمل زجاجة ماء إلى الضابط الذي كان يحمل جهاز إرسال لاسلكيًا في حين تبعته بنادق الجنود الآخرين. كانت درجة الحرارة تقترب من ٤٤ درجة مئوية، والعرق يتصبب على وجوه الجنود من خلف أسلحتهم.

قال صوفان بالعربية للضابط الذي يحمل جهاز الإرسال اللاسلكي: «إنك تبدو ظمآن» وأعطاه زجاجة الماء. فسأله الضابط: «هل هي أمريكية؟» فأكد له صوفان أنها كذلك، وأخبره أن لديه المزيد لجميع الجنود أيضًا الذين اعتبروها سلعة ثمينة للغاية حتى إن بعضهم احتفظ بها ولم يشربها.

وبذلك السلوك الودي البسيط، خفض الجنود أسلحتهم وسيطر صوفان على المطار.

دُهش أونيل عندما هبط من الطائرة ووجد الجنود يرفعون أيديهم له بالتحية العسكرية، فقال له صوفان مبررًا الموقف: «لقد أخبرتهم أنك تحمل رتبة جنرال.»

ومن بين أول ما لاحظه أونيل لافتة تحمل اسم «مجموعة بن لادن الدولية»، وهي شركة تابعة لمجموعة بن لادن السعودية، التي حصلت على عقد إعادة بناء المطار بعد الدمار الذي لحق به في الحرب الأهلية عام ١٩٩٤م، فذكرته هذه اللافتة أنه انتقل ليلعب في ملعب الخصم.

كان أونيل قد قضى بعض الوقت بالفعل يدرس البلد، فكان يقرأ كتابًا بعنوان Yemen: The Unknown Arabia بقلم تيم ماكنتوش سميث Tim Mackintosh Smith. وقد علم من الكتاب أنه يُزعم أن العاصمة صنعاء أول مدينة في العالم وأن حضرموت، وطن بن لادن الأصلي، تعني «حضر الموت»، وضع أونيل خطوطًا مستقيمة تحت هذه الحقائق بقلمه الجاف ماركة مونت بلانك، كما كان يفعل دائمًا وهو يقرأ؛ فقد كان عاقد العزم على ألا يهزمه العمل على أرض العدو.

ولكنه اكتشف، على أية حال، أن خصمه الحقيقي هو سفيرة بلده باربرا بودين Barbara Bodine، التي تولت شخصيًّا التفاوض في الاتفاقيات بين الولايات المتحدة واليمن قبل سنتين للسماح للسفن الحربية الأمريكية أن تتزود بالوقود في ميناء عدن، وهو ما بدا آنذاك خطأ فادحًا في تقدير الأمور تسبب في كارثة. وقد اجتمعا في السادسة صباحًا بعد وصول أونيل الذي أخبرها بلكنة نيوجيرسي التي تميز حديثه أنه يتطلع للعمل معها في مهمته في «الياي-مان».

فعقبت هي ببرود على هذا الخطأ في نطق اسم البلد وقالت: «اليمن».

من وجهة نظر أونيل، كانت اليمن مليئة بالجهاديين ولا تزال ترتجف بسبب الحرب الأهلية. وقد كتب في تقاريره بعد ذلك: «اليمن دولة بها ثمانية عشر مليون نسمة وخمسين مليون مدفع رشاش.» وكانت أصوات الطلقات النارية تدوي باستمرار، وكانت درجة الحرارة تتجاوز ٤٨ درجة مئوية والعقارب منتشرة كالذباب. بالإضافة إلى ذلك، كانت اليمن متخمة بالجواسيس المسلحين بأجهزة تنصت، وكانت إحدى أكبر خلايا جماعة الجهاد بقيادة الظواهري تعمل في اليمن، وكان هناك الكثير من المحاربين المحنكين الذين اشتركوا في الحرب في أفغانستان مع بن لادن. وعندما وصل باقي فريق أونيل، حذرهم هو قائلًا: «قد تكون هذه أكثر بيئة عدائية عمل بها مكتب التحقيقات الفيدرالي على الإطلاق.»

أما بودين، فكانت ترى أن اليمن حليف واعد لأمريكا في جزء متقلقل، ولكن شديد الأهمية استراتيجيًّا، من العالم. ولقد كانت هذه الدولة حديثة العهد بالديمقراطية وأكثر تسامحًا من جيرانها حتى إنها كانت تسمح للنساء بالتصويت في الانتخابات.

twitter @baghdad_library

وعلى عكس أونيل، كان لدى السفيرة خبرة كبيرة في العمل في بيئات محفوفة بالمخاطر؛ ففي أثناء الغزو العراقي للكويت، كانت نائبةَ رئيس البعثة الأمريكية ومكثتْ هناك في أثناء حصار السفارة الأمريكية من قِبل القوات العراقية الذي استمر ١٣٧ يومًا حتى جرى إخلاء جميع الأمريكيين من هناك. بالإضافة إلى أنها كانت على القدر نفسه من الحدة والقوة اللتين يتمتع بهما أونيل.

كانت بودين تعتقد أنها قد اتفقت مع أونيل على ألا يتجاوز عدد أعضاء فريقه خمسين عضوًا، لذا فقد استشاطت غضبًا حين وصل عدد أكبر من المحققين وفريق الدعم. وكان الأمر في نظرها كما لو أن طائرة عسكرية على متنها «ثلاثمائة جندي مدجج بالسلاح» جاءت للاستيلاء على مدينة صغيرة، (ولكن طبقًا لما قاله أونيل بعد ذلك وما أكده العملاء الآخرون والتقارير الإخبارية، كان فريقه يتكون من مائة وخمسين فردًا فقط وليس ثلاثمائة). فناشدت السفيرة أونيل أن يضع في اعتباره البيئة الدبلوماسية الهشة التي يعمل بها، فأجابها إنه موجود هناك للتحقيق في جريمة وليس لإقامة علاقات دبلوماسية. وكانت تلك هي نوعية الإجابات التي أصبحت بودين تتوقعها في تعاملها مع مكتب التحقيقات الفيدرالي، وقد توصلت من ذلك أن «هناك طريقة خاصة بمكتب التحقيقات الفيدرالي، وهذا هو أسلوبه؛ إن أونيل لم يكن فريدًا من نوعه، ولكنه متطرف.»

لقد كان هدفها هو الحفاظ على العلاقات الهشة بين الولايات المتحدة واليمن التي عملت بجد لتحسينها. ومع أنه بإمكان المرء تفهم أن لكل من وزارة الخارجية ومكتب التحقيقات الفيدرالي أجندة مختلفة، ففي تلك الحالة كانت بودين قد تلقت تعليمات واضحة من وزير الخارجية بضمان أمن وسلامة المحققين الأمريكيين ومساعدتهم في التحقيقات، وكان من المفترض أن تكون هذه هي أولوياتها وليس حماية العلاقات مع الحكومة اليمنية. ولكنها بدلًا من ذلك استمرت في التقليل من «وجود» مكتب التحقيقات في اليمن عن طريق تقليص عدد العملاء وتجريدهم من أسلحتهم الثقيلة قائلة: إن هذا لأمنهم الشخصي. وفي غضون ذلك، كان التليفزيون المحلي يبث كل ليلة جلسات للبرلمان اليمني وبعض المتحدثين به يطالبون علانية بالجهاد ضد أمريكا.

أمرت بودين بنقل فريق التحقيقات بالكامل إلى فندق عدن الذي كان مكتظًّا بموظفين حكوميين وعسكريين أمريكيين آخرين. وكان كل ثلاثة أو أربعة من المحققين في فريق أونيل يقطنون في غرفة واحدة، وكتب أونيل في تقريره: «كان خمسة وأربعون من موظفي مكتب التحقيقات الفيدرالي ينامون على حصائر على

الأرض في قاعة الرقص بالفندق.» أقام أونيل مركز قيادة في الطابق الثامن من الفندق، وكان خمسون تقريبًا من جنود مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) يحرسون رواق طابق مركز القيادة المحصن بأكياس الرمال. وفي الخارج، كان الفندق محاطًا برجال من القوات اليمنية يحملون مدافع رشاشة ويقفون في مخابئ، ولم يكن واضحًا ما إذا كان لديهم أي هدف آخر سوى التأكد من أن الأمريكيين لا يغادرون الفندق حتى إن أحد العملاء وصف ذلك الموقف بقوله: «لقد كنا كالسجناء.»

وفي وقت مبكر من الصباح بعد وصوله، استقل أونيل زورقًا ليصل إلى المدمرة كول التي كانت ترقد في الميناء على بعد ألف ياردة من الشاطئ. وكانت عمليات استخراج الجثث لا تزال قائمة، والجثث مصطفة على سطح المركب وملتفة بالأعلام الأمريكية. وفي الأسفل، كانت هناك أشلاء بشرية محطمة متشابكة مع الكمية الكبيرة من الأسلاك المعقدة والأجزاء المعدنية من السفينة التي بدت يومًا حصنًا منيعًا. وعبر الفجوة الضخمة التي نتجت عن الانفجار، رأى أونيل الغواصين وهم يبحثون عن الجثث، وفي الخلفية كانت المدينة الصخرية تحتضن الميناء مثل مسرح على الطراز القديم.

قال البحار المسئول عن إعادة تزويد السفينة بالوقود للمحققين: إن تزويد السفينة بكمية الوقود التي تحتاج إليها وهي ٢٤٠ ألف جالون يستغرق ست ساعات تقريبًا. ولم يكن قد مضى سوى خمس وأربعين دقيقة على بدء عملية التزود بالوقود عندما انفجرت القنبلة. وقد اعتقد البحار في البداية أن خط الغاز قد انفجر، فأغلق الوصلة على الفور، ثم غطت سحابة من السائل الأسود السفينة، ولم يكن ذلك أثر انفجار سببه البترول، ولكن بقايا قنبلة.

قضى أونيل كثيرًا من وقته يتملق السلطات اليمنية في جهاز الأمن السياسي، النظير اليمني لمكتب التحقيقات الفيدرالي، ليتعاون في التحقيقات. فقد كان يعي جيدًا ضرورة بناء أركان القضية بالشكل الصحيح حتى تتناسب مع مقاييس النظام القضائي الأمريكي، ومن ثم تسير في مجراها الطبيعي. ولذا كان يجب أن يحضر عملاؤه التحقيقات التي تجريها السلطات المحلية كي يؤكدوا للمحاكم الأمريكية عدم تعرض أحد من المشتبه بهم للتعذيب. وسعى أيضًا إلى الحصول على شهادة شهود عيان من المقيمين بالجوار الذين شاهدوا الانفجار. ولكن رفض جهاز الأمن السياسي وبودين هذه المطالب، وقد سألته الأخيرة: «هل تريد أن تطرق مجموعة من رجالك

twitter @baghdad_library

الأمريكيين من أصل أيرلندي الذين يبلغ طول كل منهم ستة أقدام وبوصتين كل باب في المنطقة. ثم أصلًا كم عدد رجالك الذين يتحدثون العربية؟»

في الواقع، كان عدد من يتحدثون اللغة العربية في فريق مكتب التحقيقات الفيدرالي الذي يتولى القضية في اليمن ستة فقط، ولطالما كانت اللغة مصدرًا لسوء التفاهم. لذا فقد كان أونيل يصطحب معه علي صوفان دائمًا. وفي إحدى المرات عندما كان أونيل يتحدث إلى عقيد في المخابرات اليمنية يعوق تحقيقاتهم، قال أونيل بيأس: «يا إلهي! إن هذا الأمر صعب للغاية مثل خلع الأسنان!» ولكن عندما نقل المترجم الشخصي للعقيد هذه الملحوظة باللغة العربية، هب المسئول واقفًا على قدميه والغضب يرتسم على ملامحه. فتعجب أونيل من الموقف وسأل صوفان: «ما الخطأ فيما قلت؟» فأخبره صوفان أن المترجم قد ترجم هذه العبارة للعقيد على أنها: «إذا لم تجب على أسئلتي، فسأنتزع أسنانك!»

كانت السلطات اليمنية تشعر أن الأمريكيين يتعدون على حقوقهم في بلدهم وأنهم يتعاملون معهم بطريقة غير لائقة، وهو أمر مفهوم في مثل هذا الموقف. ففي مقابل الأدلة التي طلبها أونيل، أرادت السلطات اليمنية أن يكون لها حق الاطلاع على أية معلومات يجمعها مكتب التحقيقات خارج اليمن، وهو الأمر الذي لم يستطع أونيل الإيفاء به لأسباب قانونية. وفي النهاية أخرج اليمنيون شريط فيديو التقطته كاميرا أمنية بجوار الميناء، ولكن اتضح بعد ذلك أنه قد جرى تحريره وحذف لحظة الانفجار الحاسمة. وعندما اشتكى أونيل إلى واشنطن، أرسل الرئيس كلينتون رسالة موجزة إلى الرئيس علي عبد الله صالح، ولكنها لم تحدث التأثير المطلوب. وقد كان رجال مكتب التحقيقات مقتنعين أن أحدًا قد سرب معلومات إلى منفذي العملية عن موعد وصول المدمرة كول إلى الميناء، وأرادوا توسيع نطاق التحقيقات ليشمل أعضاء من عائلة الرئيس وعقيد في جهاز الأمن السياسي، ولكن السلطات اليمنية، لم تكن مهتمة بتتبع مثل هذه الخيوط.

لقد قضى أونيل حياته العملية بالكامل في التقرب من أجهزة الشرطة في الدول الأخرى؛ فقد كان يرى أن «ضباط الشرطة» في جميع أنحاء العالم إخوة ويعملون في الفريق نفسه. ولكن كانت بعض الأدلة التي يطلبها للفحص تثير حيرة المحققين المحليين الذين لم يكونوا على دراية بالتقنيات المتقدمة لعلم الأدلة الجنائية التي اشتهر بها المكتب. فقد كانوا نادرًا ما يطبقون بعض الإجراءات الأولية مثل رفع البصمات من موقع الحادث، ولم يفهموا، على سبيل المثال، لماذا طلب أونيل القبعة

التي كان يرتديها أحد المتآمرين لأنه كان يريد فحصها بحثًا عن دليل يتوصلون منه إلى حمضهم النووي. حتى الرواسب الطينية في الميناء التي تحتوي على بقايا من القنبلة وأجزاء من مركب الصيد المصنوع من الألياف الزجاجية بعيدة عن أيدي رجال مكتب التحقيقات حتى دفع المكتب مليون دولار للحكومة اليمنية لرفعها من القاع، ونُقِل الحطام على بارجات وشحنت إلى مدينة دبي لفحصها.

كان المجتمع اليمني مجتمعًا يعتد بالفروق في المكانة والمنزلة، ولأن صوفان رفع رتبة أونيل إلى جنرال، فقد كان رئيس الأمن الرئاسي، اللواء حمود ناجي، هو أحد النظراء الذين يتعامل معهم أونيل. وكان اللواء ناجي قد وافق أخيرًا أن يصطحبهم إلى الموقع الذي انطلق منه منفذو العملية بقاربهم. وكانت قوات الشرطة قد وجدت صبيًّا في الثانية عشرة من عمره اسمه هاني كان يصطاد على الرصيف البحري عندما أنزل منفذو العملية مركبهم، وقد دفع له أحدهم مائة ريال يمني، ما يساوي ستين سنتًا أمريكيًّا، كي يحرس مقطورة القارب وشاحنته من طراز نيسان، ولكنه لم يعد أبدًا. فاعتقلت الشرطة هاني كي تضمن أنه لن يختفي، ثم احتجزت والده أيضًا ليعتني به، وعندما علم أونيل بهذا قال: «إذا كانت هذه هي الطريقة التي يتعاملون بها مع الشهود المتعاونين، فتخيل كيف يعاملون الآخرين صعاب المراس؟»

فحص أونيل أيضًا المنزل الآمن الذي أقام فيه منفذو الهجوم والذي كان نظيفًا ومرتبًا. ووجدوا في غرفة النوم الرئيسية سجادة صلاة موجهة نحو الشمال باتجاه القبلة. وكانت بالوعة الحمام مليئة بشعر حلقه منفذو العملية من أجسادهم قبل أن يذهبوا إلى الموت. وقد تأثر المحققون وهم يتخيلون مرتكبي الحادث وهم يتوضئون ويصلون صلاتهم الأخيرة.

ولكن كان التعاون لا يزال بطيئًا للغاية، وقد اعترف اللواء ناجي بهذا قائلًا: «هذه التحقيقات تصل إلى حائط مسدود، إننا العرب صعاب المراس» فأجابه صوفان: «إنكم تتعاملون مع عربي أيضًا، فأنا أيضًا صعب المراس.»

وعندما ترجم صوفان هذا الحديث لأونيل، جادلهم الأخير بأن العرب لا يضاهون الأيرلنديين في عنادهم. وأخبرهم قصة عن عشيرته في أيرلندا التي قال إنها اشتهرت بأن رجالها أقوى رجال في البلد، وقد كان هناك سباق يقام سنويًّا بالقوارب تجاه صخرة عملاقة في منتصف البحيرة، وقد اعتادت عشيرة أونيل الفوز به. ولكن في إحدى السنوات كانت هناك عشيرة أخرى تجدف أسرع منهم وتسبقهم، وبدا أنها

twitter @baghdad_library

ستلمس الصخرة قبلهم، ويقول أونيل: «وعندئذ استل جدي الأكبر سيفه وقطع يده وألقاها على الصخرة لتمسها قبلهم. فهل لديكم ما يقارن بهذا القدر من العناد؟»

نظر صوفان واللواء اليمني كل منهما إلى الآخر، ثم قال صوفان: «إننا عنيدون، ولكننا لسنا مجانين.»

من المشكلات التي واجهها المحققون أن المدمرة كول كانت معرضة للغرق، وكان المهندسون البحريون يعملون بدأب لمنع هذه الفضيحة المشينة. وأخيرًا وصلت سفينة إنقاذ نرويجية شبه غواصة ذات سطح أوسط مصمم بحيث يستطيع الغطس تحت الماء وإخراج المنصات النفطية، لالتقاط السفينة الحربية الجريحة واصطحابها في رحلة طويلة إلى وطنها. وقد بثت أجهزة الصوت بالسفينة التي تغادر الميناء محمولة النشيد الوطني الأمريكي «العلم ذو النجوم المتلألئة» The Star Spangled Banner وأتبعته بتحدٍّ بأغنية المطرب الأمريكي كيد روك Kid Rock التي تحمل اسم American Bad Ass.

كانت البيئة التي يعمل بها رجال مكتب التحقيقات محفوفة بالمخاطر حتى إنهم كانوا ينامون بملابسهم وأسلحتهم إلى جوارهم. وقد علم المحققون من ميكانيكي أن شخصًا ما قد أحضر إلى ورشته شاحنة مشابهة لشاحنة اشتراها منفذو العملية لتزويدها بصفائح معدنية تُثبَت بحيث يمكن استخدامها لتوجيه قوة انفجار. وبالطبع، الهدف الأمثل الذي قد توجه إليه قنبلة كهذه هو الفندق الذي يقيمون فيه.

أما بودين، فكانت ترى أن رجال مكتب التحقيقات يبالغون في مخاوفهم، وأنهم يشكون في الجميع بما في ذلك فريق العمل بالفندق. وقد أكدت لأونيل أن أصوات إطلاق النيران التي يسمعها خارج الفندق باستمرار على الأرجح غير موجهة إليهم ولكنها طلقات نارية في حفلات الزفاف. ثم في إحدى الليالي، عندما كان أونيل يرأس اجتماعًا، سمعوا أصوات إطلاق نار خارج الفندق مباشرة، فاتخذ فريق إنقاذ الرهائن مواقعهم. ومرة أخرى، خاطر علي صوفان بنفسه وهرع إلى الخارج ليتحدث إلى القوات اليمنية المتمركزة في الشارع.

فناداه أونيل قائلًا: «توخ الحذر يا علي!» وانطلق خلفه على سلالم الفندق ليتأكد من أنه يرتدي سترته الواقية من الرصاص. لقد قرّب الإحباط والإجهاد والخطر، بالإضافة إلى ذلك الشعور بالألفة الذي فرضه عليهما موقفهما، بين أونيل وصوفان.

فبدأ أونيل يصف صوفان بأنه «سلاحه السري»، وكان يخاطبه أمام اليمنيين بلقب «بني».

قام القناصة بتغطية صوفان وهو ينطلق في الشارع، ولكن الضابط اليمني المتمركز هناك أكد له أن كل شيء «على ما يرام».

فسأله صوفان: «إذا كان كل شيء على ما يرام، فلماذا لا توجد أية سيارات في الشارع؟»

فقال الضابط: من المؤكد أن هناك حفل زفاف بالقرب من موقعهم، نظر صوفان حوله ورأى أن الفندق محاط برجال يرتدون ملابس عادية وبعضهم في سيارات جيب، وجميعهم يحملون أسلحة؛ أي أنهم مدنيون وليسوا جنودًا. تذكر صوفان في تلك اللحظة الانتفاضة القبلية في الصومال التي انتهت بسحب جثث الجنود الأمريكيين الصرعى في شوارع مقديشيو، وأدرك أنه من الممكن أن تتكرر هذه المأساة معهم في تلك اللحظة.

أمر أونيل مشاة البحرية الأمريكية بنشر مركبتين مصفحتين لسد الشارع أمام الفندق. ومرت تلك الليلة دون المزيد من الأحداث، ولكن في اليوم التالي نقل أونيل فريقه إلى السفينة يو إس إس ديلوث المتمركزة في خليج عدن، وكان عليه أن يحصل على تصريح من الحكومة اليمنية كي يعود إلى الشاطئ بالطائرة الهليكوبتر. وكان على قائد الهليكوبتر القيام بمناورات بعد أن أُكتُشفت الطائرة ولاحقها صاروخ من طراز إس أيه-٧. ثم أرسل أونيل معظم المحققين مرة أخرى إلى الولايات المتحدة، وعاد هو وصوفان وأربعة محققين آخرين إلى الفندق الذي أصبح خاليًا تقريبًا من النزلاء بسبب التهديدات بتفجيره.

تدهورت العلاقات بين بودين وأونيل لدرجة أن باري ماون سافر إلى اليمن لتقييم الموقف، وقد قال عنها ماون: «كان من الواضح أنها تكرهه بكل كيانها» ولكن ما أخبرته به بودين هو أن أونيل لا يستطيع التعامل مع اليمنيين. وللأيام العشر التي تلت ذلك الموقف، تحدث ماون إلى أعضاء من فريق مكتب التحقيقات الفيدرالي وضباط من الجيش الأمريكي. وكل مساء، عندما كانت السلطات اليمنية تبدأ مفاوضاتها، كان يذهب مع أونيل لمراقبته وهو يتعامل مع نظرائه اليمنيين. وكانت الاجتماعات دائمًا ما تستمر حتى وقت متأخر من الليل، وكان أونيل يتبع أساليب مختلفة في التعامل معهم؛ فيتملقهم ويضغط عليهم ويثير إعجابهم ويستعطفهم ويفعل كل ما يستطيع القيام به لدفع العملية للأمام. وفي أحد هذه الاجتماعات، أخبر

twitter @baghdad_library

أونيل اللواء غالب القمش الذي يعمل في جهاز الأمن السياسي أنه يحتاج إلى صور للمشتبه بهم الذين ألقت السلطات اليمنية القبض عليهم. وقد استمرت المناقشات حتى انبثقت الخيوط الأولى من الفجر واللواء القمش يشرح لهم بأسلوب مهذب أن هذه القضية لا تستدعي وجود مكتب التحقيقات الفيدرالي، وأونيل يشرح له بصبر مدى أهمية وخطورة الموقف لهم. أما ماون، فقد كان يجاهد للمحافظة على هدوء أعصابه، ولكن في اليوم التالي جاء اللواء وقال لأونيل: «لقد أحضرت لك الصور التي طلبتها.»

فشكره أونيل ثم رجاه أن يمنحه حق التحدث إلى المشتبه بهم وجهًا لوجه بدلًا من أن ينقل الأسئلة للمحققين اليمنيين. أي أن الأمر برمته كان سلسلة لا تنتهي من المفاوضات الملتوية، ولكن من وجهة نظر ماون فقد كانت تُجرى بكل احترام، بل ومودة من الطرفين. وكان اللواء القمش يشير إلى أونيل بلقب «الأخ جون». وعندما عاد ماون، قال في تقريره إلى المدير: إن أونيل يقوم بعمله بمهارة وبراعة شديدتين، وأضاف أن بودين هي «الشخص الوحيد الذي يحط من شأنه وينتقده.» وقد قال الكلام نفسه تقريبًا لبودين وهو في طريقه إلى خارج البلاد، وقال: إنه لن يعيد أونيل إلى الولايات المتحدة. بالطبع كان ماون هو المسئول عن إرسال أونيل إلى اليمن في المقام الأول، ومن المحتمل أنه لم يشأ أن يتفهم وجهة نظر بودين. وعلى أية حال، فإن السفراء هم من لهم الكلمة الفصل في تحديد مَن مِن المواطنين الأمريكيين مسموح له بالبقاء في بلد أجنبي، وبالطبع لم يكن أونيل من بينهم.

في نهاية شهر أكتوبر/تشرين الأول، ألقت السلطات اليمنية القبض على فهد القُصع، عضو القاعدة الذي كان مسئولًا عن تصوير التفجيرات ولكنه غرق في سبات عميق ولم ينفذ المهمة المنوطة به. اعترف القصع أيضًا أنه هو وأحد الانتحاريين المسئولين عن تنفيذ العملية أوصلوا خمسة آلاف دولار إلى خلاد، العقل المدبر ذو الساق الواحدة وراء الهجوم على المدمرة كول، في بانكوك. وقال: إن الهدف من هذه النقود شراء طرف صناعي جديد لخلاد، وقد نُقِل نص ذلك الحوار إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد شهر.

تذكر صوفان اسم خلاد من مصدر قام بتجنيده في أفغانستان، فقد وصف المصدر مقاتلًا ذا ساق معدنية كان أمير منزل الضيوف في قندهار، وأطلق عليه «ساعي بن لادن». أرسل صوفان وأونيل صورة جواز سفر خلاد إلى المصدر الأفغاني

الذي أرسل لهم تأكيدًا أنه هو الشخص المقصود، وقد كانت هذه هي أول صلة حقيقية بين القاعدة وعملية تفجير المدمرة كول.

تساءل صوفان: لماذا تُرسل النقود خارج اليمن في الوقت الذي يجري فيه الإعداد لعملية كبيرة؟ هل من الممكن أن تكون هناك عملية أخرى قيد الإعداد وهو لا يعرف شيئًا عنها؟ أرسل صوفان صورة خلاد إلى المخابرات الأمريكية وطلب منهم المزيد من المعلومات عنه، وسأل ما إذا كانت هناك اجتماعات للقاعدة قد عقدت في المنطقة. ولكن المخابرات لم تجب عن أسئلته الواضحة. وعندما حجبت المخابرات معلومات عن العقل المدبر لتفجيرات المدمرة كول والاجتماع الذي عُقِد في ماليزيا عندما طلب مكتب التحقيقات ذلك مباشرة؛ فإنها أعاقت بذلك سير العدالة في حادثة موت سبعة عشر بحارًا أمريكيًّا، ليس هذا فحسب، بل لقد كان هناك المزيد من العواقب المأسوية في الطريق.

بعد شهر من بدء التحقيقات في حادث تفجير المدمرة كول، صرح ديل واتسون مساعد مدير مكتب التحقيقات لصحيفة واشنطن بوست: «لقد ساعد التعاون المستمر (مع اليمنين) مكتب التحقيقات على خفض عدد عملائه هناك أكثر. ... وقريبًا سيتمكن مكتب التحقيقات من إعادة جون أونيل القائد المسئول عن التحقيق في موقع الحادث إلى الوطن مرة أخرى.» وبدا ذلك إذعانًا علنيًّا لشكاوى السفيرة بودين. وفي اليوم نفسه، قال رئيس الوزراء اليمني لصحيفة بوست: إنه لم يُكشف الستار عن أية علاقة تربط بين القاعدة ومنفذي عملية تفجير المدمرة كول.

عاد أونيل إلى أمريكا قبل عيد الشكر مباشرة، وقد صُدمت فاليري جيمس عندما رأته؛ حيث كان قد فقد خمسة وعشرين رطلًا من وزنه في تلك العملية. وقد أخبرها أنه شعر أنه كان يحارب الإرهاب وحده دون أي دعم من حكومته، وكان قلقًا من أن التحقيقات قد تصل إلى حائط مسدود بدونه. وبالفعل، طبقًا لما قاله باري ماون، فقد تباطأ التعاون اليمني بشدة بعد أن غادر أونيل البلاد. ونظرًا لقلقه إزاء التهديدات المستمرة لمحققي المكتب الذين ظلوا في اليمن، فقد حاول أونيل أن يعود إلى هناك مرة أخرى في يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠١م، ولكن بودين رفضت طلبه. وفي غضون ذلك، انسحب المحققون الأمريكيون للاختباء خلف جدران السفارة الأمريكية في صنعاء بعد أن تزايد شعورهم بالخطر المحدق بهم من كل جانب.

twitter @baghdad_library

سُمِح لصوفان أخيرًا بمقابلة فهد القُصع، مصور القاعدة النائم، الذي كان مغرورًا وضئيل الجسم وله لحية خفيفة لا ينفك عن جذبها. وقبل أن يبدأ صوفان الحديث معه، دخل عقيد من جهاز الأمن السياسي إلى الغرفة وقبَّل القصع على وجنتيه، إشارة للجميع أنه تحت الحماية. وبالفعل، كلما أوشك القُصع على الإدلاء بشيء مهم، صمم العقيد اليمني على إيقاف التحقيقات من أجل تناول الطعام أو الصلاة.

وعلى أية حال، تمكن صوفان على مدار عدة أيام من أن يجعل القُصع يعترف أنه قد قابل خلادًا وأحد مفجري المدمرة كول في بانكوك، وأقاموا في فندق اسمه واشنطن. واعترف أيضًا أن مهمته كانت تسليم ستة وثلاثين ألف دولار من نقود القاعدة، وليس الخمسة آلاف دولار التي ذكرها من قبل، أو النقود من أجل شراء ساق جديدة لخلاد. وقد ثبت بعد ذلك أن تلك النقود كانت لشراء تذاكر طائرة في الدرجة الأولى للمحضار والحازمي منفذي هجمات ١١ سبتمبر/أيلول والإنفاق عليهما عند وصولهما إلى لوس أنجلوس بعد بضعة أيام، الأمر الذي كان سيتضح برمته لو كانت المخابرات الأمريكية قد أخبرتهم عن عميلي القاعدة.

فحص عملاء مكتب التحقيقات سجلات الهاتف للتأكد من صحة قصة القُصع. فوجدوا فيها اتصالات هاتفية بين فندق واشنطن في بانكوك ومنزل القُصع في اليمن، ولاحظوا أيضًا أن هناك اتصالات هاتفية بالمكانين السابقين من هاتف عام في ماليزيا، اتضح بعد ذلك أنه خارج الشقة التي عقد فيها الاجتماع. وقد أخبر القُصع صوفان أنه كان من المفترض أن يقابل خلادًا في كوالالمبور أو سنغافورة، وكان من الواضح أنه لا يستطيع تحديد أي من الاثنتين. ومرة أخرى، أرسل صوفان برقية رسمية إلى المخابرات الأمريكية، وأرسل معها صورة من جواز سفر خلاد، وسألهم هل تعني أرقام هذه الهواتف شيئًا لهم؟ هل هناك صلة تربطها بماليزيا؟ أو علاقة بينها وبين خلاد؟ ولكن مرة أخرى لم يتلق ردًا من الوكالة.

لو كانت المخابرات الأمريكية ردت على صوفان بمنحه المعلومات الاستخباراتية التي طلبها، كان المكتب سيعلم بأمر الاجتماع الذي عقد في ماليزيا وبالعلاقة بالمحضار والحازمي. وكان المكتب سيعلم أيضًا، كما تعلم الوكالة بالفعل، أن عميلي القاعدة بالفعل في أمريكا منذ أكثر من عام. ونظرًا لأنه كان هناك اتهام مسبق موجه ضد بن لادن في نيويورك، وأن المحضار والحازمي تربطهما علاقات به، فقد كان من سلطة المكتب تعقب المشتبه بهما وزرع أجهزة تنصت في شقتهما واعتراض اتصالاتهما

ونسخ محتويات أجهزة الكمبيوتر التي يحملانها والتحقيق مع جميع معارفهما، أي جميع الإجراءات الأساسية التي كان من الممكن أن تمنع هجمات ١١ سبتمبر/أيلول.

وفي يونيو/حزيران من عام ٢٠٠١م، ألقت السلطات اليمنية القبض على ثمانية أشخاص قالوا إنهم مشتركون في مخطط لتفجير السفارة الأمريكية في اليمن حيث يقيم صوفان وباقي رجال مكتب التحقيقات، وتبع ذلك ظهور تهديدات جديدة تحيط بفريق مكتب التحقيقات، فقام فريه بناءً على توصية أونيل بسحب الفريق بالكامل من هناك.

كان تفجير المدمرة كول انتصارًا عظيمًا لبن لادن، فامتلأت معسكرات القاعدة في أفغانستان بالمجندين الجدد وتدفق المتبرعون من دول الخليج يحملون حقائب سامسونايت مليئة بدولارات النفط، كما كان الحال في ذروة أيام الجهاد الأفغاني. وأخيرًا عادت النقود تتدفق بين يدي بن لادن لينثرها مِن حوله. وعندما ظهرت النقود، أصبحت قيادة حركة طالبان، التي كانت لا تزال منقسمة على نفسها بشأن وجود بن لادن في أفغانستان، أكثر إذعانًا لوجوده على الرغم من التهديد بفرض عقوبات عليها والتعرض لضربات انتقامية. وقد وزع بن لادن كبار قادته على مناطق مختلفة، فذهب أبو حفص إلى موقع آخر في قندهار في حين انتقل الظواهري إلى كابول، حتى لا يقتل الرد الأمريكي المتوقع جميع قيادات التنظيم.

ولكن لم يأت الرد الأمريكي. فقد كانت البلاد تخوض غمار الانتخابات الرئاسية وكان كلينتون يحاول أن يضفي إنجازًا على مدة رئاسته عن طريق التوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل وفلسطين. وقد نُفذت عملية تفجير المدمرة كول في الوقت نفسه الذي كانت المحادثات تنهار فيه. وقد أكد الرئيس كلينتون أنه على الرغم من التوقيت السياسي الحرج، فقد كانت إدارته تستعد لشن هجوم صاروخي آخر ضد بن لادن في شهر أكتوبر/تشرين الأول، ولكن في اللحظات الأخيرة طلبت المخابرات الأمريكية إلغاء الهجوم نظرًا لأن وجود بن لادن في الموقع أمر غير مؤكد.

شعر بن لادن بالغضب وخيبة الأمل، فقد كان يأمل أن يستدرج أمريكا للوقوع في الشرك نفسه الذي وقع فيه السوفييت: أي أفغانستان. وكانت استراتيجيته تقوم على الاستمرار في مهاجمة الولايات المتحدة، حتى تجتاح القوات الأمريكية أفغانستان، وعندئذ ينقض عليها المجاهدون ويضربون منهم كل بنان حتى تنهار الإمبراطورية الأمريكية بالكامل صريعة لجروحها. لقد حدث ذلك من قبل لبريطانيا العظمى

twitter @baghdad_library

وللاتحاد السوفييتي، وكان واثقًا أن هذا ما سيحدث لأمريكا. ولكن لم يكن إعلان الحرب عليها والهجوم على سفارتيها ثم تفجير المدمرة كول كافيًا لاستفزاز الولايات المتحدة الأمريكية لشن هجوم انتقامي شامل، ومن ثم، فقد كان عليه القيام بشيء ما يصل بسببه غضب أمريكا إلى منتهاه.

وهنا يتوقف المرء ليسأل: هل كان من الممكن أن تحدث هجمات ١١ سبتمبر/أيلول أو أية مأساة أخرى مماثلة دون وجود بن لادن لإشعال فتيلها؟ بالطبع لا. لقد كان التاريخ بالفعل في طريقه لبدء حقبة من الصراع بين الغرب والعالم العربي الإسلامي، ولكن رؤية بعض الأشخاص وجاذبيتهم هي التي حددت طبيعة هذا الصراع. فقد كان من الممكن أن تنهض الحركة السلفية العالمية بدون كتابات سيد قطب أو دعوة عبد الله عزام للجهاد، ولكن بدونهما ما كانت القاعدة لتولد. لقد اعتمد تنظيم القاعدة على اقتران فريد من نوعه بين بعض الشخصيات، ولا سيما المصريين: أيمن الظواهري وأبي عبيدة وسيف العدل وأبي حفص، الذين ظهر جليًّا على كل منهم اعتناقه لمبادئ سيد قطب الذي اعتبروه أباهم الفكري. ولكن بدون بن لادن، لم يكن هؤلاء المصريون شيئًا سوى جماعة الجهاد بهدفها المحدود. وفي الوقت الذي ظهرت فيه العديد من الحركات الإسلامية التي تركز جميعها على أهداف قومية فقط، كانت رؤية بن لادن هي إنشاء فيلق للجهاد العالمي. وكانت قيادة بن لادن هي التي أبقت صفوف التنظيم موحدة بعد أن تعرض للإفلاس والنفي، وكانت صلابة بن لادن هي ما جعلته يصم أذنيه عن الخلافات التي ظهرت حول أخلاقية قتل أعداد كبيرة من الناس، وهي ما جعلته لا يبالي بالفشل المتكرر الذي يمكن أن يدمر أحلام الكثير من الرجال. وجميع هذه الصفات يمكن أن تُنسَب إلى قائد يدافع عن عقيدة راسخة بداخله أو شخص فقد صوابه. ولم يخل الأمر برمته أيضًا من حس فني، ليس فقط في تحقيق التأثير الدرامي المثير لعملياته، ولكن أيضًا في إطلاق العنان لخيال رجاله الذين كان يسلبهم حياتهم.

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع عشر

العرس الكبير

لم تكن الاحتفالات الاجتماعية أمرًا شائعًا في مجتمع القاعدة، ولكن بن لادن كان مبتهجًا ويريد الاحتفال، لذا فقد رتب لعقد قران ابنه محمد ذي السبعة عشر عامًا على خديجة بنت أبي حفص ذات الأربعة عشر عامًا. كانت خديجة فتاة هادئة وغير متعلمة، وتساءلت النساء من حولها عما يمكن أن تتحدث عنه مع محمد. وأشفقن عليها من المفاجأة التي تنتظرها في ليلة زفافها وهي لا تعرف شيئًا عن العلاقة الزوجية؛ إذ كان من النادر مناقشة الأمور الجنسية، ولا سيما مع الأطفال.

وبهذه المناسبة، خصص بن لادن قاعة كبيرة كانت فيما مضى دار عرض سينمائية في أطراف مدينة قندهار كانت طالبان قد أفرغتها من محتوياتها، لاستيعاب الخمسمائة رجل المدعوين للحفل. (وكانت النساء في جناح منفصل مع العروس الصغيرة.) وبدأ بن لادن الاحتفال بإلقاء قصيدة شعرية طويلة، واعتذر للحضور أن تلك الأبيات لم تكن من تأليفه هو ولكن من تأليف مساعده الذي يكتب له الأحاديث والخطب، وقال في تواضع: «إني، كما يعرف الكثير من إخواننا، لست بارعًا في حرب الكلمات.» وقد تضمنت القصيدة إشارة إلى تفجير المدمرة كول حيث تقول:

مدمرة يخشى أولو البأس بأسها/تزيدك رعبًا حين ترسو وتبحر
تشق عباب البحر يحدو مسيرها/غرور وزهو واقتدار مزور
إلى حتفها تسعى حثيثًا بظلفها/بوهم كبير كاذب تتدثر
إلى زورق يلهو به الموج يختفي/مع الموج حينًا ثم يبدو ويظهر

كانت هناك كاميرتان تليفزيونيتان تسجلان الاحتفال، ولكن لم تَرُق النتيجة لبن لادن، ولأنه كان يعلم أن القصيدة ستذاع على القنوات الفضائية العربية وشريط الفيديو الذي تصدره القاعدة للتجنيد، فقد أمر بإعادة إعداد الكاميرتين مرة أخرى

في الصباح التالي لتسجيل إلقاء القصيدة مرة أخرى، حتى إنه جعل بعض المؤيدين يقفون أمامه كي يهتفوا له بعبارات المديح كما لو أن هناك المئات في القاعة وليس عدد قليل للغاية من الصحفيين والمصورين. وقد وصل اهتمامه بصوره التي تستخدم في الدعاية إلى حد أنه طلب من أحد الصحفيين الذي التقط له صورة بكاميرا رقمية أن يلتقط له صورة أخرى لأن رقبته في الصورة الأولى تبدو «ممتلئة جدًّا»، وقد صبغ بن لادن لحيته لتغطية الخطوط البيضاء التي بدأ المشيب يخطها فيها، ولكنه لم يستطع أن يخفي الهالات السوداء أسفل عينيه التي كانت تدل على القلق وليالي الأرق اللذين أصبحا رفيقيه الدائمين.

وألقى حمزة، ولد بن لادن الوحيد من زوجته المفضلة الذي يبلغ من العمر اثني عشر عامًا، قصيدة في حفل الزفاف. وكان حمزة قد ورث وجه أبيه النحيف ولكن له رموش سوداء طويلة وكان يرتدي عمامة بيضاء وسترة مموهة. وتساءل الصبي برصانة ورباطة جأش مثيرة للإعجاب: «ما الإثم الذي اقترفناه كي نُجبَر على ترك بلادنا؟ إننا سنحارب الكفار إلى الأبد.» فتجاوب معه الرجال بصيحات التكبير المدوية «الله أكبر»، ثم بدءوا ينشدون:

ثايرين رجالنا، ثايرين رجالنا
ما بتعود ديارنا
وما بيمسح عارنا
إلا الدم وها النار
ثوري ثوري
ثوري ثوري

وبعد صلاة العصر، قُدِّم الطعام الذي يتكون من لحم وأرز وصلصة. وكان ذلك تبذيرًا نادرًا ما يلجأ إليه بن لادن، إلا أن بعض الحضور رأوا أن الطعام كان بدائيًّا، ولاحظ زوج والدته أن هناك ما يشبه الدودة يتلوى داخل كوب الماء الخاص به. أخذ الضيوف يحثون العريس الصغير على تناول طعامه وهم يقشرون له البرتقال قائلين: «كُل جيدًا» ويقولون لبعضهم: «أمامه ليلة طويلة!» ولاحظوا مدى تشابه ابتسامته الخجولة وابتسامة والده. وأخذ الضيوف يرقصون وينشدون المزيد من الأغاني ويرفعون الصبي إلى أعلى وهم يهتفون ويهللون، ثم زفوه إلى سيارة أقلته إلى المجمع السكني الذي تقطن فيه العائلة ليبدأ حياته الزوجية.

twitter @baghdad_library

بعد شهور قليلة من تولي الرئيس جورج دبليو. بوش George W. Bush منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، قابل ريتشارد كلارك مستشارة الأمن القومي للحكومة الجديدة كونداليزا رايس Condoleezza Rice، وطلب منها أن تعيده إلى منصبه مرة أخرى. ومنذ اللحظات الأولى لتولي الإدارة الجديدة، كان من الواضح أن الإرهاب يأتي في نهاية قائمة أولوياتها. وعندما أطلع كلارك للمرة الأولى مستشارة الأمن القومي على التهديد الذي يمثله بن لادن وتنظيمه على أمن الولايات المتحدة، وكان ذلك في شهر يناير/كانون الثاني، أعطته رايس انطباعًا أنها لم تسمع اسم القاعدة هذا من قبل. وقامت بعد ذلك بتخفيض درجته الوظيفية من المنسق القومي لمكافحة الإرهاب فأصبح مسئولًا أمام النواب وليس الرؤساء مباشرة. وقد عرض عليها كلارك استراتيجيته القائمة على مساعدة أحمد شاه مسعود والتحالف الشمالي في حربهم ضد حركة طالبان وتنظيم القاعدة، ولكن رايس اعترضت قائلة: إن الإدارة بحاجة إلى استراتيجية شاملة تتضمن المعارضين الآخرين لحركة طالبان من قبائل البشتون. ولكن التخطيط لهذه الاستراتيجية الجديدة استمر لشهور، دون نتيجة تذكر. ولم يرق الوضع لكلارك، فقال ساخرًا لرايس ونائبها ستيفن هادلي Stephen Hadley: «ربما تحتاجون إلى شخص لا تسيطر عليه هذه الهواجس.» ولكنهما لم يفهما سخريته وتفاجآ وطلبا منه أن يبقى حتى شهر أكتوبر/تشرين الأول وأن يجد في غضون ذلك الوقت «شخصًا مثله» لتولي منصبه.

فأجاب كلارك: «هناك شخص واحد فقط يناسب هذا المنصب.»

رأى أونيل أن منصب كلارك يناسبه تمامًا، وقد جاء العرض في الوقت الذي بدأ ييأس فيه من رد فعل الحكومة المضطرب في التعامل مع الإرهاب، ويشعر بالإحباط إزاء مستقبله المهني. لقد كان أونيل يحلم دائمًا إما بأن يصبح نائب مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي في واشنطن أو أن يتولى إدارة مكتب نيويورك، وكان فريه سيتقاعد في شهر يونيو/حزيران، ومن ثم سيكون هناك فراغ في المناصب العليا، ولكن التحقيق في حادثة سرقة حقيبته الخاصة سيقف على الأرجح حجر عثرة في طريق أية ترقيه له في المكتب. أما إذا أصبح قيصر الحكومة الجديد لمكافحة الإرهاب، فسيتمكن من تبرئة وحماية نفسه. ولا بد من أنه قد استمتع كثيرًا بفكرة أن يكون كل من مكتب التحقيقات الفيدرالي والمخابرات الأمريكية مسئولين أمامه.

ومن ناحية أخرى، كان أونيل يعاني ضائقة مالية، وفي البيت الأبيض سيظل راتبه كما هو في مكتب التحقيقات. في الواقع، لقد كان تحقيق وزارة العدل ضربة

قاصمة له؛ فبالإضافة إلى ديونه الأخرى، أصبح يدين لمحاميه بثمانين ألف دولار، أي أكثر مما يتقاضاه هو في عام كامل.

وطوال الصيف، ظل كلارك يغري أونيل الذي كان يتعذب بشدة، ولكنه رفض أن يتعهد أمامه بشيء. وقد ناقش العرض مع عدد من أصدقائه ثم ساوره قلق من أن يسمع المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي بالأمر. فاتصل بكلارك وهو يشعر بقلق شديد وأخبره أن المخابرات الأمريكية تعرف أنه مرشح للمنصب، وناشده قائلًا: «يجب أن تخبرهم أن هذا الأمر ليس صحيحًا.» فقد كان واثقًا أنه إذا علمت المخابرات بهذا، فستصل المعلومات ولا ريب إلى مكتب التحقيقات. وبالفعل اتصل كلارك بأحد أصدقائه في المخابرات الأمريكية، وفي أثناء حديثهما أخبره، وكأن الفكرة واتته عرضًا، أنه يبحث عن بعض الأشخاص الذين يصلحون أن يحلوا مكانه لأن أونيل قد رفض العرض، مع أن الأخير كان لا يزال يريد أن يظل مرشحًا للمنصب. وقد تحدث أونيل مع ماون بشأن ذلك العرض قائلًا: إنه فضل أن يخبره بنفسه بدلًا من أن يصل إليه الخبر من مصادره السرية، ولكنه أخبر ماون بوضوح أنه ليس مهتمًّا على الإطلاق بذلك المنصب.

كان من الممكن أن تكون النقود عائقًا، ولكن أونيل، الذي أصبح محنكًا في الحروب البيروقراطية الداخلية، أدرك أيضًا مدى القسوة والوحشية التي ستقابل بها بعض الشخصيات القوية في واشنطن خبر منصبه الجديد. لقد كان عرض كلارك مغريًا، ولكنه محفوف بالمخاطر أيضًا.

ظل الظواهري لسنوات يحارب عناصر جماعة الجهاد التي تعارض علاقته ببن لادن. وكان لا يدخر جهدًا في إبداء ازدرائه لأعضاء الجماعة الذين ينتقدونه وهم يعيشون حياة الرفاهية في أوروبا، وقد أطلق عليهم «المناضلين الثائرين الذين كانت دماؤهم تغلي كالمراجل ثم أصبحت باردة كالجليد بعد أن عاشوا الحضارة والمدنية وصنوف الرفاهية». وتزايد عدد حلفائه السابقين، الذين أرهقتهم النكسات التي تعرضوا لها لسنوات وأوهنت عزيمتهم، الذين أصبحوا يؤيدون مبادرة وقف إطلاق النار من جانب واحد التي أعلنها القادة الإسلاميون في السجون المصرية. والبعض الآخر لم يعد يحتمل ظروف المعيشة البدائية في أفغانستان. ولكن حتى في الوقت الذي كانت فيه الجماعة تنهار، رفض الظواهري مجرد فكرة التفاوض مع الحكومة المصرية أو مع الغرب.

twitter @baghdad_library

وفي لحظة غضب، أعلن الظواهري بالفعل استقالته من منصب أمير جماعة الجهاد، ولكن بدون قيادته، أصبحت جماعة الجهاد في مهب الريح. وبعد عدة شهور، تنحى خلفه عن المنصب، وعاد الظواهري مرة أخرى ليتولى دفة القيادة. وعلى أية حال، فقد كان عدد أعضاء الجماعة خارج مصر آنذاك، طبقًا لشهادة بعض الأشخاص في أثناء محاكمة أعضاء خلية ألبانيا، أربعين عضوًا فقط، أما داخل مصر فقد استئصلت شأفة الحركة تمامًا. لقد كانت جماعة الجهاد تحتضر ومعها الحلم الذي كان يداعب ذهن الظواهري منذ أن كان مراهقًا، وفي نظره، فقد ضاعت مصر من يديه.

لفظت جماعة الجهاد آخر أنفاسها في يونيو/حزيران من عام ٢٠٠١م عندما ابتلعها تنظيم القاعدة مكونًا الكيان الجديد الذي أطلق عليه قاعدة الجهاد. وقد عكس الاسم الجديد للمنظمة حقيقة أن المصريين لا يزالون يشكلون القيادة العليا للتنظيم، وبالفعل لم يكن بمجلس القيادة الذي يتكون من تسعة أعضاء سوى ثلاثة من غير المصريين. ولكنه، مع ذلك، كان تنظيم بن لادن وليس الظواهري.

وبطبيعة الحال، كانت سيطرة المصريين على التنظيم محلًّا للخلاف، لا سيما بين الأعضاء السعوديين من تنظيم القاعدة. وقد حاول بن لادن أن يهدئ الأعضاء المستائين قائلًا: إنه بإمكانه دائمًا الاعتماد على المصريين لأنهم لا يستطيعون العودة إلى ديارهم دون أن يعتقلوا؛ فقد كانوا مثله رجالًا بلا وطن.

عهد بن لادن إلى الظواهري والمصريين بمهمة اغتيال أحمد شاه مسعود؛ فقد كان قائد التحالف الشمالي يمثل القوة الحقيقية الوحيدة التي تمنع طالبان من إحكام قبضتها على أفغانستان. وكان مسعود، القائد الجريء نحيل الجسد، داهية حربيًا محنكًا، وكان مستعدًّا لأن يباري طالبان في القسوة والوحشية. ونظرًا لأن طالبان قد تحالفت مع القاعدة، فقد رأى ريتشارد كلارك وآخرون أن مسعودًا هو الفرصة الأخيرة للتوصل إلى حل أفغاني لمشكلة بن لادن.

بدا مسعود متحمسًا بشدة لهذه الشراكة، وكان هو نفسه إسلاميًّا ملتزمًا ترتدي زوجته البرقع، وقد ارتكبت قواته أكثر من مذبحة. وعلى غرار منافسيه، كان على الأرجح ينفق على قواته من تجارة الأفيون. ولكنه اختلف عنهم في أنه كان يعرف مبادئ اللغة الفرنسية التي تعلمها في المدرسة الثانوية في كابول، وكان مشهورًا بحبه للشعر الفارسي مما جعله يبدو بديلًا أكثر تحضرًا لطالبان التي اكتسح سفاحوها متحف كابول في شهر فبراير/شباط وبأيديهم مطارق ضخمة ليسحقوا التراث الفني

للبلد. ثم في شهر مارس/آذار، استخدموا الدبابات والأسلحة المضادة للطائرات في إقليم باميان لتدمير تمثالين ضخمين لبوذا ظلا يلقيان بظلالهما على طريق الحرير القديم لمدة ألف وخمسمائة عام. وبقدر ما كانت مكانة طالبان تتراجع في نظر العالم، كانت مكانة مسعود ترتفع.

وكدليل على منزلة مسعود العالمية المتزايدة، فقد ألقى خطابًا أمام البرلمان الأوروبي في ستراسبورج في فرنسا في أبريل/نيسان عام ٢٠٠١م. وتحدث عن الخطر الذي تمثله القاعدة على العالم، وأخبر مسئولين أمريكيين أيضًا أنه قد نمى إلى علم جهاز المخابرات الخاص به أن القاعدة تعتزم تنفيذ عملية إرهابية ضد الولايات المتحدة، ستكون أضخم بكثير من عملية تفجير السفارتين الأمريكيتين في شرق أفريقيا.

وفي يوليو/تموز، كتب الظواهري خطابًا بلغة فرنسية ركيكة يزعم أنه من مركز المراقبة الإسلامي في لندن، وطلب فيه تصريحًا لصحفيَّين للقاء مسعود. وقد تبع ذلك الخطاب تزكية شخصية من عبد الرسول سياف، وبالفعل حصلا على التصريح.

في الواقع، لم تتلق الولايات المتحدة تحذيرات من مسعود فقط، فبالإضافة إلى بعض الثرثرة الضاحكة التي تلتقطها وكالة الأمن القومي وتتحدث عن هجوم كبير («مذهل» «هيروشيما أخرى») في مرحلة الإعداد، فقد أصدرت بعض أجهزة المخابرات العربية، التي لديها مصادر بشرية أفضل، تحذيرات مخيفة. وقد حذر الرئيس المصري حسني مبارك الولايات المتحدة من أن الإرهابيين يخططون لمهاجمة الرئيس جورج بوش في روما «باستخدام طائرة مليئة بالمتفجرات» وهو في طريقه لحضور قمة الدول الصناعية الثماني في مدينة جنوة في إيطاليا في شهر يوليو/تموز من ذلك العام. وقد نصبت السلطات الإيطالية منصات لإطلاق الصواريخ المضادة للطائرات لمنع ذلك الهجوم.

وأفصح وزير خارجية طالبان وكيل أحمد متوكل سرًّا للقنصل الأمريكي العام في بيشاور وللأمم المتحدة في كابول أن القاعدة تخطط لضربة مدمرة للولايات المتحدة الأمريكية، إذ كان يخشى أن يدمر الانتقام الأمريكي بلده تمامًا. وفي الوقت نفسه تقريبًا، سمعت المخابرات الأردنية صدفة اسم العملية التي تتحدث عنها الشائعات وهو «العرس الكبير»، ونقلت المعلومات إلى واشنطن. وقد استوحي اسم العملية من حقيقة أنه في ثقافة الانتحاريين، يكون يوم موت الشهيد هو يوم عرسه الذي تستقبله فيه الحور العين في الجنة.

twitter @baghdad_library

قرر بن لادن أن يتزوج مرة أخرى، هذه المرة فتاة يمنية في الخامسة عشرة من عمرها اسمها أمل السادة. وقد سافر أحد حراس بن لادن إلى مدينة إب الجبلية لكي يدفع خمسة آلاف دولار مهرًا للعروس. وكما يقول أبو جندل فقد كانت حفلة العرس رائعة، ويقول: «وامتزجت فيها الأناشيد والأهازيج الحماسية بأصوات الرصاص.»

ومع أن الزواج كان يبدو اتفاقًا سياسيًّا بين بن لادن وقبيلة يمنية مهمة، الهدف منه زيادة نشاط القاعدة في تجنيد اليمنيين، فقد غضبت زوجات بن لادن الأخريات ونهرته والدته. وواجه اثنان من أولاده وهما محمد وعثمان أبا جندل بغضب وسألاه: «لماذا تحضر لوالدنا عروسًا في مثل عمرنا؟» فأجاب أبو جندل بأنه لم يكن يعرف أصلًا أن النقود التي أخذها إلى اليمن كانت مهرًا لعروس، لقد اعتقد أنها من أجل عملية استشهادية جديدة.

وفي ذلك الوقت تقريبًا، قررت نجوى، زوجة بن لادن الأولى، أن تتركه وتعود إلى سوريا بعد أن استمر زواجهما لسبعة وعشرين عامًا وبعد أن أنجبت له أحد عشر طفلًا، مصطحبة بناتها وابنها المعاق عبد الرحمن. فالرجل الذي تزوجته لم يكن مجاهدًا أو إرهابيًّا عالميًا، بل كان مراهقًا سعوديًّا ثريًّا. ومن المحتمل أنها قد توقعت أن تكون حياتها معه، على أقل تقدير، حياة ثراء ورفاهية وسفر وحياة اجتماعية؛ أي حياة سهلة ومريحة تصبح أكثر رخاء في ظل وجود حاشية من الخدم ومنزل على الشاطئ ويخت وربما شقة في باريس. ولكنها بدلًا من ذلك وجدت نفسها تعيش حياة مليئة بالحرمان وتنتقل هاربة من مكان لآخر وتسكن في أماكن قذرة. لقد ضحت بالكثير، ولكنها أصبحت حرة.

في التاسع والعشرين من مايو/أيار عام ٢٠٠١م، أدانت هيئة المحلفين في محكمة فيدرالية في مانهاتن أربعة رجال في تفجيري السفارتين الأمريكيتين في شرق أفريقيا. ولقد كان ذلك تتويجًا لسجل مثالي يتكون من خمسة وعشرين جريمة إرهابية أثبتها مكتب المدعي العام للمنطقة الجنوبية من نيويورك برئاسة ماري جو وايت ومساعديها كينيث كاراس وباتريك فيتزجيرالد. وقد بدأ النضال ضد الإرهابيين الإسلاميين في عام ١٩٩٣م مع تفجير مركز التجارة العالمي للمرة الأولى. وبعد ثماني سنوات، كانت تلك الاتهامات عمليًّا هي الانتصار الوحيد الذي تستطيع أمريكا أن تشير إليه، وجاء ذلك النجاح نتيجة العمل الدءوب لمكتب التحقيقات الفيدرالي في نيويورك في تحقيقاتهم، لا سيما الفرقة I-49.

حضر أونيل الجلسات الختامية من المحاكمة، وبعد النطق بالحكم انتحى بستيفن جودين جانبًا، وكان جودين هو العميل الذي روَّض محمد العوهلي الذي تحققت أمنيته بأن يحاكم في أمريكا. أحاط أونيل جودين بذراعه وأخبره أن لديه هدية له وقال له: «سأرسلك إلى مدرسة للغات في فيرمونت، ستتعلم اللغة العربية.»

أصابت الفكرة جودين بدوار، فاستأنف أونيل قائلًا: «إنك تعلم جيدًا أن هذه المعركة لم تنتهِ، هل تتذكر ما قاله لك العوهلي؟ لقد قال: «علينا أن نضربكم في الخارج حتى لا تنتبهوا إلينا ونحن نتسلل إلى الداخل.»

كان أونيل يعلم جيدًا أن أسلوب توجيه اتهامات للمشتبه بهم ومعاقبتهم، ما هو إلا أسلوب واحد من أساليب التعامل مع الإرهاب، ويعلم أيضًا أن به قصورًا، خاصة عندما يكون العدو شبكة أجنبية معقدة تتألف من رجال محترفين ومتحمسين يدافعون عن أفكارهم ومستعدين للموت. ولكن عندما قال له ريتشارد كلارك في أثناء حملة اعتقالات الألفية: «سنقتل بن لادن»، لم يشأ أونيل سماع المزيد عن الأمر. ومع أن القاعدة كانت تمثل تحديًّا للسلطات المسئولة عن تطبيق القانون أكبر من تحدي المافيا أو أية منظمة إجرامية أخرى، فإن البدائل الأخرى، مثل الضربات العسكرية ومحاولات المخابرات الأمريكية لاغتياله، لم تؤدِّ إلى شيء سوى أنها رفعت من شأن بن لادن في عيون معجبيه. ومن ناحية أخرى، كانت هذه الاتهامات الخمسة والعشرون إنجازات حقيقية وفي إطار شرعي توضح مصداقية وأمانة القضاء الأمريكي. ولكن التنافس المحتدم بين الجهات الحكومية وغياب الإحساس بمدى خطورة وأهمية الموقف داخل المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي، وقفا حجر عثرة في طريق عمل الفرقة I-49 في نيويورك التي لم تكن تعلم بوجود خطر محدق كان، كما اتضح بعد ذلك، داخل أرضها بالفعل.

وفيما كانت محاكمة مرتكبي تفجيرات السفارتين تقترب من نهايتها، كان تقريبًا التسعة عشر عضوًا الذين سيتولون اختطاف الطائرات التي ستنفذ عملية ١١ سبتمبر/أيلول قد استقروا بالفعل في الولايات المتحدة. وفي ذلك الوقت تقريبًا، كان توم ويلشاير، ممثل وكالة الاستخبارات الأمريكية في قسم الإرهاب الدولي التابع لمكتب التحقيقات ومقره في المقر الرئيسي للمكتب، يدرس العلاقة بين خالد المحضار وخلاد، العقل المدبر ذو الساق الواحدة الذي يقف وراء تفجيرات المدمرة كول. فقد اعتقدت المخابرات الأمريكية، نظرًا لتشابه الأسماء أنهما شخص واحد، ولكن بفضل تحقيقات علي صوفان، أدركت المخابرات أن خلادًا جزء من الفريق الأمني لبن لادن.

twitter @baghdad_library

وقد أشار ويلشاير في إحدى رسائله الإليكترونية إلى رؤسائه في مركز مكافحة الإرهاب في المخابرات الأمريكية: «هذا الأمر مهم، إنه قاتل من الدرجة الأولى، دبر الهجوم على المدمرة كول وربما تفجيرات أفريقيا.» وكان ويلشاير يعرف بالفعل أن نوافًا الحازمي داخل الأراضي الأمريكية وأنه هو والمحضار قد سافرا مع خلاد. واكتشف أيضًا أن المحضار لديه تأشيرة لدخول الولايات المتحدة، فتوصل من هذا أنه «لا بد أن هناك شيئًا سيئًا قيد الإعداد.» وطلب تصريحًا بنقل هذه المعلومات المهمة لمكتب التحقيقات الفيدرالي، ولكن الوكالة لم تجب على طلبه قط.

وفي ذلك الصيف، طلب ويلشاير أن تقوم مارجريت جيليسبي Margarette Gillespie، محللة مكتب التحقيقات الفيدرالي التي كُلفت العمل في مركز مكافحة الإرهاب التابع للمخابرات، بمراجعة المعلومات المتعلقة باجتماع ماليزيا في «وقت فراغها». ولكنها لم تتمكن من الاطلاع عليها سوى في آخر شهر يوليو/تموز، ولم يكشف لها مشرف المخابرات احتمال أن يكون بعض المشاركين في الاجتماع داخل الولايات المتحدة. وفي الواقع، فإنه لم يشر بأية طريقة إلى مدى خطورة وأهمية الأمر كما فعل في رسالته السابقة، مع أنه كان مطلعًا على التقارير التي تشير إلى أن القاعدة كانت تخطط لعملية «بقوة هيروشيما» داخل الولايات المتحدة.

كان ويلشاير يريد بشدة أن يعرف ما لدى مكتب التحقيقات من معلومات. فمنح دينا كورسي Dina Corsi، وهي محللة فيدرالية أخرى تعمل في المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات، ثلاث صور استطلاعية من اجتماع ماليزيا يظهر فيها المحضار والحازمي وشخص ثالث يشبه القصع كي تعرضها على العديد من عملاء الفرقة I-49. ولم يخبر ويلشاير كورسي سبب التقاط تلك الصور، ولكنه أخبرها أن أحد هؤلاء الرجال اسمه خالد المحضار. وفي الوقت نفسه، بحثت مارجريت جيليسبي في قاعدة البيانات الداخلية بين الأوساط الاستخباراتية عن لقاء ماليزيا، ولكن الوكالة لم تضع أية تقارير عن تأشيرة المحضار أو وصول الحازمي إلى البلاد في قاعدة البيانات. كانت هناك تغطية من قِبل وكالة الأمن القومي للأحداث التي أدت إلى عقد اجتماع ماليزيا، ولكنها اكتشفت في قاعدة البيانات أن تلك المعلومات لا يمكن مشاركتها مع المحققين في القسم الجنائي. وفي الحادي عشر من يونيو/حزيران، ذهب كلارك شانون Clark Shannon، وهو مشرف آخر في المخابرات الأمريكية، بالإضافة إلى مارجريت جيليسبي ودينا كورسي إلى نيويورك للتحدث إلى العملاء المسئولين عن تحقيقات المدمرة كول، فيما عدا صوفان الذي كان خارج البلاد. بدأ

الاجتماع في الصباح وفريق عملاء مكتب نيويورك يطلعون زملاءهم الآخرين بدقة على تقدم تحقيقاتهم. وقد استمر ذلك قرابة ثلاث أو أربع ساعات، وأخيرًا في الساعة الثانية بعد الظهر تقريبًا، طلب المشرف في المخابرات إلى كورسي أن تعرض الصور على زملائها. وكان هناك ثلاث صور استطلاعية واضحة؛ واحدة التقطت من زاوية منخفضة توضح المحضار والحازمي يقفان إلى جانب شجرة، وأراد المشرف أن يعرف ما إذا كان العملاء تعرفوا على أي ممن يظهرون في الصورة، وما إذا كان القصع يظهر في أي منها.

سأل عملاء مكتب التحقيقات من الفرقة I-49 عمن يظهرون في الصور وأين ومتى التقطت تلك الصور، وقد سأل أحد العملاء أيضًا: «هل هناك صور أخرى؟» ولكن شانون رفض الإجابة. فوعدتهم كورسي أنها ستحاول «في الأيام والأسابيع القادمة» الحصول على تصريح لنقل هذه المعلومات إليهم. وعند هذه النقطة، احتدم النقاش بينهم وبدأ الحاضرون يصرخ بعضهم في وجوه بعض؛ فقد كان عملاء مكتب التحقيقات يعرفون أن مفتاح لغز القضية التي يعملون على حلها يتدلى أمام أعينهم ولكنهم لا يستطيعون استخلاص المزيد من المعلومات من شانون أو من محللي مكتب التحقيقات، فيما عدا معلومة واحدة من كورسي وهي اسم خالد المحضار.

طلب ستيفن بونجاردت Steven Bongardt، طيار سابق في البحرية تخرج من كلية أنابوليس وعضو في الفرقة I-49، إلى شانون أن يمدهم بتاريخ ميلاد المحضار أو رقم جواز سفره، فالاسم وحده ليس كافيًا لمنع دخوله إلى الولايات المتحدة. وكان بونجاردت قد عاد لتوه من باكستان ومعه قائمة تحوي اسم ثلاثين شخصًا وتواريخ ميلادهم يشتبه في ارتباطهم بالقاعدة، وقد أعطى تلك القائمة لوزارة الخارجية كإجراء وقائي للتأكد من أنهم لم يدخلوا الولايات المتحدة. وقد كان ذلك إجراءً طبيعيًا وهو أول ما كان سيفعله معظم المحققين، ولكن مشرف المخابرات رفض أن يمدهم بهذه المعلومة الإضافية.

يمكن أن يتخيل المرء اجتماعًا مختلفًا يخول فيه لمشرف المخابرات سلطة الإفصاح عن التفاصيل المهمة الخاصة برحلة المحضار إلى الولايات المتحدة، وعلاقته برقم الهاتف في اليمن الذي كان مركز استقبال مكالمات القاعدة، وعلاقته بالحازمي الذي كان في أمريكا أيضًا، وعلاقة الاثنين بالقاعدة وبخلاد. فالصور التي بسطت على مائدة الاجتماعات أمام محققي مكتب نيويورك لم تكن تحتوي فقط على إجابات

twitter @baghdad_library

عن التخطيط للهجوم على المدمرة كول، ولكن أيضًا على حقيقة ساطعة كالشمس وهي أن القاعدة موجودة بالفعل داخل الولايات المتحدة وتخطط لتوجيه ضربة لها.

وعلى أية حال، كانت هناك صورة رابعة عن اجتماع ماليزيا لم يظهرها مشرف المخابرات الأمريكية. لقد كانت صورة خلاد، وبالطبع كان المحققون في قضية المدمرة كول يعرفون من هو، ولديهم ملف مفتوح عنه وتحدثوا بالفعل إلى هيئة محلفين كبرى إعدادًا لتوجيه اتهامات له. وكانت تلك الصورة الرابعة كفيلة بأن تدفع أونيل لأن يذهب إلى ماري مارجريت جراهام Mary Margaret Graham، رئيسة مكتب المخابرات في نيويورك الذي يقع في مركز التجارة العالمي، ويطلب منها أن تنقل له الوكالة جميع المعلومات عن خلاد والأشخاص المرتبطين به. ولكن عندما حجبت المخابرات صورة خلاد وهو يقف بالقرب من الرجال الذين سيختطفون الطائرات، أعاقت تحقيقات مكتب التحقيقات في قضية المدمرة كول وسمحت لمخطط هجمات ١١ سبتمبر/أيلول أن يستمر.

وفي ذلك الوقت، كان المحضار قد عاد إلى اليمن ثم ذهب إلى المملكة العربية السعودية حيث كان على الأرجح يحشد باقي منفذي العملية للذهاب إلى الولايات المتحدة. وبعد يومين من الاجتماع المخيب للآمال بين مشرف المخابرات والفرقة I-49، تسلم المحضار تأشيرة أمريكية جديدة من القنصلية في جدة. ونظرًا لأن المخابرات لم تعط وزارة الخارجية اسم المحضار لتضعه على قائمة المراقبة، فقد وصل المحضار إلى نيويورك في الرابع من يوليو/تموز!

لقد كان اجتماع الحادي عشر من يونيو/حزيران ذروة الاتجاه الغريب في الحكومة الأمريكية لحجب المعلومات عن الجهات التي في أمس الحاجة إليها. وفي الواقع، دائمًا ما كانت هناك بعض الحواجز القانونية التي تعوق مشاركة المعلومات، فطبقًا للقانون، الفقرة الخامسة من القاعدة السادسة من القواعد الفيدرالية للإجراءات الجنائية، فإن المعلومات التي تظهر في أثناء الشهادة أمام هيئة محلفين كبرى تكون سرية. وقد استخدم مكتب التحقيقات هذا القانون كما لو أنه حظر تام على كشف أية معلومات توصل إليها من تحقيقاته على الإطلاق. وفي كل صباح، يصل على الأقل مائة تقرير إلى كمبيوتر ريتشارد كلارك السري من كل من وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي والأجهزة الاستخباراتية الأخرى، أما مكتب التحقيقات فلم ينقل مثل تلك المعلومات على الإطلاق. وكانت الفقرة الخامسة من القاعدة السادسة تعني

أيضًا أن العملاء لا يمكنهم التحدث عن القضايا الجنائية مع زملائهم الذين يعملون في المخابرات، حتى إذا كانوا في الفرقة نفسها.

ولكن حتى مدة الرئاسة الثانية لكلينتون، كان من الممكن تداول المعلومات المستمدة من عمليات المخابرات، وخاصة إذا ما كانت ترتبط بجريمة، بحرية مع المحققين في القسم الجنائي، بل في الواقع لقد كان ذلك أساسيًّا. وكان العملاء في مبنى التحقيقات الفيدرالي يصعدون إلى حجرة مؤمنة إلى أقصى درجة حيث يمكنهم قراءة نسخ من وثائق وكالة الأمن القومي ويحصلون على تقارير موجزة من ممثلين عن المخابرات الأمريكية يعملون هناك. وقد ساعد ذلك التعاون، على سبيل المثال، في إدانة الشيخ عمر عبد الرحمن حيث أثبتت أجهزة التنصت التي وضعت في شقته في أثناء عملية جمع المعلومات أنه قد منح أتباعه سلطة تنفيذ تفجيرات إرهابية في نيويورك. ولكن كانت هناك دائمًا مخاوف من أن تتعرض عمليات المخابرات للخطر بإفشاء بعض المعلومات الحساسة في أثناء المحاكمة.

لذا أعلنت وزارة العدل سياسة جديدة عام ١٩٩٥م معدة بحيث تنظم عملية تبادل المعلومات بين العملاء والمدعي العام الجنائي، ولكن ليس بين العملاء وبعضهم. ولكن أساء المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي تفسير تلك السياسة معتبرًا إياها قيدًا على محققيه، فتلقى المحققون تحذيرات مشددة أن مشاركة المعلومات مع المحققين في القسم الجنائي قد تعني إنهاء الحياة المهنية للعميل. وأصبحت محكمة سرية في واشنطن تأسست بموجب قانون مراقبة المخابرات الأجنبية الصادر عام ١٩٧٨م، هي الحَكَم الذي يحدد المعلومات التي يمكن مشاركتها، أو بلغة المحكمة «تعلق على الحائط». لقد سمح الارتباك البيروقراطي والجمود للسياسة أن تخنق تدريجيًّا تدفق المعلومات الأساسية إلى الفرقة I-49 لمكافحة الإرهاب.

رسخت المخابرات ذلك الحاجز الذي يفصلها عن مكتب التحقيقات، وكانت الذريعة التي برر بها مشرف المخابرات في اجتماع الحادي عشر من يونيو/حزيران حجب هويات الرجال الذين يظهرون في الصور هي أنها من الممكن أن تعرض «وسائل ومصادر حساسة» للخطر، في حين أن مصدر المعلومات الاستخباراتية التي توصلوا إليها عن اجتماع ماليزيا هو هاتف أحمد الحدا، العميل الموالي للقاعدة في اليمن الذي يمثل النقطة الأساسية في رسم خريطة شبكة القاعدة. فقد كان هاتف الحدا هو مركز تبادل المعلومات الخاصة بالقاعدة، ومنجمًا ثريًّا للمعلومات لأجهزة المخابرات أيضًا. ومما يدعو للسخرية أن تحقيقات مكتب التحقيقات الفيدرالي في

twitter @baghdad_library

قضية تفجير السفارتين، بقيادة مكتب نيويورك، هي التي توصلت في المقام الأول إلى رقم هاتف الحدا. وبالطبع كانت أية معلومات ترتبط بأسرة الحدا مهمة، وقد علمت المخابرات أن أحد الرجال الذين يظهرون في الصور التي التقطت عن اجتماع ماليزيا، خالدًا المحضار، هو زوج ابنة الحدا، ولكنها حجبت تلك المعلومة المهمة أيضًا عن المكتب.

ولأن وكالة الأمن القومي لم تشأ أن تزعج نفسها بتقديم طلب إلى محكمة قانون مراقبة المخابرات الأجنبية للحصول على تصريح لنقل تلك المعلومات الحيوية، فقد قامت، ببساطة، بحظر نقلها. فعلى سبيل المثال، أجرى المحضار في سان دييجو ثماني مكالمات هاتفية إلى هاتف الحدا ليتحدث إلى زوجته التي كانت قد وضعت لتوها، ولكن وكالة الأمن القومي لم تنقل هذه المعلومات على الإطلاق. وقد كان هناك مخطط توضيحي معلق على جدار الجزء المخصص للفرقة I-49، يوضح العلاقة بين هاتف أحمد الحدا وهواتف أخرى حول العالم؛ أي أنه يقدم خريطة لصلات القاعدة العالمية. ولو كانوا توصلوا إلى المعلومات التي توضح لهم الخط الذي يربط بين منزل الحدا في اليمن وشقة الحازمي والمحضار في سان دييجو، لظهرت حقيقة وجود القاعدة داخل الولايات المتحدة أمام أعينهم جلية كالشمس.

وكانت الفرقة I-49 تتعامل مع تلك القيود بالعديد من الطرق المقدامة والمبتكرة أيضًا. فعندما بدأت وكالة الأمن القومي تحجب عن المكتب وعن المدعين في المنطقة الجنوبية نصوص مكالمات أسامة بن لادن عبر هاتفه المتصل بالأقمار الصناعية التي تعترضها الوكالة، وضعت الفرقة خطة لبناء جهازي هوائي: أحدهما في جزر بالاو النائية في المحيط الهادئ، والآخر في جزيرة دييجو جارسيا في المحيط الهندي كي يلتقطا الإشارات من القمر الصناعي. وحاربت وكالة الأمن القومي تلك الخطة بإظهار ١١٤ نص مكالمة هاتفية كي تمنع خطة البناء، ولكنها أحكمت قبضتها بشدة على النصوص الأخرى. وقامت الفرقة أيضًا بإنشاء كابينة هاتف متصل بالأقمار الصناعية للمكالمات الدولية في قندهار بهدف تقديم وسيلة مناسبة للجهاديين للاتصال بأوطانهم، ولم يمنح ذلك العملاء فرصة الاستماع إلى مكالمتهم فقط، ولكن أيضًا الحصول على لقطات فيديو باستخدام كاميرا مخبأة في الكابينة. وفي مدغشقر، قامت الفرقة I-49 ببناء جهاز هوائي لاعتراض المكالمات الهاتفية التي يجريها خالد شيخ محمد. لقد أنفقت الفرقة الملايين من الدولارات وأضاعت الآلاف من ساعات العمل للحصول على معلومات تمتلكها الحكومة الأمريكية بالفعل ولكنها رفضت أن تشاركها إياها.

وكان عملاء الفرقة I-49 قد اعتادوا رفض طلبهم الاطلاع على المعلومات الاستخباراتية حتى إنهم اشتروا قرصًا مدمجًا مسجلًا عليه أغنية «قالب آخر في الحائط» Another Brick in the wall لفرقة بينك فلويد Pink Floyd، وكلما تلقوا الإجابة نفسها عن «وسائل ومصادر حساسة»، كانوا يضعون سماعة الهاتف أمام مشغل الأقراص المدمجة ويضغطون زر بدء الأغنية.

في الخامس من يوليو/تموز عام ٢٠٠١م، جمع ريتشارد كلارك ممثلين عن العديد من الوكالات المحلية، من بينها إدارة الطيران الاتحادية ودائرة الهجرة والجنسية وحرس السواحل ومكتب التحقيقات الفيدرالي وكذلك الجهاز السري المنوط به حماية الرئيس الأمريكي، لتحذيرهم، فقال لهم: «هناك شيء رهيب سيحدث هنا، وسيحدث قريبًا للغاية.»

وفي اليوم نفسه، وصل جون أونيل وفاليري جيمس إلى أسبانيا حيث تلقى أونيل دعوة لإلقاء خطاب أمام الشرطة الأسبانية. فقرر أونيل أن يأخذ عطلة لعدة أيام ليقرر ماذا سيفعل في حياته. ومع أن وزارة العدل قد أوقفت التحقيق في حادثة حقيبته الخاصة، فقد كان المكتب يجري تحقيقًا داخليًا — الأمر الذي جعل أونيل لا يزال يقع تحت ضغط. وفي الوقت نفسه، نمى إلى علمه أن صحيفة نيويورك تايمز كانت تعد قصة عن الحادث، ولم يعرف الصحفيون بأمر المستندات السرية في الحقيبة فقط، بل علموا أيضًا بشأن الحادثة السابقة مع فاليري في مرأب المنزل الآمن وبشأن ديون أونيل الشخصية. وقد تسربت تلك المعلومات إليهم عن طريق مصدر في مكتب التحقيقات أو في وزارة العدل، بالإضافة إلى تفاصيل حساسة للغاية عن الميزانية التي كان أونيل يعدها. أي أن أحدهم قد منح المعلومات التي جعلت وزارة العدل ومكتب التحقيقات يحققان مع أونيل إلى الصحفيين لتقويض حياته المهنية أكثر. وقد بدا أن الهدف من توقيت تسريب هذه المعلومات هو تدمير فرصة أونيل في الحصول على منصب كلارك في مجلس الأمن القومي، الأمر الذي أصبح في ذلك الوقت سرًّا يعرفه الجميع.

قبل السفر إلى أسبانيا، قابل أونيل لاري سيلفرشتاين Larry Silverstein، رئيس شركة سيلفرشتاين للعقارات التي تولت حديثًا إدارة مركز التجارة العالمي. وقد عرض سيلفرشتاين على أونيل منصب رئيس الأمن مقابل أكثر من ضعف الراتب الذي يتقاضاه من الحكومة، ولكن أونيل لم يعده بقبول العرض. وكان قد أخبر

twitter @baghdad_library

باري ماون أنه لا يريد الاستقالة من مكتب التحقيقات الفيدرالي في الوقت الذي تحيط بسمعته الشبهات، ووعد سيلفرشتاين بالرد عليه بعد أن يعود من أسبانيا، ولم يكن قد رفض منصب ريتشارد كلارك أيضًا.

قضى أونيل وفاليري وابنها جاي عدة أيام في مدينة ماربيا يلعبون الجولف ويقرءون. وقد جاء مارك روسيني، الذي كان غالبًا ما يعمل همزة وصل بين مكتب التحقيقات والشرطة الأسبانية، للترجمة بين الجهتين. وفي الثامن من يوليو/تموز، جلس أونيل في شرفة الفيلا التي كانوا يقيمون فيها وأشعل سيجارًا فاخرًا وأخبر روسيني أنه قد اتخذ قراره بالتقاعد من العمل في مكتب التحقيقات الفيدرالي.

كان ذلك اليوم يوافق الذكرى العشرين لالتحاقه بالعمل في مكتب التحقيقات الفيدرالي، وطبقًا للقانون، يحق للعميل الفيدرالي في ذلك الوقت أن يتقاعد ويحصل على معاشه كاملًا.

كان أونيل يبتسم وهو يعلن قراره، ولكن روسيني رأى الحزن الذي يملأ عينيه وهو على شفا الاختيار، ورأى روسيني أن أونيل كان يودع الرجل الذي كان عليه، والرجل الذي كان من الممكن أن يكون عليه. لقد كانت لديه أحلام لم تتحقق قط، من بينها حلم القبض على أسامة بن لادن الذي لن يحققه أبدًا.

طوال الوقت الذي قضاه أونيل في أسبانيا، كان محمد عطا ورمزي بن الشيبة في أسبانيا أيضًا في منتجع ساحلي صغير يطلق عليه سالو يراجعان التفاصيل الأخيرة لهجمات ١١ سبتمبر/أيلول.

بقدر ما كان ذوق أونيل في ملابسه وأسلوبه يعربان عن إعجابه برجال العصابات، أي العدو التقليدي لمكتب التحقيقات الفيدرالي، كانت العقول الإرهابية تجذبه أيضًا. فقد كان بطله المفضل هو القومي الأيرلندي مايكل كولينز Michael Collins، قائد الحزب الأيرلندي شين فين Sinn Fein ومبتكر حرب العصابات بشكلها الحديث الذي مات شهيدًا، والذي (على غرار أونيل) تعرض للخيانة من جماعته. ومع أن أونيل بصفته عميلًا فيدراليًا كان يعمل ضد الجيش الجمهوري الأيرلندي ويشرف على العديد من العمليات الناجحة ضده، فقد كان يتعاطف مع طموحاته. وكان يرى بوضوح في نفسه بعض ملامح من شخصية مايكل كولينز. ولكنه طوال العقد الأخير وجد نفسه غريمًا في منافسة قاتلة ضد أجرأ إرهابي عرفه التاريخ، إرهابي كانت

أهدافه ترعب أونيل بشدة، ولكنه لم يرَ يومًا رجلًا يدافع عن قضيته بهذا القدر من التفاني والقسوة.

بعد أن انتهى التحقيق في قضية المدمرة كول والتحقيق في حادثة الحقيبة، أدرك أونيل أن سمعته قد تقوضت بحيث أصبح من المستحيل أن يحصل على المنصب في مجلس الأمن القومي. والمنهاج المعتاد لكبار المسئولين التنفيذيين في مكتب التحقيقات الفيدرالي في سن التقاعد هو العمل كمستشار أمني لدى شركة كبيرة تدفع مبلغًا ضخمًا من المال، حتى يستطيع في السنوات الأخيرة من حياته المهنية تأمين وضعه المالي. وقد تقدم أونيل بالفعل إلى العديد من الوظائف من ذلك النوع، ولكنه اختار في النهاية بعدما عاد من أسبانيا تلك الوظيفة في مركز التجارة العالمي. وقد هنأه الكثير من أصدقائه، ومنهم مارك روسيني، على ذلك القرار، قائلين: «على الأقل ستعيش الآن بأمان، فقد حاولوا بالفعل تفجيره من قبل»، ولكن أونيل أجاب قائلًا: «سيحاولون مرة ثانية، ولن يتوقفوا قط عن محاولة تدمير هذين المبنيين.» ومرة أخرى، كان أونيل يضع نفسه على نحو غريزي في مرمى الهدف، وربما كان في هذا القرار تسليم بمصيره.

يمكن للمرء أن يتخيل أن النهج الذي سارت عليه حياة أونيل، في نظر المتطرفين الإسلاميين وأيضًا المؤمنين بالعديد من الأديان الأخرى، يمثل الفسوق الذي كان سمة بلده وعصره. كان الناس في أمريكا في ذلك الوقت يُدفعون إلى التطرف على المستوى الروحاني؛ فقد اختفى الاعتدال الذي كان يسيطر على قلب المجتمع، ومعه الطوائف الدينية السائدة التي كانت تذوي لتختفي تقريبًا من على أرض الواقع، في حين كانت الكنائس المتعصبة التي تتزايد بسرعة تعمل على تحويل المشهد السياسي. فقد استُبدلت عقيدة اليمين المتدين بالفضيحة الجنسية للرئيس كلينتون. وقد كان أونيل نفسه يتمزق أيضًا بين حياة الفسق وحياة التقوى المتشددة. لقد كان فاسقًا وزير نساء وكاذبًا ومغرورًا وماديًّا، وكان يحب الشهرة واستخدام منتجات ذات علامات تجارية مميزة ويعيش في مستوى أعلى من إمكانياته؛ وهذه بالضبط هي الصورة النمطية التي اعتاد بن لادن أن يرسمها لأمريكا التي كونها في ذهنه. ولكن في ذلك الوقت، كان أونيل قد بلغ طوق نجاة ديني يتمسك به في حياته.

كان أونيل قد ابتعد عن الكنيسة الكاثوليكية عندما قابل فاليري التي كانت ابنة كاهن أصولي في شيكاغو. وقد كان يحب حضور جلسات الوعظ التي تحث الخطاة على التوبة عن طريق الترهيب من البحيرة المتقدة بالنار والكبريت، ولكنه

twitter @baghdad_library

في الوقت نفسه كان يقود تحقيقًا قوميًا يجريه مكتب التحقيقات الفيدرالي عن عنف المناهضين لعمليات الإجهاض. وقد أصبح هو وفاليري على وعي بقوة وخطورة المعتقدات الأصولية، فقد كان هؤلاء الأصوليون يذهبون إلى كنائس مثل تلك التي يذهبان إليها وكانوا ينجذبون إلى تجارب تملؤهم بنشوة غريبة لا تستطيع أن توفرها لهم المعتقدات التقليدية، أما الفارق بين المجموعتين فهو أن هؤلاء المعترضين كانوا مستعدين لقتل الآخرين باسم الله. وعندما انتقل أونيل وفاليري إلى نيويورك، كانا يترددان على كنيسة ماربل كوليجيات الفخمة في شارع فيفث أفنيو التي كانت منبر الوعظ لنورمان فينسنت بيل Norman Vincent Peale وفلسفته المتفائلة «التفكير الإيجابي». لقد كان ذلك الاتجاه ملاذًا آمنًا، ولكن أونيل كان مضطربًا ومشوشًا أكثر من أن يستجيب لذلك الجانب الرصين المتعقل من الدين.

وبعد حادثة مرأب المنزل الآمن التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي، بدأ أونيل يقرأ في الإنجيل كل يوم، وعندما ذهب إلى اليمن كان يحتفظ بالكتاب المقدس على المنضدة بجوار فراشه، بالإضافة إلى سيرة ذاتية حديثة لحياة مايكل كولينز. وقد عاد إلى الكاثوليكية في ربيع عام ٢٠٠١م، وأصبح يحضر القداس كل صباح. وأخبر فاليري أن هناك قسًا يقدم له النصائح بشأن الطلاق. وفي شهر أغسطس/آب من العام نفسه، وقعت زوجته كريستين اتفاقًا يمنحها حق حضانة الولدين وملكية المنزل في لينوود بنيوجيرسي، ولكن لم تكن حريته الوشيكة سوى إضافة إلى العبء الروحاني الذي يحمله على عاتقه.

اشترى أونيل كتابًا يحمل عنوان Brush up on your Bible!، ولأن فاليري كانت ابنة كاهن، فقد كانت تفهم الإنجيل أكثر من أونيل مهما اجتهد في فهمه. وكانا يشتركان في مناقشات ساخنة عن الخلاص؛ فكان أونيل يؤمن أن الأعمال الصالحة تنقذ الروح، في حين كانت فاليري ترى أن الخلاص يأتي فقط من الإيمان بالمسيح، وكان لديها إحساس دائم يؤلمها بأنه ملعون لا محالة.

وبعد أن عاد أونيل من أسبانيا بوقت قصير، وقع في يديه بالصدفة كتاب للأطفال يحمل عنوان The Soul Bird. وفي أحد الأيام، كانت فاليري في الحمام تستعد للنزول إلى عملها ولم تكن منتبهة لأونيل تمامًا عندما جاء ليقرأ لها بعض ما وجده في الكتاب الذي كان يحكي قصة طائر يقف على رجل واحدة داخل أرواحنا، فيقول:

إنه طائر الروح يشعر بكل ما نشعر به.

لقد كان أونيل، الرجل الصلب الذي يتحرك وسلاحه الرسمي يحيط بكاحله، يقرأ عن طائر الروح الذي يركض في ألم عندما يجرح أحد مشاعرنا، ثم يطير من السعادة عندما يعانقنا أحد في محبة. ثم وصل بعد ذلك إلى الجزء الذي يتحدث عن الأدراج:

هل تريد أن تعرف من أي شيء يخلق طائر الروح؟
حسنًا، الأمر بسيط حقًّا، إنه مخلوق من أدراج
ولكن لا يمكن فتح هذه الأدراج بسهولة لأن كلًّا منها مغلق بمفتاحه الخاص!

ذهلت فاليري بشدة عندما بدأ أونيل يبكي وهو يقرأ، ولكنه استمر في القراءة عن تلك الأدراج، أحدها للسعادة والآخر للحزن والثالث للغيرة والرابع للرضا، ثم أجهش بالبكاء فجأة حتى إنه لم يستطع الاستمرار في القراءة، لقد كان منهارًا تمامًا.

بعد ذلك الموقف مباشرة، بدأ أونيل يقضي معظم وقته في الصلاة، وكان لديه كتابان إرشاديان للصلاة، وكان يشير إلى الأجزاء التي يفضلها بشرائط أو أوراق ملاحظات لاصقة. وكانت المزامير تأسر انتباهه بشدة، وخاصة المزمور رقم ١٤٢، الذي يقول:

«في الطريق التي أسلك أخفوا لي فخًّا
أنظر إلى اليمين وأبصر
فليس لي عارف
باد عني المناص
ليس من يسأل عن نفسي
صرخت إليك يا رب
قلت «أنت ملجئي، نصيبي في أرض الأحياء»
أصغ إلى صراخي، لأني قد تذللت جدًّا.»

وفي نهاية أحد كتابي الصلوات أحمر الغلاف، كان أونيل يثبت بمشبك جدولًا لمواعيد الصلاة الكاثوليكية، وفي الثلاثين من يوليو/تموز بدأ يستغرق بكيانه بالكامل في متابعة ذلك الجدول. وقد أصبح من النادر في وقتنا هذا أن تجد مسيحيًّا كاثوليكيًّا عاديًّا يصلي أربع أو خمس مرات يوميًّا، مثلما يفعل المسلمون، ولكن لا تزال هذه

twitter @baghdad_library

العادة القديمة موجودة بين رجال الدين والمؤمنين شديدي التدين. وربما كان أونيل في عبادته يرسم خطًّا من التماثل بين الكنيسة القديمة وملامح من الحركة الإسلامية الحديثة؛ فتاريخ الكنيسة مليء بالشهداء والمتشددين من أصحاب المعتقدات، الذين كان ليُنظَر إليهم اليوم كمتطرفين دينيًّا. لقد بدأ أونيل هذه العادات الجديدة في حياته في عيد القديس بطرس خريسولوغوس، أسقف رافينا الذي منع الرقص واضطهد المنشقين. وفي اليوم التالي، في الحادي والثلاثين من يوليو/تموز، احتفل بعيد القديس أغناطيوس دى لويولا، الجندي الأسباني الذي لا يقهر الذي أسس جماعة الآباء اليسوعيين. لقد كانت رؤية هؤلاء القديسين للمجتمع المتدين الذي يحكمه الله أقرب كثيرًا إلى رؤية سيد قطب من رؤية معظم المسيحيين في العصر الحديث.

واظب أونيل على متابعة جدول الصلوات ووضع علامة أمام كل صلاة يؤديها حتى يوم الأحد الموافق التاسع عشر من أغسطس/آب، اليوم الذي نشرت فيه صحيفة تايمز حادثة الحقيبة، ثم توقف فجأة عن متابعة جدول الصلاة.

«إن تكاليف هذا الدين عظيمة وشاقة، وفي بعضها كره.» هكذا قال بن لادن في حديث له على شريط فيديو عُثِر عليه في وقت لاحق على جهاز كمبيوتر أحد أعضاء خلية هامبورج.

تحدث بن لادن في ذلك الشريط عن النبي الذي حذر العرب من أنهم سيصبحون ضعفاء بسبب حبهم للدنيا وخوفهم من القتال. وقال أيضًا: «وهذا الإحساس بالضياع والتيه الذي كُتب علينا، كل هذا دليل على ابتعادنا عن الله والجهاد في سبيله. لقد ضرب الله عليكم الذلة، ولن يرفعها عنكم حتى تعودوا إلى دينكم.»

وأشار بن لادن مرة أخرى إلى وصية الرسول وهو على فراش الموت بأن يكون الإسلام هو الدين الوحيد في جزيرة العرب، ثم تساءل قائلًا: «ماذا سيكون جوابنا لله يوم التغابن؟ ... إن الأمة في هذا الزمان قد أصبحت في تيه وضياع. والآن، ها قد مرت عشر سنوات منذ غزو الأمريكين لبلاد الحرمين ... يتضح لنا أن كراهية القتال وحب الدنيا الذي يملأ قلوب الكثير منا هو سبب هذا التيه وهذا الذل وهذه المهانة.»

مست هذه الكلمات قلوب تسعة عشر شابًّا، العديد منهم متعلمون وبارعون ومهرة كانوا يعيشون حياة مترفة في الغرب، ولكن كان لا يزال يتردد بداخلهم

الإحساس بالخزي حتى إن بن لادن أخذ ينشد لهم:

ماذا نريد؟ ماذا نريد؟
ألسنا نريد ابتغاء رضوان الله؟
ألسنا نريد الجنة؟

وحثهم على السعي لنيل الشهادة وترك حياتهم الواعدة من أجل المجد الأسمى الذي ينتظرهم. وقال لهم: «ها قد وجدنا أنفسنا لأكثر من عشرين سنة في فيه الأسد. وبفضل الله وبرحمته، كانت صواريخ سكود الروسية تطاردنا لأكثر من عشر سنوات وصواريخ كروز الأمريكية عشر سنوات أخرى. والمؤمن يعرف أن الآجال لا تُقدم ولا تُؤخر.» ثم تلا آية من السورة الرابعة في القرآن وأعادها ثلاث مرات في حديثه — وهي إشارة واضحة للمختطفين الذين كانوا في طريقهم، وهذه الآية هي: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.[1]

لقد كان أونيل شخصًا مليئًا بالعيوب ومثيرًا للخلاف، ولكن لا يوجد شخص آخر في مكتب التحقيقات الفيدرالي يتمتع بقوته في أداء عمله واهتمامه به، ولا يوجد أحد غيره كان بإمكانه التقاط خيوط رفيعة من الأدلة التي تحجبها المخابرات ويشن حملة على مستوى البلد بأكمله ربما كانت لتمنع هجمات ١١ سبتمبر/أيلول. ولكن كان مكتب التحقيقات الفيدرالي مثالًا على البيروقراطية السلبية التي تنفر من العناصر القوية المؤثرة، وكان معروفًا بمعاملته الوحشية للموظفين الطموحين أو الذين يحاربون القواعد والأساليب التقليدية. لقد كان أونيل محقًا بشأن التهديد الذي تمثله القاعدة في وقت لم يهتم فيه الكثيرون بتصديق الأمر. وفي النهاية، ربما تكون قدرته على تكوين أعداء هي ما دمر حياته المهنية، ولكن هؤلاء الأعداء ساعدوا القاعدة أيضًا عندما دمروا الرجل الذي كان من الممكن أن يصنع فارقًا. وقد كان مكتب نيويورك بدأ يفقد تركيزه بالفعل، ومع غياب أونيل، ارتكب أخطاء فادحة.

عندما كان أونيل في أسبانيا، أرسل كينيث ويليامز Kenneth Williams، عميل مكتب التحقيقات في مدينة فينيكس، رسالة إليكترونية تحذيرية إلى المقر الرئيسي للمكتب وإلى أليك ستيشن والعديد من العملاء في نيويورك. وقد جاء في تلك الرسالة:

---

[1] سورة النساء الآية (٧٨).

twitter @baghdad_library

«إن الهدف من هذه الرسالة هو إخطار المكتب ونيويورك باحتمال أن ينسق أسامة بن لادن إرسال طلاب إلى الولايات المتحدة للالتحاق بكليات وجامعات دراسة الملاحة الجوية المدنية.» وقد نصح ويليامز في رسالته المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات بضرورة إعداد سجل بجميع مدارس الطيران في الولايات المتحدة ومقابلة مديريها ووضع قائمة بأسماء جميع الطلاب العرب الذين سعوا للحصول على تأشيرات للالتحاق بمدارس التدريب على الطيران.

كان جاك كلونان أحد عملاء مكتب نيويورك الذين قرءوا المذكرة التي طُبعَت ووزعت، فكورها بيده وقذف بها عرض الحائط، ثم سأل المشرف من مكتب فينيكس: «من سيجري ثلاثين ألف مقابلة شخصية؟ متى سيكون لدينا وقت للقيام بهذا بحق الجحيم؟» ومع ذلك، فقد أجرى فحصًا سريعًا على العديد من أسماء العرب التي ذكرها عميل فينيكس، ولكن لم يثمر بحثه عن شيء. وقامت المخابرات الأمريكية أيضًا، التي لديها مكتب في فينيكس، بفحص تلك الأسماء ولكنها لم تربطها بأي شيء. وكما اتضح بعد ذلك، فقد كان أحد الطلاب الذين ذكرهم العميل من مكتب فينيكس صديقًا لهاني حنجور، أحد الطيارين المفترضين في هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، ولكن كان احتمال أن يقود تحقيق كهذا الذي اقترحه العميل إلى اكتشاف المخطط ضئيلًا، على الأقل ليس التحقيق وحده.

بعد ذلك في منتصف شهر أغسطس/آب، اتصلت مدرسة طيران في ولاية منيسوتا بالمكتب الميداني المحلي من مكتب التحقيقات الفيدرالي للإعراب عن قلقها من طالب اسمه زكريا موسوي. فقد طرح ذلك الطالب بعض الأسئلة المثيرة للشك عن نمط الرحلات حول مدينة نيويورك وما إذا كان من الممكن فتح كابينة الطيار في أثناء الرحلة. وقد توصل المكتب المحلي سريعًا إلى أن موسوي متطرف إسلامي ذهب إلى باكستان، وعلى الأرجح إلى أفغانستان أيضًا، ورأى العملاء أنه من الممكن أن يتحول إلى مختطف طائرات انتحاري. ونظرًا لأنه كان مواطنًا فرنسيًّا وتجاوز المدة المسموح له بها في تأشيرته، فقد ألقت دائرة الهجرة والجنسية القبض عليه. وقد سعى عملاء مكتب التحقيقات المسئولين عن التحقيق في القضية إلى الحصول على تصريح من المقر الرئيسي بفحص جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به، ولكن المقر رفض لأن العملاء لم يتمكنوا من تقديم سبب يبرر بحثهم. وعندما ألح المشرف على مكتب منيسوتا الذي يقع في مدينة مينيابوليس أكبر مدن الولاية في طلبه لدى المقر الرئيسي، أخبر أنه يحاول «اختلاق تهم» لتوريط الناس بها، ولكن المشرف أجاب

بتحدٍّ: «أنا أحاول أن أمنع شخصًا من الاستيلاء على طائرة وتفجيرها في مركز التجارة العالمي» — تكهن غريب يعرب عن مدى توطد هذه الأفكار في لا وعي أولئك الذين كانوا يقرءون تقارير التهديدات.

كان موسوي على الأرجح يُعَدّ لأن يكون جزءًا من الموجة الثانية من هجوم القاعدة التي كانت ستتبع هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، والتي كانت ستستهدف على الأرجح الساحل الغربي. فلو كان المقر الرئيسي قد سمح للعملاء في مينيابوليس بالتحقيق مع موسوي، لاستطاعوا الربط بينه وبين رمزي بن الشيبة الذي كان يرسل له النقود. وقد كان موسوي يحمل خطابًا يشير إلى أنه موظف في شركة إنفوكس تك ويحمل توقيع يزيد سوفات، وبالطبع لم يكن ذلك الاسم يعني شيئًا لمكتب التحقيقات لأن المخابرات الأمريكية قد حجبت المعلومات عن الاجتماع في كوالالمبور الذي عقد في شقة سوفات. إلى جانب أن مكتب التحقيقات فشل في الربط بين ذلك التحذير من مكتبه في مينيابوليس وبين التحذير الذي أرسله كينيث ويليامز من فينيكس. وبالطبع، فقد حجب بدوره تلك المعلومات عن ريتشارد كلارك والبيت الأبيض، ومن ثم، لم يكن لدى أية جهة صورة كاملة عن الموقف.

في الثاني والعشرين من أغسطس/آب، كتب أونيل رسالة إليكترونية إلى لو جن Lou Gunn الذي فقد ابنه في تفجير المدمرة كول، قال فيها: «اليوم هو يومي الأخير. وفي واحد وثلاثين عامًا من العمل الحكومي، لم أشعر بالفخر كما شعرت به حين اخترت لقيادة التحقيقات في الهجوم على يو إس إس كول. لقد كنت أباشر التحقيقات بكل كياني وأؤمن بشدة أننا أحرزنا تقدمًا كبيرًا. ولكن ما لا تعرفه أنت وأهالي الضحايا هو أني بكيت لخسارتكم ... سأذكرك دائمًا أنت وعائلات الضحايا في صلواتي وسأستمر في متابعة التحقيقات بعد أن عدت مدنيًّا. باركك الله وبارك أحباءك والعائلات الأخرى وبارك أمريكا.»

كان أونيل في مكتبه يجمع أغراضه عندما دخل علي صوفان ليودعه. كان من المقرر أن يعود صوفان إلى اليمن في وقت لاحق من ذلك اليوم، وفي الواقع كان آخر عمل قام به أونيل بصفته عميلًا فيدراليًّا هو توقيع أوراق إرسال فريقه إلى اليمن مرة أخرى. خرج الرجلان معًا وسارا إلى المطعم على الجهة الأخرى من الشارع لتناول الطعام.

twitter @baghdad_library

طلب أونيل شطيرة لحم خنزير بالجبن، فداعبه صوفان قائلًا: «ألا تريد التوقف عن تناول هذا الطعام المحرم؟ ستذهب إلى الجحيم» مشيرًا بحديثه إلى لحم الخنزير. ولكن أونيل لم يكن في حالة تسمح له بالمزاح، وأخذ يحث صوفان أن يأتي لزيارته في مركز التجارة العالمي عندما يعود قائلًا: «سأكون على الجهة الأخرى من الشارع.» ولقد كان غريبًا على أونيل أن يرجو الآخرين أن يتذكروه.

بعد ذلك أخبر صوفان أونيل أنه على وشك الزواج، وقد كان قلقًا من رد فعل الأخير على هذا الخبر لأنه كان في الماضي كلما تحدثا عن النساء كان أونيل يلقي دعابة أو يشير بطريقة ما أنه لا يشعر بالارتياح للحديث عن هذا الأمر، وقد سأل أونيل صوفان ذات مرة: «هل تعلم لماذا يكون الحصول على الطلاق مكلفًا للغاية؟ لأن الأمر يستحق ذلك.»

ولكن تلك المرة، فكر أونيل في الأمر لحظة ثم قال: «لقد وقفتْ إلى جانبك وتحملت طوال هذا الوقت، لا بد أنها امرأة صالحة.»

وفي اليوم التالي، بدأ أونيل عمله في مركز التجارة العالمي.

بعد أن تقاعد أونيل من العمل في مكتب التحقيقات الفيدرالي بيوم واحد، أشعرت مارجريت جيليسبي، محللة مكتب التحقيقات في أليك ستيشن التي كانت تراجع تغطية اجتماع ماليزيا، دائرة الهجرة والجنسية ووزارة الخارجية والجمارك ومكتب التحقيقات طالبة منهم أن يضعوا اسمي خالد المحضار ونواف الحازمي على قائمة المراقبة. ولاحظت أن الرجلين وصلا إلى لوس أنجلوس في يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠٠م، في الوقت نفسه تقريبًا الذي خطط فيه أحمد رسام لتفجير مطار لوس أنجلوس، ومنذ ذلك الوقت، غادر المحضار البلد ثم عاد مرة أخرى. ونقلت جيليسبي هذه المعلومات إلى زميلتها دينا كورسي، محللة المخابرات المركزية في المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات.

أثارت هذه المعلومات قلق كورسي، فأرسلت رسالة إليكترونية إلى المشرف على الفرقة 49-I تحمل عنوان «الإرهاب الدولي: القاعدة». وقد طلبت من الفرقة في الرسالة التحقق فورًا مما إذا كان خالد المحضار لا يزال في الولايات المتحدة، ولكنها لم توضح لهم بالضبط أية معلومات عن المحضار، فيما عدا أن علاقته بالقاعدة واحتمال تورطه مع منفذي عملية تفجير المدمرة كول يجعلان منه «خطرًا على الأمن القومي». وكانت أوامر الفرقة هي «تحديد مكان المحضار ومعرفة بمن يتصل وأسباب وجوده

في الولايات المتحدة»، ولكنها أخبرتهم أيضًا أنه يجب ألا يشترك أي عميل من القسم الجنائي في عملية البحث. وكما اتضح بعد ذلك، فقد كان هناك رجل مخابرات واحد فقط في الفرقة وكان جديدًا في العمل.

كان جاك كلونان هو المشرف المؤقت على الفرقة، وقد طلب أن يتولى عملاء من القسم الجنائي التحقيق، ونظرًا لأن هناك تهمًا موجهة لبن لادن، فسيكون لديهم حرية أكبر ومصادر أكثر للبحث عن أي أشخاص تربطهم صلات بالقاعدة. فأرسلت كورسي رسالة إليكترونية إلى الفرقة جاء فيها: «إذا حُدِّد مكان المحضار، يجب أن يحقق معه رجل مخابرات، ولا يجوز أن يحضر عميل من القسم الجنائي التحقيق ... ولكن في ذلك الوقت، إذا ظهرت معلومات تشير إلى وجود تهمة فيدرالية مهمة، تعلق هذه المعلومات على الحائط، طبقًا للإجراءات المناسبة وتستخدم في التحقيقات التالية.»

ولكن كانت رسالة كورسي الإليكترونية الأصلية قد نُسخت بغير قصد إلى عميل بالقسم الجنائي في الفرقة هو ستيفن بونجاردت، المحقق العدواني الذي كان طيارًا مقاتلًا من الطراز الأول في البحرية. ولأكثر من عام، كان بونجاردت يعترض على العوائق التي كانت توضع باستمرار في طريق المحققين بالقسم الجنائي بسبب «حائط» قرار المحكمة الذي كان يزداد ارتفاعًا، وقد تساءل من المقر الرئيسي في أكثر من مناسبة: «أروني أين كتب أننا لا نستطيع الحصول على المعلومات»، ولكن بالطبع كان ذلك الأمر مستحيلًا تقريبًا لأن مفهوم «الحائط» مسألة تفسير إلى حد كبير. ومنذ اجتماع الحادي عشر من يونيو/حزيران، كان بونجاردت يلح على كورسي أن تمده بمعلومات عن الرجال الذين يظهرون في الصور، ومنهم خالد المحضار. ولكن بعد أن انتهي المطاف برسالة كورسي إلى جهاز الكمبيوتر الخاص به، فقد اتصل بها وقال: «من المؤكد أنك تمزحين يا دينا؟ المحضار داخل البلد؟»

فأجابته مشيرة إلى الرسالة الإليكترونية: «ستيفن، يجب أن تمسح هذه الرسالة، سنعقد مؤتمرًا هاتفيًّا بشأنها غدًا» مشيرة إلى أنه ليس لديه حق الاطلاع على تلك المعلومات.

وفي اليوم التالي، اتصلت به كورسي على الخط المؤمَّن، وكان هناك مشرف من المخابرات يعمل في أليك ستيشن على الخط أيضًا. وقد أخبرا بونجاردت أن عليه أن «ينسحب» من محاولات العثور على المحضار. وشرحوا له كيف أن ذلك القرار يمنعهم من تبادل أية معلومات أخرى. فأعاد بونجاردت شكواه من أن ذلك القرار

twitter @baghdad_library

مجرد وهم بيروقراطي وأنه يمنع العملاء من القيام بعملهم. وقال أيضًا: «إذا كان ذلك الرجل داخل البلد، فإنه ليس هنا لزيارة ديزني لاند اللعينة.» ولكن طُلب منه ثانية التنحي جانبًا ليس من كورسي فقط ولكن من رئيسها أيضًا.

وفي اليوم التالي، أرسل بونجاردت رسالة إليكترونية غاضبة إلى كورسي يقول فيها: «بغض النظر عما حدث، يومًا ما سيموت أناس هنا، وبعيدًا عن ذلك القرار أو غيره، لن يفهم الشعب لماذا لا نقوم بعملنا بصورة أفضل ونستغل جميع مصادرنا للتعامل مع بعض «المشكلات».»

تولى عميل جديد مبتدئ في عالم المخابرات اسمه روب فولر Rob Fuller مهمة تعقب المحضار، والحازمي أيضًا الذي ارتبط اسمه بالمحضار على قائمة المراقبة. وكان المحضار قد دون على بطاقة الوصول الخاصة به قبل شهر أنه سيقيم في فندق ماريوت نيويورك، فبدأ العميل الوحيد رحلة البحث عن عملاء القاعدة في الفروع التسعة لفندق ماريوت، ولكنهما كانا قد رحلا منذ وقت بعيد.

في الثلاثين من أغسطس/آب، أي بعد ثمانية أيام من تقاعد أونيل، ترك الأمير تركي منصبه رئيسًا للمخابرات السعودية. وكانت هذه هي المرة الأولى منذ عقود التي يُعزَل فيها أحد كبار الأمراء من منصبه، بسبب، حسب ما يقال، ضيق صدر ولي العهد الأمير عبد الله من إخفاق الأمير تركي في القبض على بن لادن.

ويقول تركي إنه لم يُطرَد من منصبه، ولكن، على حد قوله: «لقد تركت المنصب لأني تعبت. ورأيت أن العمل ربما يحتاج إلى دم جديد.» وقارن الأمير نفسه «بالثمرة المفرطة في النضج، تعرف كيف تسوء رائحتها، وكيف يذبل قشرها وتسوء حالتها. لذا، فقد طلبت إعفائي من المنصب.»

منذ أن ترك أونيل عمله في مكتب التحقيقات الفيدرالي ارتفعت روحه المعنوية، وقد لاحظ من حوله أنه أصبح مبتهجًا ومرحًا لأول مرة منذ عدة أشهر، وربما منذ سنوات. وبدأ يتحدث عن تغيير سيارته القديمة من طراز بويك وشراء سيارة مرسيدس جديدة. وأخبر آنا ديباتيستا أنه أصبح بوسعهما الزواج. وفي مساء يوم السبت الموافق الثامن من سبتمبر/أيلول، حضر هو وفاليري جيمس حفل زفاف في فندق بلازا ورقصا معًا جميع الرقصات تقريبًا. وقد قال لرئيسه السابق لويس

شيليرو الذي حضر حفل الزفاف أيضًا: «أشعر كأن حملًا ثقيلًا قد أزيح عن كاهلي»، وسمعته فاليري وهو يتحدث مع أحد أصدقائهما قائلًا: «سنتزوج قريبًا.»

وفي اليوم التالي الموافق التاسع من سبتمبر/أيلول، وافق أحمد شاه مسعود على مقابلة الصحفيين التليفزيونيين العربيين اللذين كانا ينتظران في معسكره منذ تسعة أيام. لقد كان مسعود ولا شك أعظم قائد أفغاني بعد أن صمد لخمسة وعشرين عامًا من الحروب ضد السوفييت والحكومة الشيوعية الأفغانية والمجاهدين المنافسين له ثم قوات القاعدة وطالبان. ولقد كانت قدرة مسعود على الحفاظ على حياته سمة أساسية في أسطورته. كان بمنزلة أفضل بريق أمل يلوح لأفغانستان للحصول على حكومة إسلامية معتدلة بدلًا من طالبان.

ولقد نجح الظواهري بخطابه المزيف في أن يزج بصحفيين مزيفين إلى مكتب مسعود، وكانت علبة البطارية التي يحملها المصور مليئة بالمتفجرات. وعندما انفجرت القنبلة، مزقت جسدي الصحفيين إربًا وقتلت مترجمًا وقذفت بشظيتين معدنيتين إلى قلب مسعود.

عندما سمع علي صوفان الأخبار في اليمن، قال لعميل آخر: «إن بن لادن يسترضي طالبان بهذا، والآن العملية الكبرى في طريقها.»

وفي ذلك اليوم كان بن لادن والظواهري يحضران مراسم دفن والد وزير داخلية طالبان السابق عندما اقترب عضوان سعوديان من تنظيم القاعدة من نائب وزير الداخلية الملا محمد خاكسار ليخبراه أن مسعودًا قد مات. وقد زعم التحالف الشمالي أن مسعودًا قد أصيب بجروح فقط، ولكن السعوديان أكدا له: «صدقنا، لقد مات» وتفاخرا أن بن لادن هو من أعطى الأمر بقتل مسعود. ومن ثم، أصبح التحالف الشمالي بلا قائد، وأزيحت آخر عقبة تحول دون سيطرة طالبان الكاملة على البلاد بفضل الجميل الذي أسداه لها بن لادن.

وفي يوم الإثنين الموافق العاشر من سبتمبر/أيلول، اتصل أونيل بروبرت تاكر Robert Tucker، صديقه الذي يعمل مسئولًا تنفيذيًّا في شركة أمنية، ورتبا ليتقابلا ذلك المساء ليتحدثا عن بعض الأمور الأمنية الخاصة بمركز التجارة العالمي. قابل تاكر أونيل في قاعة انتظار البرج الشمالي، واستقلا المصعد معًا إلى مكتب أونيل الجديد في الطابق الرابع والثلاثين. وقد كان أونيل فخورًا بمملكته الجديدة التي تشمل سبعة مبانٍ على مساحة ستة عشر أكر وتبلغ مساحة المكاتب تسعة ملايين قدم مربع. وذهبا معًا إلى مطعم «نوافذ على العالم» ليحتسيا شرابًا هناك، ثم اتجها

twitter @baghdad_library

بسرعة بعد ذلك إلى مطعم إيلين ليتناولا العشاء مع صديقهما جيري هاور Jerry Hauer. وقد تناول أونيل مكرونة وشريحة من اللحم، كما تتذكر إيلين كوفمان Elaine Kaufman، أكبر وأشهر سيدة بين مالكي المطعم، أن أونيل قد احتسى كوبًا من القهوة المثلجة ومعه حلوى وتقول: «لم يكن مدمنًا للكحول مثل الكثيرين.» وفي منتصف الليل تقريبًا، ذهب الرجال الثلاثة إلى «نادي الصين» وهو ملهى ليلي في وسط المدينة، وقد قال أونيل لأصدقائه: إن هناك حدثًا ضخمًا على وشك الحدوث، وقال أيضًا: «لقد فات الأوان.»

كانت فاليري جيمس تقضي ذلك المساء مع بعض العملاء، وكان ذلك في أثناء أسبوع الموضة، وبصفتها مديرة مبيعات مصمم كبير، فقد كانت منهمكة تمامًا في العمل. وكان أونيل قد اتصل بها في المكتب في وقت مبكر من ذلك اليوم ووعدها أن يعود إلى المنزل في موعد أقصاه الساعة العاشرة والنصف. ولكنه لم يصل حتى بعد الموعد الذي حدده بساعة، فذهبت هي لتنام، ثم استيقظت في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ولم يكن قد عاد إلى المنزل بعد. شعرت فاليري بالضيق، فجلست تتسلى بلعبة ما على الكمبيوتر. عاد جون إلى المنزل الساعة الرابعة صباحًا تقريبًا وجلس بالقرب منها وقال: «إنك تلعبين لعبة سوليتير سخيفة يا حبيبتي.» ولكن فاليري كانت تشعر بالإهانة، فذهبا للنوم دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة. وفي الصباح التالي، كانت فاليري لا تزال تتعامل معه ببرود وجفاء، فدخل أونيل وراءها إلى الحمام وأحاطها بذراعيه وهو يقول: «أرجوك سامحيني»، فرق قلب فاليري وأجابته: «إنني أسامحك بالفعل.» ثم عرض أونيل عليها أن يقلها إلى عملها، وأوصلها حتى ضاحية الزهور في الثامنة وثلاث عشرة دقيقة صباحًا، حيث كان لديها موعد هناك. واتجه هو إلى مركز التجارة العالمي.

لاذ بن لادن بالفرار ومعه الظواهري ومجموعة صغيرة من كبار قادة القاعدة إلى الجبال فوق خوست بالقرب من المأسدة حيث بدأت مغامرة بن لادن في أفغانستان. وأخبرهم أن شيئًا عظيمًا سيحدث وأنه قريبًا سينضم إليهم المسلمون من جميع أنحاء العالم في أفغانستان لهزيمة القوة العظمى. وحمل الرجال معهم طبق استقبال إشارات الأقمار الصناعية وجهاز تليفزيون.

قبل هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، كان بن لادن وأتباعه يرون الكثير من الأحلام في منامهم. وقد اعتادوا الجلوس معًا بعد صلاة الفجر، وإذا راود أحدهم حلم في

الليلة السابقة يقصه على رفاقه، ويتولى بن لادن مهمة التكهن بمعنى الحلم. وكان الأشخاص الذين لا يعرفون شيئًا عن المخطط يقولون: إنهم يحلمون بطائرة تصطدم بمبنى طويل. وقد قال أحدهم لبن لادن ذات مرة عن حلمه: «كنا نلعب مباراة كرة قدم، فريقنا ضد فريق أمريكا. ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت أتساءل لماذا جعل أسامة فريقنا كله يتكون من طيارين، هل هذه مباراة كرة قدم أم طائرة؟» وقد حلم سليمان أبو الغيث، المتحدث باسم القاعدة، أنه كان يشاهد هو وبن لادن التليفزيون الذي كان يعرض عائلة مصرية تجلس إلى مائدة العشاء وابنها الأكبر يرقص رقصة شعبية مصرية، ثم مر خبر أسفل الشاشة يقول: «انتقامًا لأطفال الأقصى، أسامة بن لادن يشن هجمات على الأمريكيين.» وعندما وصف ما رآه لبن لادن أمام خمسين آخرين من رجاله، قال له بن لادن ببساطة: «حسنًا، سأخبرك فيما بعد.» ثم منع فجأة الحديث عن الأحلام لا سيما الأحلام المرتبطة بالطائرات التي تصطدم بالمباني خوفًا من أن يتسرب أي خبر عن الخطة. وحلم هو نفسه بأن أمريكا قد تحولت إلى رماد، وصدق أن ذلك الحلم نبوءة.

كان ستيفن بونجاردت في غرفته في الفرقة I-49 يقرأ بعض المعلومات الاستخباراتية على جهاز الكمبيوتر الخاص به، وكان من بينها تقرير يقول: إنه كان يجري تنشيط معسكرات القاعدة في تورا بورا، فقال في نفسه: «هذا ليس جيدًا على الإطلاق.» وكان باري ماون أيضًا في مكتبه عندما سمع أزيزًا يصم الآذان، فنظر من نافذة مكتبه ولكن كان الوقت قد فات ليرى الطائرة وهي تمر على مستوى النظر تقريبًا، إلا أنه سمع دوي الانفجار. فاعتقد أن هناك طائرة تندفع بعنف عبر نهر هودسون متجاوزة حاجز الصوت، وبعد لحظة واحدة، صرخت سكرتيرته، فهرع ماون ليلقي نظرة عبر نافذتها على الفجوة المحترقة في الطابق الثاني والتسعين من البرج الشمالي من مركز التجارة العالمي، على بعد بضعة مبانٍ قليلة منهم. جمع ماون موظفيه على الفور، وأخبر فريق التكتيك والأسلحة الخاصة وفرق جمع الأدلة أنه يجب أن يذهبوا لمساعدة شرطة نيويورك ووحدات الإطفاء. وبعد التفكير للمرة الثانية، أرسل قوة مكافحة الإرهاب أيضًا.

كان جون بي. أونيل الابن John P. O'Neill, Jr.، وهو خبير كمبيوتر يعمل لدى شركة إم بي إن أيه MBNA في ديلاوار، في طريقه إلى نيويورك لتثبيت بعض الأجهزة الحديثة في مكتب والده الجديد. وعندما رأى ابن أونيل من نافذة القطار دخانًا

twitter @baghdad_library

يتصاعد من مركز التجارة العالمي، اتصل بوالده على هاتفه الخلوي، فرد عليه والده وأخبره أنه بخير وأنه يتجه إلى الخارج لتقدير الخسائر.

لقد حطمت الطائرة التي تحمل ما يقرب من تسعة آلاف جالون من وقود الطائرات، ثمانية وخمسين طابقًا فوق مكتب أونيل الذي نزل إلى الطابق الأرضي. وفي تلك اللحظة، لم يشعر الناس بالذعر، بل بالحيرة والارتباك، وأخذوا يتساءلون: أهي قنبلة؟ أهو زلزال؟ فلم يكن شيء من حولهم منطقيًّا. تدفقت المياه من الأسقف مختلطة بالأرض ومكونة بركة من الطين على الأرض الرخامية. وتحطمت نوافذ الكاتدرائية المكونة من طابقين، واجتاحت قاعتها موجة من الارتباك. وعندئذ كان أول القافزين قد اندفعوا عبر نوافذ البرج الشمالي فوق وقود الطائرة المحترقة، وقد سقطت أجسادهم كأنها قنابل. وكانت الساحة بالخارج معدة لحفلة موسيقية ليلية، فتناثرت أشلاء الجثث على المقاعد، وتناثرت العشرات من الأحذية على الأرض. وكانت هناك دار حضانة في المبنى، فساعد أونيل على إخراج الأطفال إلى مكان آمن.

وفي أفغانستان، كان أعضاء القاعدة يواجهون صعوبة في الحصول على إشارة من القمر الصناعي. وقد حمل أحد الرجال طبق الاستقبال بين يديه ووجهه نحو السماء، ولكنه لم يحصل على شيء. وفي النهاية، أدار أحد الرجال مؤشر الراديو إلى إذاعة بي بي سي الناطقة بالعربية، كان المذيع ينهي تقريرًا إخباريًّا فيقول: إن هناك أخبارًا عاجلة: اصطدمت طائرة بمركز التجارة العالمي في نيويورك! ظن رجال القاعدة أن ذلك هو الحدث الوحيد فأخذوا يهللون فرحين ويسجدون، ولكن بن لادن قال لهم: «انتظروا، انتظروا.»

كان علي صوفان وعدد قليل من العملاء الآخرين في السفارة الأمريكية في اليمن، وكانت السفيرة باربرا بودين قد نُقلتْ إلى بلد آخر ولم يصل السفير الجديد بعد. وكان صوفان يتحدث إلى خطيبته على الهاتف عندما أخبرته أن مركز التجارة العالمي قد تعرض للهجوم. فطلب من القائم بأعمال السفارة أن يدخل مكتب السفير ويشغل التليفزيون، وبمجرد أن فعل ذلك، ضربت الطائرة الثانية هدفها.

كانت فاليري جيمس تنسق بعض الزهور في مكتبها عندما «بدأت الهواتف ترن وكأنها قد أصيبت بالجنون.» كانت عقارب الساعة قد تجاوزت التاسعة صباحًا بدقائق قليلة، وكان أولادها يتصلون بها وهم في حالة من الهلع الشديد، وأخيرًا اتصل بها أونيل وقال لها: «اطمئني يا حبيبتي أنا بخير. يا إلهي لا يمكنك أن تتخيلي مدى بشاعة هذا الأمر يا فال، أشلاء الجثث تنتشر في كل مكان، هل تبكين؟» وكانت

فاليري تبكي بالفعل. وسألها ما إذا كانت تعرف ماذا ضرب المبنى فأجابت أن ابنها يعتقد أنها طائرة من طراز بوينج ٧٤٧، ثم قال لها: «أعتقد أن أصحاب العمل قد ماتوا، لا يمكنني خسارة هذه الوظيفة.»

فأجابته قائلة: «إنهم سيحتاجونك الآن أكثر من أي وقت مضى.»

وفي أفغانستان أيضًا كان بن لادن يبكي ويصلي، فقد كان نجاحهم في ضرب البرجين إشارة جلية على تأييد الله، ولكن ما زال هناك المزيد. وأمام رفاقه الذين لا يصدقون أعينهم رفع بن لادن ثلاثة أصابع.

في التاسعة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحًا، تلقت آنا ديباتيستا، التي كانت تقود سيارتها في طريقها إلى فيلادلفيا في عمل، اتصالًا من أونيل. كان الاتصال واضحًا، ثم بدأت الإشارة تخبو، وقد طمأنها أونيل أنه بخير وخارج المبنى، فسألته: «هل أنت واثق أنك خارج المبنى؟» فأجابها أنه يحبها، فأدركت أنه سيعود إلى الداخل مرة أخرى.

امتلأت السماء الصافية بسحب من الدخان الأسود وعاصفة هائلة من الأوراق؛ مذكرات وصور ومستندات معاملات نقدية ووثائق تأمين، التي نشرتها رياح شرقية جنوبية هادئة عبر نهر إيست ريفر إلى بروكلين لمسافة أميال. وتناثرت الأنقاض في شوارع جنوب منهاتن التي كانت مغطاة بالجثث بالفعل، وبعض تلك الجثث كانت قد اندفعت كالقنبلة من المبنى عندما ارتطمت به الطائرة، وخرج رجل من المبنى وهو يحمل ساق شخص آخر، وسقط الكثيرون من أعلى فوق رجال الإطفاء فقتلوهم على الفور.

امتلأ الجو بأصوات صفارات الإنذار في الوقت الذي كانت فيه وحدات الإطفاء وأقسام الشرطة في جميع أنحاء المدينة خالية بعد أن أرسلت جميع قواتها إلى موقع الحادث، وكثير منهم إلى حتفهم. كان ستيفن بونجاردت يجري تجاه البرجين، في حين تركض جموع حاشدة في الاتجاه المضاد بعيدًا عنهما عندما سمع دوي الاصطدام الثاني وشخص ما يصرخ: «هناك طائرة ثانية!» تساءل بونجاردت في نفسه ما نوع الطائرة؟ ربما طائرة خاصة خرجت عن مسارها، ثم رأى على بعد ثلاثة مبانٍ من البرجين أحد المحركات الضخمة الذي عصف طوال المسافة من البرج وسقط على سيدة، ولكنه لم يقتلها على الفور، فظلت تتأوه وتتلوى أسفله. أدرك بونجاردت على الفور أن هذه العملية تحمل توقيع بن لادن.

twitter @baghdad_library

عاد أونيل إلى البرج الشمالي حيث أقامت وحدة الإطفاء مقر قيادة. وكانت رائحة الردهات تفوح بوقود الطائرات الذي كان يسيل في بيوت المصاعد مكونًا بئرًا متفجرة. شق رجال الإطفاء المحملين بالكثير من المعدات طريقهم عبر السلالم إلى الأعلى، وكانوا قد اعتادوا رؤية الكوارث، ولكن كانت أعينهم هذه المرة مليئة بالرعب ولا يصدقون ما يرونه. وفي الوقت نفسه، كانت أعداد ضخمة من الناس تتحرك ببطء عبر السلالم الكهربية من الطوابق الوسطى وكأنهم في حلم. وقد كانوا مبللين ومغرقين بالطين، وبعضهم جاء من الأدوار العليا وكانوا عراة ومصابين بحروق شديدة. قادتهم قوات الشرطة إلى الأنفاق الموجودة تحت الأرض ليتجنبوا من يسقطون من الأدوار العليا. وانتشرت شائعات أن طائرة ثالثة كانت في طريقها إليهم، وفجأة فتح باب أحد المصاعد الذي توقف عن العمل بعد الهجوم وخرج منه ما يقرب من اثنى عشر شخصًا والذهول يرتسم على ملامحهم بعد أن علقوا بداخله منذ ارتطام الطائرة الأولى، ولا يدرون ماذا حدث.

قفز ويسلي وونج Wesley Wong، وهو خبير اتصالات في مكتب التحقيقات الفيدرالي، إلى الردهة عبر إحدى النوافذ المهشمة هاربًا في اللحظات الأخيرة من جثة رجل متوسط العمر يرتدي سروالًا أزرق وقميصًا أبيض يهبط من أعلى. كان وونج وأونيل يعرفان بعضًا منذ أكثر من عشرين عامًا، وحتى في ظل ذلك الارتباك، كان أونيل يبدو هادئًا وأنيقًا وهو يرتدي حلته الداكنة المعتادة وبها منديل أبيض في جيب السترة، ولم يكن أي شيء غير معتاد في هيئته سوى بقعة واحدة من الرماد على ظهره. فسأل أونيل وونج ما إذا كانت هناك أية معلومات يمكنه أن يخبره بها، لأنه يعلم أنه لم يعد أحد رجال مكتب التحقيقات الآن ولا يحق له الاطلاع على أية معلومات سرية. وسأله: «هل صحيح أن البنتاجون قد تعرض للهجوم أيضًا؟» فأجابه قائلًا: «لا أعلم يا جون، دعني أحاول اكتشاف الأمر.» ولكن في ذلك الوقت كان هاتف أونيل يواجه مشكلة في استقبال المكالمات، وبدأ هو يسير مبتعدًا فقال له: «سألحق بك فيما بعد.» آخر مرة شاهد فيها وونج أونيل كانت وهو يسير باتجاه النفق الذي يقود إلى البرج الجنوبي.

وفي التاسعة والدقيقة الثامنة والثلاثين صباحًا، اصطدمت الطائرة الثالثة بالمقر الرئيسي للقوة العسكرية الأمريكية ورمز عظمتها: البنتاجون. وعندما وصلت أخبار الهجوم على البنتاجون إلى بن لادن، رفع أربعة أصابع أمام أعين أتباعه المذهولين، ولكن الضربة الأخيرة على الكونجرس، لم يكتب لها النجاح.

اتصل علي صوفان بأونيل من اليمن، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه.

التقط ستيفن جودين الذي عاد لتوه من مدرسة لغات في فيرمونت، قطعة من طائرة عند التقاء شارعي تشرش وفيسي، وقال لنفسه وهو يخالجه شعور بالعجز: «إنني لم أطرح ما يكفي من الأسئلة؟» وعلى بعد أقدام قليلة منه، كان باري ماون يسير غربًا في شارع فيسي باتجاه مركز القيادة الطارئ الذي أقامته الشرطة، ورأى في طريقه قدم سيدة ترتدي جوربًا ورديًا وحذاء تنس أبيض. وفجأة ارتجفت الأرض تحت قدميه، فنظر إلى أعلى ليجد أن البرج الجنوبي ينهار من الأعلى قاذفًا سحابة رمادية هائلة من غبار الأسمنت المسحوق على أبراج المكاتب المحيطة به كشلال عملاق. كان المشهد كما لو أن قطارًا سريعًا يزأر داخل المحطة متبوعًا برياح ضخمة. وكان ماون، الذي يعاني من فتق في قرص أحد فقرات ظهره، يجري وهو يعرج وراء رجلي إطفاء يركضان عبر النوافذ المحطمة للمبنى السابع من مباني مركز التجارة العالمي. كان هناك ستة أو سبعة أشخاص يختبئون معًا في الردهة ويحتمون خلف عمود واحد، فصرخ فيهم أحد رجال الإطفاء أن يتمسكوا ببعضهم ولا يتركوا بعضًا. وفي تلك اللحظة، سقطت الأنقاض كما لو أنها قنبلة جديدة، ولولا أنهم كانوا يختبئون خلف عمود لتمزقت أجسادهم إربًا. ساد الغرفة بعد ذلك ظلام دامس وكان الرجال يختنقون من الغبار الكثيف الخانق، وفي الخارج كان كل شيء يحترق.

وعلى بعد أمتار قليلة، كانت ديبي دوران وآبي بيركنز Abby Perkins اللتين كانتا في الفرقة I-49 في الدور السفلي لمبنى عند التقاء شارعي تشرش وفيسي. وتذكرتا روزي، السيدة التي فشلت قوات الإنقاذ في إنقاذها من تحت أنقاض السفارة الأمريكية في نيروبي عام ١٩٩٨م. لقد ماتت من الجفاف، وتوقعتا أن تدفنا تحت المبنى، فأخذتا تملآن سلال القمامة بالمياه.

كان دانيال كولمان في سيارة المكتب بالقرب من كنيسة سانت بول ينتظر عضوًا آخر من الفرقة I-49، عندما رأى إعصارًا قادمًا من شارع برودواي، وكان الأمر مبهمًا وغامضًا في نظره. فركض شريكه من أمامه متجهًا إلى الشمال، فصرخ فيه كولمان: «اصعد إلى السيارة»، وقفز إلى السيارة أيضًا أربعة من رجال الشرطة كان أحدهم يتعرض لأزمة قلبية. ثم ابتلعهم الضباب الأسود تمامًا، فقال أحد ضباط الشرطة وهو يلهث: «أدر جهاز التكييف»، فأشعله كولمان ولكن السيارة امتلأت بالدخان، فأطفأه بسرعة.

twitter @baghdad_library

صاح به الجميع كي ينطلق من ذلك المكان، ولكنه لم يكن يرى أمامه، فانطلق بالسيارة إلى الخلف واندفع إلى مدخل طريق فرعي. ثم ظهرت سيارة إسعاف فخرج رجال الشرطة من السيارة، وتركها كولمان بدوره وخرج يبحث عن باقي أعضاء فرقته.

سار كولمان داخل السحابة في الاتجاه المعاكس للأشخاص الذين يفرون من المكان والذين غطاهم الرماد تمامًا كأنهم أشباح بعثوا من قبورهم. وكان هو أيضًا مغطى بمادة بيضاء وكأنه رجل الثلج، وبدأ الغبار يتصلب على رأسه محولًا شعره إلى ما يشبه الخوذة. وكان الغبار مزيجًا من الأسمنت ومادة الأسبستوس والرصاص والألياف الزجاجية والأوراق والقطن ووقود الطائرات وأشلاء جثث ٢٧٤٩ شخصًا قتلوا في البرجين.

سمعت فاليري صرخات في مكتب التأجير المجاور لها، فهرعت إليه لتشاهد شاشة التليفزيون الضخمة، وما إن رأت البرج الجنوبي وهو ينهار حتى انهارت بدورها على أحد المقاعد وهي تقول: «يا إلهي، لقد مات جون.»

twitter @baghdad_library

الفصل العشرون

تجلي الحقائق

أصدر مكتب التحقيقات الفيدرالي أمرًا لعلي صوفان وباقي الفريق في اليمن بالعودة إلى الولايات المتحدة على الفور. وفي صباح اليوم التالي لهجمات ١١ سبتمبر/أيلول، أسدى رئيس مكتب المخابرات الأمريكية في عدن للفريق معروفًا وأقلهم إلى المطار في صنعاء. وعندما كان يجلس معهم في قاعة الانتظار في المطار، جاءه اتصال على هاتفه المحمول، فقال لصوفان: «إنهم يريدون التحدث إليك.»

فقام أحد خبراء الاتصالات في فريق مكتب التحقيقات بإخراج الهاتف المتصل بالأقمار الصناعية وإعداد طبق الاستقبال حتى يستطيع صوفان إجراء الاتصال. وعندما تحدث إلى دينا كورسي في المقر الرئيسي طلبت منه أن يبقى في اليمن، فشعر صوفان بالضيق من الأمر فقد أراد العودة إلى نيويورك على الفور للمشاركة في التحقيق في الهجمات على الولايات المتحدة، ولكنه وجد كورسي تقول له: «الأمر يتعلق أيضًا بما حدث أمس، إن القُصع هو الخيط الوحيد لدينا.»

ولم تخبر كورسي صوفان بالمزيد، فأخرج حقائبه من الطائرة ولكنه كان يشعر بحيرة شديدة؛ فما علاقة القُصع، المصور النائم في عملية تفجير المدمرة كول، بهجمات ١١ سبتمبر/أيلول؟ وقد بقي معه في اليمن محقق آخر هو روبرت ماكفادن Robert McFadden واثنان من فريق التكتيك والأسلحة الخاصة لتأمين وجوده.

وكان الأمر الصادر من المقر الرئيسي هو التعرف على هوية مختطفي الطائرات التي نفذت العملية «بأية وسيلة ممكنة»، وهي تعليمات لم يرها صوفان من قبل. وعندما عادوا إلى السفارة، جاء فاكس على خط مؤمن به صور المشتبه بهم. ثم انتحى رئيس مكتب المخابرات الأمريكية بصوفان جانبًا وسلمه ظرفًا بني اللون مصنوع من الورق المقوى وبداخله ثلاث صور استطلاعية وتقرير كامل عن اجتماع ماليزيا، أي المعلومات التي كان صوفان يطالب بها والتي كانت المخابرات ترفض أن

تمنحه إياها حتى تلك اللحظة. لقد انهار الحائط! وعندما أدرك صوفان أن الوكالة وبعض رجال مكتب التحقيقات يعرفون منذ أكثر من عام ونصف العام أن اثنين من المختطفين موجودان داخل الولايات المتحدة بالفعل، لم يتمالك نفسه وهرع إلى الحمام ليتقيأ.

كان يظهر في إحدى الصور رجل يشبه القصع. فذهب صوفان إلى اللواء غالب القمش مدير جهاز الأمن السياسي وطلب منه أن يرى السجين القصع مرة أخرى، فسأله اللواء: «ما علاقة هذا بتفجير المدمرة كول؟»

فأجابه صوفان: «أنا لا أتحدث عن كول، الأخ جون مفقود» وأراد أن يقول شيئًا آخر ولكن الكلمات اختنقت في حلقه فلم يستطع أن يكمل، واغرورقت عينا اللواء بالدموع أيضًا. سادت بعد ذلك برهة طويلة من الصمت ملأها الفراغ الرهيب الذي خلفه رحيل أونيل.

قال اللواء: إن السجين في عدن وإن هناك رحلة واحدة أخيرة ذلك المساء إلى العاصمة، فالتقط هاتفه وأخذ يصيح في مرءوسيه بلهجة آمرة: «أريد أن يحضر القُصع بالطائرة إلى هنا الليلة!» كاد الأمريكيون يسمعون صوت كعب حذاء الطرف الآخر على الهاتف وهو يضرب الأرض بقوة في طاعة. ثم اتصل اللواء بالمطار وطلب أن يوصلوه بالطيار، ثم أمره قائلًا: «لن تقلع بالطائرة حتى يكون السجين على متنها.»

وفي منتصف الليل، كان القُصع يجلس في مكتب جهاز الأمن السياسي وهو في مزاج سيئ للغاية وقال لصوفان: «لا حاجة بك إلى التحدث إلي، لمجرد أن شيئًا ما حدث في نيويورك أو واشنطن.» فأخرج له صوفان ثلاث صور استطلاعية تضمنت المختطفين المحضار والحازمي، ولكن القُصع أنكر أنه يظهر في أي من تلك الصور.

وفي اليوم التالي، أعطت المخابرات الأمريكية صوفان أخيرًا الصورة الرابعة لاجتماع ماليزيا، التي كانت لا تزال تحجبها حتى تلك اللحظة. تعرف القُصع على مضض على الشخص الموجود في الصورة وقال إنه خلاد، وكان صوفان يعرفه بالفعل، فخلاد هو العقل المدبر لعملية المدمرة كول. وكانت تلك الصورة هي أول خيط يربط بين القاعدة وهجمات ١١ سبتمبر/أيلول.

كان صوفان يحقق مع القُصع ليلًا ثم يكتب التقارير ويجري بحثه في أثناء النهار، واستمر هذا الأمر لمدة ثلاثة أيام. وفي الليلة الرابعة، انهار صوفان من الإرهاق والتعب ونُقِل إلى المستشفى، ولكنه عاد في صباح اليوم التالي إلى مكتب جهاز الأمن

twitter @baghdad_library

السياسي. وتعرف القصع على مروان الشحي الطيار الذي قاد الرحلة ١٧٥ التابعة لشركة يونايتد إيرلاينز التي اصطدمت بالبرج الثاني. وقد قابل الشحي في منزل الضيوف في قندهار، ويتذكر أن الشحي كان مريضًا في أثناء شهر رمضان وأن أمير منزل الضيوف هو من كان يرعاه، وكان ذلك الأمير هو أبو جندل. وبالصدفة، كان أبو جندل أيضًا في قبضة السلطات اليمنية.

كان أبو جندل رجلًا ضخم الجثة، مقارنة باليمنيين، قوي البنية له لحية سوداء كبيرة، مع أنه قد وهن قليلًا ولانت عريكته بعد الشهور التي قضاها في السجن. وقد عرف صوفان على الفور أنه حارس بن لادن الشخصي.

تجهم أبو جندل في وجه الأمريكيين وسأل: «ماذا يفعل هؤلاء الكفار هنا؟» ثم أخذ واحدًا من المقاعد البلاستيكية وأداره وجلس وهو يعقد ساعديه أمام صدره وظهره في اتجاه المحققين.

وبعد قليل من الملاطفة، تمكن صوفان من أن يجعل أبا جندل يواجهه، ولكنه كان لا يزال يرفض أن ينظر إليه مباشرة وهو يحدثه. ولكن كان من الواضح أن أبا جندل يريد التحدث، فقد ألقى خطبة صاخبة طويلة مناهضة لأمريكا بسرعة شديدة بلهجة أهل الحجاز، واشتكى أيضًا من أنه محتجز دون أن توجه إليه أية تهمة، وظل يسأل: «لماذا أنا محتجز؟»

وقد ألقى الأمريكيون السؤال نفسه على نظرائهم اليمنيين في أثناء وقت الراحة، فأجابوهم: «إنه مشتبه به.»

فعاد الأمريكيون ليسألوا: «مشتبه به في ماذا؟»

فأجاب الضابط اليمني: «مجرد مشتبه به.»

وفي أثناء التحقيق، أدرك صوفان أن السجين مدرب جيدًا على أساليب التصدي للتحقيقات، حيث إنه كان يوافق بسهولة على أشياء كان صوفان يعرفها بالفعل، مثل أنه حارب في البوسنة والصومال وأفغانستان، وينكر ما دون ذلك. وكانت إجاباته مختارة بحيث تدفع المحققين لأن يشكوا في صحة افتراضاتهم. فقد صور أبو جندل نفسه على أنه مسلم صالح فكر في السير في طريق الجهاد ولكنه تحرر من ذلك الوهم، ولم يكن يرى أنه قاتل، بل ثوري يحاول أن يخلص العالم من الشر الذي يؤمن أنه يأتي في المقام الأول من الولايات المتحدة الأمريكية، وهي بلد لا يعرف عنه شيئًا من الناحية العملية.

وبمرور الليالي، تحمس أبو جندل للعبة التحقيقات. وقد كان في بداية الثلاثينات من عمره، أي أكبر سنًّا من معظم الجهاديين، وقد نشأ وترعرع في جدة، مسقط رأس بن لادن، وكان واسع الاطلاع في الدين. وكان يستمتع كثيرًا باحتساء الشاي ومحاضرة الأمريكيين عن النظرة الإسلامية المتطرفة للتاريخ؛ لقد كان اجتماعيًّا، وهذه هي نقطة ضعفه. فلجأ صوفان إلى امتداحه واستدراجه إلى نقاشات دينية، ومن خلال تلك المناقشات، كان صوفان يحصل على العديد من التفاصيل المفيدة، مثل أنه قد سئم القتال وأنه انزعج كثيرًا عندما بايع بن لادن الملا عمر، وأنه قلق على ولديه اللذين يعاني أحدهما مرضًا في العظام. ولاحظ صوفان أيضًا أن أبا جندل كان يبتعد عن تناول الفطائر المحلاة التي كانت تأتي مع القهوة، واعترف أنه مريض بالسكر. لقد كانت تلك المعلومات حقائق بسيطة تمكن صوفان من الانتفاع بها لحمله على التعرف على مختطفي الطائرات.

في الليلة التالية، اشترى الأمريكيون رقائق خالية من السكر لأبي جندل الذي قدر كثيرًا تلك المجاملة اللطيفة. وأحضر له صوفان أيضًا كتابًا عن تاريخ أمريكا باللغة العربية.

كان صوفان وما يمثله يثير حيرة أبي جندل: فهو مسلم على قدر جيد من الوعي الديني حتى إنه كان يجاريه في مناقشاته حول الإسلام ويعمل في مكتب التحقيقات الفيدرالي ويحب أمريكا. فالتهم صفحات الكتاب الذي أعطاه له صوفان بسرعة، وصُدِم عندما قرأ عن الثورة الأمريكية والنضال الشديد ضد الطغيان الذي نُسِجت خيوطه في التراث الأمريكي، فلقد كانت نظرته إلى العالم مبنية على أن الولايات المتحدة هي منبع الشر في العالم.

وفي الوقت نفسه، كان صوفان يحاول أن يعرف الحدود الأخلاقية لأبي جندل، فسأله عن الطريقة الصحيحة لإعلان الجهاد. فتحدث أبو جندل بحماسة عن كيف من المفترض أن يعامل المحارب خصمه في المعركة، فالقرآن والأحاديث مليئان بالتعاليم الخاصة بالأسس الأخلاقية للحروب.

وأراد صوفان أن يعرف أين تقر هذه التعاليم التفجيرات الانتحارية. فقال أبو جندل: إن العدو يتفوق عليهم في الأسلحة، ولكن منفذو العمليات الانتحارية يوازنون بين كفتي الميزان، وقال: «إنهم هم صواريخنا.»

فسأله صوفان ماذا عن النساء والأطفال، أليس من المفترض حمايتهم؟ وأشار إلى تفجير السفارتين في شرق أفريقيا. وذكر أنه كانت هناك سيدة في حافلة أمام

twitter @baghdad_library

سفارة نيروبي وجدت تحتضن طفلها بقوة محاولة حمايته من اللهب، وقد تحول الاثنان إلى كتلة من النار ثم إلى رماد. فما الإثم الذي اقترفته الأم؟ وماذا عن روح طفلها؟

فأجابه أبو جندل: «سيعطيهما الله أجرهما في الآخرة، ثم هل تتخيل كم عدد الذين انضموا إلى بن لادن بعد تفجيرات السفارتين؟ لقد جاء المئات طالبين الشهادة.»

فأخبره صوفان أن الكثير من ضحايا تفجيري شرق أفريقيا، وربما معظمهم، كانوا مسلمين. وبدأت المناقشات تحتدم بينهما، وكان أبو جندل يلجأ في العديد من المواقف إلى الاستشهاد بآراء بعض علماء الدين البارزين أو إلى آيات من القرآن، ولكنه وجد أن صوفان نظير يفوقه في مناقشة المسائل الدينية. وفي النهاية، أكد له أبو جندل أن التفجيرات كانت في يوم الجمعة حيث من المفترض أن يكون الضحايا في المساجد، ولكن لأنهم لم يكونوا هناك، فهم ليسوا مسلمين حقًّا؛ أي استند إلى النظرية التكفيرية المألوفة. ولكن على الأقل عرف صوفان أين تنتهي حدوده الأخلاقية.

وفي الليلة الخامسة، ألقى صوفان على المنضدة بينهما صحيفة توضح صورًا للطائرات التي اصطدمت بالبرجين ومبنى البنتاجون، وصورًا فوتوغرافية واضحة لأشخاص سجنوا داخل البرجين، وقافزين سقطوا من على ارتفاع مائة طابق، وقال له: «بن لادن فعل هذا.»

كان أبو جندل قد سمع عن الهجمات ولكنه لم يعرف الكثير من التفاصيل، فأخذ يحدق في الصور بدهشة وقال إنها تبدو «كفيلم من أفلام هوليود»، ولكن كان من الواضح أن المشاهد الفظيعة التي رآها قد زلزلت كيانه. وكان الجميع آنذاك يعتقد أن عدد الضحايا وصل إلى عشرات الآلاف.

كان مع صوفان وأبي جندل في غرفة التحقيقات الصغيرة المحقق ماكفادن واثنان من المحققين اليمنيين، وقد شعر الجميع أن صوفان يقترب من هدفه. وكانت القوات الأمريكية وقوات التحالف التي تساندها تستعد لشن حرب على أفغانستان ولكنها كانت تنتظر معلومات عن هيكل القاعدة ومواقع مخابئها وخططها للهروب، وكان مسئولو المخابرات الأمريكية يأملون أن ينجح صوفان والمحققون الآخرون في الحصول عليها.

وبالصدفة وجد صوفان صحيفة يمنية محلية على رف أسفل منضدة القهوة، فأعطاها لأبي جندل ليقرأ فيها عنوانًا رئيسيًّا يقول: «مائتا يمني يلقون مصرعهم في هجمات نيويورك». قرأ أبو جندل العنوان والتقط نفسًا عميقًا وهو يتمتم: «فليرحمنا

الله!» سأله صوفان أي نوع من المسلمين يفعل شيئًا كهذا، فأصر أبو جندل أنه من المؤكد أن الإسرائيليين هم من شن الهجمات على نيويورك وواشنطن وليس بن لادن وقال: «إن الشيخ ليس مجنونًا إلى هذا الحد.»

أخرج صوفان ألبوم يضم صور لوجوه بعض أعضاء القاعدة المعروفين وصور مختلفة للمختطفين، وطلب من أبي جندل أن يتعرف على تلك الصور. قلب اليمني صفحات الكتيب بسرعة ثم أغلقه.

ففتحه صوفان مرة أخرى وأخبره أن يستغرق ما يشاء من وقت، وقال: «لقد ألقينا القبض على بعضهم» وهو يأمل ألا يدرك أبو جندل أن جميع المختطفين قد ماتوا.

توقف أبو جندل هنيهة عند صورة مروان الشحي قبل أن يقلب الصفحة، فقال له صوفان: «انظر جيدًا إلى هذه الصورة، إنك تعرفه! تذكر شهر رمضان عام ١٩٩٩م عندما كان مريضًا وأنت أميره وكنت ترعاه.»

فنظر إليه أبو جندل في ذهول، فقال له صوفان: «عندما أطرح عليك سؤالًا، فأنا أعرف إجابته بالفعل، فإذا كنت ذكيًا، ستخبرني الحقيقة.»

اعترف أبو جندل بأنه كان يعرف الشحي وأخبره باسمه الحركي في القاعدة وهو عبد الله الشرقي، وفعل الأمر نفسه مع محمد عطا وخالد المحضار وأربعة آخرين. ولكنه كان لا يزال يصر على أن بن لادن لا يمكن أن يقترف مثل هذا العمل، وأنه من عمل الإسرائيليين.

فقال له صوفان: «أنا واثق أن منفذي هذه العملية هم أعضاء من القاعدة.» ثم أخرج سبع صور من مجلد الصور ووضعها أمامه على الطاولة، فسأله أبو جندل: «كيف تعرف هذا؟ من أخبرك؟»

فأجابه صوفان: «أنت فعلت. هؤلاء هم مختطفو الطائرات التي نفذت العملية، لقد تعرفت عليهم بنفسك.»

امتقع وجه أبي جندل وشحب بشدة، فدفن وجهه بين يديه وقال في تضرع: «امنحني دقيقة.»

فخرج صوفان من الغرفة، وعندما عاد سأل أبا جندل عن رأيه، فقال: «أعتقد أن الشيخ قد فقد صوابه» ثم أخبر صوفان بكل ما يعرفه.

twitter @baghdad_library

تلقى مارك روسيني أخبارًا أن جون أونيل بخير، لذا فقد قضى الكثير من الوقت ذلك اليوم واليوم الذي يليه يجري اتصالات هاتفية بأصدقاء أونيل في جميع أنحاء العالم يطمئنهم أن أونيل بخير. وبعد أن عرف الحقيقة، كان عليه أن يتصل بهم جميعًا مرة أخرى. وكان يشعر بالحنق الشديد من أونيل نفسه، فيقول: «ذلك الأحمق اللعين، لماذا لم يهرب وينج بحياته؟» ولمدة أسابيع، عندما عاد روسيني إلى وطنه، كان يجلس في سيارته ويبكي قبل أن يدخل إلى منزله. وقد أصيب بعض العملاء بانهيار عصبي، وأصيب آخرون مثل دانيال كولمان بضرر دائم في الرئتين بسبب الغبار الذي استنشقوه ذلك اليوم.

ظل مركز التجارة العالمي يحترق لمدة مائة يوم. وطوال تلك المدة، كانت رائحة الدخان القوية الخانقة تخترق مكتب التحقيقات الفيدرالي لتذكر عملاءه بمرارة بفشلهم الذريع في منع هذه الهجمات، ونجاتهم من الموت بأعجوبة. وقد لقي أحد العملاء النشطين، وهو ليونارد هاتون Leonard Hatton خبير المتفجرات، حتفه بالفعل. وقد عمل هاتون في التحقيق في تفجير السفارتين والمدمرة كول مع أونيل، ومات وهو يحاول إنقاذ الضحايا في البرجين. وفي الشهور المحمومة الطويلة التي تبعت يوم ١١ سبتمبر/أيلول، كان أعضاء الفرقة I-49 يعيشون ما بين صدمتهم وحزنهم وشعورهم بالخزي، فقد كانوا يعلمون أكثر من أي شخص آخر في البلد الخطر الذي يحدق بأمريكا، ولكن كانت الفرقة إلى حد بعيد وحيدة في مساعيها. فمنذ تفجيرات السفارة وهم يعملون بلا كلل، ويقضون أشهرًا طويلة بل وسنوات أيضًا خارج البلد، وقد خسر الكثير منهم حياته الزوجية أو علاقات مهمة في حياته بسبب ما تجلبه عليهم تحقيقاتهم. لقد كانوا منهكي القوى حتى قبل ١١ سبتمبر/أيلول، ولكن بعد ذلك اليوم امتزجت معاناتهم بوصمة العار التي لحقت بهم لأنهم لم يمنعوا المأساة التي كانوا يعرفون أنها قادمة.

كان وجه أونيل واحدًا من آلاف الإعلانات الملصقة المخطوطة باليد التي تملأ جدران سلطة الموانئ ومحطة سكة حديد جراند سنترال وأعمدة الهواتف في جميع أنحاء مانهاتن. وعلى الرغم من ضآلة الاحتمالات، فقد أقسم جون ماكيلوب John Mckillop، شقيق فاليري الذي يعمل في خدمات الطوارئ الطبية في شيكاغو، أن يعثر على أونيل. فقاد هو وخمسة وعشرون من زملائه سياراتهم إلى نيويورك تصحبهم حراسة من الشرطة طوال الطريق. وقد كانوا ضمن الكثير من قوافل خدمات الطوارئ التي هرعت من تلقاء نفسها إلى المدينة من جميع أنحاء الولايات المتحدة. وقد كان

من الغريب أن تظهر القوات العسكرية في شوارع مدينة أمريكية ناصبة المدافع لحماية الجسور والمباني المهمة، وقد أغلقت الموانئ الجوية في جميع أنحاء أمريكا، في حين كانت الطائرات الحربية تجوب السماء.

عندما وصل ماكيلوب إلى موقع الانفجار، صُعِق بجبل الأنقاض المحترقة الضخم الذي رآه أمامه. وكان عمال الإنقاذ ينقبون ليلًا ونهارًا بحثًا عن ناجين ولكن المشهد البشع أطفأ بريق الأمل داخل ماكيلوب الذي قال: «كل ما كنت أفكر فيه هو ماذا سأقول لشقيقتي؟»

العديد من جثث من قتلوا في مركز التجارة العالمي لم يُعثَر عليها قط، ولكن في الحادي والعشرين من سبتمبر/أيلول وجد عمال الإنقاذ تحت الأنقاض بالقرب من التقاء شارعي ليبرتي وجرينتش جثة رجل يرتدي حلة زرقاء بها محفظة في جيب سترته؛ جثة جون.

وفي العديد من الجوانب، شكل ضحايا مركز التجارة العالمي ما يشبه برلمانًا عالميًا يمثل اثنتين وستين دولة، وتقريبًا كل جماعة عرقية ودين في العالم. فقد كان من بينهم سمسار أوراق مالية كان ينتمي فيما مضى إلى جماعات الهيبز، الخنافس، وقس كاثوليكي شاذ جنسيًا كان يعمل في إدارة إطفاء الحرائق بمدينة نيويورك، ولاعب هوكي ياباني، وطاهٍ إكوادوري، وأحد هواة جمع عرائس باربي، وخطاط نباتي، ومحاسب فلسطيني ... إلخ. لقد أثبت ارتباط هؤلاء الضحايا بجوانب متعددة من الحياة صحة التعاليم القرآنية بأن من قتل نفسًا واحدة فكأنما قتل الناس جميعًا. لقد وجهت القاعدة ضربتها لأمريكا، ولكنها أصابت البشرية بأكملها.

بينما كانت أشلاء الجثث تخرج من تحت الأنقاض، كانت تُصنَّف ويُتعرَّف عليها غالبًا باستخدام الحمض النووي الذي حصل عليه رجال الطوارئ من أهالي المفقودين الذين كانوا يمدونهم، على سبيل المثال، بخصل شعر من فرشاة الضحية. وكان كل جزء من أي جثة يعامل معاملة واحدة، فيما عدا عند اكتشاف جثة أي من أكثر من أربعمائة من أفراد الجيش والشرطة ورجال الإطفاء، فقد كانت جثثهم تمر ببروتوكول خاص، وقد حصل أونيل على ذلك التقدير. فقد غُطي جسده بالعلم الأمريكي وأدى رجال شرطة مدينة نيويورك ورجال الإطفاء الذين ينقبون في الأنقاض التحية العسكرية في حين كانت جثته تُنقَل إلى سيارة الإسعاف.

عندما كان أونيل في أتلانتك سيتي في صباه، كان شماسًا في كنيسة سانت نيكولاس. ولكن في الثامن والعشرين من سبتمبر/أيلول، اجتمع ألف شخص في

twitter @baghdad_library

الكنيسة نفسها ليودعوه إلى مرقده الأخير. وقد كان العديد منهم عملاء فيدراليين وضباط شرطة ورجال من أجهزة مخابرات أجنبية حذوا حذو أونيل في الحرب ضد الإرهاب قبل أن تصبح شعارًا يحتشد تحته الكثيرون. وفي الأيام العصيبة التي تلت الهجمات، كانت الشوارع حول الكنيسة مغلقة بالمتاريس، بالإضافة إلى طائرة هليكوبتر عسكرية تحوم السماء فوقها.

وحتى تلك اللحظة، لم يكن ريتشارد كلارك قد بكى قط منذ أن وقعت هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، ولكن عندما بدأت موسيقى التأبين ومر التابوت الذي يضم جسد أونيل من جواره، انهار فجأة. وتذكر الحوار الأخير الذي دار بينه وبين أونيل بعد أن رفض الأخير المنصب وقال له: «انظر إلى الجانب المشرق من الأمر، فكلما تأتي إلى نيويورك، يمكنك المجيء إلى مطعم نوافذ على العالم.» ثم قال له في النهاية: «أينما ينته بنا المآل، سنظل دائمًا أشقاء.»

ومن ناحية أخرى، كانت جنازة أونيل الصدفة المفجعة التي كان يخشاها طوال حياته. فقد حضرتها زوجته وولداهما وفاليري جيمس وولداها وآنا ديباتيستا وقابل بعضهم بعضًا للمرة الأولى وأزيح الستار فجأة عن جميع أسراره. ولكن كانت ذكراه حاضرة أيضًا. وكان أكثر ما يندم عليه أونيل في حياته هو فشله في أن يكون أبًا صالحًا، ولكن في شهر مايو/أيار من ذلك العام، منحه القدر فرصة أخرى عندما وصل أول أحفاده إلى الدنيا. ومن المفارقات العجيبة، أن أونيل الذي لم يجد أية صعوبة في رعاية حفيد فاليري، واجه مشكلة في تقبل وضعه الجديد كجد، الأمر الذي يدق دائمًا إنذار خطر، حتى إنه استغرق شهرين كي يتمكن من الذهاب ليرى حفيده. ولكن بعد ذلك، علق الرجل الذي لم يحتفظ أبدًا بأية صورة عائلية في مكتبه صورة لحفيده على الحائط الذي يعلق عليه تذكاراته وميدالياته. وقد كتب أونيل في خطاب إلى حفيده قرأه ابنه مفطور القلب في جنازته: «لقد ولدت في أعظم بلد في العالم. لا بأس في أن تتعرف إلى الخلفيات العرقية لوالديك، وأن تحب وتفتخر بالفلكلور القديم، ولكن لا تنس أبدًا أبدًا أنك أمريكي في المقام الأول، وأن الملايين من الأمريكيين قبلك قد حاربوا من أجل حريتك. إن هذه الأمة تمتلك كافة شروط حبنا لها. لذا فاحرص على أن تدعم وتقدر وتدافع عمن يحملون على عاتقهم واجب الدفاع عن أمنها وتدافع عنهم.»

ابتهج بن لادن والظواهري بنجاح العملية وهما ينتظران أن يهب المجاهدون من جميع أنحاء العالم الإسلامي ويتدفقوا على أفغانستان. وقد تفاخر بن لادن في شريط فيديو مسجل مسبقًا أذيع على قناة الجزيرة الإخبارية في السابع من أكتوبر/تشرين الأول اليوم التالي لشن قاذفات القنابل الأمريكية والبريطانية أولى هجماتها على مواقع طالبان: «ها هي أمريكا قد أصابها الله سبحانه وتعالى في مقتل من مقاتلها، فدمر أعظم مبانيها فلله الحمد والمنة. وها هي أمريكا قد امتلأت رعبًا من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها فلله الحمد والمنة.» ثم أصدر بعد ذلك دعوته قائلًا: «إن هذه الأحداث قد قسمت العالم بأسره إلى فسطاطين ... فسطاط الإيمان وفسطاط كفر أعاذنا الله وإياكم منه. فينبغي على كل مسلم أن يهب إلى نصرة دينه، وقد هبت رياح الإيمان.»

وفي مساء أحد الأيام، جلس بن لادن والظواهري في منزل للضيوف في قندهار وكانا في استضافة عالم سعودي قعيد اسمه خالد بن عودة بن محمد الحربي، فأخذ بن لادن يقص عليهم: «لقد قدرنا سلفًا عدد الضحايا من الأعداء، وقدرنا عدد الركاب في الطائرات الذين سيموتون. وبالنسبة للبرجين، فقد قدرنا أنه سيكون من بينهم مَن بالطوابق الثلاثة أو الأربعة التي سيتم ضربها. لقد كنت أكثرهم تفاؤلًا، وبخبرتي في هذا المجال (أعني في مجال البناء والتشييد) كنت أعتقد أن النيران التي ستندلع بسبب البنزين الموجود بالطائرة ستذيب الهيكل الحديدي للمبنى وتنهار المنطقة التي ستضربها الطائرة وكل ما يعلوها من أدوار فقط، وهذا كل ما كنا نأمله.»

غادر الكثير من عائلات أعضاء القاعدة بعد الهجمات مباشرة. وكان من بينهم مها السمنة، زوجة أحمد خضر صديق الظواهري، التي جمعت بعض الملابس والطعام واصطحبت أولادها إلى ملجأ أيتام في ولاية لوجار على بعد خمسين كيلومتر جنوب كابول. وقد اختبئوا هناك لمدة شهرين، وكان المكان يحتوي على بئر ومراحيض داخلية. وفي منتصف شهر نوفمبر/تشرين الثاني، أي بعد ليلتين من سقوط كابول، ظهرت عائلة الظواهري تطرق باب الملجأ وهي في حالة يرثى لها؛ فكان الأطفال حفاة، ولم تكن إحدى الفتيات مغطاة جيدًا. أما عزة زوجة الظواهري فقد كانت شديدة المرض، وقد أخبرتهم أنهم قد هربوا في البداية إلى خوست ثم عادوا إلى كابول للحصول على بعض المؤن، وحينها بدأ القصف الأمريكي.

twitter @baghdad_library

وقالت عزة وهي تعاني الحمى الشديدة: إنها لم تعرف أبدًا حقيقة زوجها؛ فتقول: «لم أعرف أبدًا أنه أمير جماعة، لا أستطيع أن أصدق هذا.» وقد بدا ذلك الأمر غريبًا لها، لأن الجميع كان يعلم بذلك الأمر.

كانت عزة تحمل عائشة أصغر بناتها التي تعاني متلازمة داون، وكانت الطفلة لا تزال ترتدي حفاضًا مع أنها قد بلغت العام الرابع من عمرها. وكانت عزة قلقة من أنها إذا ماتت، فلن يستطيع أحد آخر أن يرعى عائشة، وكانت الطفلة بريئة وصغيرة الحجم للغاية وتحتاج لمن يرعاها.

كان الجو آنذاك قد أصبح قارس البرودة، ومع أن الحرب كانت لا تزال في المدن، فقد كان رجال القاعدة يتمركزون في تورا بورا، وقررت عائلاتهم الفرار إلى باكستان. فكونوا قافلة كبيرة وشقوا طريقهم بالسيارات ببطء عبر الجبال. وتوقفت عزة وأطفالها في مدينة جارديز في منزل ضيوف جلال الدين حقاني، مسئول في حكومة طالبان، ولكن عائلة مها أكملت طريقها إلى خوست. وفي تلك الليلة، وقع انفجاران مدويان هائلان للغاية حتى إن بعض الأطفال تقيئوا وأصيب آخرون بالإسهال. وفي الصباح، ذهب أحد أبناء مها ليطمئن على أسرة الظواهري فوجد أن المنزل الذي كانوا فيه قد تعرض للقصف، وانهار السقف الأسمنتي محاصرًا عزة أسفله. وجد فريق الإنقاذ عائشة الصغيرة وقد أصيبت بجروح ولكن لا تزال على قيد الحياة، فوضعوها في الخارج على فراش في حين حاولوا إنقاذ عزة. وكانت عزة لا تزال حية ولكنها رفضت أن يخرجها رجال الإنقاذ حتى لا يروا وجهها، وفي النهاية، توقفت صرخاتها تمامًا. وعندما عاد عمال الإنقاذ ليرعوا الطفلة، اكتشفوا أنها قد تجمدت حتى الموت.

زار بن لادن والظواهري من تبقى من مقاتلي القاعدة في كهوف تورا بورا وحثاهم على الثبات في مواقعهم وانتظار الأمريكيين. ولكن بدلًا من هذا، وجد مقاتلو القاعدة أنفسهم يحاربون أفغانًا في أول أسبوعين من شهر ديسمبر/كانون الأول، بينما كان الأمريكيون يحلقون فوق رءوسهم في طائرات من طراز بي-٥٢ بعيدًا للغاية عن أيديهم، ويمطرون كهوفهم بوابل من قنابل ديزي كاتر. ويتذكر بن لادن: «كان عددنا ثلاثمائة مجاهد تقريبًا وكنا قد حفرنا مائة خندق منتشرة في مساحة لا تزيد عن ميل مربع، بمعدل خندق لكل ثلاثة إخوة حتى نتلافى الإصابات البشرية الكبيرة من القصف.» وعلى الرغم من استعداداته، فقد اكتشفت القوات البرية الأفغانية في

الثالث من ديسمبر/كانون الأول بعد أن قصفت القاذفات الأمريكية مجمع كهوف، أكثر من مائة جثة، وتعرفوا على ثماني عشرة منها وقالوا: إنهم من كبار قادة القاعدة.

شعر بن لادن أن المسلمين الذين لم ينضموا إليه قد خانوه، حتى قوات طالبان ولت الأدبار «ولم تصمد منهم إلا قِلة قليلة» كما قال بن لادن. وقد كتب في السابع عشر من ديسمبر/كانون الأول: «أما الباقون فاستسلموا أو فروا قبل لقاء العدو» انتهت المعركة القصيرة في تورا بورا بخسارة ساحقة للقاعدة، وللولايات المتحدة وحلفائها أيضًا الذين فشلوا في اعتقال من كانوا يسعون وراءه. وقد هرب بن لادن وباقي مقاتلي القاعدة إلى باكستان ناجين بحياتهم، ولكن بعد أن خسروا أفغانستان. وقد فضل بن لادن في ذلك الوقت أن يكتب ما وصفه بأنه وصيته الأخيرة.

وفي وصيته، حاول بن لادن أن ينقذ إرثه، فيكتب: «إنني أعتبر عامة المسلمين هم في هذا الزمن المشئوم بمثابة الوالدين والأقربين» وقد أشار إلى تفجيرات السفارتين في شرق أفريقيا وإلى تدمير مركز التجارة العالمي والهجوم على البنتاجون بأنها انتصارات عظيمة. وكتب أيضًا: «رغم النكسات التى ابتلانا بها الله سبحانه وتعالى، فستؤدي هذه الضربات الموجعة إلى زوال أمريكا والغرب الكافر بعد عشرات السنين بإذن الله.»

ثم توجه إلى مخاطبة عائلته فيقول: «أيتها الزوجات، جزاكن الله عني خيرًا، من أول يوم كنتن تعرفن أن الطريق مزروع بالأشواك والألغام، لقد تركتن متع الدنيا ونعيم الأهل واخترتن بجانبي شظف العيش» وقد ناشدهن ألا يفكرن في الزواج مرة أخرى، وقال أيضًا: «أما أنتم يا أبنائي، فسامحوني لأني لم أعطكم إلا القليل من وقتي منذ أن استجبت لداعي الجهاد ... لقد اخترت طريقًا محفوفًا بالأخطار، ومفروشًا بجميع ضروب الابتلاءات التي تكدر حياة المرء ... ولولا الخيانة، لكان الحال غير الحال والمآل غير المآل.» ثم نصحهم بعد ذلك بعدم الانضمام إلى القاعدة فقال: «أسوة بما أوصى به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ابنه عبد الله، فقد نهاه عن تولي الخلافة قائلًا له: «إن كانت خيرًا فقد أصبنا منه، وإن كانت شرًّا فحسب آل الخطاب ما ناله منها عمر».»

في مارس/آذار من عام ٢٠٠٢م، تجمع أعضاء القاعدة مرة أخرى في الجبال القريبة من خوست على مقربة من المأسدة. وكانت الطائرات الحربية تحوم السماء والقوات

twitter @baghdad_library

الأمريكية والأفغانية، بالإضافة إلى جنود من كندا وأستراليا والدنمارك وفرنسا وألمانيا والنرويج، تمسح الجبال في عملية أطلقوا عليها أناكوندا. وقد انحصر نطاق المعركة في وادي شاهي كوت على الحدود الشرقية الوعرة لأفغانستان. وكانت القوات الأمريكية قد رشت جنرالات الحرب المحليين، ومن المفترض أن الحدود أصبحت محكمة الإغلاق، وكان مقاتلو القاعدة تحت قصف مستمر. ومع ذلك، فقد امتطت مجموعة من الأشخاص خيولهم واتجهوا إلى باكستان دون أن تقف أي عقبة أمامهم.

وصلت تلك المجموعة إلى قرية قائد ميليشيا محلية اسمه جولا جان Gula Jan، ومن المحتمل أن عمامته السوداء ولحيته الطويلة تشيران إلى أنه كان من المتعاطفين مع طالبان. وقد قال جان بعد أربعة أيام: «لقد رأيت رجلًا عربيًّا ممتلئ الجسد كبير السن يرتدي نظارة قاتمة وعمامة بيضاء. وكان يرتدي الزي الأفغاني ولكن كان لديه معطف جميل، وكان معه عربيان آخران ملثمان.» ترجل ذو المعطف الجميل عن حصانه، وبدأ يتحدث بأسلوب مهذب ومرح وسأل جان ومرافقًا أفغانيًّا معه عن موقع القوات الأمريكية والتحالف الشمالي وقال: «إننا نخشى أن نقابلهم، دلانا على الطريق الصحيح.»

وفي حين كان الرجال يتحدثون، تسلل جان ليرى منشورًا أسقطته الطائرات الأمريكية في المنطقة. وكان المنشور يعرض صورة لرجل يرتدي عمامة بيضاء ونظارة وذي وجه كبير وممتلئ وأنف كبيرة وبارزة وشفتان ممتلئتان. وكانت لحيته غير المهذبة رمادية عند الصدغين ووخط الشيب أسفل ذقنه. وعلى جبهته العالية المحاطة بأحرف عمامته علامة صلاة كبيرة تكونت إثر ساعات طويلة من العبادة والسجود. وكانت عيناه تعكسان ذلك النوع من الحزم الذي قد يتوقعه المرء من طبيب، ولكنهما كانتا أيضًا تشعان قدرًا من الطمأنينة التي بدت في غير مكانها بصورة غريبة في إعلان عن رجل مطلوب. وجاء في المنشور أن ثمن رأس الظواهري خمسة وعشرون مليون دولار.

عاد جان للاشتراك في الحوار، وقال له الرجل الذي أصبح يثق أنه الظواهري: «بارك الله فيك وحفظك من أعداء الإسلام. حاول ألا تخبرهم من أين أتينا وإلى أين نتجه.»

كان هناك رقم هاتف على الإعلان ولكن جولا جان لم يكن لديه هاتف، واختفى الظواهري والعربيان المقنعان في الجبال.

twitter @baghdad_library

الشخصيات الرئيسية

أبو حفص المصري: ضابط شرطة مصري سابق وعضو في جماعة الجهاد تولى منصب القائد العسكري لتنظيم القاعدة بعد موت أبي عبيدة. واسمه الحقيقي هو محمد عاطف، وقد كان أحد أقرب المستشارين إلى بن لادن، وقُتل في غارة جوية أمريكية في نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠٠١م.

أبو هاجر العراقي: ضابط سابق في الجيش العراقي ومهندس كهربائي انضم إلى الجهاد في أفغانستان، وأصبح مستشارًا مقربًا من بن لادن في السودان. ومع أنه لم يتلق تعليمًا دينيًّا، فقد كان رئيس لجنة الفتوى في تنظيم القاعدة، وأصدر فتوتين تجيزان استخدام العنف ضد القوات الأمريكية وقتل الأبرياء. وأبو هاجر الآن معتقل في أحد السجون الأمريكية بعد أن طعن أحد حراس السجن بمشط بعد شحذ أسنانه، واسمه الحقيقي هو ممدوح محمود سالم.

أبو جندل: على غرار بن لادن، أبو جندل مواطن سعودي من أصل يمني. وفي عام ٢٠٠٠م، أصبح الحارس الشخصي الرئيسي لبن لادن في أفغانستان، وهو الذي أرسله بن لادن ليدفع مهر عروسه الخامسة. وقد ألقتْ السلطات اليمنية القبض على أبي جندل بعد تفجير المدمرة يو إس إس كول، وأصبح مصدرًا ثريًّا بالمعلومات لمكتب التحقيقات الفيدرالي، وهو الآن يعيش حرًّا في اليمن بعد أن أطلق سراحه.

أبو رضا السوري: رجل أعمال من دمشق هاجر ليعيش في مدينة كنساس، ثم انضم إلى الجهاد في أفغانستان عام ١٩٨٥م. وقد زُعم أنه كاتب الملاحظات المدونة بخط اليد لاجتماع الحادي عشر من أغسطس/آب عام ١٩٨٨م الذي نوقش فيه أمر تنظيم القاعدة علانية لأول مرة. وقد أصبح بعد ذلك صديق بن لادن ومستشار أعماله في

الخرطوم، وهو لا يزال يعيش هناك ويدير مصنعًا للحلوى، واسمه الحقيقي هو محمد لؤي بايزيد.

أبو عبيدة البنشيري: ضابط شرطة مصري سابق، ذاع صيته في أرض المعركة في أفغانستان قبل أن يقدمه الظواهري إلى بن لادن. وقد كان أبو عبيدة أول قائد عسكري للقاعدة، ولقي حتفه في حادث غرق مركب في بحيرة فيكتوريا في مايو/أيار من عام ١٩٩٦م، واسمه الحقيقي هو أمين علي الرشيدي.

سيف العدل: القائد العسكري لتنظيم القاعدة منذ عام ٢٠٠٢م، واسمه الحقيقي غير معروف، ربما يكون محمد إبراهيم مكاوي، ضابط سابق في الجيش المصري، ويُعتقد أنه يختبئ في إيران.

عبد الله أنس: مجاهد جزائري، قاتل مع أحمد شاه مسعود وتزوج من ابنة عبد الله عزام. وقد عمل أنس مع أسامة بن لادن وجمال خليفة في مكتب الخدمات، ويعد أعظم محاربي الأفغان العرب. واسمه الحقيقي هو بو جمعة بونوا، وهو يعيش حاليًا في لندن ويعمل إمامًا لمسجد فينزبوري بارك.

جون أنتيسيف: العميل الفيدرالي في الفرقة I-49 الذي حصل على رقم الهاتف المهم في اليمن الذي يخص أحمد الحدا والذي كان يمثل مركز استقبال مكالمات القاعدة.

محمد عطا: القائد المصري لفريق اختطاف الطائرات الذي نفذ هجوم ١١ سبتمبر/أيلول، وهو الطيار الذي تولى قيادة طائرة الرحلة رقم ١١ التابعة لأمريكان إيرلاينز التي ضربت مركز التجارة العالمي.

عبد الله عزام: عالم دين فلسطيني جذاب الشخصية، وهو مؤسس مكتب الخدمات في بيشاور عام ١٩٨٤م. وقد فتحت فتواه التي دعا فيها المسلمين إلى طرد الاحتلال السوفييتي من أفغانستان الباب أمام اشتراك العرب في تلك الحرب. وقد اغتيل في الرابع والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٨٩م في جريمة لم يحل لغزها.

محفوظ عزام: هو خال والدة أيمن الظواهري وعميد العائلة، ومحامٍ له باع طويل في المهنة إلى جانب كونه شخصية سياسية في القاهرة. وقد كان تلميذ سيد قطب ثم أصبح محاميه بعد ذلك، ولا يزال يعيش في حلوان في مصر.

twitter @baghdad_library

أميمة عزام: والدة أيمن الظواهري، وهي لا تزال تعيش في حي المعادي في مصر.

أحمد باديب: مدرس أسامة بن لادن السابق في مدرسة الثغر، وقد أصبح بعد ذلك مدير مكتب الأمير تركي. وبعد الجهاد الأفغاني، أصبح باديب رئيس مجلس إدارة وكالة أنباء يونايتد برس إنترناشونال. وهو الآن رجل أعمال يعيش في جدة وقد خاض حملة انتخابية خاسرة في أول انتخابات محلية في السعودية عام ٢٠٠٥م.

سعيد باديب: المدير المختص بتحليل المعلومات الاستخباراتية للأمير تركي وهو شقيق أحمد باديب، وقد تقاعد الآن من العمل ويعيش متنقلًا ما بين جدة وواشنطن العاصمة.

حسن البنا: مؤسس جماعة الإخوان المسلمين والمرشد العام للجماعة، وقد اغتالته السلطات المصرية في عام ١٩٤٩م.

خالد بطارفي: صديق صبا أسامة بن لادن وجاره في جدة، وهو الآن محرر في جريدة المدينة وكاتب عمود منتظم في صحيفة أراب نيوز.

رمزي بن الشيبة: عضو في خلية هامبورج أشرف على مخطط هجمات ١١ سبتمبر/أيلول. وقد ألقي القبض عليه في كراتشي في باكستان في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م، وهو الآن في أيدي السلطات الأمريكية في مكان غير معروف.

عبد الله بن لادن: الابن الأكبر لأسامة بن لادن ويعيش الآن في جدة ويعمل في فرع من فروع مجموعة بن لادن السعودية.

عبد الرحمن بن لادن: ابن أسامة بن لادن من أم عبد الله وقد ولد وبه عيب خلقي يطلق عليه استسقاء الرأس مما جعله يعاني خللًا عقليًّا دائمًا، وهو يعيش الآن مع والدته في سوريا.

محمد بن لادن: مؤسس مجموعة بن لادن السعودية ووالد عائلة بن لادن. وقد ولد في رباط في حضرموت باليمن، وغادر اليمن وهو شاب وسافر إلى إثيوبيا ثم إلى شبه الجزيرة العربية عام ١٩٣١م. وقد لقي محمد بن لادن حتفه في عام ١٩٦٧م في حادث تحطم طائرة في جنوب المملكة العربية السعودية وهو يناهز التاسعة والخمسين من العمر.

أسامة بن لادن: ولد في الرياض في يناير/كانون الثاني من عام ١٩٥٨م وعمل في جمع التبرعات للجهاد الأفغاني بعد الغزو السوفييتي عام ١٩٧٩م، وقد أسس تنظيم القاعدة عام ١٩٨٨م، ولا أحد يعرف مكانه الآن.

ستيفن بونجاردت: عميل فيدرالي وعضو في الفرقة I-49، وهو الآن يدرّس في أكاديمية مكتب التحقيقات الفيدرالي في كوانتيكو في فيرجينيا.

ريتشارد أ. كلارك: المنسق القومي السابق لمكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي. وقد تقاعد كلارك من العمل الحكومي في عام ٢٠٠٣م، وأصبح مؤلف كتاب Against All Enemies الذي حقق أعلى المبيعات، كما أنه مؤسس شركة جود هاربور كونسلتنج Good Harbor Consulting.

جاك كلونان: العضو السابق في الفرقة I-49 الذي تولى التحقيق مع جمال الفضل وعلي محمد. وهو الآن رئيس شركة كلايتون كونسلتانتس Clayton Consultants، وهي شركة لإدارة المخاطر متخصصة في التفاوض في عمليات الاختطاف، ويعمل مستشارًا لشبكة أيه بي سي نيوز.

دانيال كولمان: العميل الفيدرالي وعضو الفرقة I-49 الذي أصبح ممثلًا عن مكتب التحقيقات الفيدرالي في نيويورك لدى أليك ستيشن التابع للمخابرات الأمريكية عام ١٩٩٦م. وهناك فتح ملف أول قضية ضد بن لادن في عام ١٩٩٦م، وقد كشفت تحقيقاته مع جمال الفضل شبكة القاعدة. تقاعد كولمان من العمل في المكتب ويعمل لدى شركة هاربنجر Harbinger، وهي شركة تقدم التدريبات لرجال الشرطة والجيش وأجهزة المخابرات.

عصام دراز: مخرج أفلام مصري وكاتب سيرة بن لادن الذي كتب تأريخًا لحياة الأفغان العرب في عام ١٩٨٨م، وهو يعيش حاليًا في القاهرة.

آنا ديباتيستا: صديقة سابقة لجون أونيل وهي الآن تعمل لدى شركة ماريوت كوربوريشن Marriott Corporation في بيثيسدا في ميريلاند.

الدكتور فضل: قائد جماعة الجهاد اسميًا في أثناء المدة التي قضاها الظواهري في السجن ثم بعد ذلك في أفغانستان حتى استقال في عام ١٩٩٣م ليصبح، حسب ما

twitter @baghdad_library

يقال، راعيًا في اليمن. واسمه الحقيقي هو سيد إمام الشريف، مع أنه يكتب تحت اسم الدكتور عبد العزيز بن عبد السلام، وهو الآن مسجون في مصر.

جمال الفضل: السكرتير السوداني لبن لادن في الخرطوم الذي أصبح أول منشق عن تنظيم القاعدة عندما سرق ١١٠ ألف دولار وهرب إلى أحضان السلطات الأمريكية. وقد شهد في محاكمة لأربعة أعضاء من القاعدة في قضية تفجيرات السفارتين؛ «القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة» التي جرت في نيويورك. وهو الآن ضمن برنامج حماية الشهود في مكان ما في الولايات المتحدة.

تركي الفيصل: ولد في الخامس عشر من فبراير/شباط عام ١٩٤٥م، وهو أصغر أبناء الملك فيصل بن عبد العزيز. وقد تلقى تعليمه في مدرسة لورنس فيل وجامعة جورج تاون، مع أنه تخلف عن استكمال دراسته بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧م. أصبح الأمير تركي رئيسًا للمخابرات السعودية وتولى الملف الأفغاني في أثناء الجهاد ضد السوفييت، وعمل أيضًا سفيرًا للسعودية لدى المملكة المتحدة ثم لدى الولايات المتحدة حيث يعيش في واشنطن الآن.

باتريك فيتزجيرالد: مساعد سابق للمدعي العام الأمريكي للمنطقة الجنوبية من نيويورك، وقد شارك في محاكمة الشيخ عمر عبد الرحمن ومنفذي عملية تفجير مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣م، وكان رئيس المستشارين في المحاكمة الناجحة لأعضاء القاعدة المتورطين في عملية تفجيرات السفارتين الأمريكيتين في شرق أفريقيا عام ١٩٩٨م. وهو الآن المدعي العام الأمريكي للمنطقة الشمالية من إلينوي، وقد ذاع صيته بالتحقيق في قضية الكشف عن هوية عميلة المخابرات فاليري بلام.

لويس فريه: مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي من عام ١٩٩٣م إلى عام ٢٠٠١م، وهو الآن نائب رئيس مجلس إدارة شركة بطاقات الائتمان إم بي إن أيه MBNA في مدينة ويلمنجتون في ولاية ديلاور والمستشار العام للشركة.

ستيفن جودين: العميل الفيدرالي وعضو الفرقة I-49 الذي تولى التحقيق مع محمد العوهلي، وهو الآن يشغل منصب رئيس مكتب التحقيقات في بوسطن.

أحمد الحدا: مجاهد يمني شارك في الحرب في أفغانستان، وبعد ذلك جعل من هاتفه في صنعاء مركز استقبال لمكالمات القاعدة، وقد تزوجت ابنته هدى من خالد المحضار. وهو الآن في قبضة السلطات اليمنية.

نواف الحازمي: أحد مختطفي الطائرات التي نفذت هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، وقد لقي حتفه وهو في الخامسة والعشرين من عمره على متن الرحلة ٧٧ التابعة لشركة أمريكان إيرلاينز التي اصطدمت بمبنى البنتاجون. والحازمي سعودي ثري نشأ في مكة وتدرب في معسكرات القاعدة في أفغانستان وحارب في البوسنة والشيشان قبل أن يصبح جزءًا من مخطط ١١ سبتمبر/أيلول. وقد حضر الاجتماع الذي عقد في شهر يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠٠م في ماليزيا، ودخل الولايات المتحدة في الخامس عشر من يناير/كانون الثاني ٢٠٠١م.

قلب الدين حكمتيار: قائد أفغاني في أثناء الجهاد ضد الاحتلال السوفييتي ينتمي إلى قبائل البشتون، وهو الذي أشعل فتيل الحرب الأهلية الأفغانية في عام ١٩٩٢م. وقد لجأ إلى إيران بعد أن استولت حركة طالبان على الحكم عام ١٩٩٦م، وهو الآن يقود حركة تمرد ضد الحكومة الأفغانية التي أدانته بجرائم حرب.

فاليري جيمس: صديقة جون أونيل السابقة، وهي تعيش في مدينة نيويورك حيث تعمل رئيسة شركة فاليري جيمس شوروووم Valerie James Showroom, Inc. التي تمثل مصممي الأزياء.

وائل جليدان: حليف مقرب من عبد الله عزام في مكتب الخدمات في بيشاور، وقد ولد في المدينة المنورة عام ١٩٥٨م، ودرس في جامعة أريزونا. وأصبح شديد القرب من بن لادن، ثم عمل بعد ذلك في جمعية سعودية خيرية تحمل اسم رابطة العالم الإسلامي التي أنشئت لمساعدة اللاجئين الأفغان، وهو يعيش الآن في جدة.

زينب أحمد خضر: ابنة مها السمنة وأحمد سعيد خضر صديق الظواهري. وقد نشأت زينب في بيشاور وأفغانستان مع أطفال بن لادن والظواهري. وهي الآن تعيش مع والدتها وأطفالها في كندا بعد طلاقها من زوجها.

جمال خليفة: ولد في الأول من سبتمبر/أيلول عام ١٩٥٦م في المدينة المنورة، وأصبح صديقًا لبن لادن عندما كانا يدرسان معًا في جامعة الملك عبد العزيز في جدة. وبعد التخرج، أصبح خليفة مدرسًا لمادة الأحياء في المدينة المنورة حتى قرر أن ينضم إلى الجهاد في أفغانستان عام ١٩٨٥م. وفي العام التالي تزوج من شيخة أخت بن لادن غير الشقيقة التي تكبره سنًا. وفي عام ١٩٨٨م، انتقل إلى مانيلا لإنشاء فرع

twitter @baghdad_library

لمنظمة الإغاثة الدولية الإسلامية. ويزعم مكتب التحقيقات الفيدرالي أنه كان يجمع التبرعات لجماعة أبي سياف الإرهابية في الفلبين، ولكن لم توجه له تهمة أبدًا. وقد تمت تبرئته في الأردن من التورط في العديد من المخططات الإرهابية. وقد قتل على أيدي قطاع طرق في مدغشقر في يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠٧م.

خلاد: العقل المدبر لتفجيرات المدمرة يو إس إس كول، وعائلته من اليمن ولكنه نشأ في المملكة العربية السعودية حيث تعرف على بن لادن. وقد انضم إلى الجهاد في أفغانستان وهو في الخامسة عشرة من عمره، وفقد إحدى ساقيه في معركة ضد التحالف الشمالي. وقد أصبح عضوًا في الفريق الأمني لتنظيم القاعدة، واسمه الحقيقي هو توفيق بن عطاش، وهو الآن في قبضة السلطات الأمريكية.

جمال خاشقجي: الصحفي السعودي القديم والعضو السابق في جماعة الإخوان المسلمين الذي غطى أخبار الأفغان العرب في الجهاد ضد الاحتلال السوفييتي. وقد كان خاشقجي رسول عائلة بن لادن الكبيرة إليه في السودان حين كانت تسعى لإقناعه بنبذ العنف والعودة إلى المملكة عندما كان في منفاه في السودان. وبعد هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، ذاع صيت خاشقجي لأنه كان أحد السعوديين القلائل الذين اعترفوا بالمسئولية الثقافية التي أدت إلى تلك المأساة، وقد عُين فيما بعد محررًا لجريدة الوطن وهي أكبر صحيفة يومية سعودية، ولكنه فُصِل منها بعد أن نشر مقالات ورسومًا كارتونية تنتقد المؤسسة الدينية لدعمها للعنف. وهو الآن المستشار الإعلامي للأمير تركي في واشنطن.

أحمد شاه مسعود: جنرال الحرب من قبائل الطاجيك الذي كان أفضل قائد ومخطط حربي في الجهاد الأفغاني. وبعد أن ساعد في طرد السوفييت من أفغانستان، انضم إلى حكومة الرئيس برهان الدين رباني وزيرًا للدفاع في عام ١٩٩٢م. وعندما سقطت حكومة رباني وبدأت الحرب الأهلية، أصبح مسعود قائد التحالف الشمالي، الذي يتكون من مجموعة من قادة المجاهدين المناهضين لحكم طالبان. وقد رتب بن لادن عملية اغتياله في التاسع من سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م.

خالد المحضار: ينتمي إلى عائلة رفيعة الشأن من حضرموت يمتد نسبها إلى النبي محمد. وقد نشأ المحضار في مكة وتزوج من هدى الحدا ابنة المجاهد الذي سيتضح أن رقم هاتفه في صنعاء مهم للغاية في فهم دائرة تنظيم القاعدة. وقد ذهب المحضار

إلى الولايات المتحدة الأمريكية في يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠٠م، وغادرها لبعض الوقت، على الأرجح ليقود باقي منفذي هجمات سبتمبر/أيلول القادمين من المملكة العربية السعودية، ثم عاد إلى الولايات المتحدة في الرابع من يوليو/تموز عام ٢٠٠١م. وقد لقي حتفه وهو في السادسة والعشرين من عمره في تحطم الرحلة رقم ٧٧ التابعة لأمريكان إيرلاينز عندما ارتطمت بمبنى البنتاجون في ١١ سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م.

علي محمد: عميل مزدوج مصري انضم إلى جماعة الجهاد عندما كان في الجيش المصري. وقد تلقى أوامر من الظواهري باختراق صفوف المخابرات الأمريكية، فعمل في المخابرات الأمريكية لوقت قصير في هامبورج في ألمانيا قبل أن ينضم إلى الجيش الأمريكي حيث تعين في مدرسة جون إف. كينيدي الحربية الخاصة. وقد أصبحت الكتيبات التي هربها من هناك أساس تدريبات القاعدة وأساليبها الحربية. ومحمد علي هو الذي دَرَسَ عملية تفجير السفارتين الأمريكيتين في شرق أفريقيا ودرب حراس بن لادن. وهو الآن شاهد متعاون مع أيدي السلطات الأمريكية وينتظر حكمًا بعد أن اعترف بتورطه في قضية تفجير السفارتين.

خالد شيخ محمد: هو المهندس الذي رسم مخطط هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، وأحد أقرباء رمزي يوسف العقل المدبر لعملية تفجير مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣م. وبعد أن نشأ في الكويت، حصل على درجة البكالوريوس في الهندسة الميكانيكية من جامعة ولاية كارولاينا الشمالية للعلوم الزراعية والتقنية عام ١٩٨٦م. ثم ذهب بعد ذلك إلى بيشاور حيث أصبح سكرتير عبد الرسول سياف، جنرال الحرب الأفغاني الذي يحظى بدعم السعوديين. وقد قابل بن لادن عام ١٩٩٦م حيث قدم له مجموعة من الخطط لمهاجمة الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ألقي القبض عليه في باكستان عام ٢٠٠٣م، وهو الآن في أيدي السلطات الأمريكية في مكان غير معروف.

زكريا موسوي: عميل للقاعدة فرنسي من أصل مغربي أرسل إلى الولايات المتحدة للمشاركة في عملية لم يرفع الستار عن تفاصيلها. وقد اعترف بتورطه في ست اتهامات بالتآمر وجهت له، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة في سجن انفرادي مشدد الحراسة.

عماد مغنية: رئيس جهاز أمن حزب الله الذي وضع مخطط تفجيرات عام ١٩٨٣م الانتحارية التي استهدفت السفارة الأمريكية وثكنات قوات مشاة البحرية الأمريكية

twitter @baghdad_library

والمظلات الفرنسية في بيروت عام ١٩٨٣م بسيارات مفخخة، وقد قابل الظواهري وبن لادن في السودان وقام بتدريب أعضاء القاعدة، وهو لا يزال تحت الحماية الإيرانية.

حسني مبارك: الرئيس المصري منذ عام ١٩٨١م.

شكري مصطفى: قائد حركة التكفير والهجرة في مصر، وقد أُعدم عام ١٩٧٨م.

وكيل أحمد متوكل: وزير خارجية حركة طالبان الذي استسلم فيما بعد للقوات الأمريكية ثم انضم إلى حكومة حامد قرضاي.

جمال عبد الناصر: قائد ثورة عام ١٩٥٢م في مصر، وهو قائد قومي شديد الحماس تغيرت على يديه السياسة في العالم العربي. وقد كانت رؤيته لمستقبل مصر مختلفة جذريًا عن رؤية سيد قطب، وهذا الاختلاف هو الذي قاد عبد الناصر في النهاية إلى إعدام قطب في عام ١٩٦٦م. وقد توفي عبد الناصر جراء تعرضه لأزمة قلبية بعد إعدام قطب بأربع سنوات.

عزة نوير: زوجة أيمن الظواهري، وقد لقيت مصرعها في ضربة جوية أمريكية في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ٢٠٠١م.

الملا محمد عمر: القائد الغامض ذو العين الواحدة الذي أسس حركة طالبان عام ١٩٩٢م، وقد حكم أفغانستان من عام ١٩٩٦م حتى غزو قوات التحالف للبلاد عام ٢٠٠١م، ولا يعرف أحد مكانه الآن.

جون أونيل: من أبناء أتلانتيك سيتي في نيوجيرسي، وقد أصبح أونيل عميلًا خاصًا في مكتب التحقيقات الفيدرالي في يوليو/تموز من عام ١٩٧٦م، وعُين بمكتب التحقيقات في بالتيمور. وقد انتقل أونيل إلى المقر الرئيسي للمكتب في أبريل/نيسان عام ١٩٨٧م، حيث أشرف على التحقيقات في جريمة من جرائم فساد السلطة. وفي عام ١٩٩١م، عين أونيل عميلًا خاصًا مساعدًا مسئولًا عن مكتب التحقيقات في شيكاغو، ثم عاد إلى المقر الرئيسي في عام ١٩٩٥م ليكون رئيسًا لقسم مكافحة الإرهاب. وقد عين أيضًا عميلًا خاصًا مسئولًا عن قسم الأمن القومي في مكتب التحقيقات في نيويورك في الأول من يناير/كانون الثاني عام ١٩٩٧م. وقد استقال من العمل في مكتب

التحقيقات الفيدرالي في الثاني والعشرين من أغسطس/آب عام ٢٠٠١م، وفي اليوم التالي بدأ عمله رئيسًا لأمن مركز التجارة العالمي، وقد كان في التاسعة والأربعين من عمره عندما لقي حتفه في هجمات ١١ سبتمبر/أيلول.

محمد العوهلي: متهم أدين بتنفيذ عملية تفجير السفارة الأمريكية في نيروبي، وهو الآن في أحد السجون الأمريكية يقضي عقوبة بالسجن مدة الحياة.

توماس بيكارد: القائم بأعمال مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي من الخامس والعشرين من يونيو/حزيران عام ٢٠٠١م، حتى الرابع من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م، وقد تقاعد بعد ذلك بشهرين.

محمد قطب: شقيق سيد قطب، وهو أيضًا مفكر ومؤلف له قاعدة عريضة من القراء، وقد لجأ إلى المملكة العربية السعودية مع أعضاء آخرين من الإخوان المسلمين بعد أن قضى بعض الوقت في السجون المصرية. وقد أصبح شخصية شهيرة بخطبه في المنتديات الثقافية حيث تعرف بن لادن على أفكاره، وهو لا يزال يعيش في مكة.

سيد قطب: معلم وكاتب إسلامي له العديد من المؤلفات المهمة منها «معالم في الطريق»، وقد أعدمه عبد الناصر شنقًا عام ١٩٦٦م.

برهان الدين رباني: عالم إسلامي تولى رئاسة أفغانستان من عام ١٩٩٢م حتى استولت طالبان على الحكم في عام ١٩٩٦م. وقد عاد إلى الحكم مرة أخرى لوقت قصير بعد الإطاحة بطالبان، ولكنه سلم السلطة إلى حكومة حامد قرضاي المؤقتة في ديسمبر/كانون الأول من عام ٢٠٠١م. وهو الآن عضو منتخب في البرلمان الأفغاني.

الشيخ عمر عبد الرحمن: «الشيخ الضرير» الذي قاد الجماعة الإسلامية في مصر وكان الأب الروحي لجماعة الجهاد. وقد سُجِن مع الظواهري وغيره من المقاتلين المصريين بعد اغتيال أنور السادات عام ١٩٨١م. وقد أدين بعد ذلك بالتخطيط لتدمير معالم في مدينة نيويورك وهو الآن يقضي عقوبة بالسجن مدى الحياة في أحد السجون الأمريكية.

أحمد رسام: شاب جزائري تدرب في معسكرات القاعدة في أفغانستان، وقد ألقي القبض عليه في ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٩٩م عندما كان يحاول دخول الولايات

twitter @baghdad_library

المتحدة من كندا ومعه شحنة من المتفجرات في صندوق سيارته، وقد ثبت بعد ذلك أن هدفه كان تدمير مطار لوس أنجلوس.

مارك روسيني: ممثل سابق من ضاحية برونكس، وقد أصبح رجل تحرٍّ خاص قبل الانضمام إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي، وقد كُلِّف العمل في الفرقة I-49 وحل مكان دانيال كولمان في أليك ستيشن. وهو الآن المساعد الخاص للمدير المساعد في مكتب الشئون العامة في المقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي.

أمل السادة: زوجة بن لادن الخامسة وقد تزوجا في عام ٢٠٠١م عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها، ويُعتقَد أنهما أنجبا طفلًا واحدًا وهي تعيش الآن مع عائلتها في اليمن.

أنور السادات: الرئيس المصري السابق الذي اغتالته جماعة الجهاد عام ١٩٨١م.

عبد الرسول سياف: جنرال حرب أفغاني تلقى تعليمًا دينيًّا في جامعة الأزهر في القاهرة. وقد كان الراعي الأفغاني لبن لادن والقائد المفضل لدى السعوديين، وهو حاليًّا قائد سياسي في أفغانستان.

مايكل شوير: رجل المخابرات الأمريكية المحنك الذي أنشأ أليك ستيشن عام ١٩٩٦م وأداره حتى خرج من الخدمة عام ١٩٩٩م. وبعد تقاعده، أصبح يؤلف كتبًا دون أن يكتب عليها اسمه، ومن مؤلفاته Through Our Enemies' Eyes وImperial Hubris.

شفيق: مجاهد مراهق أنقذ حياة بن لادن في معركة جلال أباد.

علي صوفان: عميل فيدرالي أمريكي من أصل لبناني، وكان هو المسئول عن التحقيق في قضية تفجير المدمرة يو إس إس كول. وقد أدت تحقيقاته مع أبي جندل في اليمن بعد تفجيرات ١١ سبتمبر/أيلول إلى التعرف على هوية مختطفي الطائرات التي نفذت العملية. وهو الآن يعمل مستشارًا أمنيًّا لدى شركة جولياني بارتنرز Giuliani Partners في نيويورك.

ماري لين ستيفنز: صديقة جون أونيل السابقة وهي الآن نائبة رئيس مؤسسة الاتحاد الائتماني الفيدرالي للبنتاجون، وهي منظمة تساعد الجنود وقوات مشاة البحرية الذين أصيبوا في العراق وأفغانستان.

يزيد سوفات: رجل أعمل ماليزي كان يعمل مع الظواهري في أفغانستان لإنتاج جرثومة الجمرة الخبيثة. وقد عُقِد اجتماع يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٠م بين منفذي عملية المدمرة كول وهجمات سبتمبر/أيلول في شقته الخاصة في كوالالمبور. وقد كتب أيضًا خطاب تزكية لزكريا موسوي، وهو الآن في أيدي السلطات الماليزية.

مدني الطيب: أمين خزانة القاعدة سابقًا الذي تزوج من ابنة أحد إخوة بن لادن، وقد فقد إحدى ساقيه في أفغانستان وترك القاعدة في بداية التسعينيات وعاد ليعيش في جدة.

حسن الترابي: القائد الفكري للثورة الإسلامية في السودان عام ١٩٨٩م، وقد اعتقل أكثر من مرة منذ ذلك الوقت، وهو الآن يعيش في منزله في الخرطوم.

عصام الدين الترابي: ابن حسن الترابي وصديق بن لادن في أثناء إقامة الأخير في السودان، وعصام رجل أعمال ومربي خيول مشهور في الخرطوم.

أم عبد الله: زوجة أسامة بن لادن الأولى التي تزوجها عام ١٩٧٤م عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. وهي من سوريا وابنة قريب من الدرجة الأولى لوالدة بن لادن. وهي أم لأحد عشر طفلًا من أبنائه، واسمها الحقيقي نجوى غانم وتعيش الآن في سوريا.

أم علي: زوجة أسامة بن لادن من عائلة جيلاني في مكة، وقد أنجبت له ثلاثة أطفال وطلبت منه الطلاق عام ١٩٩٦م وتعيش الآن في المملكة العربية السعودية.

أم حمزة: تزوجت أسامة عام ١٩٨٢م وأنجبت له طفلًا واحدًا. وهي من عائلة ذات شأن رفيع في جدة وتحمل شهادة دكتوراه في علم نفس الأطفال، ويُعتقد أنها لا تزال مع أسامة.

أم خالد: من عائلة الشريف في المدينة، وتحمل شهادة الدكتوراه في النحو العربي وكانت تزاول مهنة التدريس في جامعة المدينة التعليمية. ولديها من أسامة ثلاث فتيات وولد واحد، ويعتقد البعض أنها لا تزال مع أسامة.

الدكتور أحمد الود: الطبيب الجزائري التكفيري الذي عمل في مستشفى الهلال الأحمر الكويتي في بيشاور مع الظواهري والدكتور فضل، وقد عاد إلى الجزائر بعد انتهاء الجهاد ليصبح أحد مؤسسي الجماعة الإسلامية المسلحة.

twitter @baghdad_library

ماري جو وايت: المدعية العامة الأمريكية السابقة للمنطقة الجنوبية من نيويورك.

رمزي يوسف: العقل المدبر لتفجير مركز التجارة العالمي في عام ١٩٩٣م، وهو أحد أقرباء خالد شيخ محمد. وقد ولد يوسف في الكويت عام ١٩٦٨م، ودرس الهندسة الكهربائية في ويلز. وقد وضع يوسف خططًا مفصلة لاغتيال الأب يوحنا بولس الثاني والرئيس بيل كلينتون وتفجير إحدى عشرة طائرة أمريكية في الوقت نفسه. وقد ألقي القبض عليه في النهاية في باكستان عام ١٩٩٥م، وهو الآن يقضي حكمًا بالسجن مدى الحياة في أحد السجون الأمريكية بالإضافة إلى حكم بالسجن لمدة ٢٤٠ سنة.

الدكتور أيمن الظواهري: هو قائد جماعة الجهاد والقائد الفكري لتنظيم القاعدة. ولد الظواهري في القاهرة في التاسع عشر من يونيو/حزيران عام ١٩٥١م، أنشأ خلية للإطاحة بالحكومة المصرية عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. وقد اعتقل بعد اغتيال السادات في عام ١٩٨١م وأدين بالاتجار في السلاح وأطلق سراحه بعد ثلاث سنوات. وقد هرب إلى المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٥م، وانتقل في العام التالي إلى بيشاور حيث أعاد هو والدكتور فضل بناء جماعة الجهاد. وبعد نهاية الحرب ضد الاحتلال السوفييتي، نقل الظواهري مقر جماعته إلى السودان حيث شن حملة ضد الحكومة المصرية أدت في النهاية إلى اجتثاث جماعته بالكامل تقريبًا، وفي عام ١٩٩٦م، انتقل إلى أفغانستان وخطط لدمج جماعة الجهاد مع تنظيم القاعدة. وقد ألف العديد من الكتب أبرزها «الحصاد المر» و«فرسان تحت راية النبي»، ولا أحد يعرف مكانه الآن.

حسين الظواهري: الشقيق الأصغر لأيمن وهو مهندس معماري، وقد سلمته المخابرات الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالي إلى السلطات المصرية، حيث جرى استجوابه ثم أطلق سراحه في نهاية المطاف في أغسطس/آب من عام ٢٠٠٠م، وهو يعيش الآن في القاهرة.

محمد الظواهري: : شقيق أيمن الأصغر منه الذي أصبح نائب أمير جماعة الجهاد، وهو مهندس معماري ومؤسس خلية جماعة الجهاد في ألبانيا. استقال من الجماعة عام ٢٠٠٠م، وقيل إن السلطات المصرية قد ألقت القبض عليه في دبي عام ٢٠٠٠م ثم أعدمته في السجن.

الدكتور محمد ربيع الظواهري: والد أيمن الظواهري وهو أستاذ علم العقاقير في جامعة عين شمس، وقد توفي عام ١٩٩٥م.

منتصر الزيات: محامٍ إسلامي في القاهرة دخل السجن مع الظواهري، وقد ألف فيما بعد سيرة ذاتية للظواهري تحمل عنوان «الطريق إلى القاعدة».

twitter @baghdad_library

المصادر

في حالة وجود أي اقتباسات بين دفتي هذا الكتاب منسوبة إلى أصحابها وغير مذكورة في المصادر، فإنها تكون مستقاة من المقابلات الشخصية التي أجريتها.

(١) الشهيد

- سيد قطب: إنني أدين بشكر خاص لمحمد قطب لأنه لم يبخل علي باستعادة ذكرياته عن شقيقه، وقد أسهم الاتصال بجون كالفيرت John Calvert وجيلس كيبل Gilles Kepel في تشكيل رؤيتي لحياة قطب.
- «أأذهب»: الخالدي، «سيد قطب: من الميلاد»، ص ١٩٤.
- من ذوي النفوذ والمتعاطفون معه: مقابلة شخصية مع محمد قطب، وقد ذكر قطب على وجه التحديد محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الوزراء المصري.
- إنه لم يكن شديد التدين: شيبرد Shepard، «سيد قطب»، xv. وقد قال لي محمد قطب: «لبرهة من الزمن أصبح علمانيًا بدرجة أكبر».
- حفظ القرآن: اتصال شخصي مع محمد قطب.
- وقد قرأ: الخالدي، «سيد قطب: من الميلاد»، ص ١٣٩.
- «كم ذا أكره أولئك الغربيين»: قطب، «الضمير الأمريكاني».
- غير المحترمات: جون كالفيرت John Calvert، Undutiful Boy، ص ٩٨.
- أقرب علاقة إلى قلبه: اتصال شخصي مع محمد قطب.
- «وأردت»: الخالدي، «أمريكا من الداخل»، ص ٢٧.
- «شبه عارية»: الخالدي، «سيد قطب: من الميلاد»، ص ١٩٥. وسيزعم قطب في وقت لاحق أن تلك السيدة كانت عميلة للمخابرات الأمريكية أرسلت لكي تغويه.

- أكثر موسم أعياد مزدهر: مكولوج McCullough، Truman، ص ٦٢١.
- نصف ثروة العالم: جونسون Johnson، Modern Times، ص ٤٤١.
- ربع: وايت White، Here Is New York، ص ٤٦.
- لم يقابل يومًا أحدًا منهم: اتصال شخصي مع محمد قطب.
- لا يعرف سوى مبادئ اللغة الإنجليزية: مقابلة شخصية مع محمد قطب.
- «هنا الغربة»: سيد قطب، خطاب إلى أنور المعداوي في كتاب الخالدي، «سيد قطب: الأديب»، ١٥٧-١٥٨.
- «عامل المصعد الزنجي»: السابق، ص ١٩٥-١٩٦.
- أحد الباحثين: مانشستر Manchester، The Glory and the Dream، ص ٤٧٩.
- كان قطب يعلم: قطب، «في ظلال القرآن»، ٦/١٤٣ وقد تُرجِم تقرير كينسي على أنه «ماكنزي» Mckenzie في ذلك الكتاب.
- «القطيع الهائج»: قطب، مجلة الكتاب، ٦٦٦-٦٦٩.
- «كلما لمح زوج»: الخالدي، «أمريكا من الداخل»، ص ١٨٥-١٨٦.
- «الشيوعية تزحف»: فرادي Frady، Billy Graham، ص ٢٣٦.
- «واحدًا من بين كل ١٨١٤ شخصًا»: أوشنسكي Oshinsky، A Conspiracy So Immense، ص ٩٦.
- «إنهم في كل مكان»: السابق، ص ٩٧.
- «إما أن تختفي الشيوعية»: فرادي Frady، Billy Graham، ص ٢٣٧.
- «إننا إما نسير»: شيبرد Shepard، «سيد قطب»، ص ٣٥٤.
- رأى في حزب لينين: مقابلة شخصية مع جمال البنا.
- «مثل رؤية»: السابق.
- «نظام متكامل»: السابق.
- «المدينة»: وايت White، Here Is New York، ص ٥٤.
- انتقل قطب للعيش في واشنطن: كالفيرت Calvert، Undutiful Boy، ص ٩٣.
- «الحياة في واشنطن»: السابق، ص ٩٤.
- «البدائية»: قطب، «أمريكا التي رأيت» (ب).

twitter @baghdad_library

- «أمامي ... في مطعم»: سيد قطب، خطاب إلى توفيق الحكيم في كتاب الخالدي، «أمريكا من الداخل»، ص ١٥٤.
- «وما من مرة»: قطب، «أمريكا التي رأيت» (ج).
- «تعرف جيدًا»: قطب، «أمريكا التي رأيت» (ب).
- «اليوم قتل عدو»: اتصال شخصي مع محمد قطب. وينسب قطب هذه العبارة إلى «الأطباء أنفسهم» ويقول: «نحن، أفراد العائلة، سمعناها من شقيقي شخصيًا.»
- «أتباع الشيخ حسن»: ألبيون روس Albion Ross، «مقتل قائد الإخوان المسلمين وهو يركب سيارة أجرة في أحد شوارع القاهرة» Moslem Brotherhood Leader Slain as He Enters Taxi in Cairo Street، صحيفة نيويورك تايمز، ١٢ فبراير/شباط ١٩٤٩م.
- صدمة شديدة: مقابلة شخصية مع محمد قطب.
- لم يلتقيا أبدًا: اتصال شخصي مع محمد قطب.
- «إذا ما نجح الإخوان»: عزام، «الشهيد سيد قطب».
- يدفع له في المقابل: الخالدي، «سيد قطب: الأديب»، ص ١٤٩.
- «كنت قد عقدت العزم على الانضمام»: عزام، «الشهيد سيد قطب». ولكن قطب نفسه كتب أنه لم ينضم إلى الإخوان المسلمين رسميًا حتى عام ١٩٥٣م، قطب، «لماذا أعدموني».
- الدورات الدراسية الصيفية: مقابلة شخصية مع مايكل ويلش Michael Welsh الذي يعد مصدر الكثير من المعلومات عن تاريخ جريلي؛ ومقابلات شخصية مع بيجي أ. فورد Peggy A. Ford، وجانيت واترز Janet Waters، وكين ماكونيلوج Ken McConnellogue، وجيم ماكليندون، وإبراهيم أنصاري وفرانك لي لاكين Frank Lee Lakin ودونا لي لاكين Donna Lee Lakin.
- أعظم الحضارات: اتصال شخصي مع بيجي أ. فورد Peggy A. Ford.
- أشهر: لارسون Larson، Shaping Educational Change، ص ٥.
- أسس المبادئ الأخلاقية: السابق.
- جيمس متشنر: اتصال شخصي مع بيجي أ. فورد Peggy A. Ford.

- «وهذه المدينة الصغيرة»: قطب، «حمائم في نيويورك»، ص ٦٦٦.
- جاردن سيتي: مقابلة شخصية مع مايكل ويلش Michael Welsh.
- «كانوا يضربونه ويركلونه»: الخالدي، «أمريكا من الداخل»، ص ١٨١.
- ميكر: جيفز Geffs، Under Ten Flags، ص ١٥٦-١٥٧؛ ومقابلة شخصية مع مايكل ويلش Michael Welsh.
- جالية صغيرة من الشرق الأوسط: مقابلة شخصية مع صائب دجاني.
- «ولكننا مصريون!»: مقابلة شخصية مع صائب دجاني.
- عدد من الطلاب العرب: مقابلة شخصية مع إبراهيم أنصاري.
- «العنصرية أنزلت»: الخالدي، «أمريكا من الداخل»، ص ١٦٩.
- «إن القدم لا» قطب، «أمريكا التي رأيت» (ب)، ص ١٣٠١-١٣٠٢.
- «مسألة بيولوجية بحتة»: الخالدي، «أمريكا من الداخل»، ص ١٩٤.
- «أدى قطب دور المضيف»: مقابلة شخصية مع إبراهيم أنصاري.
- اسطوانات الموسيقى الكلاسيكية: مقابلة شخصية مع صائب دجاني.
- «الجاز هي»: قطب، «أمريكا التي رأيت» (ب)، ص ١٣٠١.
- «ساحة الرقص»: السابق، ص ١٣٠١-١٣٠٦.
- «الوحشة»: الخالدي، «أمريكا من الداخل»، ص ١٥٧.
- «شيء واحد ... الروح»: سيد قطب، خطاب إلى توفيق الحكيم في كتاب الخالدي، «أمريكا من الداخل»، ص ١٩٦-١٩٧.
- «الرجل الأبيض»: السابق، ص ٣٩.
- الإسلام ... العصرية: أبو ربيع، Intellectual Origins، ص ١٥٦؛ بيرمان Berman، Terror and Liberalism، ص ٨٧ وما يليها.
- عاد قطب: مقابلة شخصية مع محمد قطب؛ والخالدي، «سيد قطب: الأديب»، ص ١٥٢.
- مائتي سيارة حمراء: رودنبك Rodenbeck، Cairo، ص ١٥٢.
- «تقتضي طبيعة الإسلام»: نيل ماكفاركوار Neil MacFarquhar، «الجماعة المصرية تسعى بصبر وراء حلم الدولة الإسلامية» Egyptian Group Patiently Pursues Dream of Islamic State، صحيفة نيويورك تايمز، ٢٠ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٢م.

twitter @baghdad_library

- الطبقة الدنيا من الطبقة المتوسطة: إبراهيم، Egypt Islam and Democracy، ص ٣٦.
- يفوق المليون شخص: مقابلة شخصية مع سعد الدين إبراهيم.
- أسر متعاونة تربط بينها علاقات حميمة: ميتشل Mitchell، Society of the Muslim Brothers، ص ٣٢.
- ردًّا على: عبد الملك، «مصر» Egypt، ص ٣٤؛ رودينبك Rodenbeck، Cairo، ص ١٥٥. أما ناتنج Nutting في كتابه Nasser، ص ٣١، فيعطي أرقامًا أخرى فيقول: إن عدد من قُتل من رجال الشرطة هو ثلاثة وأربعون وعدد من جرح اثنان وسبعون.
- بقيادة أعضاء: عبد الملك، Egypt، ص ٣٥.
- ألبومات الموسيقى الكلاسيكية: مقابلة شخصية مع فهمي هويدي. والملاحظات الأخرى المتعلقة بفيلا قطب كونتها في أثناء جولة في حلوان مع محفوظ عزام.
- جزءًا من التخطيط: مقابلة شخصية مع جمال البنا؛ والخالدي، «سيد قطب: الشهيد»، ص ١٤٠-١٤١؛ والخالدي، «سيد قطب: الأديب»، ص ١٥٩. وقد ذكر عبد الملك في كتابه Egypt، ص ٤٩، ص ٢١٠-٢١١، أعضاء من الضباط الأحرار الذين كانوا في الجماعة.
- «ديكتاتورية عادلة»: سيفان Sivan، Radical Islam، ص ٧٣.
- دعا عبد الناصر: اتصال شخصي مع محمد قطب.
- عُرض عليه: الخالدي، «سيد قطب: الشهيد»، ص ١٤٢.
- أراد الإسلاميون: مقابلة شخصية مع أوليفيير روي Olivier Roy؛ وروي Roy، Afghanistan، ص ٣٧-٣٩.
- يعارض المساواة: هيكل، «خريف الغضب»، ص ١٢٧.
- تحالفًا سريًّا: السابق، ص ١٤١.
- «فليقتلوا»: nasser.bibalex.org.
- ووضع الآلاف: السابق؛ تتراوح الأرقام ما بين «عشرات» (كالفيرت Calvert، Undutiful Boy، ص ١٠١) إلى «سبعة آلاف» (عبد الملك، Egypt، ص ٩٦).
- اتُّهم قطب: هانونين Hannonen، Egyptian Islamic Discourse، ص ٤٣.

- مريضًا بحمى شديدة: الموصلي، Radical Islamic Fundamentalism، ص ٣٤. ويذكر الخالدي أيضًا في كتابه «سيد قطب: الشهيد» استخدام الكلاب في أثناء تعذيب سيد قطب.
- «مبادئ الثورة»: الخالدي، «سيد قطب: الشهيد»، ص ١٥٤.
- لمخطط للاستيلاء: ميتشل Mitchell، Society of the Muslim Brothers، ص ١٥٢.
- حالة قطب الصحية ضعيفة: اتصال شخصي مع محمد قطب؛ الموصلي، Radical Islamic Fundamentalism، ص ٣٤، ملحوظة ٦٢.
- بالسل: مقابلة شخصية مع فؤاد علام
- إلى مستشفى السجن: الموصلي، Radical Islamic Fundamentalism، ص ٣٦.
- «تقف البشرية اليوم»: قطب، «معالم في الطريق»، ص ٥ وما يليها.
- حكومة المملكة العربية السعودية: العروسي، «محاكمة سيد قطب»، ص ٨٠-٨٢.
- في مؤامرة للإطاحة بالحكومة: مقابلة شخصية مع فؤاد علام؛ والعروسي، «محاكمة سيد قطب»، ص ٤٣.
- قوات الأمن: مقابلة شخصية مع فؤاد علام.
- «لقد حان الوقت»: الخالدي، «سيد قطب الشهيد»، ص ١٥٤.
- «الحمد لله»: السابق، ص ١٥٦.
- فأرسل إليه السادات: مقابلة شخصية مع محفوظ عزام.
- وزيرًا للمعارف: الخالدي، «سيد قطب: الشهيد»، ص ١٥٤.
- «اكتب هذه الكلمات»: مقابلة شخصية مع محفوظ عزام.
- رفضت الحكومة: مقابلة شخصية مع محمد قطب.

(٢) الرجل الثاني

- المعادي: جزء كبير من المعلومات التاريخية والاجتماعية عن المعادي مستقى من مقابلات شخصية مع سمير رأفت، ومن كتابه الذي يحمل عنوان «المعادي».
- الدكتور محمد ربيع الظواهري: المعلومات الخاصة بعائلة الظواهري مستقاة في المقام الأول من مقابلات واتصالات شخصية مع محفوظ عزام وعمر عزام.

twitter @baghdad_library

- لم يكن محبوبًا: يونان رزق، Al-Azhar's 1924، جريدة الأهرام ويكلي، ١٣-١٩مايو/أيار ٢٠٠٤م.
- عيادته الطبية الخاصة: مقابلة شخصية مع خالد أبي الفضل.
- ميشيل شلهوب: رأفت، «المعادي»، ص ١٨٥.
- «همجية»: مقابلة شخصية مع محفوظ عزام.
- «عبقري»: مقابلة شخصية مع زكي محمد زكي.
- «من الغد»: مقابلة شخصية مع محفوظ عزام.
- «إننا لا نريد»: مقابلة شخصية مع عمر عزام.
- «النظام الناصري»: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء الثالث.
- كان الآباء يخشون: مقابلة شخصية مع زكي محمد زكي.
- «وحينئذ سيدور التاريخ»: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء السادس.
- ففي مقابل تعاونهم: مقابلة شخصية مع سعد الدين إبراهيم.
- حتى عائلته: سناء رستم، «لأول مرة شقيقة الظواهري تتحدث»، مجلة آخر ساعة، ٢٤ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١.
- دعابة: مقابلة شخصية مع محفوظ عزام وعمر عزام.
- تمدهم بالسلاح: مقابلة شخصية مع هشام قاسم.
- خلايا صغيرة: كولي Cooley، Unholy Wars، ص ٤٠.
- يقل عدد أعضائه عن عشرة أعضاء: مقابلة شخصية مع عبد الحليم مندور.
- أربع من هذه الخلايا: مقابلة شخصية مع كمال حبيب.
- «قبل ذلك»: مقابلة شخصية مع عصام نوير.
- تموت شهيدة: مقابلة شخصية مع عمر عزام.
- «بدأت صلتي»: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء الثاني.
- يلجأ إلى استخدام العسل: مقابلة شخصية مع محفوظ عزام.
- في كتاباته لوالدته: مقابلة شخصية مع عمر عزام؛ وروبرت ماركواند Robert Marquand، The Tenets of Terror، صحيفة كريستيان ساينس مونيتور، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.

- عن طريق علاقاته: مقابلة شخصية مع عمر عزام.
- يجند للجهاد: مقابلة شخصية مع مأمون فندي.
- «دورة تدريبية»: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء الثاني.
- «رجل مجنون»: إبراهيم، Egypt Islam and Democracy، ملحوظة ٣٠.
- «نعم، نحن رجعيون»: آية الله روح الله الخميني، «خطاب في المدرسة الفيضية الدينية»، ٢٤ أغسطس/آب ١٩٧٩م، وقُدِّم مرة أخرى في كتاب روبين Rubin وروبين Anti-American Terrorism ،Rubin، ص ٣٤.
- إن الإسلام يقول»: طاهري Holy Terror ،Taheri، ص ٢٢٦-٢٢٧.
- الثورة الإيرانية: عبد الناصر، Islamic Movement، ص ٧٣.
- الآيات القرآنية الخمسمائة: اتصال شخصي مع روي متحدة Roy Mottahedeh.
- وفي الخطاب الذي سيثبت أنه الأخير في حياته: جوينينا Guenena، 'Jihad' an 'Islamic Alternative'، ص ٨٠-٨١.
- قام السادات بحل: كيبل Jihad ،Kepel، ص ٨٥.
- «لا سياسة في الدين»: عبده No God but God، ص ٥٤.
- خطة الزمر: استجواب أيمن الظواهري عام ١٩٨١م.
- «رجل بكل ما تعنيه كلمة الرجولة من معان»: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء الخامس.
- «يفتقد إلى شيء ما»: مقابلة شخصية مع ياسر السري.
- خرج عصام القمري: استجواب أيمن الظواهري عام ١٩٨١م.
- القلعة: مقابلة شخصية مع منتصر الزيات.
- وبعد أسبوعين: مقابلة شخصية مع فؤاد علام.
- «أخبره أن يصلي المغرب»: مقابلة شخصية مع عمر عزام.
- ذهب الظواهري إلى المسجد: مقابلة شخصية مع محفوظ عزام.
- «أشد ما في الأسر»: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء الحادي عشر.
- قُتِل القمري بالرصاص: مقابلة شخصية مع كمال حبيب.
- آثار التعذيب: يدعي فؤاد علام، الذي قيل إنه كان يشرف شخصيًا على التعذيب، أنه لم يكن هناك أي تعذيب على الإطلاق، ويقول: إن الأمر برمته ما هو إلا

twitter @baghdad_library

خرافة. وقد يكون هناك شيء من الحقيقة في ذلك حيث إن الكثير من القصص التي يرويها السجناء وحشية وهمجية لدرجة أنها قد تبدو خيالية، ومن المؤكد أنها قد تسربت إلى الصحفيين بهدف تشويه صورة النظام الحاكم وتعزيز موقف الإسلاميين. وقد أعطاني علام شريط فيديو يرجع لعام ١٩٨٢م لمنتصر الزيات (الذي كان قد أخبرني أنه تعرض للضرب والتعذيب بالصدمات الكهربائية مرارًا وتكرارًا) وهو شاب، يظهر فيه وهو يرحب بالسجناء الجدد في سجن طرة ويشد من أزرهم ويخبرهم كيف أنه يلقى معاملة حسنة، ويقول لهم وهو يرفع مصحف جيب صغير: «حتى إنهم أعطوني هذا المصحف.» ويدافع الزيات عن نفسه قائلًا: إنه أرغم تحت وطأة التعذيب على الإدلاء بذلك التصريح، مع أن كمال حبيب، الذي لا تزال آثار التعرض للحرق بالسجائر واضحة على يديه، يقول: إن الزيات لم يتعرض للتعذيب قط، ويقول: «إن هذا ما يقوله لوسائل الإعلام.»

السؤال هو ماذا حدث للظواهري؟ يقول حبيب: «كلما علا شأنك في المنظمة التي تنتمي إليها، زاد ما تتعرض له من تعذيب. وكان أيمن يعرف عددًا من الضباط ولديه بعض الأسلحة. وقد تعرض لتعذيب وحشي.» وقد أخبرني عدد ممن كانوا في السجن أن أشهر أشكال التعذيب كان تقييد يدي السجين خلف ظهره ثم رفعه إلى عضادة الباب وتعليقه فيها، في بعض الأحيان لمدة ساعات، من يديه وهما مقيدتان خلف ظهره. وفي حالة حبيب، استغرق الأمر سنوات حتى يشفى ذراعاه من التنميل. أما الظواهري نفسه فلم يتحدث قط عن تجربته ولكنه كتب: «كانت طاحونة التعذيب وحشية في دورانها، فقد كسرت العظام، وسلخت الجلود، وصعقت الأعصاب، وأزهقت الأنفس. وكانت دنيئة في أساليبها لأنها اتخذت من احتجاز النساء والاعتداء الجنسي وتسمية الرجال بأسماء النساء والتجويع ورداءة الطعام وقطع المياه والإغلاق ومنع الزيارات؛ وسائل معتادة لإذلال المعتقلين.» (الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء الرابع.) ويمكن للمرء أن يتخيل أن وقع هذا التعذيب كان أشد وطأة على شخص يعتز بكبريائه مثل الدكتور الظواهري.

إلى جانب أن إشارة الظواهري إلى استخدام «الكلاب المتوحشة» كطريقة من طرق التعذيب ترددت كثيرًا في ادعاءات السجناء الآخرين. كما قيل إن سيد قطب قد تعرض للتعذيب بالكلاب المفترسة عندما ألقي القبض عليه للمرة

الثانية. وفي الثقافة الإسلامية، تعد الكلاب كائنات منبوذة، لذا فإن هذا النوع من العقاب مهين بصورة خاصة.

- «لقد هُزمنا»: مقابلة شخصية مع أسامة رشدي.
- «ترسل له سائقًا»: السابق.
- أشار الظواهري: مقابلة شخصية مع منتصر الزيات.
- الرؤى كانت تراودهم بعد جلسات التعذيب: إبراهيم، Egypt Islam and Democracy، ص ٢٠.
- «نموذج من الشباب المصري»: السابق، ص ١٩.
- «جعلت من حركتنا حركة تافهة»: مقابلة شخصية مع سعد الدين إبراهيم.
- قلقًا من العواقب السياسية: مقابلة شخصية مع محفوظ عزام.
- زمالة في الجراحة: اتصال شخصي مع هبة الظواهري.
- تأشيرة سياحية إلى تونس: مقابلة شخصية مع أسامة رشدي.

(٣) المؤسس

- وصل إلى المملكة في عام ١٩٨٥م: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.
- «آثار الجروح»: الزيات، «الطريق إلى القاعدة»، ص ٣١.
- شهد ضد رفاقه: السابق، ص ٤٩.
- «الموقف في مصر»: برنامج تحت المجهر، قناة الجزيرة، ٢٠ فبراير/شباط ٢٠٠٣م.
- الظواهري وبن لادن تقابلا: الزيات، «الجماعات الإسلامية»، الجزء الرابع، جريدة الحياة، ١٢ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٥م. يدعي الزيات أن الظواهري هو من أخبره بهذه المعلومة، مع أنه لم يخبرني بهذا عندما تحدثنا في عام ٢٠٠٢م. وفي ذلك الوقت، قال: إن الظواهري وبن لادن قد تقابلا على الأرجح عام ١٩٨٦م في بيشاور. ويقول إن هذه المعلومة الجديدة تستند إلى أحاديث دارت في وقت لاحق مع الظواهري. وقد أخبرني محمد صلاح، مراسل جريدة الحياة في القاهرة، أنه وفقًا لمصادره، تقابل الرجلان في عام ١٩٨٥م، أي أنهما تقابلا في جدة. في حين يظن آخرون أن اللقاء الأول بين الظواهري وبن لادن

twitter @baghdad_library

كان في باكستان؛ فعلى سبيل المثال، قال جمال إسماعيل لبيتر بيرجن: إن اللقاء الأول بين الرجلين كان في بيشاور عام ١٩٨٦م. بيرجن، The Osama bin Laden I Know، ص ٦٣.

- «إذا كان طول أمنا الأولى»: بيرتون، Personal Narrative، ٢/ ٢٧٤.
- دفن والد أسامة بن لادن هناك: مقابلة شخصية مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- لقي مصرعه في حادث تحطم طائرة عام ١٩٦٧م: عثمان مليباري وعبد الله حسنين، «العصامي الكبير الذي فقدته البلاد»، صحيفة عكاظ، 7 سبتمبر/أيلول عام ١٩٦٧م.
- كبنائين ومعماريين: اتصال شخصي مع إيريك واتكينز Eric Watkins.
- إثيوبيا: مقابلة شخصية مع متحدث باسم عائلة بن لادن.
- قاربًا إلى جيزان: مقابلة شخصية مع صالح م. بن لادن.
- يذبحون الآلاف: أبو الريش، «الصعود والفساد والسقوط القادم»، ص ٢٤. ووفقًا لما قاله أبو الريش: «ما لا يقل عن ٤٠٠ ألف شخص قتلوا وجرحوا، فالإخوان لم يأسروا أحدًا، ولكنهم كانوا في أغلب الأمر يقتلون من يهزمونهم. وقد هرب أكثر من مليون من سكان المقاطعات التي غزاها ابن سعود إلى بلاد أخرى.» ولكن تشير المؤرخة السعودية مضاوي الرشيد إلى أنه من الصعب تصديق مثل هذه الأرقام حيث إنه لم يكن هناك من يجري إحصائيات، ولكنها كتبت في اتصال شخصي معها: «لقد كان نطاق الفظائع السعودية التي ارتكبت باسم توحيد البلاد شاسعًا. فلم يكن الإخوان سوى قوة من المرتزقة يحركها ابن سعود لتخوض حروبه الخاصة ويحقق بهم أغراضه. وبمجرد أن أنجزوا العمل الذي كان يستخدمهم فيه ذبحهم على أيدي مرتزقة آخرين، هذه المرة من السكان المقيمين في جنوب نجد والقبائل الأخرى والقوات الجوية الملكية البريطانية التي كانت متمركزة في الكويت والعراق في ذلك الوقت.»
- بدع دينية: شوارتز Schwartz، Two Faces of Islam، ص ٦٩ وما يليها.
- وأباح لأتباعه قتل: خالد أبو الفضل، The Ugly Modern and the Modern Ugly، ص ٢٣–٧٧.
- كارل تويتشل: لاسي Lacey، The Kingdom، ص ٢٣١ وما يليها؛ وليبمان Lippman، Inside the Mirage، ص ١٥ وما يليها.

- بدأ عمله حمالًا: مقابلة شخصية مع نواف عبيد.
- له عين زجاجية: مقابلة شخصية مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- نتيجة تعرضه لضربة: مقابلة شخصية مع جمال خليفة. في حين يفند متحدث باسم العائلة قصة الإصابة بسبب أن مدرسًا ضرب محمد بن لادن، فيقول: إنه فقد عينه في حادثة في إثيوبيا. فقبل انتشار استخدام النظارات الواقية، كان البناءون وقاطعو الأحجار كثيرًا ما يتعرضون للإصابة بالعمى من جراء إصابة أعينهم بأجزاء من الصخور أو الأسمنت. وقد اعتمدت في هذا الكتاب على قصة المدرس لأن خليفة قد سمعها من زوجته التي كانت قريبة من والدها. أما أولاد بن لادن الآخرون الذين تحدثت إليهم، فقد أقروا أنه ليست لديه معلومات محددة عن الطريقة التي فقد بها والدهم بصره.
- «توقيعه»: مقابلة شخصية مع صالح م. بن لادن.
- «أسمر البشرة ودود الطبيعة وشديد الحيوية والنشاط»: مقابلة شخصية مع مايكل إم. أمين الابن .Michael M. Ameen, Jr.
- بدأت شركة أرامكو ... برنامج: توماس سي. بارجر Thomas C. Barger، Birth of a Dream، مجلة سعودي أرامكو وورلد ٣٥، رقم ٣ (مايو/أيار–يونيو/حزيران ١٩٨٤م).
- تحت رعاية أرامكو: مقابلة شخصية مع الأمير تركي الفيصل، وقد قال لي الأمير تركي: «كانت أرامكو حقًا هي المؤسسة الوحيدة التي تتولى عمليات الإنشاء. فعندما كان الملك عبد العزيز يريد تنفيذ شيء ما، كان يطلب من أرامكو تنفيذه أو يستشيرهم، وقد ظهر بن لادن على مسرح الأحداث بهذه الطريقة، فقد جرت تزكيته.»
- «نشأت عاملًا»: عثمان مليباري وعبد الله حسنين، «العصامي الكبير الذي فقدته البلاد»، صحيفة عكاظ، ٧ سبتمبر/أيلول ١٩٦٧م.
- مشروعات غير مربحة: مقابلة شخصية مع مصدر سعودي مجهول.
- كانوا يطلقون عليه «المعلم»: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- ترميم بعض المنازل: مقابلة شخصية مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- وزير المالية: محمد باسلامة، «الشيخ محمد عوض بن لادن المعلم»، صحيفة عكاظ، ٢ يونيو/حزيران ١٩٨٤م.

twitter @baghdad_library

- سيتذكر أسامة بن لادن: مقابلة شخصية مع علي صوفان.
- قاد بنفسه سيارة الملك: مقابلة شخصية مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- أول بناء خرساني: مصدر سعودي مجهول.
- وزيرًا شرفيًّا للأشغال العامة: محمد باسلامة، «الشيخ محمد عوض بن لادن المعلم»، صحيفة عكاظ، ٢ يونيو/حزيران ١٩٨٤م؛ ومقابلة شخصية مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- دفع المقابل نفسه: محمد باسلامة، «الشيخ محمد عوض بن لادن المعلم»، صحيفة عكاظ، ٢ يونيو/حزيران ١٩٨٤م.
- طريق واحد ممهد: ماير Mayer، The House of bin Laden.
- أكبر عميل: مصدر سعودي مجهول، وقد رفض متحدث باسم شركة كاتربيلر التعليق.
- تمنحه الأسفلت دون مقابل: ليبمان Lippman، Inside the Mirage، ص ٤٩.
- أم كلثوم: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي.
- «علينا تنظيم»: مقابلة شخصية مع الأمير طلال بن عبد العزيز.
- يقذف بالنقود: لاسي Lacey، The Kingdom، ص ٣٠٢.
- فندق اليمامة: مقابلة شخصية مع مايكل إم. أمين الابن Michael M. Ameen, Jr.
- بدأ بن لادن يتنوع في نشاطاته: أرامكو، «بن لادن إخوان للمقاولات والصناعة» (د.ص، د.ت).
- المسجد الحرام: الأرقام من كتاب عباس، Story of the Great Expansion، ص ٣٦٤ وما يليها؛ وفيلم دعائي عن مجموعة بن لادن السعودية.
- أقل من مائة دولار: لاسي Lacey، The Kingdom، ص ٣٢٣.
- قدم للحكومة النقود: مقابلة شخصية مع مصدر سعودي مجهول.
- تصريح خاص: ليبمان Lippman، Inside the Mirrage، ص ١٢٧. وفي ذلك الوقت، كان على الملك أيضًا أن يوافق شخصيًّا على كل إقلاع وهبوط للطائرات في المملكة.

- بدأ يدرب قوات سعودية في عام ١٩٥٣م: اتصال شخصي مع راتشل برونسون Rachel Bronson. ووفقًا لما قالته برونسون، سمح السعوديون للأمريكيين ببناء قاعدة جوية في عام ١٩٤٥م التي كانت معدة لتسهيل حركة القوات إلى مسرح العمليات التي تقوم بها في المحيط الهادئ خلال الحرب العالمية الثانية. وقد أعيد التفاوض على الوجود الأمريكي بعد الحرب، وأجرى الأمريكيون استطلاعًا لتحديد احتياجات القوات العسكرية السعودية. وفي عام ١٩٥٣م، وقعت الولايات المتحدة والسعودية الاتفاقية التي سمحت للقوات الأمريكية بتدريب وحدات سعودية، وقد شكلت تلك الاتفاقية أساس التعاون العسكري الذي تبع ذلك.
- لرؤية بقايا: مقابلة شخصية مع ستانلي جس Stanley Guess.
- ستستخدم القاعدة هذه الواقعة: فيكتروفيتش Wiktorowicz وكالتنر Kaltner، Killing in the Name of Islam.
- استسلمت المدينة للإخوان: تشامبيون Champion، The Paradoxical King- dom، ص ٤٩ وما يليها؛ والرشيد، A History of Saudi Arabia، ص ٦٦؛ ولاسي Lacey، The Kingdom، ص ١٨٨.
- لديه حلم: مقابلة شخصية مع الأمير تركي الفيصل.
- الحل العبقري الذي وضعه بن لادن: اتصال شخصي مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- قام بن لادن بدفع حمار: مقابلة شخصية مع محمود عليم، ووفقًا لما يقوله علي صوفان، فإن أسامة بن لادن كثيرًا ما كان يروي القصة نفسها.
- لمدة عشرين شهرًا: اتصال شخصي مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- بدأت في عام ١٩٦١م: كتيب خاص بمجموعة بن لادن السعودية.
- الشحنات المتفجرة: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي.
- يضع العلامات على الطريق: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- النفقات غير الموجودة في الميزانية: مقابلة شخصية مع الأمير تركي الفيصل.
- تكاليف عملية: عثمان مليباري وعبد الله حسنين، «العصامي الكبير الذي فقدته البلاد»، صحيفة عكاظ، ٧ سبتمبر/أيلول ١٩٦٧م.
- «أذكر أنه»: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.

twitter @baghdad_library

- أبًا لأربعة وخمسين طفلًا: مقابلة شخصية مع متحدث مجهول عن عائلة بن لادن أخبرني أيضًا أنهم كانوا تسعًا وعشرين فتاة، وخمسة وعشرين صبيًّا. في حين تقول اللجنة الوطنية للتحقيق في الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة الأمريكية في تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول (٥٥): إن العدد الإجمالي للأطفال هو سبعة وخمسون طفلًا.
- عدد النساء اللائي تزوجهن: مقابلة شخصية مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- يتبعه مساعد: مقابلة شخصية مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- المحظيات: كارمن بن لادن، Inside the Kingdom، ص ٦٩.
- «اعتاد والدي أن يقول»: مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ٨٢.
- أسامة، الذي يحتل الترتيب السابع عشر: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٥٥.
- تزوج محمد من فتاة سورية: «أشقاء وشقيقات أولى زوجات بن لادن باللاذقية خائفون عليها وعلي أطفالها الأحد عشر في أفغانستان»، جريدة الشرق الأوسط، ١٤ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- فتاة في الرابعة عشرة من عمرها: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي.
- علياء غانم: علي طه وعماد سارة، «المجلة في قرية أخوال أسامة بن لادن في سوريا»، مجلة المجلة، ٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.
- الطائفة العلوية: اتصال شخصي مع جوزيف باهوت Joseph Bahout. أما حقيقة ما إذا كانت علياء غانم نفسها علوية أم لا فهي محل جدل. فيقول أحمد باديب، مساعد الأمير تركي حين كان رئيسًا للمخابرات السعودية، إنها علوية، وكذلك جمال خليفة زوج أخت أسامة بن لادن وجمال خاشقجي صديقه. أما العائلة، فقد أنكرت ذلك، الأمر الذي يعد بالطبع خداعًا دينيًّا. وقد أخبرني أحمد زيدان أنه قد سأل الضيوف في حفل زفاف ابن أسامة في جلال أباد عام ٢٠٠١م عما إذا كانت علياء علوية وتلقى ردًّا بأنها ليست كذلك. وقد كان واهب غانم، وهو علوي من اللاذقية عاش في أربعينيات القرن العشرين، من مؤسسي حزب البعث، وعلى أية حال، فهناك أكثر من شخص اسمه غانم من بينهم مسيحيون أو مسلمون سنة وخاصة في لبنان.

- انضمت علياء إلى منزل بن لادن: يقول نواف عبيد إن علياء كانت محظية، وهو ما أكدته كارمن بن لادن. ولكن جمال خاشقجي يقول: «حقيقة أنها أنجبت أسامة تعني أنهما كانا متزوجين، ولكن كان شراء المحظيات موجودًا بالفعل حيث كان أحد سمات خمسينيات القرن العشرين، ولا سيما من الطائفة العلوية.»
- كانت علياء متحضرة وأقل منهن تدينًا: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- يناير/كانون الثاني من عام ١٩٥٨م: يقول بن لادن: «لقد ولدت في شهر رجب من عام ١٣٧٧ هجريًّا»، «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م. وقد قال لجمال إسماعيل: «مَنَّ الله علي أن ولدت من أبوين مسلمين، في جزيرة العرب في الرياض في حي الملز في عام ١٣٧٧ هجرية.» ويمكن أن يكون ذلك عام ١٩٥٧م أو ١٩٥٨م، وفقًا للشهر الذي ولد فيه. جمال إسماعيل، «أسامة بن لادن: تدمير القاعدة»، تقديم صلاح نجم، قناة الجزيرة، ١٠ يونيو/حزيران عام ١٩٩٩م. وقد قيل إن بن لادن قال في ذلك اللقاء إن تاريخ ميلاده هو العاشر من مارس/آذار عام ١٩٥٧م، ولكن ذلك الجزء غير مذكور في نسخة نص الحوار. بالإضافة إلى ذلك، فإن الرجال السعوديين في مثل عمره لا يعرفون تاريخ ميلادهم بالضبط لأنهم لا يحتفلون بأعياد ميلادهم. وتمنح السلطات السعودية اعتباطيًّا الكثير من الأشخاص تاريخ الميلاد نفسه في جوازات السفر والأوراق الرسمية الأخرى. فعلى سبيل المثال، تاريخ ميلاد جمال خليفة صديق بن لادن في الأوراق الرسمية هو الأول من فبراير/شباط عام ١٩٥٧م، ولكنه بالصدفة وجد ملحوظة في مفكرة تخص عائلته تقول إنه ولد في الأول من سبتمبر/أيلول عام ١٩٥٦م. ولا يوجد في سجلات عائلة بن لادن تاريخ محدد لميلاد أسامة.
- «رحمه الله»: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- ونادرًا ما كان هؤلاء الأطفال: مقابلة شخصية مع علي صوفان الذي يقول: «أخبرني أشقاؤه أنه لم يرَ أباه أكثر من ثلاث أو أربع مرات.»
- يجمعهم: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- عملة ذهبية: مقابلة شخصية مع مصدر سعودي مجهول.

twitter @baghdad_library

- نادرًا ما يتحدث: «أخ غير شقيق مستعد لأن يدفع مقابل الدفاع عن بن لادن» Half-brother Will Pay to Defend bin Laden، وكالة أنباء أسوشياتد برس، ٥ يوليو/تموز ٢٠٠٥م. وقد تحدث يسلم بن لادن عن خوفه من والده على قناة العربية الفضائية، ولكن تُرجمت تعليقاته ترجمة خاطئة إلى اللغة الإنجليزية في قصة نشرتها وكالة أنباء أسوشياتد برس لتقول إنه قد تعرض للضرب.
- «أذكر أني»: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- بالمناقشات الدينية: ريف Reeve، The New Jackals، ص ١٥٩.
- «جمع مهندسيه»: صلاح نجم وجمال إسماعيل، «أسامة بن لادن: تدمير القاعدة»، قناة الجزيرة، ١٠ يونيو/حزيران ١٩٩٩م.
- يزوج طليقاته: مقابلة شخصية مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- محمد العطاس: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي.
- كان أسامة في الرابعة أو الخامسة: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- للزواج بفتاة مراهقة أخرى: مقابلة شخصية مع مايكل م. أمين الابن Michael M. Ameen, Jr.
- تفحمت جثته بالكامل: مقابلة شخصية مع متحدث باسم عائلة بن لادن. وكارمن بن لادن، Inside the Kingdom، ص ٦٥.
- «قال الملك فيصل»: ريف Reeve، The New Jackals، ص ١٥٩.
- للسنوات العشر التالية: محمد باسلامة، «الشيخ محمد عوض بن لادن المعلم»، صحيفة عكاظ، ٢ يونيو/حزيران ١٩٨٤م.
- لم يبق في المملكة سوى أسامة: مقابلة شخصية مع مصدر سعودي مجهول.
- الثغر: مقابلة شخصية مع الأمير عمرو محمد الفيصل.
- فصل يتكون من ثمانية وستين طالبًا: مقابلة شخصية مع أحمد باديب. والأميران هما عبد العزيز بن مشعل بن عبد العزيز، وعبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحمن.
- يرون أنه خجول: براين فايفيلد-شايلر Brian Fyfield-Shayler، ذكر في شريط فيديو باسم «مقابلة أسامة بن لادن» Meeting Osama bin Laden، شبكة خدمة البث العامة، ١٢ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٥م.

- وقد عزا البعض هذا التغير: مقابلة شخصية مع طارق علي علي رضا وأحمد باديب.
- فتوقف أسامة عن مشاهدة: «أخ غير شقيق يقول إن بن لادن حي يرزق» Half Brother Says bin Laden Is Alive and Well، www.cnn.com/2000/ WORLD/meast/03/18/osama.brother، ١٩ مارس/آذار ٢٠٠٢م.
- «في سنوات المراهقة»: خالد بطارفي، «لقاء صحفي مع والدة أسامة بن لادن» An Interview With Osama bin Laden's Mother، صحيفة ذا ميل أون صنداي، ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.
- مباشرة بعد صلاة العشاء: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي.
- «بدأ يسلك هذا الطريق»: مايكل سلاكمان Michael Slackman، «قريب سوري: والدة بن لادن حاولت إيقافه» Bin Laden's Mother Tried to Stop Him، Syrian Kin Say، صحيفة شيكاغو تريبيون، ١٣ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- صحابة النبي: رحيم الله يوسفزاي، «إرهابي مشتبه به: لقاء صحفي مع أسامة بن لادن» Terror Suspect: An Interview with Osama bin Laden، ABCNews.com ديسمبر/كانون الأول ١٩٨٨م.
- مجموعة أبي بكر: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي.
- قررت أن أتخلف: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- حفل زفاف: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي.
- «دائمًا حامل»: كارمن بن لادن، Inside the Kingdom، ص ١٦٠.
- «الحمقى»: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي.
- درس الاقتصاد: مقابلة شخصية مع جمال خليفة الذي يعد مصدر الكثير من المعلومات عن حياة بن لادن الجامعية.
- «جماعة دينية خيرية»: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٩م.
- يسير حافي القدمين: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- محمد قطب ... يحاضرهم: مقابلات شخصية مع خالد بطارفي وجمال خليفة ومحمد قطب.

twitter @baghdad_library

- أشقائه الأحد عشر: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي؛ ودوجلاس فارا Douglas Farah، ودانا بريست Dana Priest، «ابن أسامة بن لادن يلعب دورًا أساسيًّا في القاعدة» Bin Laden Son Plays Key Role in al-Qaeda، صحيفة واشنطن بوست، ١٤ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٢م.
- ينامون في الهواء الطلق: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي.
- رفض بن لادن أن يجعل أطفاله يلتحقون بالمدرسة: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- عبد الرحمن: السابق.
- باستخدام العسل: مقابلة شخصية مع زينت أحمد خضر التي لديها طفل يعاني إعاقة مشابهة، وقد ناقشت المشكلة مع أم عبد الرحمن.
- أم حمزة: مقابلة شخصية مع زينب أحمد خضر (التي قدمت أيضًا الكثير من المعلومات عن أطفال بن لادن) ومع مها السمنة.
- بالمنزل الكائن في شارع المكرونة: مقابلة شخصية وجولة مع جمال خليفة.
- «أريد أن أكون»: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- «أذكر وكلي فخر»: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- أكثر قليلًا من ستة أقدام: جاء في تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٥٥، استنادًا إلى معلومات من المخابرات الأمريكية أن بن لادن يبلغ من الطول ٦,٥ أقدام. ووفقًا لما يقوله مايكل شوير، فإن هذا التقدير مبني على معلومات من عصام دراز أول مؤرخ لسيرة بن لادن الذاتية الذي أخبرني أن طول بن لادن كان: «أكثر من مترين، ربما متران وخمسة أو أربعة سنتيمترات، أي أكثر من ٦,٨ أقدام.» أما جون ميلر الذي أجرى معه لقاء صحفيًّا لمحطة أيه بي سي، فوصفه بأنه يبلغ من الطول ٦,٥ أقدام، ولكنه رآه في مناسبة واحدة فقط. أما أحمد زيدان، رئيس مكتب الجزيرة في إسلام أباد الذي قابل بن لادن عدة مرات، فيقول إن طوله ١٨٠ سم أي حوالي ٥,١١ أقدام تقريبًا. ولكن أصدقاء بن لادن اتفقوا تقريبًا على طوله بأرقام متقاربة. فجمال خاشقجي أخبرني أن بن لادن، على حد قوله «في طولي بالضبط»، أي ١٨٢ سم، أي ٦ أقدام تقريبًا. وعصام الترابي صديق بن لادن في السودان أخبرني أن بن لادن كان ١٨٣

أو ١٨٤ سم أي ٦ أقدام تقريبًا. أما جمال خليفة زميله في أثناء دراستهما في الجامعة الذي سكن معه لبعض الوقت فيقول: إن طوله ١٨٥ سم، أي بالكاد أكثر من ٦,١ أقدام، وهذا هو طول ابنه عبد الله بالضبط الذي يقول: إن أباه أطول منه ببوصتين، كما يقول محمد لؤي بايزيد صديق بن لادن إن بن لادن أطول منه ببوصتين، ولكن طول بايزيد ٥,٧ أقدام فقط. وبإمكان المرء أن يضع نظرية حول الاختلافات الشاسعة في الملاحظة. وقد أوردت هذه التقديرات فقط كمثال عن مدى خيبة الأمل التي يشعر بها الصحفي وهو يحاول العثور على إجابة لسؤال واحد بسيط، بين الكثير من الأسئلة، له إجابات متناقضة.

(٤) التحول

- «كالديك الرومي الذي نتناوله في عيد الشكر؟» حديث الأمير تركي الفيصل لمركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورج تاون، ٣ فبراير/شباط ٢٠٠٢م.
- ترك أو فيزليستكس: الكتاب السنوي لمدرسة لورنس فيل The Lawrence، لورنس فيل، نيوجيرسي، ٤ مايو/أيار ١٩٦٢م، ٥.
- «هل سمعت»: حديث الأمير تركي الفيصل لمركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورج تاون، ٣ فبراير/شباط ٢٠٠٢م.
- بيل كلينتون: كلينتون، My Life، ص ١١٠.
- «أنا لم أمنح»: مقابلة شخصية مع الأمير تركي الفيصل.
- متوسط الدخل السعودي: رايت Wright، Kingdom of Silence، وقد أصبح مساويًا لنظيره في لولايات المتحدة في عام ١٩٨١م.
- ٣٠٪ أو ٤٠٪: رايت Wright، Kingdom of Silence؛ ومقابلة شخصية مع بيرهان هايلو Berhan Hailu.
- السيطرة على نفوذ علماء الدين: الرشيد، A History of Saudi Arabia، ص ١٢٤؛ وأيضًا تيتيلبوم Teitelbaum، Holier Than Thou، ص ١٧ وما يليها.
- خمسين ألفًا من المصلين: لاسي Lacey، The Kingdom، ص ٤٧٨. وجزء كبير من السرد المتعلق بهذا الجزء يستند إلى كتاب لاسي، وإلى جيمس بوتشن

twitter @baghdad_library

وجونز Holden في كتاب هولدن The Return of the Ikhwan ،James Buchan، Johns، The House of Saud، ص ٥١١-٥٢٦.

- «انتبهوا أيها المسلمون!»: هيكل، «إيران»، ص ١٩٧. ويدعي كيتشيتشيان Kechichian أنه لا أحد من آلاف الحجاج في المسجد سمع القحطاني «أو أي شخص آخر في هذا الشأن» يذكر المهدي. كيتشيتشيان Kechichian، Islamic Revivalism، ص ١٥. ولم أتمكن من العثور على مصدر آخر لدعم ما يقوله.
- أحد الموظفين الذين يعملون في مؤسسة: كارمن بن لادن، Inside the Kingdom، ص ١٢٣-١٢٤.
- الشمس تدور: أبو خليل، Bin Laden, Islam, and America's New "War on Terrorism"، ص ٦٤.
- كان العتيبي تلميذه: هولدن Holden وجونز Johns، The House of Saud، ص ٥١٧.
- أربعمائة أو خمسمائة متمرد: الرشيد، A History of Saudi Arabia، ص ١٤٤. ويقول لاسي Lacey في كتابه The Kingdom، ص٤٨٤: إن عددهم كان مائتين. في حين يقدر أبو الريش أنهم كانوا ثلاثمائة في كتابه «الصعود والفساد والسقوط القادم» The Rise, Corruption and Coming Fall، ص ١٠٨. أما المصادر العربية فتقول إنهم كانوا آلافًا. ويقول النقيب بول باريل Paul Barril: إنه كان هناك ألف وخمسمائة متمرد في مجلة كوماندو، أكتوبر/تشرين الأول-نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٢م.
- بعض الأمريكيين الأفارقة المسلمين: هولدن Holden وجونز Johns، The House of Saud، ص ٥٢٠.
- مستودع أسلحة الحرس الوطني: ماكي Mackey، The Saudis، ص ٢٣١.
- في التوابيت: لاسي Lacey، The Kingdom، ص ٤٨٤.
- وصل سالم: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- انفجر فكه: هولدن Holden وجونز Johns، The House of Saud، ص ٥٢٥.
- نصح ... بإحضار الغاز: مقابلة شخصية مع الأمير تركي الفيصل.
- اعتنق هؤلاء المقاتلون الإسلام: يمتلئ تاريخ هذا الحدث بالمزاعم المتناقضة. وقد استشهد دا لاج Da Lage بالنقيب بول باريل Paul Barril الذي قاد ثلاثة

من ضباط الشرطة الفرنسيين إلى مكة، حيث «اعتنقوا» الإسلام على الفور حتى يتمكنوا من قيادة الهجوم على المسجد الحرام. أوليفيير دا لاج Olivier Da Lage، «حدث منذ خمسة عشر عامًا: الاستيلاء على المسجد الحرام في مكة» Il y a quinze ans: La Prise de la Grande Mosquée de La Mecque، صحيفة لوموند، ٢٠-٢١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٤م. ويدعي أبو الريش أن قوات المظلات الفرنسية هي التي سحقت الثوار بعد أن أغرقوا الغرف بالماء وأوصلوا بها تيارًا من الكهرباء. أبو الريش، The Rise, Corruption and the Coming Fall، ص ١٠٨.

ولكن ينكر تركي أن الفرنسيين قد اعتنقوا الإسلام أو دخلوا مكة، وينكر دى مارينش أيضًا أن الفرنسيين قد دخلوا مكة. دى مارينش وأوكرينت Ockrent، The Evil Empire، ص ١١٢. وقد اخترت تصديق قصة النقيب باريل على مسئولية مصدر مجهول في المخابرات السعودية.

- أكثر من ٤٠٠٠ شخص: ثيروكس Theroux، Sandstorm، ص ٩٠.
- أسامة بن لادن وأخيه محروس: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- العتيبي وأتباعه كانوا مسلمين صادقين: بورك Burke، Al-Qaeda، ص ٥٥.
- «شعرت بغضب شديد»: روبرت فيسك Robert Fisk، «المحارب ضد السوفييت يضع جيشه على الطريق إلى السلام» Anti-Soviet Warrior Puts His Army on the Road to Peace، صحيفة الإندبندنت، ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٣م.
- «سرًا كبيرًا»: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- «أسلم النقود»: السابق.
- زميله ... عمر عبد الرحمن: ويفر Weaver، A Portrait of Egypt، ص ١٨٠.
- تسبب في فصله من الجامعة عام ١٩٨٠م: برنامج تحت المجهر، قناة الجزيرة، ٢٠ فبراير/شباط ٢٠٠٣م.
- «الجهاد والبندقية وحدهما»: عبد الله بن عمر، «الشيخ المجاهد: عبد الله عزام» The Striving Sheikh: Abdullah Azzam، مجلة نداء الإسلام، ترجمة محمد سعيد، يوليو/تموز-سبتمبر/أيلول ١٩٩٦م، www.islam.org.au/articles/14/AZZAM.HTM.

twitter @baghdad_library

- «كان الجهاد له»: محمد الشافعي، «الشرق الأوسط تقابل أم محمد»، جريدة الشرق الأوسط، ٣٠ أبريل/نيسان ٢٠٠٦م.
- في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٨١م: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ٣٧.
- «وصلت إلى أفغانستان»: شريط فيديو لعبد الله عزام لا يحمل اسمًا يستخدم في تجنيد المتطوعين يرجع لعام ١٩٨٨م.
- الطيور كانت تعمل كجهاز رادار وإنذار مبكر: مقابل شخصية مع جمال خليفة.
- «يعيش في منزله»: عزام، «الطود الشامخ»، ص ١٥٠.
- «إذا كان لديك في منزلك»: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- وكلاء بأجر: صلاح، «وقائع سنوات الجهاد».
- مكتب في القاهرة: الدكتور جهاد عودة والدكتور عمار علي حسن، «أوراق استراتيجية: عولمة الحركة الإسلامية المتطرفة: قضية مصر» Strategic Papers: The Globalization of the Radical Islamic Movement: The Case of Egypt، www.ahram.org.eg/acpss/eng/ahram/2004/7/5/SPAP5.htm.
- فتح بن لادن منزلًا يمثل محطة في منتصف الطريق: مقابلة شخصية مع عصام دراز.
- يدير معسكرات تدريب عسكري: محمد صديق، «قصة الأفغان السعوديين: شاركوا في الجهاد والقتال العنيف»، مجلة المجلة، ١١ مايو/أيار ١٩٩٦م.
- بالعشرات من الشاحنات: شديد، Legacy of the Prophet، ص ٨٣.
- «طلبت مني الحكومة السعودية»: أسامة بن لادن في لقاء لقناة الجزيرة، ٧ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م. ويؤرخ بن لادن هذا الحوار إلى عام ١٩٧٩م وهو التاريخ الذي قال إنه ذهب فيه إلى أفغانستان لأول مرة.
- «لن أقترب حتى»: مقابلة شخصية مع خالد بطارفي.

(٥) حرب المعجزات

- «يمكننا الآن أن نجعل الاتحاد السوفييتي»: كولي Cooley، Unholy Wars، ص ١٩.

- وصل عدد الميليشيات الأفغانية المسلحة في منتصف الثمانينيات إلى مائة وسبعين ميليشيا: السابق، ص ٢٣٢.
- ٨٠٠ ألف شخص ... تحت سلطة كل منهما: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- عبد الرسول سياف: جون لي أندرسون Jon Lee Anderson، «خطاب من كابول: القتلة» Letter from Kabul: The Assassins، مجلة ذا نيويوركر، ١٠ يونيو/حزيران ٢٠٠٢م.
- احتجازهم في سجن: كول Coll، Ghost Wars، ص ٨٣.
- الخوف من المشاركة بنفسه: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ٨٥.
- خسر ... حصته من الربح: عزام، «الطود الشامخ»، ص ١٥٠.
- «فوجئت بالحالة المزرية»: السابق.
- «كانت الجبال تهتز»: السابق.
- «ما بين خمسة إلى عشرة ملايين»: السابق، ص ٨٨.
- ٣٠٠ دولار شهريًّا: بيرجن، Holy War، ص ٥٦.
- منزل استأجره بن لادن: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ١١٩.
- خمسة وعشرين ألف دولار شهريًّا: مجهول، Through our Enemies' Eyes، ص ٩٩؛ ومحمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ١٩٨.
- «رجل أرسلته السماء»: بيرنشتاين Bernstein، Out of the Blue، ص ٤٥.
- لكي ينقل النقود: مقابلة شخصية مع أحمد باديب وسعيد باديب. وطبقًا لما قاله سعيد باديب، فقد استمرت الحكومة السعودية في دعمها حتى غادر بن لادن أفغانستان عام ١٩٨٩م.
- بين ٣٥٠ و٥٠٠ مليون دولار سنويًّا: اتصال خاص مع مارك سيجمان Marc Sageman الذي كان ضابط حالة تابع للمخابرات الأمريكية في أفغانستان في ذلك الوقت.
- قابل بن لادن للمرة الأولى في عام ١٩٨٥م: وقد قال في مكان آخر: «لقاؤنا الأول كان في عام ١٩٨٤م تقريبًا»، «ثم صرخ الملا عمر فيَّ» And Then Mullah Omar Screamed at Me، مجلة دير شبيجل، نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٤م.

twitter @baghdad_library

- تمكن تركي من تجنيد: كلارك، Against All Enemies، ص ٥٢.
- حبوب الكاشو والشيكولاته: جاسون بورك Jason Burke، «صناعة بن لادن: الجزء الثاني» The Making of bin Laden: Part 2، صحيفة الأوبزرفر، ٢٨ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- وقام بإنشاء مكتبة دينية: مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ٩٨.
- بتعليم أحد المقاتلين الأفغان، على الأقل،: جاسون بورك Jason Burke، «صناعة بن لادن: الجزء الثاني» The Making of bin Laden: Part 2، صحيفة الأوبزرفر، ٢٨ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- جامعة «دعوى الجهاد»: فودة Fouda وفيلدينج Fielding، Masterminds of Terror، ص ٩١؛ وكولي Cooley، Unholy Wars، ص ٢٣٨.
- أسهم أيضًا في إصدار مجلة الجهاد، وهي المجلة الصادرة باللغة العربية: بورك Burke، Al-Qaeda، ص ٥٦.
- «ابتسامة صغيرة»: مقابلة شخصية مع خالد خواجة.
- «نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٨٥م»: مقابلة شخصية مع مصدر مجهول من القاعدة.
- «لواء الغرباء»: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ١٧٧.
- وسائل المعيشة الحديثة: مقابلة شخصية مع زينب أحمد خضر.
- لم يصل ... قط إلى أكثر من ثلاثة آلاف: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس. ويقول ميلت بيردن Milt Bearden، الذي كان يشغل منصب رئيس مكتب المخابرات الأمريكية في أفغانستان في ذلك الوقت: «قدرنا أنه كان هناك نحو ألفين من الأفغان العرب في وقت واحد، بالإضافة إلى ألفين تقريبًا من الأفغان العرب الذين اعتبروا أفغانستان منتجعًا سياحيًّا من منتجعات شركة كلوب ميد»؛ أي جاءوا لتمضية إجازة قصيرة. ويقول بيردن: «وهذا مقارنة بربع مليون أفغاني متفرغين للقتال أو يشتركون فيه من حين لآخر و١٢٥ ألف سوفييتي.»
- هوية آبائهم الحقيقية: مقابلة شخصية مع زينب أحمد خضر.
- «سافرت لكي أطلع الناس»: شريط فيديو لعبد الله عزام لا يحمل اسمًا كان يستخدم لتجنيد المتطوعين يرجع لعام ١٩٨٨م.

- قصصًا عن المجاهدين: لرؤية مثال انظر عبد الله يوسف عزام «علامات الرحمن في جهاد الأفغان». www.islamicawakening.com/viewarticle.php?articleID=877&.
- فعندما تفارق الروح الطاهرة جسد أحد المجاهدين: عبد الله يوسف عزام، «أبو المنذر الشريف»، www.islamicawakening.com/viewarticle.php?articleID=30&.
- المقابل الذي يدفعه الشيخ عبد الله للمجاهدين: مقابلة شخصية مع محمد لؤي بايزيد.
- لو أننا طرحنا عائدات النفط: جيمس آر. وولسي James R. Woolsey، «هزيمة سلاح النفط» Defeating the Oil Weapon، مجلة كومنتري، سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م. وهذا الرقم طبقًا لإحصائيات منتصف التسعينيات، أما بعض الإحصائيات الأخرى فقد استنتجت من تقرير التنمية البشرية العربية الرسمي عام ٢٠٠٢م.
- «أقاتل في سبيل الله فأقتل»: أسامة بن لادن، «رسالة إلى الشعب العراقي»، قناة الجزيرة، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٣م.
- «من مات»: ميتشل Mitchell، Society of the Muslim Brother، ص ٢٠٧.
- «الإسلام ليس مجرد «عقيدة»: قطب، «معالم في الطريق»، ص ٥٨ وما يليها؛ ويشمل الاقتباسات التالية المنقولة عن قطب.
- «إن الحياة بلا إسلام ليست إلا عبودية»: هذا النقاش موضح بصورة أكثر تفصيلًا في مقال روكسان إل. يوبين Roxanne L. Euben، «نظرية سياسية مقارنة: نقد أصولي إسلامي للعقلانية» Comparative Political Theory: An Islamic Fundamentalist Critique of Rationalism، جورنال أوف بوليتيكس ٥٩، رقم:١ (فبراير/شباط ١٩٩٧م): ٢٨–٥٥.
- فند فرع جماعة الإخوان المسلمين: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي.
- الآباء السعوديين الذين تملك منهم القلق: مقابلة شخصية مع محمد الحلوة.
- «لم يعد هناك داع لوجودكم هنا»: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ١٧٨.
- في عام ١٩٨٦م، أحضر بن لادن زوجاته وأطفاله: هذا التاريخ طبقًا لما يقوله عصام دراز، ولكن محمد لؤي بايزيد يؤرخ هذا الحدث بعام ١٩٨٨م.

twitter @baghdad_library

- قام بن لادن بتوسيع الكهوف: مقابلة شخصية مع مارك سيجمان Marc Sageman.
- «الله أكبر! الله أكبر!»: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ١٨٥.
- قام بن لادن بتمويل: جمال إسماعيل، «أسامة بن لادن: تدمير القاعدة»، قناة الجزيرة، ١٠ يونيو/حزيران ١٩٩٩م.
- استوحى الاسم من بعض أبيات الشعر: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ٢٤١.
- القاعدة السوفييتية: السابق، ص ٢٣٣.
- سيارة واحدة فقط: السابق، ص ٢١٦.
- «بدأت أفكر»: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- المهندسين الماهرين: مقابلة شخصية مع متحدث مجهول باسم عائلة بن لادن.
- سبعة كهوف مموهة: مقابلة شخصية مع عصام دراز.
- الشيخ تميم: مقابلات شخصية مع باسم عبد العليم ومحمد لؤي بايزيد.
- لم يتجاوز ... الثامنة عشرة: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ٢١١.
- «أخبره أني لن أعود»: عزام، «الطود الشامخ»، ص ٢٣؛ والشيخ تميم لم ينل الشهادة، ولكنه توفي في العام التالي إثر تعرضه لأزمة قلبية وهو في جولة للخطابة في مدينة أورلاندو في ولاية فلوريدا.
- «خشيت أن يعود بعض الإخوة»: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ٢٦١.
- قوة قوامها مائة وعشرون: أبو محمد في كتاب عزام، «الطود الشامخ»، ص ٩٧.
- اختار أن يشن هجومه يوم الجمعة: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ٢٦٥.
- يغلقون منازل الضيوف: مقابلة شخصية مع محمد لؤي بايزيد.
- «كان معي تسعة»: عزام، «الطود الشامخ»، ص ١٠٩.
- تسعة أو عشرة آلاف: السابق، ص ١٠٠ وما يليها، ويعد ذلك المصدر مصدر الكثير من التفاصيل الخاصة بهذا الجزء بالإضافة إلى كتاب محمد، «الأنصار

العرب في أفغانستان»، ص ٣١٠ وما يليها؛ و«والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.

- «صرخ في وجهي»: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ٣١٦.
- «ظننت أنه قد أصابه مس»: عزام، «الطود الشامخ»، ص ٣٠.
- «متعبًا للغاية»: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- «احرس الجانب الأيسر»: محمد، «الأنصار العرب في أفغانستان»، ص ٣٢٦.
- «مرت من جواري»: أسامة بن لادن في كتاب عزام، «الطود الشامخ»، ص ١١٢، ص ١١٣.
- «كانت هناك معركة رهيبة»: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- «كنت على بعد ثلاثين مترًا فقط من الروس»: روبرت فيسك Robert Fisk، «رجل الأعمال السعودي الذي جند المجاهدين يستخدمهم الآن في مشروعات بناء واسعة النطاق في السودان» The Saudi Businessman Who Recruited Mujahideen Now Uses Them for Large-Scale Building Projects in Sudan، صحيفة الإندبندنت، ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٣م.
- كيس ملح: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي الذي تحدث أيضًا عن تعرض بن لادن للإصابة بالملاريا والالتهاب الرئوي. وهناك علاقة بين انخفاض ضغط الدم والإصابة بمرض السكر، وقد قال البعض: إن بن لادن كان يتلقى حقن إنسولين. بيرجن، «الحروب المقدسة» Holy Wars، ص ٥٧، وأيضًا حاسن البنيان، «رجل القاعدة يكشف كل شيء بعد خروجه من سجن الرياض» Al-Qaeda Man Freed from Riyadh Jail Reveals It All، صحيفة أراب نيوز، ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م، ولكن جمال خليفة يقول: إن بن لادن لم يكن مريضًا بالسكر.
- «تسعة فقط من الإخوة»: أسامة بن لادن في كتاب عزام، «الطود الشامخ»، ص ١١٤. (وقد قام المؤلف بتصحيح الاقتباس بصورة طفيفة بسبب أخطاء لغوية قد يرجع السبب فيها إلى الترجمة.)
- منح ... بن لادن غنيمة تذكارية: مقابلة شخصية مع محمد لؤي بايزيد.

twitter @baghdad_library

(٦) القاعدة

- كنوز المتحف الوطني الأفغاني: مقابلات شخصية مع محمد سارواز ورحيم الله يوسفزاي.
- اقتطاع الجزء الأكبر من الإعانات المادية: مقابلة شخصية مع مارك سيجمان Marc Sageman، وقد شكك سيجمان في صحة الاعتقاد الشائع أن القادة كانوا يغدقون أنفسهم بالثروات من تجارة الهروين.
- المنافسات الدموية بينهم: مقابلة شخصية مع رحيم الله يوسفزاي.
- «وطنه الثاني»: مقابلة شخصية مع جمال إسماعيل.
- كوَّن محمد ... المضخة: وثيقة من المخابرات المركزية الأمريكية لم تنشر تحمل عنوان «تقرير عن محمد الظواهري» Report on Mohammed al-Zawahiri (دون تاريخ أو اسم كاتب التقرير).
- «الحصاد المر»: يعتقد بعض أعضاء جماعة الجهاد أن الظواهري قد سرق هذا الكتاب الذي يقولون إن مؤلفه الأصلي هو سيد إمام الشريف (المعروف بالدكتور فضل).
- «متاحًا دون مقابل»: مقابلة شخصية مع كمال هلباوي.
- الدكتور فضل: مقابلة شخصية مع ياسر السري، وأيضًا حمدي رزق، «اعترافات العائدين من ألبانيا تمثل نهاية جماعة الجهاد المصرية»، صحيفة الوسط، ١٩ أبريل/نيسان ١٩٩٩م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS.
- مستشفى الهلال الأحمر التي تدعمها الكويت: مقابلات شخصية مع جمال خاشقجي وأسامة رشدي.
- الدكتور الجزائري أحمد الود: مقابلات شخصية مع كمال هلباوي وعبد الله أنس.
- التكفير والهجرة: كيبل Kepel، Muslim Extremism in Egypt، ص ٧٣–٧٨.
- مسجد ... كان الظواهري يتردد عليه: مقابلة شخصية مع خالد أبو الفضل.
- بقايا هذه الجماعة: هيكل، «خريف الغضب»، ص ٢٥١.
- دماء المسلم لا تحل: صحيح البخاري، الجزء ٩، الكتاب ٨٣، رقم ١٧.
- من حقهم قتل أي شخص: مقابلة شخصية مع أسامة رشدي.

- ماركة فيشر برايس: مقابلة شخصية مع مها السمنة.
- «عائلة مترابطة ترابطًا غير عادي»: ثناء رستم، «آخر ضحايا الظواهري»، مجلة آخر ساعة، ١٢ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.
- «من الآن»: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء الثاني.
- قائمة المرتبات التي يدفعها: مقتبس من مستند «تاريخ أسامة» الذي قدم في القضية ضد إنعام م. أرناءوط في الولايات المتحدة.
- أبا عبيدة: مقابلات شخصية مع جمال خاشقجي وعصام دراز.
- قدمه الظواهري: «التحقيق مع أحد رفاق بن لادن»، جريدة الشرق الأوسط، ٢٤ يونيو/حزيران ١٩٩٩م.
- أبو حفص: مقابلة شخصية مع عصام دراز.
- محمد إبراهيم مكاوي: نبيل شرف الدين، «تفاصيل حول الرجل الذي حفر قصة بن لادن (الجزء الثالث)»، جريدة الوطن، ٢٩ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS. وطبقًا لعبده زينة في مقاله، تقرير بعنوان «المصريون الخمسة في القائمة الأمريكية لأخطر المطلوبين»، جريدة الشرق الأوسط، ٢٠ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م، فقد ذهب مكاوي إلى السعودية عام ١٩٩٨م، ثم إلى أفغانستان.
- ووجهه الحليق: مقابلة شخصية مع منتصر الزيات الذي كان محامي مكاوي.
- مضطرب العقل على نحو خطير: مقابلات شخصية مع كمال حبيب ومحمد صلاح.
- لضرب ... بطائرة: مقابلة شخصية مع شخصية سياسية مجهولة في القاهرة، وقد قال المصدر: «أعتقد أنه هو الأب الحقيقي لهجمات ١١ سبتمبر/أيلول»، ووصف مكاوي بأنه «مختل العقل».
- سيف العدل: هناك خلاف حول ما إذا كان عضو القاعدة الذي يحمل هذا الاسم هو محمد مكاوي، والاتهام الموجه ضده في الولايات المتحدة موجه بهذا الاسم، ولكن طبقًا لما يقوله علي صوفان: «إننا لا نعرف في الواقع اسم سيف العدل الحقيقي، ولا حتى المخابرات المصرية تعرف هويته. ولكنه حارب ضد الروس في أفغانستان.» ولكن يقول نعمان بن عثمان، إسلامي ليبي حارب في أفغانستان ويدعي معرفته بمكاوي وسيف العدل، إنهما شخصان مختلفان.

twitter @baghdad_library

ولكن محمد الشافعي في مقاله «الإسلامي الليبي ابن عثمان يناقش هوية عميل القاعدة سيف العدل»، جريدة الشرق الأوسط، ٣٠ مايو/أيار ٢٠٠٥م. ومن ناحية أخرى، قابل المؤلف الأردني فؤاد حسين سيف العدل منذ وقت قريب ويقول إنه هو مكاوي. فؤاد حسين، «الزرقاوي ... الجيل الثاني من القاعدة، الجزء الثاني»، صحيفة القدس العربي، ١٦ يونيو/حزيران ٢٠٠٥م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS. ويقول جمال إسماعيل الذي كان مراسلًا لجريدة إسلامية في بيشاور في الثمانينيات: إن سيف العدل ليس هو مكاوي ولكنه مصري آخر يعيش في الوقت الحالي في إيران، ويقول إسماعيل إن مكاوي لاجئ في أوروبا.

- بتقارير تفصيلية: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- «الدكتور أيمن يعطيه درسًا»: مقابلة شخصية مع محمد لؤي بايزيد.
- «لا أدري ما الذي يفعله»: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- أصدر فتوى: جناراتنا Gunaratna، Inside al-Qaeda، ص ٢٢.
- «طليعة رائدة»: عزام، «القاعدة الصلبة».
- لتدريب فرق من مقاتلي حماس: اتصال شخصي مع جمال إسماعيل.
- يكره ياسر عرفات: على لسان عبد الباري عطوان في كتاب بيرجن، The Osama bin Laden I Know، ص ١٧٠.
- نقل أرض المعركة إلى كشمير: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي، ومن الملاحظ أيضًا أن البوسنة لم تكن على قائمة الأهداف المحتملة للجهاد بالنسبة لبن لادن.
- يومًا حاسمًا: الحديث إلى محمد لؤي بايزيد (أبو رضا السوري) ووائل جليدان عبر وسيط. ويدعي بايزيد أنه كان خارج البلاد عندما عقد ذلك الاجتماع، وأن أبا هاجر أخبره عنه بعد ذلك. ولكن المحكمة في شيكاغو تؤكد أن الملاحظات المكتوبة بخط اليد عن الاجتماع تعود إلى بايزيد. وقد أخبرني وائل جليدان، الذي كان حاضرًا، عبر وسيط أن عبد الله عزام كان هناك أيضًا.
- للملحوظات الغامضة ... بخط يده: مقتبس من مستند «تاريخ أسامة» الذي قُدم في القضية ضد إنعام م. أرناءوط في الولايات المتحدة. وتختلف الترجمة التي أوردها المؤلف في العديد من الجوانب عما قُدِّم للمحكمة.

- مدني الطيب: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- القاعدة العسكرية: مقتبس من مستند «تاريخ أسامة» الذي قدم في القضية ضد إنعام م. أرناءوط في الولايات المتحدة.
- «الأخ أبو عبيدة»: أحمد زيدان، «البحث عن القاعدة»، برنامج تحت المجهر، قناة الجزيرة، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS، ١٠ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٤م.
- «ستون»: مقابلة شخصية مع محمد لؤي بايزيد.
- «كيانًا مستقلًا»: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- «السلطات السعودية»: السابق.
- «قل شيئًا»: السابق.
- «إن أسامة محدود»: السابق.
- أبو عبد الرحمن: اسمه الحقيقي أحمد سيد خضر. مقابلات شخصية مع زينب أحمد خضر ومها السمنة ومحمد لؤي بايزيد. أما تفاصيل المحاكمة فقد أمدني بها وائل جليدان الذي أجاب عن الأسئلة عبر وسيط، بالإضافة إلى مستند «تاريخ أسامة» الذي قُدم في القضية ضد إنعام م. أرناءوط في الولايات المتحدة.
- التخلص منه كإمام: «قصة الأفغان العرب من الدخول إلى أفغانستان إلى الخروج مع طالبان» الجزء الخامس، جريدة الشرق الأوسط، ١٢ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٤م.
- «قريبًا سترى يد»: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- «لا يمكننا أن نثق بالمصريين»: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- «لم أترك خلفي جنديًا»: كوردوفيتش Cordovez وهاريسون Harrison، Out of Afghanistan، ص ٣٨٤.
- خمسة عشر ألف جندي: بوروفيك Borovik، The Hidden War، ص ١٢-١٣.
- ما بين مليون: ويليام تي. فولمان William T. Vollmann، «خطاب من أفغانستان: عبر الصدع» Letter from Afghanistan: Across the Divide، مجلة ذا نيويوركر، ١٥ مايو/أيار ٢٠٠٠م.

twitter @baghdad_library

- ثلث السكان: مقابلة شخصية مع الأمير تركي الفيصل.
- ستة آلاف عربي: إسماعيل خان، «حملات عنيفة ضد العرب في بيشاور» Crackdown Against Arabs in Peshawar، صحيفة ذا نيوز في إسلام أباد، ٧ أبريل/نيسان ١٩٩٣م.
- «رجال لديهم أموال طائلة»: من «أحاديث من فوق قمة العالم» Chats from the Top of the World رقم ٦، أحد وثائق قاعدة بيانات هارموني Harmony Documents.
- حاويات شحن مكيفة: بنيامين Benjamin وسايمون Simon، The Age of Sacred Terror، ص ١٠١.
- مجموعة من التكفيريين احتجزوا شاحنة: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي.
- باع أسلحة في مقابل ذهب: رافايلي Raphaeli، Ayman Muhammed Rab'i al-Zawahiri.
- «القائد الضرير»: مقابلة شخصية مع أسامة رشدي.
- مائة ألف دولار: بيرجن، The Osama bin Laden I Know، ص ٧٠.
- جلال أباد: تستند القصة التي تلت على عدد من المقابلات الشخصية، ولكنها تتضمن بعض الروايات المتناقضة الجديرة بالذكر. فقد أخبرني مارك سيجمان Marc Sageman الذي كان ضابط حالة تابع للمخابرات الأمريكية في باكستان آنذاك أن فرقة الجنود الأفغان، وقوامها ٤٥٠ رجلًا، التي كانت تحرس المطار سريعًا ما استسلمت. وبسبب الحقد والفرقة بين صفوف جماعات المجاهدين، توصلوا إلى اتفاق بتوزيع السجناء بينهم. وقد حصل العرب على تسع السجناء أي تسعة وأربعين رجلًا. وقد قتلهم العرب وقطعوا جثثهم إلى أجزاء ووضعوها في أقفاص، ثم شحنوا الأقفاص في شاحنة إمدادات وأرسلوها إلى المدينة المحاصرة ومعها لافتة مكتوب عليها «هذا ما يحدث للمرتدين». وعند تلك النقطة تغير مجرى أحداث الحرب فجأة؛ فتوقفت القوات الأفغانية داخل جلال أباد عن التفاوض على استسلامهم وعادوا يقاتلون مرة أخرى. وفي غضون أيام، نجحت القوات الجوية الأفغانية في إبعاد المجاهدين عن المطار وأجبرتهم على العودة إلى الجبال. وإذا كانت هذه القصة صحيحة، فهذا يعد أول دليل على نهم بن لادن بالقتل. ويقول أوليفيير روي Olivier Roy، العالم الفرنسي الكبير والمتخصص

في دراسة شئون أفغانستان، إنه قد سمع القصة نفسها من الأفغان الذين كانوا داخل المدينة المحاصرة. ولكن لم يحضر أي من سيجمان وروي تلك المعركة. أما عصام دراز الذي كان هناك، فقد أنكر أن هذا الأمر قد حدث على الإطلاق، وكذلك أحمد زيدان الذي غطى المعركة بصفته مراسلًا صحفيًا. ولقد كان قتل السجناء دون تمييز شائعًا بين الجانبين في تلك الحرب.

هناك نقطة أخرى متعلقة بمعركة جلال أباد وهي ما إذا كان بن لادن قد أصيب في تلك المعركة. فيقول مايكل شوير الذي كان رئيس أليك ستيشن التابع لجهاز المخابرات الأمريكية: إن بن لادن قد أصيب مرتين في الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي: الأولى في جاجي وقد أصيب في قدمه، والثانية في كتفه من جراء تعرضه لشظية، في حين ينكر عصام دراز مرة أخرى أن بن لادن قد أصيب في تلك الحرب على الإطلاق، وكذلك جمال خليفة.

- خمسة إلى سبعة آلاف من المجاهدين الأفغان: يوساف Yousaf وأدكين Adkin، The Bear Trap، ص ٢٢٧-٢٢٨.
- أربعة كيلومترات فوق المدينة: مقابلة شخصية مع عصام دراز.
- أقل من مائتي رجل: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- بالملاريا ... بالالتهاب الرئوي: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي.
- طبيب عبقري: مقابلة شخصية مع عصام دراز.
- عشرين غارة يوميًا: يوساف Yousaf وأدكين Adkin، The Bear Trap، ص ٢٣٠.
- ينقل له الظواهري الجلوكوز: تفاصيل هذه الحادثة تستند إلى مقابلة شخصية مع عصام دراز ومن قصته التي ذكرت في كتاب عزام، «الطود الشامخ»، ص ٨٠ وما يليها.
- داء أديسون: إنني أدين بالشكر للدكتورة جين ريان Jeanne Ryan التي تشاورت معي في هذه الأمور وقامت بتشخيص المرض. وقد ظنت المخابرات المركزية الأمريكية، وآخرون غيرها، أن بن لادن يعاني مرضًا في الكلى، ولو كان الأمر كذلك لكان قد مات الآن على الأرجح بدون الاستمرار في غسيل الكلى، إلى جانب أن الأعراض لن تكون كتلك المذكورة هنا. وأشارت الدكتورة ريان أيضًا إلى أن المرضى الذين يعانون أمراض الكلى لا يستطيعون الإفراط في تناول

twitter @baghdad_library

الملح، في حين أن كل شخص عرف بن لادن عن قرب كان يعلم بأمر كيس الملح الذي لا يتوقف عن غرس إصبعه المبلل داخله وامتصاصه. بالإضافة إلى أن أحد العلامات الأساسية المصاحبة للإصابة بداء أديسون هي تحول البشرة للون الداكن في النهاية، وهو ما أصبح جليًّا في شرائط فيديو بن لادن التي أذيعت بعد ذلك.

- شفيق: مقابلات شخصية مع عبد الله أنس وجمال خليفة.
- ثمانين آخرين: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس، وبعض القصص الأخرى تشير إلى أن الرقم وصل إلى خمسمائة. «قصة الأفغان العرب من الدخول إلى أفغانستان إلى الخروج مع طالبان» الجزء السادس، جريدة الشرق الأوسط، ١٢ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٤م.
- ومعسكر الفاروق هذا معسكر تكفيري: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- أعضاء هذا المعسكر: حاسن البنيان، «أقدم الأفغان العرب يتحدث لجريدة «الشرق الأوسط» عن مسيرته التي أوصلته في النهاية إلى السجن في السعودية»، جريدة الشرق الأوسط، ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- من ثلاث نسخ: جناراتنا Gunaratna، Inside al-Qaeda، ص ٥٦.
- ألف دولار شهريًّا: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- تذكرة ذهاب وعودة إلى بلده: يمكن العثور على التفاصيل الخاصة بعقد توظيف القاعدة بين الوثائق الموجودة في قاعدة بيانات هارموني Harmony Documents المستمدة من قاعدة بيانات وزارة الدفاع الأمريكية. www.ctc.usma.edu/aq_harmonylist.asp.
- دستورًا وقوانين: السابق.
- «اعتبرنا جنودك»: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- اكتشف ... قنبلة قوية: «أفغاني سعودي يتحدث عن تورطه مع القاعدة وبن لادن»، جريدة الشرق الأوسط، ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- «من الأفضل أن تغادر»: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.
- تعانقا لوقت طويل: برنامج تحت المجهر، قناة الجزيرة، ٢٠ فبراير/شباط ٢٠٠٣م.

- عشرين كيلوجرامًا من مادة تي إن تي المتفجرة: جناراتنا Gunaratna، Inside al-Qaeda، ص ٢٣.
- يروج شائعات: مقابلة شخصية مع أسامة رشدي.

(٧) عودة البطل

- سبعة وعشرين مليون ريال سعودي: مقابلة شخصية مع متحدث باسم عائلة بن لادن. وقد أخبرني جمال خليفة وهو متزوج من إحدى أخوات بن لادن غير الشقيقات أن حصته السنوية «لا تصل حتى إلى مليون ريال»، أي ما يساوي ٢٦٦ ألف دولار، وهو الرقم الذي أكده المتحدث باسم عائلة بن لادن. وهذا الرقم أقل بكثير من الرقم المُخفَّض الذي وضعته لجنة ١١ سبتمبر/أيلول والذي جاء فيه: «من عام ١٩٧٠م وحتى ١٩٩٤م، كان بن لادن يتلقى مليون دولار تقريبًا سنويًّا، وهو وإن كان قطعًا مبلغًا كبيرًا، لكنه لم يصل إلى الثلاثمائة مليون دولار التي يمكن استخدامها لتمويل الجهاد.» اللجنة الوطنية للتحقيق في الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة، تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٧٠. وقد أخبرني جمال خاشقجي أن بن لادن عندما عاد من أفغانستان أخبر إخوته أنه قد أنفق نصيبه من الإرث على الجهاد وأنهم عوضوه من نصيبهم الخاص، ولكنَّ متحدثًا باسم عائلة بن لادن يشكك في صحة هذه المعلومات.
- بناء الطرق في مدينتي الطائف وأبها: روبرت فيسك Robert Fisk، «رجل الأعمال السعودي الذي جند المجاهدين يستخدمهم الآن في مشروعات بناء واسعة النطاق في السودان» The Saudi Businessman Who Recruited Mujahideen Now Uses Them for Large-Scale Building Projects in Sudan، صحيفة الإندبندنت، ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٣م.
- «عثمان عصره»: مقابلة شخصية مع منصور النجدان.
- ويبلغ طوله ٤٨٢ قدمًا: سايمونز Simons، Saudi Arabia، ص ٢٨.
- موزعي أوراق لعبة البلاك جاك ولعبة الروليت: ماري كولفن Marie Colvin، «الشيوخ المسرفون» The Squandering Sheikhs، صحيفة صنداي تايمز، ٢٩ أغسطس/آب ١٩٩٣م.

twitter @baghdad_library

- «العاهرات والمواد الإباحية»: دافيد ليه David Leigh ودافيد باليستر David Pallister، «ظلال قاتمة وسط شمس الريفيرا المشرقة» Murky Shadows Amid the Riviera Sunshine، صحيفة جارديان، ٥ مارس/آذار ١٩٩٩م.
- فيطلقون عليها الرصاص: مقابلة شخصية مع محمد الرشيد.
- يقطن منزلًا متواضعًا نسبيًّا من طابق واحد: مقابلة شخصية مع فرانك أندرسون Frank Anderson.
- يربي النعام: اتصال شخصي مع جمال خاشقجي.
- الفارس الأبيض: العريضة التي قدمها ديسبينا ساهيني Despina Sahini ضد تركي سعيد أو تركي الفيصل بن عبد العزيز آل سعود، المحكمة الابتدائية في أثينا باليونان، ٢ فبراير/شباط ٢٠٠٣م.
- شراب الموز المُسكِر مع الليمون والسكر: كول Coll، Ghost Wars، ص ٧٣.
- «هذا الرجل شوّه سمعة»: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.
- متهمين أدينوا في قضايا سابقة: السابق.
- كانت تُدرس ... في مكة: مقابلة شخصية مع سامي عنقاوي.
- منعت الحكومة الشيعة: سايمونز Simons، Saudi Arabia، ص ٣٤.
- ١٪ من تعداد المسلمين: يماني، To Be a Saudi، ص ٦٣.
- ٩٠٪ تقريبًا من الأموال التي تنفق: داود الشريان، «ماذا ستفعل المملكة العربية السعودية؟»، جريدة الحياة، ١٩ مايو/أيار ٢٠٠٣م.
- «لقد هاجموا إخواننا»: حديث أسامة بن لادن في مسجد عائلة بن لادن في جدة في أبريل/نيسان عام ١٩٩٠م والذي صوره عصام دراز.
- «عندما أذنت أمريكا»: شريط فيديو لبن لادن، قناة الجزيرة، ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤م.
- «شكرًا لك»: /www. pbs.org./wgbh/pages/frontline.
- أمريكا والسعودية: قارن بكتاب ليبمان Lippman، Inside the Mirage.
- أكثر من ثلاثين ألف: بيترسون Peterson، Saudi Arabia and the Illusion of Security، ص ٤٦.
- أكثر من ٢٠٠ ألف أمريكي: الأمير تركي الفيصل في خطاب أمام جامعة سيتون هول، ١٤ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٣م.

- كانت الولايات المتحدة تحتل المرتبة العاشرة: أبو الريش، The Rise, Corruption and the Coming Fall، ص ١٦٩.
- في عام ١٩٨٩م، اقترح بن لادن: مقابلات شخصية مع سعيد باديب وأحمد باديب.
- أن الأمريكيين قد عقدوا اتفاقًا سريًّا: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي.
- حقائب مكتظة بالنقود: راندال Randal، Osama، ص ١٠٠.
- قام بعدد من الرحلات إلى الجمهورية الجديدة: مقابلات شخصية مع أحمد باديب وسعيد باديب.
- اغتيال القادة الاشتراكيين: تقول الحكومة اليمنية: «إن المجموعات الأفغانية اليمنية قد أعدمت العديد من الشخصيات الاشتراكية وشنت ١٥٨ عملية ... بين عامي ١٩٩٠م و٢٠٠٤م على أساس فتاوى أصدرها أسامة بن لادن.» مذكور في مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ١١٢. وعلى ما يبدو لم يدرك اليمنيون أن تنظيمًا جديدًا، القاعدة، مسئولًا عن تلك العمليات.
- «لقد كنت أعمل»: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.
- ضاعف الرقم على الفور: مقابلة شخصية مع نواف عبيد.
- بأكثر قليلًا من خمسة ملايين نسمة: اتصال شخصي مع البروفيسور ويليام بي. كواندت William B. Quandt.
- نقل ... مقره الخارجي: سايمونز Simons، Saudi Arabia، ص ٢١٤.
- «لقد قلت أكثر من مرة»: أسامة بن لادن في لقاء مع بيتر إل. بيرجن وبيتر أرنيت، شبكة سي إن إن، ١٠ مايو/أيار ١٩٩٧م.
- «يحرق نصف إسرائيل»: أماتزيا بارام Amatzia Baram، The Iraqi Invasion of Kuwait في The Saddam Hussein Reader، تحرير توري مونث Turi Munthe، ص ٢٥٩.
- معاهدة عدم اعتداء: ووفقًا لما كتبه كل من ليسلي كوكبرن Leslie Cockburn وأليكسندر كوكبرن Alexander Cockburn في مقالهما «الفوضى الملكية» Royal Mess، مجلة ذا نيويوركر، ٢٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٤م، كان السعوديون أيضًا يمولون الأبحاث العراقية الخاصة بالأسلحة النووية. ومن ناحية أخرى، يؤكد ريتشارد أ. كلارك في مقابلة شخصية أن هذه القصة «لا تصدق نهائيًّا»

twitter @baghdad_library

نظرًا لأن أكبر المخاوف التي كانت تقض مضجع السعوديين هي أن يمتلك صدام حسين سلاحًا نوويًا.

- أية نية لغزو الكويت: www.kingfahdbinabdulaziz.com/main/ .1300.htm
- لينقض على مزرعته: «السيرة الذتية لأسامة بن لادن تأليف «أخ مجاهد» مع تعديلات طفيفة»، مركز المراقبة الإسلامي، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS، ٢٢ أبريل/نيسان ٢٠٠٠م.
- كتيبة واحدة: وودورد Woodward، The Commanders، ص ٢٤٨.
- كتب بن لادن خطابًا: اسبوسيتو Esposito، Unholy War، ص ١٢.
- وانقسمت العائلة المالكة على نفسها: أبير Abir، Saudi Arabia، ص ١٧٤.
- صورًا بالأقمار الصناعية: وقد شككت التقارير الإخبارية في وقت لاحق في دقة تلك الصور مشيرة إلى أن صور الأقمار الصناعية التجارية الروسية أوضحت مساحات شاسعة من الرمال الخالية على طول الحدود السعودية. سكوت بيترسون Scott Peterson، «في الحرب بعض الحقائق لا تكون حقيقية» In War, Some Facts Less Factual، صحيفة كريستيان ساينس مونيتور، ٦ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م. ويقول ريتشارد أ. كلارك في مقابلة شخصية: إن الصور التي قدمها الجنرال شوارزكوف لم تكن للمنطقة الحدودية، ولكن للاحتلال العراقي للكويت.
- فتعهد تشيني: كلارك، Against All Enemies، ص ٥٨.
- «تعالوا بكل ما يمكنكم»: مقابلة شخصية مع ريتشارد أ. كلارك.
- تحدث بن لادن إلى الأمير سلطان: بورك Burke، Al-Qaeda، ص ١٢٤؛ وأيضًا مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ١١٤؛ الشكوى المعدلة الثالثة النهائية في قضية توماس إي. بورنيت الأب Thomas E. Burnett, Sr. ضد شركة البركة للاستثمار والتنمية وآخرين.
- «أنا جاهز»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الثامنة، ٢٦ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- «لا توجد كهوف»: دوجلاس جيل Douglas Jehl، «الحرب المقدسة أغرت السعوديين عندما غض الحكام أبصارهم» Holy War Lured Saudis as Rulers Looked Away، صحيفة نيويورك تايمز، ٢٧ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.

- تقدَّم للمخابرات الأمريكية بعدد من الاقتراحات: حديث الأمير تركي الفيصل لمركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون، ٣ فبراير/شباط ٢٠٠٢م.
- في دار عرض: مقابلات شخصية مع أحمد باديب وحسن ياسين.
- ثمانية وخمسين ألف رجل: أبير Abir، Saudi Arabia، ص ١٧٦.
- «لقد طردنا السوفييت»: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.
- ضحك الأمير: أرنود دي بورشجريف Arnaud de Borchgrave، «عملاء أسامة السعوديون» Osama's Saudi moles، صحيفة واشنطن تايمز، ١ أغسطس/آب ٢٠٠٣م.
- «التغيرات الجذرية»: جمال خاشقجي، «تركي: أسامة عرض تكوين جيش لتحدي قوات صدام» Osama Offered to Form Army to Challenge Saddam's Forces: Turki، صحيفة أراب نيوز، ٧ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- فيقول الأمير تركي: جمال خاشقجي، «للمملكة دور كبير لتلعبه في أفغانستان» Kingdom Has a Big Role to Play in Afghanistan، صحيفة أراب نيوز، ٦ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- الخليفة عمر: لويس Lewis، The Crisis Of Islam، xxix-xxx.
- «غير جائز»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الثامنة، ٢٦ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- ألف وخمسمائة صحفي أجنبي: الرشيد al-Rasheed، A History of Saudi Arabia، ص ١٦٦.
- «كافرات»: رايت Wright، Kingdom of Silence.
- «خطاب المطالب»: الرشيد al-Rasheed، A History of Saudi Arabia، ص ١٧٠؛ وأيضًا تشامبيون Champion، The Paradoxical Kingdom، ص ٢١٨ وما يليها؛ وأبير Abir، Saudi Arabia، ص ١٨٦ وما يليها.
- أكثر من صدمتها: تشامبيون Champion، The Paradoxical Kingdom، ص ٢٢١.
- لدي دور: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي.

twitter @baghdad_library

- خوفًا من تأثير: مقابلة شخصية مع مايكل شوير الذي تحدث إلى تركي في ذلك الوقت.
- السعودية قد جندت: ستيفن إنجيلبرج Stephen Engelberg، «رجل واحد وشبكة عالمية من العنف» One Man and a Global Web of Violence، صحيفة نيويورك تايمز، ١٤ يناير/كانون الثاني ٢٠٠١م.

(٨) الفردوس

- ما بين خمسة عشر ألفًا وخمسة وعشرين ألف شاب: مقابلة شخصية مع ستيفن سايمون Steven Simon. وتتراوح بعض التقديرات الأخرى من خمسة إلى خمسة عشر ألفًا. ريف Reeve، The New Jackals، ص ٣؛ وأيضًا هاليداي Halliday، Two Hours That Shook The World، ص ١٦٦. وقد قال مارك سيجمان Marc Sageman في اتصال شخصي: «أردت أن أعرف الرقم بنفسي. ولكني اكتشفت أن لا أحد يعرف، ولم أتمكن حتى من معرفة كيف يمكنني تقدير الرقم. وحتى الآن جميع الأرقام اعتباطية تستند إلى تخمينات بحتة.»
- اعتقلوا على الفور: مقابلة شخصية مع سعيد باديب.
- «حتى مع الهنود الحمر»: مقابلة شخصية مع حسن الترابي.
- أربعة من رجاله الذين يثق بهم: شهادة جمال الفضل في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- «ما تحاول القيام به موجود في السودان!»: مقابلة شخصية مع محمد لؤي بايزيد.
- أعطى ... الفضل مبلغ ٢٥٠ ألف دولار: شهادة جمال الفضل في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- الأمر الذي جعل بن لادن: مقابلة شخصية مع الدكتور غازي صلاح الدين.
- سبعة عشر طفلًا: مقابلة شخصية مع زينب أحمد خضر.
- حياه قائد السودان: أحمد زيدان، «البحث عن القاعدة»، قناة الجزيرة، ١٠ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٤م.
- كل شهر تقريبًا: مقابلة شخصية مع إبراهيم السنوسي.

- في نظر بن لادن بدعة: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- «الفن والموسيقى والغناء»: مقابلة شخصية مع حسن الترابي.
- «اعتاد الرسول نفسه»: مقابلة شخصية مع حسن الترابي.
- ويدعي الجيران: النور أحمد النور، «جاره يزعم أنه لا يتحدث كثيرًا»، جريدة الحياة، ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- التي يتركها ضيوفه: مقابلة شخصية مع عصام الدين الترابي.
- فريقا كرة القدم من أعضاء القاعدة: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- «المستثمر الإسلامي العظيم»: «الجزء الأول من سلسلة تقارير حول حياة بن لادن في السودان: الإسلاميون يحتفلون بقدوم المستثمر الإسلامي الكبير»، صحيفة القدس العربي، ٢٤ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS.
- ٣٥٠ مليون دولار: السابق.
- خمسين مليون دولار: الشكوى المعدلة الثالثة النهائية في قضية توماس إي. بورنيت الأب Thomas E. Burnett, Sr. ضد شركة البركة للاستثمار والتنمية وآخرين.
- «أكبر من دولة البحرين»: مقابلة شخصية مع الدكتور خالد بطارفي.
- الجلود للسوق الإيطالي: بيرجن، Holy War، ص ٨١.
- مليون فدان: بور Burr، Revolutionary Sudan، ص ٧١.
- احتكر بن لادن تقريبًا: وثيقة حقائق وزارة الخارجية الأمريكية عن حياة أسامة بن لادن، ١٤ أغسطس/آب ١٩٩٦م.
- في ثلاث نسخ: مقابلة شخصية مع بروس هوفمان Bruce Hoffman.
- ما بين ٥٠ إلى ١٢٠ دولارًا: الحمادي «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة التاسعة، ٢٨ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- السعوديون يحصلون على مبالغ أكبر: مقابلة شخصية مع دانيال كولمان.
- خمسمائة شخص تقريبًا يعملون: مقابلة شخصية مع حسب الله عمير.
- عدد الأعضاء النشطين ... مائة عضو: السابق. تعد شهادة جمال الفضل (في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة) محيرة لأنه على ما يبدو جمع عدد الموظفين في شركات بن لادن مع العدد الحقيقي للأشخاص الذين بايعوا بن لادن رسميًّا.

twitter @baghdad_library

- مليون دولار يوميًا: بور Burr، Revolutionary Sudan، ص ٣٦.
- الشيوخ ... صوم: النور أحمد النور، «جاره يزعم أنه لا يتحدث كثيرًا»، جريدة الحياة، ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- نعمة السلام: مقابلة شخصية مع غازي صلاح الدين العتباني.
- بأبي هاجر: مقابلات شخصية مع توم كوريجان Tom Corrigan، ودانيال كولمان وآلان بي. هابر Allan P. Haber، وجمال خليفة ومحمد لؤي بايزيد.
- ترك الجيش: التحقيق مع ممدوح محمود سالم أحمد، ميونيخ، ١٧ سبتمبر/أيلول ١٩٩٨م.
- يدفع بن لادن للبكاء: مقابلة شخصية مع دانيال كولمان.
- ١١ سبتمبر/أيلول: بيلوك Belloc، The Great Heresies، ص ٨٥.
- «الجهاد ضد أمريكا؟»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الثامنة، ٢٦ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- «جبهة حرب واسعة النطاق»: السابق، الحلقة الخامسة، ٢٣ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- تسعمائة شخص: التقرير السنوي لمكتب مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية الأمريكية لعام ٢٠٠٤م، أبريل/نيسان ٢٠٠٥م.
- والمعروف بكارلوس ذي الألف وجه: مقابلات شخصية مع تيم نيبلوك Tim Niblock وحسب الله عمير. وكين سيلفيرشتاين Ken Silverstein، «السودان المنبوذ رسميًا ذو أهمية في حرب أمريكا على الإرهاب» The Official Pariah Sudan Valuable to America's War on Terrorism، صحيفة لوس أنجلوس تايمز، ٢٩ أبريل/نيسان ٢٠٠٥م.
- مقابل أسلحة: دوجلاس فاره Douglas Farah ودانا بريست Dana Priest، «ابن أسامة بن لادن يلعب دورًا حيويًا في القاعدة» Bin Laden Son Plays Key Role in al-Qaeda، صحيفة واشنطن بوست، ١٤ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٣م.
- ابن تيمية أصدر فتوى تاريخية: شهادة جمال الفضل في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.

(٩) وادي السليكون

- «تلك الأبراج المعنوية الهائلة»: أسامة بن لادن في مقابلة شخصية مع تيسير علوني، قناة الجزيرة، أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م، ترجمة سي إن إن.
- ليتل إيجيبت: كيبل Kepel، Jihad، ص ٣٠١.
- أصدر الشيخ فتوى: مقابلة شخصية مع توم كوريجان Tom Corrigan.
- «أحفاد القردة»: كولمان Kohlmann، Al-Qaeda's Jihad in Europe، ص ٢٦.
- «قسموا أمتهم بقطع وسائل المواصلات»: السابق، ص ١٨٥.
- يسعون إلى شل الحياة في نيويورك: مقابلات شخصية مع فرانك بيلجرينو Frank Pellegrino ودافيد كيلي David Kelley ولويس شيليرو وجيمس كولستروم James Kallstrom وجو كانتيميسا Joe Cantemessa وريتشارد أ. كلارك، وتوماس بيكارد، وباسكوالى «بات» داموروو، ومارك روسيني، وماري جاليجان Mary Galligan، وتوم كوريجان Tom Corrigan.
- بن لادن كان يدعم ... ماديًا: مقابلة شخصية مع توم كوريجان Tom Corrigan.
- سيانيد الصوديوم: ريف Reeve، The New Jackals، ص ٤٣.
- قنبلة قذرة: السابق، ص ١٤٧.
- السياح شعروا: السابق، ص ١٢.
- أكبر عدد من المصابين يصل إلى المستشفيات: السابق، ص ١٥.
- ظهر الظواهري في دوائر الدعوة والخطابة: هناك خلاف جديد بالاعتبار حول تاريخ رحلة الظواهري إلى الولايات المتحدة الأمريكية بالضبط أو حقيقة ما إذا كان هناك أكثر من رحلة. فقد قال علي محمد، المصدر الرئيسي للمعلومات لمكتب التحقيقات الفيدرالي في هذا الشأن، للمحققين: إن الظواهري سافر إلى بروكلين في عام ١٩٨٨م بصحبة أبي خالد المصري، واسمه الحقيقي هو محمد شوقي الإسلامبولي وهو شقيق مغتال أنور السادات الذي كان عضوًا في مجلس شورى جماعة الجهاد. أما فيما يخص رحلة كاليفورنيا، فيقول محمد: إنها كانت في عام ١٩٩٣م قبل تفجير مركز التجارة العالمي في السادس والعشرين من فبراير/شباط. ولكن مضيف الظواهري في كاليفورنيا الدكتور علي زكي يقول: إنه قابل الظواهري مرة واحدة في عام ١٩٨٩م أو ١٩٩٠م. وهناك

twitter @baghdad_library

شهادة في المحكمة في مصر على لسان خالد أبو الدهب، عضو آخر في جماعة الجهاد يعيش في كاليفورنيا، يقول فيها للمحكمة في القاهرة في عام ١٩٩٩م: «جاء أيمن الظواهري إلى أمريكا لجمع التبرعات.» وقد أرخ أبو الدهب زيارة الظواهري في نهاية عام ١٩٩٤م أو ١٩٩٥م. وقد فضلت في هذا الكتاب الاستناد إلى قصة مكتب التحقيقات الفيدرالي فيما يخص تواريخ رحلاته.

وطبقًا لدانيال كولمان، فقد زار الظواهري فرع مكتب الخدمات الخاص بالمجاهدين في بروكلين عام ١٩٨٨م. وكان أحد رجال الظواهري في جماعة الجهاد وهو مصطفى شلبي هو من يدير ذلك المكتب الموجود في شارع أتلانتيك أفنيو. وبعد عامين، اشتبك شلبي في نزاع مع غريم الظواهري القديم الشيخ عمر عبد الرحمن حول النقود؛ فقد أراد الشيخ الضرير استغلال الأموال التي جمعها المركز لتمويل الجهاد العالمي، في حين أراد شلبي استخدامها في تمويل الثورة الإسلامية ضد مصر، ورفض أن يتنازل عن إدارته للحساب. وفي مارس/آذار من عام ١٩٩١م، اقتحم شخص ما شقة شلبي في بروكلين وانهال عليه ضربًا وخنقه وطعنه أكثر من ثلاثين طعنة، وهي جريمة قتل لم يحل لغزها قط.

- برن في سويسرا ... باسمه الحقيقي: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- خبيرًا عسكريًّا: مقابلة شخصية مع مارك روسيني.
- اشتبهت الحكومة: بنيامين Benjamin وسايمون Simon، The Age of Sacred Terror، ص ١٢٣.
- كان بالفعل عضوًا: شهادة في القضية ضد علي محمد في الولايات المتحدة.
- مكتب المخابرات الأمريكية في القاهرة: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- على الأرجح مزروع: مقابلة شخصية مع مايكل شوير.
- ترعاه الوكالة: بول كوين-جادج Paul Queen-Judge وتشارلز إم. سينوت Charles M. Sennott، «رجل يمثل أمام المحكمة في قضية إرهاب قيل إنه دخل الولايات المتحدة بمساعدة المخابرات الأمريكية» Figure Cited in Terrorism Case Said to Enter US with CIA Help، صحيفة بوسطن جلوب، ٣ فبراير/شباط ١٩٩٥م.
- الرحلة الجوية التي نقلته عبر المحيط الأطلنطي: بيتر والدمان Peter Waldman، وجيرالد إف. سيب Gerald F. Seib، وجيري ماركون Jerry Markon،

وكريستوفر كوبر Christopher Cooper، «المتسلل: علي محمد خدم في الجيش الأمريكي، وجماعة بن لادن» The Infiltrator: Ali Mohamed Served in the U.S. Army-and bin Laden's Circl، صحيفة وول ستريت جورنال، ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م. وميلر Miller وستون Stone وميتشل Mitchell، The Cell، ص ١٤١.

- يسعى للحصول على دكتوراه: بيرجن، Holy War، ص ١٢٩.
- سلسلة محال كينكو: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- أعضاء من جماعة الجهاد: مقابلة شخصية مع توم كوريجان Tom Corrigan.
- «ليقتل بعض الروس»: بنيامين ويسر Benjamin Weiser وجيمس ريزن James Risen، «تنكر مقاتل: تقرير خاص؛ آثار غامضة لجندي في الولايات المتحدة والشرق الأوسط» The Masking of a Militant: A Special Report; a Soldier's Shadowy Trail in U.S. and in the Mideast، صحيفة نيويورك تايمز، ١ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٨م.
- الاختطاف والاغتيال واختطاف الطائرات: «قصة الأفغان العرب من الدخول إلى أفغانستان إلى الخروج مع طالبان»، الجزء الخامس، جريدة الشرق الأوسط، ١٢ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٤م.
- تقنية إطلاق: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- شراء السجاد: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- اسم أسامة بن لادن: مقابلة شخصية مع جاك كلونان. وكان اسم بن لادن ومنظمته قد بدآ يُعرفان حتى في وسائل الإعلام. فهناك مقال في وكالة الصحافة الفرنسية AFP بعنوان: «المناضلون الأردنيون يتدربون في أفغانستان لمواجهة النظام الحاكم» Jordanian Militants Train in Afghanistan to Confront Regime بتاريخ ٣٠ مايو/أيار ١٩٩٣م، وجاء فيه أن «مقاتلًا في السابعة والعشرين من عمره» يعترف أنه «قد تدرب على يد القاعدة، تنظيم سري في أفغانستان يموله رجل أعمال سعودي ثري يمتلك شركة بناء وتشييد في جدة واسمه أسامة بن لادن.»
- «جيمس بوند»: مقابلة شخصية مع هارلين إل. بل Harlen L. Bell.
- قد ضاعت: مقابلة شخصية مع دانيال كولمان.

twitter @baghdad_library

- ملحق عسكري ألماني: اعترافات أحمد إبراهيم السيد النجار في قضية «العائدين من ألبانيا»، سبتمبر/أيلول ١٩٩٨م.
- بألفي دولار: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- نجيب محفوظ: مقابلة شخصية مع نجيب محفوظ.
- «طلائع الفتح»: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء السادس. وهناك خلاف قائم حول ما إذا كان الظواهري مسئولًا عن تلك الطلائع، وهناك عدة مقالات في الصحف تصف الطلائع بأنها مجموعة منشقة خارجة عن جماعة الجهاد يقودها أحمد عجيزة وياسر السري. ولكن السري كان مراوغًا في حديثه معي عندما سألته عن هذا الأمر، فقال: «في عامي ١٩٩٣م و١٩٩٤م، لم يوافق الكثيرون على ما حدث في مصر، ولكن الظواهري كان يملك المال، في حين أن تلك الجماعة لم يكن لديها نقود.» وقد أخبرني ممدوح إسماعيل، محامٍ إسلامي في القاهرة، أن اسم «الطلائع» كان اسمًا إعلاميًّا، وفي الواقع لقد كان الجزء الأكبر من الذين أُلقي القبض عليهم أعضاء من جماعة الجهاد، وهي وجهة النظر التي يؤيدها هشام قاسم وهو مدافع عن حقوق الإنسان وناشر في القاهرة وكذلك منتصر الزيات الذي يؤكد: «لا يوجد ما يطلق عليه «طلائع الفتح».»
- المعايير القضائية: وفقًا لما يقوله هشام قاسم، ناشر في القاهرة ويعمل في مجال حقوق الإنسان: «لقد اتُّهمت الطلائع بمحاولة الإطاحة بالحكومة. وكان جزءًا من الدليل مضرب كرة بيسبول وبندقية هوائية؛ ثم يعدمون من يرون أنهم مصدر خطر والباقون يتلقون حكمًا بالسجن مدى الحياة، فالأمر كله صوري.»
- «الحل الوحيد»: أندرو هيجنز Andrew Higgins وكريستوفر كوبر Christopher Cooper، «العباءة والخنجر: فريق تدعمه المخابرات الأمريكية استخدم وسائل وحشية للقضاء على خلية إرهابية» Cloak and Dagger: A CIA-Backed Team Used Brutal Means to Crack Terror Cell، صحيفة وول ستريت جورنال، ٢٠ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- ظهور الجمال: شهادة جمال الفضل في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة الأمريكية.

- «نجا الوزير»: «الشرق الأوسط تنشر حلقات من الكتاب الجديد للظواهري قائد جماعة الجهاد»، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS، جريدة الشرق الأوسط، ٢ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.
- ذهب الظواهري إلى إيران: «اعترافات آخر قادة جماعة الجهاد»، مجلة روزاليوسف، ٢ فبراير/شباط ١٩٩٧م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS.
- يوزع هذه الشرائط: صلاح، «وقائع سنوات الجهاد».
- «الإرهاب عدو الله»: «الجماهير المصرية الحزينة تشجب الإرهابيين» Egyptian Mourners Condemn Terrorists، وكالة أسوشياتد برس، ٢٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٣م.
- «وقد آلمنا مقتل ... دون قصد»: أيمن الظواهري، «الشرق الأوسط تنشر حلقات من الكتاب الجديد للظواهري قائد جماعة الجهاد»، جريدة الشرق الأوسط، ٢ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS.
- «أي طالبتْ»: السابق.

(١٠) الفردوس المفقود

- ٣٥٠ ألف شخص: هيوباند Huband، Warriors of the Prophet، ص ٣٦.
- ٢٥٠ رجل: مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ١٢٦.
- قليل: مقابلة شخصية مع حسب الله عمير. وجاء في شهادة الحسين خرشتو أن اثنين فقط من مقاتلي القاعدة أرسلا إلى الصومال لأنهما كانا أسمري البشرة ويمكن أن ينخرطا سريعًا بين السكان الأصليين. القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة. ويبقى مدى اشتراك القاعدة في حرب الصومال أمر غير مؤكد. وقد كتبت ماري ديبورا دوران التي ركزت جهودها على قضية الصومال في مكتب التحقيقات الفيدرالي إليَّ تقول: «أعتقد أن القاعدة قد لعبت ولا شك دورًا في الصومال، وأعتقد أن القاعدة كان لها دور في قتل جنودنا في أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٩٣م، حتى إذا لم تكن هي من ضغط على الزناد (وهو أمر لن نعرفه حتى نجد من ضغط على الزناد بالفعل، أو من كان هناك عندما ضغط الفاعل على الزناد) أعتقد أن الأمر ما كان ليحدث دونها.»

twitter @baghdad_library

- «كان الصوماليون يعاملوننا»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الثانية، ٢٤ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- «ومما بلغنا»: أسامة بن لادن في مقابلة شخصية مع تيسير علوني، قناة الجزيرة، أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- علي محمد يدرِّس: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- قاري السعيد: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- شهرين فقط من عام ١٩٩٤: ويكتورويتش Wiktorowicz، The New Global Threat.
- «الحمد لله»: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- «صورة أفضل»: إيفان كولمان Evan Kohlmann، «إرث الأفغان العرب: دراسة حالة» The Legacy of the Arab-Afghans: A Case Study، (أطروحة في السياسات الدولية جامعة جورج تاون ٢٠٠١م).
- «لين العريكة بصورة مفرطة»: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- أكثر من مائة ألف: كيبل Kepel، Jihad، ص ٢٥٤.
- أسلحة كيميائية ... تهريب: شهادة جمال الفضل في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- جمال الفضل: مقابلات شخصية مع جاك كلونان ومارك روسيني.
- طلب الجنرال مليون ونصف مليون دولار: شهادة جمال الفضل في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة. ويدعي محمد لؤي بايزيد (أبو رضا السوري) والذي من المزعوم أنه اشترى «اليورانيوم» لبن لادن أن هذه القصة بأكملها لم تحدث قط. وقد أيد حسب الله عمير الذي كان يعمل في المخابرات السودانية آنذاك ما يقول. ويقول كل منهما: إنه كانت هناك شائعات وخدع مماثلة منتشرة في الخرطوم وقد يكون ذلك هو أساس شهادة الفضل.
- الزئبق الأحمر: مراسلة شخصية مع روي شويترز Roy Schwitters.
- الرءوس النووية: مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ١٢٥.
- مسجد أنصار السنة: التفاصيل حول محاولة الاغتيال تستند إلى مقال محمد إبراهيم نقد «أول محاولة لاغتيال بن لادن كانت على يد ليبي تدرب في

لبنان»، جريدة الحياة، ١٨ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م؛ وإبراهيم حسن أردي، «الوطن تعرض الفترة التي قضاها زعيم القاعدة في السودان»، جريدة الوطن، ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م؛ و«أسامة بن لادن: المسلمون الذين يعيشون في أوروبا كفرة»، مجلة روزاليوسف، ٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٦م؛ والحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الثالثة، ٢١ مارس/آذار ٢٠٠٥م؛ ومن مقابلات شخصية مع عصام الترابي وصادق المهدي وحسب الله عمير وخالد يوسف. وعدد من المصادر يقول: إنه كان هناك محاولتان لاغتيال بن لادن، ويشير البعض إلى أنه لا يفصل بينهما سوى عدة أسابيع، ولكن هذه الرواية تستند إلى بن لادن نفسه الذي اعتبر إطلاق النار على المسجد الليلة السابقة محاولة لاغتياله.

- يعاني مرض الربو: مقابلة شخصية مع جمال خليفة. وبعض التفاصيل المتعلقة بعبد الله ابن أسامة بن لادن مستقاة من الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الثالثة، ٢١ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- «وفي تلك اللحظة»: «أسامة بن لادن: المسلمون الذين يعيشون في أوروبا كفرة»، مجلة روزاليوسف، ٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٦م.
- «لقد استهدفوا»: السابق.
- «أنظمة الحكم في منطقتنا العربية»: رايت Wright، The Man Behind bin Laden.
- المخابرات المصرية: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي.
- اعتقدت المخابرات الأمريكية: مقابلة شخصية مع مايكل شوير.
- حافظت ... وظيفتيهما في الجامعة: مقابلة شخصية مع مصدر سوداني مجهول.
- «لم نكن على وفاق»: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- كانت مصر هي: السابق.
- قرر الملك فهد شخصيًا: مقابلة شخصية مع سعيد باديب.
- «خذه»: «والدي رمم المسجد الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- طلب اللجوء: دانيال ماكجروري Daniel McGory، «اليوم الذي قدم فيه أسامة بن لادن طلب اللجوء إلى بريطانيا» The Day When Osama bin

twitter @baghdad_library

Laden Applied for Asylum in Britain، مجلة تايمز، ٢٩ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٥م.

- سبعة ملايين دولار تقريبًا: مقابلة شخصية مع متحدث باسم عائلة بن لادن.
- يعتمد اعتمادًا أساسيًّا على الراتب الشهري: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- بتوزيع النقود هنا وهناك: مقابلة شخصية مع حسب الله عمير.
- آلات تكسير الصخور: بنيامين ويسر Benjamin Weiser، «مساعد سابق يتحدث عن مخطط لاغتيال بن لادن» Ex-Aide Tells of Plot to Kill bin Laden، صحيفة نيويورك تايمز، ٢١ فبراير/شباط ٢٠٠١م.
- «الاستثمار سيئ»: شهادة جمال الفضل في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة. ومقابلة شخصية مع محمد لؤي بايزيد.
- «خسرت جميع أموالي»: شهادة الحسين خرشتو في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- على أنه ملياردير: شهادة جمال الفضل في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- مليون دولار تقريبًا: السابق. وكانت المبالغ الحقيقية هي ٧٩٥,٢٠٠,٤٩ دولار، طبقًا لبرنامج حماية الشهود، و١٥١,٠٤٧,٠٢، طبقًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي. وهذا لا يتضمن النقود التي قد تكون المخابرات المركزية أعطتها للفضل حيث إنها كانت أول من يتحدث إليه.
- أكثر مما كان يحلم به: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- آلتي تصوير: السابق.
- «نظر بن لادن»: إجابة المتهم في القضية ضد علي محمد في الولايات المتحدة.
- «أنا متعب»: حاسن البنيان، «أقدم الأفغان العرب يتحدث لجريدة «الشرق الأوسط» عن مسيرته التي أوصلته في النهاية إلى السجن في السعودية»، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS، جريدة الشرق الأوسط، ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- مدني الطيب: مقابلة شخصية مع جمال خليفة.
- العديد من الوفود: مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ١٤٦.

- «هذا يعني أن عبد الله»: مقابلة شخصية مع محمد لؤي بايزيد.
- رسالة استرضائية: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي.
- إذا تعهد بالتخلي عن الجهاد: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.

(١١) أمير الظلام

- «أونيل يتحدث»: مقابلة شخصية مع ريتشارد أ. كلارك.
- «ملابس يصلح ارتداؤها في ملهى ليلي»: مقابلة شخصية مع ستيفن سايمون Steven Simon.
- بطلاء الطائرة: مقابلة شخصية مع الفريق بحري بول إي. بوزيك Paul E. Busick.
- اثني عشر مليون دولار: نافتالي Naftali، Blind Spot، ص ٢٤٢.
- «سو كازا»: ريف Reeve، The New Jackals، ص ١٠٤.
- «أبناء جون»: مقابلة شخصية مع مارك روسيني.
- «إن هذه المعركة ليست بين تنظيم القاعدة والولايات المتحدة»: أسامة بن لادن في لقاء صحفي مع تيسير علوني، قناة الجزيرة، أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- الاتفاقيات الجديدة لإقامة القواعد العسكرية: مقابلة شخصية مع ريتشارد أ. كلارك.
- وزير الداخلية المصري السابق: آلان جريش Alain Geresh، مؤشر على الرقابة Index on Censorship، www.geocities.com/saudhouse_p/endofan.htm، أبريل/نيسان ١٩٩٦م.
- «لماذا تنفجر سيارتي»: كيفن ديني Kevin Dennehy، «مراسل صحيفة كاب ينجو بأعجوبة من تفجير إرهابي في السعودية» Cape Man Relives Close Call with Terrorist Bombing While in Saudi Arabia، صحيفة كاب كود تايمز، ٢٥ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- اعترافات ... تحت وطأة التعذيب: هناك وصف حي لحملة اعتقالات وتعذيب الأفغان العرب عقب تفجيرات عام ١٩٩٥م في كتاب جيريكو Jericho، The Saudi File، ص ١٣٦-١٤٠.

twitter @baghdad_library

- معسكر الفاروق: كولمان Al-Qaida's Jihad in Europe ،Kohlmann، ص ١٥٨.
- اعترافاتهم المتطابقة تقريبًا: تيتيلبوم Holier Than Thou ،Teitelbaum، ص ٧٦.
- «أبطالًا»: مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ١٤١.
- لفتواه بالجهاد: صلاح نجم وجمال إسماعيل، «أسامة بن لادن: تدمير القاعدة»، قناة الجزيرة، ١٠ يونيو/حزيران ١٩٩٩م.
- «أول عملية إرهابية»: حديث الأمير تركي الفيصل في جامعة سيتون هول، ١٤ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٣م

(١٢) الجواسيس الصغار

- علمت المخابرات المصرية: جريدة الأهرام، ٥ يوليو/تموز ١٩٩٥م.
- تزوج بعضهم من نساء إثيوبيات: مقابلة شخصية مع ديفيد شين David Shinn.
- بتهريب أسلحة: مقابلة شخصية مع صادق المهدي.
- خطبة لإثارة حماسة: جريدة الأهرام، ٥ يوليو/تموز ١٩٩٥م.
- وكانت خطتهم: مقابلة شخصية مع سعيد باديب.
- طائرة الرئيس: مقابلة شخصية مع هشام قاسم.
- حدث خلل في عمل قاذفات: مقابلة شخصية مع محمد الشافعي.
- بالعودة إلى المطار: مقابلة شخصية مع سعيد باديب.
- «كان المسلمون من أبناء»: بيترسون Inside Sudan ،Petterson، ص ١٧٩.
- وأحرقوا المنازل: مقابلة شخصية مع هشام قاسم.
- آلاف المشتبه بهم: تقدر منظمات حقوق الإنسان عدد الإسلاميين الذين لا يزالون يقبعون خلف قضبان السجون المصرية بخمسة عشر ألفًا، في حين يقول الإسلاميون إنهم ستون ألفًا.
- خطة شيطانية: مقابلة شخصية مع ياسر السري ومنتصر الزيات وهاني السباعي.

- عضو قيادي: محمد الشافعي، «أوراق الظواهري السرية»، الجزء السادس، جريدة الشرق الأوسط، ١٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٢م.
- «قد تصل إلى»: مقابلة شخصية مع ياسر السري.
- «دولة داخل الدولة»: محمد الشافعي، «أوراق الظواهري السرية»، الجزء السادس، جريدة الشرق الأوسط، ١٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٢م.
- أقل من مائة عضو: اعترافات أحمد إبراهيم السيد النجار في قضية «العائدون من ألبانيا»، سبتمبر/أيلول ١٩٩٨م.
- «إننا نمر بأوقات عصيبة»: السابق.
- التاسع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٥م: الجزء المتعلق بتفجير السفارة المصرية مقتبس من الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة التاسعة، ٢٨ مارس/آذار عام ٢٠٠٥م.
- سائق سيارة أجرة: «القاعدة، أداة بن لادن للعمل» Al-Qaida, Usama bin Laden's Vehicle for Action، وثيقة خاصة بوكالة الاستخبارات الأمريكية لا تحمل توقيعًا، ١٢ يوليو/تموز ٢٠٠١م.
- فقامت الحكومة باعتقال: مقابلة شخصية مع إسماعيل خان.
- لا يوجد أبرياء: مها عزام، «القاعدة: الفهم الخاطئ لصلتها بالوهابيين ومذهب العنف»، التقرير الموجز رقم ١ للمعهد الملكي للشئون الدولية، فبراير/شباط ٢٠٠٣م.
- «إن العبد»: صحيح البخاري، الجزء ٨، الكتاب ٧٧، رقم ٦٠.
- «جيلًا من المجاهدين»: محمد الشافعي، «أوراق الظواهري السرية»، الجزء السادس، جريدة الشرق الأوسط، ١٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٢م.
- «هل تتذكر»: مقابلة شخصية مع عصام الترابي.
- خصيته اليمنى: راندال Randal، Osama، ص ١٤٧.
- الفرنسيين قد أصدروا قرارًا مماثلًا بتوجيه اتهامات: مقابلة شخصية مع غازي صلاح الدين العتباني.
- «إذا قدم اعتذاره»: مقابلة شخصية مع تيموثي كارني.
- «مستعدون»: مقابلة شخصية مع الفاتح عروة. ولكن يفند كل من ريتشارد أ. كلارك الذي كان المنسق القومي للأمن وحماية البنية التحتية ومكافحة

twitter @baghdad_library

الإرهاب في ذلك الوقت، ونائبه ستيفن سايمون Steven Simon الجزء المتعلق بأن السودانيين عرضوا رسميًّا تسليم بن لادن إلى الولايات المتحدة على الإطلاق، ولكن لم يحضر أي منهما ذلك الاجتماع، ويبدو من الواضح أن ساندي بيرجر Sandy Berger، مدير الأمن القومي في ذلك الوقت، قد درس بالفعل إمكانية قبول تسلم بن لادن. وعلى أية حال، فإن لجنة ١١ سبتمبر/أيلول تقر أنها «لم تجد دليلًا جديرًا بالثقة» على أن عروة قد قدم لهم ذلك العرض بالفعل، تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١١٠.

- أوهموا ... أنفسهم: بارتون جيلمان Barton Gellman، «خابت مساعي الولايات المتحدة عدة مرات في القبض على أسامة بن لادن أو قتله» U.S. Was Foiled Multiple Times in Efforts to Capture bin Laden or Have Him Killed، صحيفة واشنطن بوست، ٣ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- وعرض عليه: «تركي: يجب أن يحطم العرب والمسلمون الحواجز ويتواصلوا مع الآخرين» Arabs and Muslims Must Break Barriers, Contact Others: Turki، جريدة سعودي جازيت، ١١ نوفمبر/تشرين الثاني، ٢٠٠٢م.
- «امنحونا دليلًا»: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.
- «اطلبوا منه أن يغادر»: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.
- كان الترابي وبن لادن يعقدان جلسات مناقشات: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الثالثة، ٢١ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- قدم الترابي خدمة لبن لادن: جاسون بورك Jason Burke، «صناعة بن لادن: الجزء الأول» The Making of bin Laden: Part 1، صحيفة الأوبزرفر، ٢٨ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- ١٢ مليون دولار: روبرت بلوك Robert Block، «السودان توجه ضربة في الحرب ضد الإرهاب بتجريد بن لادن من كل ما يملك» In the War Against Terrorism, Sudan Struck a Blow by Fleecing bin Laden، صحيفة وول ستريت جورنال، ٣ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.
- «مزيج»: السابق.
- شيك بمبلغ ٢٤٠٠ دولار: شهادة الحسين خرشتو في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.

- طائرة ... توبوليف: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- اثنان من أبنائه الصغار: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الثالثة، ٢١ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- حمَّل أمريكا مسئولية: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي.

(١٣) الهجرة

- منحوه بعض النقود: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.
- يختطفون الأطفال: مقابلة شخصية مع رحيم الله يوسفزاي.
- ٤٪ من السكان بإعاقات: تيم فريند Tim Friend، «الملايين من الألغام الأرضية تعوق شفاء جروح أفغانستان» Millions of Land Mines Hinder Afghan Recovery، صحيفة يو إس أيه توداي، ٢٧ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.
- معظمهم ممن فقدوا ذويهم: وفقًا لما يقوله توماس جوتيير Thomas Gouttierre — مدير مركز الدراسات الأفغانية بجامعة نبراسكا-أوماها، فإن ٨٠٪ من قوات طالبان من أيتام الحرب ضد السوفييت. وآنا مولرين Anna Mulrine، «التهديد السافر» Unveiled Threat، مجلة يو إس نيوز آند وورلد ريبورت، ١٥ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- ثلاثة من قادة المجاهدين القدامى: بورك Burke، Al-Qaeda، ص ١٤٥.
- يونس خالص: مقابلة شخصية مع رحيم الله يوسفزاي.
- الزواج بالمراهقات: كول Coll، Ghost Wars، ص ٣٢٧.
- استأجروا طيارين: برقية سرية من السفارة الأمريكية (إسلام أباد): «أخيرًا؛ أحد أعضاء طالبان يتحدث عن أصل وعضوية الحركة الطلابية الدينية» Finally, a Talkative Talib: Origins and Membership of the Religious Student's Movement، ٢٠ فبراير/شباط ١٩٩٥م.
- أربعة أعضاء من طالبان في سيارة جيب: مقابلة شخصية مع دبلوماسي باكستاني مجهول.
- فقد عينه اليمنى: أرنو دي بورشجريف Arnaud de Borchgrave، «أسامة بن لادن — كأن لم يكن» Osama bin Laden–'Null and Void'، وكالة أنباء يونايتد برس إنترناشونال، ١٤ يونيو/حزيران ٢٠٠١م.

twitter @baghdad_library

- رام بارع: إسماعيل خان، «مجددي يعارض إعلاء شأن عمر قائد طالبان» Mojaddedi Opposes Elevation of Taliban's Omar، صحيفة ذا نيوز في إسلام أباد، ٦ أبريل/نيسان، ١٩٩٦م.
- يتحدث العربية بمستوى مقبول: مقابلة شخصية مع فراج إسماعيل.
- «الفساد والانحلال الخلقي»: زيدان، «بن لادن بلا قناع».
- الرؤيا التي ظهر فيها النبي: برقية سرية من السفارة الأمريكية (إسلام أباد)، «أخيرًا، أحد أعضاء طالبان يتحدث عن أصل وعضوية الحركة الطلابية الدينية» Finally, a Talkative Talib: Origins and Membership of the Religious Student's Movement، ٢٠ فبراير/شباط ١٩٩٥م.
- ٢٥٠٠ من رجاله: نجومي Nojumi، The Rise of The Taliban، ص ١١٨.
- طلابًا في مدرسة مهنية: كول Coll، Ghost Wars، ٢٩٤-٢٩٥.
- ثلاثة ملايين لاجئ أفغاني: مقابلة شخصية مع الأمير تركي الفيصل.
- الأماكن المقدسة الصوفية: اتصال شخصي مع جوان كول Juan Cole.
- رواتب شهرية: نجومي Nojumi، The Rise of The Taliban، ص ١١٩.
- متسولون ومخنثون: لامب Lamb، The Sewing Circles of Herat، ص ١٠٥.
- اثني عشر ألف مقاتل: بورك Burke، Al-Qaeda، ص ١١٢.
- ضريبة قدرها ١٠٪: نجومي Nojumi، The Rise of The Taliban، ص ١٣٦.
- خيام لزوجاته: روبرت فيسك Robert Fisk، «بعض الراحة في منفى بن لادن الخطر» Small Comfort in bin Ladin's Dangerous Exile، صحيفة الإندبندنت، ١١ يوليو/تموز، ١٩٩٦م.
- مزرعة جماعية كانت ملكًا للسوفييت: جاسون بورك Jason Burke، «صناعة بن لادن: الجزء الأول» The Making of bin Laden: Part 1، صحيفة الأوبزرفر، ٢٨ أكتوبر/تشرين الأول، ٢٠٠١م.
- نجم الجهاد: «قصة الأفغان العرب من الدخول إلى أفغانستان إلى الخروج مع طالبان، الجزء الثالث»، جريدة الشرق الأوسط، ١٠ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٤م.
- وقد أقام الرجال: مقابلة شخصية مع رحيم الله يوسفزاي.

- لتجارة العسل: مقابلة شخصية مع بيتر إل. بيرجن.
- الكهرباء: محمد الشافعي، «ابن المدير المالي للقاعدة: عشت بالقرب من عائلة بن لادن التي تكره الكهرباء وتدعو إلى التقشف»، جريدة الشرق الأوسط، ١٦ أبريل/نيسان، ٢٠٠٤م.
- لم تكن هناك خطوط هواتف دولية: روبرت فيسك Robert Fisk، «بعض الراحة في منفى بن لادن الخطر Small Comfort in bin Ladin's Dangerous Exile»، صحيفة الإندبندنت، ١١ يوليو/تموز، ١٩٩٦م.
- الأمريكيين يراقبون: في الواقع، وفقًا لما يقوله جاك كلونان، فإن المخابرات الأمريكية لم تعرف بأمر ذلك الهاتف حتى عام ١٩٩٧م.
- وكان يشك: «السيرة الذاتية لأسامة بن لادن تأليف «أخ مجاهد» مع تعديلات طفيفة»، مركز المراقبة الإسلامي، ٢٢ أبريل/نيسان ٢٠٠٠م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS.
- في كمين: بورك Burke، Al-Qaeda، ص ١٥٦.
- علَّم زوجاته: «قصة الأفغان العرب من الدخول إلى أفغانستان إلى الخروج مع طالبان، الجزء الثالث»، جريدة الشرق الأوسط، ١٠ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٤م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS.
- «إننا لا نريد ... أعمال تخريبية»: تيم ماكجيرك Tim McGirk، «وطن بعيد عن الوطن Home Away from Home»، مجلة تايم، ١٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٦م.
- للضرب والتعذيب: رشيد، «طالبان Taliban»، ص ٤٩.
- «أيتها النساء، يجب»: من الملحق (١) للسابق، ص ٢١٧ وما يليها. وقد عرض رشيد نسخة من قرارات طالبان التي تُرجمت من اللغة الدارية ونقلها إلى الصحفيين، وقد ترك الأخطاء النحوية والإملائية كما هي في الوثيقة الأصلية. أما الإحصائيات الخاصة بتعداد العمالة النسائية فتستند إلى مقال آنا مولرين Anna Mulrine، Unveiled Threat، مجلة يو إس نيوز آند وورلد ريبورت، ١٥ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- «الأشياء القذرة»: آمي والدمان Amy Waldman، «لا تليفزيون، لا شطرنج، لا طائرات ورقية: القانون الطالباني من الألف إلى الياء» No TV, No Chess,

twitter @baghdad_library

No Kites: Taliban's Code, from A to Z، صحيفة نيويورك تايمز، ٢٢ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م.

- طريقة فرقة «الخنافس» ... «توضع علامة تميز منزلها»: السابق.
- من نجوا من الحيوانات: مقابلة شخصية مع باهرام رحمن Bahram Rahman.
- «ألق بالعقل»: بورك Burke، Al-Qaeda، ص ١١١.
- مركب محملة بحمل زائد: شهادة أشيف محمد جمعة في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- «إنكم لستم بغافلين»: أسامة بن لادن، «إعلان الحرب على الأمريكان الذين يحتلون أرض الحرمين الشريفين»، صحيفة القدس العربي، ٢٣ أغسطس/آب، ١٩٩٦م.
- سكرتيرًا لدى سياف: مقابلة شخصية مع يسري فودة.
- ولم يتلق تعليمًا: فودة Fouda وفيلدينج Fielding، Masterminds of Terror، ص ١١٦.
- شهر في الفلبين: مقابلة شخصية مع فرانك بيليجرينو Frank Pellegrino.
- «بوجينكا»: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، محلوظة ٤٨٨. وقد جاء في التقارير السابقة خطأً أن هذا الاسم كلمة كرواتية صربية بمعنى «الانفجار الكبير».
- هاروكي إيكيجامي: ريف Reeve، The New Jackals، ص ٧٩.
- لا يعرف يوسف: مقابلة شخصية مع جمال خاشقجي الذي يقول: إن بن لادن «أقسم» له أنه لا يعرف يوسف. ولكن يوسف قضى بالفعل وقتًا في معسكرات القاعدة ومنازلها الآمنة في عام ١٩٨٩م، ومن المحتمل أنه كان في بيشاور في الوقت نفسه الذي كان فيه بن لادن يتوسط بين أطراف الحرب الأهلية في أفغانستان. كول Coll، Ghost Wars، ص ٢٤٩. وقد أخبرني محمد صالح مراسل جريدة الحياة في القاهرة أن رمزي يوسف وبن لادن قد تقابلا في باكستان، ولكنه لم يفصح عن مصدر هذه المعلومة.
- أرسل رسولًا: ريف Reeve، The New Jackals، ص ٧٦.
- أرسلوا إلى بن لادن رسمًا تخطيطيًّا: مقابلة شخصية مع مايكل شوير.
- قتل البابا يوحنا بولس الثاني: ريف Reeve، The New Jackals، ص ٨٦.
- تدريب طيارين: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٤٩.

(١٤) العمل الميداني

- أبراج الخُبر: مقابلات شخصية مع جون ليبكا John Lipka وديل واتسون وجاك كلونان ومسئول سياسي مجهول في الرياض؛ وفريه، «مكتب التحقيقات في عهدي» My FBI، ص ١١ وما يليها. وقد كتب كينيث إم. بولاك Kenneth M. Pollack إلي في اتصال شخصي: «اتفق السعوديون تمامًا مع ما توصلنا إليه أن إيران هي التي تقف خلف تفجيرات أبراج الخُبر، ولم أسمع قط أية إشارة إلى أنهم يعتقدون أن القاعدة هي المسئولة عن التفجيرات. ولكن لأنها كانت قد بدأت تعيد بناء علاقتها الودية مع طهران، خاصة بعد انتخاب محمد خاتمي في إيران، فقد كان لدينا إحساس قوي أنهم لم يريدونا أن نتأكد من ذلك بصورة حاسمة، خوفًا من أننا إما سنريد توجيه ضربة انتقامية ضد الإيرانيين أو أنهم سيشعرون بأنهم مجبرون على هذا.» وقد عبر كل من ريتشارد أ. كلارك وستيفن سايمون Steven Simon عن آراء مماثلة في المقابلات الشخصية مع كل منهما. وعلى أية حال، فإن لجنة ١١ سبتمبر/أيلول تترك احتمال وجود علاقة بين القاعدة وتفجيرات أبراج الخبر قائمًا مشيرة إلى أن هناك «أدلة قوية ولكن غير مباشرة» إلى أن التنظيم «لعب بالفعل دورًا غير معروف بعد». دوجلاس جيل Douglas Jehl، «لا دليل على وجود تمويل سعودي للقاعدة» No Saudi Payment to Qaeda Is Found، صحيفة نيويورك تايمز، ١٩ يونيو/حزيران ٢٠٠٤م، ولكن لم يكشف النقاب عن ذلك الدليل قط. وطبقًا لما يقوله مايكل شوير، ظهرت الصلة بينهما في مذكرة أعدتها المخابرات الأمريكية وسلمتها للجنة.
- «ألم تكن تلك الرحلة رائعة»: مقابلة شخصية مع ريتشارد أ. كلارك، ولكن فريه في اتصال شخصي ينكر أن ذلك الحديث قد دار بينهما، وعلى أية حال كان أونيل قد أخبر القصة نفسها لأناس آخرين.
- وكان نايف هو من قرر: مقابلة شخصية مع مسئول سابق مجهول في وزارة الخارجية الأمريكية.
- «ربما ليس لديكم»: مقابلة شخصية مع رحاب مسعود.
- «الاشتراك في عمليات ميدانية»: مقابلة شخصية جون ليبكا John Lipka.
- «أحكمت قبضتك على هذه المدينة»: مقابلة شخصية مع آر. بي. إيدي R. P. Eddy.

twitter @baghdad_library

- طائرة الرحلة رقم ٨٠٠ التابعة لشركة ترانس وورلد إيرلاينز: مقابلات شخصية مع كل من ريتشارد أ. كلارك، وتوم كوريجان Tom Corrigan، وتوم لانج.
- أليك ستيشن: مقابلات شخصية مع دانيال كولمان ومايكل شوير.
- «أرسلي عشر أوراق خضر»: مستند قانوني من القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- أطفالها الست: جلسة استماع لبحث إمكانية إطلاق السراح بكفالة في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- صنف كولمان السيدتين: مقابلة شخصية مع دانيال كولمان.
- «هل ترغب في احتساء»: مقابلة شخصية مع دانيال كولمان.

(١٥) خبز وماء

- تملقوه: عبد الباري عطوان، «لقاء صحفي مع المعارض السعودي أسامة بن لادن»، صحيفة القدس العربي، ٢٧ نوفمبر/تشرين الثاني، ١٩٩٦م.
- اعترف بحكمهم وسانده: بورك Burke، «صناعة بن لادن: الجزء الأول» The Making of bin Laden: Part 1، صحيفة الأوبزرفر، ٢٨ أكتوبر/تشرين الأول، ٢٠٠١م.
- فريق تصوير تليفزيوني: بيرجن، Holy War، ص ١٧ وما يليها.
- أرسل ... طائرة هليكوبتر: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الخامسة، ٢٣ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- مخططًا ... لاختطافه: «والدي رمم الأقصى بالخسارة»، جريدة الأمة الإسلامية، ١٨ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
- «إننا نريد حياة بسيطة»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الخامسة، ٢٣ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- نحو ثمانين بناء: كول Coll، Ghost Wars، ص ٣٩١.
- «في انسجام تام»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة السادسة، ٢٤ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- دبابتين سوفييتيتين من طراز تي-٥٥: كلارك، Against All Enemies، ص ١٤٩.

- «الحمد لله»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة السادسة، ٢٤ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- سويسرا: «أسرار العلاقات التي تجمع بين الظواهري وبن لادن وحزب التحرير في عمليات إرهابية في أوروبا» [كذا]، صحيفة الوطن العربي، ١٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٥م. ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS. وقد شهد في مصر أحد رفاق الظواهري أنه جرت اتصالات هاتفية بينه وبين الظواهري في جنيف. خالد شرف الدين، «مفاجآت في محاكمة أكبر منظمة أصولية عالمية في مصر»، جريدة الشرق الأوسط، ٦ مارس/آذار ١٩٩٩م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS. أما المعلومة الخاص بالفيلا في سويسرا، فتستند إلى مقال «إرهابي من جماعة الجهاد يدعي وجود صلات إرهابية قوية مع المخابرات الأمريكية» Al-Jihad Terrorist Claims Strong CIA-Terrorist Ties، وكالة أنباء الشرق الأوسط، ٨ سبتمبر/أيلول ١٩٩٦م. أما ياسر السري الذي كان قريبًا من جماعة الجهاد، فيقول في مقابلة شخصية: إن الظواهري لم يعش قط في سويسرا، في حين أن مها عزام قريبة الظواهري تقول إنه كان يعيش هناك.
- بلغاريا: مقابلة شخصية مع سعيد باديب.
- كوبنهاجن: مقابلة شخصية مع جسبر ستين Jesper Stein؛ ومراسلة شخصية مع مايكل تارنبي جنسن Michael Taarnby Jensen.
- أحد جوازات السفر المزورة: أندرو هيجنز Andrew Higgins وآلان كوليسون Alan Cullison، «أوديسا إرهابي: ملحمة الدكتور الظواهري [كذا] تسلط الضوء على جذور إرهاب القاعدة» Terrorist's Odyssey: Saga of Dr. Zawahiri [sic] Illuminates Roots of al-Qaeda Terror، صحيفة وول ستريت جورنال، ٢ يوليو/تموز ٢٠٠٢م.
- قناة تليفزيونية فضائية: رايت Wright، «الرجل وراء بن لادن» The Man Behind bin Laden، مجلة ذا نيويوركر، ١٦ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م.
- «الظروف هناك»: أندرو هيجنز Andrew Higgins وآلان كوليسون Alan Cullison، «أوديسا إرهابي: ملحمة الدكتور الظواهري [كذا] تسلط الضوء على جذور إرهاب القاعدة» Terrorist's Odyssey: Saga of Dr. Zawahiri [sic]

twitter @baghdad_library

Illuminates Roots of al-Qaeda Terror، صحيفة وول ستريت جورنال، ٢ يوليو/تموز ٢٠٠٢م.

- «ووصول المجاهدين من الشيشان»: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء السابع.
- أربعة جوازات سفر: سي. جيه. تشيفرز C. J. Chivers وستيفن لي مايرز Steven Lee Myers، «الثوار الشيشان تحركهم القومية في المقام الأول» Chechen Rebels Mainly Driven by Nationalism، صحيفة نيويورك تايمز، ١٢ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٤م.
- «لقد أعماهم الله»: أندرو هيجنز Andrew Higgins وآلان كوليسون Alan Cullison، «أوديسا إرهابي: ملحمة الدكتور الظواهري [كذا] تسلط الضوء على جذور إرهاب القاعدة» Terrorist's Odyssey: Saga of Dr. Zawahiri [sic] Illuminates Roots of al-Qaeda Terror، صحيفة وول ستريت جورنال، ٢ يوليو/تموز ٢٠٠٢م.
- تحمُل المخابرات الباكستانية: بنيامين Benjamin وسايمون Simon، The Age of Sacred Terror، ص ١٤٦.
- يشتري بن لادن بعض المركبات الباهظة: فاهيد موجده Vahid Mojdeh في كتاب بيرجن، The Osama bin Laden I Know، ص ١٦٤.
- مائة دولار راتبًا شهريًّا: اعترافات أحمد إبراهيم السيد النجار في قضية «العائدون من ألبانيا»، سبتمبر/أيلول ١٩٩٨م.
- ٢٥٠ شخصًا: على لسان عبد الرحمن خضر في كتاب بيرجن، The Osama bin Laden I Know، ص ١٧٣.
- «هذا المكان أسوأ»: آلان كوليسون Allan Cullison وأندرو هيجنز Andrew Higgins، «التحالف المتوتر: داخل المعمعة الأفغانية للقاعدة» Strained Al-liance: Inside Al-Qaeda's Afghan Turmoil، صحيفة وول ستريت جورنال، ٢ أغسطس/آب ٢٠٠٢م.
- ألعاب الفيديو من إنتاج شركة نينتندو: عبد الباري عطوان في كتاب بيرجن، The Osama bin Laden I Know، ص ١٧٠.
- عزة: مقابلة شخصية مع مها السمنة.

- مبادرة وقف العنف: مقابلة شخصية مع منتصر الزيات.
- عشرون ألف إسلامي: ويفر Weaver، A Portrait of Egypt، ص ٢٦٤. وتقدر ماري آن ويفر عدد الإسلاميين الذين قتلوا ما بين سبعة وثمانية آلاف، ص ٢٦٧.
- أطلقت سراح ألفي عضو: روبين Rubin، Islmic Fundamentalism، ص ١٦١.
- «إن الترجمة السياسية»: محمد الشافعي، «أوراق الظواهري السرية» الجزء الخامس، جريدة الشرق الأوسط، ١٧ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٢م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS.
- وسيلة فعالة للتفاوض: مقابلة شخصية مع هشام قاسم.
- ثلاثة آلاف من ضباط الأمن: ويفر Weaver، A Portrait of Egypt، ص ٢٧٢.
- عصابات رأس حمراء: دوجلاس جيل Douglas Jehl، «مصرع سبعين شخصًا في هجوم على معبد مصري» 70 Die in Attack at Egypt Temple، صحيفة نيويورك تايمز، ١٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٧م.
- «لا لوجود السياح»: ويفر Weaver، A Portrait of Egypt، ص ٢٥٩.
- وكان من بين القتلى: آلان كويل Alan Cowell، «في مطار سويسري، ٣٦ شخصًا يعودون من الأقصر إلى وطنهم في توابيت» At a Swiss Airport, 36 Dead, Home from Luxor، صحيفة نيويورك تايمز، ٢٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٧م؛ وأيضًا دوجلاس جيل Douglas Jehl، «الإرهاب الحديث في موقع أثري على ضاف النيل» At Ancient Site Along the Nile, Modern Horror، صحيفة نيويورك تايمز، ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٧م.
- وقال رفاعي طه: مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ١٩٩.
- بن لادن هو الذي موَّل: جيلان حلاوي، «بن لادن خلف مذبحة الأقصر؟» Bin Laden Behind Luxor Massacre? جريدة الأهرام ويكلي، ٢٠–٢٦ مايو/أيار ١٩٩٩م.
- «فالشباب»: لورانس رايت Lawrence Wright، «الرجل وراء بن لادن» The Man Behind bin Laden، مجلة ذا نيويوركر، ١٦ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م.
- «اعتقدنا أننا لن»: مقابلة شخصية مع هشام قاسم.

twitter @baghdad_library

- النقطة المحورية: فؤاد حسين، «الزرقاوي ... الجيل الثاني من القاعدة، الجزء الرابع عشر»، صحيفة القدس العربي، ١٣ يوليو/تموز ٢٠٠٥م.
- من المسئول: الظواهري، «فرسان تحت راية النبي»، الجزء الحادي عشر.
- بدأ الظواهري يكتب: ملخص كينيث إم. كاراس في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- تذرع بحجة واهية: الزيات، «الطريق إلى القاعدة»، ص ٨٩.
- «ماضيًا أسود»: محمد الشافعي، «أوراق الظواهري السرية»، الجزء الثاني، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS، جريدة الشرق الأوسط، ١٤ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٢م.
- «إذا كان المقاول»: محمد الشافعي، «رسائل القاعدة الإليكترونية السرية»، الجزء الثاني، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS، ١٣ يونيو/حزيران ٢٠٠٥م.
- تعهد الظواهري بالاستقالة: الزيات، «الطريق إلى القاعدة»، ص ١٠٩.
- شقيق الظواهري: مقابلة شخصية مع هاني السباعي.
- «لقد سمعت بنفسي»: اعترافات أحمد إبراهيم السيد النجار في قضية «العائدون من ألبانيا»، سبتمبر/أيلول ١٩٩٨م.

(١٦) وبدأت اللعبة

- ثلاثين جزائريًّا ... شباب من اليمن: بورك Burke، Al-Qaeda، ص ١٨٦.
- هزليًّا واستعراضيًّا: مقابلة شخصية مع إسماعيل خان.
- «دعونا نتحدث»: مقابلة شخصية مع رحيم الله يوسفزاي.
- «الإرهاب قد يكون محمودًا»: www.pbs.org/frontline.
- لا يتحدث: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة السادسة، ٢٤ مارس/آذار، ٢٠٠٥م.
- مرضًا في الكلى: مقابلة شخصية مع رحيم الله يوسفزاي.
- العوهلي ... عزام: شهادة ستيفن جودين في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.

- بمحو وجوه السعوديين: ميلر Miller وستون Stone وميتشل Mitchell، The Cell، ص ١٩٢.
- اختطاف بن لادن: مقابلات شخصية مع مايكل شوير، وديل واتسون، ومارك روسيني، ودانيال كولمان، وريتشارد أ. كلارك.
- «أنهِ هذا الأمر»: مقابلة شخصية مع الأمير تركي الفيصل.
- ترك المدينة: مقابلة شخصية مع مايكل شوير.
- «هل توافق»: أحداث الاجتماع الذي عقد مع الملا عمر يستند في المقام الأول إلى رواية سمعتها من الأمير تركي مباشرة. أما مايكل شوير، استنادًا إلى تغطية المخابرات الأمريكية لأحداث الاجتماع، فيقول: إن عمر والأمير تركي قد تشاجرا، وقيل إن الملا عمر قال: «لدي سؤال واحد يا سمو الأمير، منذ متى أصبحت العائلة المالكة خادمًا مذعنًا للأمريكيين؟».
- أربعمائة شاحنة خفيفة ... مزار الشريف: رشيد، Taliban، ص ٧٢- ٧٣.
- عدة مئات من العرب: السابق، ص ١٣٩.
- أحمد سلامة مبروك: مقابلات شخصية مع دانيال كولمان، ومارك روسيني، ومنتصر الزيات.
- حيث تعرضوا للتعذيب: مقابلة شخصية مع حافظ أبو سعدة.
- صالح: اسمه الحقيقي هو عبد الله أحمد عبد الله، ويعرف أيضًا بأبي محمد المصري، ولم يقبض عليه قط. مقابلة شخصية مع علي صوفان؛ وأيضًا شهادة ستيفن جودين في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- «لقد بدأت اللعبة!»: مقابلة شخصية مع دانيال كولمان.
- نيروبي: مقابلات شخصية مع باسكوالي «بات» دامورو، وستيفن جودين، ومارك روسيني وكينيث ماكسويل Kenneth Maxwell.
- جواز سفر: مقابلة شخصية مع علي صوفان.
- ستيفن جودين: مقابلة شخصية مع ستيفن جودين.
- عدد السفارات الأمريكية المستهدفة كان خمسًا: مقابلة شخصية مع مارك روسيني.
- أحمد الحدا: مقابلات شخصية مع باسكوالي «بات» دامورو، ودانيال كولمان، وعلي صوفان.

twitter @baghdad_library

- وقد اتصل به: مستند خاص بمكتب التحقيقات الفيدرالي يحمل اسم PENTBOM Major Case 182 AOT-IT، ٥ نوفمبر/تشرين الثاني، ٢٠٠١م.
- «وعد كيسنجر»: شهادة ستيفن جودين في القضية ضد أسامة بن لادن وآخرين في الولايات المتحدة.
- «علاقاته»: مقابلة شخصية مع ماري لين ستيفنز.
- يهدد: مقابلة شخصية مع جرانت أشلي Grant Ashley.
- يجمع بنفسه سرًّا تبرعات: مقابلة شخصية مع مايكل رولينس Michael Rolince.
- أجرى ... عملية: مقابلة شخصية مع بول جارميريان Paul Garmirian.
- جمال الفضل: مقابلة شخصية مع مارك روسيني.
- استخدمت جاسوسًا: مقابلة شخصية مع ميلت بيردن Milt Bearden. ويظن بيردن أن ذلك العميل الأجنبي كان إما مصريًّا أو تونسيًّا.
- طائرات الاستطلاع: مقابلة شخصية مع الفريق بحري بوب إينمان Bob Inman.
- مشاركة البيانات الأولية: مقابلة شخصية مع مايكل شوير.
- «أين تقترحون»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة التاسعة، ٢٨ مارس/آذار، ٢٠٠٥م.
- «هل تستطيع على الأقل»: مقابلة شخصية مع عبد الرحمن خضر.
- اثنين وعشرين أفغانيًّا: برقية سرية خاصة بوزارة الخارجية الأمريكية، «أسامة بن لادن: المتحدث الرسمي باسم طالبان يسعى للحصول على عرض جديد لحل مشكلة بن لادن» Osama bin Laden: Taliban Spokesman Seeks New Proposal for Resolving bin Laden Problem، ٢٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٨م. وتقول مصادر في المستشفى ومسئولون باكستانيون: إن عدد الضحايا كان أحد عشر قتيلًا وثلاثة وخمسين جريحًا. إسماعيل خان، «روايات متفاوتة» Varying Versions، صحيفة ذا نيوز في إسلام أباد، ٣٠ أغسطس/آب ١٩٩٨م.
- «أصيب كل منزل»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة التاسعة، ٢٨ مارس/آذار ٢٠٠٥م.

- باع بن لادن الصواريخ التي لم تنفجر: مراد أحمد، «تقرير يورد «وثائق» روسية عن ماضي بن لادن»، مجلة المجلة، ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.
- «لقد نجونا من الهجوم»: مقابلة شخصية مع رحيم الله يوسفزاي.

(١٧) الألفية الجديدة

- اتصل الملا عمر سرًّا: برقية سرية خاصة بوزارة الخارجية الأمريكية، «أفغانستان: اتصال الملا عمر زعيم طالبان بوزارة الخارجية في الثاني والعشرين من أغسطس/آب» Afghanistan: Taliban's Mullah Omar's 8/22 Contact with State Department، ٢٢ أغسطس/آب ١٩٩٨م.
- يستشيط غضبًا: مقابلة شخصية مع رحيم الله يوسفزاي.
- وقدر: برقية سفارة الولايات المتحدة (إسلام أباد): «تقرير (٦) عن الموقف: رد فعل باكستان/أفغانستان على الضربات الأمريكية» SITREP 6: Pakistan/Afghanistan Reaction to U.S Strikes، ٢٥ أغسطس/آب ١٩٩٨م.
- «لقد بكيت»: روبرت فيسك Robert Fisk، «صحفي بالجزيرة يكشف أسرار بن لادن» Bin Laden's Secrets Are Revealed by al-Jazeera Journalist، صحيفة الإندبندنت، ٢٣ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٢م.
- «إننا نعتبرك»: بورك Burke، Al-Qaeda، ص ١٦٨.
- للصيد: ستيفن براون Stephen Braun وجودي باسترناك Judy Pasternak، «طائرات بن لادن كانت تحلق تحت مستوى الرادار قبل وقت طويل من هجمات سبتمبر/أيلول» Long Before Sept. 11. bin Laden Aircraft Flew Under the Radar، صحيفة لوس أنجلوس تايمز، ١٨ نوفمبر/تشرين الثاني، ٢٠٠١م.
- «لماذا ... هذه المرة»: مقابلة شخصية مع الأمير تركي الفيصل.
- تحت تأثير مخدر ما: «في مقابلة صحفية مع شبيجل: ثم صرخ الملا عمر في وجهي» 'Spiegel Interview: 'And Then Mullah Omar Screamed at Me، صحيفة دير شبيجل، ٨ مارس/آذار ٢٠٠٤م، ترجمة كريستوفر سلطان.
- نُقِلَت إلى مكان آخر بسهولة: مقابلة شخصية مع عبد الرحمن خضر.

twitter @baghdad_library

- «لا داعي لهذا»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة السادسة، ٢٤ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- «هل توقعت»: السابق.
- اعترضت القوات المسلحة: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٣١.
- «لقد انتهى أمرك»: مقابلة شخصية مع مايكل شوير.
- «أمر كاثوليكي»: مقابلة شخصية مع جرانت أشلي Grant Ashley.
- «يا إلهي!»: مقابلة شخصية مع عميل مجهول في مكتب التحقيقات الفيدرالي.
- يدفع قسط الرهن: ويس Weiss، The Man Who Warned America، ص ٢٧٩.
- ويقترض: مقابلة شخصية مع جو كانتميسا Joe Cantemessa.
- «استراتيجية مشتركة»: مجهول، Through Our Enemies' Eyes، ص ١٢٤.
- المهدي المنتظر: مقابلة شخصية مع أحمد باديب.
- يتوقف عن دعم المتمردين المناهضين لصدام: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٦١.
- قابل الديكتاتور العراقي: جيفري جولدبرج Jeffrey Goldberg، «الرعب الكبير» The Great Terror، مجلة ذا نيويوركر، ٢٥ مارس/آذار ٢٠٠٢م.
- سافر مسئولون من المخابرات العراقية: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٦٦.
- ذهب الظواهري إلى بغداد: «العراق: رئيس الوزراء السابق يكشف بيانات المخابرات عن ميلاد القاعدة في العراق» Iraq: Former PM Reveals Secret Service Data on Birth of al-Qaeda in Iraq، وكالة أكي الإيطالية للأنباء، ٢٣ مايو/أيار ٢٠٠٥م.
- جزءًا أساسيًّا من البنية التحتية: مقابلة شخصية مع لويس شيليرو.
- حذرت المخابرات الأمريكية: إفادة صامويل آر. بيرجر Samuel R. Berger، تقرير التحقيق المشترك الذي أجرته لجنة الكونجرس ولجنة مجلس الشيوخ، ١٩ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م.
- «انظروا، لدينا شيء ما هنا»: روبرت درابر Robert Draper، «مخطط تفجير مطار لوس أنجلوس» The Plot to Blow Up LAX، مجلة جي كيو، ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.

- ميدان تايمز: مقابلات شخصية مع جوزيف دون Joseph Dunne، ومارك روسيني.
- «إذا كانوا سيفعلون»: كلارك، Against All Enemies، ص ٢١٤.
- ليلة القدر: مقابلة شخصية مع روبرت ماكفادن.

(١٨) الانفجار

- الطبقة المتوسطة أو الراقية: مقابلة شخصية مع مارك سيجمان Marc Sageman، والعديد من الإحصائيات تستند إلى الدراسة المهمة التي أجراها التي تحمل اسم «فهم الشبكات الإرهابية» Understanding Terror Networks.
- خلل عقلي: يشير سيجمان Sageman إلى أن «أربعة فقط من الأربعمائة شخص (في العينة التي اختبرها) لديهم ما يشير إلى أنهم مختلون عقليًا، وهذا أقل من الحد الأدنى العالمي للخلل العقلي»، مارك سيجمان، «فهم الشبكات الإرهابية» Understanding Terror Network، E-Notes، معهد أبحاث السياسة الخارجية، ١ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٤م.
- أصحاب المهن المرموقة من الطبقة المتوسطة: نيك فيلدينج Nick Fielding، «مجندو أسامة على قدر عال من التعليم» Osama's Recruits Well Schooled، صحيفة صنداي تايمز، ٣ أبريل/نيسان ٢٠٠٥م.
- شبابًا غير متزوج: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- شارك بعض المسلمين الشيعة: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس.
- ما بين عشرة إلى عشرين ألف: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٦٦. أما سيجمان فيقدر بصورة شخصية عدد المجندين في ذلك الوقت بما لا يزيد عن خمسة آلاف.
- الأهداف المثالية: بيرنشتاين Bernstein، Out of The Blue، ص ٨٦.
- ثلاث مراحل رئيسية: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الخامسة، ٢٣ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- «أعداء الإسلام»: مقابلة شخصية مع علي صوفان.

twitter @baghdad_library

- «إطلاق النار على الشخص المستهدف»: دافيد رود David Rohde وسي. جيه. تشيفرز C. J. Chivers، «متطلبات وكتيبات القتل الخاصة بالقاعدة» Al-Qaeda's Grocery Lists and Manuals of Killing، صحيفة نيويورك تايمز، ١٧ مارس/آذار ٢٠٠٢م.
- معسكر الكاميكاز: أبو زيد، «بعد عودة بن لادن إلى أفغانستان وإحياء التحالف الأصولي»، صحيفة الوطن العربي، ٧ يونيو/حزيران ١٩٩٦م.
- أرنولد شوارزنيجر: مقابلة شخصية مع جاك كلونان. وشاهد أعضاء القاعدة أيضًا الفيلم الذي شارك مؤلف هذا الكتاب في كتابته وهو فيلم The Siege.
- «إن القدرة التدميرية»: آلان كوليسون Alan Cullison وأندرو هيجنز Andrew Higgins، «جهاز كمبيوتر في كابول يحتوي على وثائق مخيفة» Computer in Kabul Holds Chilling Memos، صحيفة وول ستريت جورنال، ٣١ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١م.
- تموت بعد أكثر من خمس ساعات: «تقرير المخابرات الأمريكية حول ابني عائلة الظواهري» CIA Report on the Zawahiri Brothers، دون تاريخ أو اسم كاتبه.
- يزيد سوفات: «هل تصنع القاعدة الجمرة الخبيثة؟» Is al-Qaeda Making Anthrax?، قناة سي بي إس نيوز، ٩ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٣م؛ وإيريك ليبتون Eric Lipton، «يقال إن خطابات القاعدة تشير إلى وجود خطط متعلقة بالجمرة الخبيثة قبل ١١ سبتمبر/أيلول» Qaeda Letters Are Said to Show Pre-9/11 Anthrax Plans، صحيفة نيويورك تايمز، ٢١ مايو/أيار ٢٠٠٥م.
- يفضل دون مواربة القنابل النووية: «قصة الأفغان العرب»، جريدة الشرق الأوسط، الجزء الأول، ٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٤م.
- هامبورج: مقابلات شخصية مع جورج ماسكولو Georg Mascolo وجوزيف جوف Joseph Joffe وجوكين بيتنر Jochen Bittner ومانفريد مورك Manfred Murck وكورديولا مير Cordula Meyer.
- ما يزيد عن ٢٠٠ ألف مسلم: «الصلة بهامبورج» The Hamburg Connection، قناة بي بي سي نيوز، ١٩ أغسطس/آب ٢٠٠٥م.
- «رجل صالح»: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٦٥.

- «أنيقًا»: جون كرودسون John Crewdson، «من معلم طيب إلى متعصب قاتل» From Kind Teacher to Murderous Zealot، صحيفة شيكاغو تريبيون، ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٤م.
- «لقد تكبدت مشقة»: براين روس Brian Ross، «مع إرهابي وجهًا لوجه» Face To Face with a Terrorist، شبكة أيه بي سي نيوز، ٦ يونيو/حزيران ٢٠٠٢م.
- وقع على وصية: فودة Fouda وفيلدينج Fielding، Masterminds of Terror، ص ٨٢.
- اشتعل غضب عطا: نيكولاس هيلين Nicholas Hellen، وجون جويتز John Goetz، وبن سمولي Ben Smalley، وجوناثان أنجود توماس Jonathan Ungoed Thomas، «جندي الله» God's Worrior، صحيفة صانداي تايمز، ١٣ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٢م.
- «عملية الطائرات»: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٥٤.
- ربيع عام ١٩٩٩م: «النص المنشور لشهادة خالد شيخ محمد» Substitution for the Testimony of Khalid Sheikh Mohammed، في القضية ضد موسوي في الولايات المتحدة.
- فقط هم المتورطين: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٥٥.
- «إن أمريكا»: «خطبة بن لادن بمناسبة عيد الأضحى»، موقع MEMRI Special Dispatch Series No. 476، www.memri.org، ٥ مارس/آذار ٢٠٠٣م.
- برج سيرز: بول مارتين Paul Martin، «أبراج شيكاغو ولوس أنجلوس كانت الأهداف التالية» Chicago and L.A. Towers Were Next Targets، صحيفة واشنطن تايمز، ٣٠ مارس/آذار ٢٠٠٤م.
- نواف الحازمي: تقرير التحقيق المشترك في أنشطة مجتمع الاستخبارات قبل وبعد الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م، ص ١٣١؛ ومجلة دير شبيجل، ٩/١١ Inside، ص ١٦.
- خالد المحضار: تقرير التحقيق المشترك في أنشطة مجتمع الاستخبارات قبل وبعد الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م، ص ١٣١؛ ومقابلة شخصية مع علي صوفان، واتصال شخصي مع إيريك واتكينز Eric Watkins.

twitter @baghdad_library

- شهر رمضان: جورج ماسكولو Georg Mascolo، «عملية الثلاثاء المقدس» Operation Holy Tuesday، مجلة دير شبيجل، ٢٧ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٣م.
- ابن الشيبة: مقابلة شخصية مع علي صوفان.
- «عمل إجرامي رهيب»: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٣٥٣.
- أما المخابرات الأمريكية، فقد كان لديها: مقابلة شخصية مع سعيد باديب.
- «إننا نحتاج إلى استمرار»: «التعرف على ثلاثة من مختطفي طائرات سبتمبر/أيلول وإدراجهم في قائمة المراقبة وتعقبهم»: Hijackers: Three 9/11 Identification, Watchlisting, and Tracking، تقريري أعضاء اللجنة رقم ٢ و٤، اللجنة الوطنية للتحقيق في الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة الأمريكية.
- «إن هذا الأمر لا يخص»: مقابلة شخصية مع مارك روسيني.
- «هل هذا رفض تام»: يشار إلى ميلر باسم «دوايت Dwight» في «تقرير خاص بتقييم تعامل مكتب التحقيقات الفيدرالي مع المعلومات الاستخباراتية المرتبطة بهجمات ١١ سبتمبر/أيلول» A Review of the FBI's Handling of Intelligence Information Related to the September 11 Attacks، وزارة العدل، مكتب المفتش العام، نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٤م، ص ٢٣٣.
- تغرق في فيضان من التهديدات: مقابلة شخصية مع موظف مجهول تابع للمخابرات الأمريكية في أليك ستيشن الذي قال لي: «المعجزة الحقيقية هي أنه لا يوجد سوى خطأ واحد فادح.»
- اثنا عشر موظفًا: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٤٧٩.
- «عائلة مانسون»: ستيف كول Steve Coll، «صيد سري في أفغانستان» A Secret Hunt Unravels in Afghanistan، صحيفة واشنطن بوست، ٢٢ فبراير/شباط ٢٠٠٤م.
- بيومي: مايكل إيزيكوف Michael Isikoff وإيفان توماس Evan Thomas، «تعقب النقود السعودية» The Saudi Money Trail، مجلة نيوزويك، ٢ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٢م؛ وتقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٢١٥–٢١٨؛ تقرير التحقيق المشترك في أنشطة مجتمع الاستخبارات قبل وبعد الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م، ص ١٧٢–١٧٤، «تقييم

تعامل مكتب التحقيقات الفيدرالي مع المعلومات الاستخباراتية المرتبطة بهجمات ١١ سبتمبر/أيلول» A Review of the FBI's Handling of Intelligence Information Related to the September 11 Attacks، وزارة العدل، مكتب المفتش العام، نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٤م، ص ٣٢٥.

- ليس له مستقبل: مقابلة شخصية مع جاك كلونان.
- «مركزية»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة الرابعة، ٢٢ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- يو إس إس ذا سوليفانز: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٩٠-١٩١.
- شحنات موجهة: بنيامين Benjamin وسايمون Simon، The Age of Sacred Terror، ص ٣٢٣.
- «كفانا من الكلمات»: بيرجن، Holy War، ص ١٨٦.
- عدن: مقابلة شخصية مع ضابط سابق مجهول في المخابرات الأمريكية.
- يو إس إس كول: مقابلات شخصية مع باربرا بودين، وكينيث ماكسويل Kenneth Maxwel، وتوماس بيكارد، وباسكوالى «بات» دامورو، وجيم رودي Jim Rohdy وتوم دونلون Tom Donlon، وعلي صوفان، وكيفن جيبلين Kevin Giblin، وباري ماون ودافيد كيلي David Kelley، ومارك روسيني، وكيفن دونوفان Kevin Donovan؛ وأيضًا من حديث جون أونيل «تفجير يو إس إس كول» الذي ألقاه في المؤتمر السنوي التاسع عشر للجهات الحكومية والصناعية عن الإرهاب العالمي وعدم الاستقرار السياسي والجريمة العالمية، مارس/آذار ٢٠٠١م؛ وجراهام Graham، Intelligence Matters، ص ٦٠-٦١؛ وبيرجن، Holy War، ص ١٨٤-١٩٢؛ وويس Weiss، The Man Who Waned America، ص ٢٨٧-٣١٢؛ وThe Man Who Knew، www.pbs.org.
- تعليمات واضحة: مقابلة شخصية مع مايكل شيهان Michael Sheehan.
- «ساعي بن لادن»: مقابلة شخصية مع علي صوفان.
- أرسل صوفان صورة خلاد: طبقًا لما يقوله صوفان: «الوكالة قامت من ورائي» بالتحدث إلى مصدره في أفغانستان في ديسمبر/كانون الأول من عام ٢٠٠٠م. ولقد كانت المخابرات تشاركه مصدره في ذلك الوقت، ولكن طبقًا للبروتوكول، فقد أحضرت الملحق القانوني لمكتب التحقيقات الفيدرالي من إسلام أباد معها.

twitter @baghdad_library

وفي ذلك الوقت، جعل ضابط المخابرات المصدر يتعرف على صورة استطلاعية التقطت لخلاد من اجتماع ماليزيا. وقد سمح هذا للمخابرات أن تقول صدقًا إن مكتب التحقيقات الفيدرالي كان حاضرًا عندما عرضت الصورة، وعلى أية حال، فقد أجري اللقاء باللغة العربية التي لا يعرفها ملحق مكتب التحقيقات، ومن ثم فإنه لم يكن يدري حقًا ما يحدث.

- حقائب سامسونايت: «قصة الأفغان العرب»، جريدة الشرق الأوسط، الجزء الرابع، ١٢ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٤م.
- وزع بن لادن: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٩١.
- تستعد لشن هجوم صاروخي آخر: كلينتون، My Life، ص ٩٢٥.
- يأمل أن يستدرج: مقابلة شخصية مع علي صوفان.

(١٩) العرس الكبير

- لعقد قران: مقابلات شخصية مع أحمد زيدان وجمال خليفة ومها السمنة؛ وزيدان، «بن لادن بلا قناع»، ص ١٠٩–١٥٨.
- مدمرة: «قصيدة بن لادن في الهجوم على كول» Bin Laden Verses Honor Cole Attack، وكالة أنباء رويترز، ٢ مارس/آذار ٢٠٠١م.
- ليالي الأرق: يقول عبد الله بن أسامة بن لادن إن والده كان ينام ساعتين أو ثلاث ساعات فقط كل ليلة. «جرأة ابن أسامة بن لادن» Bin Laden's Son Defiant، شبكة بي بي سي، ١٤ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١م.
- ثايرين رجالنا: مستند حكومي في القضية ضد موسوي في الولايات المتحدة الأمريكية.
- ريتشارد كلارك: مقابلة شخصية مع ريتشارد أ. كلارك؛ وأيضًا كلارك، Against All Enemies، ص ٢٢٥–٢٣٤. وقد جاء في تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول أن كلارك طلب من رايس أن يعود إلى منصبه في مايو/أيار أو يونيو/حزيران، ولكنه أخبرني أنه فعل ذلك في مارس/آذار.
- رايس اعترضت: فيليب شينون Philip Shenon وإيريك شميت Eric Schmitt، «استجواب قاس لمساعدي بوش وكلينتون» Bush and Clinton Aides Grilled by Panel، صحيفة نيويورك تايمز، ٢٤ مارس/آذار ٢٠٠٤.

- بثمانين ألف دولار: مقابلة شخصية مع فاليري جيمس، وقد كان راتب أونيل الثابت هو ١٢٠,٣٣٦$.
- «المناضلين الثائرين»: محمد الشافعي، «الظواهري مساعد أسامة بن لادن يهاجم أعضاء الجهاد اللاجئين في أوروبا»، جريدة الشرق الأوسط، ٢٣ أبريل/نيسان ٢٠٠١م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS.
- أحمد شاه مسعود: مقابلة شخصية مع عبد الله أنس؛ وكاثي جانون Kathy Gannon، «أسامة أصدر أمرًا بالاغتيال» Osama Ordered Assassination، صحيفة أدفيرتايزر، ١٦ أغسطس/آب ٢٠٠٢م؛ وجون لي أندرسون Jon Lee Anderson، «خطاب من كابول: القتلة» Letter From Kabul: The Assassins، مجلة ذا نيويوركر، ١٠ يونيو/حزيران ٢٠٠٢م؛ وبورك Burke، «القاعدة» Al-Qaeda، ص ١٧٧؛ ومايك بويتشر Mike Boettcher وهنري شستر Henry Schuster، «ما قدر معلومات قائد الأفغان؟» How Much Did Afghan Leader Know?، شبكة سي إن إن، ٦ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٣م، وتقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٣٩؛ وبرقية سرية خاصة بوكالة استخبارات الدفاع، «تقرير معلومات استخباراتية [محذوف منه]: اغتيال مسعود يرتبط بهجمات ١١ سبتمبر/أيلول» IIR [Excised]/The Assassination of Masoud Related to 11 September 2001 Attack، ٢١ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م؛ بنيامين Benjamin وسايمون Simon، Age of Sacred Terror، ص ٢٣٨؛ كول Coll، Ghost Wars، ص ٥٦٨.
- «باستخدام طائرة»: سام تانيهوس Sam Tannehaus، «طموح المخابرات الأمريكية الأعمى» The C.I.A.'s Blind Ambition، مجلة فانيتي فير، يناير/كانون الثاني ٢٠٠٢م. يقول تانيهوس: كان من المخطط أن يستهدف الهجوم اجتماع الدول الصناعية الثماني في مدينة جنوة، ولكن كلارك أخبرني أن المعلومات تضمنت عملية لاغتيال الرئيس في روما.
- وكيل أحمد متوكل: «صحيفة تشير إلى تجاهل الولايات المتحدة تحذيرات إرهابية» Newspaper Says U.S. Ignored Terror Warning، وكالة أنباء رويترز، ٧ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م.

twitter @baghdad_library

- المخابرات الأردنية: جون كيه. كولي John K. Cooley، «أهناك تحذيرات أخرى لم يُلق لها بالًا قبل ٩/١١؟» Other Unheeded Warnings Before 9/11?، صحيفة كريستيان ساينس مونيتور، ٢٣ مايو/أيار ٢٠٠٢م.
- أمل السادة: مقابلة شخصية مع علي صوفان.
- «الأناشيد والأهازيج»: الحمادي، «تنظيم القاعدة من الداخل»، الحلقة السادسة، ٢٤ مارس/آذار ٢٠٠٥م.
- ونهرته والدته: مقابلة شخصية مع علي صوفان.
- «سنقتل»: مقابلة شخصية مع ريتشارد أ. كلارك.
- «شيئًا سيئًا»: دانا بريست Dana Priest، «هيئة المحلفين تقول: إن بوش تلقى تحذيرات متكررة» Panel Says Bush Saw Repeated Warnings، صحيفة واشنطن بوست، ١٣ أبريل/نيسان ٢٠٠٤م.
- قاعدة البيانات على شبكة الإنترنت الداخلية: تعد قاعدة البيانات هذه نظامًا عقيمًا متاحًا للوكالات الاستخباراتية الأخرى، وقد أظهر لجيليسبي ما كان متاحًا من معلومات لمكتب التحقيقات الفيدرالي فقط. فلو كانت ألقت نظرة على نظام «هرقل» Hercules System، قاعدة بيانات المخابرات الأمريكية الضخمة التي تحوي جميع البرقيات والمعلومات المرسلة عن طريق أنظمة الاتصالات المختلفة الخاصة بوكالة الأمن القومي والتي كانت متاحة أمامها، لحصلت على صورة كاملة عن معلومات المخابرات الخاصة بالمحضار والحازمي.
- الحادي عشر من يونيو/حزيران: مقابلات شخصية مع دينا كورسي، وستيفن بونجاردت، وعلي صوفان، ومارك روسيني. وميلر Miller وستون Stone وميتشل Mitchell، The Cell، ص ٣٠٥؛ وإفادة كوفر بلاك Cofer Black، ٢٠ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م، تقرير التحقيق المشترك في أنشطة مجتمع الاستخبارات قبل وبعد الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م. وقد أخبرتني دينا كورسي أنها كتبت أسماء المحضار والحازمي على ظهر الصور حتى تكون الأسماء متاحة لعملاء القسم الجنائي في الفرقة I-49، ولكن بونجاردت يقول إنه لم يرها قط.
- «الحائط»: مقابلات شخصية مع جاك كلونان، وعلي صوفان، وباسكوالي «بات» دامورو، ودانيال كولمان، والفريق بحري بوب إينمان Bob Inman؛ وتقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٧٨-٨٠.

- وضعت لتوها: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٢٢٢.
- بينك فلويد: مقابلة شخصية مع علي صوفان.
- أونيل ... أسبانيا: مقابلات شخصية مع مارك روسيني، وفاليري جيمس، وإنريك جارسيا Enrique Garcia، وإيميليانو بورديل باسكوال Emiliano Burdiel Pascual وتيودورو جوميز دومينجويز Teodoro Gómez Domìnguez.
- عطا ... أيضًا: مقابلات شخصية مع خوسيه ماريا إيروجو José Maria Irujo، وكيث جونسون Keith Johnson، ورامون بيريز ماورا Ramón Pérez Maura؛ وتقرير التحقيق المشترك الذي أجرته لجنة الكونجرس ولجنة مجلس الشيوخ، ص ١٣٩؛ وفودة Fouda وفيلدينج Fielding، Masterminds of Terror، ص ١٣٧.
- الجيش الجمهوري الأيرلندي: مقابلة شخصية مع دانيال كولمان.
- «إن تكاليف هذا الدين»: «حديث الشيخ أسامة بن لادن بمناسبة الاحتفال بعيد الفطر في الأول من شوال عام ١٤٢٠هـ»، مستندات المتصدق، ترجمة تشستر روسون Chester Rosson. وقد قام المؤلف بتعديل بعض الأخطاء النحوية واللغة المتكلفة التي تُرجمَت من العربية إلى الألمانية ثم إلى الإنجليزية.
- رسالة إليكترونية تحذيرية: مقابلات شخصية مع جاك كلونان، ومارك روسيني، ودانيال كولمان؛ وميلر Miller وميتشل Mitchell وستون Stone، The Cell، ص ٢٨٩، تقرير التحقيق المشترك الذي أجرته لجنة الكونجرس ولجنة مجلس الشيوخ، ص ٢٠. وفي عرف مكتب التحقيقات الفيدرالي، فإن «رسالة إليكترونية» تعني رسالة بالبريد الإليكتروني تتطلب الرد عليها، فهي ليست مجرد مستند غير رسمي. وقد حلت محل البرقيات كوسيلة للاتصال الرسمي.
- زكريا موسوي: مقابلات شخصية مع ريتشارد أ. كلارك، ومايكل رولينس Michael Rolince؛ وتقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ٢٧٣-٢٧٦.
- يزيد سوفات: تقرير لجنة ١١ سبتمبر/أيلول، ص ١٥١؛ و«مقاولو الإرهاب» Entrepreneurs of Terrorism، صحيفة ويك إند أستراليان، ٢٤ يوليو/تموز ٢٠٠٤م.
- «اليوم هو»: ويس Weiss، The Man Who Warned America، ص ٣٥٠.
- دائرة الهجرة والجنسية: مقابلات شخصية مع علي صوفان، وجاك كلونان، ومارك روسيني، ودانيال كولمان؛ وإلينور هيل Eleanor Hill، «الأوساط

twitter @baghdad_library

الاستخباراتية لديها معلومات مسبقة عن مختطفي طائرات سبتمبر/أيلول قبل تنفيذ هجمات ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م» The Intelligence Community's Knowledge of the September 11 Hijackers Prior to September 11, 2001، إفادة أعضاء لجنة التحقيق المشترك، تقرير التحقيق المشترك الذي أجرته لجنة الكونجرس ولجنة مجلس الشيوخ، ٢٠ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م.

- «لقد تركت المنصب»: رولا خلف، «عشاء مع الفايننشال تايمز: تركي الفيصل»، صحيفة فايننشال تايمز، ١ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٣م.
- «بالثمرة الذابلة»: بول مكجيو Paul Mcgeough، «محرك الدمى» The Puppeteer، صحيفة سيدني مورنينج هيرالد، ٨ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٢م.
- «حملًا ثقيلًا»: ويس Weiss، The Man Who Warned America، ص ٣٥٩.
- مسعود: جون لي أندرسون Jon Lee Anderson، «خطاب من كابول: القتلة» Letter From Kabul: The Assassins، مجلة ذا نيويوركر، ١٠ يونيو/حزيران ٢٠٠٢م.
- الملا محمد خاكسار: كاثي جانون Kathy Gannon، «أسامة أصدر أمرًا بالاغتيال» Osama Ordered Assassinatoin، صحيفة أدفيرتايزر، ١٧ أغسطس/آب ٢٠٠٢م.
- «لقد تأخرنا»: مقابلة شخصية مع جيرومي هاور وروبرت تاكر.
- الجبال فوق خوست: مقابلة شخصية مع علي صوفان.
- «كنا نلعب»: شريط فيديو يصور تناول بن لادن العشاء مع الشيخ علي سعيد الغامدي.
- منع فجأة الحديث عن الأحلام: سيجمان Sageman، «فهم الشبكات الإرهابية» Understanding Terror Networks، ص ١١٧
- بأمريكا وقد تحولت إلى رماد: بيتر فين Peter Finn، «مرجل الإرهاب في هامبورج» Hamburg's Cauldron of Terror، صحيفة واشنطن بوست، ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م.
- تسعة آلاف جالون: مجلة دير شبيجل Der Spiegal، Inside 9/11، ص ٥٠.
- فساعد أونيل على إخراج: ويس Weiss، The Man Who Warned America، ص ٣٦٦.

- «انتظروا، انتظروا»: مقابلة شخصية مع علي صوفان.
- رفع بن لادن ثلاثة أصابع: مايك بويتشر Mike Boettcher، «المعتقلون يتحدثون عن رد فعل بن لادن على الهجمات» Detainees Reveal bin Laden's Reaction to Attacks، CNN.com، ١٠ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م.
- البرج الشمالي: التفاصيل المتعلقة المشهد بالداخل مستقاة من مقابلات شخصية مع كرت كجيلدسن Kurt Kjeldsen، ومايكل هينجسون Michael Hingson؛ وقد صور لقطات الفيديو جولز نوديت Naudet Jules وجيديون نوديت Gedeon Naudet؛ ومورفي Murphy، September 11؛ وفينك Fink وماثياس Mathias، Never Forget؛ وسميث Smith، Report From Ground Zero.
- «هل صحيح»: مقابلة شخصية مع ويسلي وونج.
- وكان الغبار مزيجًا: أنتوني ديبالما Anthony DePalma، «ماذا حدث لتلك السحابة من الغبار؟» What Happened to That Cloud of Dust، صحيفة نيويورك تايمز، ٢ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٥م.

(٢٠) تجلي الحقائق

- التحقيقات مع القصع وأبي جندل: مقابلات شخصية مع علي صوفان وروبرت ماكفادن.
- ببروتوكول خاص: ويس Weiss، The Man Who Warned America، ص ٣٨٣.
- «لقد قدرنا»: جون آر. برادلي John R. Bradley، «الترجمة الكاملة لشريط «الدليل الحاسم» Definitive Translation of 'Smoking Gun' Tape، www.john-bradley.com/art_27.html، ١٥ يوليو/تموز ٢٠٠٤م، ترجمة علي الأحمد.
- «لم أعرف أبدًا»: مقابلة شخصية مع مها السمنة.
- تورا بورا: سماكر Smucker، Al-Qaeda's Great Escape، ص ١١٩-١٢٠.
- «كان عددنا»: شريط صوتي لبن لادن بعنوان: «رسالة إلى إخواننا المسلمين في العراق» Message to Our Muslim Brother in Iraq، BBCNews.com، ١٢ فبراير/شباط ٢٠٠٣م.

twitter @baghdad_library

- «قلة قليلة»: «المجلة تحصل على وصية بن لادن»، مجلة المجلة، ٢٧ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٢م، ترجمة قسم الإعلام والبث الخارجي FBIS.
- «رأيت رجلًا عربيًّا ممتلئ الجسد»: إلين آر. بروشر Ilene R. Prusher، «ظهور اثنين من كبار قادة القاعدة» Two Top al-Qaeda Leaders Spotted، صحيفة كريستيان ساينس مونيتور، ٢٦ مارس/آذار ٢٠٠٢م.

twitter @baghdad_library

المراجع

Abbas, Hamid. *Story of the Great Expansion.* Jeddah: Saudi Bin Ladin Group *[sic]*, 1996.

Abdel-Malek, Anouar. *Egypt: Military Society.* Translated by Charles Lam Markmann. New York: Random House, 1968.

Abdelnasser, Walid Mahmoud. *The Islamic Movement in Egypt: Perceptions of International Relations, 1967–81.* London: Kegan Paul International, 1994.

Abdo, Geneive. *No God but God: Egypt and the Triumph of Islam.* Oxford: Oxford University Press, 2000.

Abir, Mordechai. *Saudi Arabia: Government, Society, and the Gulf Crisis.* New York: Routledge, 1993.

Abou El Fadl, Khaled. "The Ugly Modern and the Modern Ugly: Reclaiming the Beautiful in Islam." *In Progressive Muslims: On Justice, Gender, and Pluralism*, edited by Omid Safi. Oxford: Oneworld Publications, 2003.

______. et al. *The Place of Tolerance in Islam.* Boston: Beacon Press, 2002.

Abu Khalil, As'ad. *Bin Laden, Islam, and America's New "War on Terrorism."* New York: Seven Stories, 2002.

Abu-Rabi, Ibrahim M. *Intellectual Origins of Islamic Resurgence in the Modern Arab World.* Albany: State University of New York Press, 1996.

Aburish, Saïd K. *The Rise, Corruption, and Coming Fall of the House of Saud.* New York: St. Martin's, 1996.

Ajami, Fouad. *The Arab Predicament: Arab Political Thought and Practice Since 1967.* Cambridge: Cambridge University Press, 1981.

______. *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey.* New York: Pantheon Books, 1998.

Algar, Hamid. *Wahhabism: A Critical Essay.* New York: Islamic Publications International, 2002.

Amin, Mohamed. *The Beauty of Makkah and Madinah.* Nairobi: Camerapix Publishers International, 1999.

Anonymous. *Through Our Enemies' Eyes: Osama bin Laden, Radical Islam, and the Future of America.* Washington, D.C.: Brassey's, 2002.

Armstrong, Karen. *Muhammad: A Biography of the Prophet.* New York: HarperCollins, 1992.

Atwan, Abdel Bari. *The Secret History of al-Qa'ida.* London; Saqi, 2006.

Azzam, Abdullah. *The Lofty Mountain.* London: Azzam Publications, 2003.

______. "Martyr Sayyid Qutb: A Giant of Islamic Thought." www.azzam .com (now defunct).

______. "The Solid Base" [Al-Qaeda]. *Al-Jihad,* April 1988, no. 41.

Badeeb, Saeed M. *The Saudi-Egyptian Conflict Over North Yemen,* 1962-1970. Boulder, Col.: Westview, 1986.

Baer, Robert. *Sleeping with the Devil.* New York: Crown Publishers, 2003.

Bahmanyar, Mir. *Afghanistan Cave Complexes, 1979-2004.* Oxford: Osprey Publishing Group, 2004.

Baker, Raymond William. *Islam Without Fear: Egypt and the New Islamists.* Cambridge: Harvard University Press, 2003.

Bamford, James. *A Pretext for War: 9/11, Iraq, and the Abuse of America's Intelligence Agencies.* New York: Doubleday, 2004.

Bearden, Milt, and James Risen. *The Main Enemy: The Inside Story of the CIA's Final Showdown with the KGB.* New York: Random House, 2003.

Bell, J. Bower. *Murders on the Nile.* San Francisco: Encounter Books, 2003.

Belloc, Hilaire. *The Great Heresies.* Manassas, Va.: Trinity Communications, 1987.

Benjamin, Daniel, and Steven Simon. *The Age of Sacred Terror.* New York: Random House, 2003.

Bergen, Peter L. *Holy War: Inside the Secret World of Osama bin Laden.* New York: Free Press, 2001.

______. *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of al-Qaeda's Leader.* New York: Free Press, 2006.

Berman, Paul. *Terror and Liberalism.* New York: Norton, 2003.

Bernstein, Richard. *Out of the Blue: The Story of September 11, 2001, from Jihad to Ground Zero.* New York: Times Books, 2002.

Bin Ladin, Carmen. *Inside the Kingdom: My Life in Saudi Arabia.* New York: Warner Books, 2004.

Blum, Howard. *The Eve of Destruction: The Untold Story of the Yom Kippur War.* New York: HarperCollins, 2003.

Borovik, Artyom. *The Hidden War: A Russian Journalist's Account of the Soviet War in Afghanistan.* New York: Grove Press, 1990.

twitter @baghdad_library

Brogan, Daniel. "Al-Qaeda's Greeley Roots." *5280* (June/July 2003): 158-65.

Burke, Jason. *Al-Qaeda: Casting a Shadow of Terror.* London: I. B. Taurus, 2003.

Burr, J. Millard, and Robert O. Collins. *Revolutionary Sudan: Hasan al-Turabi and the Islamist State, 1989-2000.* Leiden: Brill, 2003.

Burton, Richard F. *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Madina and Meccah. Vols. 1 and 2.* Edited by Isabel Burton. New York: Dover, 1964.

Calvert, John. "'The World Is an Undutiful Boy!': Sayyid Qutb's American Experience." *Islam and Christian-Muslim Relations* 11, no. 1 (2000).

Campbell, Kurt M., and Michèle A. *Flournoy To Prevail: An American Strategy for the Campaign Against Terrorism.* Washington, D.C.: Center for Strategic and International Studies, 2001.

Carré, Oliver. *Mysticism and Politics: A Critical Reading of Fi Zilal al-Qur'an by Sayyid Qutb (1906-1966).* Translated from the French by Carol Artigues and revised by W. Shepard. Leiden: Brill, 2003.

Champion, Daryl. *The Paradoxical Kingdom: Saudi Arabia and the Momentum of Reform.* New York: Columbia University Press, 2002.

Clarke, Richard A. *Against All Enemies: Inside America's War on Terror.* New York: Free Press, 2004.

Clinton, Bill. *My Life.* New York: Knopf, 2004.

Coll, Steve. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001.* New York: Penguin, 2004.

Cooley, John K. *Unholy Wars.* London: Pluto Press, 2000.

Corbin, Jane. *Al-Qaeda: In Search of the Terror Network That Threatens the World.* New York: Thunder's Mouth Press/Nation Books, 2002.

Cordovez, Diego, and Selig S. Harrison. *Out of Afghanistan: The Inside Story of the Soviet Withdrawal.* New York: Oxford University Press, 1995.

Country Reports on Terrorism 2004. [no city]: U.S. Department of State, 2005.

Crile, George. *Charlie Wilson's War: The Extraordinary Story of the Largest Covert Operation in History.* New York: Atlantic Monthly Press, 2003.

Der Spiegel Reporters, Writers, and Editors. *Inside 9-11: What Really Happened.* Translated by Paul De Angelis and Elisabeth Koestner. New York: St. Martin's, 2001.

Esposito, John. *Unholy War: Terror in the Name of Islam.* Oxford: Oxford University Press, 2002.

Euben, Roxanne L. *Enemy in the Mirror: Islamic Fundamentalism and the Limits of Modern Rationalism*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1999.

Fandy, Mamoun. *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*. London: Palgrave, 2001.

Feininger, Andreas. *New York in the Forties*. New York: Dover, 1978.

Fernea, Elizabeth Warnock, and Robert A. Fernea. *The Arab World: Forty Years of Change*. New York: Doubleday, 1997.

Fink, Mitchell, and Lois Mathias. *Never Forget: An Oral History of September 11, 2001*. New York: HarperCollins, 2002.

Fouda, Yosri, and Nick Fielding. *Masterminds of Terror: The Truth Behind the Most Devastating Terrorist Attack the World Has Ever Seen*. New York: Arcade, 2003.

Frady, Marshall. *Billy Graham: A Parable of American Righteousness*. Boston: Little, Brown, 1979.

Freeh, Louis J., with Howard Means. *My FBI: Bringing Down the Mafia, Investigating Bill Clinton, and Fighting the War on Terror*. New York: St. Martin's, 2005.

Friedman, Thomas L. *From Beirut to Jerusalem*. New York: Doubleday, 1989.

Geffs, Mary L. *Under Ten Flags: A History of Weld County, Colorado*. Greeley: McVey Printery, 1938.

Gold, Dore. *Hatred's Kingdom*. Washington, D.C.: Regnery Publishing, 2003.

Goldschmidt, Arthur Jr. *Biographical Dictionary of Modern Egypt*. Cairo: American University in Cairo Press, 2000.

Graham, Bob, with Jeff Nussbaum. *Intelligence Matters: The CIA, the FBI, Saudi Arabia, and the Failure of America's War on Terror*. New York: Random House, 2004.

Griffin, Michael. *Reaping the Whirlwind: The Taliban Movement in Afghanistan*. London: Pluto Press, 2001.

Guenena, Nemat. "The 'Jihad': An 'Islamic Alternative' in Egypt." Master's thesis, American University in Cairo Press, 1985.

Gunaratna, Rohan. *Inside al-Qaeda: Global Network of Terror*. London: Hurst, 2002.

Halliday, Fred. *Two Hours That Shook the World*. London: Saqi, 2002.

Hannonen, Sanna. "Egyptian Islamist Discourse: On Political and Social Thought of Hasan al-Banna (1906-1949) and Sayyid Qutb (1906-1966)." Master's thesis, University of Helsinki, 1999.

twitter @baghdad_library

Harmony Documents. United States Department of Defense database, www.ctc.usma.edu/aq_harmonylist.asp.

Heikal, Mohammed. *Autumn of Fury: The Assassination of Sadat.* New York: Random House, 1983.

______. *Iran: The Untold Story.* New York: Pantheon, 1982.

Holden, David, and Richard Johns. *The House of Saud: The Rise and Rule of the Most Powerful Dynasty in the Arab World.* New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1981.

Hourani, Albert. *A History of the Arab Peoples.* Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 2002.

Huband, Mark. *Warriors of the Prophet: The Struggle for Islam.* Boulder: Westview, 1998.

Ibrahim, Saad Eddin. *Egypt Islam and Democracy: Critical Essays.* Cairo: American University in Cairo Press, 1996.

Jacquard, Roland. *In the Name of Osama bin Laden: Global Terrorism and the bin Laden Brotherhood.* Translated by George Holoch. Durham: Duke University Press, 2002.

Jerichow, Anders. *The Saudi File: People, Power, Politics.* New York: St. Martin's, 1998.

Johnson, Paul. *Modern Times.* New York: Harper and Row, 1983.

Joint Inquiry Into Intelligence Community Activities Before and After the Terrorist Attacks of September 11, 2001: Report of the U.S. Senate Select Committee on Intelligence and U.S. House Permanent Select Committee on Intelligence. Washington, D.C., December 2002.

Jordán, Javier. *Profetas del miedo: Aproximaciôn al terrorismo islamista.* Pamplona: EUNSA, 2004.

Kechichian, Joseph A. "Islamic Revivalism and Change in Saudi Arabia." *The Muslim World* 80, no. 1 (January 1990): 1-16.

Kepel, Gilles. *Jihad: The Trail of Political Islam.* Translated by Anthony F. Roberts. Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 2002.

______. *Muslim Extremism in Egypt: The Prophet and Pharaoh.* Berkeley: University of California Press, 1993.

Kinsey, Alfred C, et al. *Sexual Behavior in the Human Male.* Philadelphia: W. B. Saunders, 1948.

Kohlmann, Evan F. *Al-Qaida's Jihad in Europe: The Afghan-Bosnian Network.* Oxford: Berg, 2004.

Lacey, Robert. *The Kingdom: Saudi Arabia and the House of Sa'ud.* New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1981.

Lamb, Christina. *The Sewing Circles of Heart: My Afghan Years.* London: Flamingo, 2003.

Larson, Robert W. *Shaping Educational Change: The First Century of the University of Northern Colorado at Greeley.* Boulder: Colorado Associated University Press, 1989.

Lawrence, T. E. *Seven Pillars of Wisdom.* New York: Doubleday, 1926.

Lewis, Bernard. *The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror.* New York: Modern Library, 2003.

Lippman, Thomas W. *Inside the Mirage: America's Fragile Partnership with Saudi Arabia.* Boulder, Col: Westview, 2004.

Long, David E. *The Kingdom of Saudi Arabia.* Gainesville: University Press of Florida, 1997.

"Looking for Answers." *Frontline*, www.pbs.org/frontline.

Mackey, Sandra. *The Saudis: Inside the Desert Kingdom.* New York: Norton, 2002.

Mackintosh-Smith, Tim. *Yemen: The Unknown Arabia.* Woodstock: Overlook Press, 2000.

Manchester, William. *The Glory and the Dream.* Boston: Little, Brown, 1974.

Mansfield, Peter. *The Arabs.* London: Penguin Books, 1992.

de Marenches, [Alexandre], interviewed by Christine Ockrent. *The Evil Empire: The Third World War Now.* Translated by Simon Lee and Jonathan Marks. London: Sidgwick and Jackson, 1988.

McCullough, David. *Truman.* New York: Simon and Schuster, 1992.

Mayer, Jane. "The House of bin Laden." *New Yorker*, November 12, 2001.

Miller, John, and Michael Stone, with Chris Mitchell. *The Cell: Inside the 9/11 Plot, and Why the FBI and CIA Failed to Stop It.* New York: Hyperion, 2002.

Mitchell, Richard P. *The Society of the Muslim Brothers.* New York: Oxford University Press, 1993.

Moore, Robin. *The Hunt for bin Laden: Task Force Dagger.* New York: Random House, 2003.

Morris, Benny. *The Road to Jerusalem: Glubb Pasha, Palestine, and the Jews.* London: I.B. Taurus, 2002.

Moussalli, Ahmad S. *Radical Islamic Fundamentalism: The Ideological and Political Discourse of Sayyid Qutb.* Beirut: American University of Beirut, 1992.

Munthe, Turi. *The Saddam Hussein Reader.* New York: Thunder's Mouth Press, 2002.

Murphy, Dean E. *September 11: An Oral History.* New York: Doubleday, 2002.

twitter @baghdad_library

Naftali, Timothy. *Blind Spot: The Secret History of American Counterterrorism.* New York: Basic Books, 2005.

Naguib, Sameh Khairy. "The Political Ideology of the Jihad Movement." Master's thesis, American University in Cairo, 1994.

Nasr, Seyyed Hossein. *Islam: Religion, History, and Civilization.* San Francisco: HarperSanFrancisco, 2003.

National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States. *The 9/11 Commission Report.* New York: Norton, 2004.

Nielsen, Jorgen. *Muslims in Western Europe.* Edinburgh: Edinburgh University Press, 1992.

Nojumi, Neamatollah. *The Rise of the Taliban in Afghanistan: Mass Mobilization, Civil War, and the Future of the Region.* New York: Palgrave, 2002.

Nutting, Antony. *Nasser.* New York: Dutton, 1972.

Obaid, Nawaf E. *The Oil Kingdom at 100: Petroleum Policymaking in Saudi Arabia.* Washington, D.C.: Washington Institute for Near East Policy, 2000.

Oshinsky, David M. *A Conspiracy So Immense: The World of Joe McCarthy.* New York: Macmillan, 1983.

Pesce, Angelo. *Jiddah: Portrait of an Arabian City.* Napoli: Falcon Press, 1977.

———. *Taif: The Summer Capital of Saudi Arabia.* Jeddah: Immel Publishing, 1984.

Peterson, J. E. *Saudi Arabia and the Illusion of Security.* New York: International Institute for Strategic Studies/Oxford University Press, 2002.

Petterson, Donald. *Inside Sudan: Political Islam, Conflict, and Catastrophe.* Boulder, Col.: Westview, 1999.

Posner, Gerald. *Why America Slept: The Failure to Prevent 9/11.* New York: Random House, 2003.

Qutb, Sayyid. *A Child from the Village.* Translated, edited, and introduced by John Calvert and William E. Shephard. Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 2004.

———. *Milestones. Indianapolis, Ind.: American Trust Publications, 1990.*

Raafat, Samir W. *Maadi 1904–1962: Society and History in a Cairo Suburb.* Cairo: Palm Press, 1994.

Raphaeli, Nimrod. "Ayman Muhammed Rab'i al-Zawahiri: Inquiry and Analysis." Middle East Media Research Institute. MEMRI.org, November 26, 2001.

Randal, Jonathan. *Osama: The Making of a Terrorist.* New York: Knopf, 2004.

al-Rasheed, Madawi. *A History of Saudi Arabia.* Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

Rashid, Ahmed. *Taliban: The Story of the Afghan Warlords.* London: Pan Books, 2000.

———. *Jihad: The Rise of Militant Islam in Central Asia.* New Haven: Yale University Press, 2002.

Raymond, André. *Cairo.* Cambridge: Harvard University Press, 2000.

Reed, Betsy, ed. *Nothing Sacred: Women Respond to Religious Fundamentalism and Terror.* New York: Thunder's Mouth Press/Nation Books, 2002.

Reeve, Simon. *The New jackals: Ramzi Yousef Osama bin Laden, and the Future of Terrorism.* Boston: Northeastern University Press, 1999.

Rodenbeck, Max. *Cairo: The City Victorious.* New York: Knopf, 1999.

Roy, Olivier. *Afghanistan: From Holy War to Civil War.* Princeton, N.J.: Darwin Press, 1995.

Rubin, Barry. *Islamic Fundamentalism in Egyptian Politics.* London: Palgrave Macmillan, 2002.

———, ed. *Revolutionaries and Reformers: Contemporary Islamist Movements in the Middle East.* Albany: State University of New York Press, 2003.

Rubin, Barry, and Judith Colp Rubin. *Anti-American Terrorism and the Middle East: A Documentary Reader.* Oxford: Oxford University Press, 2002.

Sachar, Howard M. *A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time.* New York: Knopf, 1996.

Sageman, Marc. *Understanding Terror Networks.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2004.

Schwartz, Stephen. *The Two Faces of Islam: The House of Sa'ud from Tradition to Terror.* New York: Doubleday, 2002.

Shadid, Anthony. *Legacy of the Prophet: Despots, Democrats, and the New Politics of Islam.* Boulder, Col.: Westview, 2002.

Shepard, William E. *Sayyid Qutb and Islamic Activism: A Translation and Critical Analysis of Social Justice in Islam.* Leiden: Brill, 1996.

Simons, Geoff. *Saudi Arabia: The Shape of a Client Feudalism.* New York: St. Martin's, 1998.

Sivan, Emmanuel. *Radical Islam: Medieval Technology and Modern Politics.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 1985.

Smith, Dennis. *Report from Ground Zero.* New York: Viking, 2002.

Smucker, Philip. *Al-Qaeda's Great Escape: The Military and the Media on Terror's Trail.* Washington, D.C.: Brassey's, 2004.

twitter @baghdad_library

Taheri, Amir. *Holy Terror.* London: Adler and Adler, 1987.

Tanner, Stephen. *Afghanistan: A Military History from Alexander the Great to the Fall of the Taliban.* New York: Da Capo Press, 2002.

Teitelbaum, Joshua. *Holier Than Thou: Saudi Arabia's Islamic Opposition.* Washington, D.C.: Washington Institute for Near East Policy, 2000.

Theroux, Paul. *The Pillars of Hercules: A Grand Tour of the Mediterranean.* New York: Putnam, 1995.

Theroux, Peter. *Sandstorms: Days and Nights in Arabia.* New York: Norton, 1990.

Thomas E. Burnett, Sr. v. al-Baraka Investment and Development Corporation, et al., Final Third Amended Complaint. Case Number 1:02CV01616 (JR) U.S. District Court for the District of Columbia, November 22, 2002.

The Two Holy Mosques. Riyadh: National Offset Printing Press, 1994.

Unger, Craig. *House of Bush, House of Saud.* New York: Scribner, 2004.

United Nations Development Programme. Regional Bureau for Arab States. *Arab Human Development Report 2002: Creating Opportunities for Future Generations.* 2002.

Weaver, Mary Anne. *A Portrait of Egypt: A Journey Through the World of Militant Islam.* New York: Farrar, Straus, and Giroux, 1999.

Weiss, Murray. *The Man Who Warned America: The Life and Death of John O'Neill, the FBI's Embattled Counterterror Warrior.* New York: Regan Books, 2003.

White, E. B. *Here Is New York.* New York: Little Bookroom, 1999.

Wiktorowicz, Quintan. "The New Global Threat: Transnational Salafis and Jihad." *Middle East Policy* 8, no. 4 (December 2001).

______, and John Kaltner. "Killing in the Name of Islam: Al-Qaeda's Justification for September 11." *Middle East Policy Council Journal* 10, no. 2 (Summer 2003).

Woodward, Bob. *The Commanders.* New York: Touchstone, 1991.

Wright, Lawrence. "The Counterterrorist." *New Yorker,* January 14, 2002.

______. "Kingdom of Silence." *New Yorker,* January 5, 2004.

______. "The Man Behind bin Laden." *New Yorker,* September 16, 2002.

Yamani, Hani A. Z. *To Be a Saudi.* London: Janus, 1997.

Yousaf, Mohammad, and Mark Adkin, *The Bear Trap: Afghanistan's Untold Story.* London: Leo Cooper, 1992.

Zarie, Mohammed. *In Defense of Prisoners' Rights: HRCAP Reports from 1997 to 2000.* Cairo: Human Rights Center for the Assistance of Prisoners, 1997.

al-Zayyat, Montassir. *The Road to al-Qaeda: The Story of bin Laden's Right-Hand Man.* London: Pluto Press, 2004.

twitter @baghdad_library

مقابلات المؤلف الشخصية

Nicholas Abbott
Abdelaziz Osman Abdelaziz
Tourabi Abdellah
Genieve Abdo
Khaled S. Abu Rashid
Hafez Abu Saada
Victor Abu Said
Asma Afsaruddin
Iftikhar Ahmad
Ali al-Ahmed
Reem Akkad
Abu Ala-Mady
Alaweed bin Talal
Mohammed Alawwan
Hamid Algar
Mirza Ali
Mohammed Jasim el-Ali
Bassim A. Alim
Mohammed Alim
Tariq Ali Alireza
Fouad Allam
Jeff Allen
Graham Allison
Rogelio Alonzo
Abdel Monem Said Aly
Faiza Salah Ambah
Michael Ameen Jr.
R. Scott Appleby
Gustavo de Aristegui
Grant Ashley
Saad Asswailim
Ghazi Salah Eddin Atabani
Abdel Bari Atwan
Gerald L. Auerbach
Juan Avilés
Mohammed Saleem al-Awa
Mohsin al-Awaji
Mohammed al-Awwam
Hussein al-Aydi
Javed Aziz
Sahar Aziz
Talal bin Abdul Aziz
Mahfouz Azzam
Maha Azzam
Omar Mahfouz Azzam
Nadia ba-Ashen
Yahia Hussein Babiker
Ahmed M. Badeeb
Saeed Badeeb
Robert Baer
Omar Bagour
Faisel Bajaber
Ramesh Balon
Gamal al-Banna

Abdullah Anas
Frank Anderson
Lars Erslev Anderson
Sami Angawi
John M. Anticev
Michael Anticev
Mohammed Loay Baizid
Milt Bearden
Waquih Bector
Mohammed bin Nasser Belfas
Harlen L. Bell
Daniel Benjamin
Robert Bentley
Peter L. Bergen
Sandy Berger
James Bernazzani, Jr.
Khaled al-Berri
Abdullah M. Binladen
Saleh M. Binladen
Mohammed A. bin Mahfooz
Sultan bin Salman
Alaweed bin Talal
Ghazi Faisal Binzagr
Jochen Bittner
Robert Blitzer
Philip Bobbitt
Waguih Boctor
Barbara Bodine
Steven A. Bongardt
Arnaud de Borchgrave
Theron Bouman
H. Braxton
Jean-Charles Brisard
Peter T. R. Brooks
Rachel Bronson
Jean-Louis Bruguiere
Ihsan Ali bu-Hulaiga
Paul Busick
Shmuel Bar
Tom Barfield
Michael Barrett
Hasan Basweid
Khaled Batarfi
Faisal Batewil
Frank Cilluffo
Richard A. Clarke
Jack Cloonan
Ray Close
Charles Cogan
Daniel J. Coleman
Denis Collins
Elizabeth O. Colton
John Cooley
Thomas F. Corrigan
Dina Corsi
Juan Cotino
Roger Cressey
Dominik Cziesche
Pasquale D'Amuro
Saeb Dajani
Thomas G. Donlon
Essam Deraz
Aida Self el-Dawla
Sarah al-Deeb
Agustín Diaz
Anna DiBattista
Tom Dillon
Teodoro Gómez Domínguez
Kevin Donovan
Joseph Doorley
Mary Deborah Doran
Eleanor Doumato
Joshua L. Dratel
Abdel Aziz al-Dukheil
Carson Dunbar
Charles Dunbar

twitter @baghdad_library

Malik A. Ruiz Callejas
Robert Callus
John Calvert
Greg Campbell
Antonio Cañizares
Vincent Cannistraro
Joseph Cantemessa
Yigal Carmon
Timothy Carney
Jacobo Teijelo Casanova
Sharon Chadha
David Chambers
Robert Chambers
Gary Chapman
Françoise Chipaux
Khaled Abou el-Fadl
Abdulaziz H. Fahad
Mandi Fahmy
Amr Mohamed al-Faisal
Reem al-Faisal
Saud al-Faisal
Turki al-Faisal
Mahmoun Fandy
Saad al-Faqih
Juan Avilés Farré
Jamil Farsi
Najla Fathi
Haizam Amirah Fernández
Elizabeth Fernea
Robert Fernea
Al Finch
Walid A. Fitaihi
Patrick Fitzgerald
Peggy A. Ford
Yosri Fouda
Wyche Fowler
Charles E. Frahm
Stephen Franklin
Joseph Dunne
Elizabeth Durkee
Jack Eckenroad
Mohamed Salah Eddin
R. P. Eddy
Mohamed al-Edrisi
Paul Eedle
Abdel Wahab el-Effendi
Michael E. Elsner
Steven Emerson
Javier Jordan Enamorado
Elfatih Erwa
Emilio Lamo de Espinosa
Essam el-Eryan
John Esposito
Hamid Gul
Rohan Gunaratna
Lou Gunn
Allan P. Haber
Kamal al-Sayyid Habib
Herb Haddad
Deborah Hadwell
Sayeed Abdul Hafez
Mohammed M. Hafez
Ali el-Haj
Lisa Gordon Haggerty
Abdul Rahman Haggog
Berhan Hailu
Yousef A. al-Hamdan
Khaled al-Hammadi
Andrew Hammond
Hussein Haqqani
Hasan al-Harithi
Mamdouh al-Harithi
Mohamed Haroun
Elias Harfouche
Peter Harrigan
Tom Hartwell

Louis J. Freeh
Alan Fry
Graham Fuller
Abdel Moneim Abdel Futuh
Neal Gallagher
Mary E. Galligan
Kathy Gannon
Antonio Maldonado García
Benigno Pendás García
Enrique García
Mike Garcia
Paul Garmirian
Diego Lopez Garridó
Baltazar Garzón
Stephen J. Gaudin
F. Gregory Gause III
Fawaz Gerges
Hussein Abdel Ghani
Kevin P. Giblin
Hao Gilbertson
Heather Gregg
Klaus Grünewald
Stanley Guess
Hosnya Guindy
Hussein Ibish
Abdel Wahab Ibrahim
Dina Ibrahim
Saad Eddin Ibrahim
Bob Inman
Ibrahim Insari
José Maria Irujo
Christopher Isham
Farraj Ismail
Jamal Ismail
Mamdouh Ismail
Mahnaz Ispahani
Edward Jajko
Ali A. Jalali
Saad Hasaballah
Khalid Hasan
Janullah Hashimzada
Badreldin Hassan
Hamza al-Hassan
Sulaiman al-Hatlan
Suliman Hathout
Hasan Hatrash
Jerome Hauer
Thomas Hegghammer
Kamal Helbawy
Clement Henry
Neil Herman
Ibrahim Hilal
Michael Hingson
Frank Hodgkins
Bruce Hoffman
Tariq al-Homayed
Ibrahim Hooper
Fahmi Howeidi
Steven Hughes
Mohammed I. al-Hulwah
Malik Hussein
Len Hutton
Judith Kipper
Kirk Kjeldsen
Bernard Kleinman
Bassma Kodmani
Evan Kohlmann
Michael Kortan
May Kutbi
Ben Kuth
Robert Lacey
Stéphane Lacroix
Donna Lee Lakin
Frank Lakin
Salah Lamei
Ted Landreth

twitter @baghdad_library

Kevin James
Valerie James
Edward Jeep
Josef Joffe
Chris Johnson
Keith Johnson
Rocio Millán Johnson
Robert Jordan
Adl al-Jubair
Nail al-Jubair
James K. Kallstrom
Salah Abd al-Kareem
Hisham Kassem
Mahmoud Kassem
Theodore Kattouf
Rita Katz
Elaine Kaufman
Joseph Kechichian
David Kelley
Gilles Kepel
Abdul Rahman Khadr
Zaynab Ahmed Khadr
Jamal Khalifa
Ashraf Khalil
Imran Khan
Ismail Khan
Javed Aziz Khan
Jamal Ahmad Khashoggi
Khalid Khawaja
Mohammed al-Khereiji
Ramzi Khouri
Kathryn Kilgore
Daniel Kimmage
Janet McElligot
Robert McFadden
John McKillop
Jaime McLendon
Frances Meade
Thomas F. Lang
Mohamed abd al-Latif
Fernando Lázaro
Rodney Leibowitz
Eric Lewis
Richard Lind
James Lindley
John Lipka
John J. Liguori
David Long
Bernabe López García
Douglas MacEachin
Petros Machas
Dittmar Machele
Khaled al-Maeena
Naguib Mahfouz
Wissal al-Mahdi
Saddiq al-Mahdi
Abdulaziz I. al-Mana
Abd al-Haleem Mandour
Jay C. Manning
Manuela Marín
Saad M. Mariq
Jonathan Marshall
Bobby Martin
Georg Mascolo
Rihab M. Massoud
Barry Mawn
Kenneth J. Maxwell
Ernest May
Andrew McCarthy
Pete McCloskey Jr.
Ken McConnellogue
M. Arif Noorzai
Essam Noweira
Ayman Nur
Christine O'Neill
J. P. O'Neill

Richard A Meade
Dominic Medley
Amin el-Mehdi
Roel Meijer
Moneir Mahmoud Aly el-Messery
Cordula Meyer
John J. Miller
Marty Miller
John Mintz
Hamid Mir
Mustafa al-Mirabet
Hafez al-Mirazi
Assaf Moghadem
Mohammed el-Affi Mohammed
Rustam Shah Mohmand
Abdul Mohsin Mosallam
Rashid al-Mubarek
Ursulla Mueller
Manfred Murck
Kim Murphy
Richard Murphy
Virginia Murr
Ali al-Musa
Izzud-din Omar Musa
Khaled Musa
Mustapha el-M'Rabet
Ibrahim Nafie
Timothy Naftali
Hani Nagshabandi
Adil Najam
Louis A. Napoli
Octavia E. Nasr
Dona Abdel Nasser
Sami Saleh Nawar
Hisham Nazer
Sanna Negus
Soraya Sarhaddi Nelson
Salameh Nematt
Hugh O'Rourke
Nawaf Obaid
Mohammed S. al-Odadi
Hassabulla Omer
Fathi Osman
George Pagoulatis
Emiliano Burdiel Pascual
Reuven Paz
Ami Pedahzur
Gareth Peirce
Francis J. Pellegrino
Benigno Pendâs
Ramôn Pérez-Maura
Thomas J. Pickard
William Ryan Plunkett
Javier Pogalan
Josh Pollack
Florentino Portero
Joachim Preuss
Jim Quilty
Mohammed Qutb
Khaled Rabah
Samir Rafaat
Nimrod Rafaeli
Abdullah Omar Abdul Rahman
Ahmed Abdul Rahman
Bahran Rahman
Osama Rajkhan
David C. Rapoport
Madawi al-Rasheed
Abdel Rahman al-Rashid
Mohamed Rashid
Diaa Rashwan
Ross Reiss
Jim Rhody
Hamid bin Ahmed al-Rifai
Lawrence K. Robinson
Jorge Rodríguez

twitter @baghdad_library

Petter Nesser
Tim Niblock
Monsour al-Njadan
Yusuf Mohammed Noorwali
Jim Roth
Olivier Roy
Michael Rubin
William Rugh
Usama Rushdi
Jeanne Ryan
Hafez Abu Saada
Mahmoud Sabit
Abdul Rahman al-Saeed
Marc Sageman
Muhammed Salaah
Salama Ahmed Salama
Ali Salem
Ysura Salim
Mohammed Salmawy
Maha Elsamneh
Bob Sama
Mujahid M. al-Sawwaf
Mohammed Sayed Tayib
Michael Scheuer
Lewis Schiliro
Abdallah Schleifer
Yoram Schweitzer
Deborah Scroggins
Abdul Aziz al-Sebail
Mohammed el-Shafey
Restum Shah
Rafiq Shaheed
Emad Eldeen Shahin
Mohammed Ali Al al-Shaikh
Said al-Shaikh
Ron Shapiro
Mohammed A. al-Sharif
Michael Sheehan
Michael A. Rolince
Ken Rosenthal
James J. Rossini
Mark T. Rossini
Hani al-Siba'iy
Steven Simon
Yassir el-Sirri
Marvin Smilon
Philip Smucker
Ibrahim al-Sonousi
Ali H. Soufan
Jesper Stein
Guido Steinberg
Jessica Stern
Mary Lynn Stevens
Raymond Stock
Dominic Streatfeild
Abdullah Subhi
Ghassan al-Sulaiman
Gamal Sultan
Joseph Szlavik Jr.
Michael Taarnby
Nahed M. Taher
Azzam Tamimi
Lorraine di Taranto
Mohamed Saeed Tayeb
Jacobo Teijello
Joshua Teitelbaum
Peter Theroux
Omar Toor
Aldo J. Tos
Owais Towhid
Greg Treverton
Robert Tucker
Matthew Tueller
Hassan al-Turabi
Issam Eldin al-Turabi
Thomas Twetten

Abdullah al-Shehri
Virginia Sherry
Aziz Shihab
Myrna Shinbaum
David Shinn
Ekram Shinwari
Allen Shivers
Hussein Shobokshi
Mohammed Shoukany
Mahmoud Shukri
Asma Siddiki
Mazhar Siddiqi
Sabahat Siddiqi
John V. Whitbeck
Mary Jo White
Wayne White
Robert Whithead
Larry Whittington
Quintan Wiktorowicz
Gina Abercrombie-Winstanley
Kelly Wojda
Wesley Wong
Hani Yamani
Mai Yamani
Hassan Yassin

Abu Ubeida
Joe Valiquette
Reuben Vélez
Lorenzo Vidino
Bob Walsh
Janet Waters
Eric Watkins
Dale Watson
William F. Wechsler
Gabriel Weimann
Benjamin Weiser
Michael Welsh
Jeff Wharton
Yehia J. Yehia
Khaled Yusuf
Rahimullah Yusufzai
Mark Zaid
Ali Zaki
Ezzat Zaki
Zaki Mohammed Zaki
Heba al-Zawahiri
Montasser al-Zayat
Ahmad Muaffaq Zaidan
Mohammed Zohair
Abdou Zuma

twitter @baghdad_library

شكر وتقدير وملاحظات على المصادر

دائمًا ما تمثل الأكاذيب والخدع مشكلة في طريق الصحفي الذي يحاول تشييد صرح سردي صادق، وفي عمل يعتمد بصورة كبيرة على المقابلات الشخصية مع الجهاديين وعملاء المخابرات، فمن حق القارئ أن يعتقد أن هناك خطورة في الإفراط في الثقة في مثل هذه المصادر. ومما يزيد الأمور تعقيدًا أن الدراسات المبكرة عن القاعدة والشخصيات الأساسية بها كانت في أغلب الأمر زائفة ومضللة. فالصحافة العربية، التي تعد عنصرًا أساسيًّا في التأريخ لحياة أيمن الظواهري وبن لادن، تلجمها حكومات أوتوقراطية في المنطقة. كما لا يمكن للمرء الإفراط في الثقة في شهادة شهود تحت القسم أثبتوا أنهم محتالون وكذابون وعملاء مزدوجون. كيف إذًا يختار الكاتب القصص التي يسردها من بين الكثير والكثير من القصص المتضاربة وغير الجديرة بالثقة؟

لحسن الحظ، ظهرت على السطح بعض المستندات المفيدة في السنوات الخمس التي تلت هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، التي تمثل مرجعًا للصحفيين الذين يبحثون عن أرض صلبة يقفون عليها في كتاباتهم. ومن بين أكثر هذه المستندات نفعًا «تاريخ أسامة»، وهو مجموعة من مذكرات وخطابات وملاحظات حُصِل عليها من على جهاز كمبيوتر يخص القاعدة في البوسنة وأصبح من بين الأدلة في القضية ضد إنعام أرناءوط في الولايات المتحدة، إلى جانب مجموعة ثمينة وقيمة من الرسائل الإليكترونية والمراسلات الأخرى التي حصل عليها آلان كوليسون مراسل صحيفة وول ستريت جورنال بالصدفة عندما اشترى ما اتضح أنه جهاز كمبيوتر غنيمة من القاعدة في كابول، هذا بالإضافة إلى الوثائق الرسمية المهمة الخاصة بالقاعدة بما في ذلك الدستور الخاص بها ولوائحها، التي جمعت وزارة الدفاع الأمريكية جزءًا كبيرًا منها بعد الحرب في أفغانستان وشكلت مجموعة الوثائق والمستندات التي تحتفظ بها

وزراة الدفاع فيما يعرف بقاعدة بيانات هارموني Harmony Documents. وتمثل هذه المصادر أساسًا لمعلومات يُعتمَد عليها يمكن أن تفيد في اختبار مدى صدق مصادر أخرى.

وعلى أية حال، من الممكن أن تكون مثل هذه المستندات والوثائق القيمة مضللة أيضًا. فعلى سبيل المثال، الملحوظات المكتوبة بخط اليد في ملف «تاريخ أسامة» التي تسجل الاجتماع الخطير الذي عقد في الحادي عشر من أغسطس/آب عام ١٩٨٨م عندما ظهر اسم القاعدة لأول مرة على السطح، تمنحنا نظرة على ما يبدو أنه لحظة ميلاد التنظيم. ومن ثم، فإنه مشهد ضروري وحيوي للغاية في سرد الأحداث الذي أقدمه في كتابي، ولكن الترجمة الإنجليزية التي قدمت إلى المحكمة كانت غريبة ومحيرة، فقد جاء في بداية الملف: I see that we should think in the origin of the idea we came for from the beginning. All this to start a new fruit from below zero: «أرى أننا يجب أن نفكر في أصل الفكرة التي جئنا من أجلها منذ البداية. كل هذا يعني بداية ثمرة جديدة من تحت الصفر.» وقد كان من الممكن ترجمتها بطريقة أفضل كما يأتي: We should focus on the idea that brought us here in the first place. All this to start a new project from scratch «يجب أن نركز على الفكرة التي أتت بنا إلى هنا في المقام الأول، وكل هذا يعني بدء مشروع جديد من لا شيء.» وطبقًا لذلك المستند، فإن السكرتير الذي سجل هذه الملحوظات هو أبو رضا السوري (محمد لؤي بايزيد) صديق بن لادن، ولكن عندما قابلته وتحدثت إليه في الخرطوم، أنكر حتى أنه كان في أفغانستان أو باكستان في عام ١٩٨٨م. وفي الواقع أنا لا أدري مدى صدق هذا التأكيد، ولكن اسمه كان موجودًا على الوثيقة. وقد كان وائل جليدان، الذي رفض التحدث إليّ وجه لوجه، حاضرًا في ذلك الاجتماع أيضًا ووافق أن يجيب على أسئلتي عبر وسيط. وقد أمدني بمعلومة مدهشة تقول: إن عبد الله عزام هو الذي دعا إلى ذلك الاجتماع في المقام الأول، وأعطاني أسماء المشاركين في الاجتماع ووصف لي عملية التصويت على تأسيس القاعدة في نهاية ذلك الاجتماع. ولا توجد أي من هذه المعلومات في مستندات المحكمة. وقد أخبرني مدني الطيب، الذي كان أمين خزانة القاعدة، عبر وسيط أن التنظيم كان قد تأسس بالفعل قبل اجتماع الحادي عشر من أغسطس/آب، فقد انضم هو إليه في شهر مايو/أيار من ذلك العام، لذا فمن الواضح أن ذلك التصويت أضفى صفة الرسمية على تأسيس التنظيم الذي أنشئ سرًّا قبل ذلك. وأعتقد أن القارئ بدأ يقدر الطبيعة

twitter @baghdad_library

المظلمة والغامضة التي تميز العالم الذي يعمل فيه تنظيم القاعدة، والأساليب التي لا تنأى عن الشوائب التي لجأت إليها في بعض الأحيان للحصول على المعلومات.

وبالمثل، كان علي أيضًا أن أُضحي بالإفصاح عن بعض المعلومات التي أؤمن بصحتها ولكن لا يمكنني إثباتها. ومن أمثلة هذه المعلومات التي كانت تقض مضجعي في هذا الشأن حقيقة أن الأمير تركيًا قد أخبر وكالة أسوشيتد برس في السابع عشر من أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠٣م أنه بصفته رئيس المخابرات السعودية أمد المخابرات الأمريكية شخصيًا بأسماء اثنين ممن شاركوا بعد ذلك في اختطاف طائرات هجمات سبتمبر/أيلول وهما نواف الحازمي وخالد المحضار في نهاية عام ١٩٩٩م أو وقت مبكر من عام ٢٠٠٠م. وقد قال تركي في ذلك الوقت: «لقد أخبرناهم أن هذين الشخصين على قائمة المراقبة لدينا من نشاطات سابقة للقاعدة؛ في كل من تفجيرات السفارتين ومحاولات تهريب أسلحة إلى المملكة في عام ١٩٩٧م.» ويفسر هذا الأمر اهتمام المخابرات الأمريكية المفاجئ بهذين الشخصين تقريبًا في وقت عقد اجتماع ماليزيا بين منفذي هجمات سبتمبر/أيلول وعملية المدمرة يو إس إس كول. وقد أنكرت المخابرات الأمريكية بغضب حديث تركي، كما تبرأ السفير السعودي لدى الولايات المتحدة الأمريكية الأمير بندر بن سلطان من تصريح ابن عمه قائلًا: إنه «لا توجد وثائق» أرسلت إلى المخابرات الأمريكية من قِبل المملكة العربية السعودية تخص مختطفي الطائرات. وفي ذلك الوقت، تمسك تركي بتصريحه قائلًا: إنه نقل المعلومات على الأقل شفهيًا. ولديّ تأكيد لزعمه من نواف عبيد، مستشار أمني لدى الحكومة السعودية، الذي أخبرني أنهم أعطوا أسماء المختطفين إلى رئيس مكتب المخابرات الأمريكية في الرياض. وعلى أية حال، فإن الأمير تركيًا الآن الذي حل محل بندر في السفارة السعودية في واشنطن يقول: إنه بعد مراجعة ملاحظاته، وجد أنه كان مخطئًا وأنه لم يعط بنفسه أية معلومات عن مختطفي الطائرات إلى الأمريكيين. وبسبب هذا الإنكار التام، حذفت هذه القصة من النص، وقد عمدت إلى ذكرها هنا للإجابة عن الأسئلة التي قد تتطرق إلى أذهان القراء الذين يعرفون هذه القصة، وأيضًا لكي أقر بوجود التيارات المتضاربة من السياسة والدبلوماسية التي في بعض الأحيان تجعل القصة الحقيقية، بغض النظر عن ماهيتها، بعيدة المنال بصورة تثبط العزيمة.

لقد تطلب إخراج هذا الكتاب إلى النور التحقق باستمرار من مئات المصادر ومقابلة بعضها ببعض، ويمكن التوصل إلى ما يمكن أن نطلق عليه الحقيقة، أي

أكثر الحقائق الموثوق بها، عن طريق التساؤل على نحو مترابط ومتبادل. ومن الممكن أن نطلق على هذا الأسلوب في جمع المعلومات الأسلوب الأفقي في نقل الأخبار، حيث إنه يأخذ في الاعتبار آراء أكبر عدد ممكن من المشاركين الراغبين في الحديث. ومع أن القائمة طويلة، فإنها دون شك غير مكتملة. فقد رفض بعض الأشخاص الرئيسيين في الأوساط الاستخباراتية الأمريكية وخاصة المخابرات الأمريكية مقابلتي. بالإضافة إلى أن الكثير من أفضل المصادر في القاعدة تحتجزهم السلطات الأمريكية، ليس فقط سرًّا ولكن أيضًا في سجون أمريكية حيث يُعزلون تمامًا عن أي اتصال بالصحافة، رغم الطلبات التي قدمتها لآمري السجون التي يقبعون فيها والقضاة الذين يحكمون في قضاياهم. وبالطبع لا يمكن التوصل إلى التاريخ الكامل للقاعدة إلا إذا سُمح لهؤلاء بالحديث.

هناك أسلوب آخر في نقل الأخبار، وهو الأسلوب الرأسي الذي يرتبط بالفهم أكثر من ارتباطه بالحقائق المباشرة. فبعض الشخصيات التي يأتي ذكرها في هذا الكتاب، قابلتها شخصيًّا عشرات المرات ودارت بيننا أحاديث مفصلة، وكانت دائمًا أكثر الأحاديث إثمارًا هي تلك التي تأتي بعد الوصول إلى درجة من الثقة التي تنشأ بين الصحفي ومصدره. وهذه العلاقة مشحونة بالمشكلات حيث إن الثقة يصحبها دائمًا توطد علاقة صداقة، وفي الوقت نفسه، المعرفة مغرية، والصحفي دائمًا يريد أن ينهل منها المزيد، وكلما توصل إلى المزيد من المعلومات، أصبح أكثر أهمية وإثارة للمصدر. ولا توجد الكثير من القوى في الطبيعة البشرية أقوى من الرغبة في أن يفهمنا الآخرون، وبدون هذه القوى ما كانت الصحافة لتولد. ولكن الصداقة الحميمة التي تنشأ مع تبادل الأسرار وتحرير تلك المشاعر الدفينة التي تمثل عبئًا؛ تدعو إلى درجة متبادلة من الحماية القائمة على أسس ودية التي لا يستطيع الصحفي دائمًا توفيرها. لذا، فإنني، عن طريق الاستخدام العلني لجهاز التسجيل والتدوين المستمر للملحوظات، أحاول أن أذكر كلينا أن هناك طرفًا ثالثًا معنا في الغرفة ألا وهو القارئ.

ولقد جاهدت كي أجعل عدد المصادر مجهولة الاسم أقل ما يمكن، فأنا كقارئ، دائمًا ما أتساءل عن مدى إمكانية الثقة في المعلومات غير المستقاة من مصدر محدد؛ لذا فقد عمدت إلى جعل معظم مصادري معلومة للجميع قدر الإمكان. وبعض هذه المصادر عادة يبدأ المقابلة الشخصية بقول إن المعلومات ليست للنشر، ولكن بعد ذلك قد يوافقون على نشر بعض الأحاديث على لسانهم أو بعض المعلومات الاستخباراتية

twitter @baghdad_library

عندما أطلب منهم ذلك. وفي حالة وجود بعض المعلومات غير المنقولة عن أشخاص محددين أو مقتبسة من وثائق محددة، فإنها تمثل معلومات حيوية لدي أسباب قوية تجعلني أعتبرها حقيقية.

لقد خرج هذا الكتاب إلى النور مدينًا بالفضل لمئات الأشخاص. ومع أني لا أستطيع أن أمنحهم ما يستحقون مقابل كرمهم، فإني أتمنى أن يشعروا أنني كنت جديرًا بثقتهم.

ربما كان سيد قطب تعيسًا في مدينة جريلي في ولاية كولورادو، ولكنه لم يحظ بفرصة مقابلة بيجي أ. فورد، منسق الأرشيف والأبحاث في متحف مدينة جريلي، أو جانيت واترز رئيسة خدمات الأرشيف في مكتبة جيمس أ. ميتشنر في جامعة شمال كولورادو، اللذين أتاحا أمامي جميع المعلومات التي يعرفانها وتلك التي تذخر بها ملفاتهما. وقد أمدني كين ماكونيلوج، نائب رئيس الجامعة للتنمية، بمعلومات قيمة للغاية بكرم شديد، واصطحبني مايكل ويلش، أستاذ علم التاريخ، في جولة في الحرم الجامعي والمدينة، وقد كانت تلك الجولة ممتعة وثرية بالمعلومات حتى إني أخذت أحسد طلابه عليه.

يعتمد المراسلون الأجانب على وسطاء ليرشدوهم في الثقافات التي يفهمونها بالكاد، فيتولوا عنهم تحديد المواعيد ويترجموا لهم ويمدوهم بسياق ما كان الأجنبي ليتوصل إليه وحده. وفي القاهرة، سعدت بصورة خاصة بالصحبة الممتعة لماندي فهمي، وأيضًا رولا محمود وجيلان زيان. وكان سمير رفعت رفيقًا لا يقدر بثمن في مهمة استكشاف طفولة الدكتور أيمن الظواهري في المعادي. وأدين بالشكر بشدة لمحفوظ عزام وعمر عزام لصبرهما وإجاباتهما اللبقة المهذبة عن أسئلتي التي لا تنتهي. أما جمال البنا وعصام العريان، فقد قدما لي معلومات قيمة للغاية حول الإخوان المسلمين، وكان كمال حبيب مصدرًا ثريًّا للغاية عن جذور جماعة الجهاد. وكذلك كان ممدوح إسماعيل وجمال سلطان ومنتصر الزيات مصادر لا غنى عنها للمعلومات عن الحركات الإسلامية، كما ساعدني فؤاد علام في فهم كيفية تعامل الحكومة مع التحديات التي كانت تمثلها هذه المنظمات. ولقد كان عبد الله شليفر مصدرًا للرفقة الممتعة ونفاذ البصيرة، وهو طاهٍ بارع أيضًا. ولقد كان سعد الدين إبراهيم، الذي خرج من السجن حديثًا ولا يزال يعاني آثار هذه المحنة، طيبًا لدرجة أنه منحني خلاصة بحثه الذي لا يقدر بثمن. وأود أن أتقدم بشكر خاص على المودة

وحسن الضيافة لكل من جان منتصر، وصفوت منتصر، وسناء هانونين نيجوس، والدكتور عبد الوهاب إبراهيم وعايدة البيرماوي، وريموند ستوك، وجيم برينجل وسامية البيرماوي، وعصام دراز، وعلي سالم، وأستاذي القديم الدكتور يحيى العزبي.

قضيت أكثر من عام بعد هجمات سبتمبر/أيلول أسعى للحصول على تأشيرة من المملكة العربية السعودية، وأخيرًا بعدما أدركت أنني لن أستطيع الحصول على تأشيرة دخول بصفتي صحفيًّا، قبلت وظيفة مستشار للصحفيين الشباب في جريدة «سعودي جازيت» في جدة، مسقط رأس بن لادن. وقد قدمت لي هذه الحيلة التي جاءت عن طريق الصدفة فهمًا للمجتمع السعودي لم يكن من الممكن أن أصل إليه عبر تلك النظرة المتعالية التي ينظر بها الصحفي إلى المجتمع. وفي هذا الشأن، يجب أن أتقدم بالشكر للدكتور أحمد اليوسف رئيس التحرير، والدكتور محمد شوكاني المحرر الذي دعاني إلى صالة التحرير في المقام الأول، وزملائي افتكار أحمد، وراميش بالون، ورمزي خوري، ومظهر صديقي. ولكن، كان الصحفيون الذين أعمل معهم هم أعظم معلمين استفدت منهم، وهم: فيصل باجابر، وحسن باسويد، ونجلاء فتحي، وممدوح الحارثي، وحسن حتراش، ومحمد زهيب باتل، ومحمود شكري، وصباحات صديقي. وأدين بالشكر أيضًا لفايزة أمباه، وإليزابيث أو. كولتون، والدكتور خالد بطارفي، وبيرهان هايلو، وبيتر هاريجان، وجمال خليفة، وجمال خاشقجي، وخالد المعينا، والدكتور عبد الله الشهري، وحسين شوبوكشي، وجينا أبيركرومبي-وينستانلي، الذين جعلوا من رحلاتي إلى المملكة ممتعة ومثمرة في الوقت نفسه.

وفي باكستان، نهلت دون خجل من خبرات زملائي في تغطية الجهاد. فأشكر كاثي جانون من وكالة أسوشيتد برس، وفرانسوا تشيبو من صحيفة لوموند الفرنسية، وجمال إسماعيل من تليفزيون أبي ظبي، وإسماعيل خان من صحيفة دون، ورحيم الله يوسفزاي من صحيفة نيوز في إسلام أباد، وأحمد موفق زيدان من قناة الجزيرة. وأمدني مهناز إسباهاني بنظرة عامة مفيدة للغاية عن البلد وبعض المصادر القيمة أيضًا. ومع الاختلاف الكبير الذي يفصل نظرتنا عن العالم، فقد تكبد خالد خواجة مشقة كبيرة ليجعلني أستوعب نظرته للأمور. وأدين بشكر خاص لزينب أحمد خضر لأنها أشركتني في ذكريات حياتها الخاصة في مجتمع القاعدة في أثناء الحوارات العديدة التي دارت بيننا في باكستان وكندا. كما أرشدني باهرام رحمن في أفغانستان، وقد كانت صحبته لي مصدر سعادة دائمة، وأظن أني ما زلت أدين لدومينيك ميدلي بشراب في فندق مصطفى.

twitter @baghdad_library

أما عصام الدين الترابي، فقد كان مضيفًا مستنيرًا ومسليًا للغاية في أثناء رحلاتي العديدة إلى السودان. وأدين بالشكر لمحمد لؤي بايزيد لأنه ائتمنني على ذكرياته، وأيضًا لحسب الله عمير الذي ناقش معي بصراحة المعضلة التي كان بن لادن يمثلها للمخابرات السودانية.

بذل جورج ماسكولو وفريق تحقيقاته في مجلة دير شبيجل الألمانية جهدًا كبيرًا لا يضاهى في كشف الحياة السرية لخلية هامبورج. وقد أعارني جورج واحدة من أفضل المراسلين لديه وهي كوردولا مير، كي تكون مرشدتي طوال الوقت الذي قضيته في هامبورج وقد اعتمدت على نفاذ بصيرتها في رسمي لحياة مختطفي الطائرات في ألمانيا. وإنني ممتن أيضًا للدكتور جويدو شتينبرج في برلين، الرئيس السابق لقسم مكافحة الإرهاب في مكتب المستشار الألماني، الذي ساعدتني خبرته بالإرهاب في تشكيل فهمي للأمور. وفي أسبانيا، حظيت بمساعدة روتشو ميلان جونسون، وهو مراسل مقدام يتمتع بروح رائعة. وأدين بالشكر أيضًا لإيميليو لامو دي إسبينوزا، وهيزام أميراه فيرناندز، في معهد إلكانو الملكي في أسبانيا. وكان جوستافو دي أريستيجوي رفيقًا فكريًا مليئًا بالتحديات طوال المدة التي قضيتها في مدريد. وكان جوان كوتينو، وإنريك جارسيا، وإيميليانو بورديبل باسكوال، وتيودورو جوميز دومينجويز في الشرطة الوطنية غاية في التعاون معي. وأريد أن أعرب عن امتناني لزملائي فرناندو لازارو من صحيفة لوموند، وخوسيه ماريا إيروجو من صحيفة البايس الأسبانية، ورامون بيريز ماورا من شبكة أيه بي سي، وشكر خاص لكيث جونسون من صحيفة وول ستريت جورنال وقد ساعدني كل منهم كثيرًا بالمصادر والمعلومات.

في المرة الأولى التي ذهبت فيها للقاء جيليس كيبل، أستاذ دراسات الشرق الأوسط في معهد الدراسات السياسية في باريس، طلب مني أن أدرس لطلابه بدلًا منه. وقد اتضح بعد ذلك أن هذه هي أفضل طريقة للتعرف على الرجل الذي شكلت دراساته الرائدة عن الحركة الإسلامية في مصر أساس البحث العلمي عن هذه الحركة، وقد كان طلابه انعكاسًا قويًا ومستمرًا لتأثيره. وأدين بالشكر أيضًا لحسن ضيافة لي أيتكين زميلي المحرر السابق في مجلة ذا نيويوركر، وأصدقائي كريستوفر ديكي، وكارول ديكي اللذين جعلا رحلاتي إلى باريس ممتعة أكثر بكثير مما كانت ستكون عليه دون صحبتهما الرائعة. وقد كان أوليفيير روي الدارس المتعمق كريمًا لدرجة

أنه أشركني أفكاره في العديد من المناسبات، ومنحني قاضي مكافحة الإرهاب الشجاع جين-لويس بروجوييري ثمرة فهمه منقطع النظير لتنظيم القاعدة.

تعد لندن محطة توقف مهمة لأي صحفي يهتم بالحركة الإسلامية والجهاد، وكانت بعض أفضل المصادر التي نهلت منها قد حصلتْ على حق اللجوء السياسي هناك، وقد تحدثوا إلي طوعًا مع التهديد بأن وضعهم قد يتغير في أي وقت. وأنا مدين بالشكر بصورة خاصة لياسر السري وأسامة رشدي وهاني السباعي. أما عبد الله أنس وكمال هلباوي، فقد كانا صديقين رائعين لي في أثناء زياراتي، ولهما إسهامات مهمة في فهمي لتجربة الأفغان العرب. وشاركني آلان فراي من الشرطة البريطانية سكوتلانديارد رؤية قوات مكافحة الإرهاب البريطانية. وكان يسري فودة المراسل اللامع لقناة الجزيرة رفيقًا مرحبًا به في عدد من الأمسيات التي لا تنسى. وكان عبد الرحمن الرشيد، المحرر السابق لجريدة الشرق الأوسط، مصدرًا ثريًا بالمعلومات وكذلك خليفته في المنصب طارق الحُميد كان رفيقًا قريبًا من نفسي منذ أن تقابلنا لأول مرة في جدة. وأريد أن أعرب عن احترامي وتقديري بصورة خاصة لمحمد الشافعي، الصحفي الرائع الذي غطى الحركة الإرهابية والحركة الإسلامية المتطرفة لسنوات لجريدة الشرق الأوسط، فله جزيل الشكر على طيبته.

وأدين بشكر خاص لريتشارد أ. كلارك الذي كان مرشدًا صبورًا لي في توضيح مجريات الأمور بواشنطن. وفي مكتب التحقيقات الفيدرالي، سأظل دائمًا أقدر صراحة أعضاء الفرقة I-49، ولا سيما جاك كلونان، ودانيال كولمان، ومارك روسيني، وعلي صوفان، الذين قابلتُ كلًّا منهم عددًا لا يحصى من المرات، والذين لولاهم لما قدر لهذا الكتاب أن يخرج إلى النور أبدًا. وأدين بالشكر الشديد لباسكوالى دامورو الذي حرص على أن يكون مكتب التحقيقات الفيدرالي في نيويورك مفتوحًا أمامي، وأنا ممتن بشدة لثقته بي. وقد ساعدني كل من جو فاليكويت، وجيم مارجولين بترتيب لقاءات غالبًا ما استمرت حتى وقت متأخر بعد أن انتهى وقت العمل بالمكتب. وفي المقر الرئيسي، أود أن أشكر جون ميلر، ومايكل كورتان، وأنجيلا بيل الذين كانوا متعاونين بشدة في إعداد اللقاءات وتوفير المعلومات. وكان مايكل شوير مرشدًا صريحًا وغير متحيز في التعرف على ثقافة أليك ستيشن والمخابرات الأمريكية، وهو لا يُشق له غبار فيما يتعلق بمعرفته ببن لادن وتنظيم القاعدة، وهناك العديد من الأشخاص في المخابرات الأمريكية الذين لا أستطيع ذكر أسمائهم كانوا في غاية التعاون معي.

twitter @baghdad_library

وقد أشركتني السيدات الثلاث: آنا ديباتيستا، وفاليري جيمس، وماري لين ستيفينز ذكرياتهن، التي كانت في الغالب مؤلمة، عن جون أونيل، وقد حظيت بشرف الاستماع إلى قصصهن.

بطبيعة الحال، كانت اللغة تمثل عائقًا في طريقي، لذا فأود أن أتوجه بالشكر للمترجمين الذين استعنت بهم في جميع أنحاء العالم. ففي اللغة العربية، كانت مساعدتي السابقة دينا إبراهيم عونًا لا يقدر بثمن، وهذا ليس فقط لترجمتها الرائعة، وأيضًا شقيقتها مي وأحيانًا والدتهم عايدة، وأيضًا معلم اللغة العربية الذي تلقيت العلم على يديه أمجد م. أبو نصير، وجيلان كامل، وكان نضال دارايس مساعدًا آخر لا يقدر بثمن، وكذلك ريهام الشريف في القاهرة. وفي اللغة الألمانية: رالف جيجر، وتشيستر رسون. وفي الفرنسية والإيطالية كارولين رايت. وفي اللغة الأسبانية روتشو ميلان جونسون وفرانك هودكينز والرائد إدوارد جيب.

ظهرت أجزاء من هذا الكتاب في مجلة ذا نيويوركر، وفي الواقع، لقد بدأ هذا المشروع في ١١ سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م عندما طلبت من المحرر دافيد ريمنك أن يكلفني هذا العمل. ومنذ تلك اللحظة، حظيت بمساعدة الهيئة التحريرية بالمجلة التي تتميز بالدقة. وقد تولى كل من جيفري فرانك، وتشارلز متشنر، ودانيال زيلويسكي، مسئولية مقالات شاركتُ في إخراج هذا المنتج النهائي. وأنا دائمًا مدين بالشكر لقسم التأكد من صحة الحقائق Fact Checkers، وهو قسمي المفضل في المجلة، الذي يشرف عليه بيتر كانبي. ومن المتحققين الذين ساعدوني في هذا المشروع جيتا دانشجو، وبوريس فيشمان، وجاكوب جولدشتاين، وMarina هارس، وأوستين كيلي، وناندي رودريجو، وأندي يونج، ولا سيما نانا عصفور التي عملت مترجمة للغة العربية في عدد من المقابلات المهمة. وأدين بفضل كبير لناتاشا لون، محررة الصور بالمجلة، التي جمعت العديد من الصور التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه.

وقد ساعدني الكثيرون في الحصول على تأشيرات أو الوصول إلى أشخاص لم يكن بوسعي الوصول إليهم وحدي، وفي هذا الشأن كان كل من جانيت ماكيليجوت، وميلت بيردن متعاونين معي للغاية. كما أن إليزابيث فيرنيا، بالإضافة إلى أنها ساعدت في تشكيل أفكار هذا الكتاب، ساعدتني أيضًا في الحصول على الوظيفة في المملكة العربية السعودية؛ إن بصمتها تظهر جلية على كل صفحة من صفحات هذا العمل.

هناك مجموعة صغيرة من الدارسين الذين يعملون لحسابهم الخاص والذين كان عملهم المتعلق بالإرهاب عونًا كبيرًا للصحفيين، وأريد أن أشكر ريتا كاتز ومعهد

تعقب النشاطات الإرهابية على شبكة الإنترنت SITE، وستيفن إيميرسون، ولورينزو فيدينو، من معهد أبحاث مناهضة الإرهاب The Investigative Project الذي يعد أكبر أرشيف للمعلومات الاستخباراتية عن الجماعات الإسلامية، وإيفان إف. كوهلمان لإتاحة ثمرة بحثهم لي. إلى جانب أني أدين بالشكر لمايكل إلسنر في مكتب محاماة موتلي رايس، الذي تركني أتجول خلسة في الأرشيف الرائع الخاص بهم. ووفرت لي كارن جرينبرج وفريق العمل في مركز القانون والأمن في كلية القانون بجامعة نيويورك؛ خلفية فكرية أختبر على أساسها العديد من الأفكار التي يبحثها هذا الكتاب.

وقد حالفني الحظ في أن أكون جزءًا من مجتمع إنترنت يطلق عليه الخليج ٢٠٠٠ الذي أنشأه جاري سيك، وهو أستاذ مساعد في الشئون الدولية والمدير السابق لمعهد الشرق الأوسط في جامعة كولومبيا. ولقد أثبتت هذه المجموعة أنها مصدر لا يقدر بثمن للدراسات وللأفكار المشتركة.

يعتمد الصحفيون على بعض حتى عندما يتنافسون، فبالإضافة إلى الزملاء الذين ذكرتهم بالفعل، أود أن أعرب عن شكري لمساعدة بيتر إل. بيرجين محلل شئون الإرهاب في شبكة سي إن إن، وجون بيرنت من هيئة الإذاعة المحلية، وكريس إيشام من شبكة أيه بي سي نيوز الإخبارية، وستيفن فرانكلين من صحيفة شيكاغو تريبيون، وجوناثان ليدجارد من صحيفة ذا إيكونوميست، وفيليب سماكر من مجلة تايم، الذين منحوني ثمرة خبرتهم العظيمة والكثير من اتصالاتهم القيمة؛ إنهم رجال شجعان وأصدقاء أنظر إليهم بعين التقدير والاحترام.

وكان كيرك كجيلدسون، الذي كان في ١١ سبتمبر/أيلول صحفيًّا يعمل في مجلة واترز، تأخر بالصدفة على اجتماع في مركز التجارة العالمي ذلك الصباح. ونظرًا لأنه غرق في سبات عميق في مترو الأنفاق، فقد نجا بحياته ليخبرني قصته التي أصبحت جزءًا من العدد الأسود من مجلة ذا نيويوركر الذي صدر في الرابع والعشرين من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م، والذي أصبح ذائع الصيت. ولقد أسدى لي كيرك خدمة كزميل بحضور حفل تأبين جون أونيل ومقابلة بعض أصدقائه والعاملين معه في تلك المناسبة.

كان ويل هابر عونًا كبيرًا لي كما كانت منى عبد الحليم التي أصبح رأيها مقياسًا يعتد به ومحل ثقة. وكانت جان ماكينروي المحررة المفضلة لدي لسنوات عديدة وأنا أعتمد دائمًا على حكمها على الأمور. وأنا أعتمد اعتمادًا خاصًّا على نورا

twitter @baghdad_library

أنكروم التي ساعدتني في تنظيم الكم الهائل من المعلومات التي جمعتها في أربعة عشر صندوقًا من بطاقات الملاحظات، وقد كان وجودها المبهج إلى جواري يخفف من تلك المهمة التي كانت كئيبة في بعض الأحيان.

وإنني أدين بشكر خاص لستيفن هاريجان، وجريجوري كورتس، وهما من أقرب أصدقائي اللذين قرآ الكتاب وهو لا يزال في صورته الأولى وقدما لي اقتراحات مفيدة للغاية، بل لقد كان ستيف هو الذي اقترح علي تأليف هذا الكتاب في المقام الأول. أما بيتر بيرجن، وراتشل برونسون، وجون كالفيرت، وستيف كول، وماري ديبورا دوران، وتوماس هيجامر، ومايكل رولينس، ومارك سيجمان، ومايكل ويلش، فقد قرءوا أجزاءً من الكتاب أو الكتاب بالكامل وأعطوني ثمرة خبرتهم. أما الأخطاء التي لا تزال في الكتاب فهي مسئوليتي، ولكنها أصبحت أقل بفضل سعة صدر هؤلاء القراء الصبورين.

لقد كانت صديقتي ووكيلة أعمالي ويندي ويل هي من أدارت حملة هذا المشروع، ولحسن الحظ، كانت آن كلوس التي حررت ثلاثة من كتبي السابقة، قد عادت لتعمل معي في هذا الكتاب. وأنا ممتن بشدة لعودة فريقي للعمل معًا مرة أخرى! وممتن لزوجتي روبرتا التي ساندت قراري بتأليف هذا الكتاب، مع أن ذلك كان يعني ابتعادنا معظم الوقت طوال المدة التي شارفت على السنوات الخمس التي استغرقها إخراج هذا الكتاب إلى النور، وكم أنا سعيد الآن بالعودة إلى دياري.

twitter @baghdad_library

مصادر الصور

هذا الجزء منظم طبقًا لرقم الصفحة بهدف التوضيح، ولكن الصور داخل الكتاب لا تحتوي على أرقام صفحات.

إنني أدين بالفضل لهؤلاء لأنهم سمحوا لي بإعادة طباعة الصور:

صفحة ١: صورة سيد قطب مع رئيس كلية ولاية كولورادو: مكتبة متشنر، جامعة شمال كولورادو. والصورة من أعلى لمدينة جريلي بولاية كولورادو: متحف جريلي. صورة محاكمة قطب: جريدة الأهرام

صفحة ٢: صورة الظواهري وهو طفل: عائلة عزام، جريدة الحياة/وكالة الأنباء الفرنسية. صورة الظواهري وهو طالب في كلية الطب: عائلة عزام، وكالة الأنباء الفرنسية/جيتي.

صفحة ٣: صورة السجناء في قاعة المحكمة: وكالة أنباء أسوشيتد برس. صورة الشيخ عمر عبد الرحمن: علاء الدين عبد النبي/رويترز/شركة كوربس. صورة الظواهري في المحاكمة: شركة جيتي.

صفحة ٤: صورة محمد بن لادن مع الأمير طلال في المسجد الحرام: أدين بالفضل للأمير طلال. صورة محمد بن لادن مع الملك فيصل: أدين بالفضل لمجموعة بن لادن السعودية. صورة المسجد الحرام: عباس/ماجنوم للصور الفوتوغرافية. صورة جهيمان العتيبي: أدين بالفضل للسفارة السعودية.

صفحة ٥: صورة جمال خليفة: الصور التي جمعها المؤلف. صورة منزل أسامة بن لادن الأول في جدة: الصور التي جمعها المؤلف. صورة منزل أسامة بن لادن الثاني في جدة: الصور التي جمعها المؤلف.

صفحة ٦: صورة عبد الله عزام: أدين بالفضل لعبد الله أنس. صورة أسامة بن لادن وهو شاب: الوكالة الأوروبية للتصوير/شركة كوربس. صورة عزام ومسعود: أدين بالفضل لعبد الله أنس.

صفحة ٧: صورة الجنرال حامد جول: الصور التي جمعها المؤلف. صورة الأمير تركي: شركة كوربس. صورة الأمير تركي وهو يتوسط بين المجاهدين المتحاربين: أدين بالفضل لجمال خاشقجي.

صفحة ٨: صورة برج التجارة العالمي: شركة جريتي. صورتا رمزي يوسف: أدين بالفضل لمكتب التحقيقات الفيدرالي.

صفحة ٩: صورة حسن الترابي: الصور التي جمعها المؤلف. صورة أسامة بن لادن: أدين بالفضل لسكوت ماكليود Scott MacLeod. صورة مسجد أسامة بن لادن: الصور التي جمعها المؤلف.

صفحة ١٠: صورة أسامة بن لادن وهو يحمل سلاحه: وكالة الأنباء الفرنسية/جيتي. صورة مقاتلي طالبان وهم على متن الدبابة: سيد صلاح الدين/وكالة أنباء رويترز/شركة كوربس.

صحفة ١١: صورة بن لادن والظواهري وهما في مؤتمر صحفي: شبكة سي إن إن بواسطة شركة جيتي. صورة أنقاض قصر دار الأمان: الصور التي جمعها المؤلف.

صفحة ١٢: صورة أنقاض السفارة الأمريكية في نيروبي بكينيا: وكالة أنباء رويترز. صورة أنقاض السفارة الأمريكية في تنزانيا: أدين بالفضل لمكتب التحقيقات الفيدرالي. صورة أنقاض مصنع الأدوية: مجموعة الصور التي جمعها المؤلف.

صفحة ١٣: صورة يو إس إس كول: شركة جيتي. صورة مايكل شوير: وكالة أنباء أسوشيتد برس. صورة ريتشارد كلارك: وكالة أنباء أسوشيتد برس.

صفحة ١٤: صورة فاليري جيمس مع جون أونيل: أدين بالفضل لفاليري جيمس. صورة ماري لين ستيفنز مع جون أونيل: أدين بالفضل لماري لين ستيفنز. صورة آنا ديباتيستا مع جون أونيل: أدين بالفضل لآنا ديباتيستا.

twitter @baghdad_library

صفحة ١٥: صورة جون أونيل مع دانيال كولمان: أدين بالفضل لدانيال كولمان.
صورة أنقاض مخبأ بن لادن في أفغانستان: أدين بالفضل لمكتب التحقيقات الفيدرالي.
صورة والدة جون أونيل وزوجته في الجنازة: وكالة أنباء أسوشيتد برس.

صفحة ١٦: صورة أنقاض مركز التجارة العالمي: هيل جورلاند Hale Gurland / وكالة كونتاكت برس إيميجز.

twitter @baghdad_library

الكتاب في عيون قرائه:

«هناك العشرات من الكتب عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول التي يرويها مؤلفوها بأسلوب معقد، وقد قرأت نصفها تقريبًا قبل أن أشرع في قراءة «البروج المشيدة»، ولكن كتاب لورانس رايت هو المقياس الجديد الذي بت أحتكم إليه. فإن أيًّا من تلك الكتب السابقة لم يدفعني لأن أقول «آه، أعتقد أني أفهم الآن» مرارًا وتكرارًا، مثل هذا الكتاب.»

ستيف وينبرج Steve Weinberg، صحيفة ذا بوسطن جلوب.

«يتمتع بالحميمية بصورة قوية مؤثرة ونظرة تاريخية شاملة جريئة ... وهو تأريخ قصصي يمتلك جميع مقومات الرواية من حيث الأسلوب المباشر والعاطفة القوية ... وهو أيضًا تأريخ يأسر الانتباه للأحداث التي شكلت تنظيم القاعدة والطريق الطويل الملتوي الذي سلكه السيد بن لادن للحرب ضد أمريكا.»

ميتشيكو كاكوتاني Michiko Kakutani، صحيفة ذا نيويورك تايمز.

«إن هذا الكتاب حقًّا سرد متقن مكتوب بأسلوب بارع ... فهذا التركيز الشديد على الشخصية - إلى جانب سرد الأحداث الذي يستند إلى خمس سنوات من العمل الميداني المضني (فقد أجرى مقابلات شخصية مع ٥٦٠ شخصًا) - حقق نجاحًا رائعًا.»

دانيال كرتز-فيلان Daniel Kurtz-Phelan، صحيفة لوس أنجلوس تايمز.

«دراسة متعمقة ... مصاغة بدقة لا تشوبها شائبة.»

بيتر بيرجن Peter Bergen، صحيفة ذا وول ستريت جورنال.

٥٩٢ صفحة

ISBN 978-977-6263-09-3

9 789776 263093

كلمات

http://www.kalimat.org

twitter @baghdad_library